

الرَّسُولُ

"سترى في هذا البحث ، بالدليل والبرهان أنَّ محمداً
رسول الله حقاً ، وأنَّ محمداً أعظم الناس في كل شيء ، وأنَّ
الذين يتخذون غيره قدوة حمقى وناقصون.."

سعید حوى

مقدمة

هذا هو الكتاب الثاني من سلسلة الأصول الثلاثة "الرسول ﷺ" ، وقد استهدفت فيه مع أخيه في السلسلة ما كنت قد ذكرته في مقدمة السلسلة ، وقد حاولت أن أعرض أدلة رسالة رسولنا عليه الصلاة والسلام ، وهو موضوع قد كتبت فيه مئات الآلوف من الصفحات قديماً وحديثاً ، ومع ذلك فقد بقىت المكتبة الإسلامية المعاصرة فارغة من كتاب جامع يتحدث عن مجموع القضايا الكبرى التي تعتبر أعلاماً على رسالته عليه الصلاة والسلام ، وإذا وجد شيء من ذلك في القديم فقد فاته ما قدمته معطيات عصرنا ، وإذا وجد شيء من ذلك حديثاً فقد كان في جانب دون أن يستوعب . فهناك من أبرز صفاته عليه الصلاة والسلام كعلم من أعلام نبوته ، وهناك من تحدث عن المعجزة القرآنية أو المعجزات ، وهناك من تحدث عن البشارات ، وهناك من تحدث عن النبوءات ، هناك من تحدث عن الآثار ، وهناك من جمع بين أكثر من جانب وذلك باختصار ، فكان لا بد من كتاب يسد هذه الثغرة ، وقد حاولت ذلك في هذا الكتاب مستقيداً من جهد الكاتبين في هذه الموضوعات.

وقد جعلت هذا الكتاب في مدخل وخمسة أبواب:

ذكرت في المدخل حاجة الناس إلى الرسل عليه الصلاة والسلام ، والمعالم التي جعلها الله عالمة يُعرفون بها ، وأن هذه العلامات لا تظهر في رسول الله كما تظهر في محمد ﷺ . وكان الباب الأول في صفاته وكمالاته التي لا يلحقه بمجموعها لاحق ، والتي لا تتأتى على هذا الكمال والجمال والجلال والشمول إلاّ من رسول .

وكان الباب الثاني في معجزاته ؛ المعجزة القرآنية والمعجزات الأخرى .

وكان الباب الثالث في نبوءاته التي كان في تتحققها عالمة صدق على أنه لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى .

وكان الباب الرابع في ثمراته التي تشهد أنها ثمرات بنبوة ورسالة .

وكان الباب الخامس في بشارات الرسل السابقين عليه ﷺ ، وانطباق هذه البشارات عليه .

فجاء الكتاب جاماً مختصرًا شاملاً يعمق بإذن الله في قلب المؤمن - هو الكتاب الذي قبله - معاني الشهادتين "أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله" وهي كلمات الإسلام ومفتاح الدخول إلى الجنة .

ولقد أزال الكتاب كثيراً من الشبه والإشكالات وصحح كثيراً من المفاهيم وقضى على أوهام ، فهناك من أبرز شخصية الرسول ﷺ على أنها عبرية فذة وكمال هائل قاطعاً ذلك عن الوحي والرسالة ، فأثبتتنا في هذا الكتاب أنه أكمل خلق الله وهو محل الاصطفاء من الله ، وإنما كان أكمل خلق الله بما آتاه الله من الاستعداد وبما أوحاه إليه من الرسالة ووفقه إليه من كمال الأعمال وجمال الأخلاق . وهذا من حاول أن ينفي معجزاته مما سوى القرآن أو ينفي الإعجاز من القرآن وهناك من حاول أن يجعل المعجزة هي الأصل في حياته ﷺ معطلاً ابتلاءه في عالم الأسباب فجاء الكتاب مصححاً لهذا كله ، وهناك من الكافرين من حاول التشكيك في أفعاله وثمراته فنفي أن تكون ثمار نبوة فجاء هذا الكتاب مصححاً ومسدداً ومفنداً.

فاجتمع بذلك في الكتاب ما يحتاجه كل مسلم ؛ إن لمعرفة رسول الله ﷺ أو لمعرفة أدلة رسالته أو لمعرفة الشبه المعاصرة الرد عليها أو لمعرفة ما يحتاج به وهو يدعو إلى الله وينصر رسوله أو لمعرفة ما يزداد به توقيرًا وتعظيمًا لرسول الله ﷺ ، ولقد طالب الله كل مؤمن أن يؤمن برسول الله ﷺ وينصره ويوقره : {إِنَّا أَرْسَلَنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْزِزُوهُ وَتُوَقَّرُوهُ}. (الفتح : 8 ، 9)

ونسأل الله أن يجعل في هذا الكتاب من النفع العام والخاص ما يجعلنا قائمين بحق رسول الله ﷺ ونسأله أن يتقبل ويفغر الزلل .

مدخل

من بين المخلوقات الحسية التي تعد بالbillions يظهر هذا الإنسان بشكل متميز جداً، وتميزه عن بقية المخلوقات يجعله عالماً وحده ، تتطوّي فيه العوالم ويبيّن بعد ذلك بقية من التفرد .

ونواحي هذا التفرد في الإنسان كثيرة نشير إلى بعضها :

1 - في خلقته : قال تعالى : {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَفْوِيمٍ} ¹ فما من شيء في الإنسان إلا وقد ركب وصور على أحسن مثال وأجمله وأعدله وأكمله ، قارن بين الإنسان وبين أي مخلوق آخر من حيث الخلقة تجد تشابهاً في ما لا بد منه للحي كحي ، ثم ترى بعد ذلك أوجه التمايز . يد الإنسان تمتاز على أي مخلوق آخر ، ولو لا هذا لما كانت حضارات ، وقامة الإنسان وانتصاب جسمه لا يشبه فيه غيره ، وبشرة الإنسان وأعضاؤه كل ذلك فيه تميز ، وهو في الإنسان أكمل وأعدل وأجمل من الظفر إلى الشعر إلى الأنف إلى الأذن إلى الوجه إلى القدم إلى أي شيء .

2 - في علمه : قال تعالى : {وَعَلِمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلُّهَا} ² وقال : {عَلِمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} ³ فالإنسان أعطي ملحة التعلم بشكل لا مثيل له عند غيره . فالmanda لا تعقل أصلاً ، وكذلك النبات ، وعلم الحيوان محصور ضمن حدود طعامه وشرابه وسفاده ، والخطر الذي يتهدّه ، ولا يتعلم شيئاً إلا بصعوبة . أما الإنسان فيعقل ذاته ، ويعقل غيره ، ويركب ويحلل ، يعرف الأشياء ، ولماذا وجدت ، وكيف يستفاد منها ، ويعرف القوانين التي تربط بين الأشياء أو التي تخضع لها الأشياء ، وآثار علم الإنسان واضحة جلية وتميز الإنسان في ذلك واضح جلي .

3 - في إرادته: قال تعالى : {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كُفُورًا} ⁴ إن العلم شيء سلبي ، والذي يجعله إيجابياً هو الإرادة ، وكلما كانت الإحاطة في موضوع أتم كان مجال الاختيار أوسع ، ولما كان الإنسان أكثر علماً فهو أوسع إرادة ، ومجال الإرادات أمامه أكثر وهو

¹ التين : 4 .

² البقرة : 21 .

³ العلق : 5 .

⁴ الإنسان : 2 .

بالتالي يملك أكبر قدر من الإرادة . ولذلك تراه يستطيع أن يتصرف أمام الحادث الواحد بأكثر من أسلوب ، فإذا ظلم قد يعفو أو ينتقم ، وقد يكظم غيظه أو يظهره ، وقد يؤخر الانتقام لتسنح له الفرصة وقد يجبن ، وقد يترفع وقد يسف ، وقد يرد بالمثل وقد يطغى وقد ... مواقف كثيرة أمام الحادث الواحد ، أما الحيوان فله تصرف واحد أمام الحادث الواحد على ضاللة عدد مواقفه ومحدوديتها ... وهكذا فتميز الإنسان في صفة الإرادة واضحة جلي .

4 - في مكانته وإمكاناته : إن مكانة الإنسان في الوجود هي السيادة ، وذلك أن كل شيء مسخر له : {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً} ¹ . {إِلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} ² . {هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا} ³ وإمكانيات الإنسان تبلغ أن تستفيد من طاقات هذا الكون . فقدرة الإنسان هائلة يكفي لمعرفة تميزها على سبيل المثال أن نذكر أن كل الحيوانات لا تستطيع أن تصنع فأساً بينما صنع الإنسان الأقمار الصناعية والقنابل الذرية .

5 - في ملكة البيان عنده : قال تعالى : {إِلَرَّحْمَنُ * عَلَمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَمَ الْبَيَانَ} ⁴ إن الحيوانات كلها لا تخرج من أفواهها إلا أصواتاً مبهمة ، أما الإنسان فإنه يستطيع أن يخرج هذه الأصوات وزيادة على ذلك فإنه يستطيع أن يخرج سبعاً وعشرين حرفاً تتركب منها مليارات الكلمات في كل لغات العالم يتكلم بها الإنسان . فيسخر ويضحك ويبكي ويفسد ويصلاح ويشعر أو ينشر ويبين عن خلجان الخاطر وإشراقة الوجдан ، وقوانين الكون والسماء والأرض ويعني وينشد ، إن تميز الإنسان في ملكة البيان من أبرز خصائصه .

6 - في عقله وإدراكه وخياله وتصوره : إن الحيوان يشتراك مع الإنسان في حواسه ولكن يمتاز عنه إدراكاً وتصوراً وخيالاً بشكل أرقى وأعلى . فالإنسان والحيوان يشاهدان زرقة البحر ولكن شتان بين النظرتين . فزرقة البحر ألم بسببها الإنسان شرعاً ونثراً وعلمًا ومتعة وتأملات وإشارات وأشياء كثيرة ، وتضع السم للذبابة في ماء السكر فتأكل منه وتموت وتتأتي الأخرى والأخرى ويمتن جميعاً ولا يخطر لواحدة منهم أن تتعظ ، ترى كم إنساناً يأكل من طعام مات منه غيره ورأه ..

¹ البقرة : 39

² لقمان : 30

³ هود : 61

⁴ الرحمن : (4 - 1)

7 - في استعداده الأخلاقي : هناك أخلاق عالية وأخلاق سافلة ، أخلاق راقية وأخلاق منحطة ، أخلاق فاضلة وأخلاق مرذولة ، والإنسان عنده استعداد لأن يتندى فيكن أخبث الموجودات أو يَتَعَلَّى فيكون مثل طهر . وعنه استعداد ليكون في أحد حيزي الخير أو الشر أو يخلط بين الجانبين على حين الحيوان بيقى ذا خلق واحد في الغالب ، فالغل والحقد والحسد والغش الكبير والرياء والغضب والطعم والبذخ والبطر والفخر والخيال والصلف والمداهنة والعجب والمكر والخيانة والمخادعة والقوة والفظاظة والجفاء والطيش وقلة الحياء وقلة الرحمة ، ثم تأتي أضداد هذه المعاني كلها وأمثال هذه كثير ، كل ذلك مما يمكن أن يتخلق به الإنسان ومن ثم كان استعداد الإنسان الأخلاقي سمة بارزة تميزه عن أي مخلوق آخر .

والسؤال الآن هو : ماذا يترتب على الإنسان نتيجة لهذا التفرد ؟

إن القاعدة : "على قدر ما تعطى تطالب ضمن استطاعتك" هي قاعدة هذا الموضوع ، فإن الله جلت حكمته الذي سخر الكون للإنسان قد رتب على ذلك أن جعل الإنسان هو المسؤول الوحيد أمامه من هذه المخلوقات المرئية كلها فقال : {أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًّى} ^١ وقال : {أَفَحَسِبُتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبْدًا وَأَنْكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ} ^٢ وقال : {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلُوهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا إِلَيْنَا إِنَّهُ كَانَ ظَلَّومًا جَهُولًا} ^٣ فالله عز وجل جعل الإنسان بهذا التفرد خليفة في الأرض فقال : {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً} ^٤ وقال : {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ} ^٥ والاستخلاف يعني ما يلي :

1. إن المستخلف في الملك ليس مالكاً أصيلاً .
2. أن عليه أن يتصرف حسب أمر المستخلف لا حسب أمره هو .
3. ألا يشق عصا الطاعة ويتجاوز الحدود المقررة له .
4. أن يفعل ما يريد المستخلف لا ما يريد هو .

^١ القيامة : 36 .

^٢ المؤمنون : 15 .

^٣ الأحزاب : 72 .

^٤ البقرة: 30 .

^٥ الأنعام : 165 .

وهذا كله يعني أن الإنسان ليس حرًا بل هو عبد الله الذي أقامه هذا المقام في الوجود قال تعالى : {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّا وَالإِنْسَا إِلَّا لِيَعْبُدُونَ} ^١ فسيادة الإنسان على الكون تأتي في مقابل عبوديته لله . وما لم يعط الإنسان عبوديته لله يكون قد أقام نفسه مقام الجماد والنبات والحيوان غير المسؤولين . لذلك نرى القرآن عقد الح على عدم إنسانية من لا يلتزم بطاعة الله فقال تعالى : {وَإِذَا رَأَيْتُهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا شَمَعْ لِقُولِهِمْ كَأَهْمُ حُشْبُ مُسَدَّدَةَ} ^٢ وقال : {ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ فَسْوَةَ} ^٣ وقال : {إِنَّ شَرَ الدَّوَابَ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} ^٤ وقال : {إِنَّ شَرَ الدَّوَابَ عِنْدَ اللَّهِ الْصُّمُ الْبُكُمُ الْذِينَ لَا يَعْقُلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَا سَمَعُهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرَضُونَ} ^٥ وقال : {لِهِمْ قُلُوبٌ لَا يَقْهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبَصِّرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامُ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ} ^٦ وقال : {وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَنْمَعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَوْى لَهُمْ} ^٧ وقال : {مَتَّلَ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَتَّلَ الْحِمَارَ يَحْمِلُ اسْفَارًا} ^٨ وقال : {كَمَتَّلَ الْكَلْبُ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَرُكْهُ يَلْهَثُ} ^٩ . إن القيام بأمر الله هو وحده الذي يطلق طاقات الإنسان كلها في طريقها الصاعد نحو الكمال ، وترك أمر الله يعني إطلاق الطاقات نحو الحيوانية الحرية .

* * * *

ولا يقوم الإنسان بأمر الله إلا إذا عرفه حق معرفته وعرف ما يأمر به ، ولا يتم للإنسان هذا إلا بمعرفة الرسول الذي يصطفيه الله للقيام بهذه المهمة ، ذلك أن الله لم تقتض حكمته أن يتصل بكل إنسان على حدة ليبلغه أمره ، بل اقتضت حكمته أن يصطفى من الناس رسولًا يقوم بهذا نيابة عنه {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ} ^{١٠} وفي ذلك حكم منها:

^١ الذاريات : ٥٦ .

^٢ المنافقون : ٤ .

^٣ البقرة : ٧٤ .

^٤ الأنفال : ٥٥ .

^٥ الأنفال : ٢٢ ، ٢٣ .

^٦ الأعراف : ١٧٩ .

^٧ محمد : ١٢ .

^٨ الجمعة : ٥ .

^٩ الأعراف : ١٧٦ .

^{١٠} الحج : ٧٥ .

1. إن الاتصال بعالم الغيب يحتاج لأهلية خاصة واستعداد عظيم ، ولم يعط كل إنسان مثل هذا {الله أعلم حيث يجعل رسالته} ¹ إذ أن حكمة الله اقتضت لا تجعل الناس درجة واحدة لأنه لا تستقيم الحياة البشرية بذلك . فمن للمهن ، ومن للحرف ، ومن لقضاء حاجات الناس ، ومن للخدمة ، ومن للسيادة ومن للتبعية ، إذا كان الناس على نسق واحد ، قال تعالى : {ورَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَخْذَدْ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيَاً} ² وانسجاما مع هذا القانون العام اصطفى الله بشراً ليكونوا رسلاً ، وقال - عز من قائل : {وَقَالُوا لَوْلَا نَزَّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبَيْنَ عَظِيمٌ * أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ تَحْنُ فَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ...} ³ .

2. إن امتحان الإنسان واختباره هدف أساسي من أهداف التكليف {الذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوْكُمْ أَيْكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً} ⁴ وامتحان الإنسان بالإنسان هدف آخر {وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا} ⁵ ، {وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنْ أَللَّهُ عَلَيْهِمْ مَنْ بَيْنَ أَلْيَسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ} ⁶ وانسجاما مع هذا جرت سنة الله أن يختار إنساناً رسولاً ليبني الآخرين به . إنه الاختبار العظيم الذي من نجح فيه تخلص من رجس الحسد ، وشهوة الاستعلاء ، وتمحص خالصاً للحق محبأ له . ولأهمية ذلك نلاحظ أنه حتى الرسل امتحنوا بهذا المعنى {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّنَ لِمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لِتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتُتَصْرِّفُنَّ قَالَ أَفَرَرُتُمْ وَأَخَذْنَمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَفَرَرْنَا} ⁷ .

3. ومن أهم ما امتحن به الإنسان تكليفه بالإيمان بالغيب الذي قام الدليل على صدق المخبر به وهذا لا يتم إلا إذا كان بين الله وخلقه واسطة هو الرسول ، هذا مع ملاحظة أن الرسل ممتحنون بشيء من هذا {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ} ⁸ {قَالَ رَبِّ أَرْنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي} ⁹ وإن كانت حكمة الله

¹ الأنعام : 124 .

² الزخرف : 32 .

³ الزخرف : 32 ، 31 .

⁴ الملك : 2 .

⁵ الفرقان : 20 .

⁶ الأنعام : 53 .

⁷آل عمران : 81 .

⁸ الشورى : 51 .

⁹ الأعراف : 143 .

أن يصطفى رساً من البشر يعرفهم على ذاته ويعرفهم على ما يريد منهم ومن خلقه ، ويأمرهم أن يعرفوا الناس عليه وعلى تكاليفه ؛ لتحقق بذلك إنسانيتهم ، ولتظهر بذلك أنفسهم ، ولعيشوا محقدين ما من أجله خلقو .

وهؤلاء الرسل يمثلون ذروة الكمال البشري ، لأنهم يمثلون ذروة العبودية لله ، ويقومون بأضخم مهمة في الوجود وهي مهمة إرشاد الإنسان إلى طريقه الصحيح ، أي إلى الكمال ، بتخلصه من أدران نفسه وكل مؤثر حيواني أو مادي أو غريب عن فطرتها ، حتى تصبح ربانية {مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُوتِّيَ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُوئُوا عِبَادًا لِّي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكُنْ كُوئُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَذَرُّسُونَ} ¹ {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مُّنْكِمْ يَأْتِيُكُمْ عَلَيْكُمْ وَيُزَكِّيُكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيَعْلَمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ} ² {إِنْ يَسْتَكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقْرَبُونَ وَمَنْ يَسْتَكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكِفْ فَسَبَّحُوهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا} ³

* * * *

وبعد : كيف نعرف نحن بقية البشر رسول الله ؟ إن معرفة الرسول واتباعه يترب عليها هدايتها واستحقاقها ثواب الله ، بينما جهلي وكفرني به حال وجوده ودعوته لي يترب عليها بقائي على ضلالي واستحقاقها عذاب الله في الدنيا والآخرة ، لذلك كان مهماً جداً أن أعرف كيف أهدي إلى الرسول ، وبدون معرفة هذا قد يلتبس علي الأمر فأعتبر غير الرسول رسولًا فأضل أو أجهل الرسول فأعذب {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ تَبَعَّثَ رَسُولاً} ⁴ .

لذلك فقد جعل الله للرسل علامات يعرفون بها . هذه العلامات هي :

1- الصفات الشخصية لصاحب الرسالة : فليس من المعقول أن يكون الرسول كذاباً إذ أن الكذاب لا يصدق في الأمور العادلة فضلاً عن مثل هذه القضية الكبرى ، فالأخلاقية العالمية سمة لا بد منها لإنسان مرسل من عند الله ليطهر البشر من كل شر ويدلهم على كل خير .

¹ آل عمران : 79 .

² البقرة : 151 .

³ النساء : 172 .

⁴ الإسراء : 15 .

فإذا ما كان شريراً تظهر عليه صفات الأشرار فأني يجعله الله محل رسالته ، كما أنه ليس من المعقول أن يكون أبلها أو غير ذكي إذ المغفل أو عادي الذكاء لا يسلم له الناس عقولهم ولا يستطيع هو أن يقنع هذه العقول ، ومهمة الرسول لا تقوم إلا إذا كان أكبر الناس عقلاً وفطنة كي يستطيع إقامة الحجة على الناس ، كما أنه ليس من المعقول أن يدعوا الرسول إلى شيء ويكون سلوكه مخالفًا لما إليه يدعو . فهو يدعو إلى طاعة الله فليس من المعقول أن يعصيه ، ويدعو إلى ترك معصيته فلا يعقل ألا يطيعه ، فينبغي إذن أن يكون مظهراً كاملاً للطاعة وترك المعصية . كما أنه ليس من المعقول أن يرسل رسولولاً ولا تكون عنده إمكانية تبليغ الرسالة المكلف بها إلى أصحابها . وبدون هذا لا تقوم الحجة على الناس وهذا يحتاج إلى شخصية فذة عظيمة . إذ دعوة الرسل ليس كغيرها من الدعوات التي ترضي شهوات البشر ، بل هي دعوة مهمتها كبح جماح النفس البشرية ، وعلى هذا فأمام عملية التبليغ عقبات ومخاطر وصعوبات واضطهاد لا يصبر عليها إلا صادق مع الله . ثم الرسول هو قدوة البشر في طريقهم إلى الله ، فلا بد أن يكون أرقى البشر في كل جانب من جوانب الحياة وعنه دائمًا الحل الأمثل للبشر .

2- المعجزات : والمعجزة هي الأمر الخارق للعادة الذي يظهره الله على يد الرسول أو النبي . وهي علامة على الرسالة لأنها تخرج عن عالم الأسباب كلها ، بحيث يعجز الإنسان كإنسان أن يأتي بها وذلك أن قدرة الإنسان محدودة ضمن قوانين الكون ، وقدرة الله وحدها هي المطلقة ، فكون الرسول تظهر معه آثار القدرة المطلقة فذلك دليل على أن له صلة مع الله . ويخلط الناس عادة بين المعجزة التي هي علامة رسالة الرسول وبين السحر وأثار الرياضة الروحية . والذي نحب أن نقرره هنا هو أن السحر والشعوذة نوعان من العلوم التي تخضع لقوانين هذا الكون وإن كانوا مجهولين إلا للقليل من الناس ولكن أي إنسان تعلم علم السحر يستطيع أن يفعل ما يفعله الساحر وكذلك فيما يتعلق بأثار الرياضة الروحية ، فلعالم الروح قوانينه التي من اكتشافها قد تظهر معه بعض آثارها ولكنها ما خرجت عن كونها من الأسباب العادية إذ أن أي إنسان يستطيع أن يفعل ما يفعله الرائضون إذا سلك نفس طريقهم . أما المعجزة فلا علاقة لها بعالم الأسباب أصلاً ، فليست كأثر عن علم أو تجربة أو قانون ، إذ أن من شروط المعجزة ألا يستطيع أحد من البشر أن يأتي بها .

إن المعجزة تكون بقدرة الله الذي يقول للشيء كن فيكون . إن عيسى عليه السلام كان ييرئ الأبرص ، وقد يشفى البرص على يد طبيب ولكن الفارق بين الحالتين أن ذلك بقدرة الله

وهذا بمعرفة القوانين التي بثها الله بالكون . إن الإنسان يستطيع بذلك وإمكاناته أن يستخرج الماء من أعماق الأرض أو أن يركب بالسوائل المعروفة من الأوكسجين والهيدروجين ماء ، ولكن الفارق بين الماء المستخرج والمصنوع ، وبين الماء الذي خرج بضرب عصا موسى أو نبع حيث وضع محمد μ أصابعه كالفارق بين صنع الله وصنع وربط القانون بالقانون ، وهكذا استطاع الإنسان أن يجاوز سطح الأرض ، ويسيير في الفضاء ، ولكن الفارق بين هذا وبين عروج محمد رسول الله μ إلى السماء كالفارقبني كل ما صنع الله وصنع المخلوق ، العروج كان بكلمة الله ، وصعود الإنسان إلى هذا الفضاء كان بالارتفاع بالأسباب . فالمعجزة إذن لا دخل لأي سبب كوني فيها سواء كان روحياً أو مادياً أو أي شيء آخر . ومن هنا كانت ذات دلالة كاملة على أن صاحبها رسول الله .

3- النبوءات : النبوءة هي الإخبار عن المستقبل ، وكون وقوعها دليلاً على صحة دعوى الرسالة يعود إلى أن علم الإنسان محدود بالزمان الحاضر والماضي ومحظوظ بـ عن المستقبل ، والله وحده ذو العلم المحيط بكل زمان ومكان ، وما كان ويكون ، فكون الرسول يخبر بما سيكُون ويقع كما أخبر ، فذلك دليل على أن له صلة بالله ، وكما أن المعجزة تخرج عن عالم الأسباب لتصلح دليلاً ، فكذلك هنا ، والمقصود بالإخبار عن الغيب ما ليس له علاقة بنتائج تترتب على مقدمات ، أو توقعات دلت عليها طوالع ، فهذا يستطيعه كثير من الناس بما أوتوا من حكمة وحنكة وخبرة ومعرفة وتجربة .

٤- الثمرات : إن ثمرات الرسول تدل عليه ابتداءً من انسجام دعوته مع قواعد الفطرة ، إلى الأخلاقية العظيمة التي تظهر على أتباعه ، كأن يحكم الحق القوة ، ويظهر الوفاء على الغدر وإن كان في الغدر منفعة ، وكأن تصبح نفس الإنسان منضبطة انضباطاً كاملاً بالخير ، فيؤدي الحقوق ويفهم الواجبات ويعيش الله وبإله عادلاً في دنياه حريراً على آخرته ، تجرت طاقاته كلها ، وسارت في طريقها الصحيح ، فنمت ملكاته العليا وانضبطة ملكاته الدنيا جميعاً . إن ثمرات دعوة الرسول تختلف اختلافاً جوهرياً عن ثمرات أي دعوة أخرى حتى لتكاد الفطرة تحس بحدتها إذا رأت ثمرات النبوة أن سبب هذه الثمرات لا بد أن يكون وراءه عنابة .. رياضية خاصة ..

5- البشارات : إن الرسل كلهم رسل الله الواحد الأحد ، وقد يأمر الله الرسول السابق أن يبشر برسول لاحق ف تكون نبوءة للأول وتمهيداً للثاني . وليس هذا شرطاً في كل رسالة ولكن

متوقع وجوده ومتتأكد حصوله ، وقد يذكر في البشارات اسم الرسول اللاحق أو صفاته أو كليهما والبشرة يستأنس بها إذ وجدت بقية العلامات .

* * * *

قدمنا هذا الكلام بين يدي الأبواب الخمسة التي لها علاقة بهذه القضايا الخمس والتي نتحدث فيها عن رسالة النبي العربي محمد ﷺ وثبوتها . هذه الرسالة التي ختم الله بها النبوة {وَلَكُنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّنَ} ^١ ونسخ بها كل شريعة سابقة ، وكلف الإنسانية كلها بها ، بحيث لا يستحق أحد رحمته إلا إذا التزم بها ، ومن لم يلتزم بها استحق عذابه . وتم بها انتقال الرسالة من طور القومية إلى طور الإنسانية الشاملة ، إذ أن رسول الله قبل محمد ﷺ كانوا يبعثون واحداً منهم إلى قومه خاصة وبعث محمد ﷺ إلى الناس عامة ، فأصبحت الإنسانية كلها ببعثته ملزماً بشريعة واحدة هي شريعته ، وليس أمام أحد من البشر خيار سوى سلوك الطريق الذي هدى إليه ، وإنما كان ذلك من الصالحين . ولما كانت هذه الرسالة لها مثل هذه الأهمية . جعل الله عز وجل فيها ومعها واصحات الأدلة ومشرفات البراهين الكثير الكبير بحيث لا يبقى معه حجة لمحاج أو شبهة لأحد .

هذه الأبواب الخمسة ستتجدد إن شاء الله في كل واحد منها ما يؤكد لك هذا المعنى بشكله الكامل بحيث لا تشک معه أن محمداً رسول الله وأنه لا عذر لأحد كفر به أو أعرض عن شريعته بعد أن بلغته دعوته .

وسنعرض الأبواب الخمسة على الترتيب التالي :

الباب الأول : الصفات .

الباب الثاني : المعجزات .

الباب الثالث : النبوءات .

الباب الرابع : الثمرات .

الباب الخامس : البشارات .

^١ الأحزاب : 40 .

وبذلك ينتهي المبحث الثاني من مباحث سلسلة الأصول الثلاثة ليبدأ المبحث الثالث
وهو الإسلام دين الله وشرعيته التي بلغنا إياها رسوله ﷺ . وبذلك نكون قد عرفنا المكلّف وهو
الله في المبحث الأول . والتوكيل وهو الإسلام في المبحث الثالث ، ومبلغ التوكيل والقدوة فيه
وهو الرسول في المبحث الثاني ، وهو هذا فإلى الباب الأول من هذا المبحث .

* * *

الباب الأول

الصفات

الصّفات

بدأنا بهذا الباب بقصد التعريف على جوانب في شخصية الرسول ﷺ كي يكون بمثابة مفتاح للأبواب الأخرى وقد سرنا فيه على الترتيب التالي :

1 - مقدمة : نستعرض فيها صفات الرسول الجسمية ليتضح أن تركيبه الجسمى متناسب مع الرسالة التي كلف بها .

2 - الفصل الأول : ويبحث في الصفات الأساسية للرسل وكيف كان للرسول ﷺ منها أعلى ما يتصور في حق بشر .

3 - الفصل الثاني : ويبحث في كون الرسول ﷺ هو القدوة العليا للبشر في كل جانب من جوانب الحياة ، لأنه كان في كل جانب في الذروة العليا من الكمال .

وجعلنا المقدمة تحت عنوان : تكوين الرسول الجسمى .

وجعلنا الفصل الأول تحت عنوان : الصفات الأساسية .

وجعلنا الفصل الثاني تحت عنوان : القدوة العليا .

ونأمل ألا ننتهي من هذا الباب إلا وقد اتضح لطالب الحق أن محمداً رسول الله حقاً ﷺ .

* * *

المقدمة

تكوينُ الرسول ﷺ الجسمي

إن أول ما يقع بصر الإنسان على رسول الله ﷺ يشعر أنه أمام جمال مدهش لا مثيل له ، ومظهر يوحى بتقة مطلقة لا حد لها ، وهذا ما انعقد عليه إجماع من شاهدوه عليه الصلاة والسلام :

أخرج الدارمي والبيهقي عن جابر بن سمرة قال : "رأيت النبي ﷺ في ليلة أضحيان - أي : مقمرة مسفة - فجعلت أنظر إليه وإلى القمر فلها كان أحسن في عيني من القمر" .

وأخرج الترمذى والبيهقى عن أبي هريرة قال : "ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله ﷺ كأن الشمس تجري في وجهه ، وما رأيت أحداً أسرع في مشيه منه كأن الأرض تطوى له إنا لنجهد وإنه غير مكترت" .

وأخرج الشیخان عن البراء قال : "كان رسول الله ﷺ بعيد ما بين المنكبين ، يبلغ شعره شحمة أذنيه ، ما رأيت شيئاً أحسن منه" .

وأخرج مسلم عن جاب ربن سمرة في وصف وجه رسول الله ﷺ قال : "بل مثل الشمس والقمر مستدير" .

وأخرج الشیخان عن البراء قال : "كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهاً وأحسنهم خلقاً ، ليس بالطويل الذاهب ولا بالقصير" .

وأخرج مسلم عن أبي الطفیل أنه قيل له صفت لنا رسول الله ﷺ قال : "كان أبيض مليح الوجه" .

وأخرج الدارمي والبيهقي والطبراني وأبو نعيم عن أبي عبيدة قال : قلت للربيع بنت معوذ : صفي لي رسول الله ﷺ قالت : "لو رأيته قلت الشمس طالعة" .

وأخرج البخاري عن أبي هريرة قال : " كان رسول الله ﷺ ضخم القدمين حسن الوجه لم أر بعده مثله " .

وأخرج أبو موسى المدیني في كتاب الصحابة عن أمد بن أبد الحضرمي قال : " رأيت رسول الله ﷺ فما رأيت قبله ولا بعده مثله " .

وأخرج الدارمي عن ابن عمر قال : " ما رأيت أشجع ولا أجود ولا أضوا من رسول الله ﷺ " .

وأخرج أحمد والبيهقي عن محرش الكعببي قال : " اعتمر النبي ﷺ من الجعرانة ليلاً فنظرت إلى ظهره كأنه سبيكة فضة " .

ومن شعر عمه أبي طالب فيه :
ثمال اليتامي عصمة للأرماء
وابيض يستنقى الغمام بوجهه

وأخرج عبد الله بن الإمام أحمد والبيهقي عن علي قال : " كان النبي ﷺ ليس بالذاهب طولاً ، وفوق الربعة إذا جاء مع القوم غمرهم ، أبيض ضخم الهامة - أي : الرأس - أغرا بلج أهدب الأسفار - أي : طويل شعر العين أسوده - كان العرق في وجهه المؤلئ ، لم أر قبله ولا بعده مثله " .

ومن وصف هند بن أبي هالة له : " كان رسول الله ﷺ فخماً مفخماً ، يتلاؤ وجهه تلاؤ القمر ليلة البدر ... عظيم الهامة ، رجل الشعر ... أزهراً اللون ، واسعاً الجبين ، أزرجاً الحواجب سوائغ في غير قرن ، بينهما عرق يدره الغضب (الحاجب الأزرق المقوس الطويل الوافر الشعر) أقنى العرنيين (العرنين الأنف أو ما صلب منه وقلنا طول الأنف ودقته أربنته واحد يداب وسطه) له نور يعلوه ، يحسبه من لم يتأمله أسم (الأسم الطويل قصبة الأنف) كث اللحية ، أدعج (الدمع شدة سواد العين) سهل الخدين ، ضليع الفم ، أشتب ، مفلج الأسنان (أي لأسنانه رونق وغير متراكبة) دقيق المسربة (أي خفيف شعر ما فوق السرة) كان عنقه جيد دمية في صفاء ، معتدل الخلق ، بادن متماساك سواء البطن والصدر ، عريض الصدر بعيد ما بين المنكبين ... أنور المتجرد ، طويل الزنددين ، رحب الراحة ... شتن الكفين والقدمين ، سابل الأطراف (أي طويل الأصابع) خمسان الأخمصين .. ذريع المشية

إذا مشى كأنما ينحط من صبب ، وإذا التفت التفت جميعاً ، خافض الطرف نظره إلى الأرض أكثر من نظره إلى السماء

وكان إذا مس أحداً أحس بطمأنينة عجيبة وروح عجيب :

وأخرج أحمد عن سعد بن أبي وقاص قال : " اشتكيت بمكة فدخل علي رسول الله يعودني ، فوضع يده على جبتي فمسح وجهي وصدرني وبطني ، فما زلت يخلي إلي أنني أجد يده على كبدتي حتى الساعة " .

وأخرج مسلم عن جابر بن سمرة قال : " مسح رسول الله خدي فوجدت ليده برداً وريحاً كأنما أخرجهما من جونة عطار " . وأخرج الشیخان عن أنس قال : " ما مسست حريراً ولا ديباجاً ألين من كف رسول الله ﷺ ولا شممت مسكاً ولا عنبراً أطيب من ريح رسول الله ﷺ .

وكان منظره يوحى لمن يراه بأنه أمامنبي :

أخرج الترمذی عن عبد الله بن سلام قال : " لما قدم النبي ﷺ المدينة جئته لأنظر إليه فلما استبنت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب " .

وعن أبي رمثة التميمي قال : " أتيت النبي ﷺ ومعي ابن لي فرأيته فلما رأيته قلت هذانبي الله " .

ويقول عبد الله بن رواحة في وصفه :

لو لم تكن فيه آيات مبينة
لكان منظره ينبع بالخبر

هذه بعض آثار مما ورد وصف تكوينه الجسمى نقلناها بين يدي صفاته وكمالاته
الخلقية العظيمة لتتضاح لك شخصيته من جميع جوانبها عليه الصلاة والسلام .

الفصل الأول

الصفات الأساسية

إنه لا بد لكل رسول الله أن يكون متصفًا بصفات أساسية أربع حتى يكون أهلاً للرسالة . هذه الصفات الأربع هي :

1 - الصدق المطلق الذي لا ينقض في كل حال ، بحيث لو امتحن كل قول له لكان مطابقًا للواقع إذا وعد أو عاهد أو جَدَ أو داعب أو أخبر أو تنبأ . وإذا انتقضت هذه الصفة أي نقض ، فإن دعوى الرسالة تنتقض من أساسها ؛ لأن الناس لا يتقون برسول غير صادق والرسول الصادق لا تجد في جزء من أجزاء كلامه شيئاً من الباطل في أي حال من الأحوال.

2 - الالتزام الكامل بما يدعو إليه نيابة عن الله ؛ إذ مهمة الرسول تبلغ الناس ما كلفهم به الله ، فإذا لم يقم الرسول نفسه بهذه التكاليف دل ذلك على عدم تفاعله مع التكاليف وهذا دليل كذبه في دعوى الرسالة ؛ إذ الرسول الذي يتصل به الله أعر فبجلال الله وبالتالي لا يعصي له أمراً ؛ لأن عصيان أمر الله خيانة ، وغير الأمناء ليسوا أهلاً لحمل رسالة الله .

3 - التبليغ الكامل المستمر لمضمون الرسالة ، وعدم المبالغة معه بسخط الناس أو تعذيبهم أو إيذائهم أو كيدهم أو مؤامراتهم أو إرجادهم ، والاستقامة على أمر الله وعدم الانحراف عنه ، مهما كانت المغريات والاستمرار على ذلك ؛ إذ بدون التبليغ لا تظهر الرسالة ، وبدون الاستمرار عليه والصبر لا تستقر ، والخضوع لضغط الناس أو لإغرائهم دليل كذب دعوى البلاغ عن الله . إذ لا يبلغ رسالة الله إلا من رغب بالله عن غيره ، وكان الله وحده هو العظيم عنده ، ولا يبالي بغير رضاه .

4 - العقل العظيم إذ لا يسلم الناس ولا يتبعون إنساناً إلا إذا كان أرجحهم عقلاً ، ليطمئنا إلى أنه لا يسير بهم في الطريق الخطأ كما أنه بدون العقل العظيم لا يستطيع صاحب الرسالة أن يقنع الآخرين بالحق الذي معه ، وخاصة أصحاب المدارك الواسعة والعقول الكبيرة ، ولا يستطيع أن يرد هجمات المبطلين والمتكبرين والمنحرفين والمنتقعين بالانحراف

. فلا بد أن يكون الرسول أذكي الخلق وأفطنهم وأعقلهم وأحكمهم وأكملهم مدارك كي تقوم به الحجة .

فإذا اجتمعت هذه الصفات الأربع لإنسان يذكر أنه رسول الله مع بقية العلامات التي يعرف بها الرسول دون وجود مانع يحيل الدعوى ، كان ذلك برهاناً دليلاً على صحة الدعوى ؛ إذ لا يوجد مبرر لتكذيب الصادق ، ولا يوجد تعليل لحرارة الالتزام غير التسليم ، وعدم الانصراف عن التبليغ مع توافر الانصراف لا تعلل إلا بالإخلاص للدعوة وصاحبها ، ودعوة حجتها معها ، وصاحبها قادر على إقامة الحجة في أي جانب من جوانبها فيها دليل حقيقتها .

وسنرى في هذا الفصل أن الرسول ﷺ كان المثل الأعلى في كل صفة من هذه الصفات بحيث لا تستطيع أن تدرس واحدة منها عنده إلا وستلزم أن صاحبها رسول الله حقاً . وسندرس هذه الصفات على الترتيب المذكور هنا فنبدأ بصفة الصدق عنده ﷺ .

* * *

١ - صدقه عليه الصلاة والسلام

وطريقتنا في استعراض هذه الصفة أن نأتي بالشهادات عليها وهذه الشهادات ثلاثة :

- أ - شهادة الخصوم .
- ب - شهادة الأتباع .
- ج - شهادة الواقع . وشهادة الواقع تتمثل في أربع : في الإخبار ، وفي الوعد والعهد ، وفي المزح والمداعبة ، وفي النبوءات .

أ. شهادة الخصوم :

وشهادة الخصوم في هذا الباب لها وزنها الكبير ، إذ ت ذلك على مبلغ الثقة التي كان يتمتع بها رسول الله ﷺ عند الجميع ، ولكن بعض الناس استغرب واستكتر فأنكر دون وجود مبرر لهذا الإنكار وهذه نصوص تؤكد لك هذا الذي قلناه :

أخرج البيهقي عن المغيرة بن شعبة قال : " إن أول يوم عرفت فيه رسول الله ﷺ أنني أمشي أنا وأبو جهل في بعض أزقة مكة إذ لقينا رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ لأبي جهل : يا أبا الحكم هلم إلى الله ورسوله ، أدعوك إلى الله . فقال أبو جهل : يا محمد هل أنت منته عن سب آلهتنا ؟ هل تريد إلا أن نشهد أنك قد بلّغت ؟ فنحن نشهد أن قد بلّغت ، فوالله لو أنني أعلم أن ما تقو لحق لاتبعتك . فانصرف رسول الله ﷺ ، وأقبل على فقال : والله إني لأعلم أن ما يقول حق ولكن يمنعني شيء . أنبني قصي قالوا : فيما الحجابة . قلنا : نعم . ثم قالوا : فيما السقاية . قلنا : نعم . ثم قالوا : فيما الندوة . فقلنا : نعم . ثم قالوا : فيما اللواء . فقلنا : نعم ، ثم أطعموا وأطعمنا ، حتى إذا تحاكيت الركب قالوا : منا نبي . والله لا أفعل " وأخرجه ابن أبي شيبة بنحوه .

وأخرج الترمذى عن علي : " أن أبا جهل قال للنبي ﷺ : إنا لا نكذب ولكن نكذب مما جئت به . فأنزل الله تعالى : {فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ} ^١ " .

وأخرج ابن عساكر عن معاوية - رضي الله عنه - قال : "خرج أبو سفيان إلى بادية له مردفاً هنداً ، وخرجت أسير أمامهما وأنا غلام على حماره لي ، غذ سمعنا رسول الله ﷺ ، فقال أبو سفيان : انزل يا معاوية حتى يركب محمد . فنزلت عن الحماره وركبها رسول الله ﷺ ، فسار أمامنا هنيهة ، ثم التفت إلينا فقال : يا أبا سفيان بن حرب ويما هند بنت عتبة ! والله لنموت ثم لنبعث ثم ليدخلنَّ المحسنُ الجنة والمسيءُ النار ، وأنا أقول لكم بحق ، وإنكم لأول من أنذرتم ثم قرأ رسول الله ﷺ {حَمْ * تَزَبِلُ مِنَ الْرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ...} ... حتى بلغ {فَالَّذَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ} ¹ قال له أبو سفيان : أفرغت يا محمد ؟ قال : نعم . ونزل رسول الله ﷺ عن الحماره وركبتها ، وأقبلت هند على أبي سفيان : ألهذا الساحر أنزلت ابني ؟ قال : لا والله ما هو ساحر ولا كذاب " وأخرجه الطبراني أيضاً .

وروى البخاري ومسلم قصة أبي سفيان عند هرقل - كما حدث بها أبو سفيان ابن عباس - ومنها سؤال هرقل لأبي سفيان : "قال : فهل كنتم تتهمنه بالكذب قبل أن يقول ما قال . قلت : لا " وفي آخر القصة يقول هرقل لأبي سفيان : " وسألتك هل كنت تتهمنه قبل أن يقول ما قال ، فزعمت أن لا ، فعرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ويكتبه على الله تعالى " .

وأخرج الشیخان الترمذی عن ابن عباس - رضي الله عنهم - قال : "لما نزلت {وَأَنْزَرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبَيْنَ} ² صعد رسول الله ﷺ على الصفا فجعل ينادي يا بني فهر يا بني عدي ليطون قريش حتى اجتمعوا فقال : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي ؟ قالوا : نعم ما جربنا عليك إلا صدقًا . قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد . قال أبو لهب : تبا لك يا محمد ألهذا جمعتنا فنزلت : {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ} ³ .

من هذه النصوص يتبيّن لك أن الثقة بصدق محمد ﷺ كانت متوفّرة ولم يكن هذا الموضوع فيه شك أبداً وهذا الذي يعلّل لنا :

1- ظاهرة الإيمان به من قبل من حاربوه واحداً فواحداً طوعاً لا إكراهاً أمثال خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعمر بن الخطاب ... لذلك لأنهم ما كانوا يشكون في أن

¹ فصلت : 11 - 1 .

² الشعراء : 214 .

³ المسد : 1 .

محمدًا صادق ، ولكن فاجأهم بشيء لم يسمعوا به هم ولا آباؤهم فأنكروه ، حتى إذا ذهب هول المفاجأة وحكموا عقولهم النقى صدق الفكر بالثقة الأساسية بشخص محمد فتولد عن ذلك إيمان .

2- ظاهرة الإخلاص له بعد الإيمان . فبعضهم لم يؤمن إلا آخرًا بعد أن غالب كبقايا قريش فإنهم أخيراً غلبو للإسلام ، وكان يمنعهم من ذلك ثارات وأحقاد وشبهات وشهوات ، حتى إذا دخلوا فيه تسلیماً للأمر الواقع وإذا بهم مخلصون لرسول الله ﷺ كأتم ما يكون الإخلاص ، ومتقانون في الإسلام بعد أن زالت عن أعينهم غشاوات ، من بعدها تبينوا أن محمدًا هو الأخ الكريم والابن الكريم فكانت معرفتهم به وثقتهم بشخصيته أساساً لإخلاصهم في طريقهم الجديد الذي ساروا فيه بعد ذلك فرحين .

وبعد هذه شهادة خصوم ، بعضهم أسلم بعد خصومة شديدة ، وبعضهم مات على كفره ولكن الجميع حتى في أشد حالات الخصومة كانوا مؤمنين أن محمدًا صادق.

* * * *

ب - شهادة الأتباع :

ونقدم لشهادة الأتباع بما يلي :

1- أن رسول الله ﷺ كان دائم الخلطة لأصحابه في طعامهم وشرابهم وسفرهم وصلاتهم ومحالسهم ، وهو عليه الصلاة والسلام كان يحب البساطة والصراحة ويكره التكلف ، وبعض الصحابة خالط الرسول ﷺ قبل النبوة وبعدها عشرات السنين.

2- وهؤلاء الأصحاب لم يكونوا أغراراً ولا مغفلين ولا منعزلين عن العالم ، بل بعضهم من مكة التي كان العرب يقصدونها سنوياً للحج ، وتسلم الجزيرة العربية كلها لأهلها بالفضل والزعامة ، عدا عن صلات أهلها بواسطة التجارة مع اليمن ومع الشام حيث مراكز الحضارة . وبعض أصحابه من المدينة حيث الصلات الفكرية مع اليهود وما ينشأ عن ذلك من تفتح ذهني .

كما أن هؤلاء الأصحاب أثبتوا في حياة الرسول ﷺ وبعد مماته أنهم أرجح الناس عقولاً وأكثرهم دهاءً وحنكة ومعرفة بالرجال والشعوب وسياسة الأمم ، بدليل أنهم نجحوا رغم محدودية وسائلهم في فتح أعظم الدول المتحضررة وقتذاك وإدارتها وكسب مودة شعوبها ودمجهم في الأمة الإسلامية .

فإذا ما اجتمعت هذه الناحيتان : الخلطة الدائمة ، وذكاء المخالفين ، فإن أمر الكاذب يفضح ، وأمر الصادق يتضح .

والظاهرة الواضحة في حياة الصحابة أنهم كلما ازدادوا برسول الله ﷺ خلطة ازدادوا به إيماناً وتصديقاً ، بل أكثرهم اختلاطاً به أكثرهم إيماناً به وطاعة له ، وقد بلغ منهم درجة أنه أصبح الموت من أجل ما يريد الرسول ﷺ أحب إليهم من الحياة ، وإنفاق المال أحب إليهم من إمساكه ، والطاعة أحب إليهم من المعصية ، ودين الرسول ﷺ أحب إليهم من الأموال والأولاد والمساكن والزوجات والوطن . وكل هذا من مظاهر التصديق الكامل إذ لولا التصديق لما كان شيء من هذا . فقد قتل منهم الآباء ، وأراد الأب قتل ابنه ، فعلام يفعلون هذا ؟! لو لا أن إيمانهم برسول الله ﷺ وتصديقهم به وصل إلى ذروة الذري . وهذه أمثلة كل منها يعتبر أثراً من آثار التصديق الكامل ودليلًا عليه نذكرها بلا تعليق ، وفي كل منها شهادة من صاحبها بعد تجربة على أن محمداً ﷺ صادق لا شك في ذلك :

1- أخرج الحافظ أبو الحسن الطبراني عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : " لما اجتمع أصحاب النبي ﷺ - وكانوا ثمانية وثلاثين رجلاً - ألح أبو بكر على رسول الله ﷺ في الظهور فقال : يا أبو بكر إنما قليل . فلم يزل أبو بكر يلح حتى ظهر رسول الله ﷺ وتفرق المسلمون في نواحي المسجد كل رجل في عشيرته ، وقام أبو بكر في الناس خطيباً ورسول الله ﷺ جالس فكان أول خطيب دعا إلى الله وإلى رسول الله . وثار المشركون على أبي بكر وعلى المسلمين ، فضربوا في نواحي المسجد ضرباً شديداً ووطئ أبو بكر وضرب ضرباً شديداً ، ودنا منه الفاسق عتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين مخصوصتين ويحرفهمما لوجهه ، ونزا على بطن أبي بكر حتى ما يعرف وجهه من أنفه .

وجاء بنو تم يتعادون فأجلت المشركون عن أبي بكر ، وحملت بنو تم أبي بكر في ثوب حتى أدخلوه منزله ، ولا يشكون في موته ، ثم رجعت بنو تم فدخلوا المسجد وقالوا : والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة بن ربيعة ، فرجعوا إلى أبي

بكر فجعل أبو قحافة وبنو تيم يكلمون أبا بكر حتى أجاب ، فتكلم آخر النهار
 فقال : ما فعل رسول الله ؟ ، فمسوا منه بأسنتهم وعذلوه ، ثم قاموا وقالوا لأمه
 أم الخير : انظري أن تطعميه شيئاً أو تسقيه إياه ، فلما خلت به ألحت عليه
 وجعل يقول ؛ ما فعل رسول الله ؟ فقالت : والله مالي علم ب أصحابك . فقال :
 اذهببي إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه ، فخرجت حتى جاءت أم جميل
 فقالت : إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله ، فقالت : ما أعرف أبا بكر ولا
 محمد بن عبد الله ، وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك ، قالت : نعم .
 فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريراً دنفاً ، فدنت أم جميل وأعلنت بالصياح
 وقالت : والله إن قوماً نالوا منك هذا لأهل فسق وكفر ، وإنني لأرجو أن ينتقم الله
 لكَ منهم . قال : فما فعل رسول الله ؟ فقالت : هذه أمك تسمع . قال : فلا
 شيء عليك منها . قالت : سالم صالح . قال : أين هو ؟ قالت : في دار ابن
 الأرقم . قال : فإن الله على أن لا أذوق طعاماً ولا أشرب شراباً أو آتي رسول
 الله ؟ ، فأمهلتا حتى إذا هدأت الرجل وسكن الناس ، خرجتا به يتکئ عليهما
 حتى أدخلته على رسول الله . قال : فأكب عليه رسول الله قبله وأكب
 عليه المسلمين ، ورق له رسول الله رقة شديدة . فقال أبو بكر : بأبي وأمي
 يا رسول الله ، ليس بي بأس إلا ما نال الفاسق من وجهي ، وهذه أمي برة
 بولدها ، وأنت مبارك فادعها إلى الله وادع الله لها ، عسى الله أن يستنقذها بك
 من النار . قال : فدعها لها رسول الله ودعها إلى الله فأسلمت " .

- وأخرج ابن إسحاق عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال : " لما أسلم عمر -
 رضي الله عنه - قال : أي قريش أنقل للحديث ؟ فقيل له : جميل بن معمرا
 الجمحي ، فغدا عليه ، قال عبد الله : وغدوت أتبع أثره وأنظر ما يفعل - وأنا
 غلام أعقل كل ما رأيت - حتى جاءه فقال له : أعلمت يا جميل أنني أسلمت
 ودخلت في دين محمد ؟ قال : فوالله ما راجعه حتى قام يجر رداءه واتبعه عمر
 واتبعته أنا ، حتى قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته : يا عشر قريش -
 وهم في أندائهم حول الكعبة - ألا إن ابن الخطاب قد صبا . قال يقول عمر من
 خلفه : كذب ولكنني قد أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ،
 وثاروا إليه بما برح يقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم ، قال : وطلح¹
 فقعد وقاموا على رأسه وهو يقول : افعلوا ما بدا لكم فأحلف بالله أن لو قد كنا

¹ طلح : تعب وأعيا .

ثلاث مائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا . قال : فيبينما هم على ذلك إذ أقبل شيخ من قريش عليه حلة حبرة وقميص موشى حتى وقف عليهم فقال : ما شأنكم ؟ قالوا : صباً عمر . قال : فمه ، رجل اختار لنفسه أمراً فماذا تريدون ؟ أترونبني عدي يسلمون لكم أصحابهم هكذا ؟ خلوا عن الرجل . قال : فوالله لكانما كانوا ثوباً كشط عنه . قال فقلت لأبي - بعد أن هاجر إلى المدينة - : يا أبت ! من الرجل الذي زجر القوم عنك بمكة يوم أسلمت وهم يقاتلونك ؟ قال : ذاك - أي بنى - العاص بن وائل السهمي " . وهذا إسناد جيد قوي - كذا في البداية .

3- وأخرج البخاري في التاريخ عن مسعود بن خراش - رضي الله عنه - قال : بينما نحن نطوف بين الصفا والمروءة إذا أناس كثير يتبعون فتى شاباً موثقاً بيده في عنقه . قلت : ما شأنه ؟ قالوا : هذا طلحة بن عبيد الله صباً . وامرأة وراءه تدمدم وتسبه . قلت : من هذه ؟ قالوا : الصعبة بنت الحضرمي أمه " .

4- وأخرج البيهقي وابن سعد والحارث ابن المنذر وابن عساكر وابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب - رضي الله عنه - : " أَنْ صَهِيبًا - رضي الله عنه - أَقْبَلَ مَهَاجِرًا نَحْوَ النَّبِيِّ ﷺ فَتَبَعَهُ نَفْرٌ مِّنْ قَرِيْشَ مُشْرِكُونَ ، فَنَزَلَ فَانْتَشَلَ كَنَانَتَهُ فَقَالَ : قَدْ عَلِمْتُ يَا مَعْشِرَ قَرِيْشٍ أَنِّي أَرْمَاكُمْ رجلاً بَسْهَرَ ، وَإِيمَانَ اللَّهِ لَا تَصْلُونَ إِلَيَّ حَتَّى أَرْمِيكُمْ بِكُلِّ سَهْمٍ فِي كَنَانَتِي ثُمَّ أَضْرِبُكُمْ بِسَيْفِي مَا بَقِيَ فِي يَدِي مِنْهُ . ثُمَّ شَأْنَكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ وَإِنْ شَئْتُمْ دَلَّتُكُمْ عَلَى مَالِي بِمَكَةَ وَتَخْلُوا سَبِيلِي .. قالوا : نعم . فَتَعَااهَدُوا عَلَى ذَلِكَ فَدَلَّهُمْ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ الْقُرْآنَ {وَمَنْ أَنْهَا كُنْدِلَةٌ فَمَنْ يَرْجِعُهُ إِلَيْهِ فَأُنْهِيَ بِهِ} ¹ حَتَّى فَرَغَ مِنَ الْآيَةِ . فَلَمَّا رَأَى النَّبِيِّ ﷺ صَهِيبًا قَالَ : رَبِّ الْبَيْعِ يَا أَبَا يَحْيَى رَبِّ الْبَيْعِ يَا أَبَا يَحْيَى ! وَقَرَا عَلَيْهِ الْقُرْآنَ " .

5- وأخرج الحاكم عن سليمان بن بلال - رضي الله عنه - : " أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ مَلَمْ يَخْرُجْ إِلَيْ بَدْرٍ أَرْادَ سَعْدَ بْنَ خَثِيمَةَ وَأَبْوَهُ جَمِيعًا الخروجَ مَعَهُ ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَأَمَرَ أَنْ يَخْرُجَ أَحَدَهُمَا فَاسْتَهْمَاهَا . فَقَالَ خَثِيمَةُ بْنُ الْحَارِثَ لَابْنِهِ سَعْدَ - رضي الله عنهما - : إِنَّهُ لَا بُدَّ لِأَحَدِنَا مِنْ أَنْ يَقِيمَ فَأَقْمِمْ مَعَ نَسَائِكَ . فَقَالَ سَعْدٌ : لَوْ كَانَ غَيْرَ

الجنة لآخرتك به إني أرجو الشهادة في وجهي هذا ، فاستهما ، فخرج سهم سعد ، فخرج مع رسول الله ﷺ إلى بدر . فقتله عمرو ابن عبد ود " وأخرجه أيضاً ابن المبارك عن سليمان وموسى بن عقبة عن الزهري ، كما في الإصابة .

6- وأخرج الطبراني عن ابن عمر " أن عمر - رضي الله عنه - قال يوم أحد لأخيه : خذ درعي يا أخي ! قال : أريد من الشهادة مثل الذي تريده ، فتركها جمِيعاً " قال الهيثمي رجاله رجال الصحيح .

7- وأخرج ابن إسحاق عن القاسم بن عبد الرحمن بن رافع أخيبني عدي بن النجار قال : " انتهى أنس بن النضر - عم أنس بن مالك - إلى عمر بن الخطاب وطلحة بن عبيد الله في رجال من المهاجرين والأنصار - رضي الله عنهم - وقد ألقوا ما بأيديهم . فاقل : مما يجلسكم ؟ قالوا : قتل رسول الله ﷺ ، ثم استقبل القوم ، فقاتل حتى قُتل " .

8- وأخرج الحاكم عن زيد بن ثابت - رضي الله عنه - قال : " بعثتي رسول الله ﷺ يوم أحد لطلب سعد بن الربيع - رضي الله عنه - وقال لي : إن رأيته فأقرئه مني السلام ، وقل له : يقول لك رسول الله ﷺ : كيف تجدى ؟ قال : فجعلت أطوف بين القتلى ، فأصبته وهو في آخر رمق ، وبه سبعون ضربة ما بين طعنة برمح وضربة بسيف ورمية بسهم . فقلت له : يا سعد ، إن رسول الله ﷺ يقرأ عليك السلام ويقول لك : أخبرني كيف تجدى ؟ قال : على رسول الله السلام ، وعليك السلام ، قل له : يا رسول الله أجدني أجد ريح الجنة ، وقل لقومي الأنصار : لا عذر لكم عند الله إن يخلص إلى رسول الله ﷺ وفيكم شرف يطرف . قال : وفاضت نفسه - رحمه الله - " قال الحاكم هذا حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه . وقال الذهبي : صحيح . ثم أخرج الحاكم من طريق ابن إسحاق أن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة حدثه عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال : " من ينظر لي ما فعل سعد بن الربيع - رضي الله عنه - فذكر الحديث بنحو منه . وقال : فقال سعد : أخبر رسول الله ﷺ أنني من الأموات ، وأقرئه السلام وقل له : يقول سعد : جزاك الله عنا ، وعن جميع الأمة خيراً " .

9- وأخرج البيهقي عن مالك بن عمير رضي الله عنه وكان قد أدرك الجاهلية . ، قال : " جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : إني لقيت العدو ولقيت أبي فيهم ، فسمعت لك منه مقالة قبيحة فلم أصبر حتى طعنته بالرمح - أو حتى قتله - ، فسكت عنه النبي صلى الله عليه وآله وسلم . ثم جاء آخر فقال : إني لقيت أبي فتركته وأحبابت أن يليه غيري ، فسكت " . قال البيهقي وهذا مرسل جيد .

10- وأخرج البزار عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : " مر رسول الله ﷺ بعد الله بن أبي وهو في ظل أطم فقال : غبّر علينا ابن أبي كبشة . فقال ابنه عبد الله بن عبد الله - رضي الله عنه - : يا رسول الله والذي أكرمك لئن شئت لأنتني برأسه ! فقال : لا ، ولكن بر أباك وأحسن صحبته " . قال الهيثمي رواه البزار ورجاله ثقات .

11- وذكر ابن هشام عن أبي عبيدة وغيره من أهل العلم بالمعاذي أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال لسعيد بن العاص - رضي الله عنه - وقربه : " إني أراك تظن أنني قتلت أباك ، إني لو قتلت لم أعتذر إليك من قتلها ، ولكنني قتلت خالي العاص بن هشام بن المغيرة ، فأما أبوك فإني مررت به وهو يبحث بحث الثور بورقه ، فحدث عنه وقد له ابن عمه علي فقتله " . كذا في البداية ، وزاد في الاستيعاب والإصابة : " فقال له سعيد بن العاص : لو قتلت لكونك على الحق وكان على الباطل . فأعجبه قوله " .

12- وأخرج ابن سعد عن الزهرى قال : " لما قدم أبو سفيان بنحر بالمدينة جاء إلى رسول الله ﷺ وهو يريد غزو مكة فكلمه أن يزيد في هذه الحديثة فلم يقبل رسول الله ﷺ فقام فدخل على ابنته أم حبيبة - رضي الله عنها - . فلما ذهب ليجلس على فراش النبي ﷺ طوته دون . فقال : يا بنية ! أرغبت بهذا الفراش عنى أم بي عنه ؟ فقالت : بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت امرؤ نجس مشرك . فقال : يا بنية ! لقد أصابك بعدي شر " . وذكر ابن إسحاق نحوه بلا إسناد ، كما في البداية وزاد : " فلم أحب أن تجلس على فراشه " .

13- وأخرج الطبراني عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : " لما كان يوم أحد حاص أهل المدينة حصة . و قالوا : قُتل محمد حتى كثرت الصوارخ في

ناحية المدينة . فخرجت امرأة من الأنصار محرمة فاستقبلت بأبيها وابنها وزوجها وأخيها - أي قتلى - لا أدرى أيهم استقبلت به أولاً . كلما مرت على أحدهم قالت: من هذا ؟ قالوا : أبوك ، أخوك ، زوجك ، ابنك ، تقول : ما فعل رسول الله ﷺ يقولون : أمامك حتى دفعت إلى رسول الله ﷺ فأخذت بناحية ثوبه ثم قالت : بأببي أنت وأمي يا رسول الله ، لا أبالي إذ سلمت من عطب " .

هذه نصوص تبين لك مدى الإيمان برسول الله ﷺ عند أتباعه المخالفين له ، مما يدلّك على أن تصديقهم لرسول الله ﷺ بلغ حدّاً لا مثيل له .

* * * *

ج - وأخيراً شهادة الواقع:

إن شهادة الواقع أعلى الشهادات لأن الإنسان يصل بواسطتها إلى اليقين الذي لا يخالطه شك فليقم الإنسان بإجراء اختبار كامل لكل ما ورد عن الرسول ﷺ من قول أو فعل . فإذا ما وجد أن كل قول وفعل مما يمكن أن يدخل تحت الاختبار لا يخرج عن الحق والصدق . لم يبق أمام الإنسان إلا طريق واحد هو الإيمان والتصديق . وسنرى في الباب الثاني أن الاختبار الكامل للقرآن يجعلك - على مثل الشمس وضوحاً - أن القرآن كله حق وصدق وأنه من عند الله ، وسنرى في الباب الثالث - إن شاء الله - أن الاختبار الكامل لنبوءاته يذلك على أن المستقبل كان كشفاً لها وتوكيداً . أما هنا فسننقل نماذج من مزاحه ومداعباته لنرى أنها لا تخرج عن الحق والصدق ، ونماذج عن وعوده وعهوده وصدقه فيها ، ونماذج من أحاديثه التي يستطيع الإنسان أن يعرف صدقها بالاختبار ، لنرى العجب في مطابقة ما عرفه إنسان عصرنا بعد التجربة ، لما نطق به شفتنا رسول الله ﷺ من عصور ، وسنختتم هذه الفقرة بالتنكير بأن المصدر الوحيد الذي نستطيع أن نأخذ عنه العلم بالغيبيات بتقة هو رسول الله ﷺ ، وكلامه حجة على غيره فيه ، مع مناقشة بعض القضايا التي لها علاقة بهذا الأمر ونبأ باستعراض ما ذكرنا :

1- نماذج من صدقه ﷺ في مزاحه ومداعباته :

إن الناس عادة لا يلتزمون الصدق في المزاح ، ولكن رسول الله ﷺ داعب صادقاً ومازح صادقاً وألزم أمته الصدق في كل حال .

أخرج أحمد عن أنس بن مالك : " أَنْ رجلاً أتَى النَّبِيَ فاستحمله ، فقال رسول الله ﷺ : إِنَّا حَامِلُوكُ عَلَى وَلَدَ نَاقَةٍ ، فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَصْنَعُ بَوْلَ نَاقَةٍ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ مَّا : وَهُلْ تَلَدُ الْإِبْلَ إِلَّا النَّوْقَ ؟ " رواه أبو داود والترمذى .

وقال زيد بن أسلم : " إِنَّ امْرَأَ يَقَالُ لَهَا أَمْ أَيْمَنَ جَاءَتِ إِلَى النَّبِيِّ فَقَالَتْ : إِنَّ زَوْجِي يَدْعُوكَ ، قَالَ : وَمَنْ هُوَ ؟ أَهُوَ الَّذِي بَعَيْنَهُ بِيَاضاً ؟ قَالَتْ : وَاللَّهِ مَا بَعَيْنَهُ بِيَاضاً . فَقَالَ : بَلْ إِنَّ بَعَيْنَهُ بِيَاضاً . فَقَالَتْ : لَا وَاللَّهِ . فَقَالَ : مَا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَبَعَيْنَهُ بِيَاضاً ^١ هُوَ أَرَادُ الْبِيَاضَ الْمُحِيطَ بِالْحَدْقَةِ وَهِيَ فَهَمَتُ الْبِيَاضَ عَلَى الْحَدْقَةِ الَّذِي يَكُونُ بِهِ الرَّجُلُ أَعْوَرَ .

وأخرج أحمد عن أنس : " أَنْ رجلاً من أهل البدية كان اسمه زاهراً ، وكان يهدي النبي الهدية من البدية فيجهزه النبي إذا أراد أن يخرج . فقال رسول الله ﷺ : إِنَّ زَاهِراً بَادِيَتَا وَنَحْنُ حَاضِرُهُ ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ يُحِبُّهُ وَكَانَ رَجلاً دَمِيَّاً . فَأَتَاهُ رَسُولُ اللَّهِ مَّ وَهُوَ بِبَيْعِ مَتَاعِهِ فَاحْتَضَنَهُ مِنْ خَلْفِهِ وَلَا يَبْصِرُهُ الرَّجُلُ ، فَقَالَ : أَرْسَلْنِي مِنْ هَذَا ؟ فَالْتَّفَتَ فَعَرَفَ النَّبِيُّ فَجَعَلَ لَا يَأْلُو مَا أَلْصَقَ ظَهِيرَهُ بِصَدْرِ النَّبِيِّ حِينَ عَرَفَهُ وَجَعَلَ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ : مَنْ يَشْتَرِي الْعَبْدَ ؟ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِذْنَ وَاللَّهِ تَجْدِنِي كَاسِداً ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : لَكَ عِنْدَ اللَّهِ لَسْتَ بِكَاسِداً . أَوْ قَالَ لَكَ عِنْدَ اللَّهِ غَالٍ " . رواه提拏ت . فأنت ترى من سياق الحديث أنه عنى بالعبد عبد الله وكلنا عبد الله .

وأخرج الترمذى في الشمائى عن الحسن قال : " أَنْتَ عَجُوزٌ النَّبِيُّ فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَدْخُلَنِي الْجَنَّةَ : فَقَالَ : يَا أَمْ فَلَانَ إِنَّ الْجَنَّةَ لَا تَدْخُلُهَا عَجُوزٌ ، فَوَلَتْ تَبْكِي فَقَالَ : أَخْبُرُوهَا أَنَّهَا لَا تَدْخُلُهَا وَهِيَ عَجُوزٌ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : {إِنَّا أَنْشَأْنَا هُنَّ إِنْشَاءً * فَجَعَلْنَا هُنَّ أَبْكَارًا} " .

وأخرج الترمذى في الشمائى عن أنس قال : " قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ : يَا ذَا الْأَذْنَيْنِ " . قال أبو أسامة يعني يمازحه ، وكل إنسان له أذنان .

^١ أخرج أبو داود والترمذى عن أنس نحوه . أما هذا فقد ذكره الغزالى في إحياء علوم الدين .

فأنت ترى من هذه الأمثلة أنه داعب ومازح دون أن يخرج عن الحق والصدق ، ولكنه استعمل هذا الصدق استعمالاً لطيفاً ، على غير المتعارف . ففهم المخاطب فهماً كانت فيه نكتة وهكذا كانت مداعباته كلها حقاً .

أخرج الترمذى عن أبي هريرة قال : " قالوا : يا رسول الله ! إنك تداعبنا ، قال : إني لا أقول إلا حقاً " . إنها نبوة صدق وما كان للنبيأن يكون للباطل عندها أو معها نصيب .

* * * *

2- نماذج من صدقه p في وعوده وعهوده :

أخرج أبو داود عن عبد الله بن أبي الخنساء قال : " بايعت النبي p قبل أن يبعث وبقيت له بقية فواعنته أن آتىه بها في مكانه ذلك . فنسى يومي والغد فأتته اليوم الثالث وهو في مكانه ، فقال : يا فتى لقد شفقت علىَّ ، أنا هنا منذ ثلاثة أنتظرك " .

وأخرج ابن حبان والحاكم : " كان p جالساً يقسم غنائم هوزان بحنين فوقف عليه رجل من الناس فقال : إن لي عندك موعداً يا رسول الله . قال : صدقتم فاحكم ما شئتم . قال : أحكم ثمانين ضائنة وراعيها . قال : هي لك وقال : احتملت يسيراً ... "

وأخرج الحاكم عن حويطب بن عبد العزى في قضية إسلامه عندما كان مشركاً تولى مطالبة الرسول p بالجلاء عن مكة في عمرة القضاء بعد انقضاء مدة الثلاثة أيام المتفق عليها يقول حويطب : " ولما قدم رسول الله p لعمرة القضاء وخرجت قريش من مكة كنت فيمن تخلف بمكة أنا وسهيل بن عمرو فقلنا : قد مضى شرطك فاخترج من بلدنا فصالح يا بلال لا تغرب الشمس وواحد من المسلمين بمكة ممن قدم معنا " .

وهذه فقرأت من كتاب (بطل الأبطال) يحل فيها صاحبه بعض مواقف الوفاء بالعهد والوعد التي وقفها رسول الله p يقول : " قبل سنة من هدنة الحديبية كانت قريش تحاصر المدينة وقد جمعت لذلك الأحزاب من أهل القرى والأعراب فنقض بنو قريطة عهدهم مع رسول الله p . واشتد بذلك الكرب وزلزل المؤمنون زلزاً شديداً ، ولكن الله نصر عبده ، وأعزه وألقى الرعب في قلوب المشركين ، ولم تمض إلا فترة وجيزة حتى كان جيش الإسلام بقيادة رسول الله يزحف إلى مكة ، فنزل الحديبية وبعثت قريش رسلاها إلى محمد p .

وهو ذا عروة بن مسعود الثقي رسولها يعود إليها يصف حال محمد ﷺ وجنده بهذه العبارة :

" إني قد جئت كسرى في ملكه ، قيصر في ملكه والنجاشي في ملكه ، وإنني والله ما رأيت ملكاً في قومه قط مثل محمد في أصحابه " . كان محمد في منعة وقوة ولكنه كان يعلن أنه لا يريد الحرب ، ويقول : لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها . فلما جاءه سهيل بن عمرو مفوضاً من قريش لعقد الهدنة يرجع بها محمد وجيشه عن دخول مكة ، كان من شروط هذه الهدنة شرط ظاهر الغبن وهو أن محمداً يسلم إلى قريش من لجأ إليه من المسلمين بغير إذن وليه ولا يطلب تسليم من لجأ إلى قريش من أتباعه ...

ذلك الشرط أهاج أصحاب محمد ﷺ حتى إن عمر - رضي الله عنه - كان يذهب تارة إلى أبي بكر وتارة أخرى إلى الرسول ﷺ ويقول : ألسنا المسلمين ! أليسوا المشركين ! ألسنت رسول الله !! .. فعلام نعط الدنيا في ديننا ؟ فيقول الرسول : أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني ، ويقول أبو بكر : أشهد أنه رسول الله . فقبول المسلمين هذا الشرط هو استسلام منهم لأمر لم يدركوا سره ، وكان ذلك أعظم بلاء وامتحان لصبرهم ، وبينما هم على هذه المضاضة وقد فرغ الرسول ﷺ من الجدل مع مفوض قريش سهيل بن عمرو ، ولم يكتب العقد ولم يمض ، جاءهم أبو جندل مستصرحاً يرسف في قيوده وأبو جندل هذا هو ابن سهيل بن عمرو نفسه ، فلما رأى سهيل ابنه قام إليه وأخذ بتلايبه وقال : يا محمد قد لجت القضية بيني وبينك - أي فرغنا من المناقشة - قبل أن يأتيك هذا . قال النبي ﷺ : صدقت ، وأبو جندل ينادي يا معاشر المسلمين ! أأرد إلى المشركين يفتونني في ديني ؟ تصوروا ذلك المقام مقام محمد ﷺ وهو الشجاع الذي حدثكم عن شجاعته المنقطعة النظير ، وهو القوي الذي خرج من المدينة زاحفاً بجيش . سمعتم الآن وصف عروة بن مسعود له تصوروه وهو يرى أقرب أصحابه (في حالة تنمر) ثم تصورووا لاجئاً يرسف في القيود ، وهو من أبناء الأعزاء في قريش ، يرسف فيها (اتباعاً) لمحمد ودين محمد ، ثم انظروا إليه لا يحتال ولا يتتردد ولما يكتب ولما يمض ، يقول لسهيل : صدقت لقد لجت القضية ، ويرد صاحبه باكيًا إلى أعدائه تصورووا كل ذلك ، ثم ليكتب إلى من يشاء بمثل واحد في تاريخ البشر كله كهذا المثل يضربه محمد في رعاية الكلمة التي قالها ولما تكتب ولما تمض .

ويقول صاحب الكتاب ذاكراً مثلاً آخر :

ثم انظروا إلى وفائه للمشركين أيضاً : كان بين شروط هدنة الحديبية أن من شاء دخل في عقد محمد وعهده ، ومن شاء دخل في عقد قريش وعهدها . فدخلت خزاعة على شركها في عهد محمد فلما نقضت قريش عهدها معه ونصرت حليفتها بكرأ عليها . ذهب عمرو بن سالم الخزاعي يطالب (رسول الله ﷺ) بالعهد ويطلب (منه) نصر حلفائه فوق على رسول الله وهو في المسجد ينشده ويقول :

حلف أبينا وأبيه الأنذا	يا رب إني ناشد محمداً
وادع عباد الله يأتوا مدادا	فانصر هداك الله نصرا اعدا
إن قريشاً أخلفوك الموعدا	في فيلق كالبحر يجري مزبدا
	ونقضوا ميثاقك المؤكدا

فكان ذلك الاعتداء على المشركين من حلفاء المسلمين سبباً في تجهيز أضخم جيش عرفته الجزيرة والسير لنصرة الحليف وكان من آثار ذلك فتح مكة كما هو معروف هذه أمثلة سقناها من وفاء (رسول الله ﷺ) لأداء الملة وقد عاهدهم ... أو قبل محالفتهم على غيرهم .¹

هذه نماذج من صدقه في وعده وعهده وسوهاها كثير فما حدث أن وعد رسول الله ، أو عاهد فأخلف أو غدر . روى البخاري أن هرقل لما سأله أبو سفيان عن محمد : هل يغدر ؟ فأجاب أبو سفيان : لا . فقال هرقل بعد ذلك : وسألتك هل يغدر فزعمت أنه لا يغدر وكذلك الرسل لا تغدر " .

إن الغدر نوع من أنواع الكذب والخلف بالوعد كذب . والرسول ﷺ منزه عن ذلك ، ومن النماذج القليلة التي ذكرناها ترى أنه ما أحد من البشر غير الرسل وصل إلى ما وصل إليه الرسول ﷺ في الوفاء لشرف الكلمة ، إلا إذا كان تلميذاً من تلامذته ، يقتدي به . لقد كانت كلمة الرسول ﷺ هي الضمان الذي ما بعده ضمان ، حتى أن ألد خصومه وأعرقهم في دعواه كان لا يتردد إذا تأكد أن محمداً أمنه أن يلقي بنفسه في أحضان المسلمين ، تقة منه أن كلمة

¹ بطل الأبطال لعبد الرحمن عزام .

محمد ضمان لا يعدله ضمان . ومن تتبع حوادث السيرة وجد الأمثلة الكثيرة على هذا ، إنها صفة الصدق عن الأنبياء لا تختلف .

3- نماذج من حديثه صدقته علوم عصرنا من غير النبوءات :

أ) - قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح : " إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فليغمسه ثم ليزرعه فإن في أحد جناحيه داء وفي الآخر دواء " .

إن هذا الحديث ذكر قضيتين كلتاهمَا لم تكونا معروفتين قديماً . أولاهما أن الذباب ناقل داء وهذا شيء أصبح الآن معروفاً لدى الجميع ، فالذباب ناقل جراثيم ممتاز . والثانية وهي التي يجعلها الكثير أن الذباب يحمل مضادات للجراثيم من النوع الممتاز كذلك ، وهذا تحقيق كتبه " الدكتور عز الدين جوالة " حول هذا الموضوع نقل منه ما يلزمنا هنا يقول :

قبل الخوض في هذا الموضوع لنتذكر ما يلي :

1- من المعروف منذ القديم أن بعض المؤذيات قد يكون في سمها نفع ودواء ، فقد يجتمع الصدآن في حيوان واحد ، فالعقرب في إبرتها سم ناقع ، وقد يداوى سمها بجزء منها ، وفي ذلك يقول العلماء : " وقد وجدنا لكون أحد جناحي الذباب داء والآخر شفاء ودواء فيما أقامه الله من عجائب خلقه وبداعٍ فطرته شواهد ونظائر ، منها النحلة يخرج من بطنه شراب نافع ويكتن في إبرتها السم الناقع ، والعقارب تهيج الداء بإبرتها ويتداوى من ذلك بجرمها " .

2- وفي الطب يحضر لقاح من ذباب الأفاغي والحشرات السامة يحقن به لدغ العقارب أو لدغ الأفعى ، بل وينفع في تخفيف آلام السرطان أيضاً .

3- إن الطب الحديث استخرج من مواد مستقدرة أدوية حيوية قلبت فن المعالجة رأساً على عقب ، فالبنسلين استخرج من العفن ، والستربتو مايسين من تراب المقابر .. إلخ أو بمعنى أدق من طفيليات العفن وجراثيم تراب المقابر . أما والحالة كذلك ، فهل يمتنع عقلاً ونظرياً أن يكون في الذباب هذه الحشرة القدرة ، والتي تنقل القدر طفيلي أو جرثوم يخرج أو يحمل دواء يقتل هذا الداء الذي تحمله .

4- من المعروف في فن الجراثيم أن للجرثوم ذيفاناً (مادة منفصلة عن الجرثوم) وأن هذا الذيفان إذا دخل بدن الحيوان كَوَّنَ البدن أجساماً ضد هذا الذيفان ، لها قدرة على تخرير الذيفان والتهام الجراثيم ، تسمى بمبيدات الجراثيم .

فهل يستبعد القول بأن الذباب تلتهم الجراثيم فيما تلتهم ، فيكون في جسم الذباب الأجسام الضدية المبيدة للجراثيم والتي مر ذكرها ، ولها القدرة على الفتك بالجراثيم الممرضة التي ينقلها الذباب إلى الطعام أو الشراب ، فإذا وقعت في الطعام فما علينا إلا أن نغمس الذبابة فيه فتخرج تلك الأجسام الضدية فتتهدى الجراثيم التي تنقلها وتقضى على الأمراض التي تحملها.

وبعد كلام الدكتور عز الدين ، يستمر فينقل تحقيقاً للطبيبين المصريين محمود كمال ومحمد عبد المنعم حسين في إثبات ما في الحديث ، نقل بعضاً منه ، يقولان :

ما قوله المراجع العلمية :

في 1871 وجد الأستاذ الألماني " بريفيلد " من جامعة هال بألمانيا أن الذبابة المنزلية مصابة بطفيلي من جنس الفطريات سماها " امبوزاموسكي " وهو طفيلي يعيش الذبابة على الدوام ، وبالتدقيق فيه وجده من نوع الفطور التي تسمى " انتموفترالي " تنتهي إلى أهم فصيلة في الفطور الأشنية ، وهي المسأه بالفطور الشنية المرتبطة أو المتحدة ، وهو من النوع الثاني للفطر المسمى الفطور الأشنية الطفيلي ، وهذا الطفيلي يقضي حياته في الطبقة الدهنية الموجودة داخل بطن الذبابة بشكل خلايا مستديرة فيها خميرة خاصة سيأتي ذكرها . ثم لا تثبت هذه الخلايا المستديرة أن تستطيل فتخرج من الفتحات أو من بين مفاصل حلقات بطن الذبابة فتصبح خارج جسم الذبابة .

ودور الخروج هذا يمثل الدور التناصلي لهذا الفطر ، وفي هذا الدور تتجتمع بذور الفطر داخل الخلية ، فيزداد الضغط الداخلي للخلية من جراء ذلك ، حتى إذا وصل الضغط إلى قوة معينة لا تحتملها جدر الخلية انفجرت الخلية وأطلقت البذور إلى خارجها بقوة دفع شديدة ، تدفع البذور إلى مسافة 2 سم خارج الخلية ، على هيئة رشاش مصحوباً بالسائل الخلوي .

وعلى هذا إذا أمعنا النظر في ذبابة ميتة ومتروكة على الزجاج شاهد :

أ - مجالاً من بذر هذا الفطر حول الذبابة المذكورة .

ب - ويشاهد حول القسم الثالث والأخير من الذباب على بطنهما وعلى ظهرها وجود الخلايا المتفجرة ، التي خرجت منها البذور ، وقد بُرِزَ منها رؤوس الخلايا المستطيلة التي مر ذكرها . وقد جاءت مكتشفات العلماء الحديثة مؤيدة ما ذهب إليه " بريفلد " ومبنية خصائص عجيبة لهذا الفطر الذي يعيش في بطن الذبابة منها :

1- في عام 1945 أُعلن أكبر أستاذ في علم الفطريات وهو " لانجيرون " أن هذا الفطر الذي يعيش دوماً في بطن الذبابة على شكل خلايا مستديرة فيها خميرة خاصة (أنزيم) قوية تحل وتذيب من أجزاء الحشرة الحاملة للمرض .

2- في عام 1947 - 1950 تمكن العالمان الإنجليزيان " آرنشتين وكوك " والعالم السويسري " روليوس " من عزل مادة سموها " جافاسين " استخرجوها من فصيلة الفطور التي تعيش في الذباب وتبين لهم أن هذه المادة مضادة للحيوية تقتل جراثيم مختلفة من بينها جراثيم غرام السالبة والموجبة والديزانتريا والتيفوئيد .

3- وفي عام 1948 تمكن " بريان وكورتيس وهيمنغر وجيفيرس وماكجوان " من بريطانيا من عزل مادة مضادة للح gioية أسموها " كلوتيزين " وقد عزلوها عن فطريات تتبعها إلى نفس فصيلة الفطريات التي تعيش في الذباب وتأثير في جراثيم غرام السالبة والتيفوئيد والديزانتريا .

4- وفي عام 1949 تمكن عالمان إنجليزيان هما " كومسي وفارمر " وعلماء آخرون من سويسرا هم " جرمان وروث واثنجر وبلاتز " من عزل مادة مضادة للح gioية أيضاً أسموها " انياتين " عزلوها من فطر ينتمي إلى فصيلة الفطر الذي يعيش في الذباب وتأثير بقوة على جراثيم غرام موجب وسلب وعلى بعض فطريات أخرى كالزحار والتيفوئيد والكوليرا .

5- وفي عام 1947 عزل " مو فيتش " مواد مضادة للح gioية من مزرعة للفطريات الموجودة على نفس جسم الذبابة ، فوجدها ذات مفعول قوي على الجراثيم السالبة لصيغة غرام . كالزحار والتيفوئيد وما يشابهها ووجدها ذات مفعول قوي على الجراثيم المسببة

لأمراض الحميّات ذات الحضانة القصيرة المدة . وأن غراماً واحداً من هذه المادة يمكنه أن يحفظ أكثر من 1000 لتر من اللبن المتلوث بالجراثيم المذكورة .
والخلاصة يستدل من كل ما سبق أنه :

1- يقع الذباب على الفضلات والمواد القدرة والبراز وما شابه ذلك ، فيحمل بأرجله أو يمح كثيراً من الجراثيم المرضية الخطرة .

2- يقع الذباب على الأكل فيلمس بأرجله الملوثة للمرض هذا الطعام ، أو هذا الشراب ، فيلوثه بما يحمل من سم ناقع ، أو يتبرز عليه فيخرج مع ونيمهما تلك الجراثيم الدقيقة الممرضة .

3- فإذا حملت الذبابة من الطعام ، وألقيت خارجه دون غمس ، بقيت هذه الجراثيم في مكان سقوط الذباب ، فإذا التهمها الأكل وهو لا يعلم طبعاً ، دخلت فيه الجراثيم ، فإذا وجدت أسباباً مساعدة تكاثرت ثم صالت وأحدثت لديه المرض ، فلا يشعر إلا وهو فريسة للحمى طریحاً للفراش .

4- أما إذا غمست الذبابة كلها ، أو مقلت في الطعام فماذا يحدث؟ إذا غمست الذبابة أحدثت هذه الحركة ضغطاً داخل الخلية الفطرية الموجودة مع جسم الذبابة فزاد توتر البروز والسائل داخلها زيادة تؤدي إلى انفجار الخلايا ، وخروج الأنزيمات الحالة لجراثيم المرض والقاتل له ، فتفقد على الجراثيم التي تنقلها الذبابة بأرجلها فتهلكها وتبيدها ، ويصبح الطعام ظاهراً من الجراثيم المرضية .

5- وهذا يضع العلماء بأبحاثهم تفسيراً للحديث النبوى المؤكّد لضرورة غمس الذبابة كلها في السائل أو الغذاء ليخرج من بطنهما الدواء الذي يكافح ما تحمله من داء .

ويستنتج من ذلك أن العلم الحديث قد حقق ما أخبر عنه م .

فقد أثبت العلم الحديث أن الذباب ينقل الجراثيم والأذى من النفايات والكنف والمزابل إلى الأطعمة والأشربة ، وإلى فتحات الوجه والتنفس فيسبب الأمراض المعدية من

تيفوئيد وسل وكوليرا وغيرها ، وهذا ما أخبر عنه المصطفى ﷺ من أن بأحد جناحي الذبابة الداء .

والداء يجب الوقاية منه وبعد عنده ، ولا يكون لك إلا بمكافحة الذباب وإبادته والاحتراس منه .

ويقرر العلم الحديث أيضاً كما رأينا أن في الذباب طفيليًّا له ذيفان يبيد الجراثيم ويفتك بها بشدة ، وأن هذا الذيفان لا ينفصل عن جريثومة إلا بعد وصول توتره إلى درجة معينة ، يكفي لبلوغه الضغط عليه بجسمه ولو في الشراب أو الطعام . وهذا ما ورد في الحديث عنه p ، {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ} . (النجم : 3 ، 4)

* * * *

ب) - عن عائشة أن فاطمة بنت أبي حبيش سالت النبي ﷺ فقالت : إني أستحاض فلا أظهر أفادع الصلاة ؟ فقال : " لا إن ذلك دم عرق ، ولكن دعي الصلاة قدر الأيام التي كنت تحيضين فيها ثم اغسلني " .

المسألة هنا كما يلي : للمرأة عادة شهرية يخرج فيها الدم من رحمها أكثر من آثار عدم تنقية بويضة الأنثى بما في الذكر والدم الذي يخرج منها في هذه الحالة يسمى دم حيض وهذه امرأة يخرج منها الدم دائمًا وكانت تتصور أن الدم كله حيض ولكن الرسول أفهمها أن هذا الدم ليس دم حيض ولكنه نزيف عرق .

فماذا يقول العلماء المختصون المعاصرون ؟

يقولون : إن الدم الوحيد الذي يخرج من الرحم - عادة - هو دم الحيض والنفاس أما الدم الآخر فمرجعه إلى نزيف يحدث في بعض الأغشية مما لا علاقة له بدم الحيض ، فهل كان حديث أهل الاختصاص في عصرنا إلا مصدقاً لما قاله عليه السلام من عصور لم يكن فيها معرفةً .

* * * *

ج) - روى مسلم عن طارق الجعفي أنه سأله النبي ﷺ عن الخمر فنهاه عنه فقال :
إنما أصنعها للدواء فقال : " إنه ليس بدواء ولكنه داء " .

إن هذا الحديث يذكر أن الخمرة من أسباب المرض وليس من أسباب الشفاء . فماذا يقول الأطباء في عصرنا ؟ ننقل للجواب على هذا ما ذكره صاحب كتاب روح الدين الإسلامي في هذا الموضوع ، وقد نقل هو قسماً من بحثه عن الإسلام والطب الحديث يقول :

" الخمر أساسها مادة الكحول بكميات مختلفة ، وهذه المادة توجد بنسبة خفيفة جداً في جسم الإنسان في عملية هضم المواد السكرية ... ولها فوائد طبياً ولكن يظهر أن هذه الفوائد قاصرة على هذا القدر البسيط جداً (والحديث لم يذكر أن ما يجري داخل الجسم من عملية التخمر فيه ضرر ولكن الكلام فيما نخمره ثم نشربه) فإن زاد عن ذلك أحدث ضرراً خصوصاً إذا كان التعاطي لمدة طويلة ، فإنه يحدث التهاباً مزمناً في الأعصاب وفي الكلى ، وتصلباً في الشرايين وتحجراً في الكبد ، وضعفاً في القلب . وربّ سائل يقول : لم لا يؤخذ منه مقدار بسيط ؟ (ولا يسأل هذا السؤال إلا إنسان يجهل أن الجسم متى اعتاد على الكحول طلبه وغلب عليه ، فلم يعد يستطيع الصبر عنه) والجواب أن الكحول يختلف عن أغلب المواد في أنه حتى بالمقادير البسيطة يحدث ضعفاً في قوة الإرادة والحكم ، وتزداد به الانفعالات النفسية ، وهذا هو الخطر ، لأن الشخص يصبح شخصاً آخر ، وإرادته تصبح غير إرادته الطبيعية ، ومع علمه بضرر الزيادة في حالته الاعتيادية لا يقوى على منع نفسه ، وهو تحت تأثير البسيط منه وقد يحدث الشيء البسيط منه حركة انتعاش ولكن ضعف الإرادة المتولدة منه يجعل الشخص عبداً لعادة شرب الخمر .

وإن تأثير الخمر يبدأ بمجرد وصول عشرة جرامات من الكحول إلى الدم للشخص البالغ ، وهذا القدر يوجد في كأس واحدة من ال威isky أو الكونياك ، وقد لا يصل الشخص إلى درجة السكر ، ولكن على كل حال له أثر ملموس في حالة الشخص الجسمية والعقلية ، وإذا فحص الشخص في هذه الحالة ، نجد أن درجة إدراكه وتقديره قد تغيرت فعلاً ، فهو مثلاً إذا كتب على الآلة الكاتبة زادت خطاؤه عن المعتاد ، وإذا قاد سيارة لم يتبع بالضبط قوانين المرور . وقد ثبت من الإحصائيات أن أكثر ن 13 في المائة من حوادث المرور سببها الخمر .

والجرعة الواحدة من الخمر تحدث شيئاً من الارتفاع في ضغط الدم ، وهذا الارتفاع وحده قد لا يكون له ضرر كبير ولكن الضرر يتضاعف إذا كان الشخص مرتفع الضغط من نفسه ، ثم إذا كانت كمية الخمر وافرة كانت كافية لأن تحدث هيجاناً يزيد في الضغط لدرجة ينفجر معها شريان في المخ ، يسبب شللاً قد ينجو منه الشخص جزئياً أو لا ينجو كلياً ، إذ من المعلوم أن الشخص الذي ضغطه الدموي مرتفع يجب أن يلتزم الهدوء في حياته ، لأن أي هيجان يزيد في ارتفاع الضغط يعرضه لانفجار شرياني ، والسكران لا يمكنه أن يضبط عواطفه ، وبالتالي لا يمكنه أن يضمن لنفسه هذا الهدوء .

والخمر تحدث عند غير المتعود عليها احتقاناً في المعدة ، قد يسبب غثياناً أو قيءاً ، وإذا كانت الجرعة كبيرة سبب التهاباً في المعدة وعسر هضم يمتد إلى بضعة أيام .

ويرى بعض الأطباء أن الخمر ولو كانت قليلة جداً ، فهي صارة بالخميرات في طول القناة الهضمية ، وهذه الخميرات ضرورية لسير حركة الهضم سيراً طبيعياً . والخمر لها تأثير في الوراثة ، فقد شوهد أن أولاد السكيرين ينشأون غير صحيحي الجسم ، ضعفاء البنية ناقصي العقول ، ويكون لديهم ميل إلى الإجرام ودافع إلى الشر . وأن من يبحث في كتب الطب يتواه العجب عندما يقرأ مسببات الأمراض المختلفة . إذ يجد للخمر نصيب الأسد في ذلك .

لقد أصبحت فكرة التداوي بالخمر محض خرافه وتأكد كونها داء بعشرات الطرق ، وأقل ما فيها ما ذكره "بتتم" في كتابه أصول الشرائع : النبيذ في الأقاليم الشمالية يجعل الإنسان كالآبله وفي الأقاليم الجنوبية يجعله كالمحنون¹ .

ولعله وضح بعد هذا كيف أن كلمة الرسول ﷺ لا ينقصها شيء ، لأنها محض الحق الذي لا تزيده الأيام إلا تثبيتاً وتأكيداً .

* * * *

د) - عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ "إن لكل داء دواء ، فإذا أصيّب دواء الداء برأ بإذن الله" رواه مسلم ، وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : "ما أنزل الله من داء

¹ روح الدين الإسلامي لعفيف الدين طيار .

إلا أنزل له دواء " رواه البخاري . وعن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : " إن الله تعالى أنزل الداء والدواء ، وجعل لكل داء دواء ، فتداووا ، ولا تداووا بحرام " .
أخرجه أبو داود .

هذه الأحاديث تلح أن لكل داء دواء ، فماذا قال الواقع ؟

لقد قال الواقع ولا يزال يقول كل يوم إن ذلك حق لا مرية فيه ، ففي كل يوم يكشف أهل الاختصاص دواء لداء لم يكن له دواء معروف . ولعلك تلاحظ أن العلماء مقلوبون على محاولة اكتشاف دواء كل داء بروح الواقع أنه لا بد أن يكون لكل داء دواء وإن جهلوه الآن ، فهم لا بد واجدوه . فأخذت هذه القضية مأخذ البديهية في أذهانهم ، وفي ذلك كله تجد كيف أن كلمة رسول الله ﷺ لا تنقض بل هي الصدق كل الصدق .

* * * *

هـ) - مما قرره علماء الظواهر الطبيعية في عصرنا أن ما ينزل سنويًا من الأمطار في العالم لا يتغير مقداره بتاتاً ، فلا يزيد ولا ينقص ولو مقداراً بسيطاً ، وعلوا ذلك بأن ما تقدمه الشمس من الحرارة نسبته ثابتة . والعوامل الأخرى التي تشارك في وجود ظاهرة المطر تبقى ثابتة ونسبة الأمطار وبالتالي لا تتغير بتاتاً في كل عام ، وأما ما نراه من كون المطر ينزل في منطقة واحدة بنسب مختلفة خلال سنين ، فهذا لا يؤثر على جوهر القضية ، لأنه ينقص في مكان على حساب زيادته في مكان آخر ، فالنسبة بالنسبة للعالم كله واحدة وإن اختفت بالنسبة لكل منطقة على حدة .

وانظر بعد هذا الذي قدمناه إلى هذا الأثر تجد أن علماء عصرنا ما - زادوا - على أن أكدوا مضمونه ليكون جزءاً من شهادة الواقع على صدق الرسول ﷺ والأثر هو : " ما عام بأمطار من عام "¹ .

* * * *

¹ تفسير ابن كثير سورة الفرقان .

و) - روى أبو داود والترمذى عن ابن عباس حديث دخوله وخالد بن الوليد مع رسول الله على ميمونة . ومن الحديث قال : قال ﷺ : " من أطعمه الله طعاماً فليقل اللهم بارك لنا فيه وأطعمتنا خيراً منه ، ومن سقاه الله لنا فليقل : اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه فإنه ليس شيء يجزي من الطعام والشراب إلا اللبن " .

إن هذه الحقيقة التي أشار إليها الحديث هي كون الحليب هو الغذاء الكامل وأي غذاء آخر يبقى فيه نقص كغذاء منفرد ، أصبحت الآن تجدها في أي كتاب عن علم التغذية يصدر الآن ، وذلك بعد أن تقدمت وسائل التحليل والتجريب ، وتقدمت العلوم ، فكانت حصيلة ما وصل إليه إنسان عصرنا متناسقة تماماً مع ما أشار إليه الرسول ﷺ في الحديث بشكل واضح ، وهذه الحقيقة على بساطتها تدل أن الكلمة النبوية حق وصدق لا يزددها مرور الأيام إلا ثباتاً .

* * * *

ز) - نشر الدكتور " جراد فنتسر " في مجلة كوسموس الألمانية مقالاً تحت عنوان : الأخطار التي تنشأ عن افتناء الكلاب والاقتراب منه جاء فيه :

" إن ازدياد شغف الناس بالكلاب في هذا العهد الأخير ، يضطرنا إلى لفت الأنظار للأخطار التي تجم عن ذلك وخاصة إذا دفع افتناؤها إلى مداعبتها وتقبيلها ، والسماح لها بلحس الأيدي وتركها تلعق فضلات الطعام من أوانيها ، فكل ما ذكره مع نبوءة عن الذوق السليم ، ومنافاته للآداب ، لا يتفق وقوانين الصحة فإن الأخطار التي تهدد صحة الإنسان وحياته بسبب هذا التسامح لا يستهان بها ، فإن الكلاب تصاب ببدوية شريطية تتعداها إلى الإنسان وتصيبه بأمراض عضالة قد تصل إلى حد العداون على حياته " .

وقد ثبت أن جميع أنواع الكلاب حتى أصغرها حجماً تسلم من الإصابة بهذه الديدان الشرطيـة .

وقد رأى في إقليم فريزلند بهولندا حيث تستخدم الكلاب في الجر . أن في كل مائة منها 12 إصابة . ووجد في إسلامنـدـه شخص مصاب بهذه الآفة في كل 43 شخصاً من أهاليـها .

وشوهد أن هذه النسبة تزيد في استراليا إذ ثبت وجود شخص في كل 39 شخصاً من سكانها مصاباً بها . وثبت كذلك أنها كانت سبباً مباشر للكثير من الأمراض في الأقطار الأخرى .

ثم يقول : " ومما تجب على الناس مراعاته عدم مداعبة الكلاب ، وتعويذ الأطفال التوقي منها . فلا تترك تلعق أيديهم ولا يجوز إبقاء الكلاب بمحال نزهة الأطفال ، وميادين رياضتهم ، ويجب أن لا تطعم الكلاب في الأواني المعدة لأكل الناس وأن لا يسمح لها بدخول متاجر المأكولات والأسواق العامة أو المطاعم . على وجه عام يجب إبعادها عن كل ماله صلة بمأكولات الإنسان ومشربه " .

وإن من كشوفات عصرنا استخراج كثير من مبيدات الجراثيم من التراب وخاصة تراب المقابر ، لأنه أكثر من غيره تلوثاً فمثلاً الستربتومايسين والتتراسكلين والنيوماسين ، وكلها من مبيدات الجراثيم ، استقى من التراب في استخراجها لوجود ذيفان في جراثيمه يقضي على أنواع من الجراثيم الأخرى .

ضع ما مر كله في ذهنك واقرأ هذا الحديث :

روى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : " طهور إماء أحدهم إذا ولغ فيه كلب أن يغسله سبع مرات أولاهن بالتراب " . إنك ترى أن كشوفات عصرنا قد برهنت على صدق ما دلنا عليه الحديث .

* * * *

4- وأخيراً : فإنه ما من كلمة قالها رسول الله ﷺ إلا والحق والصدق مضمونها . ولكن كلام رسول الله ﷺ ينقسم إلى قسمين :

1- ما له علاقة بالغيب .

2- ما له علاقة بالمشهود المحسوس .

فالنوع الثاني فقط هو الذي يستطيع الإنسان أن يختبره فإذا ما ثبت صدقه فيه كان ذلك آية صدقه على الأول ، هذا مع أن الله عز وجل علامات أخرى تدل على صدقه ﷺ في أمر

الغيب ، هي المعجزات والنبوءات . فرسول^ﷺ ثبت صدقه في كل شيء مع هذه المؤيدات لا يبقى مجال أما الإنسان إلا التسليم له .

ونحب أن نذكر هنا بعض الملاحظات المهمة بمناسبة كلامنا عن صفة الصدق عنده عليه الصلاة والسلام :

الملاحظة الأولى : إن معرفة صحة الحديث ، وتأكد ثبوته عن رسول الله ﷺ . ينبغي أن يسبق دراسة المضمون . لأن كثيراً من الكلام دُسَّ عليه ، وقد قام العلماء بتمحیص الصحيح من كل ما روی عنه الصلاة والسلام ، فلا بد من الرجوع إلى ما أثبتوه أولاً ، ليكون تحليل المضمون قائماً على أساس سليم ، وينبغي أن يتواافق هذا في كل دراسة لها علاقة برسول الله ﷺ .

الملاحظة الثانية : إن بعض الألفاظ في اللغة العربية نقلت من مدلولاتها اللغوية إلى مدللات شرعية ، فصارت تطلق على كلا المدلولين وقد تستعمل في القرآن وفي حديث الرسول تارة بالاستعمال الأول ، وتارة بالاستعمال الجديد ، فلا بدل لدارس النص من أن يتأكد من نوعية استعمال اللفظ في النص الذي يدرسه . فمثلاً كلمة " السماء " ذكرت أحياناً في القرآن للدلالة على المعنى اللغوي وهو كل ما على . وذكرت أحياناً للدلالة على السماء التي هي سكن الملائكة وفيها من عالم الغيب فلا بد لدارس نص فيه مثل هذا أن يعرف بواسطة القرآن المقصود الحقيقي من اللفظ في هذا محل . وقد أخطأ كثيرون في فهم النصوص نتيجة لعدم وضوح هذا عندهم فعرضوا قضايا على أنها حقائق وهي ليست كذلك ، وأنكروا قضايا هي من باب الحقائق ، وهم في كلا الحالتين متوجهون ، وجعلوا توهّمهم من الإسلام ، فحملوا الإسلام ما ليس منه جهلاً .

الملاحظة الثالثة : إن بعض الأمور تكون نتيجة لعوامل كثيرة ، كل عامل من هذه العوامل يكون سبباً من عدة أسباب مؤثرة فيه ، وفي هذه الحال لو ذكر إنسان سبباً فقط ولم يذكر الآخر لا يعني هذا أنه ينفي البقية . فمثلاً قد يكون الكسل نتيجة لاجتماع الحر والتعب والضجر والعادة والملل ، وقد تجتمع هذه الأسباب كلها عند إنسان ، فلو قلت لهذا الإنسان : الحر جعلك تكسل لا يعني هذا أنني أنفي الأسباب الأخرى لكتلته ، وهناك كثير من القضايا ربطها الله - عز وجل - بأسباب حسية وأسباب غيبية ، كالموت مثلاً فإن له سبباً حسياً هو المرض ، وآخر غيبياً هو قبض الروح من قبل الملك الموكل بذلك ، وأمور كثيرة من هذا

النوع ، والقرآن والحديث قد يتحدثان في موقف عن السبب الحسي لقضية ، وقد يتحدثان في موقف آخر عن السبب الغيبي لها ، ولا يعني أن ذكر أحدهما في موطن نفي الثاني .

ومن هنا نجد أن كثريين من الناس يتوهون في فهم بعض النصوص ، فتراءهم إذا قرءوا نصاً يتحدث عن السبب الغيبي فقط لقضية لها سبب حسي كذلك ، إنهم ينفون السبب الحسي أو العكس في القضايا المقابلة ، وذلك جهل عظيم يقابل جهل الذين يثبتون السبب الحسي فقط ، ولا يثبتون معه السبب الغيبي الذي أخبرنا به الرسول الصادق p . إن القوارع والجواح والمصابيح التي تصيب بني البشر لها أسبابها العادلة ، ولا يتنافي هذا مع كونها بقدرة الله وإرادته انتقاماً من الناس بما صنعوا وتذكيراً لهم حتى يرجعوا . قال تعالى : {وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا فَارْعَهُ أَوْ تَحْلُّ فَرِيَّا مِنْ دَارِهِمْ} ¹ .

الملاحظة الرابعة : تمثل كتب التصوف الإسلامي بالحديث عن اكتشاف بعض عوالم الغيب لأناس ، ويقول بعض السائرين إلى الله : إن أي إنسان يفعل ما يفعلون يصل مثل الذي يصلون إليه من مثل هذه المشاهدات التي تزيد في يقين الإنسان ، ويلاحظ أن بعض الذين يقولون مثل هذا الكلام ناسٌ مُجْمَعٌ على توثيقهم وصدقهم ، وهذا لا شك من جملة المؤكّدات لصدق رسالة الرسول p ، ولكننا نحب هنا أن نذكر بعض الضوابط لنعرف حدود ما يمكننا قوله من هذا الكلام فنقول :

1- إن إمكانية رؤية بعض عوالم الغيب ضمن شروط معينة جائزة . أشار إليها الرسول p ووقعت لبعض الصحابة ، فقد روى أحمد قول رسول الله p لأصحابه وهو يسمع عذاب القبر : " لو لا تمرغ قلوبكم وتزدكم في الحديث لسمعتم ما أسمع " . وقد روى مسلم قول رسول الله p لأبي بكر وحنظلة : " والذي نفسي بيده لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتم الملائكة على فرشكم وفي طرقم ، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة ، ساعة وساعة ، ساعة وساعة " . وأخرج البخاري عن أبي بن حبيب قال : بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة وفرسه مربوطة عنده إذ جالت الفرس ، فسكت فسكنت الفرس ثم قرأ فجالت وكان ابنه يحيى قريباً منها فانصرف فأخرجه ، ثم رفع رأسه إلى السماء فإذا مثل الظلّة فيها أمثل المصايف ، فلما أصبح حدث النبي p فقال : وتدرى ما ذاك ؟ قال : لا . قال : " تلك الملائكة دنت لصونك ، ولو قرأت لأصبحت ينظر إليها الناس لا تتوارى منهم " . وأخرج

الشيخان والترمذى عن البراء قال : كان رجل يقرأ سورة الكهف وعنه فرس مربوطة بشطين فتغشته سحابة فجعلت تدنو وجعل فرسه ينفر منها فلما أصبح أتى النبي ﷺ فذكر له فقال : " تلك السكينة تنزلت للقرآن " .

2- لكننا لا نستطيع قبول كلام يدعى صاحبه أنه من مثل هذا إلا بشروط منها :

أ- أن يكون منمن تقبل شهادته ، فالفاشق والمبتدع والضال وجميع هؤلاء لا تقبل شهادتهم وكلامهم في مثل هذه القضايا .

ب- وأن يكون هذا الاطلاع أكثر من آثار التزامه بشرعية الله ، وسنة رسول الله ، فلا قبل كلام إنسان ادعى أنه شاهد من مثل هذا باتباعه طريقاً لم يشرعه لنا رسول الله ، لأنه بعمله فسق والفاشق لا شهادة له .

ج- وأن يكون ما اطلع عليه من عالم الغيب متفقاً مع أن ما أخبر عنه رسول الله ، لأن رسول الله هو الذي لا يمكن أن يكون في كلامه خطأ ، ولأن الله جعله الحجة على الناس في كل شيء ، فلا قبل كلام إنسان ينقضه نص .

د- وألا يكون مدعاه أنه شاهد شيئاً تستحيل مشاهدته شرعاً في قوانين كوننا الحالية ، أو يرتب على مشاهدته تشريعات محدثة .

فمن توافرت فيه هذه الشروط وأخبرنا أنه قد حدث له من هذه الكشفات ، فلا علينا لو قبلنا كلامه إذ لا مبرر لتكذيبه ، ولم يعرف عنه إلا الصدق ، ولعل الفارق بين العقل الخرافي العقل العلمي هو التثبت لا الإنكار دون مبرر ، فهذا نوع من المرض العقلي يشبه المرض الآخر .

الملاحظة الخامسة : إن هناك ظواهر غيبية كثيرة تحتاج إلى تحليل ووضع لها في محلها الصحيح :

- 1- ظاهرة الأحلام .
- 2- ظاهرة التنويم المغناطيسي .

- 3- ظاهرة تحضير الأرواح .
- 4- ظاهرة الاتصال بعالم الجن .
- 5- ظاهرة التبائي .

هذه الظواهر وكل منها يدعم قضية الإيمان بعالم الغيب من زاوية من الزوايا ، بصرف النظر عن تعليل هذه الظواهر ، إلا أنها جمِيعاً تشير إلى قضية واحدة هي وجود عالم غيبي كما أخبر الرسل ، تمثل هذه الظواهر جزءاً منه .

فانكشاف شيء من المستقبل البعيد للإنسان وهو في حالة النوم ، ووقوعه في كثير من الأحيان حرفياً دون أن يكون في بعض الحالات تفكير مسبق عنه ، دليل على وجود علم محيط بالمستقبل ، هو غيب بالنسبة لنا .

وظاهرة التقويم المغناطيسي تدل بشكل لا يقبل الجدل ، على وجود الروح وعلى أن لها قوانينها وعالمها الخاص ، فالإنسان في حالة النوم المغناطيسي ، تكون حواسه كلها معطرة ، وحتى الأفعال الانعكاسية تكون في حالة شلل تام ، حتى لو وُخزت النائم بإبرة فإنه لا يظهر عليه أي شعور ، ومع ذلك فإنه تسأله عن أشياء بعيدة عنه ، فيحدثك عنها وكأنها لا يراها وهو لا يعرفها في حالة اليقظة ، ولا يستطيع لو كان مستيقظاً أن يجيب على أي سؤال مما أجاب عليه وهو نائم ، فإذا استيقظ من هذا النوع من النوم فإنه لا يتذكر شيئاً مما سُئل عنه وأجاب . وهذه نقول عجيبة سجلت في حالات التقويم المغناطيسي :

نقل " بيو " في كتابه : " المخاطبات على التقويم المغناطيسي " هذه المحاوره بين منوم ومنومة كما نقلها " شارول " قالت المنومة : هل تسمع ما يأمرني به ؟ فقال الدكتور : من هو الذي يأمرك ؟ فقالت هي : ألسنت تسمعه ؟ فقال : كلام أسمع شيئاً ولم أر أحداً . قالت : حقيقة لأنك نائم وأنا يقظى . فقال لها الدكتور : كيف ذلك أتدعين أبي نائم وأنت يقظى ، مع أنك تحت تأثير إرادتي في الحالة المغناطيسية ، إنك تتوهمين أنك يقظى لكونك تكلميني ، وإنك متمنع بنوع من الإرادة ، ولكنك في الحقيقة لا تستطيعين أن تفتحي جفنيك . قالت : إني أكرر لك القول بأنك أنت النائم وأنا بالعكس اليقظى تماماً على مثل الحالة التي سنكون عليها جميعاً في يوم ما لأفسر لك ذلك . إن كل الذي تستطيع أن تراه أنت ليس إلا أشكالاً غليظة مادية ، فلا يمكن أن تميز إلا أشكالها الظاهرة ، ولكن جمالها الحقيقي محظوظ عنك تماماً ، أما أنا في حالة وقوف وظائفي أعضائي الآن وفي حالة حرية روحية من علاقتها الاعتبادية ،

فإنني أرى ما هو مستور عنك وأسمع ما لا يمكنك سماعه ، وأفهم كل ما هو غير مفهوم لديك. إلى أن قالت : وإنني بمجرد الإرادة أستطيع أن أسمع الأصوات البعيدة عني ولو كان بيني وبينها مائة فرسخ . وبالاختصار فإنني لا أحتاج أن تأتي الأشياء إليّ أنا بل أذهب إليها حيثما كانت ، وأحكم على حقيقتها بطريقة أضبط مما يحكم بها عليها أي إنسان آخر لا يكون في الحالة التي أنا عليها .

ونقل " أكزاكوف " في كتابه : " المذهب الروحي وفن استحضار الأرواح " ما يلي :

" إن زوجة الإنجليزي الشهير " دومرجان " معتادة على تنويم امرأة وجعل روحها تخرج من جسدها وتذهب إلى المحل الذي تعينه لها ، فقالت لها يوماً وهي تحت تأثير النوم المغناطيسي : إذهب إلى منزلي القديم فقالت المنومة : قد فعلت وطرقت الباب بشدة ، قالت زوجة دومرجان : فذهبت في اليوم التالي لتأكد من صدقها ، وسألت عما حصل في تلك اللحظة فأجابني السكان بأنهم سمعوا طرقاً شديداً على الباب ، فذهبوا إليه فلم يجدوا أحداً فلعلوا أن ذلك فعل الأشقياء من الأطفال .

وينقل أكزاكوف كذلك حادثة أخرى لها علاقة بظاهرة تحضير الأرواح ، هي أنه كان يحضر روحًا مع ثلاثة من إخوانه ، وكانت الواسطة امرأة شهيرة هي مدام " دسبرانس " فشاهد أن الروح تجسدت من نصفها الأعلى وأن الواسطة التي هي المرأة قد فقدت أطرافها السفلية تماماً . وقد فحصوا ذلك بأيديهم وأعينهم وهم في غاية الدهشة ، فلم يجدوا لأطرافها أثراً ثم لما ذهبت الروح عادت إليها أطرافها ، وقد شاهد مثل هذه الحادثة التي فيها يفني جسد الواسطة كله أو بعضه علماء آخرون " .

وظاهرة تحضير الأرواح ظاهرة التنويم المغناطيسي أصبحت منتشرة في كل مكان في العالم ، وهي تدل بمجملها على وجود عالم الغيب ، إذ الأرواح التي تحضر قسم منها يذكر أنه أرواح بشر ، وأخرى تذكر أنها أرواح جن ، وهي كما رأيت في بعض مظاهرها أن بعض الأجسام لا ترى مع وجودها إذا كانت في حالة روحية معينة .

وأما ظاهرة التبائي¹ وهي الظاهرة التي تحدث لبعض الناس ، إذ يشاهدون حوادث بعيدة جداً بشكل خارق ، فهي كذلك تدل على أن في الإنسان شيئاً غير الجسد ، وأما ظاهرة الاتصال بالجن وهي ظاهرة موجودة بشكل واضح في بعض المناطق ولها خصائصها الغريبة. فهي تؤكد بشكل ما وجود عالم الجن والشياطين الذي أخبر عنه الرسل . هذه الظواهر كلها تشير وتؤكد أن هناك عالم غيب ، ولكن هذه الظواهر كلها لا يصح أن تكون وسيلة من وسائل المعرفة وطريقاً من طرق الهدایة ، إذ ما من واحدة منها فيها ضمانة على أنها طريق سليم للمعرفة ، إذ يختلط بها الكذب بالصدق ، والحق بالباطل ، وروح الشيطان بروح الإنسان ، وليس هناك مسؤولية محددة ، كما أن للدجل في كثير من أحوالها نصباً . لذلك يبقى أمام الإنسان طريق وحيد مأمون لمعرفة عالم الغيب ، هو طريق الرسول المؤيد بالمعجزة من عالم الغيب ، وهي شهادة ضمان كاملة على الحق ، عدا عن كون البلاغ يأتينا عن مصدر ثقة مسؤول مشاهد لنا معروف ، مadam الرسول وحده هو المصدر الوحيدة للمعرفة في موضوع عالم الغيب ، فينبغي أن يعرض استخدام هذه القضايا على هديه ، ليعرف حكم الجواز أو عدمه . كما ينبغي أن يعرض ما يأتينا منها على هديه ليعرف وجه الحق فيه ، ولا يصح أبداً أن نعتبر أمثل هذه الطرق وسيلة من وسائل المعرفة الجازمة أو طريقاً من طرق الهدایة المستقلة .

الملحوظة السادسة : إن سبب التزامنا الكامل بقول الرسول ﷺ كمقاييس وحيد للحق ، وهو أنه وحده الذي كلفنا الله - عز وجل - باتباعه وتصديقه ، وألزمنا ذلك وأقام علينا الحجة فيه بالعلامات الكثيرة التي جعلها مؤيدة له ، وشاهد صدق على رسالته ، فكان هذا ضماناً لنا بأنه على الحق والصدق اللذين لا شبهة فيها ، لأن الله وحده هو المحيط علماً بكل شيء ، والمنزه عن كل خطأ ، وهذا رسوله ﷺ الذي ينطق بأمره ووحيه ، فهو كذلك منه عن الخطأ والباطل برعاية الله وتعلمه ، وهذه شهادة الواقع تثبت أن الحق كل الحق في كل كلمة قالها رسول الله ﷺ .

ذكرنا هذه الملاحظات الستة في معرض الحديث عن صفة الصدق عند رسول الله ﷺ لأن الذي يصرف بعض الناس عن الإيمان شبهة لها علاقة بواحدة من هذه الملاحظات ، كمثل ذلك الذي يستبعد وجود عالم غيبي ، أو كذلك الذي أشكّل عليه نص ، إما لأن النص

¹ انظر مادتي "نوم" ج 10 ص 412 و "روح" ج 4 ص 369 في دائرة معارف القرن العشرين لفرید وجدي .

غير صحيح النسبة لرسول الله . أو لعدم حمل الحديث على المعنى المراد . أو لقصور
الاطلاع وهكذا ...

وعلى كل فإن كل ما كتبناه هنا عن صفة الصدق لرسول الله هو مقدمة البرهان عليها
. وإنما في هذا البحث بأبوابه الخمسة برهان عليها وتأكيد لمضمونها بالشكل الذي يتلخص
بإذن الله ببرد اليقين .

والآن ننتقل لاستعراض الصفة الأساسية الثانية للرسل وحظه الأفضل منها عليه
الصلوة والسلام .

* * *

2 - التزامه الكامل م بتطبيق ما يدعوه إليه

شهدت البشرية في تاريخها الطويل انفصالاً بين المثل والواقع ، بين المقال والفعال ، بين الدعوى والحقيقة ، وكان دائماً المثال والمقال والدعوى ، أكبر من الواقع والفعل والحقيقة ، وهذا شيء يعرفه من له أدنى معرفة بالتاريخ والحياة ، غير أن هذه الظاهرة تكاد تكون مفقودة في واقع أتباع الرسل المخلصين ، فمن باب أولى أن تكون مفقودة في حياة الرسل الذين تجد واقعهم أعظم من كل تصور نظري ، فهم وحدهم الذين دعوا الإنسانية إلى أعظم قيم السمو ، ومثلوا هم بسلوكهم العملي هذه الذروة بشكل رائع مدهش عجيب ، وهذا بحد ذاته من أدلة صدقهم . إذ الالتزام بالسمو لا تطique النفس البشرية عادة ما لم تتهب هذه النفس بداعي الخضوع لأمر الله بعد الإيمان به ، ومعرفة أمره ، ويستطيع الإنسان أن يعرف هذا بالتجربة ، إذا شاهد أحوال الكافرين ، فمثلاً قد يحاول كافر أن يقلد مسلماً في صلاته متظاهراً بالإيمان ، فإذا ما رأقت مثل هذا وجدته عملياً لا يبقى على حالة واحدة من التطبيق ، كما أن تطبيقه يكون بسيطاً جداً ، ثم هو إن كان بحيث لا يراه الناس فإنه لا يفعل شيئاً أصلاً ، فعندما ترى الرسل في عبادتهم العجيبة الكثيرة لله ، مع قيامهم بأمر الله كما كلفهم على ما في ذلك من مشقة أو جهد ، دون تكلف بل بكامل الرضا والسعادة ، فذلك لا شك دليل صدق لا يدحض .

ولما كان الكلام هنا خاصاً عن محمد رسول الله ﷺ ، وظهور هذا في حياته العملية على أعلى ما يخطر ببال بشر ، رأينا أن نختار بعضاً من الأوامر والنواهي القرآنية التي وجهها الله لرسوله في قضايا متعددة ، لنرى كيف كان قيام رسول الله بها دليلاً كاملاً على أنه رسول الله ﷺ ، وحرصنا على أن تكون الأوامر التي ندرسها مختلفة الجوانب لنرى كيف كان يقيم رسول الله ﷺ كل أمرًّا به بشكل كامل . بحيث لا يكون تنفيذه لأمر مضيقاً لأمر آخر ، كما نرى عند بعض الناس ، إذ نراهم مقبلين على تنفيذ أمر الله في العبادة مثلاً ، مفرطين في بقية أوامر الله وتکاليفه ، لكن رسول الله ﷺ كان يقوم بكل أمر بما لا يسبق إليه ، مع إحاطته وعدم تفريطه بأي جانب من جوانب الإسلام الذي كلف به ، وأمر أن يدعو إليه ، حتى إنَّ الدارس المنصف لحياته في هذا الجانب لا يتمالك إلا أن يشهد أنه رسول الله حقاً . يقول الجندي ملك عُمان لما بلغه أن رسول الله يدعوه إلى الإسلام : (والله لقد دلني على هذا النبي الأمي : أنه لا يأمر بخير إلا كان أول آخذ به ، ولا ينهى عن شر إلا كان أول تارك له ، وإنه يغلب فلا يبطر ويُغلب فلا يضجر ، ويفي بالعهد وينجز الموعود ، وأشهد أنهنبي) .

والتكاليف التي اخترناها لرؤيه تطبيقه العملي لها هي ما يلي :

- أ- قوله تعالى : {إِنَّ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِّنَ الشَّاكِرِينَ} ^١.
- ب- قوله تعالى : {وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ فَلُ الْعَفْوُ} ^٢. {وَلَا تَمْدَنَ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} ^٣.
- ج- قوله تعالى : {وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ} ^٤.
- د- قوله تعالى : {يَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدُ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلُظْ عَلَيْهِمْ} ^٥.
- هـ- قوله تعالى : {وَأَنْ حَكِيمٌ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَبَعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذِرْهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ} ^٦. {كُوئُوا فَوَامِنَ بِالْقِسْطِ} ^٧.

فلن نماذج من تطبيقه لكل أمرٍ من الأوامر الآنفة الذكر ، مع ملاحظة أن كل أمر من أوامر الله له كان يقوم به على مثل هذا ، بحيث لا تجد أمراً من أوامر الله إلا وله من تنفيذه أعلى حظ يتصوره بشر ، لأنه أعظم إنسان مثل العبودية لله على الأرض .

أ - نماذج من تنفيذه للأمر الأول {إِنَّ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِّنَ الشَّاكِرِينَ} :

أخرج الشیخان عن عائشة قالت : " كان النبي يقوم من الليل (أي مصلياً الله) حتى تنقطع قدماه ، فقلت له : لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : أفلأ كون عبداً شكوراً ! " .

وذكر المغيرة عن رسول الله مثل هذا .

^١ الزمر : 66.

^٢ البقرة : 219.

^٣ طه : 131.

^٤ الحجر : 88.

^٥ التوبه : 73.

^٦ المائدة : 49.

^٧ النساء : 135.

وأخرج البخاري عن عائشة "أن رسول الله ﷺ كان يصلی إحدى عشرة ركعة (أي في الليل) يسجد السجدة من ذلك قدر ما يقرأ أحدكم خمسين آية قبل أن يرفع رأسه ، ويرکع رکعتين قبل صلاة الفجر ، ثم يضطجع على شفه الأيمن حتى يأتيه المنادي للصلاة " .

وأخرج الشیخان عن ابن مسعود قال : " صلیت مع النبی ﷺ لیلة فلم یزل قائماً حتی هممت بأمر سوء ، قیل : ما هممت ؟ قال : هممت أن أجلس وأدعاه " .

وأخرج مسلم عن حذيفة قال : " صلیت مع النبی ﷺ ذات لیلة فافتتح البقرة ، فقلت : يرکع عند المائة ، ثم مضی ، فقلت : يصلی بها رکعة (أي بالبقرة) فمضی فقلت : يرکع بها ، ثم افتتح النساء فقرأها ، ثم افتتح آل عمران فقرأها (وهذه سور تعدل سدس القرآن) يقرأ مسترسلًا إذا مر بآية فيها تسبيح سبحان ربی العظیم ، فكان رکوعه نحوًا من قیامه ، ثم قال : سمع الله لمن حمده ، ربنا لك الحمد ثم قام طويلاً قریباً مما رکع ، ثم سجد فقال : سبحان ربی الأعلى ، فكان سجوده قریباً من قیامه".

وروى مسلم عن عائشة قالت : " كان رسول الله ﷺ إذا فاتته الصلاة (أي قیام اللیل) من وجع أو غيره صلى من النهار اثنتي عشرة رکعة " .

وأخرج مالك والترمذی وأبو داود عن عائشة قالت : " فقدته ﷺ من الفراش فالتمسته فوقعت يدي على بطن قدميه وهو ساجد يقول : اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك " .

وأخرج البخاري عن أنس قال : " كان رسول الله ﷺ يفطر من الشهور حتى نظن أن لا يصوم منه ، ويصوم حتى نظن أن لا يفطر منه شيئاً ، وكان لا تشاء أن تراه من اللیل مصلياً إلا رأيته ولا نائماً إلا رأيته " .

وروى الترمذی عن عائشة قالت : " كان رسول الله ﷺ يتحرى صوم الاثنين والخميس

وروى النسائي عن ابن عباس قال : " كان رسول الله ﷺ لا يفطر البيض في حضر ولا سفر " .

وروى البخاري ومسلم عن ابن عمر قال : " كان رسول الله ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان " .

وروى البخاري ومسلم عن عائشة قالت : " كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر الأواخر من رمضان أحياناً الليل كله ، وأيقظ أهله ، وجداً وشدّ المئزر " .

وروى البخاري ومسلم عن عائشة قالت : " لم يكن النبي ﷺ يصوم من شهر أكثر من شعبان ، فإنه كان يصوم شعبان كله وفي رواية : كان يصوم شعبان إلا قليلاً " .

وعن ابن مسعود قال : " قال لي رسول الله ﷺ : أقرأ على القرآن . فقلت : أقرأ عليك وعلىك أنزل ؟ فقال : إنني أحب أن أسمعه من غيري . فقرأت عليه سورة النساء حتى بلغت هذه الآية : {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً} فقال : حسبك فالتفت فإذا عيناه تذرفان " (أي يبكي) رواه البخاري ومسلم والترمذى وأبو داود ومالك .

وروى مسلم عن عائشة قالت : " كان رسول الله ﷺ يذكر الله على كل أحيانه " .
وروى أبو داود والترمذى بإسناد حسن صحيح عن ابن عمر قال : كنا نعدل لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مائة مرة : رب اغفر لي وتب على إني أنت التواب الرحيم " .

وروى مسلم عن الأغر المزني أن رسول الله ﷺ قال : " إنه ليран على قلبي وإنني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة " .

وقال الحسن بن علي : " سألت أبي عن دخول رسول الله ﷺ (أي إلى بيته) فقال : كان دخوله لنفسه مأذوناً له في ذلك ، وكان إذا أوى إلى منزله جزاً دخوله ثلاثة أجزاء جزءاً لله وجزءاً لأهله وجزءاً لنفسه ، ثم جزاً جزءاً بينه وبين الناس فرد ذلك على العامة بال خاصة " أخرجه الطبراني في الكبير .

وهذه نماذج متممة من مناجاته لله وذكره له في بعض أحواله :

عن جويرية - زوج النبي ﷺ أن رسول الله خرج من عندها بكرة حين صلى الصبح . وهي في مسجدها ، ثم رجع بعد أن أضحي وهي جالسة ، فقال : ما زلت على الحال التي فارقتك عليها قالت : نعم ، قال : لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن : " سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته " ^١.

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : " كان رسول الله ﷺ إذا كبر للصلوة سكت هنيهة قبل أن يقرأ ، فقلت : يا رسول الله ! بأبي أنت وأمي ، سكوتك بين التكبير والقراءة ما تقول ؟ قال : أقول " اللهم نفني من خطايدي كما ينفی الثوب الأبيض من الدنس . اللهم اغسلني من خطايدي بالماء والن้ำ والبرد " أخرجه الخمسة إلا الترمذى وهذا لفظ الشيختين .

زاد أبو داود والنسيائي في أوله : " اللهم باعد بياني وبين خطايدي كما باعدت بين المشرق والمغرب " .

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : " كان رسول الله ﷺ يقول في سجوده : اللهم اغفر لي ذنبي كله دقه وجله ، أوله وأخره ، سره وعلانيته " ^٢ .

وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت : " كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في رکوعه وسجوده : سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي ، يتأنى القرآن " ^٣ (أي يطبق ما جاء في القرآن من أمر الله) .

وفي أخرى لمسلم وأبي داود والنسيائي : كان يقول في رکوعه وسجوده " سبح قدوس رب الملائكة والروح " .

وعن جابر - رضي الله عنه - قال : " كان رسول الله ﷺ إذا ركع قال : اللهم لك رکعت وبك آمنت ولك أسلمت وعليك توكلت أنت ربى خشع سمعي وبصري ولحمي ودمي وعظيمى الله رب العالمين " . أخرجه النسائي .

^١ أخرجه أبو داود والترمذى والنسيائي ، ومسلم بلفظه .

^٢ أخرجه مسلم وأبو داود .

^٣ أخرجه مسلم .

وعن ابن أبي أوفى - رضي الله عنه - قال : " كان رسول الله ﷺ إذا رفع ظهره من الركوع قال : سمع الله لمن حمده ، اللهم ربنا لك الحمد ملء السماوات وملء الأرض وملء ما شئت من شيء بعد " أخرجه مسلم وأبو داود والترمذى .

وعن ابن عباس - رضي الله عنهم - قال : " كان رسول الله ﷺ يقول بين السجدين : اللهم اغفر لي وارحمني واجبرني واهدни وارزقني " أخرجه أبو داود والترمذى واللفظ له .

وعن علي - رضي الله عنه - قال : " كان رسول الله ﷺ إذا سجد قال : اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت ، سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره ، تبارك الله أحسن الخالقين ثم يكون آخر ما يقول بين التشهد والتسليم : اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أسرفت وما أنت أعلم به مني ، أنت المقدم وأنت المؤخر ، لا إله إلا أنت " ¹ .

وعن ابن عباس - رضي الله عنهم - قال : " كان رسول الله ﷺ يقول بعد التشهد : اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم ، وأعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة الدجال ، وأعوذ بك من فتنة المحييا والممات " ² .

وعن ابن عباس - رضي الله عنهم - قال : " سمعت رسول الله ﷺ ليلة حين فرغ من صلاته يقول : اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي وتجمع بها أمري ، ونلم بها شعثي وترد بها غائببي ، وترفع بها شاهدي ، وتركى بها عملي ، وتهمني بها رشدي ، وترد بها أفتى ، وتعصمني بها من كل سوء . اللهم أعطني إيماناً ويقيناً ليس بعده كفر ، ورحمة أثال بها شرف كرامتك لي في الدنيا والآخرة . اللهم إني أنزل بك حاجتي ، وإن قصررأيي وضعف عملي وافتقرت إلى رحمتك ، فأسألك يا قاضي الأمور ، ويا شافي الصدور كما تجبر بين البحور أن تجيرني من عذاب السعير ، ومن دعوة الثبور ، ومن فتنة القبور . اللهم ما قصر عنه رأيي ، ولم تبلغه مسألي ولم تبلغه نيتني من خير وعدته أحداً من خلقك أو خيرٍ أنت معطيه أحداً من عبادك ، فإني راغب إليك فيه وأسألك برحمتك يا رب العالمين .

¹ أخرجه مسلم وأبو داود والترمذى والنمسائى .

² أخرجه السنّة إلا البخاري .

اللهم يا ذا الجل الشديد والأمر الرشيد أسائلك الأمان يوم الوعيد ، والجنة يوم الخلود مع المقربين الشهد ، الركع السجود ، الموفين بالعهود ، إنك رحيم ودود ، وإنك تفعل ما ت يريد . اللهم اجعلنا هادين مهتدين غير ضالين ولا مضللين ، سلماً لأوليائك حرباً لأعدائك ، نحب من أحبك ، وننادي بدعواتك من خالفك . اللهم هذا الدعاء وعليك الإجابة وهذا الجهد وعليك التكلان . اللهم اعل نوراً في قلبي ، ونوراً في قبري ، ونوراً من بين يدي ، ونوراً من خلفي ، ونوراً عن يميني ، ونوراً عن شمالي ، ونوراً من فوقي ، ونوراً من تحتي ، ونوراً في سمعي ، ونوراً في بصرني ، ونوراً في شعري ، ونوراً في بشري ، ونوراً في لحمي ، ونوراً في دمي ، ونوراً في مخي ، ونوراً في عظامي ، اللهم أعظم لي نوراً ، وأعطني نوراً ، واجعل لي نوراً ، سبحان الذي تعطف العز وقال به ، سبحان الذي لبس المجد وتكرم به ، سبحان الذي لا ينبغي التسبيح إلا له ، سبحان ذي الفضل والنعم ، سبحان ذي المجد والكرم ، سبحان ذي الجلال والإكرام ^١ .

وعن ثوبان - رضي الله عنه - قال : " كان رسول الله ﷺ إذا سلم يستغفر ثلاثة ويقول : " اللهم أنت السلام ومنك السلام ، تباركت وتعاليت يا ذا الجلال والإكرام " ^٢ .

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : " كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل يتهدج قال : اللهم ربنا لك الحمد أنت قيم السماوات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت مالك السماوات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، أنت الحق ، ووعدك الحق ، ولقاوك حق ، وقولك الحق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنبيون حق ، ومحمد ﷺ حق ، والساعة حق ، اللهم لك أسلمت وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفر لي ما قدمت ، وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أنت أعلم به مني ، أنت المقدم ، وأنت المؤخر ، لا إله إلا أنت " ^٣ .

عن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال : " كان رسول الله ﷺ يقول إذا أمسى : أمسينا وأمسى الملك لله والحمد لله . لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قادر . رب أسائلك خير ما في هذه الليلة وخير ما بعدها ، وأعوذ بك من شر هذه الليلة وشر ما بعدها . رب أعوذ بك من الكسل وسوء الكبر . رب أعوذ بك من

^١ أخرجه الترمذى .

^٢ أخرجه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى .

³ أخرجه السنّة .

عذاب في النار ، وعذاب في القبر . وإذا أصبح قال ذلك : أصبحنا وأصبح الملك الله والحمد لله .. ^١ .

عن أنس - رضي الله عنه - قال : " كان رسول الله ﷺ إذا أوى إلى فراشه قال : الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا ، وكفانا وآوانا فكم من لا كافي له ولا مؤوي " ^٢ .

وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت : " كان رسول الله ﷺ إذا أخذ مضجعه نفت في يديه وقرأ المعوذتين ، وقل هو الله أحد ، ويمسح بهما وجهه وجسده ، يفعل ذلك ثلاث مرات فلما اشتكيتُ كان يأمرني أن أفعل ذلك به " ^٣ .

وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت : " كان رسول الله ﷺ إذا استيقظ من الليل قال : لا إله إلا أنت سبحانك لله وبحمدك ، أستغفرك لذنبي وأسألك رحمتك ، اللهم زدني علماً . ولا ترث قلبي بعد إذ هديتني وهب لي من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب " ^٤ .

وعن علي - رضي الله عنه - قال : " كان رسول الله ﷺ يقول عند مضجعه : اللهم إني أعوذ بوجهك الكريم وبكلماتك التامات من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها . اللهم أنت تكشف المغrom والمأثم ، اللهم لا يهزم جندك ، ولا يخلف وعدك ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد . سبحانك لله وبحمدك " ^٥ .

عن أم سلمة - رضي الله عنها - قالت : " كان رسول الله ﷺ إذا خرج من بيته قال : بسم الله توكلت على الله . اللهم إنا نعوذ بك من أن ننزل أو نضل ، أو نظلم أو نظلم ، أو نجهل أو يجهل علينا " ^٦ .

وعن ابن عمر - رضي الله عنهم - قال : " قلماً كان رسول الله ﷺ يقوم من مجلسه حتى يدعوه بهؤلاء الدعوات لأصحابه : اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين

^١ أخرجه مسلم والترمذى وأبو داود .

^٢ أخرجه الترمذى .

^٣ أخرجه السنّة إلا النسائي .

^٤ أخرجه أبو داود والنسائي .

^٥ أخرجه أبو داود .

^٦ أخرجه أصحاب السنن .

معاصي ، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ، ومن يقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا ، اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحبتنا ، واجعله الوراث منا ، واجعل ثأرنا على من ظلمنا ، وانصرنا على من عادنا ، ولا تجعل مصيبيتنا في ديننا ، ولا تجعل الدنيا أكثر همنا ، ولا مبلغ علمنا ، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا^١ .

وعن مالك : " أنه بلغه أن رسول الله ﷺ إذا وضع رجله في الغرز وهو يريد السفر يقول : بسم الله اللهم أنت الصاحب في السفر وال الخليفة في الأهل ، اللهم ازو لنا الأرض وهون علينا السفر ، اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنقلب ومن سوء المنظر في المال والأهل "^٢ .

وعن ابن عمر - رضي الله عنهم - قال : " كان رسول الله ﷺ إذا قفل من السفر يكبر على كل شرف من الأرض ثلاث مرات ، ثم يقول : لا إله غلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قادر ، آبيون تائبون ، عابدون ساجدون ، لربنا حامدون . صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده "^٣ .

وعن عبد الله الخطمي - رضي الله عنه - قال : " كان رسول الله ﷺ إذا ودع أحداً قال : أستودع الله دينكم وأمانتكم ، وخواتيم أعمالكم " .

وله في أخرى عن ابن عمر - رضي الله عنهم - قال : " أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم أعمالك "^٤ .

وعن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهم - قال : " كان رسول الله ﷺ إذا أقبل الليل عليه في السفر قال : يا أرض ربي وربك الله ، أعوذ بالله من شرك وشر ما خلق فيك وشر

^١ أخرجه الترمذى .

^٢ أخرجه مسلم وأبو داود .

^٣ أخرجه السنّة إلا النسائي .

^٤ للترمذى وأبي داود .

ما يدب عليك ، أَعُوذ بالله من أَلْد وَأَسْوَد ، وَمِن الْحَيَاةِ وَالْعَرْبِ ، وَمِن سَاكِنِ الْبَلْدِ ، وَوَالْدِ وَمَا ولَدَ^١.

وعن ابن عباس - رضي الله عنهم - قال : " كان رسول الله ﷺ يقول عند الكرب : لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب السماوات والأرض ورب العرش الكريم "^٢. وعن أنس - رضي الله عنه - قال : " كان رسول الله ﷺ إذا كربه أمر يقول : يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث . وقال : ألطوا بيادا الجلال والإكرام "^٣.

عن الخدرى - رضي الله عنه - قال : " كان النبي ﷺ إذا استجد ثوباً قال : اللهم لك الحمد أنتكسوتى هذا ويسميه ، أسألك خيره وخير ما صنع له وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له "^٤.

وعن أبي سعيد - رضي الله عنه - قال : " كان النبي ﷺ إذا أكل أو شرب قال : الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين "^٥.

وعن أنس - رضي الله عنه - قال : " كان رسول الله ﷺ إذا دخل الخلاء لقضاء الحاجة يقول : اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخائث "^٦.

وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت : " كان النبي ﷺ إذا خرج من الخلاء قال : غفرانك "^٧.

عن فاطمة بنت الحسين بن علي ، عن جدتها فاطمة الكبرى - رضي الله عنها - قالت : " كان رسول الله ﷺ إذا دخل المسجد صلى على محمد ﷺ وقال : رب اغفر لي ذنوبي

^١ أخرجه أبو داود .

^٢ أخرجه الشیخان .

^٣ أخرجه الترمذی .

^٤ أخرجه الترمذی وأبو داود .

^٥ أخرجه الترمذی وأبو داود .

^٦ أخرجه السنۃ إلا الموطأ .

^٧ أخرجه الترمذی وأبو داود .

، وافتح لي أبواب رحمتك ، وإذا خرج صلى على محمد ﷺ وقال : رب اغفر لي ذنبي وافتح لي أبواب فضلك ^١ .

عن طلحة بن عبيد الله - رضي الله عنه - قال : " كان رسول الله ﷺ إذا رأى الهلال قال : اللهم أهله علينا باليمين والإيمان ، والسلامة والإسلام ، ربى وربك الله " ^٢ .

وعن قتادة - رضي الله عنه - قال : " أنه بلغه أن النبي ﷺ كان إذا رأى الهلال قال : هلال خير ورشد ثلاثة مرات ، آمنت بالذي خلقك ثلاثة مرات ، ثم يقول : الحمد لله الذي ذهب بشهر كذا وجاء بشهر كذا " ^٣ .

عن ابن عمر - رضي الله عنه - قال : " كان رسول الله ﷺ إذا سمع الرعد والصواعق قال : اللهم لا نقتلنا بغضبك ، ولا تهلكنا بعذابك ، وعافنا قبل ذلك " ^٤ .

وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت : " كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال : اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به " ^٥ .

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : " كان رسول الله ﷺ يقول في دعائه : اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري ، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشى ، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادى ، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير ، واجعل الموت راحه لي من كل شر " ^٦ .

وعن أنس - رضي الله عنه - قال : " كان أكثر دعاء النبي ﷺ اللهم آتنا في الدنيا حسنة ، وفي الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار " ^٧ .

^١ أخرجه أبو داود .

^٢ أخرجه الترمذى .

^٣ أخرجه أبو داود .

^٤ أخرجه الترمذى .

^٥ أخرجه الشیخان والترمذى .

^٦ أخرجه مسلم .

^٧ أخرجه الشیخان وأبو داود .

عن أنس - رضي الله عنه - قال : " كان النبي ﷺ يقول : اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والهarem والبخل ، وأعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المحسا والممات " ^١ .

وعن أنس أيضاً - رضي الله عنه ، قال : " كان النبي ﷺ يقول : اللهم إني أعوذ بك من الجذام والبرص والجنون ومن سيء الأقسام " ^٢ .

وعن ابن عمرو بن العاص - رضي الله عنهم - قال : " كان رسول الله ﷺ يقول : اللهم إني أعوذ بك من قلب لا يخشع ، ومن دعاء لا يسمع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن علم لا ينفع ، أعوذ بك من هؤلاء الأربع " ^٣ .

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - رفعه : " كان رسول الله ﷺ يقول : اللهم إني أعوذ بك من الشقاق والنفاق وسوء الأخلاق " ^٤ .

وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت : " كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول قبل موته : سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه ، فقلت له في ذلك ، فقال : أخبرني ربى أنى سأرى عالمة في أمتي ، فإذا رأيتها أكثرت من قول : سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه . فقد رأيتها : {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَابًا} " ^٥ .

* * * *

هذه نماذج من عبادته ﷺ شكرًا ، وهذا كله ولم نذكر إقامته للصلوات الخمس ولو لرواتبها ، ولم نتعرض لكل ما اثر عنه من عبادة الله جل جلاله ، فهل بلغ أحد في عبادة الله

^١ أخرجه الستة إلا مالكا .

^٢ أخرجه أبو داود والنسائي .

^٣ أخرجه الترمذى والنسائي .

^٤ أخرجه أبو داود والنسائي .

^٥ أخرجه مسلم .

وشكره ما بلغه رسول الله؟ وهل يستطيع أحد أن يتصور أن هذا ممكن الوقوع والحصول بهذا الكمال والجلال ، وبهذه الكثرة والسعة وبهذا الانسجام التوافق ، مع هذه المعرفة العظيمة لله وكمالاته . لو لا أن محمداً رسول الله يقوم بأمره كأعظم ما يقوم به أحد ؟

* * * *

ب - نماذج من تنفيذه لأمر الله في المثال الثاني : {وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ فُلَّ الْعَفْوَ} ، ولنبي الله {وَلَا تَمْدَنَ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَنَعَنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةُ الْحَيَاةِ الَّذِيَا لَنَفَّتُهُمْ فِيهِ وَرَزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ} .

روى البخاري ومسلم عن أنس أن النبي ﷺ قال : " اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة " .

وروى البخاري عن أبي ذر - رضي الله عنه - قال : " كنت أمشي مع النبي ﷺ في حرقة المدينة فاستقبلنا أحد فقال : يا أبا ذر ! قلت : لبيك يا رسول الله . قال : ما يسرني أن عندي مثل أحد هذا ذهباً تمضي على ثالثةٍ وعندي منه دينار - إلا شيئاً أرصده لدین - إلا أن أقول به في عباد الله هكذا وهكذا ؛ عن يمينه وعن شماله ومن خلفه " .

وروى مسلم عن النعمان بن بشير - رضي الله عنه - قال : " ذكر عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ما أصاب الناس من الدنيا فقال : لقد رأيت رسول الله ﷺ يظل اليوم يلتوى ما يجد من الدقل ما يملأ به بطنه " الدقل : رديء التمر .

وروى البخاري ومسلم عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : " توفي رسول الله ﷺ وما في بيتي من شيء يأكله ذو كبد إلا شطر شعير في رفال لي " .

وروى البخاري عن عمر بن الحارث أخي جويرية بنت الحارس أم المؤمنين - رضي الله عنهم - قال : " ما ترك رسول الله ﷺ عند موته ديناراً ولا درهماً ولا عبداً ولا أمة ولا شيئاً إلا بغلته البيضاء التي كان يركبها وسلامه وأرضاً جعلها لابن السبيل صدقة " .

وروى ابن جابر عن جابر - رضي الله عنه - : " أن رجلاً أتى النبي ﷺ فسألته فأعطاه ، ثم أتاه آخر فسألته فوعده ، فقام عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فقال : يا

رسول الله ! سئلت فأعطيت ، ثم سئلت فأعطيت ، ثم سئلت فوعدت ، فكأن رسول الله p كرهها ، فقام عبد الله بن حذافة السهمي - رضي الله عنه - فقال : أتفق يا رسول الله ولا تخش من ذي العرش إقلالاً ، فقال : بذلك أمرت " كذا في الكنز ج 3 ص 311 .

وأخرج البزار بإسناد حسن والطبراني عن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال : " دخل النبي p على بلال - رضي الله عنه - وعنه صبر من تمر فقال : ما هذا يا بلال ؟ قال : أعد ذلك لأضيفاك قال : ما تخشى أن يكون لك دخان في نار جهنم ، أتفق يا بلال ولا تخش من ذي العرش إقلالاً " . وأخرجه أبو نعيم في الحلية ج 1 ص 149 عن عبد الله نحوه ، ورواه أبو يعلى والطبراني عن أبي هريرة - رضي الله عنه - بنحوه بإسناد حسن وكما في الترغيب ج 2 ص 174 .

وأخرج أبو يعلى عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : " أهديت للنبي p ثلاثة طواير فأطعم خادمه طائراً . فلما كان من الغد أتته بها فقال رسول الله p ألم أنهك أن ترفعي شيئاً لغد ، فإن الله تعالى يأتي برزق كل غد " قال الهيثمي ج 10 ص 241 ورجاله ثقات .

وأخرج الطبراني في الكبير - ورواته ثقات متحج بهم في الصحيح - عن سهل بن سعد - رضي الله عنه - قال : " كانت عند رسول الله p سبعة دنانير وضعها عند عائشة - رضي الله عنها - فلما كان في مرضه قال : يا عائشة ابعثي بالذهب على علي ، ثم أغمي عليه وشغل عائشة ما به حتى قال ذلك مراراً ، كل ذلك يغمى على رسول الله p ويشغل عائشة - رضي الله عنها - ما به ، فبعث إلى علي فتصدق بها . وأمسى رسول الله p في حديد الموت ليلة الاثنين فأرسلت عائشة - رضي الله عنها - بمصباح لها إلى امرأة من نسائها فقالت : أهدي لنا في مصباحنا السمن فإن رسول الله p أمسى في حديد الموت " . ورواه ابن حبان في صحيحه من حديث عائشة بمعناه . كذا في الترغيب ج 2 ص 178 .

وعن أحمد عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : " أمرني رسول الله p أن أتصدق بذهب كان عنده في مرضه . قالت : فأفاق ، قال : ما فعلت ؟ قلت : شغلني ما رأيت منك . قال : فهلم بها . قال : فجاءت بها إليه سبعة أو تسعه - أبو حازم يشك - دنانير . فقال حين جاءت بها : ما ظن محمد لو لقي الله وهذه عنده وما تنفي هذه من محمد p لو لقي الله هذه عنده " . قال الهيثمي (ج 10 ص 240) : رواه أحمد بأسانيد ، ورجال أحدها رجال الصحيح .

أخرج أحمد بإسناد صحيح عن ابن عباس - رضي الله عنهم - قال : " حدثني عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال : دخلت على رسول الله ﷺ وهو على حصير . قال : فجلست فإذا عليه إزاره وليس عليه غيره ، وإذا الحصير قد أثر في جنبه ، وإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع ، وقرظ في ناحية الغرفة ، وإذا إهاب معلق ، فابتدرت عيناي فقال : ما يبكي يا ابن الخطاب فقال : يا نبي الله ، ومالي لا أبكي وهذا الحصير قد أثر في جنبك وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى ، وذاك كسرى وقيصر في الثمار والأنهار وأنت نبي الله وصفوته وهذه خزانتك . قال : يا ابن الخطاب . أما ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا " قرظ : ما يدبغ به . إهاب : جلد . ابتدرت : بكـت .

وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت : " ما شبع آل محمد من خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض " وفي رواية : " ما شبع آل محمد ﷺ منذ قدم المدينة من طعام ثلات ليال تباعاً حتى قبض " متყق عليه .

وعن عروة عن عائشة - رضي الله عنها - أنها كانت تقول : " والله يا ابن أخي إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال - ثلاثة أهلة في شهرين - وما أوفد في أبيت رسول الله ﷺ نار . قلت : يا خالة فما كان يعيشكم ؟ قالت : الأسودان التمر والماء ، إلا أنه قد كان لرسول الله ﷺ جiran من الأنصار ، وكنت لهم منائح وكانوا يرسلون إلى رسول الله ﷺ من ألبانها فيسقيناه " متفق عليه . منائح : جمع منيحة وهي ناقة يعيّرها صاحبها إنساناً ليشرب لبنها ويعيدها .

وعن أنس - رضي الله عنه - قال : " لم يأكل النبي ﷺ على خوان حتى مات ، وما أكل خبزاً مرقاً حتى مات " . أخرجه البخاري . الخوان : ما يؤكل عليه .

وعن خالد بن عمر العدواني قال : " خطبنا عتبة بن غزوان وكان أميراً على البصرة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : ولقد رأيتني سابع سبعة مع رسول الله ﷺ ما لنا طعام إلا ورق الشجر حتى قرحت أشداقنا ، فالنقطت بردة فشققتها بيني وبين سعد بن مالك فاتزررت بنصفها ، واتزر سعد بنصفها مما أصبح اليوم منا أحد إلا أصبح أميراً على مصر من الأمسكار ، وإنني أعوذ بالله أن أكون في نفسي عظيماً وعند الله صغيراً " رواه مسلم .

وعن جابر - رضي الله عنه - قال : " ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قط فقال لا " متفق عليه .

وعن أنس - رضي الله عنه - قال : " ما سئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئاً إلا أعطاه ، ولقد جاءه رجل فأعطاه غنماً بين جبلين فرجع إلى قومه فقال : يا قوم أسلموا فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفقر ، وإن كان الرجل ليس مالا يريد إلا الدنيا فما يلبث إلا يسيرًا حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها " رواه مسلم .

وعن عمر - رضي الله عنه - قال : " قسم رسول الله ﷺ قسماً فقلت : يا رسول الله لغير هؤلاء كانوا أحق به منهم ؟ فقال : إنهم خironyi أن يسألونني بالفحش فأعطيهم أو يخلونني ولست بباخل " . أخرجه مسلم .

وعن جبير بن مطعم - رضي الله عنه - أنه قال : بينما هو يسير مع النبي ﷺ مقلة من حنين فعلقه الأعراب يسألونه حتى اضطروه إلى سمرة فخطفت رداءه فوقف النبي ﷺ فقال : " أعطوني ردائي فلو كان لي عدد هذه العضة نعمًا لقسمته بينكم ثم لا تجدونني بخيلاً ولا كذاباً ولا جباناً " . رواه البخاري . مقلة : حالة رجوعه . السمرة : شجرة ، والعضاه : شجر له شوك .

وأخرج أحمد عن جابر - رضي الله عنه - قال : " أقبل أبو بكر - رضي الله عنه - يستأذن على رسول الله ﷺ والناس ببابه جلوس والنبي ﷺ جالس فلم يؤذن له ثم أقبل عمر - رضي الله عنه فاستأذن فلم يؤذن له ، ثم أذن لأبي بكر وعمر فدخل ، والنبي ﷺ جالس وحوله نساء وهو ﷺ ساكت ، فقال عمر : لاكلمن النبي ﷺ لعله يضحك . فقال عمر : يا رسول الله ! لو رأيت ابنة زيد امرأة عمر سألتني النفقه آنفاً فوجأت عنقها فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجهه وقال : هن حولي يسألنني النفقه . فقام أبو بكر إلى عائشة ليضربها ، وقام عمر إلى حفصة ، كلاهما يقولان : تسألان النبي ﷺ ما ليس عنده . فنهاهما رسول الله ﷺ فقلن : والله لا نسأل رسول الله ﷺ بعد هذا المجلس ما ليس عنده . قال : وأنزل الله عز وجل الخيار فبدأ بعائشة فقال : إني أذكر لك أمراً ما أحب أن تعجل فيه حتى تستأمرني أبويك ، قالت : وما هو ؟ قال : فتلا عليها : {يَا إِيَّاهَا النَّبِيُّ قُلْ لَا زَوْجَكَ¹ - الْآيَة} . قالت عائشة : أفيك أستأمر

أبوي ؟ بل أختار الله رسوله ، وأسئلتك أن لا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت . فقال م إن الله تعالى لم يبعثني معفأً ولكن بعثني معلماً ميسراً ، لا تسألني امرأة منها عما اخترت إلا أخبرتها " . أخرجه مسلم والنمسائي ، وعند ابن أبي حاتم عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : " قالت عائشة : أنزلت آية التخbir فبدأ بي أول امرأة من نسائه فقال م إني ذاكر لك أمراً فلا عليك أن لا تعجلني حتى تستأمرني أبوياك ، قالت : وقد علم أن أبوياي لم يكونا يأمراني بفراقه . قالت ثم قال : إن الله تبارك وتعالى قال : {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَا زَوْجَكَ} - الآيتين . قالت عائشة : قلت : أفي هذا أستأمر أبويا ؟ فإنني أريد الله رسوله والدار الآخرة . ثم خير نساءه كلهن فقلن مثل ما قالت عائشة " وأخرجه البخاري ومسلم عن عائشة مثله .

* * * *

هذه الأمة على الزهد والإإنفاق وتحمل خشونة الحياة والإقبال على الله طلباً لمرضاته ، وحرصاً على نيل ثوابه في اليوم الآخر ، وهي قليل من كثير ، تبين كيف قام رسول الله M بأمر الله حق القيام بحيث لا يسبق ولا يلحق ، عذ لو رجعت إلى الأمرين اللذين ذكرنا الأمة على تطبيقهما . فإنك لا تستطيع أن تجد أبلغ من هذا في تنفيذ أمر الله وإنه لمجافاة لكل واقع بشري وتتكب عن كل حقائق النفس البشرية ، أن تتصور أن مثل هذا التطبيق والتنفيذ ، بهذا الشكل ، لمثل هذه الأوامر ، يمكن أن يكون ، لو لا أن صاحبه رسول الله حقاً . صغرت لديه الدنيا بما فيها وهان لديه المال بكل أنواعه لمعرفته بأن الله أعظم من كل شيء وبهون في سبيله كل شيء .

* * * *

ج- نماذج من تنفيذه M للأمر الثالث : {وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ} :

عاتب الله رسوله M لأنه أتاه مرة مؤمن مسلم وهو يعرض دعوة الإسلام على زعيم من زعماء المشركين فلم يقبل على المسلم تقول عائشة : " أنزلت {عَبَّاسَ وَتَوَلَّ} في ابن أم مكتوم الأعمى أتى رسول الله M فجعل يقول : يا رسول الله أرشدني وعند رسول الله M رجل من عظماء المشركين فجعل رسول الله M يُعْرِضُ عنه ويقبل على الآخر ويقول : أترى بما أقول بأساً ؟ فيقول : لا . ففي هذا أنزلت " أخرجه مالك والترمذى .

وآيات العتاب هي : {عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ * وَمَا يُذْرِيكَ لَعْلَهُ يَرَكَىٰ * أَوْ يَذَّكَرُ فَتَنَفَّعَهُ الذَّكَرَىٰ * أَمَّا مَنْ أَسْتَعْنَىٰ * فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّىٰ * وَمَا عَلَيْكَ أَلَا يَرَكَىٰ * وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَىٰ * وَهُوَ يَحْشَىٰ * فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ * ... } .

فكيف كان رسول الله ﷺ بعد هذا العتاب وبعد ذلك الأمر في علاقته بالمؤمنين عوامهم وخاصهم ؟

أخرج أبو نعيم في الدلائل عن أنس - رضي الله عنه - قال : كان رسول الله ﷺ من أشد الناس لطفاً ، والله ! ما كان يمتنع في غداة باردة من عبد ولا من أمّة ولا صبي أن يأتيه بالماء فيغسل وجهه وذراعيه ، وما سأله سائلٌ قط إلا أصغى إليه أذنه ، فلم ينصرف حتى يكون هو الذي ينصرف عنه ، وما تناول أحد بيده إلا ناوله إياها فلم ينزع حتى يكون هو الذي ينزعها منه " .

وعند يعقوب بن سفيان - عن أنس رضي الله عنه - قال : " كان رسول الله ﷺ إذا صافح الرجل لا ينزع يده ، وإن استقبل بوجهه لا يصرفه عنه ، حتى يكون الرجل ينصرف عنه ، ولا يرى مقدماً ركبتيه بين يدي جليس له " . ورواه الترمذى وابن ماجه ، كما في البداية ج 6 ص 39 .

وعند أبي داود عنه قال : " ما رأيت رجلاً قط التقم أذن النبي ﷺ فينحي رأسه حتى يكون الرجل هو الذي ينحي رأسه ، وما رأيت رسول الله ﷺ آخذاً بيده فترك يده حتى يكون الرجل هو الذي يدع يده " .

تفرد به أبو داود كذا في البداية ح 6 ص 39 .

وأخرج البزار عن أبي هريرة - رضي الله عنه - " أَنْ أَعْرَابِيًّا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ مُصْطَعِنِيهِ فِي شَيْءٍ - قَالَ عَكْرَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أَرَاهُ قَالَ فِي دَمِ - : فَأَعْطَاهُ رَسُولُ اللَّهِ مُصْطَعِنِيهِ ثُمَّ قَالَ : أَحْسَنْتَ إِلَيَّكَ ، قَالَ الْأَعْرَابِيُّ : لَا وَلَا أَجْمَلْتَ ، فَغَضِبَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ وَهُمْ أَنْ يَقُومُوا إِلَيْهِ ، فَأَشَارَ رَسُولُ اللَّهِ مُصْطَعِنِيهِ إِلَيْهِمْ أَنْ كَفُوا ، فَلَمَّا قَامَ رَسُولُ اللَّهِ مُصْطَعِنِيهِ وَلَمْ يَلْعَمْهُ دُعَا الْأَعْرَابِيُّ إِلَى الْبَيْتِ فَقَالَ : إِنَّمَا جَئْنَا تَسْأَلَنَا فَأَعْطَيْنَاكَ فَقَلْتَ مَا قُلْتَ ، فَزَادَهُ رَسُولُ اللَّهِ مُصْطَعِنِيهِ وَقَالَ : أَحْسَنْتَ إِلَيَّكَ ، فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ : نَعَمْ فَجزَاكَ اللَّهُ مِنْ أَهْلِ وَعِشْرِيْنَ خَيْرًا ! قَالَ النَّبِيُّ مُصْطَعِنِيهِ

إِنَّكَ جَئْنَا فَسَأَلْنَا فَأَعْطَيْنَاكَ قُلْتَ مَا قُلْتَ ، وَفِي نَفْسِ أَصْحَابِي عَلَيْكَ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ ، فَإِذَا
جَئْتَ فَقُلْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ مَا قُلْتَ بَيْنَ يَدِي حَتَّى يَذْهَبَ عَنْ صُدُورِهِمْ ! فَقَالَ : نَعَمْ ، فَلَمَّا جَاءَ
الْأَعْرَابِيَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنَّ صَاحِبَكُمْ كَانَ جَاءَنَا فَسَأَلْنَا فَأَعْطَيْنَاهُ فَقَالَ مَا قُلْتَ وَإِنَّا قَدْ
دَعَوْنَا فَأَعْطَيْنَاهُ فَزَعَمَ أَنَّهُ قَدْ رَضِيَ ، كَذَا يَا أَعْرَابِيَّ ، فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ : نَعَمْ فَجَزَّاكَ اللَّهُ مِنْ
أَهْلِ وَعِشْرَةِ خَيْرًا ! فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ مَثِيلِي وَمِثْلِهِ هُوَ الْأَعْرَابِيُّ ، كَمِثْلِ رَجُلٍ كَانَتْ لَهُ نَاقَةٌ
فَشَرَدَتْ عَلَيْهِ فَاتَّبَعَهَا النَّاسُ فَلَمْ يَزِدُوهَا إِلَّا نَفْرَةً ، فَقَالَ لَهُمْ صَاحِبُ النَّاقَةِ : خُلُوا بَيْنِي وَبَيْنِ
نَاقِتِي فَأَنَا أُرْفِقُ بَهَا وَأَنَا أَعْلَمُ بَهَا ! فَتَوَجَّهَ بَهَا وَأَخْذَ مِنْ قَشَامِ الْأَرْضِ وَوَدَعَاهَا حَتَّى جَاءَتْ
وَاسْتَجَابَ وَشَدَّ عَلَيْهَا رَحْلَهَا ، وَإِنِّي لَوْ أَطْعَنْتُكُمْ حِيثُ قَالَ ، مَا قَالَ لَدُخُولِ النَّارِ .

وَأَخْرَجَ الطَّبَرَانِيُّ عَنْ أَبِي غَالِبٍ قَالَ : " قُلْتَ لِأَبِي أُمَّةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - حَدَّثَنَا
حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : كَانَ حَدِيثُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْقُرْآنَ ، يَكْثُرُ الذِّكْرُ ، وَيَقْصُرُ
الْخُطْبَةُ وَيَطِيلُ الصَّلَاةَ ، وَلَا يَأْنُفُ وَلَا يَسْتَكْبِرُ أَنْ يَذْهَبَ مَعَ الْمُسْكِنِ وَالْمُضْعِفِ حَتَّى يَفْرَغَ
مِنْ حَاجَتِهِ " . وَإِسْنَادُ حَسَنٍ ، كَمَا قَالَ الْهَيْمَيْشِيُّ فِي (ج 9 ص 20) وَأَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ وَالنَّسَائِيُّ
عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أُوفَى - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - نَحْوَهُ كَمَا فِي الْبَدَائِيَّةِ (ج 6 ص 45) .

وَأَخْرَجَ التَّرْمِذِيُّ فِي الشَّمَائِلِ (ص 25) عَنْ عُمَرَ بْنِ الْعَاصِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -
قَالَ : " كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْبَلُ بِوْجْهِهِ وَحْدَيْهِ عَلَى أَشْرِقِ الْقَوْمِ يَتَأْلَفُهُمْ بِذَلِكَ ، فَكَانَ يَقْبَلُ بِوْجْهِهِ
وَحْدَيْهِ عَلَيَّ حَتَّى ظَنِنتُ أَنِّي خَيْرُ الْقَوْمِ فَقُلْتَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! أَنَا خَيْرٌ أَوْ أَبُو بَكْرٍ - رَضِيَ
اللهُ عَنْهُ - . فَقَالَ : أَبُو بَكْرٍ . فَقُلْتَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! أَنَا خَيْرٌ أَمْ عَمْرٌ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -
فَقَالَ : عَمْرٌ . فَقُلْتَ : أَنَا خَيْرٌ أَمْ عُثْمَانَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَقَالَ : عُثْمَانَ فَلَمَّا سَأَلْتُ رَسُولَ
اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَصَدَقَنِي فَلَوْدَدْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ سَائِلَتِهِ " . وَأَخْرَجَهُ الطَّبَرَانِيُّ عَنْهُ وَنَحْوَهُ ، وَإِسْنَادُ حَسَنٍ
كَمَا قَالَ الْهَيْمَيْشِيُّ (ج 9 ص 15) وَقَالَ فِي الصَّحِيفَةِ : بَعْضُهُ بِغَيْرِ سِيَاقِهِ .

وَعِنْ الْبَزَارِ وَالْطَّبَرَانِيِّ عَنْ أَبِي هَرِيرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - : " أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى
لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يَأْخُذُ بِيَدِهِ فَيُنْزَعُ بِيَدِهِ حَتَّى يَكُونَ الرَّجُلُ هُوَ الَّذِي يَرْسِلُهُ ، وَلَمْ يَكُنْ يَرَى رَكْبَتِيهِ أَوْ
رَكْبَتِهِ خَارِجًا عَنْ رَكْبَةِ جَلِيسِهِ ، وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يَصَافِحُهُ إِلَّا أَقْبَلَ عَلَيْهِ بِوْجْهِهِ ثُمَّ لَمْ يَصْرُفْهُ عَنْهُ
حَتَّى يَفْرَغَ مِنْ كَلَامِهِ " . وَإِسْنَادُ الطَّبَرَانِيِّ حَسَنٌ .

وَعِنْ أَحْمَدَ عَنْ أَنْسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ : " إِنَّ كَانَتِ الْوَلِيدَةَ مِنْ وَلَائِدِ أَهْلِ
الْمَدِينَةِ لَتَجِيءُ فَتَأْخُذُ بِيَدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَا نَزَعَ مِنْ يَدِهِ حَتَّى تَذَهَّبَ بِهِ حِيثُ شَاءَتْ " رَوَاهُ

ابن ماجه . وعند أحمد عنه قال : " إن كانت الأمة من أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتطلق به في حاجتها " . رواه البخاري في كتاب الأدب من صحيحه معلقاً كما في البداية ج 6 ص 39 ، وروى مسلم في صحيحه ج 2 ص 256 عن أنس " أن امرأة كان في عقلها شيء فقالت : يا رسول الله إن لي إليك حاجة فقال : يا أم فلان انظري أي السكاك شئت حتى أقضى لك حاجتك ! فخلا معها في بعض الطرق حتى فرغت من حاجتها " . وأخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة ص 57 عن أنس مثله .

وأخرج مسلم (ج 2 ص 253) عن أنس - رضي الله عنه - قال : " لما قدم رسول الله ﷺ المدينة أخذ أبو طحة - رضي الله عنه - بيدي فانطلق بي إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ! إن أنساً غلام كيس فليخدمك قال : فخدمته في السفر والحضر ، والله ما قال لي شيء صنعته : لم صنعت هذا هكذا ولا شيء لم أصنعه : لم لم تصنع هذا هكذا ؟ وعنده أيضاً عن أنس قال : كان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلقاً فأرسلني يوماً لحاجة قلت : والله لا أذهب وفي نفسي أن أذهب لما أمرني بهنبي الله ﷺ فخرجت حتى أمر على الصبيان وهم يلعبون في السوق فإذا رسول الله ﷺ قد قبض بقفاي من ورائي ! قال : فنظرت إليه وهو يضحك فقال : يا أنس اذهب حيث أمرتك ! قال : قلت نعم أنا أذهب يا رسول الله ! قال أنس : والله لقد خدمته تسع سنين ما علمته قال لشيء صنعته : لم فعلت كذا وكذا ؟ ولشيء تركته : هلا فعلت كذا وكذا وعنده أيضاً عنه قال : خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين ، والله ما قال لي أفالاً فقط ، ولا قال لي لشيء : لم فعلت كذا وهلا فعلت كذا ؟ " .

وعند أبي نعيم في الدلائل صفحة 57 عن أنس - رضي الله عنه - قال : " خدمت رسول الله ﷺ سنتين فما سبني سبة قط ولا ضربني ضربة ولا انتهاني ولا عبس في وجهي ولا أمرني بأمر فتوانيت فيه فعاتبني عليه ، فإن عاتبني عليه أحد من أهله قال : دعوه ! فلو قدر شيء لكان " .

وأخرج البزار عن جابر - رضي الله عنه - قال : " كان رسول الله ﷺ إذا أتاهم الوحي أو وعظ قلت : نذير قوم أتاهم العذاب ، فإذا ذهب عنه ذلك رأيت أطلق الناس وجهاً وأكثرها ضحكاً وأحسنهم بشرأً " . قال الهيثمي ج 9 ص 17 : إسناده حسن .

وأخرج البيهقي وابن النجار عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : " جاءت عجوز إلى النبي ﷺ فقال لها : من أنت ؟ قالت : جثامة المزنية قال : بل أنت حنانة المزنية ، كيف

أنتم ، كيف حالكم ؟ كيف كنتم بعذنا ؟ قالت بخیر بابی أنت وأمي يا رسول الله . فلما خرجت قلت : يا رسول الله ! تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال ! فقال : يا عائشة ! هذه كانت تأتيني زمان خديجة وإن حسن العهد من الإيمان .

وأخرج البخاري في الأدب ص 188 عن أبي الطفلي - رضي الله عنه - قال : "رأيت النبي ﷺ يقسم لحماً بالجعرانة وأنا يومئذ غلام أحمل عضو البعير فأتنه امرأة فبسط لها ردائها . قلت من هذه ؟ قال : أمه التي أرضعته ."

وروى الطبراني عن الحسن بن علي - رضي الله عنهما - وقد سأله أباًه عن بعض صفات رسول الله ﷺ فكان من سؤاله وجواب علي - رضي الله عنه - ما يلي :

قال الحسن : وسألته عن مخرجه كيف كان يصنع فيه ؟ فقال : "كان رسول الله ﷺ يخزن لسانه إلا مما يعينهم ويؤلفهم ، ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم ، ويحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوي عن أحد منهم بشره ولا خلقه ، يتقى أصحابه ، ويسأل الناس عما في الناس ، ويحسن الحسن ويقويه ، ويقبح القبيح ويوهيه (يجعله ضعيفاً واهياً بالمنع والزجر عنه) معتدل الأمر غير مختلف لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يميلوا ، لكل حال عنده عتاد ، ولا يقصر عن الحق ولا يجوزه ، الذي يلونه من الناس خيارهم ، أفضلهم عنده أعمهم نصيحة ، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ومؤازرة ."

قال : فسألته عن مجلسه كيف كان ؟ فقال : "كان رسول الله ﷺ لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر ، ولا يوطن الأماكن وينهى عن إيطانها ، وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس ويأمر بذلك ، يعطي كل جلسائه نصيبيه ، ولا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه ، من جالسه أو قاومه في حاجة صابرٍ حتى يكون هو المنصرف عنه ، ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها أو لميسور من القول . قد وسع الناس منه بسطه وخلقه فصار لهم أباً وصاروا له أبناء عنده في الحق سواء ، مجلسه مجلس حلم وحياة وصبر وأمانة ، لا ترفع فيه الأصوات ، ولا تؤبن (تعاب) فيه الحرم ، ولا تثني فلتاته (أي لا تشاع زلاته وهفواته والمراد لا فلتات في مجلسه) متعادلين يتقابلون فيه بالنقوى ، متواضعين يوقرون فيه الكبير ويرحمون الصغير ، يؤثرون ذا الحاجة ، ويحفظون الغريب ."

قال : فسألته عن سيرته في جلسته فقال : " كان رسول الله ﷺ دائم البشر ، سهل الخلق ، لين الجانب ، ليس بفظ (أي شيء الخلق) ، ولا غليظ ، ولا سخاب ، ولا فحاش ، ولا عياب ، ولا مزاح ، يتغافل عما لا يشتهي ، ولا يوئس منه راجيه ، ولا يخيب فيه ، وترك الناس من ثلات : كان لا يذم أحداً ولا يعيده ، ولا يطلب عورته ، ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه ، إذا تكلم أطرق جلاؤه كأنما على رؤوسهم الطير ، وإذا تكلم سكتوا وإذا سكت تكلموا ، لا يتنازعون عنده الحديث ، يضحك مما يضحكون منه ويتعجب مما يتعجبون منه ، ويصبر للغريب على الجفوة في منطقة ومسئلته حتى إن كان أصحابه ليستجلبونه في المنطق (وفي الكنز : ليستجلبونهم) ، ويقول : إذا رأيتم صاحب حاجة فأرفوه ولا يقل الثناء إلا من مكافئ ، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يجوز ، فيقطعه بانتهاء أو قيام " .

* * * *

هذه أمثلة من موافقه مع المؤمنين ، وتواضعه وخفض جناحه لهم ، ارجع بعد دراستها إلى الآية التي أمرته بذلك فهل تراه إلا قائماً بها حقاً ، وهل ترى إنساناً يبلغ عشر ما بلغه محمد ﷺ من المجد ويبقى يعامل المستضعفين والكبار والصغر والرؤساء الأتباع هذه المعاملة على سواء ؟ وهل هذا وضع طبيعي للنفس البشرية لو لا أن الله هنها وكانت مؤمنة بالله فعلاً متصلة به حقيقة طائعة له طاعة فناء ؟ اللهم ما كان هذا ليكون لو لا أن محمداً عبدك ورسولك .

* * * *

د - نماذج من تنفيذه ﷺ للأمر الرابع : {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدُ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَعْلَظُ عَلَيْهِمْ} :

إن خلق الرحمة عند رسول الله ﷺ لا يدانه فيه أحد من خلق الله . أخرج الشیخان عن أنس أن نبي الله قال : " إني لأدخل الصلاة وأنا أريد أن أطيلها ، فأسمع بكاء الصبي فأتجرز في صلاتي مما أعلم من وجد أمه من بكائه " . ووسع رحمته الناس حتى قال الله تعالى له : {فَلَعْلَكَ بَاخْرُجُ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثَ أَسْفًا }¹ وقد ظهرت هذه السجدة على

طبعتها يوم فتح مكة ؛ إذ عفا عن أهلها بعد أن فعلوا فيه ما فعلوا . كما ظهرت على سجيتها بعد انتهاء غزوة بدر وأسر الأسرى ، ولم يكن نزل عليه من أمر الله في القضية شيء ، وإنما هو الاجتهاد الذي أذن فيه لرسول الله ﷺ في هذه القضيـاـ ، وكان أمـاـ الرسـوـلـ اقتراـهـانـ في شأن الأسرى : اقتراـحـ أبيـ بـكـرـ واقتراـحـ عمرـ ، وكان اقتراـحـ أبيـ بـكـرـ أـخـذـ الفـداءـ وإـطـلاقـ السـراحـ ، وكان اقتراـحـ عمرـ القـتـلـ حـتـىـ يـعـلـمـ اللهـ أـنـ لـيـسـ فـيـ قـلـوبـ الـمـسـلـمـينـ رـحـمـةـ بـالـكـافـرـينـ ، وأـخـذـ رـسـوـلـ اللهـ بـرـأـيـ أـبـيـ بـكـرـ لـأـنـ هـنـاءـ أـقـرـبـ لـطـبـعـهـ ، وـهـوـ الـذـيـ لـاقـيـ مـنـ قـوـمـهـ مـاـ لـاقـيـ ، ثـمـ إـنـ اللهـ عـاتـبـهـ فـيـ هـذـهـ الـقـضـيـةـ عـلـىـ الـلـيـنـ ، وـلـيـسـ مـنـ إـثـمـ وـلـكـنـ اللهـ يـرـيدـ أـنـ يـأـخـذـ رـسـوـلـهـ بـالـحـزـمـ فـقـالـ لـهـ : {مـاـ كـانـ لـنـبـيـ أـنـ يـكـونـ لـهـ أـسـرـىـ حـتـىـ يـنـخـنـ فـيـ الـأـرـضـ} ¹ ثـمـ نـزـلـتـ أـوـامـرـ اللهـ تـطـالـبـ رـسـوـلـ اللهـ ﷺ بـالـجـهـادـ وـالـشـدـةـ الـغـلـظـةـ عـلـىـ الـكـافـرـينـ ، فـأـصـبـحـ تـرـىـ رـسـوـلـ اللهـ ﷺ بـعـدـ هـذـهـ الـرـحـمـةـ الـكـبـيرـةـ وـالـصـبـرـ الطـوـيلـ وـالـتـحـمـلـ الـكـثـيرـ وـالـمـسـالـمـةـ الـدـائـمـةـ ؛ الـمـقـاتـلـ الشـدـيدـ وـالـمـنـفـذـ الـذـيـ جـعـلـ طـاعـةـ اللهـ فـوقـ كـلـ عـوـاطـفـهـ ، بلـ حـتـىـ عـوـاطـفـهـ هـيـ تـنـفـيـذـ لـأـمـرـ اللهـ ، وـاسـتـعـراضـ بـسـيـطـ لـحـيـاتـ الـحـرـبـيـةـ عـلـىـ الـصـلـاـةـ وـالـسـلـاـمـ يـرـيـنـاـ أـنـ هـذـاـ النـوـعـ مـنـ الـقـتـالـ الـذـيـ خـاصـهـ عـلـىـ الـصـلـاـةـ وـالـسـلـاـمـ مـاـ كـانـ لـيـكـونـ مـنـ صـنـعـ بـشـرـ ، لـوـلـاـ أـنـ هـذـاـ إـنـسـانـ يـنـفـذـ أـمـرـ اللهـ ، مـعـتـمـداـ عـلـىـهـ ، فـإـنـهـ مـاـ مـنـ مـقـدـمةـ فـيـ حـيـاةـ الرـسـوـلـ ﷺ تـشـيرـ إـلـىـ مـثـلـ هـذـهـ النـتـائـجـ ، لـوـلـاـ أـنـ الـمـسـأـلـةـ رـبـانـيـةـ الـطـرـيقـ بـدـءـاـ وـخـتـاماـ ، أـسـلـوـبـاـ وـتـفـيـذـاـ . رـبـ يـأـمـرـ وـعـبـدـ رـسـوـلـ يـنـفـذـ .

يـؤـمـرـ أـلـاـ يـخـشـيـ شـيـئـاـ فـلـاـ يـخـافـ إـلـاـ اللهـ ، وـيـؤـمـرـ بـأـنـ يـتـوـكـلـ عـلـىـ اللهـ وـيـعـتـمـدـ عـلـىـهـ وـحـدـهـ ، فـيـدـخـلـ أـيـ مـعـرـكـةـ بـمـاـ يـتـوـفـرـ لـهـ مـنـ قـوـةـ دـوـنـ خـوـفـ مـنـ أـيـ حـشـدـ يـقـابـلـهـ ، وـيـؤـمـرـ بـأـلـاـ يـكـونـ فـيـ قـلـبـهـ رـحـمـةـ بـالـكـافـرـينـ فـيـضـرـبـهـمـ حـتـىـ يـسـتـأـصـلـهـمـ ، وـيـؤـمـرـ بـمـتـابـعـةـ الـقـتـالـ فـيـقـاتـلـ وـلـمـ يـسـتـرـحـ ، وـيـؤـمـرـ بـالـعـمـلـ الـمـتـوـاـصـلـ حـتـىـ يـخـضـعـ أـعـدـاءـ اللهـ فـلـاـ يـكـادـ يـنـتـهـيـ مـنـ تـهـيـئـةـ غـزـوـةـ إـلـاـ إـلـىـ غـيـرـهـاـ ، وـمـنـ إـخـضـاعـ مـنـطـقـةـ إـلـاـ إـلـىـ مـنـطـقـةـ أـخـرىـ . وـهـكـذـاـ حـتـىـ يـضـعـ أـتـبـاعـهـ عـلـىـ الـطـرـيقـ لـإـخـضـاعـ الـعـالـمـ بـعـدـ لـسـلـطـانـ اللهـ .

كان عدد أصحابه يوم بدر ثلث مائة وخمسة عشر رجلاً ، وعدد المشركين حوالي ثلاثة أضعاف تفوقهم بالعدة ، ويدخل الرسول ﷺ المعركة وينتصر فيها ولا يعتمد إلا على الله.

روى مسلم وأبو داود والترمذى عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : " خرج رسول الله ﷺ قبل بدر فلما كان بحرَّةَ الوبرَ أدركهِ رجلٌ قد كان يذكر منه جرأةً ونجدةً ، ففرح

أصحاب رسول الله ﷺ حين رأوه ، فلما أدركه قال لرسول الله ﷺ : جئت لأتبعك وأصيّب معك ، فقال ﷺ : تؤمن بالله ورسوله ؟ قال : لا . قال : فارجع فلن أستعين بمن شرك . قالت : ثم مضى حتى إذا كان بالشجرة أدركه الرجل فقال : كما قال أول مرة . فقال له ﷺ كما قال أول مرة ، قال فارجع فلن أستعين بمن شرك . ثم رجع فأدركه بالبيداء . فقال له كما قال أول مرة . وقال : هل تؤمن بالله ورسوله ؟ قال : نعم . قال : فانطلق . فانطلق معه .

وروى مسلم عن أبي الطفيل - رضي الله عنه - قال : قال حذيفة بن اليمان - رضي الله عنه - : " ما منعني أن أشهد بدرًا إلا أنني خرجت أنا وأبي الحسيل ، فأخذنا كفار قريش فقالوا : إنكم تريدون محمداً ، فقلنا : ما نريد إلا المدينة ، فأخذوا منا عهد الله وميثاقه أن لا نقاتل معه ، فلما أتينا المدينة ذكر ذلك له ﷺ فقال : انصرفا نفي لهم ونستعين بالله تعالى عليهم " .

وأخرج الشيخان واللطف لمسلم عن أنس - رضي الله عنه - قال : " كان رسول الله ﷺ أحسن الناس ، وكان أجود الناس ، وكان أشجع الناس ، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة ، فانطلق ناس من قبل الصوت ، فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعاً وقد سبقهم إلى الصوت وهو على فرس لأبي طحمة - رضي الله عنه - عري في عنقه السيف وهو يقول : لم تراعوا ، قال : وجدناه بحراً أو إنه لبحر ، وكان فرساً يبطئ " . وأخرج البخاري عن أبي إسحاق : سمع البراء بن عازب - رضي الله عنه - وسأله رجل من قيس أفررتهم عن رسول الله يوم حنين فقال : " لكن رسول الله ﷺ لم يفرر " .

والمعروف أن رسول الله ﷺ ثبت في حنين في عشرة من أصحابه ، أدار بهم المعركة التي فر فيها أثنا عشر ألفاً ثم كان النصر بعد الهزيمة . وفي غزوة أحد كان المشركون أضعاف المسلمين ودخل الرسول ﷺ المعركة ، وأفشل المعركة بعض المتسعين الذين لم يتزموا خطة رسول الله ﷺ وأصيب المسلمون يومها إصابات كثيرة وانفصل الجيشان ورجع كل إلى بلده ، ولكن رسول الله ﷺ ما كاد يصل إلى المدينة حتى أمر من دخل المعركة بالجهاز السريع فخرجوا بجراحهم وآلامهم ، وساروا وراء قريش ، فبلغ قريشاً الخبر ففرت وتحولت الهزيمة إلى انتصار ، وأكثر من هذا أنه قطع على قريش خط الرجعة إذ فکروا وهم عائدون أن يرجعوا إلى المدينة ليدخلوها فاتحين مستأصلين لجذور الإسلام . مع ملاحظة أن رسول الله بقي يقاتل يوم أحد حتى كف المشركون أنفسهم عن القتال ولم يفر رسول الله ﷺ أبداً .

وفي غزوة الأحزاب تجمعت الجزيرة العربية كلها لحرب رسول الله ﷺ ، ونقض يهود بني قريظة عهدهم مع رسول الله ﷺ ، وأصبح المسلمون في وضع لا يطيقه أحد من البشر ، يتهددهم الخطر من جوانب لا تعد ، وثبت رسول الله ﷺ حتى انسحب الأحزاب ، ولم يتمهل رسول الله ﷺ بعد انسحابهم حتى سار إلى قريظة لتأديب هؤلاء الناكثين للعهد فحاصرهم حتى نزلوا على حكم سعد بن معاذ حليفهم بالجاهلية فأخذ سعد العهد عليهم وعلى رسول الله ﷺ بأن يلتزموا حكمه فأعطوه ، فحكم سعد أن تقتل رجالهم وتسبى نساؤهم وذرارتهم ، فقتل رسول الله ﷺ منهم في يوم واحد أربعينأة رجل صبراً . وهاجم الدولة الرومانية وهي يومها من هي وقوته لم تبلغ إلا قليلاً مما فتح لأصحابه بعد ذلك أن يدخلوا معاركهم مع الدولة الرومانية والدولة الفارسية بآن واحد على قلة في العدة العدد وانتصروا بتلك الشعلة التي أشعلها فيهم الله على يد رسوله ﷺ ، ويكتفي أن نعلم أن رسول الله ﷺ غزا بنفسه - كما يروي مسلم - تسع عشرة غزوة ، هذا عدا عن السرايا والبعوث الحربية التي كان يرسلها . هذا مع أن بقاءه في المدينة كان مدته عشر سنوات فقط .

والحديث عن غزواته طويل جداً نجده مفصلاً في كتب السيرة . ويكتفي أن نذكر أن من آثارها أن وحد الجزيرة العربية كلها ، بينما وحجازها ونجدها وسواحلها ، حتى لم يبق فيها شبر لم يخضع لسلطان الله ، وفتح لأتباعه طريق العمل العالمي . من أجل أن تكون كلمة الله هي العليا . ونحن هنا لا نريد التفصيل وإنما نريد فقط إبراز ما به يظهر التطبيق الكامل لما أمر به رسول الله ﷺ وهو وبالتالي ما دعا إليه فكان في كل شيء لا تختلف أعماله دعوته .

هـ - نماذج من تطبيقه ﷺ للأوامر في المثال الخامس : {كُوئُوا قَوَامِينَ بِالْقِسْطِ} .
{وَأَنْ أَحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذِرْهُمْ أَنْ يَغْتَثُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ} .

أخرج البخاري عن عروة : أن امرأة سرقت في عهد رسول الله ﷺ في غزوة الفتح ، فزع قومها إلى أسامة بن زيد يستشعرونـه قال عروة : " فلما كلمه أسامة فيها تلون وجه رسول الله وقال : أتكلمني في حد من حدود الله تعالى ؟ فقال أسامة : استغفر لي يا رسول الله . فلما كان العشي قام رسول الله ﷺ خطيباً فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال : أما بعد فإنما هلك الناس أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد

. والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها ، ثم أمر رسول الله ﷺ بتلك المرأة فقطعت يدها ، فحسنت توبتها بعد ذلك وتزوجت ، قالت عائشة : كانت تأتي بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله " .

وأخرج أبو داود عن العرباض بن سارية السلمي قال :

" نزلنا مع رسول الله ﷺ قلعة خير ومعه من معه من المسلمين ، وكان صاحب خير رجلاً مارداً متكبراً ، فاقبل إلى النبي فقال : يا محمد ألم أن تذبحوا حمرنا وتأكلوا ثمننا وتضرموا نساعنا ؟ فغضب رسول الله ﷺ وقال : يا ابن عوف اركب فرسك ، ثم ناد أن الجنة لا تحل إلا للمؤمن ، وأن اجتمعوا للصلوة . فاجتمعوا ثم صلى بهم ثم قام فقال : أيحسب أحكم متكتئاً على أريكته قد يظن أن الله تعالى لم يحرم شيئاً إلا ما في القرآن ، إلا إني والله لقد وعظت وأمرت ونهيت عن أشياء إنها لمثل القرآن أو أكثر ، وإن الله تعالى لم يحل لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب إلا بإذن ، ولا ضرب نسائهم ، ولا أكل ثمارهم ، إذا أعطوا الذي عليهم " .

وأخرج ابن عساكر عن عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي أنه " كان ليهودي عليه أربعة دراهم فاستعدى عليه فقال : يا محمد ! إن لي على هذا أربعة دراهم وقد غلبني عليها ، قال : أعطه حقه . قال : والذي بعثك بالحق ما أقدر عليها . قال : أعطه حقه . قال : والذي نفسي بيده ما أقدر عليها . قد أخبر أنك تبعثنا إلى خير فأرجو أن تغنمنا شيئاً فارجع فأقضيه ، قال : أعطه حقه . وكان رسول الله ﷺ إذا قال ثلاثة لم يراجع . فخرج ابن أبي حدرد إلى السوق وعلى رأسه عصابة وهو متزر ببردة ، فنزع عن رأسه فاتزر بها ونزع البردة فقال : اشتري مني هذه البردة ، فباعها منه بأربعة دراهم ، فمررت عجوز فقالت : ما لك يا صاحب رسول الله ؟ فأخبرها ، فقالت : ها دونك هذا البرد لبرد عليها طرحته عليه " وأخرجه أحمد أيضاً .

وأخرج ابن ماجه عن أبي سعيد قال : " جاء أعرابي إلى النبي ﷺ يتلقاضاه دينًا كان عليه فاشتد عليه حتى قال : أخرج عليك إلا قضيتي ، فانتهرو أصحابه فقالوا : ويحك تدري من تكلم ؟ فقال : إني أطلب حقي ، فقال النبي ﷺ : هلا مع صاحب الحق كنتم ، ثم أرسل إلى خولة بنت قيس فقال لها : إن كان عندك تمر فاقرضينا حتى يأتيانا تمر فنقضيك فقالت : نعم بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، فاقترضه فقضى الأعرابي وأطعمه فقال : أوفيت أوفى الله لك فقال : أولئك خيار الناس ، إنه لا قدست أمة لا يأخذ الضعيف فيها حق غير متعن .

وأخرج أبو داود عن أسميد بن حضير : " أن رجلاً من الأنصار كان فيه مزاح ، فبينما هو يحدث القوم ويضحكهم إذ طعنه النبي ﷺ في خاصرته بعود كان في يده فقال : اصبرني يا رسول الله (أي مكني من نفسك لأفترض منك) قال : اصطبر فقال : إن عليك قميصاً وليس على قميص ، فرفع النبي ﷺ قميصه فاحتضنه وجعل يقبل كشهه (الكشح ما وفق شد الإزار من جانب البطن) وقال : إنما أردت هذا يا رسول الله " .

آخر ج الطبراني عن عبد الله بن سلام بإسناد رجاله ثقات قال :

: أَمْرَنِي رَسُولُ اللَّهِ مَنْ أَزِيدُكَ مَكَانًا مَا رَعْتَكَ ، وَقَالَ : وَتَعْرِفُنِي يَا عُمَرَ ؟ قَالَ : لَا . قَلْتَ : أَنَا زَيْدُ بْنُ سَعْنَةَ . قَالَ : الْحَبْرُ . قَلْتَ : الْحَبْرُ . قَالَ فَمَا دَعَاكَ إِلَى أَنْ فَعَلْتَ بِرَسُولِ اللَّهِ مَا فَعَلْتَ ؟ وَقَلْتَ لَهُ مَا قَلْتَ ، قَلْتَ : يَا عُمَرَ ! لَمْ يَكُنْ مِنْ عَلَامَاتِ النَّبُوَّةِ شَيْئًا إِلَّا وَقَدْ عَرَفْتَ فِي وِجْهِ رَسُولِ اللَّهِ مَنْ حِينَ نَظَرْتَ إِلَيْهِ إِلَّا اثْتَنِيْنِ لَمْ أَخْبُرْهُمَا مِنْهُ ؛ يَسْبِقُ حَلْمَهُ جَهَلَهُ وَلَا تَرِيدُهُ شَدَّةُ الْجَهَلِ عَلَيْهِ إِلَّا حَلْمًا ، وَقَدْ اخْتَبَرْتُهُمَا ، أَشْهَدُكَ يَا عُمَرَ أَنِّي قَدْ رَضِيَتْ بِاللَّهِ رَبِّيْ وَبِالْإِسْلَامِ دِيْنِيَاً وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيَاً ، وَأَشْهَدُكَ أَنْ شَطْرَ مَالِيِّ - فَإِنِّي أَكْثُرُهُمَا مَالًا - صَدَقَةً عَلَى أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ، قَالَ عُمَرَ : أَوْ عَلَى بَعْضِهِمْ فَإِنَّكَ لَا تَسْعَهُمْ ، قَلْتَ أَوْ عَلَى بَعْضِهِمْ . فَرَجَعَ عُمَرُ وَزَيْدٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ مَنْ فَقَالَ زَيْدٌ : أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَآمَنَ بِهِ وَصَدَقَهُ وَبَأْيَعَهُ ، وَشَهَدَ مَعَهُ مُشَاهِدَ كَثِيرَةَ ، ثُمَّ تَوَفَّ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ مُقْبَلًا غَيْرَ مُدْبِرٍ - رَحْمَةُ اللَّهِ زَيْدًا " .

من هذه الآثار يتبيّن كيف قام رسول الله ﷺ بالقسط ، وأقامه على نفسه وأتباعه وأصحابه بلا محاباة ولا مداراة ولا مداهنة ، فكان في القمة التي لا يرقى إليها راق في تنفيذ أمر الله وتطبيقه .

* * * *

هذه نماذج رأينا فيها تنفيذًا لخمسة أوامر قام بها رسول الله ﷺ بالشكل الذي لا يبقى معه مزيد لمسترidding ، وهذا الذي رأيناه هنا هو الذي نراه في كل أمرٍ أمرَ اللَّهُ بِهِ عَبَادَهُ ، حتَّى إن عائشة لما وصفت خلق رسول الله ﷺ قالت : " كان خلقه القرآن " ¹ وهذا واقع لا يعرفه حق المعرفة إلا من درس القرآن ودرس معه سيرة رسول الله تفصيلًا ، فإنه يرى بوضوح أنه ما من أمر وجهه الله لخلقها إلا وكان رسول الله أعظم الخلق تنفيذًا له وتطبيقاً ، بلا تفريط في أمر من أوامر الله ، وأي أمرٍ من أوامر الله درست تنفيذ رسول الله ﷺ له ذلك هذا التنفيذ على أن محمداً رسول الله ، وقد رأيت في الأمثلة الماضية هذه النماذج العالية من الالتزام الرائع الذي يجعلك كل موقف من مواقفه تستبعد وقوعه من غير رسول ، أو تابع رسول يقتدي به ، وهذه الصفة التي مرت علينا هي التي يسميها علماء المسلمين الأمانة ، إذ الأمانة عندهم تعني القيام بما كلف الله به عباده أخذًا من قوله : {إِنَّا عَرَضْنَا الْأُمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجَبَالِ}

¹ رواه مسلم .

فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلَنَّهَا وَأَشْفَقُنَّ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا^١ فالأمانة هي التكليف ، وحملها هو إقامة ما كلف الله به عباده ، والرسل هم قدوة البشر في القيام بأمر الله ، فلا بد أن يكونوا أكثر الخلق أمانة أي التزاماً صادقاً بما يدعون الخلق إليه نيابة عن الله ، ووجود هذا الالتزام بما يدعو إليه الخلق من فضائل هو رسول الله رب العالمين .

والآن وقد وضح أن لرسول الله ﷺ الحظ الأعلى من الصفة الثانية التي ينبغي أن يتصرف بها كل من كان رسولاً لله حقاً ، فلننتقل إلى الصفة الأساسية الثالثة لكل رسول وهي تبلیغ دعوة الله مهما كانت الظروف ، لنرى كذلك أن لرسول الله ﷺ الحظ الأعلى منها ، ونرى في كل موقف من مواقفه فيها ما يثبت أنه رسول الله حقاً .

^١ الأحزاب : 73

3 - تبليغه م دعوة الله وقيامه بذلك قياماً كاملاً

لقد سل رسول الله ﷺ كل طريق سليم لتبلغ دعوة الله على الوجه الأكمل ، وسلك الناس في المقابل كل طريق يخطر بالبال ليثنوه عن القيام بأمر الله فلم يفعل :

اتصل بالأفراد اتصالاً شخصياً ، وعرض نفسه على قبائل العرب ، ورحل من أجل تبليغ الدعوة ، وتتبع مواطن اجتماع الناس ليبلغهم ، وأرسل الرسل نيابة عنه لتبلغ الدعوة ، واستقدم الوفود ليأخذوا عنه ويرجعوا مبلغين ، وراسل الأمراء والملوك داعياً لهم إلى الله ولকف أصحابه أن يتعلّموا ويعلمُوا ، وأمر جنده ألا يحاربوا قبل أن يدعوا إلى الإسلام ، ثم حمل جميع المسلمين أمانة البلاغ ليبلغوا العالم دعوة الله ؛ حتى لا يبقى أحد من البشر إلا وقد بُلغ ، وقامت عليه الحجة ، وفي المقابل ما ترك الآخرون طريقاً إلا سلكوه لإنهاء الدعوة والداعية .

سلكوا طريق الإيذاء له ولأتباعه ليثنوه عن التبليغ فما فعل . وسلكوا طريق الإغراء ليثنوه عن التبليغ فما فعل . وسلكوا طريق الضغط العائلي ليثنوه عن التبليغ فما فعل . وسلكوا طريق الاستهزاء والإعراض والسخرية والاتهامات ليثنوه عن التبليغ فما فعل . وسلكوا معه طريق المقاطعة الشاملة له ولم يزره ليثنوه عن التبليغ فما فعل . وقرروا قتله وملاحقته ليثنوه عن التبليغ فما فعل . وطال الزمن والمستجيبون قليلاً ، والجميع يحاولون إثباته واستمر ، ثم حاربوه ليستأصلوا دعوته ويستأصلوه وصبر واستمر رغم هذا كله ، ثم انتصر وانتصر دينه ولا زال ينتصر ويتقدّم رغم الأوضاع السياسية السيئة للمسلمين ، وكل ذلك ببركات الداعية المبلغ الأول .

وقيل أن نستعرض نماذج عن هذا كله . نحب أن نكرر التذكير بشيء حتى لا يلهينا العرض عن الغاية .

هذا الشيء هو : أن إثباتنا هذه الصفات لرسول الله ﷺ وبرهاننا على ذلك ، إنما هو من أجل الوصول إلى برد اليقين بالإيمان به ، وابتاعه عن ثقة بأن ما أخبر به حق مطلق فمن عرفته بالصدق طوال حياته وتأكدت من تحريه له تطمئن إذا أخبرك عن شيء . والرسول

كذلك ، وقيام الرسول بتکاليف دعوته على ما فيها من مخالفة لهوى النفس ومن جهد ونصب دون انتظار مكافأة دينوية ، دليل آخر على رسالته إذ غير هذا الطريق لطالب غير الله أسهل.

وأما عملية التبليغ فليست هي عند الرسل كبقية عمليات التبليغ الأخرى التي يقوم بها بقية البشر في الدعوة لفكرة ما ، ومن ثم كانت عملية التبليغ عند الرسل دليلاً على صدقهم في كونهم مرسلين من عند الله .

إن غير الرسل يدعون الناس إلى شيء تألفه نفوسهم وتهواه ، أي إنهم يأتون الناس من قبل ما يشتهون فلا يعانون شيئاً ولا يحتاجون إلى تضحية ، وأحياناً يضطرون ولكن لا ينتظرون كسباً مادياً أكثر من تضحية ، وتراءم دائماً يلاحظون السلام إلا إذا أتاهم مالم يكن بالحسبان ، وترى الحياة عزيزة جداً عليهم ، وما أسهل ما ينسون دعوتهم إذا يئسوا من الكسب أو النصر . ونحن لا نعني بالطبع هنا أتباع الرسل إذ هؤلاء يعملون بروح الاقتداء بالرسل فعندهم من حرارة إخلاصهم .

إن حماية النفس مقدمة عند أصحاب الدعوات الباطلة على التبليغ ولكن التبليغ عند الرسل لدعوة الحق مقدم على كل شيء .

إن الرسل يبلغون الناس رسالة الله التي فيها ضبط نفوس البشر حتى تستقيم على السنن الصحيح للحياة ، وهم بهذا يدخلون في صراع مع أهواء البشر ، ولكل إنسان هو ، فهم يدخلون في صراع مع الناس جميعاً . والصعوبة التي يعانونها من أعدائهم يعانون قريباً منها في تربية أتباعهم والارتفاع بهم ، إذ البشر هم البشر على كل حال ، وتجاوز الرسول ﷺ لهذه العقبات كلها ، وثبتاته على دعوة الحق بلا مداراة ولا مواربة ، بل والمطالبة للنفس البشرية بواجباتها كاملة ، والصبر على ذلك ، وتحمل كل شيء في هذا السبيل مرضاعة الله ، كل هذا دليل على حرارة الصدق والإخلاص للدعوة والله المكلف بها . وسنرى في كل نموذج نقدمه عن عملية التبليغ عند رسول الله ﷺ وما رافقه شاهد صدق على هذا الذي قدمناه .

وسنقدم نوعين من النماذج :

1- نماذج عن مواقف الكافرين منه ليثווه عن الاستمرار بالتبليغ .

2- نماذج عن الطرق التي سلكها للقيام بعملية التبليغ .

نماذج النوع الأول :

أ- إيداؤه وصبره على ذلك :

1- أخرج الطبراني عن الحارث بن الحارث : " قال : قلت لأبي : ما هذه الجماعة ؟ قال : هؤلاء القوم الذين اجتمعوا على صابئ لهم . قال : فنزلنا فإذا رسول الله ﷺ يدعى إلى توحيد الله عز وجل والإيمان ، وهم يردون عليه ويؤذنه حتى انتصف النهار وانتصدع الناس عنه ، أقبلت امرأة قد بدا نحرها ، تحمل قدحاً ومنديلاً فتناوله منها فشرب وتوضأ ثم رفع رأسه فقال : يا بنية خمري عليك نحرك ، ولا تخافي على أبيك . قلنا من هذه ؟ قالوا : هذه زينب بنته . رضي الله عنها " .

وعنده أيضاً عن منبت الأزدي قال : "رأيت رسول الله ﷺ في الجاهلية وهو يقول : يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تقلعوا . فمنهم من تقل في وجهه ومنهم من حثا عليه التراب و منهم من سبه حتى انتصف النهار . فأقبلت جارية بعس من ماء فغسل وجهه ويديه وقال : يا بنية لا تخشي على أبيك غيلة ولا ذلة . فقلت : من هذه ؟ قالوا : زينب بنت رسول الله ﷺ وهي جارية وضيئه " .

2- وأخرج البيهقي عن عبد الله بن جعفر - رضي الله عنهم - قال : " لما مات أبو طالب عرض لرسول الله ﷺ سفيهٌ من سفهاء قريش فألقى عليه تراباً فرجع إلى بيته ، فأتت امرأة من بناته تمسح عن وجهه التراب وتبكي فجعل يقول : أي بنية ! لا تبكي فإن الله مانع أباك " .

3- وعن ابن أبي شيبة عن عمرو بن العاص - رضي الله عنه - قال : " ما رأيت قريشاً أرادوا قتل النبي ﷺ إلا يوماً ائتمروا به وهم جلوس في ظل الكعبة ورسول الله ﷺ يصلّي عند المقام . فقام إليه عقبة بن أبي معيط فجعل رداءه في عنقه ثم جنبه حتى وجب لركبتيه ساقطاً ، وتصاير الناس فظنوا أنه مقتول ، فأقبل أبو بكر - رضي الله عنه - يشتند حتى أخذ بضبعي رسول الله ﷺ من روائه ، ويقول : {أَنْقَلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ} . ثم انصرفوا عن النبي ﷺ ، فقام رسول الله ﷺ فصلى . فلما قضى صلاته مر بهم - وهم جلوس في ظل

الكعبة - فقال : يا معاشر قريش ! أما والذى نفس محمد بيده ما أرسلت إليكم إلا بالذبح وأشار بيده إلى حلقه . فقال أبو جهل : ما كنت جهولاً . فقال له رسول الله ﷺ : أنت منهم " .

4- وأخرج أحمد عن عروة بن الزبير عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنه - قال :

" قلت له : ما أكثر ما رأيت قريشاً من رسول الله ﷺ فيما كانت تظهر من عداوته . قال : حضرتهم - وقد اجتمع أشرافهم في الحج - فقالوا : ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل قط ، سفه أحلامنا ، وشتم آباءنا وعاب ديننا ، وفرق جماعتنا وسب آهتنا . لقد صبرنا منه على أمر عظيم - أو كما قالوا - قال : فبینما هم في ذلك إذ طلع عليهم رسول الله ﷺ فأقبل يمشي حتى استقبل الركن ثم مر بهم طائفاً بالبيت . فلما مر بهم غمزوه ببعض ما يقول . (غمزوه : أي أشاروا مسيئين إليه) قال : فعرفت ذلك في وجهه ثم مضى . فلما مر بهم الثانية غمزوه بمتلها فعرفت ذلك في وجهه ثم مضى . فلما مر بهم الثالثة فغمزوه بمتلها فقال : أتسمعون يا معاشر قريش أما والذى نفس محمد بيده ! لقد جئتم بالذبح . فأخذت القوم كلمته حتى ما منهم رجل إلا على رأسه طائر واقع ، حتى إن أشدهم فيه وقيعة قبل ذلك ليرفوه بأحسن ما يجد من القول حتى إنه ليقول : انصرف يا أبا القاسم ، انصرف راشداً ، فوالله ما كنت جهولاً . فانصرف رسول الله ﷺ حتى إذا كان الغد اجتمعوا في الحجر - وأنا معهم - فقال بعضهم لبعض : ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم منه حتى إذا بادكم بما تكرهون تركتموه . فبینما هم في ذلك إذ طلع عليهم رسول الله ﷺ فوثبوا إليه وثبة رجل واحد ، فأطافوا به يقولون : أنت الذي تقول كذا وكذا ؟ لما كان يبلغهم من عيب آهتهم ودينهم ، قال فيقول رسول الله ﷺ : نعم ، أنا الذي أقول ذلك . قال : فلقد رأيت رجلاً منهم أخذ بمجمع ردائهم وقام أبو بكر رضي الله عنه دونه يقول وهو يبكي : {أَنْفَلُوكُنَّ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ؟ } ثم انصرفوا عنه فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشاً بلغت منه قط " .

5- وأخرج البزار والطبراني عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال : " بينما رسول الله ﷺ في المسجد وأبو جهل بن هشام وشيبة وعتبة أبنا ربيعة وعقبة بن أبي معيط وأمية بن خلف ورجلان آخران كانوا سبعة وهم في الحجر ورسول الله ﷺ يصلى فلما سجد أطال السجود . فقال أبو جهل : أليكم يأتي جزوربني فلان فيأتينا بفرثها فنكثه على محمد ﷺ ، فانطلق أشقاؤهم عقبة بن أبي معيط فأتى به فلقيه ورسول الله ﷺ ساجد . قال ابن مسعود : وأنا قائم لا أستطيع أن أتكلم ليس عندي منعة تمنعني فأنا أذهب ، إذ سمعت فاطمة بنت رسول الله ﷺ فأقبلت حتى ألقت عن عاتقه ثم استقبلت قريشاً تسليم فلم يرجعوا إليها شيئاً ، ورفع رسول الله ﷺ رأسه كما كان يرفعه عند تمام السجود . فلما قضى ﷺ صلاته قال :

اللهم عليك بقريش - ثلاثة - عليك بعتبة وعقبة وأبي جهل وشيبة . ثم خرج من المسجد فلقيه أبو البختري بسوط يخصر به ، فلما رأى النبي ﷺ أنكر وجهه فقال : مالك ؟ قال النبي ﷺ : خل عني . قال : علم الله لا أخلي عنك أو تخبرني ما شأنك ؟ فقد أصابك شيء . فلما علم النبي ﷺ أنه غير مخل عنه أخبره فقال : إن أبي جهل أمر فطرح علي فرث فقال أبو البختري : هل إلى المسجد فأتى النبي ﷺ وأبو البختري فدخل المسجد ثم أقبل أبو البختري إلى أبي جهل فقال : يا أبي الحكم أنت الذي أمرت بمحمد فطرح عليه الفرث ؟ قال : نعم : قال : فرفع السوط ضرب به رأسه . قال : فثار الرجال بعضها على بعض . قال : وصاح أبو جهل ويحكم هي له ، إنما أراد محمد ﷺ أن يلقي العداوة بيننا وبينجو هو وأصحابه " .

6- وأخرج أبو نعيم في دلائل النبوة ص 103 : عن عروة بن الزبير - رضي الله عنهما - قال : " ومات أبو طالب وازداد من البلاء على رسول الله ﷺ شدة ، فعمد إلى ثقيف يرجو أن يؤووه وينصروه ، فوجد ثلاثة نفر منهم سادة ثقيف وهم إخوة ؛ عبد ياليل بن عمرو ، وخيبي بن عمرو ، ومسعود بن عمرو ، فعرض عليهم نفسه وشكا إليهم البلاء وما انتهك قومه منه فقال أحدهم : أنا أسرق ثياب الكعبة إن كان الله بعثك بشيء قط ؟ وقال آخر : والله لا أكلمك بعد مجلسك هذا كلمة واحدة أبداً لئن كنت رسولاً لأنك أعظم شرفاً وحقاً من أن أكلمك . قال الآخر : أعجز الله أن يرسل غيرك ؟

وأقضوا ذلك في ثقيف الذي قال لهم ، واجتمعوا يستهزؤون برسول الله ﷺ وقعدوا له صفين على طريقه ، فأخذوا بأيديهم الحجارة فجعل لا يرفع رجله ولا يضعها إلا رضخوها بالحجارة وهم في ذلك يستهزؤون ويسخرون . فلما خلس من صفيهم وقدماه تسيل الدماء عمد إلى حائط من كرومهم ، فأتاى ظل حبلة من الكرم فجلس في أصلها م Krooba موجعاً تسيل قدماه الدماء ، فإذا في الكرم عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، فلما أبصرها كره أن يأتيهما لما يعلم من عداوتهما الله ولرسوله وبه الذي به ، فأرسلا إليه غلامهما عداساً بعنブ وهو نصرااني من أهل نينوى .

فلما أتاه وضع العنبر بين يديه فقال رسول الله ﷺ : " بسم الله " فعجب عداس ، فقال له رسول الله ﷺ : من أي أرض أنت يا عداس ؟ قال أنا من أهل نينوى . قال النبي ﷺ : من أهل مدينة الرجل الصالح يونس بن متى ؟ فقال عداس : وما يدريك من يونس بن متى ؟

فأخبره رسول الله ﷺ من شأن يونس ما عرف ، وكان رسول الله ﷺ لا يحقر أحداً
يبلغه رسالات الله تعالى .

قال : يا رسول الله أخبرني خبر يونس بن متى ، فلما أخبره رسول الله ﷺ من شأن
يونس بن متى ما أوحى إليه من شأنه ، خر ساجداً لرسول الله ﷺ ثم جعل يقبل قدميه وهما
يسيلان الدماء .

فلما أبصر عتبة وأخوه شيبة ما فعل غلامهما سكتا . فلما أتاهم قال لهم : ما شأنك
سجدت لمحمد وقبلت قدميه ولم نرك فعلت هذا بأحد منا .

قال : هذا رجل صالح حدثي عن أشياء عرفتها من شأن رسول بعثه الله تعالى إلينا
يدعى يونس بن متى ، فأخبرني أنه رسول الله ، فضحكا وقالا : لا يفتاك عن نصرانتك ، إنه
رجل يخدع ، ثم رجع رسول الله ﷺ إلى مكة " .

وذكر في البداية (ج 3 ص 136) عن موسى بن عقبة : " وقعد له أهل الطائف
صفين على طريقه ، فلما مر جعلوا لا يرفع رجليه ولا يضعهما إلا رضخوهما بالحجارة حتى
أدمواه فخلص منهم وهما يسيلان الدماء . وفيما ذكر ابن إسحاق : فقام رسول الله ﷺ من
عندهم وقد يئس من خير تقييف وقد قال لهم - فيما ذكر لي - : إن فعلمتم ما فعلتم فاكتتموا علي
، وكره رسول الله ﷺ أن يبلغ قومه عنه فيذئرون ذلك عليه . فلم يفعلوا وأغرروا به سفهاءهم
وعبيدهم يسبونه ويصيرون به حتى اجتمع عليه الناس وأججواه إلى حاط لعنة بن ربيعة
وشيبة بن ربيعة وهما فيه . ورجع عنه من سفهاء تقييف من كان يتبعه ، فعمد إلى ظل حبلة
من عنب فجلس فيه وابنا ربيعة ينظران إليه ويريان ما يلقى من سفهاء أهل الطائف " .

من هذه القصص قصص الإيذاء الرهيب نعرف ما لاقى وهو الشري夫 الهاشمي ذو
النفس الحساسة ، ابن الأشراف ومع ذلك تحمل واستمرّ وليس بيده ألا يستمر ، وكما أودي هو
أودي أتباعه كذلك وقتل بعضهم ... ومع ذلك صبروا وثبتهم على الصبر ، وهذا شيء يجرح
الضمير أن يرى الإنسان الناس يعذبون بسبب دعوته ، لو لا أن ذلك هو الحق الذي لا ريب
فيه ، وأن الإنسان ليس مخيراً في سلوكه بل هو الذي لا بد منه للقيام بحق الله وإنها لرسالة
الله .

* * * *

ب - محاولة إغرائه ورفضه لذلك :

قال ابن إسحاق ؛ وحدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي ، قال " حدثت أن عتبة بن ربيعة ، وكان سيداً ، قال يوماً وهو جالس في نادي قريش ، ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده : يا معشر قريش ، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ، ويقف عننا ؟ وذلك حين أسلم حمزة ، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكترون ، فقالوا : بل يا أبا الوليد . قم إليه فكلمه ، فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال : يا ابن أخي : إنك منا حيث قد علمت ، من السلطة في العشيرة (السلطة : الشرف) والمكان في النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبدت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تتظر فيها ، لعلك تقبل منها بعضها ، قال : فقال له رسول الله ﷺ قل يا أبا الوليد ، أسمع ، قال : يا ابن أخي ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا ، حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت ت يريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت ت يريد به ملكاً ، ملكناك علينا ، وإن كان الذي يأتيك رئيساً تراه ، لا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه . أو كما قال له : حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه ، قال :

أقد فرغت يا أبا الوليد ؟

قال : نعم ،

قال : فاسمع مني .

قال : أفعل ..

قال : بسم الله الرحمن الرحيم { حم * تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ
قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * وَقَالُوا فُلُوبُنَا فِي
أَكْلَهِ مِمَّا نَدْعُونَا إِلَيْهِ } .

ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه ، فلما سمعها منه عتبة أنصت لها ، وألقى
يديه خلف ظهره ، معتمداً عليها ، يسمع منه ، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها ، فسجد
ثم قال : قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك .

فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نخلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير
الوجه الذي ذهب به ، فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟

قال : ورأيي أنني قد سمعت قوله ولا والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ، ولا
بالسحر ، ولا بالكهانة ، يا عشر قريش ، أطیعونی واجعلوها بي وخلوا بين هذا الرجل وبين
ما هو فيه فاعترلواه ، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم ، فإن تصبه العرب فقد
كفيتهم بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملککم ، وعزه عزکم وكنت أسعد الناس به ،
فاللوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ، قال : هذا رأيي فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم " .

وقال ابن إسحاق : " اجتمع عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة وأبو سفيان بن حرب ،
والنصر بن الحارث (بن كلدة) أخوبني عبد الدار ، وأبو البختري بن هشام ، والأسود بن
المطلب ، وزمعة بن الأسود ، والوليد بن المغيرة ، وأبو جهل بن هشام وعبد الله بن أبي
أميمة ، والعاص بن وائل ، ونبيه ومنبه ابن الحاج السهمييان ، وأمية بن خلف ، أو من اجتمع
منهم ، قال : اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة ، ثم قال بعضهم لبعض : ابعثوا
إلى محمد فكلموه وخاصموه ، حتى تعذروا فيه ، فيبعثوا إليه :

عن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك ، فأتهم .

فجاءهم رسول الله ﷺ سريعاً وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلامهم فيه بداء ، وكان
عليهم حريضاً يحب رشدهم ، ويعز عليهم عنتهم ، حتى جلس إليهم ، فقالوا له : يا محمد إننا قد
بعثنا إليك لنكلمك . وإنما والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على
قومك ، لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين ، وشتمت الآلهة ، وسفهت الأحلام ، وفرقت الجماعة

، فما بقي أمر قبيح إلا قد جئته فيما بيننا وبينك - أو كما قالوا له - فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً ، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت إنما تطلب به الشرف علينا ، فنحن نسودك علينا ، وإن كنت ترید به ملكاً ملکناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه قد غلب عليك ، وكانوا يسمون التابع من الجن رئياً - فربما كان ذلك ، بذلك لك أموالنا في طلب الـ طلب لك حتى نبرئك منه ، أو نعذر فيه .

قال لهم رسول الله ﷺ ما بي ما تقولون ، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثي إليكم رسولاً ، وأنزل علي كتاباً ، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً . فبلغتكم رسالات ربى ، ونصحت لكم ، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله ، حتى يحكم الله بيني وبينكم ، أو كما قال ﷺ . قالوا : يا محمد فإن كنت غير قابل من شيئاً مما عرضناه عليك فإنه قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلداً ، ولا أقل ماءً ، ولا أشيد عيشاً منا ، فسل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به ، فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقناها علينا وليسط لنا بلادنا ، وليفجر لنا فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق ، ولبيعث لنا من مضى من آبائنا ، ول يكن فيمن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب ، فإنه كان شيخ صدق ، فسألهم عما يقول : أحق هو أم باطل؟ فإن صدقواه وصنعت ما سأله صدقناك ، وعرفنا به منزلتك عند الله ، وأنه بعثك رسولاً كما تقول .

قال لهم صلوات الله وسلامه عليه : ما بهذا بعثت إليكم ، إنما جئتكم من الله بما بعثي به ، وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم ، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردوه علي أصبر لأمر الله تعالى ، حتى يحكم الله بيني وبينكم .

قالوا : فإذا لم تفعل هذا لنا فخذ لنفسك ، سل ربك أن يبعث معك ملكاً يصدقك بما تقول ، ويراجعنا عنك ، وسله فليجعل لك جناناً وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة يغنيك بهذا عما نراك تتبعي ، فإنك تقوم بالأسواق كما نقوم ، وتلتمس المعاش كما نلتمسه ، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولاً كما تزعم . فقال لهم رسول الله ﷺ : ما أنا بفاعل ، وما أنا بالذي يسأل ربه هذا ، وما بعثت إليكم بهذا ، ولكن الله بعثي بشيراً ونذيراً - أو كما قال - فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم .

قالوا : فأسقط السماء علينا كسفًا ، كما زعمت إن شاء ربك فعل ، فإننا لا نؤمن لك إلا
أن تفعل .

قال : فقال رسول الله ﷺ : ذلك إلى الله ، إن شاء أن يفعله بكم فعل ، قالوا : يا محمد
، ألم علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألاك عنه ، ونطلب منك ما نطلب ، فيتقىدم
إليك فيعلمك ما تراجعنا به ، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا ، إذا لم نقبل منك ما جئتني به !
إنه قد بلغنا أنك إنما يعلمك هذا رجل باليمامة ، يقال له : الرحمن ، وإنما والله لا نؤمن
بالرحمن أبداً ، فقد أذرنا إليك يا محمد ، وإنما والله لا نتركك وما بلغت منا حتى نهلكك أو
تهلكنا ، وقال قائلهم : نحن نعبد الملائكة ، وهي بنات الله ، وقال قائلهم : لن نؤمن لك حتى
تأتينا بالله والملائكة قبلاً .

فلما قالوا ذلك لرسول الله ﷺ قام عنهم ، وقام معه عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة بن
عبد الله بن عمر بن مخزوم - وهو ابن عمته ، فهو لعانته بنت عبد المطلب فقال له : يا
محمد ، عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ، ثم سألك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها
منزلتك من الله كما تقول ويصدقونك ويتبعوك ، فلم تفعل ، ثم سألك أن تأخذ لنفسك ما
يعرفون به فضلك عليهم ومنزلتك من الله فلم تفعل ، ثم سألك أن تجعل لهم بعض ما تخوفهم
به من العذاب فلم تفعل - أو كما قال له - فوالله لا أؤمن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلماً ،
ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها ، ثم تأتي معك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما
تقول . ولهم الله لو فعلت ذلك ما ظننت أني أصدقك ، ثم انصرف عن رسول الله ﷺ وانصرف
رسول الله ﷺ إلى أهله حزيناً آسفاً لما فاته مما كان يطمع به من قومه حين دعوه ولما رأى
من مباعدتهم إياه .

قارن بين الصورتين : اضطهاد بدون حدود ، وإغراء إلى هذا المستوى ، ولا خيار .
خذ ما تريده واترك ما أنت عليه أو تضطهد هذا الاضطهاد المر . ومحمد ﷺ في الحالتين هو
هو لا الاضطهاد يؤثر في صده عن عملية التبليغ ولا الإغراء يثنيه . وفي موقفه في كلا
الحالتين شهادة على أنه رسول الله حقاً وأنه صاحب دعوة هداية أولاً وآخرأ .

ج - حاولتهم أن يضغطوا عليه م عائلاً :

أخرج الطبراني في الأوسط والكبير عن عقيل بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال : " جاءت قريش إلى أبي طالب فقالوا : يا أبو طالب ! إن ابن أخيك يأتينا في أفنينا وفي نادينا فيسمعنا ما يؤذينا به ، فإن رأيت أن تكتفه عنا فافعل ، فقال لي : يا عقيل ! التمس لي ابن عمك ، فأخرجته من كبس (أي بيت صغير) من أكباس أبي طالب . فأقبل يمشي معه يطلب الفيء يمشي فيه فلا يقدر عليه حتى انتهى إلى أبي طالب . فقال له أبو طالب ، يا ابن أخي ! والله ما علمت إن كنت لي لمطاعاً ، وقد جاء قومك يزعمون أنك تأتيهم في كعبتهم وفي ناديهما تسمعهم ما يؤذيهما ، فإن رأيت أن تكتف عنهم . فحلق بيصره إلى السماء فقال : والله ما أنا بأقدر أن أدع ما بعثت به من أن يشعل أحدهم من هذه الشمس شعلة من نار . فقال أبو طالب : والله ما كذب ابن أخي قط ، ارجعوا راشدين " .

قال الهيثمي (ج 6 ص 14) : رواه الطبراني وأبو يعلى باختصار يسير من أوله ، ورجال أبي يعلى رجال الصحيح ، انتهى . وأخرجه البخاري في التاريخ بنحوه كما في البداية (ج 3 ص 42) .

و عند البيهقي : " أن أبو طالب قال له م : يا ابن أخي ! إن قومك قد جاعوني وقالوا كذا وكذا ، فأبقى على نفسك ، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق أنا ولا أنت ، فاكف عن قومك ما يكرهون من قولك .

فظنن رسول الله م أن قد بدا لعمله فيه ، وأنه خاذله ومسلمه ، وضعف عن القيام معه . فقال رسول الله م : يا عم ! لو وضعت الشمس في يميني والقمر في يساري ، ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك في طلبه ، ثم استعبر رسول الله م فبكى . فلما ولى قال له حين رأى ما بلغ برسول الله م : يا ابن أخي ، فأقبل عليه فقال : امض على أمرك وافعل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً " . كذا في البداية (ج 3 ص 42) .

والذي يعرف عادة العرب في احترام الأكابر منهم وطاعتهم لأمرائهم ومشايخ بيوتهم يدرك مدى الأثر النفسي الكبير الذي يحدثه تدخل أبي طالبشيخ بنى هاشم نتيجة ضغط قومه عليه . ومحمد م الحيي الخجول المذهب ما كان ليخالف أمر عمه ورغبته لو كانت المسألة

مسألة شخصية ولكن الأمر أكبر من ذلك . إنه أمر الله الذي هو أكبر من كل عرف ومن كل اعتبار ومن كل ضغط . وفي ذلك شهادة كاملة لمن عرف عادات القبائل العربية على أن محمداً رسول الله .

* * * *

د- سلوكهم طريق الاستهزاء والسخرية والإعراض والاتهامات :

من سيرة ابن هشام ننفق هذه المقاطع :

" ثم إن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش ، وكان ذا سن فيهم ، وقد حضر الموسم فقال لهم : يا معاشر قريش ! إنه قد حضر هذا الموسم وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأياً واحداً ولا تختلفوا ، فيكذب بعضكم بعضاً ، ويرد قولكم بعضه بعضاً ، قالوا : فأنت يا أبا عبد شمس ، فل وأقم لنا رأياً نقول به ، قال : بل أنتم فقولوا أسمع ، قالوا : نقول كاهن ، قال : لا والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان بما هو بزمرة الكاهن ولا بسعده ، قالوا : فنقول : مجنون ، قال : ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بخنقه ، ولا تخلجه ولا وسوسته ، قالوا : فنقول شاعر ، قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله ؛ رجزه ، وهزجه ، وقريضه ، ومقوضه وبمبوسطه ، فما هو بالشعر ، قالوا : فنقول ساحر ، قال : ما هو بساحر ، لقد رأينا السحار وسحرهم ، فما هو بنفثهم ولا عقدهم ، قالوا : فما نقول يا أبا عبد شمس ؟ قال : والله إن لقوله لحلوة ، وإن أصله لعدق (النخلة) وإن فرعاه لجنة - قال ابن هشام ، ويقال لعدق (الغدق : الماء الكثير) وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل ، وأن أقرب القول فيه لأن تقولوا : ساحر جاء بقول هو سحر ، يفرق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته ، فتفرقوا عنه بذلك ، فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه وذكروا لهم أمره .

- وقال ابن إسحاق :

ثم إن قريشاً اشتد أمرهم للشقاء الذي أصابهم في عداوة رسول الله ﷺ ومن أسلم معه منهم ، فأغروا برسول الله ﷺ سفهاءهم ، فكذبواه وآذوه ، ورمواه بالشعر والسحر والكهانة والجنون ، ورسول الله ﷺ مظهر لأمر الله لا يستخفى به ، مبادلهم بما يكرهون من عيب دينهم ، واعتزال أولئك ، وفراقه إياهم على كفرهم .

- وقال ابن إسحاق :

وكان النضر بن الحارث من شياطين قريش ، وмен كان يؤذى رسول الله ﷺ وينصب له العداوة ، وكان قد قدم الحيرة ، وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رستم واسبنديار ، فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلساً ذكر فيه بالله ، وحضر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نعمة الله ، خلفه في مجلسه إذا قام ، ثم قال : أنا والله يا عشر قريش أحسن حديثاً منه ، فهل إلي ، فأنا أحدثكم أحسن من حديثه ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسبنديار ، ثم يقول : بماذا محمد أحسن حديثاً مني .

وقال :

فلما جاءهم رسول الله ﷺ بما عرفوا من الحق ، وعرفوا صدقه فيما حدث ، وموقع نبوته فيما جاءهم من علم الغيوب ، حين سألوه عما سألوه عنه ، حال الحسد منهم له بينهم وبين اتباعه وتصديقه ، فعنوا على الله وتركوا أمره عياناً ، ولدوا فيما هم عليه من الكفر ، فقال قائلهم : {لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنَ وَلَغُوا فِيهِ لَعْلَمْ تَعْلَمُونَ} ¹ أي اجعلوه لغواً باطلًا واتخذوه هزواً ، لعلكم تغلبونه بذلك ، فإنكم إن ناظرتموه أو خاصتموه يوماً غلوكم .

- وقال : فقال أبو جهل يوماً وهو يهزأ برسول الله ﷺ وما جاء به من الحق : يا عشر قريش ! يزعم محمد أنما جنود الله الذين يعبدونكم في النار ويحببونكم فيها تسعة عشرة ، وأنتم أكثر الناس أعداداً ، وكثرة ، أفيعجز كل مئة رجل منكم عن رجل منهم ، فأنزل الله تعالى عليه في ذلك من قوله : {وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةٌ وَمَا جَعَلْنَا عَدَّهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا} ² ... إلى آخر القصة .

¹ فصلت : 26.

² المبشر : 31.

فَلَمَّا قَالَ ذَلِكَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ، جَعَلُوا إِذَا جَهَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ عَلَيْهِ السَّلَامَ بِالْقُرْآنِ وَهُوَ يَصْلِي فِي تَفَرِّقَتِهِ عَنْهُ ، وَيَأْبَوْنَ أَنْ يَسْتَمِعُوا إِلَيْهِ ، فَكَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَسْتَمِعَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ عَلَيْهِ السَّلَامَ بَعْضُ مَا يَتَلَوُ مِنَ الْقُرْآنِ وَهُوَ يَصْلِي ، اسْتَرَقَ السَّمْعَ دُونَهُمْ ، فَرَقَّا مِنْهُمْ ، فَإِنْ رَأَى أَنَّهُمْ قَدْ عَرَفُوا أَنَّهُ يَسْتَمِعُ مِنْهُ ، ذَهَبَ خَشْيَةً أَذَاهُمْ ، فَلَمْ يَسْتَمِعْ ، وَإِنْ خَفَضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ عَلَيْهِ السَّلَامَ فَظَنَّ الَّذِي يَسْتَمِعُ أَنَّهُمْ يَسْتَمِعُونَ شَيْئًا مِنْ قِرَاءَتِهِ وَسَمِعَ هُوَ شَيْئًا دُونَهُمْ ، أَصَاحَ لَهُ لِيَسْتَمِعَ مِنْهُ .

تصور حرب الدعاية الفظيعة التي لجأوا إليها ، وهم قريش موطن نقاء العرب ، والذين تأثيهم العرب سنويًا للحج ، فهم يشوّهون اسمه عاماً بعد عام ، ويحاولون أن يحاربوه بكل سلاح من أسلحة القول ، والعربى لا تسمح نفسه أبدًا أن يقف موقف المتهم ، ومع ذلك بقى رسول الله ﷺ صابراً على هذه الحرب الدعائية الفظيعة ، هذه المدة الطويلة ، ثلاثة عشر عاماً ، وما وَنَى وما كَلَّ ، وهو يقوم بعملية التبليغ المستقيمة النظيفة .

إن استمرار الداعية في مثل هذا الجو المحموم ، دليل على صدقه فيما يدعو إليه ، وإلا فكيف نعمل استمرار رجل في دعوة يلاقي ما لاقي ، مع العرض عليه كل ماتع الدنيا ، ثم لا يرضى إلا بحمل الناس على دعوته . إن هذا لا يُعلل إلا بصدقه في دعوته ، وأنه يبلغها مأموراً من الله عز وجل ، وقد وضح له أن النكوص عن طريقه وراءه ما وراء الذي يعصي أمر الله من عقاب الله .

* * * *

هـ - استعمال سلاح المقاطعة :

، ثم تعاهدوا وتوافقوا على ذلك ، ثم علقو الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم ، وكان كاتب الصحيفة منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي - قال ابن هشام : ويقال النضر بن الحارث - فدعا عليه رسول الله ﷺ ففشل بعض أصابعه " .

وقال ابن إسحاق : " فلما فعلت قريش انحازت بنو هاشم وبنو عبد المطلب إلى أبي طالب بن عبد المطلب ، فدخلوا معه في شعبه واجتمعوا إليه وخرج منبني هاشم أبو لهب عبد العزي بن عبد المطلب إلى قريش فظاهرهم " .

وقال ابن إسحاق : " وحدثني حسين بن عبد الله : أن أبو لهب لقي هند بنت عتبة بن ربيعة حين فارق قومه وظاهر عليهم قريشاً ، فقال : يا بنت عتبة هل نصرت اللات والعزى وفارقت من فارقهما وظاهر عليهما ؟ قالت : نعم فجزاك الله خيراً يا أبو عتبة " .

- وأخرج أبو نعيم في الحلية ح 1 ص 93 عن سعد - رضي الله عنه - قال : " كنا قوماً يصيّبنا ظلف العيش بمكة مع رسول الله ﷺ وشدته ، فلما أصابنا البلاء اعترفنا لذل ومرنا عليه وصبرنا له ، ولقد رأيتني مع رسول الله ﷺ بمكة خرجت من الليل أبوال . وإذا أنا أسمع بحقيقة شيء تحت بولي فإذا قطعة جلد بغير ، فأخذتها فغسلتها ثم أحرقتها فوضعتها بين حجرين ثم استففتها وشرب عليها الماء فقويت عليها ثلاثة " .

هذه المقاطعة التي كانت من آثارها مارأيت استمرت ثلاثة سنين متاليات . لا بيع ولا شراء ولا زواج ولا إزواج ولا طعام ولا شراب .

يقول السهيلي : " كانت الصحابة إذا قدمت عير إلى مكة يأتي أحدهم السوق ليشتري شيئاً من الطعام قوتاً لعياله ، فيقول أبو لهب : فيقول : يا عشر التجار غالوا على أصحاب محمد حتى لا يدركوا معكم شيئاً وقد علمتم مالي ووفاء ذمتى فأنا ضامن أن لا خسار عليكم ، فيزيدون عليهم في السلعة قيمتها أضعافاً ، حتى يرجع أحدهم إلى أطفاله وهم يتضاغون من الجوع ، وليس في يده شيء يطعمهم به ، ويغدو التجار على أبي لهب فيربحهم فيما اشتروا من الطعام واللباس " .

ثلاث سنوات متواليات والمسلمون وأقارب رسول الله ﷺ من المشركين أنفسهم ممن يحمونه عصبية بني هاشم وبني المطلب على هذه الحال . ورسول الله ﷺ صابر وهو يرى هذه المناظر المؤلمة . زوجه خديجة الطاعنة في السن ، عمّه أبو طالب الطاعن في السن ، أسرته أقاربه يعانون هذه الحياة المجهدة ، ومع ذلك ما فكر لحظة في إيقاف عملية التبليغ والجهر بالدعوة ، وليس هناك ظاهرياً بارقة أمل ، فالجزيرة العربية كلها مجمعة على الوقوف ضده مع قريش ، ومع ذلك بقي مستمراً لا لقاء ولا مداهنة ولا تنازل ولا أي شيء آخر . فمن يستطيع أن يتحمل هذا لو لا إيمان بالله وثقة به صدق بوعده ووعيده ، واتصال بالله كامل يستسلم صاحبه لأمر الله فيه . إنها صفات الأنبياء ولا يمكن أن تعلل إلا بأن صاحبها رسول الله حقاً ...

* * * *

و - محاولتهم قتله ﷺ :

- قال ابن إسحاق :

" ثم إن قريشاً حين عرفوا أن أبي طالب قد أبى خذلان رسول الله ﷺ وإسلامه وإن جماعه لفراهم في ذلك وعداوتهم ، مشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة فقالوا له : - فيما بلغني - يا أبي طالب : هذا عمارة بن الوليد ، أنهد فتي في قريش وأجمله ، فخذه فلك عقله ونصره ، واتخذه ولداً فهو لك ، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي قد خالف دينك ويدين آبائك ، وفرق جماعة قومك ، وسفه أحالمهم ، فقتلته ، فإنما هو رجل برجل . فقال : والله لبيس ما تسمونني ، أتعطوني ابنكم أغذوه لكم ، وأعطيكم ابني تقتلونه ! هذا والله ما لا يكون أبداً . قال : فقال المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف بن قصي : والله يا أبي طالب لقد أنصفك قومك وجهدوا على التخلص مما تكرهه ، فما أراك تزيد أن تقبل منهم شيئاً ، فقال أبو طالب للمطعم : والله ما أنصفوني ، ولكنك قد أجمعـت خذلاني ، ومظاهره القوم على فاصـنـعـ ما بدا لك - أو كما قال - فحققـ الأمر وحـمـيتـ الحرب وـتـابـذـ القـومـ وبـادـيـ بعضـهمـ بـعـضاً ."

وقال ابن إسحاق :

" فلما قام عنهم رسول الله ﷺ قال أبو جهل : يا معشر قريش إن محمدًا قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا وشتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وشتم آلهتنا ، وإنني أعاهد الله لأجلس له غداً بحجر ما أطيق حمله - أو كما قال - فإذا سجد في صلاته فضخت به رأسه ، فأسلموني عند ذلك أو امنعوني ، فليصنع بنو عبد مناف ما بدا لهم ، قالوا : والله لا نسلمك لشيء أبداً ، فامض لما تريد " .

وقال ابن إسحاق :

" وكان إسلام عمر - فيما بلغني - أن أخته فاطمة بنت الخطاب ، وكانت عند سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، وكانت قد أسلمت وأسلم بعلها سعيد بن زيد وهمما مستخفيان بإسلامهما من عمر ، وكان نعيم بن عبد الله النحام رجل من قومه ، منبني عدي بن كعب قد أسلم ، وكان أيضاً يستخف بإسلامه فرقاً من قومه ، وكان خباب بن الأرت يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب يقرئها القرآن ، فخرج عمر يوماً متوضحاً سيفه يريد رسول الله ﷺ ورهطاً من أصحابه قد ذكروا أنهم قد اجتمعوا في بيته عند الصفا وهم قريب من أربعين ما بين رجال ونساء ، ومع رسول الله ﷺ عمه حمزة بن عبد المطلب ، وأبو بكر بن أبي قحافة الصديق ، وعلي بن أبي طالب في رجال من المسلمين - رضي الله عنهم - ومن كان أقام مع رسول الله ﷺ بمكة ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشة ، فلقيه نعيم بن عبد الله فقال له : أين تريد يا عمر ؟ فقال : أريد محمداً هذا الصابئ ، الذي فرق أمر قريش وسفه أحلامها وعاب دينها وسب آلهتها ، فأقتلته . فقال له نعيم : والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر ، أترىبني عبد مناف تاركك تمشي على الأرض وقد قلت محمداً ! أفلاترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟ فقال : وأي أهل بيتي ؟ قال : ختك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو ، وأختك فاطمة بنت الخطاب فقد والله أسلما وتابعاً محمداً على دينه ، فعليك بهما . قال : فرجع عمر عامداً إلى أخته وخته " .

وقال ابن إسحاق : " من خبر اجتماع الملايين قريش وتشاورهم في أمر رسول الله ﷺ فقال بعضهم لبعض : إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيت ، فإنما والله ما نأنمه على الوثوب علينا فيمن قد اتبعه من غيرنا ، فأجمعوا فيه رأياً . قال فتشاوروا ثم قال قائل منهم : احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه باباً ثم تربصوا به ما أصاب أشياهه من الشعراء الذين كانوا قبله ، زهيراً والنابغة ، ومن مضى منهم مع هذا الموت ، حتى يصييه ما أصابهم ، فقال الشيخ النجدي : لا والله ، ما هذا لكم برأي ، والله لئن حبستوه كما تقولون ليخرجن أمره من

وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه ، فلأوشكوا أن يثبتوا عليكم فينزعوه من أيديكم ، ثم يكثرونكم به حتى يغلوكم على أمركم ، ما هذا لكم برأي ، فانظروا في غيره ، فتشاوروا ثم قال قائل منهم : نخرجه من بين أظهارنا ، فنفيه من بلادنا ، فإذا خرج عنا فوالله لا نبالي أين ذهب ولا حيث وقع ، وإذا غاب عنا وفرغنا منه ، أصلحنا أمرنا وأفتنا كما كانت . فقال الشيخ النجدي : لا والله ، ما هذا برأي ، ألم تروا حسن حديثه وحلوته منطقه وغلبة على قلوب الرجال بما يأتي به ، والله لو فعلتم ذلك ما أمنت أن يحل على حي من العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتبعوه عليه . ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم بهم في بلادكم ، فيأخذ أمركم من أيديكم ثم يفعل بكم ما أراد . دبروا فيه رأياً غير هذا .

قال : فقال أبو جهل بن هشام : والله إن لي فيه لرأياً ، ما أرركم وقعتم عليه بعد .

قالوا : وما هو يا أبا الحكم ؟

قال : أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جليداً نسيباً وسيطاً (الشريف في قومه) فيينا ، ثم نعطي كل قتى منهم سيفاً صارماً ، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد ، فيقتلوه فنستريح منه ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعاً ، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً ، فرضوا مما بالعقل ، فعقلناه لهم (العقل : الديمة) قال : فقال الشيخ النجدي : القول ما قال الرجل ، هذا الرأي لا رأي غيره فتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون له " .

هذه نماذج من قرارات القوم بشأن اغتيال الرسول ﷺ . وإن فالفتررة التي قضاها رسول الله ﷺ في مكة لم تكن فترة أمن من كل الجوانب . ومع هذه التهديدات المتواصلة وهذا الجو الذي يحطم الأعصاب . نجد رسول الله ﷺ ما انقطع فترة عن القيام بعملية التبليغ والجهر بها ، ومجابهة الناس بما يدعوه له ، إن هذا كله ليس عادياً في بيئه عربية وعلى النفسية العربية لو لا أن المسألة مسألة وحي من الله وأمر .

* * * *

ز - ملاحقة خطواته ﷺ ومحاولته إثباته منهم :

أخرج ابن إسحاق عن ربيعة بن عباد - رضي الله عنه - قال : " إني لغلام شاب مع أبي بمنى ورسول الله ﷺ يقف على منازل القبائل من العرب فيقول : يا بني فلان ! إني رسول الله إليكم أمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تخشعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد ، وأن تؤمنوا بي وتصدقوا بي وتمعنوني حتى أبين عن الله ما بعثني به . قال : وخلفه رجل أحول وضيء غديرتان عليه حلقة عدنية . فإذا فرغ رسول الله ﷺ من قوله وما دعا إليه قال ذلك الرجل : يا بني فلان ! إن هذا إنما يدعوكم أن تسلخوا الالات والعزى من أعناقكم وخلفاكم من الجن منبني مالك بن أقىش إلى ما جاء به من البدعة والضلالة فلا تطهوه ولا تسمعوا عنه .

قال : فقلت لأبي يا أبت .. من هذا الرجل الذي يتبعه ويرد عليه ما يقول ؟ قال هذا عمه عبد العزى بن عبد المطلب أبو لهب .

وأخرج أبو نعيم في الدلائل عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال : " لقد كان رسول الله ﷺ يخرج في المواسم فيدعو القبائل ، ما أحد من الناس يستجيب له ويقبل منه دعاءه ، فقد كان يأتي القبائل بمجننة وعكاذا وبمنى حتى يستقبل القبائل يعود إليهم سنة بعد سنة حتى إن القبائل منهم من قال : ما آن لك أن تتأس منا ؟ "

لقد بقي مستمراً في عملية التبليغ على وتيرة واحدة وبذل متوافق ، رغم هذه الظروف غير المواتية ، والتي تجعل الإنسان العادي ييأس أو يفتر . ولكن شيئاً من هذا لم يحدث ، فلو لا أنه رسول الله حقاً يقوم بهذا كله إيماناً بالله وتفيداً لأمره وتصديقاً بوعده وخوفاً من وعيده لما أمكنه الاستمرار وتجاوز شيء من هذا .

ونكتفي بهذه الأمثلة على تخطيه العقبات أمام البلاع ؛ لننتقل إلى عرض نماذج من عمله الدائب المستمر الشامل في تبليغ دعوة الله ، أي إلى :

نماذج النوع الثاني : الطرق التي سلكها م لإيصال دعوة الله إلى الناس .

أ- دعوته م الناس للاجتماع من أجل أن يبلغهم :

أخرج أحمد عن ابن عباس قال : " لما أنزل الله {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبَيْنَ} ¹ أتى النبي م الصفا فصعد عليه ثم نادى : يا صباحاه فاجتمع الناس إليه بين رجل يجيء إليه وبين رجل يبعث رسوله فقال رسول الله : يا بنى عبد المطلب يا بنى فهر يا بنى كعب أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تزيد أن تغير عليكم صدقتيوني ؟ قالوا : نعم . قال فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، فقال أبو لهب : تبا لك سائر اليوم أما دعوتنا إلا لهذا ؟ وأنزل الله {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ} ² .

ب - ذهابه م إلى أماكن تجمع الناس وتبلغهم دعوة الله :

أخرج أحمد عن رجل من بنى مالك بن كنانة قال : " رأيت رسول الله م بسوق ذي المجاز يتخللها يقول : " يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تقلحوا " قال وأبو جهل يحتسي عليه التراب ويقول لا يغويونكم هذا عن دينكم فإنما يريد لتركوا آلهتكم وتتركوا اللات والعزى وما ينافى وإليه رسول الله " .

وأخرج أحمد عن ربيعة بن عباد من بنى الدليل وكان جاهلياً فأسلم قال : " رأيت رسول الله في الجاهلية في سوق ذي المجاز وهو يقول : " يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تقلحوا " والناس يجتمعون عليه ووراءه رجل وضيء الوجه أحول ذو غديرتين يقول إنه صابئ كاذب يتبعه حيث ذهب ، فسألت عنه فقالوا : هذا عمه أبو لهب " .

وأخرج البخاري في التاريخ وأبو زرعة والبغوي وابن أبي عاصم والطبراني عن الحارث ابن الحارث الغامدي قال :

¹ الشعراء : 214 .

² المسد : 1 .

" قلت لأبي ونحن بمنى ما هذه الجماعة ؟ قال : هؤلاء اجتمعوا على صابئ لهم قال : فتشرفت فإذا برسول الله يدعو الناس إلى توحيد الله وهم يردون عليه الحديث " .

وأخرج الطبراني عن مدرك قال : حجت مع أبي فلما نزلنا منى إذا نحن بجماعة فقلت لأبي : ما هذه الجماعة ؟ قال : هذا الصابئ ، فإذا رسول الله ص يقول : يا أيها الناس قولوا : لا إله إلا الله تقلحوا " قال الهيثمي (ج 6 ص 21) ورجاله ثقات .

وأخرج ابن إسحاق عن الزهرى : " أنه عليه الصلاة والسلام أتى كندة في منازلهم وفيهم سيد لهم يقال له مليح فدعاهم إلى الله - عز وجل - وعرض عليهم نفسه فأبوا عليه " .

وعن محمد بن عبد الرحمن بن حصين : " أنه (أي رسول الله) أتى كلباً في منازلهم إلى بطن منهم يقال لهم بنو عبد الله فدعاهم إلى الله ، وعرض عليهم نفسه ، حتى إنه ليقول : يا بني عبد الله إن الله قد أحسن اسم أبيكم فلم يقبلوا منه ما عرض عليهم " .

وفي البداية عن عبد الله بن كعب بن مالك : " أن رسول الله أتى بني حنفة في منازلهم فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه فلم يك أحد من العرب أقبح رداً عليه منهم " .

وعن ابن إسحاق عن الزهرى : " أنه (أي رسول الله) أتى بني عامر بن صعصعة فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه فقال له رجل منهم يقال له بحيرة بن فراس : والله لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب ، ثم قال له : أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك أليكون لنا الأمر من بعدك ؟ قال الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء . فقال له : أفهدهن نحورنا للعرب دونك فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا لا حاجة لنا بأمرك ؛ فأبوا عليه . فلما صدر الناس رجعت بنو عامر إلى شيخ لهم قد كان أدركه السن حتى لا يقدر أن يوافي معهم الموسم . فكانوا إذا رجعوا إليه حدثوه بما يكون في ذلك الموسم . فلما قدموا عليه ذلك العام سألهم عما كان في موسمهم فقالوا : جاءنا فتى من قريش ثم أحد بني عبد المطلب يزعم أنهنبي يدعونا إلى أن نمنعه ونقوم معه ونخرج به إلى بلادنا . فوضع الشيخ يديه على رأسه ثم قال : يا بني عامر ! هل لها من تلاف ؟ هل لذنباتها من مطلب ؟ والذي نفس فلان بيده ما تقولها إسماعيلي قط ، وإنها الحق فأين رأيك كان عنكم ؟ " .

وأخرج الحافظ أبو نعيم عن العباس - رضي الله عنه - قال : " قال لي رسول الله ﷺ : لا أرى لي عندك ولا عند أخيك منعة فهل أنت مخرجي إلى السوق غداً حتى نقر في منازل قبائل الناس وكانت مجمع العرب . قال فقلت : هذه كندة ولفها وهي أفضل من يحج البيت من اليمن ، وهذه منازل بكر بن وائل ، وهذه منازلبني عامر بن صعصعة ، فاختر لنفسك ؟ قال فبدأ بكندة فأتاهم فقال : منم القوم ؟ قالوا : من أهل اليمن . قال : من أي اليمن ؟ قالوا : من كندة . قال : من أي كندة ؟ قالوا : منبني عمرو بن معاوية ، قال : فهل لكم إلى خير ؟ قالوا : ما هو ؟ قال : تشهدون أن لا إله إلا الله ، وتقيمون الصلاة وتؤمنون بما جاء من عند الله . قال عبد الله بن الأجلح : وحدثني أبي عن أشياخ قومه أن كندة قالت له : إن ظرفت تجعل لنا الملك من بعدك ؟ فقال رسول الله ﷺ : إن الملك الله يجعله حيث يشاء . فقالوا : لا حاجة لنا فيما جئتني به " .

وقال الكلبي : " قالوا أجيتننا لتصدنا عن آهتنا وننبذ العرب . الحق بقومك فلا حاجة لنا بذلك . فانصرف من عنده فأتى بكر بن وائل فقال : منم القوم ؟ قالوا : من بكر بن وائل . فقال : من أي بكر بن وائل ؟ قالوا : منبني قيس بن ثعلبة . قال : كيف العدد ؟ قالوا : كثير مثل الثرى . قال : فكيف المنعة ؟ قالوا : لا منعة جاورنا فارس فحن لا نمتنع منهم ولا نجير عليهم . قال : فتجعلون الله عليكم إن هو أباكم حتى تنزلوا منازلهم ، و تستنكحوا نساءهم ، و تستعبدوا أبناءهم أن تسبحوا الله ثلاثة وثلاثين ، وتحمدوه ثلاثة وثلاثين ، وتكبروه أربعاً وثلاثين . قالوا : من أنت ؟ قال : أنا رسول الله . ثم انطلق فلما ولى عنهم قال الكلبي : وكان عمه أبو لهب يتبعه فيقول للناس : لا تقبلوا قوله ، ثم مر أبو لهب فقالوا : هل تعرف هذا الرجل ؟ قال : نعم ، هذا في الذروة منا فعن أي شأنه تسألون ؟ فأخبروه بما دعاهم إليه وقالوا : زعم أنه رسول الله . قال : ألا لا ترفعوا برأسه قولاً فإنه مجنون يهذي من أم رأسه . قالوا : قد رأينا ذلك حين ذكر من أمر فارس ما ذكره " .

ج) رحلته p من أجل التبليغ :

أخرج الطبراني عن عبد الله بن جعفر قال : " لما توفي أبو طالب خرج النبي إلى الطائف مائياً على قدميه يدعوه إلى الإسلام فلم يجيبوه فأتى ظل شجرة فصلى ركعتين ثم قال : اللهم إني أشكوك إليك ضعف قوتي وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ! أنت أرحم الراحمين ، إلى من تكلني ؟ إلى عدو يتوجهني أم إلى قريب ملكته أمري ؟ إن لم تكن غضبان

علي فلا أبالي غير أن عافيتك أوسع لي . أعود بوجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بي غضبك أو يحل بي سخطك لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بالله " .

د) تكليفه p من أسلم تبليغ من لم يسلم :

أخرج ابن أبي عاصم عن الأحنف بن قيس قال : " بينما أنا أطوف بالبيت في زمان عثمان إذ أخذ رجل منبني ليث بيدي فقال : ألا أبشرك ؟ قلت : بلى ، قال : أتذكرة إذ بعثني رسول الله إلى قومك فجعلت أعرض عليهم الإسلام وأدعوههم إليه فقلت أنت : إنك لتدعونا إلى خير وتأمر به ، وإنه ليدعونا إلى الخير . فبلغ ذلك النبي فقال : اللهم اغفر للأحنف " .

وأخرج الدارقطني عن ابن عمر قال : " دعا النبي p عبد الرحمن بن عوف فقال : تجهز فإني باعثك في سرية - فذكر الحديث - وفيه : فخرج عبد الرحمن حتى لحق بأصحابه فسار حتى قدم دومة الجندي فلما دخلها دعاهم إلى الإسلام ثلاثة أيام فلما كان اليوم الثالث أسلم الأصبغ بن عمرو الكلبي وكان نصراً ، وكان رأسهم فكتب عبد الرحمن - مع رجل من جهينة يقال له رافع بن مكيث - إلى النبي يخبره فكتب إليه النبي أن تزوج ابنة الأصبغ فتزوجها وهي تماضر التي ولدت له بعد ذلك أبا سلمة بن عبد الرحمن " .

وأخرج ابن إسحاق عن محمد بن عبد الرحمن التميمي قال : " بعث رسول الله عمرو بن العاص يستتر العرب إلى الإسلام ، وذلك أن أم العاص بن وائل كانت من بنى بلى ، فبعثه رسول الله إليهم يتأنفهم بذلك " .

وأخرج البيهقي عن البراء " أن رسول الله p بعث خالد بن الوليد إلى أهل اليمين يدعوهם إلى الإسلام . قال البراء : فكنت فيمن خرج مع خالد بن الوليد ، فأقمنا ستة أشهر يدعوهם إلى الإسلام فلم يجيئوه . ثم إن رسول الله p بعث علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - وأمره أن يقفل خالداً إلا رجلاً كان ممن مع خالد ، فأحب أن يعقب مع علي فليعقب معه . قال البراء : فكنت فيمن عقب مع علي . فلما دنونا من القوم خرجن علينا ثم تقدم . فصلى بنا علي صفاً صفاً واحداً ثم تقدم بين أيدينا وقرأ عليهم كتاب رسول الله p فأسلمت

همدان جميعاً ، فكتب علي إلى رسول الله ﷺ بإسلامهم . فلماقرأ رسول الله ﷺ الكتاب خر ساجداً ثم رفع رأسه فقال : السلام على همان !!! السلام على همان " .

أخرج أبو نعيم في الحلية عن عروة بن الزبير - رضي الله عنه - " أن الأنصار لما سمعوا من رسول الله ﷺ قوله وأيقنوا واطمأنوا أنفسهم إلى دعوته فصدقوه وآمنوا به - كانوا من أسباب الخير وواعدوه الموسم من العام المقبل فرجعوا إلى قومهم - بعثوا إلى رسول الله ﷺ أن ابعث إلينا رجلاً من قبلك فيدعوا الناس إلى كتاب الله فإنه أدنى أن يتبع بعث إليهم رسول الله ﷺ مصعب بن عمير - رضي الله عنه - أخابني عبد الدار ، فنزلبني غنم على أسعد بن زراره يحدثهم ويقص عليهم القرآن فلم يزل مصعب عند سعد بن معاذ يدعو ويهدي الله على يديه حتى قل دار من دور الأنصار إلا أسلم فيها ناس لا محالة ، وأسلم أشرافهم ، وأسلم عمرو بن الجموح وكسرت أصنامهم . ورجع مصعب بن عمير إلى رسول الله ﷺ وكان يدعى المقرئ " .

وروى الطبراني في الكبير عن بكير بن معروف عن علقة ... عن رسول الله ﷺ قال : " ما بال أقوام لا يفهون جيرانهم ولا يعلمونهم ولا يعظونهم ولا يأمرنهم ولا ينهونهم ، وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم ولا يتلقون ولا يتعظون ، والله ليعلمن قوم جيرانهم ويفهونهم ويعظونهم ويأمرنهم وينهونهم ، وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتلقون ويتعظون ، أو لاعجلنهم العقوبة " .

ثم نزل فقال قوم : من ترونـه عـنـ بـهـؤـلـاءـ ؟ قال : الأشـعـرـيـنـ ، هـمـ قـوـمـ فـقـهـاءـ وـلـهـمـ جـيـرـانـ جـفـاءـ مـنـ أـهـلـ الـمـيـاهـ وـالـأـعـرـابـ . فـبـلـغـ ذـكـرـتـاـ بـشـرـ فـمـاـ بـالـنـاـ فـقـالـ : " لـيـعـلـمـنـ قـوـمـ جـيـرـانـهـمـ وـلـيـعـظـنـهـمـ وـلـيـأـمـرـنـهـمـ وـلـيـنـهـونـهـمـ وـلـيـتـعـلـمـنـ قـوـمـ مـنـ جـيـرـانـهـمـ وـلـيـتـلقـونـ وـلـيـعـظـونـ أوـ لـأـعـاجـلـنـهـمـ العـقـوبـةـ فـيـ الـدـنـيـاـ " فـقـالـواـ : يا رسول الله ! أـعـطـنـ غـيـرـنـاـ ؟ فـأـعـادـ قـوـلـهـ عـلـيـهـمـ فـأـعـادـوـاـ قـوـلـهـ : أـعـطـنـ غـيـرـنـاـ ؟ فـقـالـ ذـكـرـ أـيـضاـ ، فـقـالـواـ : أـمـهـلـنـاـ سـنـةـ فـأـمـهـلـهـمـ سـنـةـ يـفـهـوـهـمـ وـيـعـلـمـوـهـمـ وـيـعـظـوـهـمـ ثـمـ قـرـأـ رسولـهـ ﷺ هـذـهـ الـآـيـةـ : {لـعـنـ الـذـيـنـ كـفـرـوـاـ مـنـ بـنـيـ إـسـرـائـيلـ عـلـىـ لـسـانـ دـاـوـدـ وـعـيـسـىـ أـبـنـ مـرـيـمـ ذـلـكـ بـمـاـ عـصـوـاـ وـكـانـوـاـ يـعـدـوـنـ * كـانـوـاـ لـاـ يـتـنـاهـوـنـ عـنـ مـنـكـرـ فـعـوـهـ} ¹ .

و) إرساله ﷺ للرسائل لتبلغ الملوك والأمراء :

أخرج البيهقي عن ابن إسحاق قال : بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي في شأن جعفر بن أبي طالب وأصحابه وكتب معه كتاباً :

"بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى النجاشي الأصم ملك الحبشة ، السلام عليك ، فإنني أحمد إليك الله الملك القدس المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطاهرة الطيبة الحصينة فحملت بعيسى ، فخلقه من روحه ونفخته كما خلق آدم بيده ونفخه ، وإنني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، والمولا على طاعته ، وأن تتبعني فتومن بي وبالذى جاعنى فإني رسول الله ، وقد بعثت إليك ابن عمى جعفراً ومعه نفر من المسلمين فإذا جاءوك فأقرهم ودع التجبر فإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل ، وبلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتي ، والسلام على من اتبع الهدى " .

وأخرج البخاري عن ابن عباس حديث أبي سفيان مع هرقل وفيه نص رسالة رسول الله إليه وهذا نصها : "بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم ! سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ، فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم وسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإن عليك إثم الإريسين ، {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلْمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَا تَعْبُدُ إِلَّا اللَّهُ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَخَذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مَّنْ دُونَ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلُّوْا فَقُولُوا أَشْهَدُوْا بِأَنَّا مُسْلِمُوْنَ} ¹ .

وأخرج ابن جرير من طريق ابن إسحاق نص رسالة رسول الله ﷺ إلى كسرى وهي : "بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس ! سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، أدعوك بدعاء الله فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة ؛ لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ، فإن تسلم وسلم وإن أبيت فإن إثم الم Gorsus عليك " .

وأخرج البيهقي نص رسالة الرسول ﷺ إلى أهل نجران وهي :

¹ آل عمران :

" بسم الله إبراهيم وإسحاق ويعقوب من محمد النبي رسول الله إلى أسف نجران وأهل نجران ! سلم أنتم فإني أحمد إليكم الله إبراهيم وإسحاق ويعقوب أما بعد ! فإني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد وأدعوك إلى ولادة الله من ولادة العباد ، فإن أبيتم فالجزية فإن أبيتم فقد آذنكم بحرب السلام " .

وقد أرسل الرسول عليه الصلاة والسلام رسائل مشابهة إلى المقوف وإلى ملك اليمامة وإلى المنذر بن ساوة عظيم البحرين وإلى الحارث بن أبي شمر الغساني وإلى الحارث بن عبد كلال الحميري وإلى ملكي عمان ابني الجلدي وغيرهم .

* * *

هذه نماذج من عملية التبليغ عند رسول الله ﷺ تعطيك صورة مبسطة عن قيامه بتبليغ أمر الله ودينه وشرعيته ، واستقياء هذا الموضوع حقه يحتاج إلى مجلد ضخم على الأقل . إذ إن رسول الله خلال ثلاثة وعشرين عاماً بعد النبوة ، لم يهدأ ولم يسترح ولم يفوّت فرصة يستطيع بها أن يبلغ ، بالاتصال الشخصي والعرض الجماعي ، وفي السفر والحضر وبنفسه وأتباعه وبالمسافحة والخطاب ، ثم عمم الأمر على أمته جمياً بأن أوجب عليهم البلاغ أنه عليه الصلاة والسلام لم يمت إلا والجزيرة العربية كلها مستحبة لأمر الله ، وأكبر الدول المجاورة للجزيرة العربية قد بلغتها الدعوة ولم يمض عصر الخلفاء الراشدين إلا وكان أكثر العالم المعروف وقدذاك قد بلغته الدعوة ، فمن مستجيب ومن معرض قامت عليه الحجة فأصر على الكفر عناداً ، وما من إنسان يستطيع أن يتصور مثل هذا الحماس للتبلیغ المنقطع النظير يمكن أن يكون إلا وليد اقتناع كامل بصدق الدعوة والداعية ، وما كان الداعية ليعطى هذا الحماس لأنتابعه ، لو لم يكن هو في أعلى حالات الصدق والقيام بالواجب والشعور بالمسؤولية أمام الله .

إن تاريخ العام كله لا يقص علينا ، أن أحداً استوعبت دعوته من قبل الآخرين في حياته كما حدث لرسول الله ﷺ الذي لم يمت إلا وعشرات الآلاف من أتباعه يحفظون من الكتاب المنزل عليه الكثير ، ومن أحاديثه وتعاليمه الكثير الكبير ، ثم حفظت نصوص تعاليمه حرفيًا لكل الأجيال الآتية من بعد . لأنها كلها مكلفة باتباعه ومحاسبة أمم الله إن لم تتبّعه بعد البلاغ . أما من لم تبلغه دعوته فقد اقتضت رحمة الله ألا يعتبر مسؤولاً ، وكلن عملياً – وذلك كله من آثار قيام الرسول ﷺ بواجب التبليغ - لم يبق أحد منذ زمن بعيد إلا في النادر لم تبلغه

دعوة رسول الله ، وأنت ترى الآن الدعاة إلى الله على صراط رسول الله منتشرين في العالم كله ، لقد قام رسول الله بعملية التبليغ حق القيام ، وكما رأيت فإن كل موقف من مواقفه فيها ما يجعلك على برد اليقين ، بأن هذه المواقف ما كانت لتكون ، لو لا أن رسول الله محمداً صادق في دعوى الرسالة عن الله .

فإلى الصفة الأساسية الرابعة للتبلیغ وجوهر الرسالة عن الله وهي العقل العظيم
والفطانة لترى أن لرسول الله صلی الله عليه وسلم الحظ الأعلى منها :

* * *

4 - عقله العظيم وفطانته عليه الصلاة والسلام

1- إن الصفة الرابعة للرسل عليهم الصلاة والسلام هي الفطانة وهي الصفة الملزمة للتبلیغ . إذ الرسول معرّض وهو يقوم بعملية التبلیغ لمناقشات لخصوم أو لتساؤلات الآباء أو لاعتراضات المشكين وانتقاداتهم ، فلا بد أن يكون لديه من الذكاء وقوة البيان وحدة العارضة ما يستطيع به أن يدحض شبه الآخرين فلا تقوم لهم حجة ، إذ لو قامت لهم حجة لما كان له عليهم سلطان وذلك مقتضى قوله تعالى : {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لَنَّا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ} ¹ .

وهذا لا يتم إلا بأن تكون دعوة الرسول حقاً كلها ، إذ غير الحق لا تكون حجته واضحة ، والباطل دائماً حجته داحضه ، ولا يتم كذلك إلا بعقل يستطيع إحكام الحجة في العرض . فكم من حق لم يجد عقلاً فضاع ، ولا يتم هذا كله إلا بفصاحة وبيان يمكن بهما عرض الحجة بالشكل الأكمل ، ولا يتأنى هذا إلا لأعلم الناس وأذكي الناس وأفصح الناس .

فالناس يتفاوتون علمًا ويختلفون اختصاصاً . فمنهم رجل الدين ، ومنهم السياسي ، ومنهم الاقتصادي ، ومنهم الطبيب ، ومنهم رجل الحكمة ومنهم ومنهم . وكل واحد من هؤلاء ينبغي أن تقام عليه الحجة فما لم يكن الرسول أعلم الخلق لا يستطيع إقامة الحجة .

والناس يتفاوتون ذكاء وقوة حجة وعارضه ، والرسول مهمته أن يقيم الحجة على كل البشر بما لم يكن أذكي البشر فإنه لا يستطيع أن يفعل .

وإنسان يحتاج إلى هذا كله لا بد له من لسان مبين ، وفصاحة عظيمة ، حتى قال موسى يوم كلفه الله بالوحى : {رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَأَحْلِلْ عَقْدَةَ مَنْ لُسَانِي * يَفْقِهُوا قَوْلِي} ² .

وباجماع هذه الجوانب كلها تتحقق صفة الفطانة عند الرسول وتدل بذلك على صاحبها أنه رسول الله حقاً مع استكمال بقية الشروط .

¹ النساء : 165 .

² طه : 25 - 28

فالحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

والحجـةـ الكاملـةـ الـبـيـنـةـ الـخـاصـةـ فـيـهـ .

والعرض السليم الكامل الأداء .

وإلزامـ الخـصـومـ العـجـزـ عـنـ أـنـ بـكـونـ لـهـمـ مـوـقـفـ حـقـ إـلـاـ بـالـمـتـابـعـةـ .

كلـ هـذـاـ لـاـ يـتـائـىـ إـلـاـ لـدـعـوـةـ اللهـ الـمـحـيـطـ عـلـمـ بـكـلـ شـيـءـ ،ـ وـلـرـسـولـهـ الـذـيـ يـخـتـارـهـ أـهـلـاـ لـحـمـ دـعـوـتـهـ {ـالـلـهـ يـصـنـفـيـ مـنـ الـمـلـائـكـةـ رـسـلـاـ وـمـنـ النـاسـ}ـ¹ـ {ـالـلـهـ أـعـلـمـ حـيـثـ يـجـعـلـ رـسـالـتـهـ}ـ²ـ .

* * *

2- وباستعراضنا لهذه الجوانب عند رسول الله محمد ﷺ نجد أن له من كل شيء ذروته ، فمن حيث إن دعوته كلها حق فذلك لا مرية فيه وتحقيق ذلك في كل بحوث هذا الكتاب .

ومن حيث الفصاحة فهو أوضح العرب على الإطلاق وأبينهم لغة ونطقاً وأداء .

ومن حيث إقامة الحجة فإنك لا تجد إنساناً يستطيع إقامة الحجة المقنعة على كل إنسان حسب مستوى العقلي بكل بساطة كما كان يفعل رسول الله ﷺ ، وبهذا تأتى له أن يقيم الحجة على الناس بدينه كله ، عقيدة وعبادات وسلوكاً ومنهاج حياة ، هذا مع توفيق الله له ، وحكمته - جل جلاله - في أن جعل القرآن الكريم قد فصل كل شيء ، و حاج كل إنسان فحجه ، فكان القرآن مع حديث رسول الله ﷺ الصحيح كما فحصه علماء الحديث - وهو ما محفوظان - حجة الله على البشر في كل جيل إلى قيام الساعة .

¹ الحج : 75 .

² الأنعام : 124 .

* * *

3- وللتوسيح ظهور هذه الجوانب عند رسول الله ﷺ . سنتختار نماذج من مناقشاته يقيم بها الحجة على آخرين ومن خطبه أو كتبه يدعو بها إلى شيء من شريعته ومن كلامه المعلم بالحكمة في الأمر أو النهي أو الخير مما يدلك على مدى ملامة الإقفال التي وهبها الله لرسوله حتى جعله أكمل الخلق في كلخلق :

أخرج عبد الله بن أحمد وأبو يعلى عن سعيد بن أبي راشد قال : رأيت التتوخي رسول هرقل إلى رسول الله ﷺ بحمص وكان جاراً لي شيخاً كبيراً قد بلغ الفناء أو قرب ، فقلت ألا تخبرني عن رسالة هرقل إلى رسول الله ﷺ ورسالة رسول الله ﷺ إلى هرقل ؟ قال : بلى ... وذكر الحديث ومن جملته :

" فانطلقت بكتابه (أي كتاب هرقل) حتى جئت تبوك فإذا هو جالس بين أصحابه على الماء . فقلت : أين صاحبكم ؟ قيل : هاهو ذا . فأقبلت أمشي حتى جلست بين يديه فناولته كتابي فوضعه في حجره ثم قال : من أنت ؟ قلت : أنا أحد توخ . فقال : هل لك في الحنفية ملة إبراهيم ؟ قلت : إن رسول قوم وعلى دين قوم لا أرجع عنه حتى أرجع إليهم . قال : {إِنَّكَ لَا تَهُدِّي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهُدِّي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهَدِّدِينَ} ¹ .

إلى أن قال : ثم إنه ناول الصحيفة رجلاً عن يساره فقلت : من صاحب كتابكم الذي يقرأ لكم ؟ قالوا : معاوية ، فإذا في كتاب صاحبي يدعوني إلى جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين ، فain النار ؟ فقال رسول الله ﷺ : سبحان الله فain الليل إذا ذهب النهار " .

قال الميثمي : رجال أبي يعلى ثقات ورجال عبد الله بن أحمد كذلك .

أخرج ابن خزيمة عن عمران بن خالد بن طليق بن محمد بن عمران بن حصين قال : " حدثي أبي عن أبيه عن جده أن قريشاً جاءت إلى الحسين - وكانت تعظمه - فقالوا له : كلام لنا هذا الرجل فإنه يذكر آلهتنا ويسبهم ، فجاءوا معه حتى جلسوا قريباً من باب النبي ﷺ

قالوا : أوسعوا للشيخ . وعمران وأصحابه متوافرون . فقال حصين : ما هذا الذي بلغنا عنك . إنك تشتمن آهتنا وتذكرهم وقد كان أبوك حصينة وخيراً ؟ فقال : يا حصين إن أبي وأباك في النار ، يا حصين كم تبعد من إله ؟ قال سبعاً في الأرض وواحداً في السماء . قال : فإذا أصابك الضر من تدعوه ؟ قال : الذي في السماء . قال : فإذا هلك المال من تدعوه ؟ قال : الذي في السماء . قال : فيستجيب لك وحده وتشركهم معه ، أرضيته في الشكر أم تخاف أن يغلب عليك ؟ قال : لا واحدة من هاتين ، قال : وعلمت أني لم أكلم مثله .

قال : يا حصين أسلم تسلم .

قال : إني لـ^ي قوماً وعشيرة فماذا أقول ؟

قال : قل اللهم أستهديك لأرشد أمري ، وزدني علماً ينفعني .

قالها حصين فلم يقم حتى أسلم . فقام إليه عمران فقبل رأسه ويديه ورجليه . فلما رأى ذلك النبي ﷺ بكى وقال :

بكى من صنيع عمران ، دخل حصين وهو كافر فلم يقم إليه عمران ولم يلتفت ناحيته فلما أسلم قضى حقه فدخلني من ذلك الرقة . فلما أراد حصين أن يخرج قال لأصحابه : قوموا فشيعوه إلى منزله ، فلما خرج من سدة الباب رأته قرش قالوا : صبا ، ونقرقوا عنه " كذا في الإصابة ج 1 ص 337 .

أخرج أحمد عن أبي تميمة الهجيمي عن رجل من قومه " أنه أتى رسول الله ﷺ أو قال : شهدت رسول الله ﷺ وأتاه رجل فقال : أنت رسول الله أو قال أنت محمد ؟ فقال : نعم . قال : ما تدعوه ؟ قال : أدعوا الله عز وجل وحده ؛ مَنْ إِذَا كَانَ لَكَ ضرْ فَدْعُوْتَهُ كَشْفَهُ عَنْكَ ، وَمَنْ إِذَا أَصَابَكَ عَامْ فَدْعُوْتَهُ أَنْبَتَ لَكَ ، وَمَنْ إِذَا كَنْتَ فِي أَرْضِ قَفْرٍ فَأَضْلَلْتَ فَدْعُوْتَهُ رَدَ عَلَيْكَ .

فأسلم الرجل ثم قال : أوصني يا رسول الله ، فقال : لا تسب شيئاً . أو قال أحداً - شك الحكم - قال : فما سببت بغيراً ولا شاة منذ أوصاني رسول الله ﷺ .

أخرج أحمد عن عدي بن حاتم قال : " لما بلغني خروج رسول الله ﷺ كرهت خروجه كراهية شديدة فخرجت حتى وقعت ناحية الروم - وفي رواية : حتى قدمت على قيصر - قال : فكرهت مكاني ذلك أشد من كراهتي لخروجه . قال : قلت : والله لو أتيت هذا الرجل فإن كان كاذباً لم يضرني وإن كان صادقاً علمت ، قال : فقدمت فأتيته . فلما قدمت قال الناس : عدي بن حاتم ، فدخلت على رسول الله ﷺ فقال لي : يا عدي بن حاتم أسلم وسلم - ثلاثة . قال : قلت : إني على دين . قال : أنا أعلم بدينك منك ، فقلت : أنت تعلم بيديني مني ؟ قال : نعم ، ألسن من الركوسية وأنت تأكل مرباع قومك ؟ قلت : بل ، قال : هذا لا يحل لك في دينك ، قال : نعم ، فلم يعد أن قالها فتواضعت لها ، قال : أما إني أعلم الذي يمنعك من الإسلام تقول : إنما اتبعه ضعفة الناس ومن لا قوة لهم وقد رمتهم العرب . أتعرف الحيرة ؟ قلت : لم أرها وقد سمعت بها . قال : فوالذي نفسي بيده ليمن الله هذا الأمر حتى تخرج الطعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت في غير جوار أحد . وليفتحن كنوز كسرى بن هرمز ، قال : قلت كنوز ابن هرمز ؟ قال : نعم ، كسرى بن هرمز ، ولبيذلن المال حتى لا يقبله أحد .

قال عدي بن حاتم : فهذه الطعينة تأتي من لحيرة تطوف بالبيت في غير جوار ، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى ، والذي نفسي بيده لتكون الثالثة لأن رسول الله ﷺ قد قالها . كما في البداية ج 5 ص 66 وأخرجه البغوي أيضاً في مجمعه بمعناه ، كما في الإصابة .

وأخرج أحمد عن عدي بن حاتم قال : " جاءت خيل رسول الله ﷺ وأنا بعقرب فأخذوا عمتي وناساً فلما أتوا بهم رسول الله ﷺ قال : نصفوا له . قالت : يا رسول الله بان الوافد وانقطع الولد وأنا عجوز كبيرة ما بي من خدمة ؛ فمنْ عليَّ ، منَ الله عليك . فقال : ومن وافدك ؟ قالت : عدي بن حاتم . قال : الذي فر من الله ورسوله ؟ قالت : فمنْ عليَّ ، فلما رجع ورجل إلى جنبه - نرى أنه عليُّ - قال : سليه حملاناً ، قال : فسألته فأمر لها . قال عدي : فأنتي فقلت : لقد فعلت فعلة ما كان أبوك يفعلها وقالت : ليته راغباً أو راهباً ، فقد أتاه فلان فأصاب منه وأتاه فلان فأصاب منه ، قال : فأتيته فإذا عنده امرأة وصبيان - أو صبي - فذكر قربهم منه ، فعرفت أنه ليس ملك كسرى وقيصر . فقال له : يا عدي بن حاتم ! ما أفرك ؟ أفرك أن يقال : لا إله إلا الله ، من إله إلا الله ؟ ما أفرك ؟ أفرك أن يقال : الله أكبر . فهل شيء أكبر من الله عز وجل ؟ فأسلمت فرأيت وجهه قد استبشر " .

أخرج أبو يعلى ، عن حرب بن سريح قال : حدثي رجل من بلاد الودعية ، قال : حدثي جدي قال : " انطلقت إلى المدينة فنزلت عند الوادي ، فإذا رجلان بينهما عزة واحدة ، وإذا

المشتري يقول للبائع : أحسن مباعتي ، قال : فقلت في نفسي هذا الهاشمي الذي قل أضل الناس ، أهو هو ؟ قال : فنظرت فإذا رجل حسن الجسم ، عظيم الجبهة ، دقيق الأنف ، دقيق الحاجبين . وإذا من ثغره نحره إلى سرته مثل الخيط الأسود شعر أسود ، وإذا هو بين طمرين . قال : فدنا منا فقال : السلام عليكم ، فرددنا عليه ، فلم ألبث أن دعا المشتري فقال : يا رسول الله قل له يحسن مباعتي ، فمد يده وقال أموالكم تملكون ، إني أرجو أن ألقى الله عز وجل يوم القيمة لا يطلبني أحد منكم بشيء ظلمته في مال ولا في دم وعرض إلا بحقه ، رحم الله امرأ سهل البيع ، سهل الشراء ، سهل الأخذ ، سهل العطاء ، سهل القضاء ، سهل التقاضي ثم مضى .

فقلت : والله لأقصن هذا فإنه حسن القول ، فتبعته فقلت : يا محمد فالنفت إلى الجميع
قال : ما تشاء ؟

قلت : أنت الذي أضللت الناس وأهلكتهم وصدّتهم عما كان يعبد آباؤهم .

قال : ذاك الله .

قال : ما تدعوه إليه ؟

قال : أدعو عباد الله إلى الله .

قال : فقلت : ما تقول ؟

قال :أشهد أن لا إله إلا الله وأني محمد رسول الله وتومن بما أنزله علي وتكفر باللات والعزى وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة .

قال : قلت : وما الزكاة ؟

قال : يرد علينا على فقيرنا .

قال : قلت : نعم الشيء تدعوه إليه .

قال : فلقد كان وما في الأرض أحد يتنفس أبغض إلي منه ، فما برح حتى كان أحب إلي من ولدي ووالدين ومن الناس أجمعين .

قال : فقلت : قد عرفت ، قال : قد عرفت ؟

قلت : نعم .

قال : تشهد أن لا إله إلا الله وأني محمد رسول الله وتومن بما أنزل علي ، قال : قلت : نعم يا رسول الله ، إني أرد ماء عليه كثير من الناس فأدعوه إلى ما دعوتني إليه فإني أرجو أن يتبعوك . قال : نعم فادعهم ، فأسلم أهل ذلك الماء رجالهم ونساؤهم فمسح رسول الله رأسه .

وذكر البخاري وأبو داود وأتم ما ذكر رزین مساجلة جرت بين المسلمين وأبي سفيان بعد موقعة أحد - وقد أصيّب المسلمين - فنادى أبو سفيان جماعة من المسلمين وهذا نص الحادثة كما رووها : " فأشرف أبو سفيان (أي على المكان الذي كانوا فيه) فقال : أفي القوم محمد ؟ فقال : (أي الرسول وكان معهم) لا تجيئوه . فقال : أفي القوم ابن أبي قحافة ؟ فقال : لا تجيئوه . فقال : أفي القوم ابن الخطاب ؟ فلم يجده أحد ، فقال : إن هؤلاء قتلوا ، ولو كانوا أحياء لأجابوا : فلم يملك عمر - رضي الله عنه - نفسه . فقال : كذبت يا عدو الله ، أبقي الله لك ما يحزنك . قال أبو سفيان : أعلى هيل . فقال م أجبيوه . فقالوا : ما نقول ؟ قال : قولوا الله أعلى وأجل . قال أبو سفيان : لنا العزى ولا عزى لكم . فقال م : أجبيوه . قالوا ما نقول ؟ قال قولوا الله مولانا ولا مولى لكم . قال أبو سفيان : يوم بيوم وال Herb سجال ، وتجدون مثله لم أمر بها ولم تسئني . قال م : أجبيوه ، قالوا : ما نقول ؟ قال : قولوا لا سواء ، قتلنا في الجنة وقتلامك في النار " أخرجه البخاري وأبو داود إلى قوله " لم تسئني " وأخرج باقيه رزین .

وعن ابن إسحاق من حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال : " لما أصاب رسول الله م الغنائم يوم حنين - وقسم للمتألفين من قريش (أي حديث العهد بالإسلام ليتمكن الإسلام في قلوبهم) وسائر العرب ما قسم ، ولم يكن في الأنصار منهم شيء قليل ولا كثير - وجد (أي تغيرت قلوبهم) هذا الحي من الأنصار في أنفسهم حتى قال قائلهم : لقى والله

رسول الله ﷺ قومه . فمشى سعد بن عبادة - رضي الله عنه - إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ! إن هذا الحي من الأنصار ، قد وجدوا عليك في أنفسهم . فقال : فيم ؟ قال : فيما كان من قسمك هذه الغنائم في قومك وفيسائر العرب ، ولم يكن فيهم ذلك شيء . فقال رسول الله ﷺ : فأين أنت من ذلك يا سعد ؟ قال : ما أنا إلا امرؤ من قومي .

قال : فقال رسول الله ﷺ فاجتمع لي قومك في هذه الحظيرة . فإذا اجتمعوا فأعلموني .
فخرج سعد فصرخ فيهم ، فجمعهم في تلك الحظيرة . فجاء رجل من المهاجرين فأذن له
دخلوا ، وجاء آخرون فردهم - حتى إذا لم يبق من الأنصار إلا اجتمع له . أتاه فقال : يا
رسول الله قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار حيث أمرتني أن أجتمعهم فخرج رسول الله ﷺ
فقام فيهم خطيباً ، فحمد الله وأتني عليه بما هو أهله ، ثم قال : يا معاشر الأنصار ! ألم آنكم
ضلالاً فهداكم الله ، وعاللة (أي فقراء) فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ قالوا :
بلى . ثم قال رسول الله ﷺ : لا تجيرون يا معاشر الأنصار ؟ قالوا : وما نقول يا رسول الله ؟
وبماذا نجييك ؟ المن الله ولرسوله . قال : والله لو شئتم لقلتم فصدقتم وصدقتم ؛ جئتنا طريداً
فأويناك ، وعائلاً فأسيناك ، وخائفاً فآمناك ، ومخنو لا فنصرناك . فقالوا : المن الله ولرسوله .
قال رسول الله ﷺ : أوجدتكم في نفوسكم يا معاشر الأنصار في لعاعة (أي في شيء تافه إذ
اللعاعة نبت ناعم لا يعمر طويلاً) من الدنيا ؟ تألفت بها قوماً أسلموا ووكلتم إلى ما قسم الله
لكم من الإسلام ، أفلا ترضون - يا معاشر الأنصار - أن يذهب الناس إلى رحالهم بالشاة
والبعير ، وتذهبون برسول الله إلى رحالكم ، فوالذي نفسي بيده لو أن الناس سلكوا شعباً ،
وسلكت الأنصار شعباً ، لسلكت شعب الأنصار ، ولو لا الهجرة لكونت امرءاً من الأنصار ،
اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار . قال : فبكى القوم حتى أخذلوا
لحفهم (أي بلوها بدموعهم) وقالوا : رضينا بالله ربنا ورسوله قسماً ثم انصرف . وتفرقوا "
وهكذا رواه الإمام أحمد من حديث ابن إسحاق ولم يروه أحد من أصحاب الكتب من هذا
الوجه وهو صحيح .

وأخرج مالك عن عطاء بن يسار : " أَنْ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَسْتَأْذِنُ عَلَى
أُمِّي ؟ فَقَالَ : نَعَمْ . فَقَالَ الرَّجُلُ : إِنِّي مَعْهَا فِي الْبَيْتِ . فَقَالَ : اسْتَأْذِنْ عَلَيْهَا . فَقَالَ : إِنِّي
خَادِمُهَا ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : اسْتَأْذِنْ عَلَيْهَا ، أَتُحِبُّ أَنْ تَرَاهَا عَرِيَانَةً ؟ قَالَ : لَا . قَالَ : فَاسْتَأْذِنْ
عَلَيْهَا " .

وأخرج الإمام أحمد والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي أمامة - رضي الله عنه - : "أن فتى شاباً أتى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ائذن لي بالزنا . فأقبل القوم عليه فزجروه وقالوا : مه . فقال : أدنْ فدنا منه قريباً . قال : اجلس فجلس قال ﷺ : أتحبه لأمك ؟ قال : لا والله جعلني الله فداءك . قال : ولا الناس يحبونه لأمهاتهم ، قال ﷺ : أفتحبه لابنك ؟ قال : لا والله ، يا رسول الله جعلني الله فداءك . قال : ولا الناس يحبونه لبناتهم ، قال ﷺ : أفتحبه لأختك ؟ قال : لا والله جعلني الله فداءك . قال : ولا الناس يحبونه لأخواتهم ، قال ﷺ : أفتحبه لعمتك ؟ قال : لا والله ، جعلني الله فداءك . قال : ولا الناس يحبونه لعماتهم ، قال ﷺ : أفتحبه لخالتك ؟ قال : لا والله ، جعلني الله فداءك . قال : ولا الناس يحبونه لخالاتهم ، قال ﷺ : فوضع يده عليه ثم قال : اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه وأحسن فرجه قال : فلم يكن - بعد - ذلك الفتى يلتفت إلى شيء " .

ومن نقاشه مع وفد نصارى نجران كما ترويه كتب السيرة في أمر عيسى هذا المقطع :

" قالوا : من أبوه (أي عيسى يريدون أن يقيمون الحجة بهذا السؤال على أنه ابن الله تعالى الله - عن ذلك علوًّا كبيرًا) .

وقد رد القرآن عليهم بقوله : {إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلَ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} ¹ .

ورد عليهم رسول الله ﷺ بما يلي :

قال : ألستم تعلمون أن الله حي لا يموت وأن عيسى يأتي عليه البقاء ؟

قالوا : بلى .

قال : ألستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شيء يكتوه ويحفظه ويرزقه ؟

¹ آل عمران : 59

قالوا : بلى .

قال : فهل يملك عيسى من ذلك شيئاً ؟

قالوا : لا .

قال : ألستم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ؟

قالوا : بلى .

قال : فهل يعلم عيسى من ذلك شيئاً إلا ما علِمَ ؟

قالوا : لا .

قال : ألستم تعلمون أن ربنا صور عيسى في الرحم كيف يشاء ؟ وأن ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يحدث الحديث ؟

قالوا : بلى .

قال : ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ، ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها ثم غذّي كما يغذى الصبي . ثم كان يأكل الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحديث ؟

قالوا : بلى .

قال : فكيف يكون هذا كما زعمتم ؟

ويوم الحديبية وقد حميت قريش للحرب وهو لا يريد قال كلمة أحاطت بجوانب الموضوع الذي يجعل قريشاً لا تزيد إلا ما أراد قال :

" يا وبح قريش لقد أكلتهم الحرب ، مادا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب ؟ فإنهم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا ، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرین ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ، فما تظن قريش ؟ فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة " . تنفرد السالفة : يعني الموت .

* * * *

هذه نماذج على مناقشاته التي يقيم بها الحجة على الآخرين بالبساطة المقنعة والفصاحة الآسرة .

وسنرى نماذج على حدة ذكائه الهائل في تصريف الأمور وتدييرها في الفصل الثاني من هذا الباب .

أما هنا فنريد أن ننتم ببيان فصاحتته التي لا مثيل لها وهي السمة المرافقية التي لا بد منها في إقامة الحجة ونضرب على ذلك أمثلة من خطبه وكتبه وكلمه الذي كان كله بلغاً .

* * * *

في حجة الوداع خطب رسول الله ﷺ في الناس خطبة طويلة ، وكان الذي يبلغها عنه ربیعہ بن امیة ، وهذا جزء منها ترى فيه نماذج الكلم الذي فعل فعله في القلوب بما لم يفعله كلام آخر :

" قال رسول الله ﷺ لربیعہ : قل يا أیها الناس إن الرسول يقول : هل تدرؤن أي شهر هذا ؟ فقال ربیعہ . فصاح الناس : الشہر الحرام . فقال رسول الله : قل لهم إن الله قد حرم عليکم دماءکم وأموالکم إلى أن تلقوا ربکم کحrama شہرکم هذا .

ثم قال : قل يا أیها الناس إن الرسول يقول : هل تدرؤن أي بلد هذا ؟ فيقول ربیعہ فيصبح الناس : البلد الحرام فيقول عليه الصلاة والسلام : قل لهم إن الله حرم عليکم دماءکم وأموالکم إلى أن تلقوا ربکم کحrama بلدکم هذا .

ثم يأمره : يا أيها الناس إن رسول الله يقول : هل تدرون أي يوم هذا ؟ فيقول لهم فيصيرون : يوم الحج الأكبر . فيقول قل لهم : إن الله قد حرم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تثروا ربكم كحرمة يومكم هذا .

ذكره ابن هشام وهو بمعناه عند البخاري ومسلم .

ومن كلمة له عليه الصلاة والسلام : " أمرني ربِّي بِتَسْعٍ : خُشُبَةُ اللَّهِ فِي السُّرِّ وَالْعَلَانِيَةُ وَكَلْمَةُ الْعَدْلِ فِي الْغُصْبِ وَالرِّضَا ، وَالْقَصْدُ فِي الْفَقْرِ وَالْغَنَى ، وَأَنْ أَصْلُ مِنْ قَطْعَنِي وَأَعْطِي مِنْ حَرْمَنِي ، وَأَغْفُو عَنْ ظَلْمِنِي ، وَأَنْ يَكُونَ صَمْتِي فَكْرًا ، وَنَطْقِي ذَكْرًا وَنَظْرِي عَبْرَة ، وَأَمْرِ بالْمَعْرُوفِ " لرزين ، والجمل ستة الأولى لها طرق وشواهد تحسنها .

* * * *

ومن وصاياه ⑤ :

" يا غلام ! احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك - أو قال : أماماك - تعرَّفَ على الله في الرخاء يعرفك في الشدة . إذا سألت فاسأله الله وإذا استعن فاستعن بالله تعالى ؛ فإن العباد لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله تعالى لك لم يقدروا على ذلك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله تعالى لك لم يقدروا على ذلك . جفت الأقلام وطويت الصحف ، فإن استطعت أن تعمل الله بالرضا في اليقين فافعل ، فإن لم تستطع فإن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسراً ولن يغلب عسر يسرين " . صحيح ، أخرجه أحمد والترمذى مع اختلاف فى اللفظ .

* * * *

ومن خطبة طويلة له عليه الصلاة والسلام حفظ منها أبو سعيد الخدري ما يلي :

" إن الدنيا خضرة حلوة ، وإن الله مستخلفكم فيها فما ذكرت كيف تعلمون ، ألا فاتقوا الدنيا واتقوا النساء " .

" ألا لا يمنعن رجالاً هيبة الناس أن يقول بحق إذا علمه " .

" ألا إنه ينصب لكل غادر لواء يوم القيمة بقدر غدرته ، ولا غدرة أعظم من غدرة إمام عامة ، يركز لواءه عند استه " .

" ألا إن بني آدم خلقوا على طبقات شتى ، فمنهم من يولد مؤمناً ويحيا مؤمناً ويموت مؤمناً ، ومنهم من يولد مؤمناً ويحيا مؤمناً ويموت كافراً ، ومنهم من يولد كافراً ويحيا كافراً ويموت مؤمناً ، ومنهم من يولد كافراً ويحيا كافراً ويموت كافراً ، ألا وإن منهم البطيء الغضب سريع الفيء ، البطيء الغضب بطيء الفيء ، فتلك بتك . ألا وإن منهم بطيء الفيء سريع الغضب ، ألا وخيرهم بطيء الغضب سريع الفيء وشرهم سريع الغضب بطيء الفيء ، ألا وإن منهم حسن القضاء حسن الطلب ، ومنهم سيء القضاء حسن الطلب ، ومنهم حسن الطلب حسن القضاء ، فتلك بتك ألا وإن منهم سيء القضاء سيء الطلب ، ألا وخيرهم الحسن القضاء الحسن الطلب ، وشرهم سيء القضاء سيء الطلب ، ألا وإن الغضب جمرة في قلب ابن آدم ، أما رأيتم إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه؟ فمن أحسن بشيء من ذلك فليلصق بالأرض " . أخرجه الترمذى وقال : حديث حسن .

* * * *

- عن معاذ بن جبل - رضي الله عنه - :

قال : " كنت مع رسول الله ﷺ في سفر فأصبحت يوماً قريباً منه ونحن نسير . فقلت : يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار . فقال : لقد سألت عن عظيم ، وإنه ليسير على من يسره الله عليه . تعبد الله لا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحجج البيت . ثم قال : ألا أدلك على باب من أبواب الخير؟ قلت : بلـى يا رسول الله . قال : الصوم جنة ، والصدقة تطفئ الخطية كما يطفئ الماء النار ، وصلاة الرجل من جوف الليل شعار الصالحين . ثم تلى : {تَتَّجَافَ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ} . إلى قوله

: {جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} ^١ ، ثم قال : ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنته ؟ قلت : بلى يا رسول الله . قال : رأس الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنته الجهاد . ثم قال : ألا أخبرك بملك ذلك كله ؟ قلت : بلى يا رسول الله . قال : كف عليك هذا ، وأشار إلى لسانه ، قلت : يا رسول الله ! وإنما لمؤاخذون بما نتكلّم به ؟ فقال : ثكلتك أمك يا معاذ ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم - أو قال : على مناخيرهم - إلا حصائد السننهم ^٢ .

عن أبي ذر - رضي الله عنه - قال :

" قال رسول الله ﷺ : ثلاثة يحبهم الله ، وثلاثة يبغضهم الله . فأما الثلاثة الذي يحبهم الله : فرجل أتني قوماً فسألهم بالله ولم يسألهم بقرابة بيته وبينهم فمنعوه ، فتخلف رجل بأعقابهم فأعطاه سراً لا يعلم بعطيته إلا الله والذي أطعاه ، وقوماً ساروا ليتلهم حتى إذا كان النوم أحب إليهم مما يعدل به فنزلوا ، فقام يتلقنني ويأتوني ، ورجل كان في سرية فلقي العدو فانهزموا فأقبل بصدره حتى يقتل أو يفتح له . وأما الثلاثة الذين يبغضهم الله : فالشيخ الزاني ، والفقير المختال ، والغني الظلوم " ^٣ .

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : " قال رسول الله ﷺ يقول الله - عز وجل - يوم القيمة : يا ابن آدم ! مرضت فلم تدعني ، فيقول : يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تتعده ؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده . يا ابن آدم ! استطعتمنّك فلم تطعمني . قال : يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ قال : إن عبدي فلاناً استطعتمك فلم تطعمه ، أما علمت لو إنك أطعمته لوجدت ذلك عندي . يا ابن آدم ! استسقينّك فلم تسقني . قال : يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟ فيقول : إن عبدي فلاناً استسقاك فلم تسقه ، أما علمت أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي " ^٤ .

* * * *

^١ السجدة : 16 ، 17 .

² أخرجه أحمد والترمذى وابن ماجه وهو صحيح بطرقه .

³ أخرجه الترمذى وابن حبان والحاكم ورمز لصحّته السيوطي .

⁴ أخرجه مسلم .

والسر في فصاحته μ أنه يقول الكلمة القصيرة فتبليغ كل مبلغ وتحيط كل إحاطة ، وتصل إلى أدق القضايا ، ويتفاوت الناس في الأخذ منها على مقدار ما أوتوا من حكمة وعلم وذكاء وفهم . وقد عبر هو عليه الصلاة والسلام عن سر فصاحته فقال : أوبت جوامع الكلم . وانظر عبارته هذه ، تر معناها أنه ليعبر عن المعاني العظيمة الكثيرة الكبير بكلمة مختصرة سهلة ، ولكنها لا تدرك معانيها لما أحاطت به ، وهذه قضية يعرفها كل من اطلع على أحاديث عليه الصلاة والسلام ، التي بلغت عشرات الآلاف ، والمحفوظة في كتب الحديث المعتمدة المنقحة الصحيحة . وخذ أي حديث من أحاديثه وأي كلمة من كلامه تجد هذا واضحاً بالشكل الذي لا يلحق به إنسان إلا في نوادر الحالات ، ولكن كلام رسول الله μ كله من هذا النوع ومن ثم كان أفصح العرب على الإطلاق .

وقد ضرب العقاد أمثلة على هذا الذي قلناه وحللها فأتي بالجيد ، نجذب منه بمثال يقول : " ومن أمثلته (أي الكلام الجامع للمعاني الكبار في الكلمات القصار عند رسول الله) علم السياسة الذي اجتمع كله في قوله μ : " كما تكونوا يول عليكم " . فأي قاعدة من القواعد الأصلية في سياسة الأمم لا تتطوي بين هذه الكلمات ؟ ؟

ينطوي فيها أن الأمم مسؤولة عن حكوماتها لا يعفيها من تبعية ما تصنع تلك الحكومات عذر بالجهل ، أو عذر بالإكراه ، لأن الجهل جهلها الذي تعاقب عليه ، والإكراه ضعفها الذي تلقى جزاءه .

وينطوي فيها أن العبرة بأخلاق الأمة لا بالنظم والأشكال التي تعلنها الحكومة . فلا سبيل إلى الاستبداد بأمة تعاف الاستبداد ولو لم يتقيد فيها الحاكم بقيود القانونين ، ولا سبيل إلى حرية أمة تجهل الحرية ، ولو تقييد فيها الحاكم بألف قيد من النظم والأشكال .

وينطوي فيها أن الولاية تابع تابع ، وليس بأصل أصيل ، فلا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأحرى ألا يغير الوالي قوماً حتى يتغيروا هم قبل ذلك .

وينطوي فيها أن الأمة مصدر السلطات على حد التعبير الحديث .

وينطوي فيها أن الأمة تستحق الحكم الذي تصرير عليه ، ولو لم يكن حكم صلاح واستقلال ، وذلك هو الإبلاغ الذي ينفذ فيه وجهاته كل نفاذ " .

ويختتم العقاد كلامه في هذا الموضوع بقوله :

" وأمثال هذه الأحاديث في أصول السياسة والأخلاق والاجتماع مما لا يتناوله الإحصاء ، في هذا المقام . كان محمد ﷺ فصيح اللغة ، فصيح اللسان ، فصيح الداء ، وكان بلি�غاً مبلغاً على أسلس ما تكون بلاغة الكرامة والكفاية ، وكان بلسانه وفؤاده من المرسلين ، بل قدوة المرسلين " .

وحسبيك هذه الشهادة من العقاد شيخ أدباء العرب في القرن العشرين .

* * * *

وبهذا نرجو أن تكون قد اتضحت لك صفة الفطانة عند رسول الله ﷺ في بيان الحق ، وإقامة الحجة فيه ، ون الصاعة البليان في عرضه ، وكمال الأداء في إصاله . وستتضح لك هذه الصفة أكثر في الفصل الثاني ، حيث الكلام عن السياسي الأول ، والمحارب الأول ، والمعلم الأول عليه الصلاة والسلام ، ولعل الفصل الثاني سيكون أكثره مشاركاً إلى عظمة عبده وفطانته ﷺ فلنقتصر هنا على ما قدمناه .

* * * *

وبهذا نختم الفصل الأول من هذا الباب وقد رأيت فيه أن رسول الله ﷺ له من الصفات الأساسية للرسل كمالها وتمامها وأن ذلك دليل على أنه رسول الله حقاً ، خلقه الله على أكمل الأحوال وأرفع المقامات ووقفه لأعظم الأعمال ، مما ينوه بحمله كل الرجال مجتمعين . فسار في طريق لم تضطرب بدايته فيه ، ولم تتحول مسيرته عنه . حتى وصل إلى نهايته على استقامة من أول الشوط إليها ، كل خطوة بعد التي تلتها ، بناء يتکامل يوماً فيوماً حتى تم ، لا نقص فيه ولا عوج ، ولا ينقض منه شيء أبداً ، وما كان ذلك ليكون لولا أن الله المحيط علماً بكل شيء هو الذي يسند رسوله ﷺ ويرعاه ويسيره حتى كان ما كان .

* * *

الفصل الثاني

القدوة العليا

وفي الفصل الأول رأينا أن لرسول الله ﷺ من الصفات الأساسية للرسل الحظ الأعلى. وسنرى في هذا الفصل أن جوانب شخصية الرسول عليه الصلاة والسلام متعددة تعددًا يجعله منفرداً عن الرسل بميزات ، إن شاركته في بعضها فلم يشاركه في الكل . فشخصية الرسول تمثلت فيها كل جوانب الحياة ، وما كل رسول كان له مثل هذا . فالرسول عليه الصلاة والسلام كان أباً وما كل رسول كان أباً ، وكان زوجاً وما كل رسول تزوج ، وكان رئيس دولة ومؤسسها وما كل رسول أقام دولة ، وكان القائد الأعلى لجيش الإسلام والمحارب الفذ وما كل رسول حارب . وبعث للإنسانية عامة فشرع لها بأمر الله ما يلزمها في كل جوانب حياتها العقدية والعبادية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية والسياسية ، ولم يبعث رسول قط إلى الإنسانية عامة غيره وكان المستشار والقاضي والمربي والمعلم والمهدب والعابد والزاهد والصابر والرحيم ... إلى آخر صفاته - عليه الصلاة والسلام - التي استواعت كل جوانب الحياة ، فكان بذلك بين الرسل المفرد العلم الممتاز {تَلَكَ الْرُّسُلُ فَضَّلَّنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ}¹ وإنما كان ذلك لأن الله جلت حكمته جعل الإسلام المنزل على محمد ﷺ نظاماً شاملًا لجوانب حياة البشر كلها ، وجعل حياة رسوله نموذجاً لدينه كله في كل جوانبه ، حتى تقوم الحجة على الناس مرتين ، مرة بالبيان النظري ومرة بالبيان العملي ، وشيء آخر هو أن البشر فيهم الأب والابن والزوج . وفيهم السياسي والاقتصادي ورجل الشورى ، وفيهم المحارب والمسالم ، وفيهم المبتلى والمعافي ، وفيهم الراعي والرعية ، وفيهم العامل والتاجر ، فالحياة البشرية متعددة الجوانب ، وكل إنسان يعيش حياة تختلف في بعض جوانبها أو تتفق مع الآخرين ، وقد فرض الله على البشر على اختلاف مستوياتهم ، أن يكون الرسول قدوتهم في كل شيء ، فما لم تكن شخصية الرسول متعددة الجوانب والمواصفات هذا التعدد ، لا يكون قدوة لكل البشر في كل شيء .

¹ البقرة : 253 .

وقد يعجب إنسان أن تكون حياة رسول الله ﷺ من الخصب بحيث تستوعب كل جوانب حياة البشر . فتكون قدوة لهم في هذا كله ، ولكنه الواقع الذي تشهد له كل الدراسات النظرية والعلمية .

فمثلاً من الناحية النظرية : ادرس مواقف الصبر عنده فإنك تجدها وقد استواعبت كل موقف يحتاج الناس به الصبر . لقد أقام الله رسوله مقام المخرج من وطنه ، ومقام من مات له أولاد وأولاد ، ومن ماتت له زوجة وعم وأبناء عم بعضهم قتل . ومقام من فشل أصحابه في معركة كان يديرها هو ، ومقام من أوذى واستهزئ به ، ومقام من شمت فيه ومن اتهم في عرض أئب الخلق إليه ، ومقام من مرض وجراح ، ومقام من جاع وعطش وخاف وغير ذلك من المقامات التي يعتبرها الناس مصائب بحيث لا تصيب الإنسان مصيبة إلا ويرى رسول الله ﷺ قد أصيب بمتلها ، وكان له موقف مثالي منها ، فيقف مثله إن كان مؤمناً .

ومن الناحية العملية : فإن تاريخ الأمة الإسلامية ما خلا في عصر من عصوره ، من ملابين من أفراد هذه الأمة مختلفي المدارك ، و مختلفي المستويات . و مختلفي الاختصاصات و مختلفي المشارب ، منهم الغني والفقير والقائدة والرئيس والعالم والعابد وغيرهم وغيرهم ، كل منهم متمسك بحبل الاقتداء برسول الله في الصغيرة والكبيرة . حتى أنك لتجد النماذج المتباعدة من هؤلاء وكل منهم يقيم الدليل على أن سلوكه هو سلوك رسول الله فيما يسير عليه ، وكل ذلك في الواقع ناتج عن الخصب في حياة الرسول التي استواعبت أحوال البشر جميعاً .

والرسول عليه الصلاة والسلام في كل موقف من هذه المواقف ، وفي كل حال من الأحوال ، وفي كل جانب من الجوانب ، كان المثل الأعلى للبشر والقدوة العليا لهم . إذ إليه يرجع الكمال في كل شيء ، ومنه يعرف الكمال في كل شيء ، وهذا هو الجانب الذي سنعرض له في هذا الفصل ليتبين لنا أنه لا كمال لأي إنسان مهما كان في أي حالة . إلا باتباعه والاقتداء به والتأنسي به ، وإن الله لم يعط من الكمال لإنسان ما أعطاه محمدًا ، ولم يجتمع في إنسان من الكمالات ما اجتمع في شخصه العظيم ، وذلك آية الله على أن هذا الإنسان رسوله ؛ إذ ما كان ليجتمع لإنسان منبت عن الله وكمالاته ، وإحاطة علمه وتوفيقه .

وطبعاً نحن لا نستطيع - وخاصة في مثل هذا الفصل القصير المخصص لهذا البحث - أن نحيط بجوانب شخصية الرسول - عليه الصلاة والسلام - مع الإشارة إلى الكمال عنده في كل . فذلك شيء يستند جهد الباحثين الكثير ولا يحاط به . وإنما سنكتب هنا أربع فقرات

فقط وباختصار . حول أربعة جوانب من حياته عليه الصلاة والسلام ونرى فيها ما قدمناه واضحاً وهو مقصود هذا الفصل .

هذه الفقرات هي :

الفقرة الأولى : الأخلاقي الأول

الفقرة الثانية : رجل الأسرة الأول أباً وزوجاً

الفقرة الثالثة : المعلم والمربي الأول

الفقرة الرابعة : رجل الدولة الأول سياسياً وعسكرياً .

واخترنا هذه الجوانب لأن المعروف عند الناس أن كمال الإنسان في جانب من هذه الجوانب يكون على حساب تفريطه في بقية الجوانب ، وكلامنا في غير المقتدين بالرسل من أتباعهم ، فاجتمع الكمال لرسول الله ﷺ في هذه الجوانب كلها دليل على صحة ما قلناه . ولتبدأ باستعراض الفقرة الأولى .

* * *

1- الأخلاقي الأول

{وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ} ¹

إن أبرز سمة في شخصية الرسول ﷺ المتعددة الجوانب أخلاقياته التي لا مثيل لها ، فلو أجمعت أنك جمعت كل خلق عظيم في العالم ، وكل تصرف أخلاقي سليم تصرفه في يوم من الأيام إنسان ، فإن ما تجده في حياة رسول الله ﷺ يربو على هذا كله مجتمعاً . مع انعدام التصرفات غير الأخلاقية في حياته عليه الصلاة والسلام ، مما لا تستطيع معه أن تجد في حياته كلها تصرفًا يمكن أن ترى أعظم منه . وكان أصحابه - رضي الله عنهم - يعرفون منه هذا ، ويتصرفون على أساسه معه ، فكثيراً ما كانوا يوقفون ناساً موقف سنن الأنبياء السابقون فيها سنناً فكان يفعل ما فعلوا ، ويعرف الصحابة ماذا سيفعل ، إذ أنهم يعرفون عنه أنه لا يرضى أن يكون أحد أرقى منه تصرفًا أو مسلكاً .

في الطريق إلى فتح مكة لقي الرسول ﷺ أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعبد الله بن أبي أمية ، وهما ابن عمه وابن عمته ، وكانا من أشد الناس إيذاء له بمكة ، فأعرض عنهما وأشار علي بن أبي طالب على ابن عمه قائلاً : " ائته من قبل وجهه وقل له ما قال إخوة يوسف : {تَأَلَّهُ لَقَدْ آتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنَّ كُلَّا لَخَاطِئِينَ} ² فإنه لا يرضى أن يكون أحد أحسن منه جواباً ، ففعل ذلك أبو سفيان ، فقال له رسول الله ﷺ : {لَا تَتَرَبَّ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} ³ .

فانظر ذلك الذي لا يرضى أحد في موقف من مواقف مكارم الأخلاق . إن أخلاق الرسول ﷺ هي ميزة شخصيته الكبرى ، حتى أنه ليحدد مهمة رسالته بقوله : " إنما بعثت لأنتم صالح الأخلاق " ⁴ الواقع أنك لا تستطيع أن تأخذ صورة كاملة عن أخلاق الرسول ﷺ ، إلا إذا فهمت القرآن والسنة ، وكل ما له علاقة بسيرة رسول الله ﷺ . إذ أخلاقه كما وصفته سيدتنا عائشة - رضي الله عنها - هي القرآن ، إذ قالت : " كان خلقه القرآن " ⁵ .

¹ القلم : 4 .

² يوسف : 91 .

³ يوسف : 92 .

⁴ أخرجه ابن سعد والبخاري والحاكم والبيهقي ورمز لصحته السيوطي .

⁵ أخرجه مسلم وأحمد وأبو داود .

وقد رأيت بشكل عملي في بحث الأمانة من الفصل الأول أن كل آية من القرآن كان المظهر العملي لها ، إذ استعرضنا هناك عدداً من الآيات والأمثلة التطبيقية على ذلك .

إلا أننا نريد بهذا البحث أن نأتيك ببعض أمهات الأخلاق ومظاهرها عند رسول الله ﷺ بالشكل الذي لا يرقى إليه أحد سابقاً أو لاحقاً .

ونختار من هذه الأخلاق أخلاق الصبر والرحمة والحلم والكرم والتواضع . فهذه من أمهات الأخلاق التي تحمد إذا كانت في محلها ، وسنرى أن رسول الله ﷺ يضع كل شيء في محله فإذا كان العفو غير محمود فلا عفو ، وإذا كانت الرحمة غير محمودة فلا رحمة ، وهكذا ، فرسول الله ﷺ هو الميزان الذي توزن بتصرفاته أخلاق البشر ويتحدد بهذه التصرفات حدود كل خلق فلا يطغى خلق على خلق .

أولاً : نماذج من صبره :

1- مر معك في مبحث التبليغ صور من صبره ﷺ على الاضطهاد والتعذيب ، والإيذاء والتوجيه والسخرية والردود القبيحة عليه والإهانات المتواتلة ، وكل هذا تحمله بصبر . فإذا ما علمنا أن هذه الفترة استغرقت ثلاثة عشر عاماً ، أدركنا مقدار الصبر الذي تمتع به رسول الله ﷺ . وليس هذا فحسب بل كل ما أصيب به هو أصيّب به أتباعه والأذى الذي لحق به لحق بأقربه وهو الشريف ، وكل هذا يجرح نفس الإنسان ، ويحطّم أعصابه ، ومع ذلك مما أبهجه ﷺ لهذا كله ، بل تحمله وتحمّل معه الاتهامات الباطلة بالجنون والكذب والسحر

....,....

والذي جرب هذه القضايا كلها يعلم كم تحتاج إلى طاقة من الصبر لا تتفد . فإذا ما علمنا أن رسول الله ﷺ تحمل هذا كله ، وهو يقف من الناس موقف الهجوم على باطلها وموقف الدعوة إلى ما عنده . نعلم أن المسألة هنا أكبر من الصبر ذاته .

2- فإذا ما انتقلنا إلى موطن آخر يمتحن فيه الصبر وهو موطن القتال ،رأينا كذلك عجباً . ولعل أبرز مواقفه الصابرة في الحرب والتي تتحطم فيها أقوى الأعصاب موقفاه يوم أحد ويوم الخندق ، يوم الهزيمة الذي بقي فيه ثابتاً ، ويوم الحصار الذي أخذ بالأنفاس وبقي فيه كله أمل وهاك وصفاً مختصرًا لموقفه الصابر في اليومين .

روى مسلم : " أن رسول الله ﷺ أفرد يوم أحد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش " .

" واستطاع المشركون أن يخلصوا قريباً من النبي ﷺ فرماه أحدهم بحجر كسر أنفه ورباعيته وشجه في وجهه فأطلقه وتفجر منه الدم ، وشاع أن مهداً قتل ، فتفرق المسلمون ودخل بعضهم المدينة وانطلقت طائفة فوق الجبل ، واختلط على الصحابة أحوالهم مما يدرؤن ما يفعلون " .

" وكان رسول الله ﷺ ينثل السهام من كنانته ويعطيها سعد بن أبي وقاص يقول : ارم فدك أبي وأمي ، وكان أبو طلحة الأنصاري رامياً ماهراً في إصابة الهدف قاتل دون رسول الله ﷺ فكان إذا رفع رسول الله شخصه ينظر أين يقع سهمه " .

في هذا اليوم الشديد إذ فرّ المسلمون فلم يبق مع رسول الله ﷺ إلا هذا العدد القليل ، بقي رسول الله ﷺ صابراً يدير المعركة التي طرفاها ثلاثة آلاف مقابل ألفاد . ولم يهزم ولكنه أصر مع من معه على الاستبسال ، حتى رأى المشركون أن خسارتهم أكبر من ربحهم فتركوهم .

فأي صبر هذا الصبر ؟

ولانا ننسى أن نذكر أن شائعة قتل محمد ﷺ كانت قد راجت والرسول ﷺ نفسه من من عرفه من تكذيبها ؛ حتى يثبط قريشاً عن المضي في المعركة ، فإذا هو صبر في أحرج المواقف لا يخرج صاحبه عن كامل التدبير .

ويوم الخندق وقد حوصلت المدينة هذا الحصار الطويل الصعب الذي لم يعرف المسلمين فيه نوماً ولا راحة ، والأحزاب تمطرهم بوابل من الهجمات على الأمكنة الضعيفة ، وتحركات المسلمين متلاحقة من مكان إلى مكان خشية المباغلة وقد طالت الفترة وتعجب المسلمون ، وكانوا كما وصفهم الله {إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمَنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَنْصَارُ

وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَ * هُنَالِكَ أَبْتُلَى الْمُؤْمِنُونَ وَزَلَّلُوا زِلَّاً شَدِيدًا¹
في هذا الوضع المخيف يأتي الخبر الصاعق أن قريطة نقضت عهدها وقررت القتال وأصبح
المسلمون جمِيعاً معرضين لقتل الأنفس وسبي الذرية ، فـأي صبر يحتاجه القائد في تلك
اللحظات في ذلك الموقف الذي يحطم الأعصاب .

لقد تقنع رسول الله ﷺ بثوبه واضطجع ومكث طويلاً حتى إذا هضم المسلمون خطورة
موقفهم قام بيت الأمل ويشد العزائم ويرفع المعنويات وهو يقول : " أبشروا بفتح الله ونصره "

إن خطورة الموقف الشديد لم تؤثر ذرة على أعصاب القائد العظيم بل هو الصبر الذي
يربو على الصبر .

3- فإذا ما انتقلنا إلى موطن آخر من المواطن التي يمتحن فيها الصبر ، وهو موطن
موت الأولاد والأقارب والأصحاب وقلب رسول الله ﷺ هو القلب الرحيم ، نجد الصبر الذي
يفيض العبرة بلا شكوى ولا ضجر ، وهذه أمثلة من مواقفه في هذه المواطن :

أخرج ابن سعد عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال :

رأيت إبراهيم وهو يكيد بنفسه بين يدي رسول الله ﷺ فدمعت عينا رسول الله ﷺ فقال
رسول الله : " تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضي ربنا والله يا إبراهيم إنا بك
لمحزونون " .

وأخرج ابن سعد أيضاً عن مكحول قال :
دخل رسول الله ﷺ وهو معتمد على عبد الرحمن بن عوف - رضي الله عنه -
وإبراهيم يوجد بنفسه فلما مات دمعت عينا رسول الله ﷺ فقال له عبد الرحمن : أي رسول الله
! هذا الذي تنهى الناس عنه متى يراك تبكي يبكيوا ، قال : فلما شرحت عنه عبرته قال : " إنما
هذا رحم وإن من لا يرحم ، إنما تنهى الناس عن النياحة وأن يندب الرجل بما ليس
فيه " .

¹ . الأحزاب : 10 ، 11

ثم قال : " لو لا أنه وعد جامع وسبيل مئناء وأن آخرنا لاحق بأولنا لوجدنا عليه وجداً غير هذا وإنما عليه لمحزونون . تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الرب ، وفضل رضاعه في الجنة " .

وأخرج الحاكم عن ابن عباس قال :

" لما قتل حمزة يوم أحد أقبلت صفية تطلبـه ، لا تدرـي ما صـنـع ، فلقيـتـهـ علىـاـ والـزـبـيرـ فـقـالـ عـلـيـ لـلـزـبـيرـ : اذـكـرـ لـأـمـكـ ، وـقـالـ الـزـبـيرـ لـعـلـيـ : لـاـ ، اذـكـرـ أـنـتـ لـعـمـنـكـ ، قـالـتـ : مـاـ فـعـلـ حـمـزـةـ ؟ فـأـرـيـاهـاـ أـنـهـمـاـ لـاـ يـدـرـيـانـ فـجـاءـتـ النـبـيـ مـ فـقـالـ : إـنـيـ أـخـافـ عـلـىـ عـقـلـهـاـ فـوـضـعـ يـدـهـ عـلـىـ صـدـرـهـاـ وـدـعـاـ فـاسـتـرـجـعـتـ وـبـكـتـ ، ثـمـ جـاءـ فـقـامـ عـلـيـهـ وـقـدـ مـثـلـ بـهـ ، فـقـالـ : لـوـ لـاـ جـزـعـ النـسـاءـ لـتـرـكـتـهـ حـتـىـ يـحـصـلـ مـنـ حـوـاصـلـ الطـيـرـ وـبـطـونـ السـبـاعـ ، ثـمـ أـمـرـ بـالـفـتـنـىـ فـجـعـلـ يـصـلـيـ عـلـيـهـمـ ، فـيـضـعـ تـسـعـةـ وـحـمـزـةـ فـيـكـبـرـ عـلـيـهـمـ تـكـبـيرـاتـ ثـمـ يـرـفـعـونـ وـيـتـرـكـ حـمـزـةـ ، ثـمـ يـؤـتـواـ بـتـسـعـةـ فـيـكـبـرـ عـلـيـهـمـ سـبـعـ تـكـبـيرـاتـ ثـمـ يـرـفـعـونـ وـيـتـرـكـ حـمـزـةـ ، ثـمـ يـؤـتـواـ بـتـسـعـةـ فـيـكـبـرـ عـلـيـهـمـ سـبـعـ تـكـبـيرـاتـ حـتـىـ فـرـغـ مـنـهـمـ " .

وأخرج الطيالسي وأحمد وأبو داود والترمذـيـ وـابـنـ مـاجـهـ وـأـبـوـ عـوـانـةـ وـابـنـ حـبـانـ عـنـ أـسـامـةـ اـبـنـ زـيدـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ قـالـ :

" كـنـاـ عـنـدـ النـبـيـ مـ فـأـرـسـلـتـ إـلـيـهـ إـحـدـىـ بـنـاتـهـ تـدـعـوـهـ وـتـخـبـرـهـ أـنـ صـبـيـاـ لـهـ فـيـ المـوـتـ . فـقـالـ لـلـرـسـوـلـ : اـرـجـعـ إـلـيـهـاـ فـأـخـبـرـهـاـ أـنـ اللـهـ مـاـ أـخـذـ وـلـهـ مـاـ أـعـطـىـ وـكـلـ شـيـءـ عـنـهـ بـأـجـلـ مـسـمـىـ فـلـتـصـبـرـ وـلـتـحـسـبـ . فـعـادـ الرـسـوـلـ فـقـالـ : إـنـهـاـ قـدـ أـقـسـمـتـ لـتـأـتـيـنـهـاـ ، فـقـامـ النـبـيـ مـ وـقـامـ مـعـهـ سـعـدـ بـنـ عـبـادـ وـمـعـاذـ بـنـ جـبـلـ وـأـبـيـ بـنـ كـعـبـ وـزـيـدـ بـنـ ثـابـتـ وـرـجـالـ وـأـنـطـلـقـتـ مـعـهـمـ فـرـفعـ إـلـىـ رـسـوـلـ اللـهـ مـ الصـبـيـ وـنـفـسـهـ تـقـعـقـعـ كـأـنـهـاـ فـيـ شـنـ فـفـاضـتـ عـيـنـاهـ فـقـالـ لـهـ سـعـدـ : مـاـ هـذـاـ يـاـ رـسـوـلـ اللـهـ ؟ قـالـ : هـذـهـ رـحـمـةـ جـعـلـهـاـ اللـهـ فـيـ قـلـوبـ عـبـادـهـ إـنـمـاـ يـرـحـمـ اللـهـ مـنـ عـبـادـهـ الرـحـمـاءـ " .

4- فإذا ما انتقلنا إلى موطن آخر من المواطن التي يمتحن بها الصبر وهو الصبر على المرض والجوع الفقر . نجد دائماً القمة التي لا يرقى إليها الرافقون .

أخرج أحمد والطبراني وهذه روایة الطبراني :

" أَنْ فَاطِمَةَ نَأَوَلَتِ النَّبِيَّ مُحَمَّدَ كَسْرَةَ مِنْ خَبْزِ الشَّعِيرِ ، فَقَالَ : مَا هَذِهِ ؟ قَالَتْ : قَرْصٌ خَبْزَتِهِ فَلَمْ تَطْبِ نَفْسِي حَتَّى أَتَيْنَاهُ بِهَذِهِ الْكَسْرَةِ ، فَقَالَ لَهَا : هَذَا أُولَأِ طَعَامٍ أَكَلَهُ أَبُوكَ مِنْذُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ " .

وَأَخْرَجَ ابْنَ سَعْدَ وَالْبَيْهَقِيَّ عَنْ ابْنِ الْبَحِيرِ :

" أَصَابَ النَّبِيَّ مُحَمَّدَ جَوْعًا يُومًا فَعَمِدَ إِلَى حَجَرٍ فَوَضَعَهُ عَلَى بَطْنِهِ ، ثُمَّ قَالَ : أَلَا رَبِّ نَفْسٍ طَاعِمَةٌ نَاعِمَةٌ فِي الدُّنْيَا جَائِعَةٌ عَارِيَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، أَلَا رَبِّ مَكْرُمٍ لِنَفْسِهِ وَهُوَ لَهَا مَهِينٌ ، أَلَا رَبِّ مَهِينٍ لِنَفْسِهِ وَهُوَ لَهَا مَكْرُمٌ " وَحَسَنَ السِّيَوْطِيُّ .

وَأَخْرَجَ مُسْلِمًا وَالتَّرمِذِيَّ عَنْ النَّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ :

" أَلْسِتُمْ فِي طَعَامٍ وَشَرَابٍ مَا شَئْتُمْ ؟ لَقَدْ رَأَيْتُ نَبِيَّكُمْ مُحَمَّدَ وَمَا يَجِدُ مِنَ الدَّقْلِ مَا يَمْلأُ بَطْنَهُ (الدَّقْلُ : أَرْدَأُ التَّمْرَ) " وَفِي رِوَايَةِ لَمْسُلِمٍ عَنِ النَّعْمَانِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ : ذَكْرُ عُمْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - مَا أَصَابَ النَّاسَ مِنَ الدُّنْيَا ، فَقَالَ : لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ مُحَمَّدَ يَظْلِمُ الْيَوْمَ يَلْتَوِي مَا يَجِدُ مِنَ الدَّقْلِ مَا يَمْلأُ بَطْنَهُ " .

وَأَخْرَجَ أَبُو نُعَيْمَ فِي الْحَلِيلِ وَالْخَطِيبِ وَابْنِ عَسَكِرٍ ، وَابْنِ النَّجَارِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ :

" دَخَلَتْ عَلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدَ وَهُوَ يَصْلِي جَالِسًا فَقَلَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! أَرَاكَ تَصْلِي جَالِسًا فَمَا أَصَابَكَ ؟ قَالَ : الْجَوْعُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ . فَبَكَيْتُ . فَقَالَ : لَا تَبْكِ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ، فَإِنَّ شَدَّةَ الْحِسَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا تَصِيبُ الْجَائِعَ إِذَا احْتَسَبَ فِي دَارِ الدُّنْيَا " .

وَأَخْرَجَ الطَّبرَانِيَّ وَابْنَ حَبَّانَ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ :

" خَرَجَ أَبُو بَكْرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بِالْهَاجِرَةِ إِلَى الْمَسْجِدِ ، فَسَمِعَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : يَا أَبَا بَكْرٍ مَا أَخْرَجَكَ هَذِهِ السَّاعَةَ ؟ قَالَ : مَا أَخْرَجْتِنِي إِلَّا مَا أَجَدَ مِنْ حَاقِّ الْجَوْعِ (أَيِّ شَدَّةَ الْجَوْعِ) قَالَ : وَأَنَا - مَا أَخْرَجْتِنِي غَيْرَهُ . فَبَيْنَمَا هُمَا كَذَلِكَ إِذَا خَرَجَا عَلَيْهِمَا رَسُولُ

الله ﷺ فقال : ما أخرجكما هذه الساعة ؟ قالا : والله ما أخرجنا إلا ما نجد في بطوننا من حلق الجوع . قال : وأنا - والذى نفسي بيده - ما أخرجني غيره . فقوما فانطلقوا " .

وأخرج ابن ماجه وابن أبي الدنيا عن أبي سعيد رضي الله عنه-

" أنه دخل على رسول الله ﷺ وهو موعوك¹ ، عليه قطيفة فوضع يده فوق القطيفة قال : ما أشد حماك يا رسول الله . قال : إنما كذلك يشدد علينا البلاء ويضاعف لنا الأجر . ثم قال : يا رسول الله ! من أشد الناس بلاء ؟ قال : الأنبياء . قال : ثم من ؟ قال : العلماء . قال : ثم من ؟ قال : الصالحون " .

وخرج البيهقي عن أبي عبيدة بن حذيفة - رضي الله عنه - عن عمه فاطمة - رضي الله عنها - قالت :

" أتينا رسول الله ﷺ في نساء نعوده وقد حُمّ ، فأمر بسقاء فتعلق على شجرة ثم اضطجع تحته فجعل يقطر على فوائه من شدة ما يجد من الحمى فقلت : يا رسول الله ، لو دعوت الله أن يكشف عنك ، فقال : إن أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم " .

فأنت ترى من هذه الأمثلة أنه ما من موطن من مواطن امتحان الصبر إلا امتحن فيه صبر رسول الله ﷺ وفي كل مرة نجد عنده الصبر الذي لا يخالطه هلع ، إنها أخلاق النبوة في أعلى كمالات البشر .

* * *

ثانياً : نماذج من رحمته :

1 - والناس الذين يخوضون المعارك ويسوسون البشر ، تقسو قلوبهم وتتجف دموعهم ، ونادرًا ما تجد الموغل في ذلك متصفًا بصفة الرحمة ، ولكن رسول الله ﷺ ومن اقتدى به

¹ موعوك : محموم .

ليسووا من هذا الطراز ، فمهما شئت عندهم من شجاعة وقوة وشدة وصبر وجدى ، ولكنها صفات لا تطغى على خلق الرحمة أبداً ، بل كما أن هذه الصفات في كمالها فـ ذلك خلق الرحمة عنده μ في كماله ، وقد رأيته في فقرة سابقة كيف تقىض عينه μ في كثير من المواقف رحمة وشفقة ، وهو الصابر الذي ما عرف أكثر صبراً منه ، والمقاتل الذي ما عرف أكثر حنكة منه ، يفيض قلبه بالرحمة فيبكي وتدمع عيناه ، وقد يسمع صوت بكائه ؛ إنها نفس تجيش جيشاً ببحار الرحمة .

2- وهناك مواطن يفقد فيها الرحماء رحمتهم ولكن رسول الله μ لا تقارقه رحمته ، يُؤذى ويُضرب ويُضطهد فيقول : " اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون " ويوم فتح مكة وقد فعلت به ما فعلت ، كان موقفه غير المتوقع كما قص عمر قال : " لما كان يوم الفتح ورسول الله μ بمكة أرسل إلى صفوان بن أمية وإلى أبي سفيان بن حرب وإلى الحارث بن هشام قال عمر : فقلت :

لقد أمكن الله منهم لأعرفهم بما صنعوا حتى قال رسول الله μ : مثلي ومثلكم كما قال يوسف لإخوته { لا تشرب عليكم اليوم بغير الله لكم وهو أرحم الراحمين } .
قال : عمر فافتضحت حياء من رسول الله μ كراهية أن يكون بدر مني ، وقد قال لهم رسول الله μ ما قال ¹" .

إن المواطن التي تُغلب عادة فيها عواطف الرحمة بعواطف الانتقام أو الانتصار تبقى صفة الرحمة عند رسول الله μ في محلها لا تطغى على غيرها ولا يطغى غيرها عليها .

وكانت رحمته تسع الناس جميعاً ويحس بها المستضعفون قبل الأقوياء ، يقول عبد الله بن عمرو : " دخل النبي μ المسجد فجلس إلى القراء وبشرهم بالجنة وبدا على وجوههم البشر حزنت لأنني لم أكن منهم " ² .

وجاء في صحيح البخاري : " أن النبي μ ذكر ذات يوم رجلاً أسود فقال : ما فعل ذلك الإنسان ؟ قالوا : مات يا رسول الله ، قال : أفلآ آذنتموني ؟ فقالوا : إنه كذا وكذا قصته فحرقوا من شأنه ، قال : دلوني على قبره ، فأتاى قبره فصلى عليه " .

¹ أخرجه ابن عساكر ، كذا في الكنز ج 5 ص 292 .

² أخرجه النسائي وأصله عند مسلم .

وقال معاوية بن سويد : " كنا بني مقرن على عهد رسول الله ﷺ ليس لنا خادم إلا واحدة فلطمها أحدها فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : اعتقوها ، فقيل : ليس لهم خادم غيرها ، قال : فليستخدموها فإذا استغنو عنها فليخلوا سبيلها "¹ .

وأخرج الشیخان عن أنس رضي الله عنه - أن نبی الله ﷺ قال : " إِنِّي لَأُدْخِلُ الصَّلَاةَ وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَطْبِلَهَا فَأَسْمِعْ بَكَاءَ الصَّبِيِّ فَأَتْجُوَّزُ فِي صَلَاتِي مَا أَعْلَمُ مِنْ وَجْدِ أَمِهِ مِنْ بَكَائِهِ " .

وبلغت رحمته الحيوان فكان أرحم الخلق به .

قال عبد الرحمن بن عبد الله : " كنا مع رسول الله في سفر فرأينا حمرة (طائر مثل العصفور) معها فرخان لها فأخذناهما فجاءت الحمرة تعرش (ترفف) فلما جاء الرسول ﷺ قال : من فجمع هذه بولدها ردوا ولدتها إليها "² .

ونهى أن يتخذ الحيوان هدفاً يرمى بالنبال ليتعلم فيه الرمي ، وأمر من يريد الذبح أن يحد شفتره ويريح ذبيحته وألا يذبح الحيوان بمرأى من الحيوان ، إن رحمته بلغت كل شيء .

ولكنها الرحمة التي لا تجاوز حدتها :

لما أسر أبا عزة الشاعر أو مرة استعطفه (أبو عزة) حتى أطلق سراحه على شرط ألا يقف بعد اليوم ضده ، وتدور الأيام ويدخل أبو عزة المعركة ضد رسول الله ﷺ فيأسره مرة ثانية ويستعطفه مرة ثانية ولكن رسول الله ﷺ يقول : لا يلangu المؤمن من جحر مرتين ويأمر بقتله . وهذا الذي سنه رسول الله ﷺ في هذه الحالة هو الذي أخذ به القانون الدولي في القرن العشرين حيث نص على أن الأسير الذي يطلق سراحه بشرط عدم الدخول في المعركة ضد آسريه مرة ثانية إذا أسر بعدها يقتل .

¹ أخرجه مسلم .

² أخرجه أبو داود وإسناد حسن .

إنها الرحمة التي تقipض حتى تكاد تقتل صاحبها أسى لما يرى من انصراف الخلق عن طريق الجنة إلى طريق النار . حتى يعاتب الله - عز وجل - صاحبها : { فلعلك باخ نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفًا }¹ .

إنها رحمة النبوة وإنها صفاتها .

* * *

ثالثاً : نماذج من حلمه ﷺ :

1- قوله - صلى الله عليه وآله وسلم - من الحلم - كما له من كل خلق - كماله .
يغضب للحق إذا انتهكت حرماته وإذا غضب فلا يقوم لغضبه شيء حتى يهدم الباطل وينتهي ، وفيما عدا ذلك فهو أحلم الناس عن جاهل لا يعرف أدب الخطاب ، أو مسيء إلى رسول الله ﷺ نفسه يمكن إصلاحه ، أو منافق يتظاهر بغير ما يبطن . تجد حلمه دائمًا عجيبةً يفوق الحد الذي يتصوره الإنسان ، خاصة وأن حلمه مع القدرة على البطش والقتل والإرهاب .

إذ لا يشك أحد أن رسول الله ﷺ لو أمر بقتل إنسان لتبادر المئات إلى تنفيذ أمره . بل إن بعضهم لا يحتاجون إلى الأمر بقدر ما يحتاجون إلى الإذن . فلو أذن رسول الله ﷺ لطارت رؤوس عن كواهل أصحابها قبل أن ينهوا كلامهم . ولكن الرسول الحليم ﷺ كان يتحمل ويحمل حتى إنك لترأه الحلم مجسماً .

وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال :

" بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم قسمًا إذا أتاهم ذوي الخويصرة - رجل منبني تميم - فقال : يا رسول الله ! اعدل ، فقال رسول الله ﷺ : ويلك من يعدل إن لم أعدل ! لقد خبت وخسرت ! إذا لم أعدل فمن يعدل ، فقال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - : يا رسول الله ! ائذن لي فيه فأضرب عنقه ، فقال رسول الله ﷺ : دعه ... "

¹ الكهف : 5 .

ويوم حنين إذ قسم رسول الله ﷺ ما قسم ، قال رجل - كما يروي البخاري - : " والله إن هذه لقمة ما عدل فيها وما أريد بها وجه الله ، فقلت : (أي عبد الله) : والله لأخبرن رسول الله ﷺ فأتيته فأخبرته فقال : من يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله ، رحم الله موسى قد أؤذني بأكثر من هذا فصبر " .

وروى أحمد عن عائشة قالت : " ما ضرب رسول الله بيده خادماً له فقط ، ولا امرأة ولا ضرب بيده شيئاً إلا أن يجاهد في سبيل الله ، ولا خير بين شيئاً وشيئاً فقط إلا كان أحبهما إليه أيسرهما حتى يكون إثماً فإذا كان إثماً كان أبعد الناس من الإثم . ولا انتقم لنفسه من شيء يؤتي إليه حتى تنتها حرمات الله فيكون هو ينتقم الله " .

وأخرج الشیخان عن أنس بن مالك : " أَنْ امْرَأَ أَتَتْ رَسُولَ اللَّهِ بِشَاءَ مَسْمُومَةً فَأَكَلَ مِنْهَا فَجَيَءَ بِهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ فَسَأَلَهَا عَنِ الْذَّلِكِ قَالَتْ : أَرَدْتُ لِأَفْتَلَكَ ، فَقَالَ : مَا كَانَ اللَّهُ لِي سُلْطَنٌ عَلَيَّ ، أَوْ قَالَ : عَلَى ذَلِكَ . قَالُوا : أَلَا نَقْتُلُهَا ؟ قَالَ : لَا ... "

وأخرج ابن جرير عن أنس - رضي الله عنه - قال : " دخل رسول الله ﷺ يوماً المسجد وعليه برد نجراني غليظ الصنعة ، فأتاه أعرابي من خلفه فأخذ بجانب ردائه حتى أثرت الصنعة في صفح عنق رسول الله ﷺ فقال : يا محمد ! أعطنا من مال الله الذي عندك ، فالتفت رسول الله فتبسم فقال : مروا له " .

وأخرج عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : " كنا نقع مع رسول الله ﷺ بالغدوات في المسجد ، فإذا قام إلى بيته لم ننزل قياماً حتى يدخل بيته ، فقام يوماً فما بلغ وسط المجلس أدركه أعرابي فقال : يا محمد ! احملني على بعيرين فإنك لا تحملني من مالك ولا مال أبيك ، وتجنب بردايه حتى أدركه فاحمرت رقبته فقال رسول الله ﷺ : لا وأستغفر الله لا أحملك حتى تقيدني قالها ثلاث مرات ثم دعا رجلاً فقال له : احمله على بعيرين . على بعير شعير وعلى بعير تمر " ورواه أحمد .

وأخرج الطبراني عن أبي أمامة - رضي الله عنه - قال :

" كانت امرأة ترافق الرجال (أي تكلمهم كلاماً بذئباً) وكانت بذئبة فمررت بالنبي ﷺ وهو يأكل ثريداً على طربال فقالت : انظروا إليه يجلس كما يجلس العبد ويأكل كما يأكل العبد .

قال النبي : وأي عبد أعبد مني ؟
قالت : ويأكل ولا يطعنني .
قال : فكلي .

قالت : ناولني بيديك ، فناولتها .
قالت : أطعمني مما في فيك ، فأعطها فأكلت فغلبها الحباء فلم ترافق أحداً حتى ماتت .

وأخرج أبو نعيم عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : " كان رسول الله ﷺ مع أصحابه فصنعت له طعاماً وصنعت له حصة طعاماً فسبقتني حصة فقلت للجارية : انطلق فاكثئي قصعتها ، فأهوت أن تضعها بين يدي النبي فكتفتها فانكشفت القصعة فانتشر الطعام ، فجمعها النبي وما فيها من الطعام على الأرض فأكلوا . ثم بعثت بقصعتي فدفعها النبي إلى حصة فقال : خذوا ظرفاً مكان ظرفكم وكلوا ما فيها ، فما رأيته في وجه رسول الله ﷺ .

وحلمه ﷺ أوسع من أن يحاط بجوانيه ، ولو لا هذا الحلم ما استطاع أن يسوس شعباً كالعرب يأنف أن يطيع أو ين الصاع أو يجرح ، وصدق الله العظيم إذ يقول : {وَلَوْ كُنْتَ فَظَاهِرَ
عَلَيْهِ الْقَلْبُ لَا تَنْقُضُوا مِنْ حَوْلِكَ قَاءْعُفُ عَنْهُمْ وَأَسْتَغْفِرُ لَهُمْ وَشَأْوِرُهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَّمْتَ فَتَوَكَّلْ
عَلَى اللَّهِ} ^١

* * *

رابعاً : نماذج من كرمه :

إن الكرم في الإسلام طريق من طرق الجنة ، وإن البخل طريق النار . ولذلك فقد كان كرم رسول الله ﷺ لا يجارى . ولا يبارى . إن الله قد جعل خمس الغائم إليه ، وكانت حصته - عليه الصلاة والسلام - من هذا الخمس الخمس . وقد غنم المسلمون غنائم كثيرة

ولو أراد رسول الله ﷺ أن يجمع مالاً لكان أكثر الخلق مالاً . إن خمس غنائم حنين كان ثمانية آلاف من الغنم وأربعة آلاف وثمانمائة من الجمال وثمانمائة ألفاً أو قية من الفضة وألفاً ومائتين من السبي . هذا الخمس كان لرسول الله ﷺ وقرباه منه خمساً فكم تتصور غنى الرسول ﷺ لو أراد أن يجمع مالاً من غزواته كلها من خير الغنية وقريطة وبني النضير ...

فإذا علمنا أن مقدار حق رسول الله ﷺ المعطى له من هذه الأموال مثل هذا وإذا عرفنا أنه كان بالإمكان استثماره وتتميته ثم علمنا بعد ذلك أن رسول الله ﷺ مات ودرعه مرهونة عند يهودي وأنه أمر أن يوزع ميراثه إن كان على المسلمين ، وأنه ليس لأقاربه من ميراثه شيء ، وأنه ما كان يلبس إلا الخشن ولا ينام إلا على القليل ، وأنه يجوع الأيام وأنه كان يخشى إذا بقي في بيته مال فلم يوزعه على الناس ، إذا عرفت هذا أدركت أي كرم كان عنده ﷺ وأي نفس طاهرة هذه النفس وأدركت أنها النبوة . وأن غير النبوة لا تجود بهذا الجود وترضى مع القدرة بهذه الحياة . إلا إذا كانت نفسها متأسية برسول الله ﷺ . وقد شهد على ذلك أقوى الناس شركاً وعناداً وبغضاً له ﷺ فأسلموا نتيجة ذلك ولعل في ما ذكرناه غنية عن ضرب الأمثلة ولكن في المزيد خيراً .

أخرج الشیخان عن ابن عباس - رضي الله عنه - قال :

" كان رسول الله ﷺ أجود الناس وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقى جبريل عليه السلام . وكان جبريل يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن قال : فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة " .

وأخرج الشیخان عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - قال : " ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قط فقال : لا .. " .

وأخرج الطبراني عن الربيع بنت معوذ بن عفراه - رضي الله عنها - قالت : " بعثني معوذ بن عفراه بصاع من رطب عليه آخر من قثاء زغب إلى رسول الله ﷺ وكان النبي ﷺ ، يحب القثاء ، وكانت حلية قد قدمت من البحرين فملاً يده منها فأعطانيها " .

وفي رواية : " فأعطاني ملء كفي حلياً أو ذهباً " ورواه أحمد بنحوه وزاد : " فقال : تحلي بهذا " .

وأخرج الطبراني في الأوسط عن أم سبلة - رضي الله عنها - " أنها أتت النبي ﷺ بهدية فأبى أزواجه أن يقبلنها ، فقلن : إنما لا نأخذ ، فأمرهن النبي ﷺ فأخذنها ثم أقطعها وادياً .. "

وأخرج ابن جرير عن سهل بن سعد قال : " جاءت امرأة إلى رسول الله ببردة فقالت : يا رسول الله جئتاك أكسوك هذه ، فأخذها رسول الله وكان محتاجاً إليها فلبسها ، فرأها عليه رجل من أصحابه ، فقال : يا رسول الله ما أحسن هذه اكسنديها فقال : نعم . فلما قام رسول الله لامه أصحابه وقالوا : ما أحسنت حين رأيت رسول الله أخذها محتاجاً إليها ثم سألته إياها وقد عرفت أنه لا يسأل شيئاً فيمنعه . قال : والله ما حملني على ذلك إلا رجوت بركتها حين لبسها رسول الله لعلي أكفن فيها " .

وأخرج أحمد عن أنس : " أن رسول الله لم يسأل شيئاً على الإسلام إلا أعطاه ، قال : فاتاه رجل فأمر له بشاء كثير بين جبلين ما شاء الصدقة ، قال : فرجع إلى قومه فقال : يا قوم ! أسلموا فإن محمداً يعطي عطاء ما يخشى الفاقة " .

وزاد في رواية : " فإن كان الرجل ليجيء إلى رسول الله ما يريد إلا الدنيا فما يمسي حتى يكون دينه أحب إليه وأعز عليه من الدنيا وما فيها " .

وأخرج ابن عساكر في قصة إسلام صفوان بن أمية عن عبد الله بن الزبير ما يلي :

" وخرج رسول الله قبل هوازن وخرج معه صفوان وهو كافر وأرسل إليه يستعيره سلاحه فأغار سلاحه مائة درع بأداتها . فقال صفوان : طوعاً أو كرهاً . فقل رسول الله ﷺ : عارية رادة فأغاره . فأمر رسول الله ﷺ فحملها إلى حنين فشهد حنيناً والطائف ثم رجع رسول الله ﷺ إلى الجعرانة في بينما رسول الله يسير في الغائم ينظر إليها - ومعه صفوان ابن أمية فجعل صفوان بن أمية ينظر إلى شعب ملأه نعماً وشاء ورعاً فلما دام النظر إليه ورسول الله ﷺ يرميه فقال : أبا وهب يعجبك هذا الشعب . قال : نعم . قال : هو لك وما فيه .

قال صفوان عند ذلك : ما طابت نفس أحد بمثل هذا إلا نفسنبي ، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، وأسلم مكانه " .

هذه نماذج من الكرم تضيع بجانبها كل قصص الكرم المعروفة المشهورة عند الناس .
كرم يجعل صاحبه يعيش حياة الجهد والمشقة والفاقة ، حياة لا يطيقها أحد غيره هو وعياله ،
مع هذا الملك العريض الواسع ، والسلطان الكبير والواردات الكثيرة ، وزيادة على ذلك أنه لو
أراد من أموال المسلمين شيئاً لخاصة نفسه لكان المسلمون في ذلك كراماً . وله الحق في ذلك
أليس هو مدبر شؤونهم ومعلمهم ، ولكن هذا كله لم يحدث ، إنه كرم في النفس يمنع صاحبه
عن التطلع إلى أموال الآخرين ، وكرم في النفس لا يقوم معه من ملك صاحبه شيء . إنها
أخلاق النبوة العربية الهاشمية المصطفاة سليلة إبراهيم عليه السلام .

* * *

خامساً : نماذج من تواضعه وتياسره ⚡

ننقل هنا ما كتبه صاحب بطل الأبطال تحت هذا العنوان مكتفين به في هذا الباب مع
حذف بعض جمل المقال يقول :

" صفة بينة لبطل الأبطال ⚡ كانت ولا تزال على مر الأجيال بادية واضحة في طبعه
الكريم تلك هي : التياسر والتواضع ، فيهما كان محمد صورة صادقة لكرامة الإنسان يؤتاهما
من صميم نفسه ولا يصطفعها مما يحيط به من ظاهر خادعة متكلفة ، كان محمد التياسر
نفسه يتمثل في الرجل الكامل ، وينبعث من أعماق قلبه ، فيجدد ما يتجمع حوله من زخرف
السيادة والملك وما يتبعهما من الرياء والزينة ، وما يخدع به الناس من قول أو فعل ، كان
محمد قريباً سهلاً هيناً يلقى أبعد الناس وأقربهم وأصحابه وأعداءه وأهل بيته ووفود الملوك بلا
تصنع ولا تكلف ، بل بالحق سافراً ، فكانت أعماله تصدر طبيعية كل منها يدل على خلقه كما
تدل الصورة على صاحبها واسمعوا إلى عدي بن حاتم ..

يقول وقد كان يظن أنه سيلقى ملكاً في المدينة :

" دخلت على محمد وهو في المسجد فسلمت عليه فقال لك من الرجل ؟ "

فقلت : عدي بن حاتم ، ققام وانطلق بي إلى بيته ، فوا الله إنه لعائد بي إليه إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة فاستوقفته فوق طويلاً تكلمه في حاجتها ، قال فقلت : والله ما هذا بملك . قال : ثم مضى بي رسول الله حتى إذا دخل بي إلى بيته تناول وسادة من أدم محسنة ليفاً فقفزها إلى فقال : اجلس على هذه ، قال : قلت : بل أنت فاجلس عليها ، فقال : بل أنت . فجلست عليها وجلس رسول الله على الأرض ، قال : قلت : في نفسي : والله ما هذا بأمر ملك ¹ هذه طبيعة محمد لا طلاء عليها ، يأتيه عدي وقد وقع في بعض أهله قبل ذلك أسرى لجيوشه يأتيه مغلوباً فيجلسه على وسادة ويجلس هو على الأرض ..

ثم انظروا إليه وقد مات ابنه إبراهيم ، فكسفت الشمس فقال الناس : " كسفت الشمس لموت إبراهيم . فيقوم في المسجد : إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تكسفان لموت أحد ولا حياته " ² .

هذه هي النفس البريئة التي تعيش الحق للحق . وتعالى في تواضع عن استغلال وهم من الأوهام .

انظروا كذلك كيف يستأنن على أحد أصحابه وكيف ينصرف ؟

يقول قيس بن سعد :

زارنا رسول الله م في منزلنا فقال : السلام عليكم ورحمة الله ، فرد أبي رداً خفياً ، فقلت لأبي : ألا تأذن لرسول الله ، فقال : زده حتى يكثر علينا من السلام فقال م : السلام عليكم ورحمة الله ، ثم رجع فاتبعه سعد فقال : يا رسول الله ! إني كنت أسمع تسلیمك وأرد عليك رداً خفياً لتكثرون علينا من السلام ، فانصرف معه النبي ، وأمر له سعد بغسل فاغتسل ثم ناوله ملحفة مصبوغة بزعفران فاشتمل بها ثم رفع يديه وهو يقول : اللهم اجعل صلواتك ورحمتك على آل سعد .

¹ ذكرها ابن هشام وأصل القصة عند الترمذى والبخارى .

² أخرجه البخارى ومسلم والنمسائى .

فلما أراد الانصراف قرب له سعد حماراً ، فقال سعد : يا قيس اصحاب رسول الله ، فصحتبه فقال : اركب معي ، فأبيت فقال : إما أن تركب وإما أن تتصرف " .

هذه زيارة سيد العرب والعلم لأحد أنصاره من كبار المدينة تمر في غير حفل ولا ظهور . يذهب إليه ماشياً ، ويعود على حمار يريد أن يردد عليه رفيقه . تلك السجية الظاهرة لم تحل دون أن يكون محمد مطاعاً وطاعته قربة . فإن يحسب الناس أن مظاهر الرياسة والسلطان لازمة لحسن الولاء واستدامة الطاعة ، فلقد كان ولاء سعد والأنصار لمحمد المتواضع مضرب الأمثل في تاريخ الدعوة الإسلامية (بل في كل تاريخ) ولم تكن دعوته قيساً إلى الركوب معه على الحمار أمراً غريباً ، بل كانت هذه عادته يردد على حماره وبلغته وناقته ويعاقب مع رفاقه (المعاقبة أن يركب واحد مرة ويركب الثاني أخرى) قال ابن عباس : إن النبي ﷺ لما قدم مكة استقبله أغيلمةبني عبد المطلب فحمل واحداً بين يديه وأخر خلفه . وقال معاذ : كنت ردد رسول الله على حمار يقال له عفيراً ، وجاء إليه رجل وهو يمشي فقال : اركب ، وتتأخر على حماره ، فقال محمد ﷺ : أنت أحق بصدر دابتك مني إلا أن تجعله لي . فقال الرجل : فإني جعلته لك . ويقول جابر : كان رسول الله يتخلف في السير ، فيزجي الضعيف (أي يسوقه للحق الرفاق) ويردد ، ويدعو لهم .

كان مرة في سفر مع صحبه ، فأرادوا أن يهينوا لهم طعاماً فقسم العمل بينهم ، فقام يجمع الحطب فأرادوا أن يكفوه ذلك فأبى ، لأن الله يبغض الرجل يتعالى على رفاته . ولما وقف عليه أعرابي يرتجف خشية ، ذكره أنه ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد . وخرج على جماعة من أصحابه يتوكأ على عصا ، فقاموا له فقال : لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضاً ...

وكان محمد يكره الإطراء والألقاب : انطلق إليه وفد بنى عامر ، فلما كانوا عنده قالوا : أنت سيدنا ، فقال : السيد الله ، فقالوا : وأفضلنا فضلاً وأعظمنا طولاً ، فقال : قولوا قولكم ، ولا يستجرينكم الشيطان .

كان في تيسره جم التواضع ، وافر الأدب ، يبدأ الناس بالسلام ، وينصرف بكله إلى محدثه صغيراً كان أو كبيراً ، ويكون آخر من يسحب يده إذا صافح ، وإذا تصدق وضع الصدقة في يد المسكين ، وإذا أقبل جلس حين ينتهي المجلس بأصحابه ، لم يكن يأنف من عمل يعمله لقضاء حاجته أو حاجة صاحب أو جار ، فكان يذهب إلى السوق ويحمل بضاعته

ويقول : أنا أولى بحملها ، ولم يستكتر عن عمل الأجير والفاعل سواء كان في بناء مسجد بالمدينة أو في الخندق وهو أمير الجيش يدفع الأحزاب .

وكان محمد كذلك متواضعًا في ملبيه وسكنه ، يلبس كعامة من حوله ويسكن ، وقد وانته الدولة والسلطان في صف من حجرات واطئة مبنية بالبن ، بين كل حجرة وأخرى حائط من جريد النخل ملبس بالطين ومغطى بجلد أو كساء أسود من الشعر ، وكان يجib دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين ، ويقبل عذر المعذر ، وكان يرقع ثوبه ويخصف نعله بيده ، ويخدم نفسه ويعقل بيته ، ويأكل مع الخادم ويقضي حاجة الضعيف والبائس .
كل هذا التواضع والتيسير الصادق من نفسه الطاهرة ، والذي هو صورة صادقة له ، لم ينقص من هيبته ولا محبته ، وقد قيل في وصفه : من رأه بداهة هابه ومن عاشره أحبه .
فكان علاقه أصحابه والناس به علاقة أدب جم وحب ووقار كامل ، لم يتکبر ولكنه لم يرض سوء الأدب ، وكثيراً ما بين لأصحابه كيف يتصرفون في حضرته وفي خطابه .

يقول .. وليم موير ... في وصف تواضعه وتيسيره : " كانت السهولة صورة من حياته كلها ، وكان الذوق والأدب من أظهر صفاتـه في معاملاته لأقل تابعيه ، فالتواضع والشفقة والصبر والإيثار والجود صفات ملزمة لشخصه وجالبة لمحبة جميع من حوله ، فلم يعرف عنه أنه رفض دعوة أقل الناس شأنـاً ، ولا هدية مما صارت ، وما كان يتعالى ويزير في مجلسه ، ولا شعر أحد عنده أنه لا يختصـه بـإقباله وإن كان حقيراً . وكان إذا لقيـ من يفرح بنجاح أصحابـه أمسـك يده وشارـكه سرورـه . وكان مع المصابـ والحزـين شريـكاً شـديدـ العـطفـ حـسنـ المـواسـاةـ وـكانـ فيـ أـوقـاتـ العـسـرـ يـقـسـمـ قـوـتهـ معـ النـاسـ ،ـ وـهـوـ دـائـمـ الاـشـتـغالـ وـالتـفـكـيرـ فيـ رـاحـةـ منـ حـولـهـ وـهـنـاعـتـهـ " .

ولسنا في تاريخ محمد بحاجة على أحد ، فإنـ ما اخـتصـ بهـ منـ بينـ رسـلـ العـالـمـ وأـبطـالـهـ وـضـوحـ حـيـاتهـ وـجـلـاؤـهـ منـ جـمـيعـ نـوـاحـيهـ .ـ وـإـنـماـ سـقـناـ عـبـارـةـ "ـ موـيرـ "ـ هـنـاـ لـشـعـورـنـاـ أـنـهـ صـادـرـةـ عنـ إـعـجابـ صـادـقـ .ـ وـلوـ أـنـنـاـ درـسـنـاـ سـيـرـةـ مـحـمـدـ الـدرـاسـةـ الـلـائـقـ بـهـ ،ـ لـكـانـ الـيـوـمـ حـيـاـ بـيـنـ أـصـحـابـهـ ،ـ وـلـوـجـدـنـاـ الصـورـةـ الـتـيـ طـبـعـهـاـ عـلـىـ الـوـجـوهـ بـعـمـلـهـ وـقـولـهـ لـاـ تـزـالـ وـاضـحةـ وـضـوحـ نـفـسـهـ الـعـظـيمـةـ ،ـ الـمـتـحـلـيـةـ بـأـخـلـاقـ لـاـ يـغـطـيـهاـ الـطـلـاءـ وـلـاـ يـحـبـجـهاـ رـيـاءـ وـلـاـ تـرـىـ إـلـاـ عـلـىـ حـالـةـ وـاحـدةـ فـيـ اللـيـلـ وـالـنـهـارـ وـفـيـ السـرـ وـالـعـلـانـيـةـ وـفـيـ الشـدـةـ وـالـرـخـاءـ وـفـيـ الـضـعـفـ وـالـقـوـةـ ،ـ وـفـيـ السـوقـ وـهـوـ فـيـ شـبـابـهـ ،ـ وـفـيـ الشـيخـوخـةـ وـهـوـ عـلـىـ عـرـشـ النـبـوـةـ وـالـمـلـكـ .ـ

وكان محمد بأخلاقه شخصية من اليسر والتواضع لا تبديل ولا تغيير فيها ، هي النفس التي اتصلت بالسماء وعاشت على الأرض دانية إلى الناس محببة إليهم في كل أطوار حياته . كان بطل الأبطال ^m المثل الأعلى الذي نحن اليوم أحوج ما نكون إليه في نطاق الأخوة الإسلامية ، لا يرفع من شأن أحدهم غنى أو جاه أو حسب أو نسب وإنما هو مؤمن نقى أو فاجر شقي والناس من آدم وآدم من تراب ¹ اهـ.

وأخيراً وبعد أن ضربنا لك أمثلة على خمس من أمهات أخلاق رسول الله ^p وضح بما لا يقبل الشك أن العالم لم يعرف ارتقاً في الأخلاق في كلياتها وجزئياتها وأبعادها وشمولها كله كما عرفه في رسول الله ^p وكما شهد بذلك القرآن العظيم . وأن منتهى آمال الأخلاقيين أن يقلدوه في خلق واحد من أخلاقه وهم لا يرتفون بهذا الخلق إلا إلى بعض ما عنده ^p . وإن الناس جميعاً بكل ما أوتوا من أخلاق لو جمعت أخلاقهم الحميدة فإنهم لا يبلغون أن يحيطوا إلا بالأقل مما كان (عليه الصلاة والسلام) . هذا مع أن الناس لا تخلص أخلاقيتهم مما يعابون عليه بحق . أما رسول الله ^m فكان الأخلاق كلها محضاً . ليس فيها ما يخالط مما يلام عليه الإنسان ، إلا إذا كان اللائم أعمى البصيرة ، يرى الخير شرّاً والشر خيراً ، أو حاسداً أو متكبراً أعماء الحسد والكيد عن رؤية الحقيقة التي لا تغيب عن أحد . وإن أحد عرف الرسول ^p في زمانه من عدو أو صديق إلا وأسلم في ضميره أن الخلق المحمدي لا يرقى إليه مطعن ، وقد مر معك كثير من شهادة الأعداء وهم أعداء بذلك . وقديماً قال أحد آباء زوجاته المشركين وقد بلغته خطبته لبنته ، " هو الفحل لا يجدع أنفه " . وقال عكرمة بن أبي جهل بعد حربه الطويلة لرسول الله هو وأبوه في لحظة إسلامه :

" أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنت عبد الله ورسوله وأنت أبر الناس وأصدق الناس وأوفي الناس ، قال عكرمة : أقول ذلك وإني لمطاطيء رأسي استحياء منه ... "

* * *

2- رجل الأسرة الأولى : أباً وزوجاً (أ)

التعريف بأزواجه عليه الصلة والسلام :

قال ابن هشام : وَكُنْ تَسْعَاً : عائشة بنت أبي بكر ، وحفصة بنت عمر بن الخطاب ، وأم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب ، وأم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة ، وسودة بنت زمعة ابن قيس ، وزينب بنت جحش بن رئاب ، وميمونة بنت الحارث بن حزن ، وجويرية بنت الحارث بن أبي ضرار ، وصفية بنت حيي بن أخطب ، فيما حدثي غير واحد من أهل العلم .

وكان جميع من تزوج رسول الله ﷺ ثلات عشرة . خديجة بنت خويلد وهي أول من تزوج . زوجه إياها أبوها خويلد بن أسد ، ويقال أخوها عمرو بن خويلد ، وأصدقها رسول الله ﷺ عشرين بكرة فولدت لرسول الله ولده كلهم إلا إبراهيم ، وكانت قبله عند أبي هالة بن مالك أحد بنى أسد بن عمرو بن تميم حليفبني عبد الدار ، فولدت له هند بن عمرو بن مخزوم فولدت له عبد الله وجارية . وتزوج رسول الله عائشة بنت أبي بكر الصديق بمكة وهي بنت سبع سنين وبنى بها بالمدينة وهي بنت تسع سنين أو عشر ولم يتزوج رسول الله بكرًا غيرها . زوجه إياها أبوها أبو بكر وأصدقها رسول الله أربع مائة درهم . وتزوج رسول الله سودة بنت زمعة .. زوجه إياها سليم بن عمرو ويقال : أبو حاطب بن عمرو .. وأصدقها رسول الله أربع مائة درهم ، وكانت قبله عند السكران بن عمرو ..

وتزوج رسول الله زينب بنت جحش بن رئاب الأسدية زوجه إياها أخوها أبو أحمد ابن جحش وأصدقها رسول الله أربع مائة درهم وكانت قبله عند زيد بن حارثة مولى رسول الله ففيها أنزل الله تبارك وتعالى {فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرَا زَوْجُنَاكَهَا}¹ . وتزوج رسول الله أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة المخزومية واسمها هند ، زوجه إياها سلمة بن أبي سلمة ابنتها وأصدقها رسول الله فراشاً حشوه ليف وقدحاً وصفحة ومجشة (أي رحي) وكانت قبله عند أبي سلمة بن عبد الأسد واسمها عبد الله فولدت له سلمة وزينب ورقية .

¹ الأحزاب : 50

وتزوج رسول الله حفصة بنت عمر بن الخطاب ، زوجه إياها أبوها عمر بن الخطاب ، وأصدقها رسول الله أربع مائة درهم وكانت قبله عند خنيس بن حذافة السهمي .

وتزوج رسول الله أم حبيبة واسمها رملة بنت أبي سفيان بن حرب زوجه إياها خالد بن سعيد بن العاص وهم بأرض الحبشة وأصدقها النجاشي عن رسول الله أربع مائة دينار وهو الذي كان خطبها على رسول الله وكانت قبله عند عبيد الله بن جحش الأسيدي .

وتزوج رسول الله جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار الخزاعية كانت في سبابا المصطلق من خزاعة فوافقت في السهم لثابت بن قيس بن الشمام الأننصاري فكتابها على نفسها فأتت رسول الله تستعينه في كتابها ، فقال : هل لك في خير من ذلك ؟ قالت : وما هو ؟ قال : أقضى عنك كتابتك وأتزوجك . قالت : نعم فتزوجها ..

وتزوج رسول الله صفية بنت حبي بن أخطب سباهما من خير فاصطفاها لنفسه وأولم رسول الله وليمة ما فيها شحم ولا لحم كان سويقاً وتمراً وكانت قبله عند كنانة بن الريبع بن أبي الحقيق .

وتزوج رسول الله ميمونة بنت الحارث بن حزن .. زوجه إياها العباس بن عبد المطلب وأصدقها العباس عن رسول الله أربع مائة درهم وكانت قبله عند أبي رهم بن عبد العزى .. ويقال إنها التي وهبت نفسها للنبي وذلك أن خطبة النبي انتهت إليها وهي على بعيرها وفقالت : البعير وما عليه الله ولرسوله فأنزل الله تبارك وتعالى {وَأَمْرَأً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلَّهِ يُنَزِّلُ لَهُ مِنَ السَّمَاءِ مَا يَرِيدُ} ¹ ...

وتزوج رسول الله زيت بن خزيمة بنت الحارث ... وكانت تسمى أم المساكين لرحمتها إياهم ورقتها عليهم زوجه إياها قبيصة بن عمرو الهلالي وأصدقها رسول الله أربع مائة درهم وكانت قبله عند عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف ، وكانت قبل عبيدة عند جهم بن عمرو بن الحارث وهو ابن عمها .

¹ الأحزاب : 50

فهؤلاء اللاتي بنى بهن رسول الله إحدى عشرة فمات قبله منها اثنتان خديجة بنت خويلد وزينب بنت خزيمة . وتوفي عن تسع قد ذكرناهن في أول هذا الحديث .

واثنتان لم يدخل بهما أسماء بنت النعمان الكندية تزوجها فوجد بها بياضاً فمتعها وردها إلى أهلها . وعمرة بنت يزيد الكلابية وكانت حديثة عهد بکفر فلما قدمت على رسول الله استعادت من رسول الله فقال رسول الله : منيع عائد الله ، فردها إلى أهلها ، ويقال : إن التي استعادت من رسول الله كندية بنت عم لأسماء بنت النعمان ويقال : إن رسول الله دعاها فقالت : إنا قوم نؤتي ولا نأتي فردها رسول الله إلى أهلها .

القريشيات من أزواج النبي ست : خديجة .. وعائشة .. وحفصة .. وأم حبيبة .. وأم سلمة .. وسودة بنت زمعة .

والعربيات غيرهن ست : زينب بنت جحش .. بن أسد بن خزيمة ، وميمونة بنت الحارث بن هلال بن عامر ... بن صعصعة ... بن قيس بن عيلان ، وزينب بنت خزيمة ... بن هلال بن عامر بن صعصعة ...، وجويرية بنت الحارث بن أبي ضرار الخزاعية ، ثم المصطلقية ، وأسماء بنت النعمان الكندية ، وعمرة بنت يزيد الكلابية .

ومن غير العربيات : صفية بنت حبيبي أخطب من بني النضير .

* * *

(ب)

ويقول الكارون : إن هذا يخدش نبوة محمد م أن يكون له كل هذا العدد من الزوجات .

ونقول : إن الذين يقولون هذا الكلام أحد ثلاثة : إما إنسان له دين غير الإسلام ، وهذا إما أن يكون دينه يقود بتعدد الزوجات أو لا . أو إنسان لا يؤمن بدين .

أما الإنسان الذي لا يؤمن بدين فهذا لا يرى حرجاً أن يعاشر آلاف النساء عشرة الزوجات ، ولا يرى في ذلك بأساً ولا يترجح أن يضاجع أي امرأة ولو كانت أخته ، ولو كانت زوجة صاحبه ، وما أكثر ما سمعنا بأمثال هذا عن هؤلاء . فلا محل لكلام هؤلاء ولا يُنافِشون أصلًا ، لأنه ليس لديهم مقاييس يمكن أن تكون معقوله ينافسهم الإنسان عليها .

وأما الذين لهم دين يقول بالتعدد المطلق فهو لاء كذلك لا نقاش معهم إذ ما أبىح لهم
كيف يحرمونه على غيرهم .

وأما الذين لهم دين يقول بعدم جواز التعدد كالنصارى الحاليين فإننا نقول لهم : إما أن عدم التعدد هو شريعة الله فهذا غير صحيح بدليل تاريخ الكنيسة عندكم ، وأما أن زواج الرسول ﷺ بهذا العدد من النساء يتناهى مع جلال النبوة . فإن الكتب التي بين أيديكم وتومنون بها وهي كتب العهد القديم ، تذكر أن من الأنبياء الذين تومنون بنبوتهم من تزوج بنساء أكثر بكثير من نساء سيدنا محمد عليه السلام . فلماذا تتناقضون ؟

غير محمد من الأنبياء إذا تزوج أكثر منه فذلك لا يتناهى مع جلال النبوة أما هو فيتنافى ؟

إن هذا عمى عن الحقيقة وتجاهل لها ، فإن فرط الرجال ليس عيباً في الرجل بل كمال فيه إذا بقيت ضمن الإطار الذي حددته الله .

إن الأنبياء منفذون لأوامر الله لا يخرجون عنها ، فإذا ما صحت نبوةنبي وتصرف ضمن أوامر الله فلا حرج عليه وقد أشار القرآن إلى هذا المعنى في قصة زواج النبي ﷺ من زينب بنت جحش : {مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةً أَلَّا هُوَ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدْرًا مَقْنُورًا} ¹ .

* * *

(ج)

¹ الأحزاب : 38 .

إن ظاهرة الرسالة ظاهرة نادرة في التاريخ البشري وظهورها بمحمد ﷺ هو الظهور الأخير؛ لذلك فقد خص الله رسوله ﷺ ببعض الأحكام، وكل ما خص به ﷺ كان فيه نوع من التكليف أكبر، ونوع من العبء أكبر، وحتى هذه القضية قضية تعدد زوجاته ، كان غرمها أكبر من غنمها ، وعبوتها أكبر من سهولتها ، لما يترتب على ذلك من القيام بحقوق هذا العدد الكبير . وسياستهن وتدبّر أمورهن من جهد ، مع كثرة أعباء الرسول ﷺ الأخرى من جهاد وتعليم وتدبّر و ...

ولو تأمل الإنسان هذا الموضوع بعمق لوجد أنه دليل مستقل على النبوة والرسالة وذلك لما فيه من الحكم الكثيرة والمصالح المتعددة .

ففقد أحل الله لرسوله ﷺ أن يتزوج ما شاء بقوله :

{يَأَيُّهَا الْنَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي أَتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكْتُ يَمْيِنُكَ مَمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتٍ عَمَّكَ وَبَنَاتٍ حَالَكَ وَبَنَاتٍ خَالَاتٍكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَآمْرَأً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلَّهِ يُ انْ أَرَادَ اللَّهُ يُ انْ يَسْتَكْحِهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ} ¹

ثم أنزل بعد ذلك :

{لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدٍ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكْتُ يَمْيِنُكَ ... } ²

إذن بعد أن تزوج ما تزوج منع من الزواج فلم يتزوج بعد وجعل الله زوجاته أمهات المؤمنين فلا يجوز لأحد أن يتزوج منها بعد ﷺ فما الحكمة في ذلك كله ؟

أولاً : إن رسول الله ﷺ تزوج الكبيرة والصغرى والوسط ، والمرأة في كل طور من أطوارها لها مشاكلها . وسيرة الرسول ﷺ العملية وأجوبته الدائمة بما يتفق مع كل طور ، ونقل هذا كله إلى الأمة الإسلامية مما تقتضيه مهمة الرسالة التي جعلها الله عز وجل مبينة لكل شيء مما يلزم الإنسان .

¹ الأحزاب : 50 .

² الأحزاب : 52 .

ثانياً : إن المرأة في الإسلام مكلفة كالرجل ، ولها وضعها الخاص الذي تختلف فيه عن الرجل . ووجود هذا العدد من النساء يساعد على نقل كل ما له علاقة بالمرأة إلى الأمة الإسلامية . بحيث يكون أمهات المؤمنين أسوة النساء في العالم على اختلاف أحوالهن ومشاربيهن .

ثالثاً : زواج الرسول ﷺ من هؤلاء النساء الطاهرات وفيهن القرشية وغير القرشية وفيهن ذات الأصل اليهودي ، وفيهن من كان أبوها مهاجرين ، وفيهن من كان أبوها كافرين وقت زواجه منها ، ومنهن الصغيرة جداً ، ومنهن الكبيرة جداً يجعل المسلم لا يرى حرجاً في الزواج من أي امرأة أحلها الله له ما دامت متوفقة فيها شروط الحل . ولا يرى حرجاً في التعدد وهو كما سنرى في بعض الأحوال ضرورة لا بد منها .

رابعاً : والرسول ﷺ الذي افترض الله على المسلمين محبته ، قد استل بهذا الزواج سخائم قلوب ما كانت لتزول لو لا هذه الصلاة من القرابة .

خامساً : إن صلة الوصل بين رسول الله ﷺ ونساء الأمة هي زوجاته في الغالب وكثرة زوجاته يجعل دائرة اتصال المسلمات به ﷺ أكثر ، ويجعل إيصال الأحكام إلى النساء متيسراً ، وكل واحدة منهن يألفها بعض النساء بجامع القرابة أو السن . ولو لا ذلك ما استطاعت امرأة واحدة أن تستوعب كل شئون النساء ولو لا ذلك ما رأينا آلاف الأحاديث المروية عن رسول الله ﷺ من طرق زوجاته يتحدثن فيها عن آلاف الأمور كانت تبقى غامضة أو غير معروفة .

سادساً : والإسلام قد أتى بمفاهيم جديدة ومثل كاملة مما له علاقة بالمرأة وكان لا بد أن تهضم هذه المثل الجديدة مجموعة كبيرة من النساء لضمان استيعابها واستمرارها وتأكيدها وهي قلب لمفاهيم سائدة ، وأوضاع فاسدة ، فكان هذا العدد من نساء النبي ﷺ يحقق هذه الحكمة .

سابعاً : ثم كان هذا الزواج حلالاً لا بد منه في بعض الحالات .

فأم سلمة المخزومية بنت سيد مخزوم المهاجرة إلى الحبشة وإلى المدينة والتي استشهد زوجها ، وليس لها أحد ، وهي بنت زاد الركب أبي أمية المخزومي ، وقد خطبها أبو بكر وعمر فرفضت . فهل تبقى وحدها أرملة وهي التي تحملت من أجل الإسلام ما تحملت ، إنه ليس هناك حل أبى وأكرم من ضم رسول الله ﷺ لها إلى نسائه وقد رضيت .

ورملة بنت أبي سفيان زعيم قريش بل العرب كلها ضد رسول الله ﷺ والتي أسلمت وهجرت أباها وقومها وهاجرت إلى الحبشة مع زوجها ثم تتصر زوجها وارتد ومات كافراً ، هذه تترك لمن ؟ أليست مكافأتها في مكانتها أن تكون زوجة رسول الله ﷺ وكم سيكون لهذا أثره في نفس العدو الأكبر أبيها ؟

وزينب بنت جحش التي زوجها رسول الله ﷺ من متبناه زيد ولم تستقم حياتهما وأراد الله أن يهدم قاعدة التبني عند العرب التي لا تقوم على أساس معقول فهدمها بشكل جذري يوم أمر رسول الله ﷺ أن يتزوج زينب مطلقة متبناه زيد .

وجويرية بنت الحارث بنت سيد قومها ، وقومها من أعز بيوت العرب عرضاً ، وقد أسر رجال قومها ، وسيبي نساؤهم ، فتزوجها رسول الله ﷺ فقال الناس : أصهار رسول الله ﷺ وأعتقدوا كل من له علاقة بها .

وصفية بنت حبيبي كان أبوها ملك اليهود تقريباً وزوجها كذلك من ساداتهم وقد هلك أبوها وأخوها وزوجها وكان من سنته ﷺ الرحمة بعزيز قوم ذل فضمها إلى نسائه رحمة بها ، واستل ما بفوادها من حقد كان يمكن أن يعذبها مدى الحياة ، وبزواجه بعائشة وحفصة وثقة الصلة بينه وبين أعظم رجلين بعده من أمته وهذا ..

ثامناً : وفتح بهذا الزواج ﷺ لزعماء أمته أفقاً جديداً لا ينبغي أن يغيب عنهم أثناء العمل المتواصل . وهو تقوية الصلات مع الآخرين بواسطة الزواج . وتوهين حقد المغلوبين بهذه الواسطة ، وقد رأينا المسلمين استفادوا من هذا الجانب استفادة كبيرة .

تاسعاً : ثم هو بهذا الزواج وسلوكه العملي العادل يبين الطريق الصحيح للسلوك الذي ينبغي أن يسلكه من تعدد زوجاته ، بحيث لا تختل قيم الحياة ، ولا تشعر المرأة بعذاب الظلم ، ويعرف النساء على حقوقهن وحدود هذه الحقوق .

وبظهور هذه الحكم وواقعيتها نرى أن هذا الزواج أدل على النبوة . وسنرى هذا بشكل أوضح عندما ندرس سيرته معهن .

* * *

(د)

رأينا أن كل امرأة تزوجها رسول الله ﷺ كان في زواجه مصلحة وحكمة وخلق عظيم وإنسانية عالية ، تلمح بها تصرفات النبوة ومثاليتها وأخلاقيتها ، وسنرى في هذه الفقرة ونحن نستعرض الخطوط العريضة لسيرته ﷺ معهن أن كل خط من هذه الخطوط دليل على النبوة وفيه أرقى أمثلة الأسوة .

" أول هذه الخطوط العدل في السكن والنفقة والكسوة والمبيت والزيارات والوقت . كان بينهن الجميلة جداً والكبيرة والشابة والعادمة الجمال . وما كان يصرفه شيء من الميزات عن العدل ، لكل واحدة منها ليلة ، وإذا زار إحداهن زارهن بعد ذلك جميعهن وحتى وهو في مرضه الأخير وهو أحوج إلى الاستقرار في بيته واحد لم يرض أن يستقر في بيته إلا بعد أن أذن له الجميع بذلك . ومع هذه الدقة في العدل كان يستغفر الله من عدم عدله في المحبة . إذ لا سلطان له على قلبه فيها ، بل السلطان الله فكان ﷺ يقول :

" اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما لا أملك " ¹ .

وكان إذا أراد السفر أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهتمها خرج بها رسول الله معه . قالت أم سلمة " لما تزوجني رسول الله ﷺ أقام عندي ثلاثة وقال : إنه ليس بك هوان على أهلك إن شئت سبعة لك وإن سبعة لك سبعة لنسائي " ² .

وعن أنس : " من السنة إذا تزوج البكر على الثيب أقام عندها سبعاً ثم قسم وإذا تزوج الثيب أقام عندها ثلاثة ثم قسم " ³ .

¹ رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذى .

² أخرجه مالك ومسلم وأبو داود والنسائي .

³ أخرجه السنّة إلا النسائي .

* وثاني هذه الخطوط : التكافؤ في الإنسانية . فمن سنن الإسلام أن المرأة كالرجل في الإنسان إلا أن زوجها رئيسها {ولَهُنَّ مِثْلُ الذِّي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ} ¹
وهذا شيء غير مأثور عند الغرب ولا في زمان نزول الإسلام ولكن دين الله .

ومن أمثلة هذا التكافؤ في حياة الرسول ﷺ العملية ، أنه كان ينزل على مشورة بعض نسائه وأنه كان يسمح لهن بمناقشته ، وإذا تزوج امرأة فبرضاها .

يوم الحديبية أمر المسلمين أن يحلقوا وينحرروا بعد الصلح ليتحلوا . فبقوا واجرين فدخل على زوجه أم سلمة وهو متأثر فسألته ، فأخبرها فقالت : يا رسول الله أتحب ذلك ؟ أخرج ثم لا تكلم أحداً منهم حتى تتحر بدنك وتدعو حلقك فيحلفك ، فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك ، فلما رأى المسلمون ما صنع النبي ﷺ زاح عنهم الذهول فقاموا عجلين ينحرون هديهم ويحلق بعضهم بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل الآخر .. " راجع قصة ذلك في صحيح البخاري .

وقال عمر : فتغضبت يوماً علي امرأتي فإذا هي تراجعني فأنكرت أن تراجعني فاللت : ما تذكر أن أرجاعك فوالله إن أزواج النبي ﷺ ليتراجعنه وتهجره إداهن اليوم إلى الليل قال فانطلقـت فدخلـت على حـصة فـقلـت : أـترـاجـعـين رسـول الله ﷺ قـالـت : نـعـم . قـلت : وـتـهـجـرـهـ إـدـاهـنـ الـيـوـمـ إـلـىـ الـلـيـلـ ؟ قـالـتـ نـعـمـ . قـلتـ : قـدـ خـابـ مـنـ فـعـلـ ذـلـكـ مـنـكـ وـخـسـرـ ² .

وقال أنس في الحديث عن صفية : " فكان ﷺ يحيى لها وراء بعباءة ثم يجلس عند بعيه فيضع ركبته فتضع صفية - رضي الله عنها - رجلها على ركبته حتى تركب ³ .

فإذا ما عرفت أنه في عصر الفروسيـةـ فيـ أـورـوبـاـ الـذـيـ يـعـتـبـرـ العـصـرـ الـذـهـبـيـ لـلـمـرـأـةـ ماـ كانتـ تـجـرـؤـ اـمـرـأـةـ عـلـىـ أـنـ تـقـدـمـ مشـورـةـ لـزـوـجـهـ ،ـ أـدـرـكـتـ أـنـ تـصـرـفـ مـحـمـدـ رسـولـ اللهـ ﷺ لـيـسـ وـلـيـدـ بـيـئـتـهـ وـلـاـ زـمـانـهـ وـإـنـمـاـ هوـ تـصـرـفـ الـأـنـبـيـاءـ .

¹ البقرة : 128 .

² أخرجه الإمام أحمد .

³ أخرجه الشیخان وأبو داود النسائي .

ينقل العقاد هذه الحادثة ويلقى عليها من كتاب لغريبي يتحدث عن المرأة في عصر الفروسية قال :

يروي (أي صاحب الكتاب) فيها أن الملكة بلانشفلور ذهبت إلى قرينه الملك بيبيين تسلّله معونة أهل اللورين، فأصغى إليها الملك ثم استشاط غضباً ولطمها على أنفها بجمع يده. فسقطت منها أربع قطرات من الدم وصاحت تقول : شكرأ لك ، إن أرضاك هذا فأعطني من يدك لطمة أخرى حين شاء .

ولم تكن هذه حادثة مفردة ، لأن الكلمات على هذا النحو كثيراً ما تتكرر لأنها صيغة محفوظة ، وكأنما كانت تلك اللطمة بقبضه اليـد جـراء كل امرأـة جـسـرت في عـهد الفـروـسـيـة على أن تواجه زوجها بـمشـورـة .

ولكن المظاهر الأعظم من مظاهر هذا التكافؤ . أن رسول الله ﷺ ما كان يستنكف داخل بيته أن يقوم بحاجته ، وأن يخدم نفسه ، بل إنه كان يقوم أحياناً بحاجة أهله ، وكان يقول :

" خدمتك زوجتك صدقة ^١ ، فقيام المرأة بشأن البيت ليس عاراً يترفع عنه الرجل ، بل هو كمال يتطلّل إليه الرجل ولا يأنف ، وكيف يأنف المسلم وقد فعله رسول الله ﷺ .

والمراة تحب من زوجها أن يكون جميلاً متجملاً ، وأن يقضي حقها الجنسي ، وأن يكون لطيفاً معها مؤنساً لها ، وهذا كله خط آخر من خطوط معاملة الرسول (ﷺ) لأزواجه .

فقد كان أجمل الناس وكان مع هذا الجمال أنيقاً ، لا يطيق ما يتتّافى مع هذه الأنّافة مع بساطة المظاهر وروي عنه قوله : اغسلوا ثيابكم وخدوا من شعوركم واستاكوا وتزيينا وتنطفوا فإنّ بنى إسرائيل لم يكونوا يفعلون ذلك فزنـت نـسـاؤـهـم ^٢ . ويقول " فإذا جامـعـ أحـدـكـمـ أـهـلـهـ فـليـصـدقـهـ ثـمـ إـذـاـ قـضـىـ حاجـتـهـ قـبـلـ أـنـ تـقـضـىـ حاجـتـهـ فـلاـ يـعـجـلـهـ حـتـىـ تـقـضـىـ حاجـتـهـ " ^٣ . وكان يفعل هذا كله وأكثر منه فقد ورد في وصفه إذا خلا مع أهله :

^١ للديلمي في مسند الفردوس وحسنه السيوطي .

^٢ ابن عساكر عن علي بسند ضعيف .

^٣ أخرجه أبو يعلى وعبد الرزاق في الجامع عن أنس .

" كان ألين الناس ضحاكاً بساماً " .¹

" كان من أفكه الناس مع نسائه " .²

" كان رسول الله ﷺ يدور على نسائه في الساعة الواحدة من الليل والنهار وهن إحدى عشر . قيل لأنس وكان يطيقه ؟³

قال : كنا نتحدث أنه أعطي قوة ثلاثين في الجماع .⁴

وكان من آداب الإسلام أنه إذا كان للرجل زوجة أن يعفها . أي أن يجامعها حتى لا تشعر بحاجة إلى الرجال .

وجعل رسول الله ﷺ مقياس الأخلاق معاملة الرجل لزوجته إذ أنها الضعيفة تحت يده ، الدائمة العشرة لها ، فكان من كلامه " خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي " ⁵ وما ضرب امرأة قط وكان يؤنب من يضرب .

" أما يستحي أحدهم أن يضرب امرأته كما يضرب العبد ؟ يضربها أول النهار ثم يجامعها آخره " .⁶

4- والخط العريض الرابع في معاملته لزوجاته حسن سياستهن وتأدبيهن :

كن يغرن وكان يتحمل هذه الغيرة إلا أن تخرج عن الخط السوي فيؤدب .

تقول عائشة - رضي الله عنها - : ما رأيت صانعة طعام مثل صفية صنعت لرسول الله ﷺ طعاماً وهو في بيتي ، فأخذني أفل - أي قشعريرة - فارتعدت من شدة الغير فكسرت

¹ أخرجه الخرائطي والحاكم .

² أخرجه ابن عساكر عن أنس ضعيف الإسناد ومعناه صحيح .

³ أخرجه ابن سعد وابن عساكر عن عائشة - رضي الله عنها - ضعيف الإسناد ومعناه صحيح .

⁴ راجع أحمد والسنن الأربعية والبيهقي والحديث صحيح .

⁵ أخرجه الترمذى .

⁶ للشixin والترمذى .

الإماء ثم ندمت قلت : يا رسول الله ما كفارة ما صنعت ؟ قال إماء مثل إماء وطعام مثل طعام^١ .

وكان يداري قلوبهن حتى تصفوا . تقول صفيه : وما كان أبغض إلي من رسول الله m قتل أبي وزوجي فما زال يعتذر إلي وقال : يا صفيه : إن أباك ألب علي العرب وفعل وفعل حتى ذهب ذلك من نفسي^٢ .

وكن يأخذن حريتهن في الكلام فيسمع ويرد ويؤدب :

كان رسول الله m يحفظ لخديجة ذكرها بشكل منقطع النظير فهو آية الوفاء في دنيا المروءة وكان من وفائه لها أن بير كل امرأة كانت لها صلة بخديجة وأنه كان يذكرها بكل خير حتى أن عائشة لم تغرس امرأة كما غارت من خديجة وهي متوفاة قالت له مرة :

خديجة خديجة لكانما ليس في الأرض امرأة إلا خديجة . فتركها فترة ثم عاد وأمها أم رومان عندها فقالت له أمها : يا رسول الله مالك ولعائشة : أنها حديثة السن وأنت أحق من يتجاوز عنها فلم يدعها حتى أخذ بشدقها معاذباً وهو يقول لها :

الست القائلة لأنما ليس على وجه الأرض امرأة إلا خديجة^٣ ؟

وقالت له مرة : ما تذكر من عجوز حمراء الشدتين قد بذلك الله خيراً منها فأسكنتها قائلًا :

" والله ما أبدلني الله خيراً منها . آمنت بي حين كذبني الناس ، واستتي بمالها حين حرماني الناس ، ورزقت منها الولد وحرمته من غيرها "^٤ .

^١ أخرجه أبو داود والنسائي .

^٢ أخرجه الهيثمي ج 9 ص 251 ورجاله رجال الصحيح .

^٣ أخرجه الشيخان .

^٤ أخرج المحب الطبرى في السمعط الشمين - 15-

وقالت : دخل علي يوماً رسول الله م فقلت : أين كنت منذ اليوم ؟ قال يا حميرة كنت عند أم سلمة . قلت ما تشعب من أم سلمة فتبسم ثم قلت يا رسول الله ألا تخبرني عنك لو أنك نزلت بعذوتين إداهما لم ترع والأخرى قد رعىت أيهما كنت ترعى ؟ قال : التي لم ترع قلت فأنا ليس كأحد من نسائك ، كل امرأة من نسائك كانت عند رجل غيري فتبسم عليه السلام^١ .

وكن يمزحن فيشاركون سرورهن .

أخرج أبو يعلى عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : أتيت النبي م بحريرة قد طبختها له فقلت لسودة - رضي الله عنها - والنبي M بيدي وبينها : كلی فأبت فقلت لتأكلين أو لأنطخن وجهك فأبت فوضعت يدي في الحريرة فطلبت وجهها فضحك النبي M فوضع بيده لها وقال لها : الطخي وجهها فضحك النبي M لها .

وفي رواية فخف لها ركبته لتسقى مني فتناولت من الصحفة شيئاً فمسحت به وجهي ورسول الله M يضحك .

والخط العريض الخامس أنه صلى الله عليه وآله وسلم رفعهن إلى أخلاق النبوة ولم يستطعن أن يحدن به عن طريقه ، وأعظم حادث يصور لنا هذا الوضع هو حادث تخبيهن إذ هن طلين أن يوسع عليهن في المعيشة والنفقة ، فكانت سنة رسول الله M الإعراض عن الدنيا وطلب الآخرة ، وكانت النتيجة أن خيرهن بين البقاء عنده ، والرضي عن هذه الحياة الهدافة إلى اليوم الآخر . أو الطلاق ، وأمرهن بيدهن ، وهذا غاية العدل وغاية الحزم .

وهذه هي القصة كما يرويها بعض الصحابة :

أخرج أحمد عن جابر - رضي الله عنه - قال :

أقبل أبو بكر - رضي الله عنه - يستأذن على رسول الله M والناس ببابه جلوس والنبي M جالس فلم يؤذن له ثم أقبل عمر - رضي الله عنه - فاستأذن فلم يؤذن له ثم أذن

¹ أخرجه البخاري .

لأبي بكر وعمر فدخلوا والنبي ﷺ جالس وحوله نساءه وهو مساكت فقال عمر لأكلمن النبي لعله يضحك فقال عمر يا رسول الله لو رأيت ابنة زيد امرأة عمر سألتني النفقة آنفاً فوجأت عنقها ؛ فضحك النبي حتى بدت نواجهه وقال : هن حولي يسألني النفقة . فقام أبو بكر إلى عائشة ليضربها وقام عمر إلى حفصة كلاهما يقولان :

تسألان النبي ﷺ ما ليس عنده ، فنهماه رسمه ﷺ فقلن لك والله لا نسأل رسول الله بعد هذا المجلس ما ليس عنده ، قال وأنزل الله عز وجل الخيار فبدأ بعائشة فقال : " إني أذكر لك أمراً ما أحب أن تعجلني فيه حتى تستأمرني أبويك قالت وما هو ؟ قال فتلا عليهما {يأيها النبئي قل لازواجك إن كنثن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالىن أمتعنكم وأسر حكمن سراحكم جميلاً * وإن كنثن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكم أجراً عظيماً }¹ .

قالت : أفيك أستأمر أبويا ؟ بل أختار الله ورسوله وأسائلك أن لا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت فقال إن الله تعالى لم يبعثني معنفاً ولكنني بعثتي معلماً ميسراً لا تسألي امرأة منهن مما اخترت إلا أخبرتها .

وروى أحمد من حديث طوويل عن ابن عباس عن عمر قال :

قالت : الله أكبر لو رأيتنا يا رسول الله وكنا عشر قريشاً قوماً نغلب النساء فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساءهم فطفقن نساؤنا يتعلمون من نسائهم فتضطربت علي امرأتي يوماً فإذا هي تراجعني فأنكرت أن تراجعني فقالت :

ما تتذكر أن أرجعك فوالله إن أزواج رسول الله ليتراجعونه وتهجره إداهن اليوم إلى الليل . فقلت قد خاب من فعل ذلك مهن وخسر ، أفتؤمن إداهن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله ، فإذا هي هلكت . فتبسم رسول الله فقلت يا رسول الله فدخلت على حفصة فقلت : لا يغرك أن كانت جارتك هي أوسن وأحب إلى رسول الله ﷺ منك فتبسم أخرى فقلت : أستأنس يا رسول الله ؟

قال : نعم .

¹ . الأحزاب : 28 ، 29

فجلست فرفعت رأسي في البيت فوالله ما رأيت فيه شيئاً يرد البصر إلا أهبة (جلوداً) ثلاثة فقلت : ادع يا رسول الله أن يوسع على أمتك فقد وسع على فارس والروم وهم لا يعبدون الله فاستوى جالساً ثم قال : أفي شك أنت يا ابن الخطاب ؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا .

فقلت : استغفر لي يا رسول الله .

وكان أقسم أن لا يدخل عليهن شهراً من شدة موجدهن عليهن حتى عاتبه الله عز وجل .

وفي كل ما نقلناه لك من هذه الخطوط تجد الزوج المثالى والقدوة العليا في كل أمر . ولا يفوتنا قبل الانتهاء من هذه الفقرة أن نذكر أن الرسول ﷺ الذي كان عنده هذا العدد من النساء ، والذي كان يقوم بواجبه تجاههن . والذي كان يعطيهن من ذاته ما رأينا . هو الذي كان يقوم بالأعباء الضخمة التي لم يتحمل مثلها رجل غيره . من عبادة إلى سياسة إلى قتال إلى تدبير أمر ، ومن عادة الناس أن يشغلهم شيء من هذا عن أهليهم ، ولكنه الكمال عند رسول الله ﷺ حيث تقوم الواجبات كلها ومع الواجبات غيرها ولا يؤثر القيام بإحداها على غيره من دلائل النبوة والرسالة .

وأخيراً :

يقول العقاد : قال لنا بعض المستشرقين إن تسع زوجات لدليل على فرط الميل الجنسي .

قلنا : إنك لا تصف السيد المسيح بأنه قاصر الجنسية لأنه لم يتزوج قط ، فلا ينبغي أن تصف محمداً بأنه مفرط الجنسية لأنه جمع بين تسع نساء .

ونحن قبل كل شيء لا نرى ضيراً على الرجل العظيم أن يحب امرأة ، ويشعر متعتها : هذا سواء الفطرة لا عيب فيه ، وما من فطرة هي أعمق في طبائع الأحياء عامة من فطرة

الجنسين ، والقاء الذكر والأنثى ، فهي الغريرة التي تلهم الحي في كل طبقة من طبقات الحياة ما لا تلهمه غريرة أخرى .

أرأيت إلى السمك وهو يعبر الماء الملح في موسمه المعلوم فيطوي ألوافاً من الفراسخ ليصل إلى فرجة نهر عذب يجدد فيها نسله ثم يعود أدراجه ؟ أرأيت إلى العصفور وهو يبني عشه ويعود من هجرته إلى وطنه ؟ أرأيت إلى الزهر وهو يفتح ليغري الطير والنحل بنقل لفاحه ؟

أرأيت إلى سنة الحياة في كل طبقة من طبقات الأحياء ؟ ما هي سنتها إن لم تكن هي سنة الألفة بين الجنسين ؟ وأين يكون سواء الفطرة إن لم يكن على هذا السواء ؟

فحب المرأة لا معابة فيه .

هذا هو سواء الفطرة لا مراء .

وإنما المعابة أن يطغى هذا الحب حتى يخرج عن سوائه وحتى يشغل المرأة عن غرضه ، وحتى يكلفه شططاً في طلابه . فهو عند ذلك مسخ للفطرة المستقيمة يعاب كما يعاب الجور في جميع الطياع .

فمن الذي يعلم ما صنع النبي في حياته ، ثم يقع في روعه أن المرأة شغلته عن عمل كبير أو عن عمل صغيرة ؟ .

من من بناة التاريخ قد بنى في حياته وبعد مماته تاريخاً أعظم من تاريخ الدعوة المحمدية ، والدول الإسلامية ؟ ومن ذا الذي يقول إن هذا عمل رجل مشغول ؟

عم شغلته المرأة ؟

ومن ذا تفرغ لعظيم من المسعى فبلغ فيه شأنه شاؤ محمد في مسعاه ؟

فإن كانت عظمة الرجل قد أتاحت له أن يعطي الدعوة حقها ويعطي المرأة حقها فالعظمة رجحان وليس بنقص ، وهذا الاستيفاء السليم كمال وليس بعيوب . ورسالة محمد إذن هي الرسالة التي يتلقاها أناس خلقو للحياة ، ولم يخلقوا نابذين لها ولا منبذين منها ، فليست شريعة هؤلاء بالشريعة المطلوبة ، فيما يخاطب به عامة الناس في عامة العصور ، وأعجب شيء أن يقال عن النبي أنه استسلم للذات الحس وقد أوشك أن يطلق نساءه أو يخирهن في الطلاق لأنهن طلبن إليه المزيد من النفقه وهو لا يستطيعها .

* * *

نساء محمد يشكون قلة النفقه والزينة ، ولو شاء لأغدق عليهن النعمه وأغرقهن في الحرير والذهب وأطابيب الملاذات .

أهذا فعل رجل يستسلم للذات حسه ، أما كان عليه يسيراً أن يفرض لنفسه ولأهلة من الأنفال والغائم ما يرضيهن ولا يغضب المسلمين ، وهم موقفون أن إرادة الرسول من إرادة الله ؟

وماذا كلفه الاحتفاظ بالنساء حتى يقال إنه كان يفرط في ميله إلى النساء ؟ هل كلفه أن يخالف ما يحمد من سنته أو يخالف ما يحمد من سيرته أو يتربص فيما يرضاه أتباعه ولا ينكرونه عليه ؟ لم يكلفه شيئاً من ذلك ، ولم يشغله عن جليل أعماله وصغرها ، ولم نر هنا رجلاً تغلبه لذات الحس كما يزعم المشهرون . بلرأينا رجلاً يغلب تلك الملاذات في طعامه ومعيشته وفي ميله إلى نسائه . فيحفظها بما يملك منها ولا يأذن لها أن تسومه ضريبة مفروضة عليه ، ولو كانت هذه الضريبة بسطة في العيش قد ينالها أصغر المسلمين ، ولا شك في قدرة النبي عليها لو أراد .

* * *

وهكذا نبحث عن الرجل الذي توهمه المشهرون من مؤرخي أوربا فلانرى إلا صورة من أعجب الصور التي تقع في وهم واهم .

نرى رجلاً كان يستطيع أن يعيش كما يعيش الملوك ويقنع مع هذا بمعيشة الفقراء ثم
يقال إنه رجل غلبه لذاته حسه؟ .

ونرى رجلاً تأبى عليه نساؤه لأنها لا يعطيهن الزينة التي يتحلى بها لعينيه ثم يقال
إنه رجل غلبه لذاته حسه؟ .

ونرى رجلاً آثر معيشة الكفاف والقناعة على إرضاء نسائه بالتوسيع التي كانت في
وسعه ثم يقال إنه رجل غلبه لذاته حسه .

ذلك كلام لو شاء المشهرون أن يرسلوه كلاماً مضحكاً مستغرباً لأفلحوا فيما قالوه ...
أصبح فلاح .

ويزيد في غرابة أن الرجل الذي توهموه ذلك التوهם لم يكن مجاهلاً قبل زواجه ولا
بعد زواجه فتختبط فيه الظنون ذلك الخبط الذريع . فمحمد كان معروفاً الشباب قبل قيامه
بالدعوة الدينية كأشهر ما يعرف فتى من قريش وأهل مكة .

كان معروفاً من صباح إلى كهولته ، فلم يعرف أنه استلم لذاته الحس في ريعان صباه
، ولم يسمع عنه أنه لها كما كان يلهم الفتيا حين كانت الجاهلية تبيح ما لا يباح ... بل عرف
بالطهر والأمانة واشتهر بالجد والرصانة ... وقام بالدعوة بعدها فلم يقل أحد من شائنيه
والناعين عليه والمنقبين وراءه عن أهون الهنات : تعالىوا يا قوم فانتظروا هذا الفتى الذي كان
من شأنه مع النساء كيت وكيت يدعوكم اليوم إلى الطهارة والعفة نبذ الشهوات ... كلام يقل
أحد هذا قط من شائنيه وهم عديد لا يحصى ولو كان لقوله موضوع لجرى على لسان ألف
قائل .

إلا أن المشهرين المتقولين نسوا كل حقيقة من حقائق هذه الحياة الزوجية التي سجلت
لنا بأدق تفصياتها ، ولم يذكروا إلا شيئاً واحداً حرفوه عن معناه ودلالته ، ليفتوا على النبي
ما طاب لهم أن يفتروه وذاك أنه جمع في وقت واحد بين تسع زوجات .

نسوا أنه اتسم بالطهر والعفة في شبابه فلم يستبع قط لنفسه ما كان شباب الجاهلية
يستبيحونه لأنفسهم من اللهو المطروح لكل طارق في غير مشقة عندهم ولا معابة .

ونسوا أنه بقي إلى نحو الخامسة والعشرين لم يتصف في طلب الزواج الحال وهو ميسر له تيسيره لكل فتى وسيم حبيب منظور إليه بين الأسر وبين الفتيات .

ونسوا أنه لما تزوج في تلك السن كان زواجه بسيدة في نحو الأربعين اكتفي بها إلى أن توفيت وهو يجاوز الخمسين .

نسوا أنه اختار أحساباً في حاجة إلى التألف أو الرعاية ولم يختر جمالاً مطلوباً للمتاع .

ونسوا أن الرجل الذي وصفوه بما وصفوا من تعليب لذات الحس لم يكن يشع في بعض أيامه من خبز الشعير ولم يجاوز حياة القناعة قط لإرضاء نسائه ... ولو شاء لما كلفه إرضاؤهن غير القليل بالقياس إلى ما في بيته .

نسوا كل هذا وهو ثابت في التاريخ ثبوت عدد النساء اللاتي جمع بينهن عليه الصلاة والسلام فلماذا نسوه ؟

نسوا لأنهم أرادوا أن يعيروا وأن يتقولوا وأن ينحرفوا عن الحقيقة وقد كانت رؤية الحقيقة أيسر لهم من الإغضاء عنها ، لو أنهم أرادوها وتعلموا ذكرها ولم يتعمدوا نسيانها .

* * *

وبعد فهلرأيت زوجاً مثل محمد p بين الأزواج ؛ إنك لم تر وكذلك لن ترى مثله أبداً بين الآباء :

أخرج مسلم عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال :

" ما رأيت أحداً كان أرحم بالعيال من رسول الله p :

قال : كان إبراهيم (أي ابنه الصغير) مسترضاً له في عوالي المدينة فكان ينطلق ونحن معه فيدخل البيت وإنه (أي البيت) ليدخل وكان ظهره قينا فياخذه فيقبله ثم يرجع " .

وأخرج أبو يعلى عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال :رأيت الحسن والحسين رضي الله عنهم على عاتقي النبي ﷺ فقلت نعم الفرس تحكم . فقال النبي ﷺ ونعم الفارسان هما " .

وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس - رضي الله عنه - قال : خرج النبي ﷺ حامل الحسن - رضي الله عنه - على عاتقه فقال له رجل : يا غلام نعم المركب ركب . فقال النبي ونعم الراكب هو .

وأخرج الطبراني عن البراء بن عازب قال : كان رسول الله ﷺ يصلّي فجاء الحسن والحسين أو أحدهما فركب على ظهره فكان إذا رفع رأسه قال بيده فأمسكه أو أمسكهما قال : نعم المطية مطيتكما " .

وأخرج الطبراني عن جابر قال دخلت على النبي ﷺ وهو يمشي على أربعة وعلى ظهره الحسن والحسين (رضي الله عنهم) وهو يقول :

" نعم الجمل جملكم ونعم العدلان أنتما " .

وأخرج الطبراني عن جابر - رضي الله عنه - قال : " كنا مع رسول الله ﷺ فدعينا إلى طعام فإذا الحسين - رضي الله عنه - يلعب في الطريق مع صبيان فأسرع النبي ﷺ أمام القوم ثم بسط يده فجعل حسين يفر هنا وهناك فيضاحكه رسول الله ﷺ حتى أخذه فجعل إحدى يديه في ذقنه والأخرى بين رأسه وأذنيه ثم اعتنقه قبله ثم قال : حسين مني وأنا منه أحب الله من أحبه . الحسن والحسين سبطان من الأسباط " .

رأيت رسول الله ﷺ في جلاله العظيم كيف يعطي الأولاد حقهم وليس أولاده فقط بل كل الأولاد .

أخرج الإمام أحمد عن عبد الله بن الحارث - رضي الله عنه - قال : كان رسول الله ﷺ يصف عبد الله وعبيده وكثير بن عباس - رضي الله عنهم - ثم يقول : من سبق إلي فله كذا وكذا قال : فيستبقون إليه فيقعون على ظهره وصدره فيقبلهم ويلترم " .

وأخرج ابن عساكر عن عبد الله بن جعفر - رضي الله عنه - قال : كان النبي ﷺ إذا قدم من سفر تلقى بصبيان أهل بيته وإنه جاء من سفر فسيق بي إليه فحملني بين يديه ثم جيء بأحد ابني فاطمة الحسن أو الحسين - رضي الله عنه - فأرده خلفه فدخلنا المدينة ثلاثة على دابة .

وأخرج ابن عساكر أيضاً عن عبد الله بن جعفر قال : مر بي رسول الله ﷺ وأنا ألعب مع الصبيان وحملني أنا وغلاماً من العباس - رضي الله عنه - على الدابة فكنا ثلاثة .

وأخرج ابن عساكر أيضاً : عنه قال : لورأيتني وقتما وعبد الله ابني عباس - رضي الله عنهم - ونحن صبيان نلعب إذ مر رسول الله ﷺ على دابة فقال ؛ ارفعوا هذا إلى فعلاني أمامه وقال : ارفعوا هذا إلى فجعله وراءه وكان عبيد الله أحب إلى عباس من قثم فما استحينا من عمه أن حمل قتما وتركه قال : ثم مسح على رأسي ثلاثة كلما مسح قال : اللهم اخلف جعفراً في ولده " .

ولا تحسب أن هذا لإكرام للصبيان فقط بل للبنات والصبيان :

أخرج البخاري عن أبي قتادة قال خرج علينا النبي ﷺ وأمامه بنت أبي العاص - رضي الله عنها - (أي بنت بنته) على عاتقه فصلى فإذا رکع وضع وإذا رفع رفعها " . فهذه سيرته مع الأطفال ذكوراً وإناثاً .

أخرج الطبراني عن السائب بن يزيد - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قبل حسناً - رضي الله عنه - فقال له الأقرع بن حابس لقد ولد لي عشر ما قبلت واحداً منهم فقال النبي ﷺ لا يرحم الله من لا يرحم الناس " .

وأخرج أبو يعلى عن أنس - رضي الله عنه - قال كان رسول الله يسجد فيجيء
الحسن أو الحسين فيركب ظهره فيطيل السجود فيقال : يا نبي الله أطلت السجود فيقول :
ارتجلني ابن فكرهت أن أجعله " .

* * *

والشعب الذي كان يئد البنات ويرى أن موت البنات من المكرمات ، ولا يرى أحدهم
البنت شيئاً ، ويستقبل ولادتها هذا الاستقبال السيء الذي وصفه القرآن {وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ
بِالْأُنْثَىٰ طَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمَ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيْمَسِكُهُ عَلَىٰ هُونَ
أَمْ يَدْسُهُ فِي الْتُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ} ¹ .

هذا الشعب هو الذي كان منه رسول الله ﷺ وكان يعامل بناته بما سنقصه عليك فهل
ترها بعد ما تقرؤها أخلاقاً وليدة بيئتها ، أو أنها النبوة والتربية الإلهية لصاحبتها ، وحاشا أن
تكون إلا الثانية .

أخرج البخاري عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : ما رأيت أحداً من الناس كان
أشبه بالنبي ﷺ كلاماً ولا حديثاً ولا جلسة من فاطمة - رضي الله عنها - قالت : وكان النبي
ﷺ إذا رآها وقد أقبلت رحب بها ثم قام إليها فقبلها ثم أخذ بيدها فجاء بها حتى يجلسها في
مكانه وكانت إذا أتتها النبي ﷺ رحب به ثم قامت إليه فقبلته . وإنها دخلت على النبي ﷺ في
مرضه الذي قبض فيه فرحب بها وقبلها وأسر إليها فبكت ثم أسر إليها فضحت " ولما سألتها
عائشة عما أسر لها رفضت أن تجيبها حتى إذا قبض ﷺ قالت فاطمة " أسر إلى فقال : إني
ميت فبكين ثم أسر إلى فقال : إنك أول أهلي بي لحوقاً فسررت بذلك وأعجبني " .

وماتت فاطمة بعد ستة أشهر من وفاة رسول الله ﷺ .

وأخرج الترمذى عن جمیع بن عمیر التیمی قال : " دخلت مع عمتی عائشة -
رضی الله عنہا - فسئللت أي النساء کان أحب إلى رسول الله ﷺ ؟ قالت فاطمة : فقيل من
الرجال ؟ قالت لك زوجها إن کان ما علمت صواماً قواماً " .

¹ النحل : 58 ، 59

وعن المسور بن مخرمة - رضي الله عنه - قال : " خطب علي بنت أبي جهل وعنده فاطمة فسمعت بذلك فأالت النبي ﷺ فقالت يزعم قومك أنك لا تغضب لبنائك وهذا على ناكح ابنة أبي جهل فقام النبي ﷺ فتشهد وقال أما بعد فإني أنكحت أبي العاص بن الربيع فحدثي وصدقني وإن فاطمة بضعة مني يربيني ما يربيها والله لا تجتمع بنت رسول الله ﷺ وبنت عدو الله أبداً قال فترك علي الخطبة .

وفي رواية أخرى قال : " سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو على المنبر : إنبني هشام بن المغيرة استأذنوني في أن ينكحوا ابنته علي بن أبي طالب فلا آذن ثم لا آذن إلا أن يريد ابن أبي طالب أن يطلق ابنته وينكح ابنته فلما هي بضعة مني يربيني ما يربيها ويؤذنني ما آذها " أخرجه الخمسة إلا النسائي .

رأيت برأًّاً يبلغ بالبنات من هذا البر وما ذكرناه نموذج وإلا فأي بنت من بناته الأربع كانت تلقي من العطف والبر ما تلقيه فاطمة - رضي الله عنه - إنها كمال الأبوة في أكمل نبي .

* * *

ولكن الشيء الأدل في هذا الباب على أخلاق النبوة مع هذه المحبة أنه ما كان ليرضى لبنته أن تعيش إلا كما يعيش أكثر الناس فقرأً . ذلك طاب الحياة التي يريدها رسول الله ﷺ لنفسه ولأهله ، لا تشغلهم الدنيا عن الآخرة ، وحتى تتحمص أنفسهم لله واليوم الآخر . تأمل هذه الأمثلة وتذكر أن أحب الخلق إليه بشهادة عائشة هي فاطمة :

" أخرج البيهقي في الدلائل عن علي قال :

خطبت فاطمة إلى رسول الله فقالت مولاً لي : هل علمت أن فاطمة قد خطبت إلى رسول الله ؟ قلت : لا . قالت : قد خطبت بما يمنعك أن تأتي رسول الله فيزوجك ؟ قالت : وعدي شيء أتزوج به ؟ قالت : إنك إن جئت رسول الله زوجك قال : فهو الله ما زالت ترجيني حتى دخلت على رسول الله ﷺ فلما أن قعدت بين يديه أفتحت فواليه ما استطعت أن أنكلم جلاله وهيبة فقال رسول الله ﷺ ما جاء بك ؟ ألك حاجة ؟ فسكت فقال :

لعلك جئت تخطب فاطمة .

فقلت : نعم

قال : وهل عندك من شيء تستحلها به ؟

فقلت : لا والله يا رسول الله

قال : ما فعلت درع سلطتكها ؟ فوالذي نفس علي بيده إنها لحظمية ما قيمتها أربعة دراهم ، فقلت : عندي فقال : قد زوجتكها فابعث إليها بها فاستحلها بها فإن كانت لصدق فاطمة بنت رسول الله .

وأخرج النسائي عن ثوبان :

..... فانتزعت فاطمة سلسلة في عنقها من ذهب فقالت : هذه أهداها إلي أبو حسن فدخل صلى الله عليه وسلم والسلسلة في يدها فقال : يا فاطمة ، أيسرك أن تقول الناس : ابنة رسول الله في يدها سلسلة من نار ثم خرج فلم يقدر فأرسلت فاطمة بالسلسلة فباعتها واشتريت بثمنها عبداً فأعتقه فحدث رسول الله بذلك فقال : الحمد لله الذي أنجى فاطمة من النار " .

وأخرج البخاري ومسلم : قال علي لابن عبد الله أحدثك عني وعن فاطمة ؟ قلت : بلى قال : إنها جرت بالرحي حتى أثر في يدها واستقرت بالقربة حتى أثرت في نحرها وكتست البيت حتى اعبرت ثيابها (وأوقدت القدر حتى دكنت ثيابها) فأتى النبي ﷺ خدم فقلت لو أتيت أباك فسألته خادماً فأنته فوجدت عنده حداثاً فرجعت فأتاها من الغد فقال : ما كان حاجتك ؟ وسكتت فقلت : أنا أحدثك يا رسول الله جرت بالرحي حتى أثرت في يدها وحملت بالقربة حتى أثرت في نحرها فلما أن جاء الخدم أمرتها أن تأتيك فتستخدمك خادماً يقيها حر ما هي فيه فقال : انقبي يا فاطمة وأدي فريضة ربك واعملني عمل أهلك وإذا أخذت مضجعك فسبحي ثلاثة وثلاثين واحمدي ثلاثة وثلاثين وكبرى أربعاء وثلاثين فتلك مائة فهي خير لك من خادم فقالت : رضيت عن الله وعن رسوله ولم يخدمها " .

إن كمال محمد كزوج وكماله كأب . كماله في عدله وفي رحمته وفي لطفه وفي
أنسه ، وفي رعايته وفي حسن سياساته وفي استقامته ، وفي حمل أزواجه وأولاده على طريقه
كل هذا شاهد صدق ودليل حق على أنه المثل الأعلى للإنسان في كل جانب من جوانب
حياته ، وإنه القدوة العليا لكل إنسان في أي جزء من أجزاء تصرفاته .

وإليك الفقرة الثالثة :

3- المعلم والمربى الأول

لقد حدد رسول الله ﷺ مهمته بقوله : " إنما بعثت معلماً¹ والقرآن الكريم ذكر هذه المهمة الأساسية لرسول الله ﷺ بصراحة فقال : {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأَمَمِينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتَّلَوُ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُرَكِّبُهُمْ وَيَعْلَمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ }² فقد أحصت هذه الآية من مهامات الرسول التعليم والتربية . تعليم الكتاب والحكمة وتربية الأنفس عليهما ، وكان الجانب الأعظم من حياة رسول الله ﷺ مستغرقاً بهذا الجانب ؛ إذ أنه هو الجانب الذي ينبع عنه كل خير ، ولا يستقيم أي جانب من جوانب الحياة سياسياً أو اجتماعياً أو اقتصادياً أو عسكرياً أو أخلاقياً إلا به ، ولا يؤتى الإنسان ولا تؤتى أمة ولا تؤتى الإنسانية إلا من التغريط في العلم الصحيح ، والانحراف عنه إما إلى الجهل أو إلى ما يضر علمه ولا ينفع .

فالآمة بلا علم يوضح لها جوانب سلوكها ، وبلا تربية يعرف كل فرد من أفرادها واجبه ، تصبح أمة فوضوية تصرفاتها غير متوقعة وغير منضبطة ، وكل فرد من أفرادها سلوك يخالف الآخر وعادات وتصورات تختلف فلا تقاد أمة تقلح بهذا ولا فرد .

والظاهرة التي نجدها في تاريخ محمد ﷺ أن الرسول ﷺ بدأ تشكيل أمة جديدة لها كل مقوماتها الفكرية والسلوكية والأخلاقية والتشريعية والدستورية واللسانية . بحيث ينبعُ الفرد فيها عن صلته بأي عالم غير عالم هذه الأمة من حيث العقيدة والسلوك ، فصهر أفراد هذه الأمة صهراً تماماً . ثم أطلق هذه الأمة في اتجاهٍ وحيدٍ حدد فيه لكل فرد مهمته ، وبرأه على أدائها ، وحدّ للجميع المهمة الكبرى ، ورسم لهم الطريق ، موضحاً لهم كل شيء في كل جانب ، وقادهم في هذا الطريق فترة ثم تركهم ماضياً إلى ربه ، فانطلقوا بعده لا غيرروا ولا بدّلوا فكان ما كان ولا زال . مما نشاهده من آثار المسلمين العظيم الذي كلّما تعرّث أخذت بيده تعاليم محمد وتربيته فأنقذته وقدفت به إلى الأمام .

* * *

وبعد فإننا نقول : إن كمال المربى يظهر :

¹ أخرجه الإمام أحمد .

² سورة الجمعة : 2 .

1- في مقدار ما يستطيع أن ينفلت نفس الإنسان وعقله من حالة دينا إلى حالة أعلى وكلما ترقى بالإنسان أكثر دل ذلك على كماله أكثر .

2- في سعة دائرة البشر الذين استطاع أن ينقلهم إلى كمالهم الإنساني ، فكلما كانت دائرة أوسع كان أدل على الكمال .

3- ثم في صلاحية هذه التعاليم وال التربية ، وحاجة الناس جمِيعاً إليها ، واستمرار إيتاء هذه التعاليم آثارها على مدى العصور ؛ بحيث لا يستغني البشر عنها ، وبشهادة العدو والصديق والمؤمن والكافر ما بلغ أحد في تاريخ البشرية ما بلغه محمد ﷺ في هذه الجوانب كلها حتى قال موير : " لم يكن الإصلاح أسرع ولا أبعد مناً منه وقت ظهور محمد ولا نعلم نجاحاً وإصلاحاً تم كالذي تركه عند وفاته " . وقالت دائرة المعارف البريطانية : " لقد صادف محمد النجاح الذي لم ينزل مثله النبي ولا مصلح ديني في زمان من الأزمنة " . ويقول يوزورث سمعث : " إن مهداً بلا نزاع أعظم المصلحين على الإطلاق " ¹ . ويقول هيل : " عن جميع الدعوات الدينية قد تركت آثراً في تاريخ البشر ، وكل رجال الدعوة والأنبياء قد أثروا تأثيراً عميقاً في حضارة عصرهم وأقوامهم ولكننا لا نعرف في تاريخ البشر أن دينا انتشر بهذه السرعة . وغير العالم بأثره المباشر ، كما فعل الإسلام ، ولا نعرف في التاريخ دعوة كان أصحابها سيّداً مالكاً لزمانه ولقومه كما كان محمد . لقد خرج أمة إلى الوجود ومكّن لعبادة الله في الأرض وفتحها لرسالة الطهر والفضيلة ، ووضع أسس العدالة والمساواة الاجتماعية بين المؤمنين ، وأصلّى النظام والتلاسق والطاعة والعزّة في أقوام لا تعرف غير الفوضى " .

هذه شهادة الدارسين ممن لم يؤمنوا بمحمد ﷺ وقد أعماهم حقد صليبي موروث فشهدوا ولم يؤمنوا . وما أغنانا عن شهادتهم ، وشهادتهم الواقع أمامنا على كل جانب من هذه الجوانب المذكورة آنفاً وهناك آثار تربيتها :

أصحاب الرسول ﷺ الذين شرفوا برؤيته والإيمان به عشرات الآلاف ، من هذه الآلاف من رافقه كل فترة البعثة ، ومنهم من رأاه مرة فسمع منه حديثاً . وإذا أنت أجريت مقارنة بين حياة هؤلاء قبل تلمذتهم على محمد ﷺ وحياتهم بعد؛ وبين واقعهم قبل ذلك وواقعهم بعد ، وبين أعمالهم وتصرفاتهم قبل وأعمالهم وتصرفاتهم بعد . وبين أهدافهم الأولى وأهدافهم الثانية . وبين تصوراتهم عن الله والكون والإنسان أو لاً وتصرفاتهم ثانياً ، إنك تخرج نتيجة

¹ بطل الأبطال لعبد الرحمن عزام ص 1 .

المقارنة وأنت ترى النقلة البعيدة الكبيرة الواسعة التي نقل إليها رسول الله ﷺ هؤلاء من طور إلى طور ، من حضيض إلى سمو لا يدانيه سمو آخر .

خذ مثلاً شخصية عمر بن الخطاب في الجاهلية تجده رجلاً قبلَي الفكر والطبيعة والعاطفة والتصور ، محدود الإدراك ، همه في لحية : السكر واللهو والبطالة مع أصدقائه . ولو لا رسول الله ﷺ لعاش عمر ومات عمر وما أحس به أحد ولكنه ما إن يشرب كأس الإسلام من يد رسول الله حتى يصبح عمر المشرع العقري الفذ ، ورجل الدولة العظيم الكبير ، ورمز العدل الذي لا يكون إلا معه مع الحزم والرحمة ، وسعة الأفق وصدق الإدراك وحسن الفراس ...

عمر الذي أصبح ملء الدنيا سمعها وبصرها . ما كان ليكون شيئاً لو لا أنه تربى في حجر رسول الله ﷺ فأخذ منه العلم والحكمة والتربيـة .

عبد الله بن مسعود راعي الإبل المحترق المهان في قريش ، الذي ما كان ليعرف إلا سيده ومن يستخدمه ، هذا الرجل النحيل القصير الحمـش الساقين . ماذا يصبح بعد أن ربته يد النبوة ؟ يصبح الرجل الذي يعتبر مؤسسة أكبر مدرسة في الفقه الإسلامي والتي ينتمي إليها أبو حنيفة النعمان ، يصبح الرجل الذي يقول فيه عمر لأهل الكوفة ؛ لقد آثرتكم بعد الله على نفسي .

إنك عندما تدرس شخصية الإنسان قبل اتصالها برسول الله وبعد اتصالها تجد أن كل شيء فيها قد تغير وتتجدد كل طاقاتها وملكاتها قد انطلقت في الطريق الصحيح . الطاقات الجسمية ، والطاقات العقلية ، والطاقات النفسية ، والطاقات الروحية ، والطاقات الوجدانية ، والمعنوية والأخلاقية . هذه الطاقات كلها انطلقت في إطارها الصحيح وطريقها المستقيم ، بحيث لا يستطيع إنسان أن يقول إن طاقة ما معطلة عند أصحابها أو أنها تعمل عملاً غير صالح .

طاقة العمل : " إن الله يحب العبد المحترف "¹

¹ أخرجه الحاكم والطبراني والبيهقي عن ابن عمر وضيقه السيوطي .

طاقة المشاركة في العمل العام : " إذا تباعتم بالعينة ورضيتم بالزرع وتبعتم أذناب البقر وتركتم جهادكم سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى تعودوا إلى دينكم" ¹ .

الطاقة الجنسية : " تزوجوا الولود الودود " ² .

الطاقة الجسمية : " المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف .." ³

ملكة حسن الهنadam : " فأصلحوا رحالكم وأحسنوا لباسكم حتى تكونوا كأنكم شامة في أعين الناس فإن الله لا يحب الفحش ولا التفاحش" ⁴ .

طاقة الفكر والعلم : " طلب العلم فريضة " ⁵ " تفكير ساعة خير من قيام ليلة " ⁶ .

إنك لا تجد طاقة من طاقات الإنسان إلا وقد أطلقها رسول الله ﷺ في طريقها الصحيح ، فأصبحت ترى من أصحابه العجب ، في تكامل شخصياتهم عباداً زهاداً شجاعاناً محاربين عادلين رحماء إداريين سياسيين حكماء مربين . كل واحد منهم أمة ، وما أسهل عليه أن يقود أمة ، ولا أدل على ذلك أنه ندر واحد منهم لم يصبح أميراً بعد ذلك ولم يفشل واحد منهم في ما ولـي من قيادات .

وإذا أردت أن ترى مقدار ما رفع رسول الله النفس البشرية فاقرأ هذه الأمثلة البسيطة ذات الدلالة الكبيرة :

أخرج النسائي عن عائشة - رضي الله عنها - أن فتاة قالت - يعني للنبي ﷺ :- إن أبي زوجني من ابن أخيه ليرفع بي خسيسته وأنا كارهة فأرسل النبي ﷺ إلى أبيها فجاء فجعل الأمر إليها ، فقالت : يا رسول الله ! إني قد أجزت ما صنع أبي ، ولكن أردت أن أعلم النساء أن ليس للأباء من الأمر شيء " .

¹ أبو داود وحسنه السيوطي .

² أخرجه أبو داود والنسائي .

³ أخرجه مسلم .

⁴ أخرجه أبو داود .

⁵ أخرجه الطبراني وهو حديث حسن لغيره .

⁶ أخرجه ابن سعد ج 7 ص 392 .

أرأيت كيف ارتفعت نفسية المرأة حتى أصبحت تعرف حقها ، وترى أن تُعرَّف الآخريات عليه . وأصبحت تستطيع أن تشك إذا هضم حقها ، وتجد من يسمع لها ويعطيها إياه ، متى كان ذلك لو لا تربية الرسول ﷺ لهذه الأمة ؟

وأخرج الخمسة إلا مسلماً قصة الحب العجيبة تلك التي كانت عند العبد مغيث للعبدة بrierة التي أصبحت بعد ذلك حرة وانفصمت ما بينهما من نكاح وكانت لا تحبه وكان مولعاً بها يقول ابن عباس :

إن زوج بrierة كان عبداً يقال له مغيث ، كأنني أنظر إليه خلفها يطوف ودموعه تسيل على لحيته ، فقال رسول الله ﷺ للعباس : ألا تعجب من حب مغيث بrierة ومن بعض بrierة مغيثاً ؟ فقال لها رسول الله ﷺ : لو راجعته ؟ قالت : يا رسول الله ! تأمرني ؟ قال : لا إنما أشفع قالت : لا حاجة لي فيه .

أهناك أبلغ في التربية من هذا الذي وصلت إليه هذه الأمة لقد أصبح كل فرد فيها يعرف حقه وواجبه ويجادل فيه ويقف عنده .

أخرج الروياني وابن جرير وابن عساكر عن عوف بن مالك الأشجعي - رضي الله عنه - قال :

كنا عند رسول الله ﷺ تسعة أو ثمانية أو سبعة فقال : ألا تبايعون رسول الله ؟ فرددوها ثلاث مرات . فقدمنا فبايعنا رسول الله ﷺ ، فقلنا : يا رسول الله ! قد بايعتم فعلى أي شيء نبايعك ؟

قال : على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، والصلوات الخمس ، وأسر كلمة خفية أن لا تسألو الناس شيئاً . قال : فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوطه فما يقول لأحد يتناوله إياه .

وأخرج الطبراني في الكبير عن أبي أمامة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ من يبايع ؟ فقال ثوبان - رضي الله عنه - مولى رسول الله ﷺ : بايعنا يا رسول الله ! قال

على أن لا تسأل أحداً شيئاً . فقال ثوبان : فما له يا رسول الله؟ قال : الجنة . فباعه ثوبان

.

قال أبو أمامة : فلقد رأيته بمكة في أجمع ما يكون من الناس يسقط سوطه وهو راكب فربما وقع على عائق رجل فیأخذة الرجل فیناوله فما يأخذة حتى يكون هو ينزل فیأخذة .

وأخرج عبد الرزاق عن سعيد بن المسيب قال : أعطى النبي ﷺ حكيم بن حزام - رضي الله عنه - يوم حنين عطاء فاستقله فزاده فقال : يا رسول الله ! أى عطيتك خير ؟ قال : الأولى . فقال النبي ﷺ : يا حكيم بن حزام ! إن هذا المال خصبة حلوة فمن أخذه بساخونة نفس وحسن أكلة بورك له فيه ، ومن أخذه باستشراف نفس وسوء أكلة لم يبارك له فيه ، وكان كالذى يأكل ولا يشبّع ، واليد العليا خير من اليد السفلة ، قال : ومنك يا رسول الله ؟ قال : ومني ! قال : فوالذى بعثك بالحق لا أرزاً أحداً بعدك شيئاً أبداً .

قال : فلم يقبل ديواناً ولا عطاء حتى مات .

قال : وكان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يقول : اللهم إني أشهدك على حكيم بن حزام أني أدعوه لحقه من هذا المال وهو يأتي ، فقال : إني والله ما أرزوك ولا غيرك شيئاً . كذا في الكنز ج 3 ص 322 .

رأيت هذه النقلة العظيمة من حالة إلى حالة أخرى : عزة نفس لا مثيل لها ، وماذا في طياتها من أبلغ ما تصل إليه التربية الاستقلالية التي لا يكون معها معنى من معاني الاتكال على الغير .

أخرج مالك عن عطاء بن يسار قال : أتى رجل النبي ﷺ ثائر الرأس واللحية فأشار إليه ﷺ كأنه يأمره بإصلاح بشعره ففعل ثم رجع فقال ﷺ : "الليس هذا خيراً من أن يأتي أحدهم ثائر الرأس كأنه شيطان" .

وأخرج مالك والنسيمي عن أبي قتادة قال : قلت يا رسول الله ! إن لي جمة أفارجهها قال : نعم وأكرمها .

فكان أبو قتادة ربما دهنتها في اليوم مرتين من أجل قوله ﷺ نعم وأكرمها " .

أرأيت هذه التربية التي لا تدع جانباً من الجوانب إلا وتسوّعه دق أو كبر مماله
علاقة بظاهر الإنسان وباطنه .

* * *

قال أبو داود :

" وغير رسول الله اسم العاصي وعزيز وعتلة وشيطان والحكم وغراب وحباب
وشهاب فسماه هشاماً وسمى حرباً سلماً وسمى المضطجع المنبعث وأرضاً تسمى عفرة سماها
حضره وشعب الضلالة سماها شعب الهدى وبني الزنية سماهم بني الرشدة وسمى بني مغوية
بني رشد " .

أرأيت هذه اللفقات الجمالية التي يرى كل شيء في الأمة بها على نسق منسجم مع
الدعوة والرسالة ، وهذه التربية التي وصلت إلى الأسماء .

وروى الطبراني في الكبير عن بكير بن معروف عن علقة ... عن رسول الله ﷺ قال
: ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم ولا يعلمونهم ولا يعظونهم ولا يأمرنهم ولا ينهونهم ؟ وما
بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم ولا يتلقّهون ولا يتعظون ؟ والله ليعلمن قوم جيرانهم
ويفقهونهم ويعظونهم ويأمرونهم وينهونهم ، وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتفقهون ويتعظون أو
لأعاجلتهم العقوبة .

ثم نزل ، فقال قوم : من ترونـه عـنـ بـهـؤـلـاءـ ؟ قال : الأـشـعـرـيـونـ هـمـ قـوـمـ فـقـهـاءـ وـلـهـمـ
جيـرانـ جـفـاةـ مـنـ أـهـلـ الـمـيـاهـ وـالـأـعـرـابـ ، فـبـلـغـ ذـلـكـ الـأـشـعـرـيـينـ فـأـتـواـ رـسـولـ اللهـ ﷺ وـقـالـواـ : يـاـ
رسـولـ اللهـ ! ذـكـرـتـ قـوـمـ بـخـيـرـ وـذـكـرـتـناـ بـشـرـ فـمـاـ بـالـنـاـ .

قال : يـعـلـمـنـ قـوـمـ جـيـرـانـهـمـ وـلـيـعـظـنـهـمـ وـلـيـأـمـرـنـهـمـ وـلـيـنـهـونـهـمـ وـلـيـتـعـلـمـنـ قـوـمـ مـنـ جـيـرـانـهـمـ
وـيـتـعـظـونـ وـيـتـفـقـهـونـ أوـ لـأـعـاجـلـنـهـمـ العـقـوـبـةـ فـيـ الدـنـيـاـ . فـقـالـواـ : يـاـ رـسـولـ اللهـ ! أـنـعـظـنـ غـيـرـنـاـ ؟
فـأـعـادـ قـوـلـهـ عـلـيـهـمـ ، فـأـعـادـواـ قـوـلـهـمـ : أـنـعـظـنـ غـيـرـنـاـ ؟ فـقـالـ ذـلـكـ أـيـضـاـ . فـقـالـواـ : أـمـهـلـنـاـ سـنـةـ ،

فأمهلهم سنة يفقهونهم ويعلمونهم ويعظونهم . ثم قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية : {لِعَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانٍ دَأْوُدَ وَعَيسَى أَبْنَ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَاهُونَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ} ¹ .

رأيت أبلغ من هذه التربية التي تفترض على المتعلم أن يعلم وعلى الجاهل أن يتعلم حتى تترقى الأمة كلها وهل رأيت نصاً قبل هذا النص في العالم يفرض التعليم ويجعله إلزامياً إجبارياً . ولعلك ستدشن إذا قرأت الكتاب الثالث من هذه السلسلة عندما ترى مزيداً عن النظام التعليمي في الإسلام ، عن كماله واستيعابه لكل حاجات الإنسان الروحية والمادية .

وأخرج الشیخان عن أنس قال : بينما نحن في المسجد مع رسول الله ﷺ إذ جاء أعرابي فقام بيول في المسجد فقال أصحاب رسول الله : مه مه .. فقال رسول الله ﷺ : لا تزرموه (أي لا نقطعوا عليه بوله) دعوه ، فتركوه حتى بال ، ثم إن رسول الله ﷺ دعا له :

إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول والقذر إنما هي لذكر الله تعالى والصلاوة وقراءة القرآن وأمر رجلاً من القوم فجاء بدلوا من الماء فشنه عليه (أي صبه) .

ضرينا هذا المثال لنعرف مقدار الوعي الحضاري وقت ذلك عند العرب ، إذ ما من إنسان في العالم بيول في معبده ، ولكن العربي فعلها وكان موقف الرسول ﷺ منها موقف المربى الذي مهمته أن يجبر النقص إلى الكمال ، وكان من آثار ذلك ما عبر عنه أحد قواد الفرس ؛ إذ رأى المسلمين يصلون صفاً منتظماً فقال :

أكلَ عمر كبدي إذ علم هؤلاء مكارم الأخلاق . وما كان عمر هو الذي علمهم مع فضله ولكن الذي علمهم وعلم عمر هو رسول الله ﷺ .

* * *

ولم تكن دائرة تربية الرسول ﷺ محدودة بل شملت كل الجزيرة العربية ، بترتيب وسائل هذه التربية ، فكان لا يكتفي من القبيلة بإسلامها حتى يأتيه وفدها ، وكان يبقى الوفد

عنه في المدينة أياماً تمتد كثيراً أحياناً . وخلال هذه الإقامة كان يصوّغهم صياغة جديدة . سواء بتوجيهاته أو بالاقتداء . أو بأمر أصحابه أن يعلموهم . حتى إذا ما أذن لهم بالرحيل أمر عليهم رجلاً منهم وأمرهم أن يقوموا بعملية التربية والتعليم نيابة عنه . وكان زيادة على ذلك يرسل أصحابه آهاداً أو جماعات ممن فقهوا وربوا تربية عالية إلى كل مكان ، ليقوموا بدور المربى . فكان من آثار ذلك أنه خلال سنوات معدودة لا تتجاوز عشرة ، أصبحت الجزيرة العربية - وما أوسعها حتى لتکاد تكون قارة - واعية لدين الله ، مرية مهنية إلى حد كبير ، تغيرت مفاهيمها إلى أعلى ما يبلغ إنسان من تصورات ، بعد أن كانت في أدنى دركات الانحطاط الفكري حتى ليبعد أحدهم تمرات صباحاً وأكلهن مساءً .

وكان القرآن حفظاً وفهمًا وتطبيقاً وسلوكاً هو أداة هذه التربية العظيمة . وسترى في بحث المعجزة القرآنية أن هذا القرآن أحاط بكل شيء . وفتح آفاق النفوس والعقول على كل مشهد . فلم يعد به خافياً على أحد ما ينبغي أن يأخذ وأن يدع ، ولم يبق معه سؤال بلا جواب ، ولم تبق حجة لمنحرف إلا وقد دحضت فيه ، ولا شبهة على الإسلام وأهله إلا كشفت به ، ولا جانب من جوانب الحياة إلا وقد عرف الحق فيه منه .

والرسول ﷺ كان همه أن يستوعب الناس هذا القرآن حفظاً وفهمًا وتطبيقاً ، إذ على قدر ما يستوعبه أفراد الأمة على قدر ما ترتفع أنفسها ، ويسمو تفكيرها ، وتنتفتح آفاق الحياة أمامها ، ولذلك جعل مقياس الخيرية القرآن فقال : " خيركم من تعلم القرآن وعلمه " ¹ .

وكان يختار للإمرة أكثر الناس أخذًا للقرآن حفظاً وفهمًا وتطبيقاً . وربى أصحابه على ذلك ، فكانت سياسة الخلفاء بعده منصبة على أن يبلغ الناس بالقرآن غاية الجد فيه ، والحرص عليه ، حتى قال عمر لجيش من جيوشه وقد أرسله : " إنكم تأتون أهل قرية لهم دوي بالقرآن كدوي النحل فلا تصدّوهم بالأحاديث فتشغلوهم جودوا القرآن وأقلوا الرواية عن رسول الله امضوا وأنا شريككم " ² .

ولم تمض فترة إلا وأصبح القرآن على كل لسان ، وأصبح كثير من الناس وقد حفظوه كله ، فارتقت بذلك مدارك المسلمين كلها ارتقاء لا مثيل له سواء في ذلك جوانب

¹ أخرجه البخاري .

² أخرجه الطبراني ج 5 ص 19 .

العقيدة أو العبادة أو السياسة أو الإدارة أو الأخلاق أو التشريع أو الحرب أو السلم أو العلم أو العمل . فترة بسيطة من الزمان وإذا بالأمة الأمية لا يغلبها غالب فكراً أو حرباً أو حضارة وكل ذلك أثر من آثار رسول الله ﷺ ولا يمكن أن ينسب لسواه ، وحدث بذلك مرة واحدة في تاريخ البشر أن الإنسانية رأت أمة : الحق عندها يحكم القوة ، والزهد عندها ترافقه الشجاعة ، والعبادة عندها ترافقها الحكمة ، أمة ما رأت مثلها الدنيا لذلك فإنها ما كادت تتعرف عليها حتى دخلت في دينها .

أوليس عجياً أن البلاد التي فتحها هؤلاء الذين رباهم رسول الله ﷺ قد دخل أهلها في الإسلام طوعاً لا كرهاً وأخلصوا للدين الجديد حتى فدوه بالأرواح والأموال والأولاد مع أن الإسلام أعطاهم حرية البقاء على دينهم الأول كل ذلك إنما كان كأثر من الإعجاب برجال لهم دين ليس مثله بين الأديان ولا يوجد مثيلهم بين الرجال .

* * *

وسنروي الآن حادثات ثلاثة عرف بها مقدار النضج الفكري الذي وصل إليه أصحاب رسول الله ﷺ حتى جابهوا كل الثقافات الأخرى غالبين ، وهو جانب من جوانب التربية المحمدية لهذه الأمة . أول هذه الحوادث مقطع من مناقشة حاطب بن أبي بلعة - رسول الله إلى المقوس - مع المقوس وثانيها خطاب العلاء الحضرمي للمنذر بن ساوي أمير البحرين التي كانت تشمل في الماضي الكويت الحالية والبحرين والأحساء وبأسمائهما الجديدة وثالثها مناقشة المغيرة بن شعبة لكسرى ورستم وهذه هي مرتبة :

أ- قال المقوس لحاطب : ما منعه إن كاننبياً أن يدعى على من خالقه وأخرجه من بلده ؟ فقال حاطب : ما منع عيسى وقد أخذه قومه ليقتلوه أن يدعوا الله عليهم فيهلكهم ؟ فقال المقوس : أحسنت أنت حكيم جاء من عند حكيم¹ .

ب- وقال العلاء الحضرمي لأمير البحرين : " يا منذر إنك عظيم العقل في الدنيا فلا تصغرن عن الآخرة . إن هذه الم Gorsia شر دين ، ليس فيها تكرم العرب ، ولا علم أهل الكتاب ، ينكحون ما يستحبوا من نكاحه ، ويأكلون

¹ أخرجه البيهقي .

ما يتزه عن أكله ، ويعبدون في الدنيا ناراً تأكلهم يوم القيمة ... ولست بعديم عقل ولا رأي
فانظر :

هل ينبغي لمن لا يكذب في الدنيا ألا تصدقه ، ولمن لا يخون ألا تأمنه ، ولمن لا يخلف ألا تثق به ، هذا هو النبي الأمي الذي لا يستطيع ذو عقل أن يقول : ليت ما أمر به نهى عنه ، أو ما نهى عنه أمر به ، أو ليته زاد في عفوه أو نقص من عقابه . إذ كل ذلك منه على أمنية أهل العقل ، وفكراً أهل النظر" ذكره الشيخ الغزالى في كتابه فقه السيرة ص 390 .

وقد أسلم المنذر .

جـ- ولما أرسل سعد بن أبي وقاص إلى كسرى وفداً يدعونه إلى الإسلام كان من قصتهم :

أنهم استأذنوا على كسرى فأذن لهم وخرج أهل البلد ينظرون إلى أشكالهم وأرديتهم على عوائقهم ، وسياطهم بأيديهم ، والنعال في أرجلهم وخيوطهم الضعيفة وخطها الأرض بأرجلها ، وجعلوا يتعجبون منها غاية العجب ، كيف مثل هؤلاء يقهرون جيوشهم مع كثرة عددها وعدها ، ولما استأذنوا على الملك يزدجر أذن لهم وأجلسهم بين يديه ، وكان متكبراً قليلاً في الأدب - ثم جعل يسألهم عن ملابسهم هذه ما اسمها وعن الأردية والنعال والسياط .

ثم كلما قالوا شيئاً من ذلك تفاعل فرد الله فله على رأسه . ثم قال لهم : ما الذي أقدمكم هذه البلاد ؟ أظننتم أنا لما تشغلنا بأنفسنا اجترأتم علينا ؟ فقال له النعمان بن مقرن - رضي الله عنه - :

إن الله رحمنا فأرسل إلينا رسوله يدلنا على الخير ويأمرنا به ، ويعرفنا الشر وبينهانا عنه ، ووعدنا على إجابته خير الدنيا والآخرة . فلم يدع إلى ذلك قبيلة إلا صاروا فرقاً فرقاً تقاربها وفرقها تبعدها ، ولا يدخل معه في دينه إلا الخواص ، فمكث ذلك ما شاء الله أن يمكث . ثم أمر أن ينهى إلى من خالقه من العرب ويبدأ بهم فعل فدخلوا معه جميعاً على وجهين مكره عليه فاغتبط ، وطائع إياه فازداد ، فعرفنا جميعاً فضل ما جاء به على الذي كنا عليه من العداوة والضيق ، وأمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوه إلى الإنفاق فنحن ندعوكم إلى ديننا وهو دين الإسلام . حسن القبيح وقبح القبيح كله . فإن أبیتم فامر من الشر هو أهون

من آخر شر منه الجزاء فإن أبىتم فالمناجة (المقالة) وإن أجبتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله وأقمناكم عليه على أن تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم وشأنكم وبلاكم . وإن أتيتمنا بالجزي قبلنا ومنعناكم وإلا قاتلناكم .

قال فتكلم يزدجر فقال :

إني لا أعلم في الأرض أمة كانت أشقي ولا أقل عدداً ولا أسوأ ذات بين منكم ، قد كنا نوكل بكم قرى الضواحي ليكونواكم ولا تعزوكم فارس ولا تطمعون أن تقوموا بهم ، فإن كان عددهم كثراً فلا يغرنكم منا ، وإن كان الجهد دعاكما فرضنا لكم قوتاً إلى خصبك وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم ، وملكتنا عليكم ملكاً يرفق بكم فأسكنت القوم .

فقام المغيرة بن شعبة - رضي الله عنه - فقال :

أيها الملك ، إن هؤلاء رؤوس العرب ووجوههم ، وهم أشراف يستحiron من الأشراف ، وإنما يكرم الأشراف ، ويعظم حقوق الأشراف ، وليس كل ما أرسلوا له جمعوه لك ، ولا كل ما تكلمت به أجابوك عليه ، وقد أحسنوا ولا يحسن بمثلهم إلا ذلك . فجاوببني ، فأكون أنا الذي أبلغك ويشهدون على ذلك ، إنك قد وصفتنا صفة لم تكن بها عالماً ، فاما ما ذكرت من سوء الحال فما كان أسوأ حالاً منا ، وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع ، كنا نأكل الخنافس والجعالن والعقارب والحيات ونرى ذلك طعامنا ، وأما المنال فإنما هي ظهر الأرض ، ولا نلبس إلا ما غزلنا من أوبار الإبل وأشعار الغنم . ديننا أن يقتل بعضنا بعضاً ، وأن يبغى بعضنا على بعض ، وإن كان أحدهنا ليدفن ابنته وهي حية كراهية أن تأكل من طعامه ، وكانت حالنا قبل اليوم على ما ذكرت لك . فبعث الله رجلاً معروفاً نعرف نسبه ونعرف وجهه ومولده ، فأرضه خير أرضنا ، وحسنه خير أحسابنا ، وبنته خير بيوتنا ، وقبيلته خير قبائلنا ، وهو نفسه كان خيراً في الحال التي كان فيها أصدقنا وأحلمنا ، فدعانا إلى أمر فلم يجده أحد ، إلا ترب كان له هو الخليفة من بعده ، فقال وقلنا ، وصدق وكذبنا ، وزاد ونقصنا فلم يقل شيئاً إلا كان فقذف الله في قلوبنا التصديق له واتباعه ، فصار فيما بيننا وبين رب العالمين ، فما قال لنا فهو قول الله ، وما أمرنا فهو أمر الله . فقال لنا : إن ربكم يقول : أنا الله وحدى لا شريك لي كنت إذ لم يكن شيء ، وكل شيء هالك إلا وجهي ، وأنا خلقت كل شيء وإليه يصير كل شيء ، وإن رحمتي أدركتم ، فبعثت إليكم هذا الرجل لأدلكم على السبيل التي أنجيكما بها بعد الموت من عذابي ، ولأحكم داري دار السلام . فنشهد عليه

أنه جاء بالحق من عند الحق . وقال من تابعكم على هذا فله ما لكم وعليه ما عليكم ، ومن أبي فأعرضوا عليه الجزية ثم امنعوه مما تمنعون منه أنفسكم ومن أبي فقاتلوه ، فأنا الحكم بينكم ، فمن قتل منكم أدخلته جنتي ومن بقي منكم أعقبته النصر على من نلأوه ، فاختر إن شئت الجزية وأنت صاغر ، وإن شئت فالسيف أو تسلم فتتجو بنفسك . فقال يزدجر : أستقبلني بمثل هذا ؟ فقال : ما استقبلت إلا من كلمني . ولو كلمني غيرك لم أستقبلك به¹ .

* * *

عرضنا هنا جانباً من جوانب تربية الرسول ﷺ لهذه الأمة ، وسيمر معك جانب آخر في فصل التمرات ، وسيأتيك في الكتاب الثالث (عن الإسلام) الجوانب التفصيلية لمنهج التربية والتعليم الذي شرعه رسول الله ﷺ للإنسانية ، وسترى أنه ما ترك شاردة ولا واردة مما يحتاجه البشر في أمر دين أو دنيا إلا وقد أحاط به ذلك المنهاج العظيم ، الذي جعل الأمة الإسلامية عندما كانت واعية له أرفع أمة في ميزان الحضارة ، وأخذت به أمم الغرب فكان من آثاره ما هم عليه الآن ، وتخلت عنه الأمة الإسلامية فوصلت إلى ما هي عليه الآن .

ونظن أنّ فيما ذكرناه حتى الآن كفاية للإقناع بأن العالم ما شهد ولن يشهد مربيناً كمحمد ﷺ . فعل ما فعل بإمكاناته المحدودة مادياً ، وبشعب أمي عملياً ، وخذ التاريخ كلّه وسله هل استطاع مرب أو زعيم أن ينقل أمّة بهذه الفترة المحدودة ؛ وعلى قلة الإمكانيات من الناحية النفسية والأخلاقية والفكرية والحضارية والعسكرية والسياسية ، وإلى معشار معاشر ما نقل إليه رسول الله ﷺ أمه في سنوات معدودات ؟ اللهم لا .

* * *

ونريد أخيراً أن نقرر حقيقة هي : لئن شارك غير محمد م مهداً في بعض جوانب ربى عليها رسول الله ﷺ البشر . فإن رسول الله ﷺ وحده هو الذي وضع النفس البشرية على الطريق الصحيح ، أما غيره فلئن أصلح جانباً فعلى حساب جانب ويبيقى ما أصلحه من النفس البشرية كلها حتى أعمق أعماقها ولهذا نقول :

إنه في الأصل لا يوجد مرب غير محمد ﷺ . فقولنا إنه المربى الأول وقدوة المربيين لا يعني أننا أعطينا لغير من سلك طريقه صفة التربية ، حاشا ، وإنما هو لتقريب الأمور كي تتضح الحقائق وهذا بيان ما قلناه :

إن النفس البشرية كثيرة التعقيد كثيرة الشهوات فهي تحب المال والتملك وتود الحصول عليه من أقرب الطرق ، وتحب المتعة من تمتتها بالجمال إلى الخمرة إلى ما يلذ . وقد تصل الأمور ببعض الناس أنهم يتمتعون بمرأى الدماء . وما يمتع هذه النفس تود الوصول إليه مهما كان نوعه ، وبأي طريق ، والنفس تحب السيطرة وتحب التحكم بالآخرين ، والترأس عليهم والارتفاع عن غيرها ، وليس عند النفس مانع من استغلال الآخرين وبخسهم حقهم .

والنفس لا تألف النظام بل الفوضى ، والانفلات من كل تكليف ومن كل قيد .

والنفس حريرة على الحياة ، وتكره الموت حتى ولو كان الموت شيئاً ضرورياً ، ككونه لحرب لعادلة ، والنفس بشكل عام تود أن يؤدى لها حقها وتود أن تتهرب من واجبها .

وهذا الذي أجملناه بعض ما في النفس :

وأن تُعطى أنفس البشر كلها شهواتها فذلك مستحيل . إذ كل إنسان يحب الرئاسة فهل يمكن أن يكون الناس رؤساء ؟ وأجمل امرأة في العالم يتمناها زوجة كل إنسان فهل يمكن أن تكون زوجة لكل البشر ؟ .

لذلك فالبشر كلهم مجتمعون على أنه لا بد من وضع حدود وقيود للنفس البشرية . تتمثل هذه الحدود والقيود بالأدب والأخلاق والعادات والقوانين ، وتربيبة الناس على ذلك .

والذي نراه أن بعض المربيين ينحوون في جانب ، ويفشلون في جانب ، نجد زعيماً نجح في تربية قومه على التضحية ، ونجد آخر نجح في تربية قومه على النظام ، ونجد آخر نجح في تربية قومه على العمل ، ولكنك في المقابل تجد أنه نسي بقية جوانب النفس البشرية ، فلم يفعل لها شيئاً . هذه ناحية ، وناحية أخرى إن هؤلاء وإن نجحوا في هذا الجزء ، ولكن قد يكون هذا الشيء الذي نجحوا فيه غير موضوع في محله ، فالذي نجح في تعويد شعبه على الطاعة قد تكون طاعته فيما لا ينبغي ، والذي نجح في حمل قومه على التضحية قد يجعلهم يضطرون فيما لا يستحق التضحية ، ولكن الظاهرة التي نراها في تربية رسول الله ﷺ إنه ربى كل جانب من جوانب النفس البشرية وهذبها وجعلها على الصراط الصحيح . مما ترى جانبًا مضيقاً ، وما ترى تهذيباً في غير محله ، ولا ترى بعد ذلك للنفس المسلمة تصرفاً كان ينبغي ألا يكون

رباها على التضحية في محلها ، وعلى الفداء في محله ، وعلى النظام حيث يحسن النظام . وعلى الطاعة حيث تجمل الطاعة ، وعلى تحقيق المتعة حيث تكرم المتعة ، وعلى التملك حيث يعدل التملك ، وعلى العبادة لله ، وحسن المعاملة للناس ، كل ذلك وأمثاله دون أن يطغى جانب على جانب ، أو ينسى جانب على حساب جانب ، أو تستعمل النفس فيما يصبح أن تكون فيه ، أو تنتقد عليه . وفي الكتاب الثالث / الإسلام / بيان هذا بما لا لبس فيه .

فمحمد ﷺ وحده هو مربى النفس البشرية ، وغيره لا يجوز أن يعطى هذه الصفة إلا بالقدر الذي يتأنى فيه برسول الله ﷺ .

* * *

4- رجل الدولة الأول : سياسياً وعسكرياً

دمجنا العمل السياسي والعسكري في هذه الفقرة على اعتبار أن العمل العسكري أثر عن العمل السياسي ومرتبط به ارتباطاً كاملاً لا ينفصل عنه ، وقد يكون ذروته في بعض الحالات التي تكون فيها الحرب لا بد منها ، ثم إن الإمكانيات السياسية ، في إدارة الحروب لا تنفصل عن الإمكانيات العسكرية في الإدارة السياسية ، والرسول عليه الصلاة والسلام ، كان قائداً المسلمين سياسياً وعسكرياً ، وهو الذي سار بهم من نصر إلى نصر . حتى جعل مفاتيح العالم في أيديهم مرات عديدة ولا زال باستطاعة المسلمين أن يسترجعواها إذا تلذذوا مرة أخرى نلذذة كاملة على يديه عليه الصلاة والسلام .

على أنه وإن ارتبط العمل السياسي بالعمل العسكري . فإن لكل مجال كلام ينفرد به . لذلك فإننا سنقسم الكلام في هذه الفقرة إلى قسمين . الأول في الكلام عن الرسول عليه الصلاة واللام سياسياً . والثاني عسكرياً ، لنرى كيف أن الرسول عليه الصلاة والسلام في كُلٌّ كان في القمة التي لا يرقى إليها أحد ، وهو الأمي الذي لا يعرف قراءة ولا كتابة ، مما يدل على أن المسألة هنا ربانية المبدأ والطريق والنتهاية .

أ : الرسول عليه الصلاة والسلام

القيادة السياسية العليا

إن نجاح القيادة السياسية يتوقف على ما يلي :

1) على استيعاب هذه القيادة لدعوتها ، وثقتها بها وبأحقيتها ، وثقتها بانتصارها .
وعدم تناقض سلوك هذه القيادة مع ما تدعو إليه ، لتكون مواقفهما منسجمة مع هذه الدعوة ،
فتكون هذه المواقف كلها لصالح الدعوة ، ولا تكون بيد أعداء الدعوة سلاحاً فعالاً بسبب
التناقض ضد الدعوة نفسها .

2) وعلى قدرة القيادة على الاستمرار بالدعوة تبليغاً وإقناعاً .

3) وعلى قدرة القيادة في استيعاب المستجيبين للدعوة تربية وتنظيمًا وتيسيراً .

4) وعلى وجود الثقة الكاملة بين القيادة وأتباعها .

5) وعلى قدرة القيادة أن تعرف إمكانية الأتباع ، وأن تستطيع الاستفادة من كل
إمكاناتهم العقلية والجسمية أثناء الحركة . بحيث يأخذ كل منهم محله الصحيح .

6) وعلى قدرة القيادة على أن تحل المشاكل الطارئة بأقل قدر ممكن من الجهد .

7) وعلى أن تكون هذه القيادة بعيدة النظر مستوعبة للواقع . فتضرب ضرباتها
السياسية بشكل محكم .

8) وعلى قدرة هذه القيادة أن تصل إلى النصر والاستفادة منه ، وتطبيق مبادئ
دعوتها تطبيقاً صحيحاً .

٩) وعلى قدرة هذه القيادة أن تحكم أمر بناء دولتها إحكاماً يجعلها قادرة على الصمود والنمو على المدى البعيد .

وما عرف التاريخ إنساناً كمل في هذه الجوانب كلها إلى أعلى درجات الكمال غير محمد . مع ملاحظة أن كمالاته هنا جانب من جوانب كمالاته المتعددة التي لا يحيط بها غير خالقها ، وأن كمالاته ونجاحه واستقامة خطواته وانتصاراته وتوفيق الله إياه كل ذلك دليل على أنه رسول الله الذي رباه فأحسن تربيته وأحاطه برعايته .

ولنبدأ باستعراض هذه الجوانب التسع في سيرة رسول الله العملية لنرى برهان كُلُّ وكماله فيه مع ملاحظة أن خطتنا في هذه الأبحاث الاختصار والإشارة لا التفصيل .

* * *

١ - استيعابه لدعوته نظرياً وعملياً وثقته بها وبيان انتصارها :

إذا كان هناك إنسان استوعب جوانب دعوته كل الاستيعاب ، ووثق بها وبمسيرها كل الثقة ، وعرف مضمونها كل المعرفة وعرف بداياتها و نهاياتها وأولها وآخرها وقدماتها ونتائجها ، ولم يتزحزح عن جزء منها ، بل الخطوة الثانية تأتي مكملة للخطوة الأولى وممهدة للخطوة التالية ، فذلك هو محمد رسول الله . فالرسول عليه الصلاة والسلام كان واضحاً تماماً لديه أن منطق دعوته هو أن الحكم الحقيقى للبشر لا يجوز أن يكون غير الله ، وأن خضوع البشر لغير سلطان الله وحاكميته شرك ، وأن التغيير الأساسى الذى ينبغي أن يتم فى العالم هو نقل البشر من خضوع بعضهم لحاكمية بعض ، إلى خضوع الكل لله الواحد الأحد ، وأن الأمة التى تحمل هذه القضية بكل متطلباتها هي التى سيكون بيدها مفاتيح الحياة البشرية ولها قيادتها . ومن هذه البداية وانسجاماً معها ، يقوم كل شيء فى حياة البشرية ثانياً ، وحياة الأمة التى تحمله أولاً ، ولنر وضوح هذه الجوانب عنده م في بداية الأمر و نهايتها .

روى ابن إسحاق عن ابن عباس قال : " لما مشوا إلى أبي طالب وكلموه - وهم أشراف قومه عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو جهل بن هشام وأمية بن خلف وأبو سفيان بن حرب في رجال من أشرافهم - فقالوا : يا أبو طالب إنك منا حيث قد علمت . وقد حضرك ما نرى ، وتخوفنا عليك ، وقد علمت الذي بيننا وبين أخيك فادعه فخذ لنا منه وخذ له من

؛ ليك عننا ولنفك عنه وليدعنا ولندعه ودينه . فبعث إليه أبو طالب فجاءه فقال : يا ابن أخي ! هؤلاء أشراف قومك قد اجتمعوا إليك ليعطوك ولیأخذوا منك قال : فقال رسول الله ﷺ : كلمة واحدة تعطونيها تملكون بها العرب وتدينون لكم بها العجم . فقال أبو جهل : نعم وأبيك وعشرون كلمات . قال : تقولون لا إله إلا الله وتخلعون ما تعبدون من دونه فصفقوا بأيديهم " .

وروى ابن إسحاق عن الزهرى في قصة عرض الرسول ﷺ دعوته على بنى عامر بن صعصعة ما يلى : " ثم قال له (أي بحيرة بن فراس) : أرأيت إن نحن تابعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من يخالفك أ يكون لنا الأمر من بعدك ؟ قال (أي رسول الله) : الأمر لله يضعه حيث يشاء . فقال له : أفهمد نحورنا للعرب دونك فإذا ما أظهرك الله كان الأمر لغيرنا لا حاجة لنا بأمرك فأبوا عليه " .

قال عدي بن حاتم : " بينما أنا عند رسول الله إذ أتاه رجل فشكى إليه الفاقة .. ثم أتاه آخر فشكى إليه قطع السبيل ، فقال : يا عدي هل رأيت الحيرة ؟ قلت : لم أرها وقد أبئتها عنها . فقال : إن طالت بك حياة لترىين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله ... ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى . قلت : كسرى بن هرمز ؟ قال : كسرى بن هرمز ، قال عدي : فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالبيت لا تخاف إلا الله ، وكنت فيمن افتحت كنوز كسرى بن هرمز ... " ¹

وقد طالب المشركون رسول الله ﷺ أكثر من مرة أن يطرد المستضعفين من المسلمين حتى يجلسوا إليه ، وفي كل مرة كان يتنزل القرآن ويكون موقف رسول الله ﷺ الرفض ، ومن هذه ما أخرجه أبو نعيم عن ابن مسعود قال : مر الملا (أي السادة) من قريش على رسول الله وعنه صهيب وبلال وخباب وعمار - رضي الله عنهم - ونحوهم وناس من ضعفاء المسلمين فقالوا (أي الملا مخاطبين رسول الله) : أرضيت بهؤلاء من قومك ؟ أفنحن نكون تبعاً لهؤلاء ؟ أهؤلاء الذي من الله عليهم ؟ اطردهم عنك فلعلك إن طردتهم اتبعناك قال : فأنزل الله عز وجل :

¹ أخرجه أحمد .

{وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشِرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَئِسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلَيْ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقَوْنَ *
وَلَا تُطْرُدُ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدَاءِ وَالْعَشِيْرِ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا
مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَقَطْرُدُهُمْ فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ} ¹ .. وأخرجه أَحْمَدُ وَالطَّبَرَانِيُّ .

من هذه الأمثلة ترى بشكل واضح استيعاب رسول الله ﷺ لدعوته وثقته بها وبانتصارها ، وانسجام موافقه معها ، ووضوح طريقه أمامه ، ومعرفته بنهايات ما يريد منها . فلم تضطرب بدايات موافقه أبداً مع نهاياتها ، بل كل خطوة تأتي تكون مكملة لما قبلها ، وكل تشريع جديد يأتي متمماً لما قبله ، حتى كملت شريعة الله ، وتم دينه وهذا كله ما كان ليتم لو لا أن محمداً رسول الله .

وهذا أول ما يلزم العمل السياسي العام ، تجده كأكمل ما يكون عند رسول الله .

ويكفيك لتعرف معنى هذا الذي قدمناه ، أن تعلم أن الناس يعتبرون العمل السياسي الإسلامي عملاً مثالياً لا يستطيعه أي إنسان ، فإذا ما عرفنا بعد ذلك أن الرسول عليه الصلاة والسلام استطاع أن يقود الناس بهذا الإسلام . فلا نجد موقفاً من موافقه تناقض مع نصوص ومبادئ دعوته ، وعلمت أنه ما من زعيم سياسي ، إلا ويضطر للتناقض ، إما لاحقاً مع سابق ، أو دعوى مع عمل ، أو داخلياً مع خارجي ، أدركـت مـدى الكـمال فـي الـقيـادة الـمـحمدـية ، وخاصـة إـذـا عـرـفـتـ أـنـهـ لـمـ يـسـطـعـ أـنـ يـرـتفـعـ مـنـ حـكـامـ الـأـمـةـ الـإـسـلـامـيـةـ إـلـىـ الـقـيـادـةـ بـالـإـسـلـامـ الـكـاملـ بـحـقـ إـلـاـ أـفـرـادـ مـنـهـ الـخـلـفـاءـ الـرـاشـدـونـ الـأـرـبـعـةـ ،ـ وـالـثـالـثـ ثـيـرـ عـلـيـهـ وـقـتـلـ ظـلـمـاـ ،ـ وـالـرـابـعـ خـرـجـ عـلـيـهـ وـانـتـصـرـ بـعـدـ ذـلـكـ خـصـمـهـ السـيـاسـيـ .ـ أـمـاـ رـسـوـلـ اللهـ ﷺـ فـقـدـ سـاـسـ النـاسـ بـالـإـسـلـامـ وـلـمـ يـنـزـلـ بـالـإـسـلـامـ إـلـىـ مـسـتـوـىـ النـاسـ بـلـ رـفـعـ النـاسـ إـلـىـ مـسـتـوـاهـ .ـ عـلـىـ وـتـيـرـةـ وـاحـدـةـ وـنـسـقـ وـاحـدـ ،ـ فـيـ الـفـكـرـ وـالـعـمـلـ ،ـ مـنـ بـدـاـيـةـ الدـعـوـةـ حـتـىـ اـنـتـقـالـهـ ﷺـ عـلـىـ الـعـالـمـ الـآـخـرـ .ـ

* * *

2 - استطاعته ﷺ الاستمرار بدعوته تبليغاً وإقناعاً :

إن هناك شيئاً في العادة . يجب أن يتقطن لهما قادة الحركات السياسية
الفكرية الجديدة .

¹ الأنعام : 52 ،

أ - الحرص على استمرار عملية التبليغ والإقناع .

ب - البصر الحكيم بال موقف الذي يتخذ من الخصم .

إن أي دعوة من الدعوات إذا لم تستطع تأمين عملية استمرار التبليغ والإقناع تجمد ، ثم تتحصر ثم تموت ، وأي دعوة من الدعوات لا تتخذ موقف المناسب من الخصم ، تضرب ضربة ساحقة ثم تزول ، ولنضرب هذا مثلاً : إن الهنود عندما أرادوا تحرير بلادهم من الإنكليز ، اختاروا لنفسهم طريق اللاعنف في العمل . ومعناه أن لا يجاهه الإنسان القوة الظالمة بالعنف بل يتحمل ظلمها بصبر حتى تتغير هي عواطفها ، وترتد عن غيها ، وفائدة هذا الطريق أنه يكسب صاحبه عطف الناس وعطف الرأي العام خاصة عندما يكون على حق ، وقد نجح الهنود أخيراً في تحرير بلادهم ولم يكلفهم هذا الطريق ضحايا كثيرة . ولو أنهم سلكوا غير هذا الطريق لما استطاعوا وقتذاك أن يصدوا أمام قوة بريطانيا فيكونوا قد خسروا كثيراً وفشلوا أخيراً .

وأنت عندما تدرس هذين الجانبين في العمل عند رسول الله ﷺ تجد أن رسول الله قد نجح فيهما نجاحاً منقطع النظير ، فرغم تألب الجزيرة العربية كلها عليه كما رأينا في الفصل السابق ، ورغم العداء العنيف الذي ووجه به ، ورغم كل شيء فإن عملية التبليغ لم تنقطع لحظة من اللحظات ، ولعل أهم نقطة تلمحها بعد التوحيد أثناء عرض الرسول ﷺ دعوته على القبائل ، هو الإلحاح على حماية الدعوة ، واستمرارها وتأديتها ، ولقد تجاوز الرسول ﷺ ثلاثة عشر عاماً من المجابهة للمشركين ، دون انقطاع عن العمل ، مما يدل على مقدار نجاحه في هذا الموضوع .

وأما بالنسبة للأمر الثاني فأنت تلاحظ حكمة موافقه تجاه العدو ، فهو في مكة ، يصبر ويأمر أتباعه بالصبر ، ولو فعل غير هذا لخسر أتباعه قتلاً ، ولشغل بذلك في قضايا الثأر ، ولما أمكنه أن يتبع عملية التبليغ ، وكسب بهذه الخطة كثيراً من القلوب .

فإذا ما انتقل إلى المدينة رأيت تجدد موافقه على حسب الظروف الجديدة من معاهدة ، إلى سلام ، إلى حرب ، إلى ضربة هنا ووثبة هناك ، ولكن هذا كله لم يؤثر بتاتاً على عملية تبليغ الحق وإقناع الناس به ، على كل مستوى وبكل وسيلة ملائمة .

وإذا أردت أن تقدر مقدار النجاح المحرز في هذا الطريق فانظر هذه المقارنة :

إن الحركة الشيوعية رغم وسائل القرن التاسع عشر في الدعاية وتفرغ أتباعها فإنها لم تستطع أن تحقق نصراً وتعمم إلا بعد سبعين عاماً من أول بيان أصدره زعيمها .

ولكن الذي حدث بالنسبة للدعوة الإسلامية أن رسول الله ﷺ عمها خلال ثلاث وعشرين عاماً التعميم الذي يرافقه الإقناع . ولهذا فإننا نقول مطمئنون : إنه لم توجد حركة سياسية تقوم على أساس عقدي ، نجحت كما نجحت دعوة رسول الله ﷺ وفي فترة قصيرة . وهذا كذلك يدلنا على أن الأمر أكبر من أن يكون - لولا التوفيق الإلهي - لهذا الرسول الأعظم الفذ على مدى التاريخ بين التاريخ .

* * *

3 - قدرته على استيعاب أتباعه تربية وتنظيمًا وتسخيراً ورعايته :

إن الدعوة العقدية السياسية تصاب من قبل أتباعها بسبب قيادتها من نواح ثلاثة :

1 - ألا تقدر هذه الدعوة على أن تربى أتباعها تربية نموذجية ، بحيث يعطى أتباعها صورة حسنة عنها ، مما يؤدي إلى نفور الناس منها أكثر عن نفورهم من أصحابها . فيكون التابع حجة على الدعوة بدلأً من أن يكون حجة لها . وهذا يؤلب الرأي العام ضدها تاليًا خطيرًا ويعطي الرأي العام حجة تلو الحجة عليها . وعلى العكس من ذلك إذا ما ربي أفرادها تربية نموذجية حية فإن الناس يؤمنون بهم قبل إيمانهم بدعوتهم ، ويحبونهم قبل أن يعرفوا ما يدينون به ، وكم رجال ضربوا دعوتهم بسلوكهم مع أنهم يحملون دعوة عظيمة .

2 - أن يدخل الدعوة ناس ولا تستطيع هذه الدعوة أن تسخر طاقاتهم في سبيلها . فمثلاً هؤلاء يكونون في وضع مشلول ، فلا هم ضد الدعوة ولا هم يقدمون شيئاً لها ، وفي هذه الحالة تكون قيادة الدعوة وحدها متحملة كل مسؤولياتها ، والدعوة إذا كانت على امتداد دائم فإن هذه القيادة ستصبح في وضع لا يسمح لها أن تقوم بكل واجباتها ، وتكون المسألة هكذا ؛ داعية واحد ، ومدعون كثيرون ، أما في الحالة الأخرى فإنك تجد العكس ، وذلك إذا

استطاعت قيادة الدعوة أن تسخر طاقات الأتباع لصالح الدعوة ، لأن المسؤولية وقذفها يتحملها مجموع الأفراد ، فيكون كل فرد لينوب مناب القائد ، وكل فرد يؤدي دوره . وفي النهاية فمهما توسيع دائرة الدعوة تبقى القيادة على قوتها في تحملها .

3 - وعندما لا يحس الأتباع بالرعاية الدائمة ، واللحظة التامة ، وعندما لا يوضعون فيما يحسن وضعهم به ، أو عندما يحسون بأنهم منسيون ، أو عندما لا يعرف الإنسان محله ومهمته المكلف بها كل هذا يؤثر على نفسية الأتباع ويولد عندهم فتوراً عن الدعوة .

هذه النواحي الثلاث لا بد من تلافيتها لأي دعوة تقوم على أساس مبدأ معين وعدم تلافيتها يعطى سير الدعوة ويفتلها .

وأنت عندما تدرس حياة الرسول ﷺ وقيادته لأتباعه تجد تجنبه لهذه الجوانب ، وجود ما يقابلها بشكل لا مثيل له . بحيث تستغرب بعد كيف انتصرت هذه الدعوة ، وهذه الجماعة ، وكيف توسيع على مر الأيام .

ففي الجانب الأول رأيت البحث السابق عن تربية الرسول ﷺ وكيف أن الأمة الإسلامية كل قد وُسعت تربية ، وكيف ارتفع الأفراد من طور إلى طور بحيث أصبحوا نماذج يقتدي بها .

وفي الجانب الثاني ترى الحركة الدائمة التي كان يجعل أصحابه دائماً يعيشونها . فإذا أسلم رجل رباه التربية الإسلامية ثم كلفه أن يقوم بأعباء الدعوة في جهة من جهاتها ، أو يقوم بجزء من أعبيها ، وفي الجانب الثالث ترى دقة الرسول ﷺ في الرعاية والعناية والجهد على شؤون الأتباع بشكل عجيب ، ولعل هذا الجانب هو الأحق بالتمثيل هنا لأن الجانبين الآخرين مثل لهما في هذا المقام !!

أخرج ابن إسحاق عن أم سلمة أنها قالت : لما ضاقت مكة ، وأوذى أصحاب رسول الله وقتوا ورأوا ما يصيّبهم من البلاء والفتنة في دينهم ، وأن رسول الله لا يستطيع دفع ذلك عنهم ، وكان رسول الله في منعة من قومه ومن عمه ، لا يصل إليه شيء مما يكره ، ومما ينال أصحابه . فقال لهم رسول الله : " إن بأرض الحبشة ملكاً لا يظلم أحد عنده فالحقوا بيلاده

، حتى يجعل الله لكم فرجاً ومحراجاً مما أنتم فيه " وقد وجهم مرتين إلى الحبشة . مرة في السنة الخامسة . ومرة في السنة السابعة ، حيث كان المسلمين مقدمين على أعظم مراحل الاضطهاد ، مرحلة المقاطعة الشاملة .

وعندما قرر الرسول ﷺ الهجرة إلى المدينة ، وجه أتباعه كلهم قبله ، وبقي في مكة حتى إذا لم يبق إلا من له عذر خرج مهاجراً . وأخرج أحمد عن شداد بن عبد الله قال : قال أبو أمامة : يا عمرو بن عبسة بأي شيء تدعى أنك ربع الإسلام ؟ قال : إني كنت في الجاهلية أرى الناس على ضلاله ولا أرى الأوثان شيئاً ، ثم سمعت عن رجل يخبر أخباراً بمكة ويحدث أحاديث ، فركبت راحلتي حتى قدمت مكة ، فإذا أنا برسول الله مستخف وإذا قومه عليه جراء فلتفت له فدخلت عليه فقالت : ما أنت ؟ قال : أنا نبي الله ، فقلت : وما نبي الله ؟ قال : رسول الله . قال : قلت الله أرسلك ؟ قال : نعم . قلت : بأي شيء أرسلك ؟ قال : بأن يوحد الله ولا يشرك به شيء وكسر الأوثان وصلة الرحم . فقلت : من معك على هذا ؟ قال : حر وعبد / أو عبد وحر / وإذا معه أبو بكر بن أبي قحافة وبلال مولى أبي بكر . فلت : إني متبعك . قال : إنك لا تستطيع يومك هذا ، ولكن ارجع إلى أهلك . فإذا سمعت بي قد ظهرت فالحق بي . قال : فرجعت إلى أهلي وقد أسلمت . فخرج رسول الله مهاجراً إلى المدينة ، فجعلت أتخير الأخبار حتى جاء ركبه من يثرب . فقلت ما هذا المكي الذي أتاكم ؟ قالوا : أراد قومه قتله فلم يستطعوا ذلك ، وحيل بينهم وبينه ، وتركنا الناس سراعاً . قال عمرو بن عبسة : فركبت راحلتي حتى قدمت عليه المدينة فدخلت عليه فقالت : يا رسول الله أتراني ؟ قال : نعم . ألسن أنت الذي أتتني بمكة ؟ قال : قلت بلـ .

هذه ثلاثة أمثلة تدلّك على مبلغ دقة الرسول ﷺ في توجيه أصحابه بالشكل الذي يحمون فيه ويؤمنون ، وكيف أنه لا ينسى أحداً منهم ، بل يستوعبهم جميعاً برعايته ، وكيف يعدهم للحظة المناسبة ، وكيف يسير كل واحد منهم بحكمة تناسب وضعه .

ولا ننتقل بك من هذا البحث حتى نضرب لك أمثلة أخرى على سهره ﷺ على حاجات أتباعه الشخصية وتأمينها لهم .

أخرج أحمد والبخاري عن مجاهد أن أبي هريرة كان يقول : والله إن كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع ، وإن كنت لأشد الحجر على بطني من الجوع ، ولقد قعدت يوماً على طريقهم الذي يخرجون منه ، فمر أبو بكر فسألته عن آية من كتاب الله ما سأله إلا

ليستبعني فلم يفعل ، فمر عمر فسألته عن آية من كتاب الله ما سأله إلا لاستبعني فلم يفعل ، فمر أبو القاسم فعرف ما في وجهي وما في نفسي فقال : أبا هريرة ، قلت له : لبيك يا رسول الله . فقال : الحق واستأنت فأذن لي فوجدت لبناً في قدر قال : من أين لكم هذا اللبن قالوا : أهداه لنا فلان - أو آل فلان - قال : أبا هر ! قلت : لبيك يا رسول الله . قال : انطلق إلى أهل الصفة فادعهم لي . قال : وأهل الصفة أضياف الإسلام لم يأولوا إلى أهل ولا مال إذا جاءت رسول الله هدية أصاب منها وبعث إليهم منها ، وإذا جاءته الصدقة أرسل بها إليهم ولم يصب منها ، قال : وأحزنني ذلك وكنت أرجو أن أصيب من اللبن شربة أتقوى به بقية يومي وليلتي ، وقلت : أنا الرسول ، فإذا جاء القوم كنت أنا الذي أعطيهم ، وقلت : ما يبقى لي من هذا اللبن ، ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله بد ، فانطلق فدعوتهم فأقبلوا فاستأنفوا فأذن لهم فأخذوا مجالسهم من البيت ثم قال : أبا هر ! خذ فأطعمهم . فأخذت القدر فجعلت أعطيهم فأخذ الرجل القدر فيشرب حتى يروى ثم يرد القدر حتى أتت على آخرهم ، ودفعت إلى رسول الله فأخذ القدر فوضعه في يده وبقي فيه فضة ثم رفع رأسه ونظر إلى وتبسم وقال : أبا هر قلت : لبيك يا رسول الله . قال : بقيت أنا وأنت . قلت : صدق يا رسول الله . قال : فاقعد فأشرب . قال : فقعدت فشربت ثم قال لي : اشرب فشربت ، مما زال يقول لي اشرب فأشرب حتى قلت : لا والذي بعثك بالحق ما أجد له في مسلكاً ، قال : ناولني القدر فرددت إليه القدر فشرب من الفضة .

وأخرج أحمد عن ربيعة الأسلمي قال :

كنت أخدم النبي فقال لي : يا ربيعة ألا تزوج ؟ قلت : لا والله يا رسول الله ما أريد أن أتزوج وما عندي ما يقيم المرأة وما أحب أن يشغلني عنك شيء فأعرض عنك ، ثم قال لي الثانية : يا ربيعة ألا تزوج ؟ قلت : ما أريد أن أتزوج ما عندي ما يقيم المرأة وما أحب أن يشغلني عنك شيء فأعرض عنك ، ثم رجعت إلى نفسي قلت : والله لرسول الله أعلم مني بما يصلحني في الدنيا والآخرة ، والله لئن قال لي ألا تزوج ، لأقولن : نعم يا رسول الله . مرنى بما شئت . فقال لي : يا ربيعة ألا تزوج ؟ قلت : بلى مرنى بما شئت . قال : انطلق إلى آل فلان حي من الأنصار كان فيهم تراخ عن رسول الله ﷺ فقل لهم : إن رسول الله أرسلني إليكم يأمرني أن تزوجوني فلاته لامرأة منهم ، فذهبت إليهم قلت لهم : إن رسول الله ﷺ أرسلني إليكم يأمركم أن تزوجوني ، قالوا : مرحاً برسول الله وبرسول رسول الله ﷺ ، والله لا يرجع رسول رسول الله ﷺ إلا بحاجته . فزوجوني وألطفوني وما سألوني البينة .

فرجعت إلى رسول الله ﷺ حزيناً . فقلت : يا رسول الله ! أتيت قوماً كراماً فزوجوني وأطفوني وما سألوني البينة وليس عندي صداق .

قال رسول الله ﷺ : يا بريدة الإسلامي اجمعوا له وزن نواة من ذهب . قال : فجمعوا لي وزن نواة من ذهب ، فأخذت ما جمعوا لي فأتيت النبي ﷺ قال اذهب بهذا إليهم فقل لهم : هذا صداقها . فأتيتهم فقلت : هذا صداقها ، فقبلوه ورضوه وقالوا : كثير طيب ، قال : ثم رجعت إلى رسول الله ﷺ فقال : يا ربعة ما لك حزيناً ؟ فقلت : يا رسول الله ما رأيت قوماً أكرم منهم ورضوا بما آتتكم وأحسنوا وقالوا : كثير طيب ، وليس عندي ما أولم . فقال : يا بريدة اجمعوا له شاة . قال : فجمعوا له كبشًا عظيمًا سميناً ، فقال رسول الله ﷺ : اذهب إلى عائشة - رضي الله عنها - فقل لها : فلتبعد بالمكتل الذي فيه الطعام . قال : فأتيتها فقلت لها ما أمرني به رسول الله ﷺ فقالت هذا المكتل في سبع أصع شعير ، لا والله لا والله : إن أصبح لنا طعام غيره فخذه . قال : فأخذته فأتيت به النبي ﷺ وأخبرته بما قالت عائشة ، قال : اذهب بهذا إليهم فقل لهم ليصبح هذا عندكم خيزاً وهذا طبيخاً ، فقالوا : أما الخبز فسنكيفكموه وأما الكبش فاكفونا أنت ، فأخذنا الكبش أنا وأناس من أسلم فذبحناه وسلخناه وطبخناه فأصبح عندنا خبز ولحم فأولمت ودعوت النبي ﷺ .

وأخرج أحمد عن أبي بربة الإسلامي - رضي الله عنه - أن جليبيباً كان امرأً يدخل على النساء يمر بهن ويلاعبهن فقلت لامرأتي :

لا تدخل عليكم جليبيباً ، إن دخل عليكم لأفعلن ولا فعلن .

قال : وكانت الأنصار إذا كان لأحدهم أم لم يزوجها حتى يعلم هل للنبي ﷺ فيها حاجة أم لا . فقال النبي ﷺ لرجل من الأنصار : زوجني ابنتك ! قال : نعم وكرامة يا رسول الله ونعمه عين ! قال : إني لست أريد لها لنفي ، قال فلمن يا رسول الله ؟ قال : لجليبيب ، قال : أشاور أمها ، فقال : إن رسول الله ﷺ يخطب ابنته ، قالت : نعم ونعمه عين ، قال : إنه ليس يخطبها لنفسه إنما يخطبها لجليبيب ، قالت : لجليبيب ، أنيه لجليبيب أنيه ، لا لعمر الله لا نزوجه ! فلما أن أراد ليقوم ليأتي النبي ﷺ ليخبره بما قالت أمها قالت الجارية : من خطبني إليكم ؟ فأخبرتها أمها . فقالت : أتردون على رسول الله ﷺ أمره ! ادفعوني إليه فإنه لن يضيعني ! فانطلق أبوها إلى رسول الله ﷺ فأخبره ، فقال : شأنك بها ، فزوجها جليبيباً ، قال : فخرج رسول الله ﷺ في غزارة له ، قال : فلما أفاء الله الله عز وجل عليه قال : هل تفقدون من

أحد ؟ قالوا : لا . قال : لكتني أفقد جليبياً ، قال : فاطلبوه . فوجدوه إلى جنب سبعة قتلام ثم قتلوا فقلوا : يا رسول الله ها هو ذا إلى جنب سبعة قتلام ثم قتلوا ، فأئمه النبي ﷺ فقال : قتل سبعة ثم قتلوا . هذا مني وأنا منه - مرتين أو ثلاثة . ثم وضعه رسول الله ﷺ على ساعديه وحرر له ، ما له سرير إلا ساعده النبي ﷺ ثم وضعه في قبره ، لم يذكر أنه غسله ، قال ثابت مما كان في الأنصار أيم أنفق منها " .

ولعل في هذه الأمثلة كفاية على إبراز مقدار رعايته ﷺ لأتباعه واستيعابهم في كل الجوانب .

* * *

4 - الثقة التي كان يتمتع بها ﷺ عند أتباعه :

للثقة بين الناس وقادتهم أهمية عظيمة جداً عند أصحاب الفكر السياسي ؛ لذلك ترى في أنظمة الحكم الديمقراطية أن الحكومة تبقى حاكمة ما دامت متمتعة بثقة شعبها التي تعرفها بعض الوسائل ، وقد يُقال كونفوشيوس حكيم الصين : إن الحكومة ينبغي أن توفر لشعبها الثقة بها والحماية له بتوفير أسباب القوة والطعام والشراب وما يلزم . قالوا : فإن لم تستطع أن تؤمن بهذه الأشياء الثلاثة قال : تتخلى عن تأمين الطعام والشراب ، قالوا : فإن لم تستطع تأمين الاثنين الآخرين قال : تتخلى عن تأمين القوة والحماية ولا تقرط في الثقة " .

وهذا شيء معقول إذ ما دام الناس واثقين بحكومتهم وتعاونين معها ، فإنهم يستطيعون وبالتالي أن يسدوا النواقص ، أما إذا فقدت الثقة ، فقد تلاشى كل شيء ، فقدت الأمة قوتها وحمايتها وهذا شيء مُحْرَب ، إن فقدان الثقة يُشل العمل السياسي ويميت حركة الأمة ويضعف روحها المعنوية ، ويضرّب اقتصادها وبالتالي يهوي بها .

لذلك كان من أهم عوامل نجاح القائد السياسي للأمة ثقة الأمة به ومحبتها له ، فإن هذا إذا وجد يغوص كل النواقص وكل الفراغات ، فإذا ما وضح هذا بشكل عام نقول :

إن تاريخ العالم كله لا يعرف مثلاً واحداً يشبه ما كانت عليه ثقة أتباع الرسول ﷺ به .

إن ثقة الناس بالقائد الرسول ، كانت ثقة غير متناهية ، يكفي لإدراكتها أن ترى بعضاً من مواقف الصحابة في أدق وأصعب وأحرج الأحوال :

في يوم العقبة حيث تم اللقاء بين الرسول ﷺ والوفد الثاني للأنصار كان من أمرهم ما ذكره ابن هاشم :

قال العباس بن عبدة بن نضلة الأنباري : يا معشر الخزرج ! هل تدرؤن علام تباعون هذا الرجل ؟ قالوا : نعم . قال : إنكم تباعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس . فإن كنتم ترون أنكم إذا أنهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلاً أسلتموه ؟ فمن الآن فهو والله إن فلتم خزي الدنيا والآخرة ، وإن كنتم ترون أنكم وافوه بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة . قالوا : فإننا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف ... ”

وقال أبو الهيثم بن التيهان : يا رسول الله وإن بيننا وبين الناس حبالاً (أي أحلافاً وعهوداً) فلعلنا نقطعها ثم ترجع إلى قومك وقد قطعنا الحبال وحاربنا الناس . فضحك رسول الله ﷺ من قوله وقال : الدم الدم ، الهدم الهدم ، وفي رواية : بل الدم الدم والهدم الهدم . أنا منكم وأنتم مني ، أحارب من حاربتم وأسلم من سالمتم .

ثم أقبل أبو الهيثم على قومه فقال يا قوم هذا رسول الله ﷺ أشهد أنه لصادق وأنه اليوم في حرم الله وأمنه وبين ظهي قومه وعشيرته ، فاعلموا أنه إن تخرجوه رمتكم العرب عن قوس واحدة ، فإن كانت طابت أنفسكم بالقتال في سبيل الله وذهب الأموال والأولاد فادعوه إلى أرضكم فإنه رسول الله حقاً ، وإن خفتم خذلاناً فمن الآن . فقالوا عند ذلك : قبلنا عن الله وعن رسوله ما أعطيانا ، وقد أعطينا من أنفسنا الذي سألتني يا رسول الله ، فخل بيننا يا أبي الهيثم وبين رسول الله فلنبايعه ، فقال أبو الهيثم : أنا أول من بايع .

وأخرج أحمد من حديث بيعة العقبة :

فقلنا (أي الأنصار) : يا رسول الله علام نبايعك ؟ قال : تباعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل ، والنفقة في العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن تقولوا في الله لا تخافوا في الله لومة لائم ، وعلى أن تتصررونني فتمنعوني إذا

قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة . فقمنا إليه وأخذ بيده أسعد بن زراره - رضي الله عنه - وهو أصغرهم فقال : رويداً يا أهل يثرب فإننا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ، وإن إخراجه اليوم مناؤة للعرب كافة وقتل خياركم وتعضم السيف ، فإذاً أنتم قوم تصبرون على ذلك فخذوه وأجركم على الله ، وإنما أنتم قوم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه ، فيبينوا ذلك فهو أذر لكم عند الله قالوا : أمط عنا يا سعد فوالله لا ندع هذه البيعة ولا نسلبها أبداً " .

من هذه النصوص يشعر الإنسان بمقدار الثقة التي كانت تملأ قلوب هذا الرعيل الأول مع معرفتهم بما سيترتب على هذه البيعة من آثار مخيفة .

ومن مواقف مقدمات معركة بدر كما أخرجها ابن إسحاق في سيرة ابن هشام .

قال رسول الله ﷺ مخاطباً أصحابه : ما ترون في قتال القوم ؟ فقام المقداد بن عمرو فقال : إذاً لا نقول لك يا رسول الله كما قال قوم موسى لموسى - عليه السلام - اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هنا قاعدون .

تكلم آخرون ثم قال سعد بن عبادة : إيانا يريد رسول الله ﷺ والذي نفسي بيده لو أمرتنا أن نخوضها البحار لأخضناها ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى بر الغمام لفعلنا .

وقال سعد بن معاذ : والله لكأنك تريدين يا رسول الله

قال : أجل

قال : قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيتك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك ، فوالذي بعثك بالحق لو استرضعت بنا البحر فخضته لخضناه معك ما تختلف منا رجل واحد ، وما نكره أن نلقى بنا عدونا غداً إن لصبر في الحرب صدق في اللقاء لعل الله يريك ما تقر به عينك فسر على بركة الله .

هذه المواقف ، وكل حياة الرسول ﷺ مع أصحابه مواقف من هذا النوع تدلّك على مقدار الثقة التي كانت لرسول الله في قلوب أصحابه .

والحقيقة أن شخصية الرسول ﷺ كانت من الأسر والقوة والنفوذ ، بحيث لا يملك من يخالطها إلا أن يذوب فيها ، إلا إذا كانت شخصيته معقدة ، ولعل في قصة مولاه زيد بن حارثة ما يؤكّد هذا المعنى . إذ يأتي أبو زيد وأعمامه ليشتروه ويرجعوا به إلى أهله حرّاً ولكن زيداً يختار صحبة محمد مع العبودية والغرابة . على فراقه مع الحرية ولقاء الأهل ، وهذه ظاهرة عجيبة أن يصادر زيد أهله بهذا . وهو ليس صغير السن بل كان وقتذاك ناضج الفكر ، فكافأه محمد ﷺ (كان ذلك قبل النبوة) أن حرره وتبناه .

ويكفي ما ذكرناه في هذا الباب . فالسيرة وحياة الصحابة كلها شواهد على أن الثقة التي تمتّع بها رسول الله ﷺ بين أتباعه لم يعرف العالم لها مثيلاً .

* * *

5 - استطاعة القائد الاستفادة من كل إمكانيات الأتباع العقلية والجسمية أثناء الحركة ، مع المعرفة الدقيقة بإمكانية كل منهم ووضعه في محله :

إن عقريّة القيادة لا تظهر في شيء ظهرت في معرفة الرجال ، ووضع كل في محله ، واستخراج طاقات العقول بالشوري ، واستخلاص الرأي الصحيح ، وفي كل من هذين كان الرسول ﷺ الأسوة العليا للبشر .

إن الشوري في فن السياسة عملية تستجمع فيها طاقات العقول كلها لاستخلاص الرأي الصالح ، ويتحمّل فيها كل فرد مسؤولية القرار النهائي ، ويقتضي فيها كل فرد بالنتيجة . فيندفع نحو المراد بقوّة ، وترتفع بها ملكات الفرد وروح الجماعة . ويبقى الإنسان فيها على صلة بمشاكل أمه وجماعته ، ولذلك جعل الله أمر المسلمين شوري بين المسلمين ، حتى يتحمّل كل فرد من المسلمين المسؤولية كاملة ولا يبقى مسلم مهملاً .

والظاهرة التي نراها في حياة الرسول ﷺ كقائد . حبه للشوري ، وحرصه عليها ، ومحاولته توسيع دائتها ، واستخلاصه الرأي الأخير في النهاية :

قبيل غزوة بدر استشار الناس فأشار المهاجرون ، فلم يكتف ، ثم استشار الناس فأشار الخزرج والأوس ثم اتخذ قراره الأخير في الحرب حتى يمحو أي تردد عن أي نفس .

ولما عسكر المسلمون يوم بدر في أدنى ماء جاء الحباب بن منذر إلى رسول الله ﷺ فقال : أرأيت هذا المنزل أمنز لاً أنزلكه الله ليس لنا أن نقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأي وال الحرب والمكيدة ؟

قال : بل هو الرأي وال الحرب والمكيدة .

قال : يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى نأتي ماء من القوم فتعسّر فيه ثم نغور ما رواه من الآثار ثم نبني عليه حوضاً فنملاه ماء ثم نقاتل القوم فنشر ولا يشربون . فقال رسول الله ﷺ : لقد أشرت بالرأي . ونفذ ما أشر به^١ .

وقيبل يوم أحد استشار الناس وأخذ برأي الأكثريه . ويوم الأحزاب أخذ برأي سلمان الفارسي . ويوم الحديبية أشارت عليه أم سلمة زوجته فأخذ برأيها .

إنها القيادة التي لا تستكير أن تنزل على رأي مسلم كائناً من كان ، ما دام الرأي سليماً صحيحاً ، والقيادة الصالحة هي التي تعم الشورى حتى لا يبقى أحد عنده رأي إلا قاله ، وخاصة فيما يكون فيه غرم .

بعد غزوة حنين جاءت هوازن مسلمة وسألوا رسول الله ﷺ أن يرد عليهم سببهم وثروتهم فقال لهم : إن معي من ترون وإن أحب الحديث إلى أصدقه فأبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم موالكم ؟ قالوا : ما كنا نعدل بالأحساب شيئاً . فقام رسول الله ﷺ في المسلمين فأثنى على الله ما هو أهلها ثم قال : أما بعد فإن إخوانكم هؤلاء قد جاءوا تائبين وإنني قد رأيت أن أرد إليهم سببهم فمن أحب أن يطيب ذلك فليفعل ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول مال يفيء الله علينا فليفعل فقال الناس : قد طيبنا ذلك يا رسول الله ، فقال

^١ أخرجه ابن إسحاق .

لهم : إنا لا ندرى من أذن منكم ممن لم يأذن فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم ، فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم ثم عادوا إلى رسول الله ﷺ يخبرونه أنهم قد طيبوا وأندوا .

إنها الشورى التي يأخذ فيها كل إنسان حقه . ولقد علم المسلمين من نبيه هذا فأحسنوا القيام به ، حتى إن كان عمر بن الخطاب ليستشير المرأة فربما أبصر في قوله الشيء يستحسنه فيأخذ به .

* * *

وأما معرفة الرجال ووضع كل في محله المناسب له وتكتيفه بالمهمة التي يصلح لها فكذلك لا يلحق برسول الله ﷺ أحد فيها .

إن أبا بكر وعمر كانوا في زمن رسول الله ﷺ يلقبهما الصحابة بالوزيرين له ، وكان يسمى معهما في قضايا المسلمين ، ولما مرض ﷺ أمر أبا بكر أن يصلي بالناس وهذا الذي جعل المسلمين يختارونه بعده خليفة ، ثم كان عمر الخليفة الثاني ، والناس يعرفون ماذا فعل أبو بكر وعمر يوم حكما الناس ، فهل يشك أحد أن تركيز الرسول ﷺ على هاتين الشخصيتين كان في محله ، وأنهما من الكفاءة في المحل الأعلى وأن رأي رسول الله ﷺ فيهما في محله . وهذا مثلان فقط وإنما اختار رسول الله ﷺ رجلاً إلا ورأيت الحكمة في هذا الاختيار .

يقول عمرو بن العاص في قصة إسلامه وخالد بن الوليد : فوالله ما عدل بي رسول الله ﷺ وبخالد بن الوليد أحداً من أصحابه في أمر حزبه منذ أسلمنا .

وما أحد إلا ويعرف كفاءة هذين الرجلين من آثارهما بعد .

وعندما أتى وفد بني تميم إلى رسول الله ﷺ قالوا : يا محمد جئناك نفاخرك فأذن لشاعرنا وخطيبنا .

قال : قد أذنت لخطيبكم فليقل . فقام عطارد بن حاجب فقال ، فأمر رسول الله ﷺ ثابت بن قيس الخزرجي أن يرد عليه فرد ، ثم قال شاعر بني تميم فقال ، فأمر رسول الله ﷺ حسان بن ثابت أن يرد ، فغلب خطيب رسول الله ﷺ خطيبهم وشاعر رسول الله ﷺ شاعرهم .

لكل مقام رجال وكان رسول الله ﷺ أكثر الخلق فراسة في اختيار الرجل المناسب للمقام المناسب .

ولعل في قصة نعيم بن مسعود بالغ الدلالة على ما قلناه :

" كان نعيم بن مسعود حسن الصلة بكل القبائل المعايدة للمسلمين يوم الأحزاب سواء في ذلك يهود بنى قريطة أو قومه أو قريش ... وفي أحلك اللحظات أيام الأحزاب أسلم نعيم وقد أصبح المسلمون بين بنى قريطة في الداخل والمرشحين بعد الخندق ، وإذا أتي المسلمين من قبل قريطة لم يعد يصلح خط دفاع المسلمين واضطروا للدخول في معركة مفتوحة ليست متكافئة ولذلك فإن الرسول ﷺ وقد أسلم نعيم يكلفه ألا يعلن إسلامه وأن يقوم بعملية تخالل صف العدو .

يقول عليه الصلاة والسلام لنعيم : إنما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة .

ورجع نعيم وكان من أمره ما سبقه عليك مما يشهد أن اختيار رسول الله ﷺ كان موفقاً غاية التوفيق .

خرج نعيم حتى أتى بنى قريطة وكان لهم نديماً في الجاهلية فقال : يا بنى قريطة قد عرفتم ودي إياكم وخاصة ما بيني وبينكم .

قالوا : صدقت لست عندما بمنتهم .

قال لهم : إن قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم . البلد بلدكم ، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم ، لا تقدرون على أن تحولوا منه إلى غيره . وإن قريشاً وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه ، وقد ظاهرت موهم عليه ، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره ، فليسوا كأنتم ، فإن رأوا نزهة أسلوبها ، وإن كان غير ذلك لحقوا بيلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل بلدكم ، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم ، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تتجاوزوه . قالوا له : لقد أشرت بالرأي .

ثم خرج حتى أتى قريشاً ، فقال لأبي سفيان ومن معه : قد عرفتم ودي لكم وفارقـي
محمدًا ، وإنـه قد بلغـني أمرـ رأـيتـ علىـ حـقـاً أـنـ أـبلغـكمـوهـ نـصـحاً لـكـمـ فـاكـتمـواـ عنـيـ .ـ فـقالـواـ :ـ
نـفـعـ .ـ قـالـ :ـ تـعـلـمـواـ أـنـ مـعـشـرـ يـهـودـ قـدـ نـدـمـواـ عـلـىـ مـاـ صـنـعـواـ فـيـمـاـ بـيـنـهـمـ وـبـيـنـ مـحـمـدـ .ـ وـقـدـ
أـرـسـلـواـ إـلـيـهـ :ـ إـنـاـ قـدـ نـدـمـنـاـ عـلـىـ مـاـ فـعـلـنـاـ ،ـ فـهـلـ يـرـضـيـكـ أـنـ نـأـخـذـ لـكـ مـنـ الـقـبـيلـيـنـ قـرـيشـ وـغـطـفـانـ
رـجـالـاـ مـنـ أـشـرـافـهـمـ فـنـعـطـيـكـهـمـ ،ـ فـتـضـرـبـ أـعـنـاقـهـمـ ؟ـ ثـمـ تـكـوـنـ لـكـ عـلـىـ مـنـ بـقـيـ مـنـهـمـ حـتـىـ
نـسـتـأـصـلـهـمـ .ـ فـأـرـسـلـ إـلـيـهـ أـنـ نـعـمـ .ـ فـإـنـ بـعـثـتـ إـلـيـكـ يـهـودـ يـلـتـمـسـونـ مـنـكـ رـهـنـاـ مـنـ رـجـالـكـ فـلـاـ
تـدـفـعـوـاـ إـلـيـهـمـ مـنـكـ رـجـلاـ وـاحـدـاـ .ـ

ثم خرج حتى أتى غطافـانـ فقال : يا مـعـشـرـ غـطـفـانـ إـنـكـمـ أـصـلـيـ وـعـشـيرـتـيـ وـأـحـبـ النـاسـ
إـلـيـ .ـ وـلـاـ أـرـاـكـمـ تـتـهـمـونـيـ .ـ قـالـواـ :ـ صـدـقـتـ ،ـ مـاـ أـنـتـ عـنـدـنـاـ بـمـتـهـمـ .ـ قـالـ :ـ فـاكـتمـواـ عنـيـ ،ـ قـالـواـ
:ـ نـفـعـ .ـ ثـمـ قـالـ لـهـمـ مـثـلـ ماـ قـالـ لـقـرـيشـ وـحـذـرـهـمـ مـاـ حـذـرـهـمـ ..

فـلـمـاـ كـانـتـ لـيـلـةـ السـبـتـ مـنـ شـوـالـ سـنـةـ خـمـسـ وـكـانـ مـنـ صـنـعـ اللهـ لـرـسـولـهـ أـرـسـلـ أـبـوـ
سـفـيـانـ وـرـؤـوسـ غـطـفـانـ إـلـيـ بـنـيـ قـرـيـظـةـ عـكـرـمـةـ بـنـ أـبـيـ جـهـلـ فـيـ نـفـرـ مـنـ قـرـيشـ وـغـطـفـانـ فـقـالـواـ
لـهـمـ :ـ إـنـاـ لـسـنـاـ بـدـارـ مـقـامـ فـقـدـ هـلـكـ الـخـفـ وـالـحـافـرـ .ـ فـاغـدـوـ لـلـقـتـالـ حـتـىـ نـنـاجـزـ مـحـمـدـاـ وـنـفـرـغـ مـمـاـ
بـيـنـنـاـ وـبـيـنـهـ .ـ فـأـرـسـلـواـ إـلـيـهـمـ أـنـ الـيـوـمـ يـوـمـ السـبـتـ ،ـ وـهـوـ يـوـمـ لـاـ نـعـمـلـ فـيـهـ شـيـئـاـ ،ـ وـقـدـ كـانـ أـحـدـ
فـيـهـ بـعـضـنـاـ حـدـثـاـ فـأـصـابـهـ مـاـ لـمـ يـخـفـ عـلـيـكـمـ .ـ وـلـسـنـاـ مـعـ ذـلـكـ بـالـذـينـ نـقـاتـلـ مـحـمـدـاـ مـعـكـمـ حـتـىـ
تـعـطـوـنـاـ رـهـنـاـ مـنـ رـجـالـكـمـ يـكـونـونـ بـأـيـدـيـنـاـ ثـقـةـ لـنـاـ .ـ حـتـىـ نـنـاجـزـ مـحـمـدـاـ .ـ إـنـاـ نـخـشـيـ إـنـ ضـرـسـتـكـمـ
الـحـرـبـ وـاشـتـدـ عـلـيـكـمـ الـقـتـالـ أـنـ تـشـمـرـوـاـ إـلـىـ بـلـادـكـمـ وـتـرـكـوـنـاـ وـالـرـجـلـ فـيـ بـلـدـنـاـ .ـ وـلـاـ طـافـةـ لـنـاـ
بـذـلـكـ مـنـهـ .

فـلـمـاـ رـجـعـتـ إـلـيـهـمـ الرـسـلـ بـمـاـ قـالـتـ بـنـوـ قـرـيـظـةـ ،ـ قـالـتـ قـرـишـ وـغـطـفـانـ :ـ وـالـلهـ إـنـ الـذـيـ
حـدـثـكـمـ نـعـيمـ بـنـ مـسـعـودـ لـحـقـ ،ـ فـأـرـسـلـواـ إـلـيـ بـنـيـ قـرـيـظـةـ :ـ إـنـاـ وـالـلهـ لـاـ نـدـفـعـ إـلـيـكـ رـجـلاـ وـاحـدـاـ مـنـ
رـجـالـنـاـ .ـ فـإـنـ كـنـتـمـ تـرـيـدـونـ الـقـتـالـ فـاخـرـجـوـاـ وـقـاتـلـوـاـ .ـ فـقـالـتـ بـنـوـ قـرـيـظـةـ حـيـنـ اـنـتـهـتـ إـلـيـهـمـ بـهـذاـ :ـ
إـنـ الـذـيـ ذـكـرـ لـكـمـ نـعـيمـ لـحـقـ مـاـ يـرـيدـ الـقـوـمـ إـلـاـ أـنـ يـقـاتـلـوـاـ .ـ فـإـنـ رـأـواـ فـرـصـةـ اـنـتـهـزـوـهـاـ وـإـنـ كـانـ
غـيـرـ ذـلـكـ اـنـشـمـرـوـاـ إـلـىـ بـلـادـهـمـ .ـ وـهـكـذـاـ أـفـلـحـ الـمـسـلـمـونـ فـيـ فـصـمـ عـرـىـ التـحـالـفـ بـيـنـ الـأـحـزـابـ
الـمـجـتمـعـةـ عـلـيـهـمـ .

٦ - قدرته الكاملة م على حل المشاكل الطارئة :

إن الدعوات والتنظيمات السياسية التي تقوم على أساسها ، كثيراً ما تضرب بسبب مشكلة طارئة لا تستطيع القيادة أن تحلها حلاً موقعاً ، مما يؤدي إلى انقسام أصحابها أو ضربها والقضاء عليها ، وكلما كانت القيادة أقدر على حل المشاكل كان ذلك أضمن لنجاح الدعوة .

وقد يحدث أن بعض القيادات تحل المشاكل حلاً غير مشروع فتستعمل القوة مع أتباعها ، فتبعد المعارضين أو تسجنهم .. كما نرى كثيراً من هذا في عصرنا الحاضر . إلا أن الظاهرة التي لا مثيل لها في تاريخ القيادات أنك تجد عند رسول الله م قدرة لا مثيل لها على حل المشاكل بكل بساطة ، هذا مع سلوك الطريق الألطف مع الأتباع . والذي عرف العرب عن كثب يدرك أي قيادة هذه القيادة التي استطاعت أن تشق الطريق بأقل قدر ممكن من المتاعب .

إنه لا توجد أمة في العالم أكثر مشكلات من الأمة العربية ، إذ العوامل النفسية التي تثير المشاكل كثيرة جداً ، فكلمة قد تثير حرباً ، وجرح كرامة قد يؤدي إلى ويلات ، ونظام للثارات ، وشعور بالولاء ، وعواطف متاججة ، وعصبية عارمة ، وجرأة نادرة ، وقوة ، وصلابة ، وعدم انصباط ... وكل واحدة من هذه تحتاج إلى قيادة تتمتع بكفاءة منقطعة النظير ، وكان رسول الله م القائد الفذ الذي استطاع أن يدير أمر هذا الشعب القوي المراس ويحل كل مشاكله بكل بساطة . وهذه أمثلة على حلوله السريعة للمشاكل :

حله م لمشكلة وضع الحجر الأسود قبل النبوة حين هدمت قريش الكعبة وأعادت بناءها . وهذه رواية ابن إسحاق للحادث . قال :

ثم إن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها ، كل قبيلة تجمع على حدة ، ثم بنوها حتى بلغ البناء موضع الركن ، فاختصموا فيه ، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى حتى تحاوزوا وتحالفوا وأعدوا للقتال ، فربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً ثم تعاقدوا هم وبني عدي بن كعب بن لؤي على الموت وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة ، فسموا لعقة الدم . فمكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمساً ، ثم إنهم اجتمعوا في

المسجد وتشاوروا وتناصفوا . فزعم (إذ يروى أن المشير على قريش مشهم بن المغيرة ، ويكنى أبا حذيفة) بعض أهل الرواية : أن أبا أمية بن المغيرة عبد الله بن عمر بن مخزوم ، وكان عامئذ أسن قريش كلها ، قال : يا معشر قريش ، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضى بينكم فيه ، ففعلوا .

فكان أول دخل عليهم رسول الله ﷺ فلما رأوه قالوا : هذا الأمين ، رضينا . هذا محمد . فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر ، قال ﷺ هلم إليّ ثوباً ، فأتي به ، فأخذ الركن فوضعه فيه بيده ، ثم قال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من التّوْب ، ثم ارفعوا جميعاً ، ففعلوا . حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده ، ثم بنى عليه .

* * *

نموذج من حلوله ﷺ السريعة لمشاكل المناقفين :

نزل المسلمون مرجع رسول الله ﷺ يوم غزو بني المصطلق على ماء فحدثت حادثة أراد عبد الله بن أبي أن يستغلها ليهدم وحدة صفات المسلمين ، وهو قدّيماً رأس قومه ، فانر ماهية الحادثة وكيف حلها رسول الله ﷺ .

يقول ابن هشام : فيينا رسول الله ﷺ على ذلك الماء وردت واردة الناس ، ومع عمر ابن الخطاب أجير له من بني غفار يقال له : جهجاه بن مسعود يقود فرسه ، فاز دحم جهجاه وسنان بن وبر الجهنمي على الماء فاقتلا ، فصرخ الجندي يا معشر الأنصار ، وصرخ جهجاه : يا معشر المهاجرين . فغضب عبد الله بن أبي بن سلول - وعنده رهط من قومه - فيهم زيد بن أرقم غلام حدث - فقال : أو فعلوها ، قد نافرلونا وكاثرلونا في بلادنا ، والله ما أعدنا وجلابيب قريش إلا كما قال الأول : سمن كلبك يأكلك ! أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم : هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحالتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم .

(جلابيب قريش : كان المشاركون يلقبون به من أسلم من المهاجرين) .

فسمع ذلك زيد بن أرقم فمشى إلى رسول الله ﷺ وذلك عند فراغ رسول الله ﷺ من عدوه ، فأخبره الخبر وعنه عمر بن الخطاب ، فقال : مر به عباد بن بشر فليقتله .

قال رسول الله ﷺ : فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ، لا ولكن آذن بالرحيل . وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها ، فارتحل الناس .

وقد مشى عبد الله بن أبي بن سلول إلى رسول الله ﷺ حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلغه ما سمعه ، فلطف بالله : ما قلت ولا تكلمت به ، وكان في قومه شريفاً عظيماً .

قال من حضر رسول الله ﷺ من الأنصار من أصحابه : يا رسول الله عسى أن يكون الغلام قد أوصهم في حديثه ما قال الرجل ، حَدَّبَا عَلَى ابْنِ أَبِي بْنِ سَلْوَلْ وَدَفَعَا مِنْهُ .

فلما استقل رسول الله ﷺ وسار ، لقيه أسيد بن حضير ، فحياه بتحية النبوة وسلم عليه ثم قال : يا نبي الله ، والله لقد رحت في ساعة منكرة ما كنت تروح في مثلها ، فقال له رسول الله ﷺ : أو ما بلغك ما قال صاحبكم . قال : وأي صاحب يا رسول الله ؟ قال : عبد الله بن أبي بن سلول . قال : وما قال ؟ قال : زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجون الأعز منها الأذل . قال : فأنت يا رسول الله والله تخرجه منها إن شئت . هو والله الذليل وأنت العزيز . ثم قال : يا رسول الله ارافق به ، فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه فإنه يرى أنك استتبته ملكاً .

ثم مشى رسول الله ﷺ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى ، وليلتهم حتى أصبح ، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس ، ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نياماً ، وإنما فعل ذلك رسول الله ﷺ ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس ، من حديث عبد الله بن أبي .

ثم راح رسول الله ﷺ بالناس وسلك الحجاز حتى نزل على ماء بالحجاز فويق النقيع يقال له بقعاء ...

ونزلت السورة التي ذكر الله فيها المنافقين في ابن أبي ومن كان مثل أمره ، فلما نزلت أخذ رسول الله ﷺ بأذن زيد بن أرقم ثم قال : هذا الذي أوفى الله بأذنه ، وبلغ عبد الله بن

عبد الله بن أبي الذي كان من أمر أبيه فقال : يا رسول الله ، إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه ، فإن كنت لا بد فاعلاً فمرني به فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبى بوالده مني ، وإنى أخشى أن تأمر به غيري فيقتله ، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي في الناس ، فأقتلها ، فأقتل رجلاً مؤمناً بكافر فأدخل النار ، فقال رسول الله ﷺ : بل نترفق به ونحن صحبته ما بقي معنا .

وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحديث كان قومه هم الذين يعتابونه ويأخذونه ويعنونه ، فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك من شأنهم : كيف ترى يا عمر ؟ أما والله لو قتلت يوم قلت لي لأرعدت له آنف لو أمرتها اليوم بقتلها لقتلها . قال عمر : قد والله علمت لأمر رسول الله أعظم بركة من أمري .

* * *

حله ﷺ لمشاكل الهجرة :

ولما هاجر رسول الله ﷺ وأصحابه إلى المدينة كانت هناك مشاكل تحتاج إلى حل سريع :

أ- قضية انسجام الناس بعضهم مع بعض وهم من قبائل شتى .

ب- إيجاد صيغة ملائمة يتعايش فيها الناس في المدينة وليسوا كلهم مسلمين فمنهم اليهود ومنهم المنافقون ومنهم المسلمون .

ج- حل المشكلة الاقتصادية إذ المهاجرون تركوا أولادهم ومساكنهم ، ومشكلة المهاجرين دائماً مشكلة صعبة حتى بالنسبة للدول الحديثة ، ثم كان اليهود هم المسيطرین على السوق التجارية ، إذ السوق الوحيدة فيها لهم . ولنرى كيف حلت هذه المشاكل كلها بسهولة .

وقد حلت المشكلة الأولى والثالثة مع بعضهما على الشكل التالي :

ما كادت الأمور تستقر بالمدينة حتى أنشأ الرسول ﷺ للمسلمين سوقاً ليستغنووا عن سوق اليهود ، وشرع بأمر الله سنة الإخاء فكل مهاجري جعل له أخاً أنصارياً ، وجعل هذه

الأخوة أعمق من أخوة النسب فكانوا يتوارثون بها ، وحضر الناس على الكرم والحساء والإيثار ، وصادق ذلك نفوساً ما عرف التاريخ أشرف منها ، ولا أرقى بعد الرسل ، فكان من آثار ذلك الشيء العجيب .

روى البيهقي عن عبد الرحمن بن عوف قال :

كانت أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ بالمدينة أن قام فيهم فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهل ثم قال :

أما بعد : أيها الناس ! قدمو لأنفسكم . تعلمون والله ليصعقن أحدكم ثم ليدعن عنمه ليس لها راع ، ثم ليقولن له ربـه - ليس له ترجمان ولا حاجـب يحـبـه دونـه - ألم يـأـتك رسولي فـلـغـكـ وـأـتـيـتكـ مـالـاـ وـأـفـضـلـتـ عـلـيـكـ ؟ـ فـمـاـ قـدـمـتـ لـنـفـسـكـ ؟ـ فـيـنـظـرـ يـمـينـاـ وـشـمـالـاـ فـلـاـ يـرـى شـيـئـاـ ،ـ ثـمـ يـنـظـرـ قـدـامـهـ فـلـاـ يـرـىـ غـيرـ جـهـنـمـ ،ـ فـمـنـ اـسـطـاعـ أـنـ يـقـيـ نـفـسـهـ مـنـ النـارـ وـلـوـ بـشـقـ تـمـرـةـ فـلـيـفـعـلـ ،ـ وـمـنـ لـمـ يـجـدـ فـبـكـلـمـةـ طـبـيـةـ ،ـ فـإـنـ بـهـاـ تـجـزـىـ الـحـسـنـةـ عـشـرـ أـمـثـالـهـ إـلـىـ سـبـعـمـائـةـ ضـعـفـ ،ـ وـالـسـلـامـ عـلـيـكـ وـعـلـىـ رـسـولـ اللهـ .ـ

وروى البخاري أنهم لما قدمو المدينة آخى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي الربيع فقال سعد لعبد الرحمن : إنـيـ أـكـثـرـ الـأـنـصـارـ مـالـاـ فـأـقـسـمـ مـالـيـ نـصـفـيـ ،ـ وـلـيـ اـمـرـأـتـانـ فـانـظـرـ أـعـجـبـهـماـ إـلـيـكـ فـسـمـهـاـ لـيـ أـطـلـقـهـاـ فـإـذـاـ انـقـضـتـ عـدـتـهـاـ فـتـرـوـجـهـاـ .ـ قـالـ عـبـدـ الرـحـمـنـ :ـ بـارـكـ اللـهـ لـكـ فـيـ أـهـلـكـ وـمـالـكـ أـيـنـ سـوقـ فـدـلـوـهـ عـلـىـ سـوقـ بـنـيـ قـيـنـقـاعـ فـمـاـ انـقـلـبـ إـلـاـ وـمـعـهـ فـضـلـ مـنـ أـقـطـ وـسـمـنـ ..

ومن خبر الأنصار يوم هاجر إليهم الناس أنهم كانوا يختصمون على المهاجر كلهم يريد أن يضمـهـ إـلـىـ نـفـسـهـ ،ـ حـتـىـ إـنـهـ لـمـ يـنـزـلـ مـهـاجـرـيـ عـلـىـ أـنـصـارـيـ إـلـاـ بـقـرـعـةـ .ـ

بهذه الروح التي بثها رسول الله ﷺ في أتباعه حل مشكلة من أكبر المشاكل استعصاء على الحل .

أما المشكلة الثانية وهي إيجاد صيغة ملائمة يتعايش بها الناس ؛ إذ المجتمع المدني كان مؤلفاً من الأوس والخزر وبيهـما عداء قديـمـ ،ـ وـالـيهـودـ كـانـواـ مـنـقـسـمـينـ عـلـىـ بـعـضـهـمـ ،ـ

بعضهم مع الأوس وبعضهم مع الخزرج ، وهم حريصون على أن يبقى النزاع بين الأوس والخزرج . ثم أتى المهاجرون وهم كذلك من عشائر كثيرة فكان من أمر رسول الله ﷺ أن كتب أول وثيقة سياسية في الإسلام بين هذه الأطراف كلها تمثل الدستور الذي يتعايش به هؤلاء جميعاً وقد رضوا جميعاً به .

قال ابن إسحاق : وكتب رسول الله ﷺ كتاباً بين المهاجرين والأنصار ، وادعَ فيه يهود وعاهدهم وأقرَّهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذا كتاب من محمد النبي ﷺ ، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويُثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم . إنهم أمة واحدة من دون الناس ، المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون (الرابعة : الحالة التي جاء الإسلام وهم عليها) بينهم . وهم يفدون عانيهم (العاني : الأسير) بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلتهم الأولى (المعاقل : الديات ، الواحدة : معلقة) كل طائفة منهم تقدِّي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلتهم الأولى ، وكل طائفة منهم تقدِّي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلتهم الأولى ، وكل طائفة منهم تقدِّي عانيها بالمعروف والقسط على ربعتهم يتعاقلون معاقلتهم الأولى ، وكل طائفة تقدِّي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلتهم الأولى وكل طائفة تقدِّي عانيها بالمعروف والقسط بني المؤمنين . وأن المؤمنين لا يتربكون مفرحاً بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل ، وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه ، وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة (عظيمة) ظلم أو إثم أو عداون أو فساد بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعاً ، ولو كان ولد أحدتهم ، ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر ، ولا نصر كافراً على مؤمن ، وأن ذمة الله واحدة ، يجير عليهم أدناهم ، وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس ، وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة ، غير مظلومين ولا متاصرين عليهم وأن سلم المؤمنين واحدة ، لا يسلام مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله ، إلا على سواء وعدل بينهم ، وأن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً ، وأن المؤمنين يبيء بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله ، وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى

وأقمه ، وأنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً ، ولا يحول دونه على مؤمن ، وأنه من اعتبط (أي قتله بلا جنائية منه توجب القتل) مؤمناً قتلاً عن بينة ، فإنه قود به إلا أن يرضيولي المقتول ، وأن المؤمنين عليه كافة ، ولا يحل لهم إلا قيام عليه ، وأنه لا يحل للمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر ، أن ينصر محدثاً ولا يؤويه ، وأنه من نصره أو آواه ، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيمة ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل ، وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء ، فإن مردك إلى الله عز وجل ، وإلى محمد ﷺ ، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وأن يهودبني عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم ، موالיהם وأنفسهم ، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوقع إلا نفسه (أي يهلك نفسه) وأهل بيته .

وإن ليهودبني النجار مثل ما ليهودبني عوف ، وإن ليهودبني الحارث مثل ما ليهودبني عوف ، وإن ليهودبني ساعدة مثل ما ليهودبني عوف ، إن ليهودبني جشم مثل ما ليهودبني عوف ، وإن ليهودبني الأوس مثل ما ليهودبني عوف . وإن ليهودبني ثعلبة مثل ما ليهودبني عوف ، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوقع إلا نفسه وأهل بيته ، وأن جفنة بطنه من ثعلبة كأنفسهم ، وإن لبني الشطيبة مثل ما ليهودبني عوف ، وإن البر دون الإثم ، وإن موالى ثعلبة كأنفسهم .

وإن بطانة يهود كأنفسهم وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ ، وأنه لا ينحرج على ثأر جرح ، وأنه من فتك نفسه فتك وأهل بيته ، إلا من ظلم وأن الله على أثر هذا ، وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وأن بينهم النصح والنصيحة ، والبر دون الإثم ، وأنه لم يأثم أمرؤ بحليفه ، وأن النصر للمظلوم ، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة ، وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم ، وأنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها ، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مردك إلى الله عز وجل وإلى محمد ﷺ وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره ، وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها وأن بينهم النصر على من دعهم يثرب ، وإذا دعوا إلى صلح يصلحونه ويلبسونه ، فإنهم يصلحونه ويلبسونه ، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإن لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين ، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم ، وأن يهود الأوس ، موالיהם وأنفسهم ، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة " .

قال ابن إسحاق : وإن البر دون الإثم ، لا يكسب كاسب إلا على نفسه ، وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره ، وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم ، وأنه من خرج آمن ، ومن قعد آمن بالمدينة ، إلا من ظلم أو أثم ، وإن الله جار لمن بر واتقى ، ومحمد رسول الله .

* * *

حله لمشكلة دفاع الأوس عن قريظة يوم قريظة :

أثناء غزوة الأحزاب أعلن بنو قريظة نقضهم للعهد مع رسول الله ﷺ وقررروا الحرب وكان قصة ذلك كما يلي :

كان من جملة الرجال الذين ألبوا العرب حتى تجمعوا للحرب رسول الله ﷺ في هذه الغزو حبي بن أخطب اليهودي فلما اجتمعت العرب عامة وحاصرت المدينة أتى حبي بن أخطب كعب بن أسد سيد قريظة ليقنعه بإنها عهده مع رسول الله ﷺ والمشاركة في الحرب ضده ، وكان كعب حتى تلك اللحظة مغلقاً أبوابه وحصونه وملتزماً الوفاء بعهده مع رسول الله .

ولما طرق حبي بن أخطب باب كعب قال له كعب رافضاً أن يفتح له الباب : إنك أمرؤ مشووم وإنني قد عاهدت محمداً فلست بناقض ما بيني وبينه ولم أر منه إلا وفاءً وصدقاً . وبعد أخذ ورد سمح له كعب بالدخول فقال حبي :

ويحك يا كعب جئت بعزم الدهر وبحر طام .

قال : وما ذاك ؟

قال : جئتك بقريش على سادتها وقادتها حتى أنزلتهم بمجمع الأساليب من رومه وبغطfan على سادتها وقادتها حتى أنزلتهم إلى جانب أحد وقد عاقدوني وعاهدوني على إلا ييرحوا حتى يستأصلوا محمداً ومن معه .

قال كعب : جئتني والله بذل الدهر وبجهام قد هراق ماءه يرعد ويرق وليس فيه شيء
دعني وما أنا عليه فإني لم أر محمداً إلا وفاءً وصدقاً .

ولكنه لم يزل به وبني قريظة حتى أقنعهم بنقض العهد فأحضرت قريظة الصحيفة
التي كتب بها الميثاق فمزقتها وبعث النبي ﷺ من يستكشف له الأمر كسعد بن معاذ حليف بنى
قريظة في الجاهلية فقالوا له : من رسول الله ؟ لا عهد بيننا وبين محمد وسبوا سعداً فقالوا له
وهو سيد الأوس بكل وقارحة : أكلت أير أبيك ..

وكانت خيانة داخلية في أخرج المواقف ، وغدرًا لو أعطى ثمراته الخبيثة لاستؤصل
الإسلام والمسلمون ، إذ به لا تعود للخندق فائدة ، ويتحطم خط دفاع المسلمين ، وتكون
الكارثة ، إنها خيانة جزاؤها بشكل طبيعي الإعدام .

وانتهت غزوة الأحزاب بانسحاب المشركين ثم أمر رسول الله ﷺ المسلمين للتوجه إلى
بني قريظة لمعاقبتهم وحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على حكمه وكانوا يعرفون أن الحكم
فيهم سيكون القتل والصحابة كلهم يعرفون أن جزاءهم سيكون كذلك . وهذا هو الحكم الحق
والعدل والذي نصت عليه توراة اليهود نفسها .

وقيل أن يصدر الرسول ﷺ حكمه تواثب الأوس وطلبوه من الرسول ﷺ العفو كما عفا
عن بني النضير ، إذ بنو قريظة كانوا حلفاء الأوس في الجاهلية ، وبنو النضير كانوا حلفاء
الخررج ، والأوس والخررج كانتا تتنافسان في كل شيء ، وإذاً فرسول الله ﷺ أمام معارضة
من قسم كبير من أصحابه في قضية حساسة هي قضية تنفيذ عقوبة يستحقها مجرمون ، فكان
من أمر رسول الله ﷺ معهم ما هذه قصته كما يرويها ابن هشام حيث حكم سيد الأوس فيهم ،
وسيد الأوس هو الذي عانى ما عانى من بنى قريظة يوم غدوا ، وسيد الأوس ما كان يحكم
إلا بما استحق هؤلاء فرضيت الأوس بتحكيم سيدها وحكم بالعدل في أمرهم وهو القتل جراء
خيانتهم ورضيت الأوس :

يقول ابن هشام :

فَلَمَا أَصْبَحُوا (أَيْ بْنِي قَرِيظَةَ) نَزَلُوا عَلَى حُكْمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَتَوَاثَبُتِ الْأُوسُ قَالُوا :
يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّهُمْ مَوَالِيْنَا دُونَ الْخَرْجِ ، وَقَدْ فَعَلْتَ فِي مَوَالِيْنَا إِخْرَانًا بِالْأَمْسِ مَا قَدْ عَلِمْتَ

- وقد كان رسول الله ﷺ قبل بنى قريظة قد حاصر بنى قينقاع ، وكانوا حلفاء الخزرج ، فنزلوا على حكمه . فسأله إياهم عبد الله بن أبي بن سلول فووهبهم له – فلما كلمته الأوس قال رسول الله ﷺ ألا تضررون يا عشر الأوس أن يحكم فيكم رجل منكم ؟ قالوا بلى . قال رسول الله ﷺ فذاك إلى سعد بن معاذ .

وكان رسول الله ﷺ قد جعل سعد بن معاذ في خيمة لامرأة من أسلم ، يقال لها رفيدة في مسجده . وكانت تداوري الجرحى وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضياعة من المسلمين . وكان رسول الله ﷺ قد قال لقومه حين أصابهم السهم بالخندق : اجعلوه في خيمة رفيدة حتى أعوده من قريب . فلما حكمه رسول الله ﷺ في بنى قريظة أتاه قومه فحملوه على حمار قد وطئوا له بوسادة من أدم ، وكان رجلاً جسيماً جميلاً ثم أقبلوا معه إلى رسول الله ﷺ وهم يقولون : يا أبا عمرو أحسن في مواليك ، فإن رسول الله ﷺ إنما ولاك ذلك لتحسين فيهم ، فلما أكثروا عليه قال : لقد أتني (آن) لسعد ألا تأخذ في الله لومة لائم . فرجع بعض من كان معه من قومه إلى داربني عبد الأشهل فنفع لهم رجال بنى قريظة قبل أن يصل إليهم سعد ، عن كلمته التي سمع منه .

فلمما انتهى سعد إلى رسول الله ﷺ وال المسلمين ، قال رسول الله ﷺ قوموا إلى سيدكم – فأما المهاجرون من قريش فيقولون : إنما أراد رسول الله ﷺ الأنصار .

وأما الأنصار فيقولون : قد عم بها رسول الله ﷺ فقاموا إليه فقالوا : يا أبا عمرو ، إن رسول الله ﷺ قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم . فقال سعد بن معاذ : عليكم بذلك عهد الله وميثاقه ، أن الحكم فيهم لما حكمت ؟ قالوا : نعم – قال : وعلى من ها هنا ؟ في الناحية التي فيها رسول الله ﷺ : وهو معرض عن رسول الله ﷺ إجلالاً له – فقال رسول الله ﷺ : نعم ، قال سعد : فإني أحكم فيهم أن تقتل الرجال وتنقسم الأموال وتتبني الذراري والنساء .

قال رسول الله ﷺ لسعد : " لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة " .

ثم نفذ رسول الله ﷺ الحكم .

حله ﷺ لمشكلة هزيمة أحد :

يُوْمَ أَحَدٍ خَسِرَ الْمُسْلِمُونَ الْمَعْرِكَةَ بِسَبَبِ عَدْمِ تَفْيِذِ مَخْطُوطِ الرَّسُولِ ﷺ لِلْمَعْرِكَةِ كَامِلاً
وَهَذَا الْفَشْلُ سَيَكُونُ مِنْ آثَارِهِ مَا يُلْيِ :

- 1 - ضعف الروح المعنوية عند المسلمين .
 - 2 - طمع القبائل العربية كلها بالمسلمين .
 - 3 - سقوط هيبة المسلمين العسكرية .
 - 4 - توجه قلوب الناس كلها للقضاء على المسلمين .
 - 5 - تفليس المنافقين واليهود وتربيتهم الشر بالمسلمين .
 - 6 - وهناك احتمال بعد أحد أن يفكر المشركون وقد انتصروا ورجعوا أن يعودوا لاستئصال المسلمين من جديد وقد سنحت لهم الفرصة . وفعلاً قد فكروا في ذلك . فكيف فعل رسول الله ﷺ لتلافي هذه النتائج كلها .

إنه ما كاد يصل إلى المدينة حتى أمر المسلمين الذين دخلوا المعركة أن يستعدوا مباشرة للحرب رغم إعياهم ثم خرج بهم تبعاً آثار المشركين ، ولم يكد المشركون يسمعون بأنباء هذا الهجوم والطرد وراءهم إلا وأعلنوا الرحيل الذي يشبه الهرب مع أنهم كانوا يفكرون أثناءها في الرجوع إلى المدينة لاستتصال المسلمين فيها ، ولم يقع يومها حرب ولكن هذه العملية الجرئية غسلت آثار أحد كلها وبشكل سريع . إذ كانت معركة أحد يوم السبت وكان خروج الجيش هذا يوم الأحد ، وبقي معسراً في حرماء الأسد طيلة ثلاثة أيام ليال ونزل القرآن بعد ذلك فربى المسلمين ووعظهم وغسل كل الآثار النفسية للهزيمة ..

* * *

هذه أمثلة خمسة ضربناها لنرى كيف كان رسول الله ﷺ يحل المشكلات اليومية بسرعة عجيبة فلا يبقى لها أثر ، هذه الإمكانيات العجيبة في حل المشكلات . جعلت رجالاً كبر ناردوشو الأديب الإنكليزي المشهور يقول : ما أحوج العالم إلى رجل كمحمد يحل مشاكله وهو يشرب فنجاناً من القهوة (أي ببساطة) وهذه الأمثلة التي ضربناها ، نماذج . وإن فمن قرأت كتب الحديث ككتاب البخاري ومسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه وموطأ مالك ومسند أحمد وكتب حياة الصحابة وكتب السيرة ، رأى كثرة المشكلات اليومية الفردية والجماعية التي كانت تعترض حياة رسول الله ﷺ وهو يسوس شعباً من أعصى شعوب العالم انقياداً وطاعة وسياسة ، ومع هذا فما عرف أن مشكلة مرت عليه إلا وحلها بسهولة كاملة واستقامة

مع منهج الحق الذي يدعو إليه ، والذي يمثل أرقى صور الواقعية والمثالية بآن واحد ، وما كان ذلك ليكون لولا توفيق الله ورعايته .

* * *

7 - بعد نظره p وضرباته السياسية الموقفة :

إن الدارس لتصرفات رسول الله يجد أنه لا يوجد تصرف من تصرفاته عليه الصلاة والسلام ، إلا وفيه غاية الحكمة ، وبعد النظر ، فمثلاً يرسل كسرى إلى عامله على اليمين / باذان / أن يهيج رسول الله ، وأن يقبض على رسول الله ليرسله إلى كسرى ، فيرسل باذان رجلين ليقبضا على رسول الله ويأertia به إلى كسرى ويأمر باذان أحد الرجلين أن يدرس أحوال رسول الله ، فلما وصل الرجال أباهم الرسول عنده خمسة عشر يوماً دون رد عليهم وقتيل كسرى في اليوم الخامس عشر فأباهم عليه السلام بقتل كسرى يوم مقتله وأهدى أحد الرجلين منطقة فيها ذهب وفضة وأرسل إلى باذان رسالة مضمونها أنه إن أسلم أعطاه ما تحت يده وكان من آثار هذا كله أن خلع باذان ولاءه لكسرى وأسلم معناً ولاءه لمحمد .

ويوم أراد المنافقون أن يستغلوا شعائر الإسلام ، ليوجدو عملاً منسقاً فيما بينهم ضد الإسلام . بأن يبنوا مسجداً يكون مركزاً لتأمرهم ودسهم وتجمعاتهم المشبوهة . أمهلهم عليه السلام حتى عاد من غزوة تبوك ، ثم حرق المسجد وهدمه وفضح الله أمرهم ، والأمثلة من هذا النوع كثيرة كلها تدل على حنكته عليه السلام وحكمته وبعد نظره السياسي ، وإن كان العمل السياسي عنده عليه الصلاة والسلام غير منفصل عن غيره ، فتجده يخاطب كل قوم بأسلوب ينسجم مع نفسيتهم ، ويعامل كل إنسان بطريقة ترضي هذا الإنسان بالحق وهذا ، انظر إلى خطابة إلى وفد بنى الحارث بن كعب تجده مختلف عن أي خطاب آخر خاطب به وفداً من الوفود لأن هذه القبيلة لها وضع خاص .

قال ابن هشام :

" فأقبل خالد إلى رسول الله وأقبل معه وفد بنى الحارث بن كعب منهم قيس بن الحسين ذي الغصة ويزيد بن عبد المدان ويزيد بن المحجل وعبد الله بن قراد الزيادي وشداد

بن عبد الله القناني وعمر بن عبد الله الضبابي فلما قدموا على رسول الله فرآهم قال : من هؤلاء القوم الذين كأنهم رجال الهند ؟ قيل : يا رسول الله ! هؤلاء رجال بني الحارت ابن كعب . فلما وقفوا على رسول الله سلموا عليه وقالوا : نشهد إنك رسول الله وأنه لا إله إلا الله . قال رسول الله ﷺ : وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، ثم قال رسول الله : أنتم الذين إذا زجرتوا استقدمو ، فسكتوا ، فلم يراجعه منهم أحد ثم أعادها الثانية فلم يراجعه منهم أحد ثم أعادها الثالثة فلم يراجعه منهم أحد ثم أعادها الرابعة فقال يزيد بن عبد المدان : نعم يا رسول الله نحن الذي إذا زجرتوا استقدمو قالها أربع مرار فقال رسول الله : لو أن خالداً لم يكتب لي أنكم أسلتم ولم تقاتلوا لأنقيت رؤوسكم تحت أقدامكم فقال يزيد بن عبد المدان : أما والله ما حمدناك ولا حمدنا خالداً قال : فمن حمدتم قالوا : حمدنا الله عز وجل الذي هدانا بأك يا رسول الله قال : صدقتم ، ثم قال رسول الله : بم كنتم تغلبون من قاتلکم ، في الجاهلية ؟ قالوا : لم نكن نغلب أحداً قال : بلـ ، قد كنتم تغلبون من قاتلکم قالوا : كنا نغلب من قاتلنا يا رسول الله إنا كنا نجتمع ولا نفترق ولا نبدأ أحداً بظلم " .

ولما كانت خطتنا في هذا البحث الاختصار فسنكتفي بتحليل موقف من أبرز مواقفه السياسية عليه الصلاة والسلام ، تتضح به حنكته وحكمته بشكل كامل . هذا الموقف هو الموقف الذي تخوض عنه صلح الحديبية ، وما لهذا الصلح من آثار رائعة وهذه هي القصة كما يرويها ابن هشام نذكرها ثم نعقب عليها :

قال ابن هشام :

واستقر العرب ومن حوله ومن أهل البوادي من الأعراب ليخرجوا معه وهو يخشى من قريش الذي صنعوا : أن يعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت فأبطن عليه كثير من الأعراب ، فخرج ρ بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق به من العرب ، وساق معه الهدي وأحرم بالعمرة ، ليأمن الناس من حربه ، وليرعلم الناس أنه إنما خرج زائراً لهذا البيت ومعظماً له .

وخرج رسول الله ﷺ حتى إذا كان بعسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبي فقال : يا رسول الله ! هذه قريش قد سمعت بمسيرك ، فخرجوا معهم العوز المطافيل¹ وقد نزلوا بذى طوى

¹ العوز المطافيل : استعار العوز المطافيل للنساء مع أولادهن ، والعوز هي الإبل الحديث الناج . والمطافيل : التي معها أولادها .

يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً ، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموها إلى قراء الغميم¹ ، فقال رسول الله ﷺ : يا ويح قريش لقد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلوا بيبي وبين سائر العرب ؟ فإنهم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا ، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ، فما تظن قريش ؟ فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة (أي صفة العنق) .

ثم قال : من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها ؟ وإن رجلاً من بنى إسلام قال : أنا يا رسول الله ، فسلك بهم طريقاً وعرأً أجرل (كثير الحجارة) بين شعاب ، فلما خرجوا منه وقد شق ذلك على المسلمين وأفسدوا إلى أرض سهلة عند منقطع الوادي قال ﷺ للناس : قولوا نستغفرون الله ونتوب إليه . فقالوا ذلك . فقال : والله إنها للحظة التي عرضت على بنى إسرائيل فلم يقولوها فأمر رسول الله ﷺ الناس فقال : اسلكوا ذات اليمين بين ظهري الحمش ، في طريق تخرجهم على ثنية المرار ، مهبط الحديبية من أسفل مكة .

فسلك الجيش ذلك الطريق . فلما رأت خيل قريش قترة الجيش (غبار الجيش) قد خالفوا عن طريقهم . رجعوا راكدين إلى قريش . وخرج ﷺ حتى إذا سلك في ثنية المرار بركت ناقته . فقالت الناس : خلات الناقة (بركت ولم تنهض) . قال : ما خلات وما هو لها بخلق ، ولكن حبسها حabis الفيل عن مكة . لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها ، ثم قال للناس : انزلوا . قيل له يا رسول الله ما بالوادي ماء ننزل عليه . فأخرج سهماً من كانته فأعطاه رجلاً من أصحابه فنزل به في قليب من تلك القلب (القليب : بئر) فغرزه في جوفه فجاش بالرواء حتى ضرب الناس عنه بعلن (مبرك الإبل حول الماء) .

فلما اطمأن رسول الله ﷺ أتاه بديل بن ورقاء الخزاعي في رجال من خزاعة فكلمه وسأله : ما الذي جاء به ؟ فأخبرهم أنه لم يأت لي يريد حرباً وإنما جاء زائراً للبيت ، ومعظماً لحرمه ، ثم قال لهم نحواً مما قال لبشر بن سفيان ، فرجعوا إلى قريش فقالوا : يا عشر قريش ! إنكم تعجلون على محمد ، إن محمداً لم يأت للقتل وإنما جاء زائراً هذا البيت ،

¹ قراء الغميم : موضع بين مكة والمدينة .

فاتهموهم وجبهوهم^١ و قالوا : وإن كان جاء ولا يريد قتالاً ، فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبداً ،
ولا تحدث بذلك عنا العرب .

وكانت خزاعة عيبة نصح رسول الله ﷺ ، مسلمها ومشركها ، لا يخونون عنه شيئاً كان
بمكة .

ثم بعثوا إليه مكرز بن حفص بن الأخفيف ، فلما رأه رسول الله ﷺ مقبلًا قال : هذا
رجل غادر ، فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ وكلمه قال له رسول الله ﷺ نحوً مما قال لبديل
وأصحابه ، فرجع إلى قريش فأخبرهم بما قاله له رسول الله ﷺ ثم بعثوا إليه الحليس بن علقمة
- أو ابن زبان - وكان يومئذ سيد الأحابيش فلما رأه رسول الله ﷺ قال : إن هذا من قوم
يتأنرون فابعثوا الهدي في وجهه حتى يراه ، فلما رأى الهدي يسير عليه في عرض الوادي في
قلائده وقد أكل أوباره من طول الحبس عن محله رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله ﷺ
إعظاماً لما رأى .

قال لهم ذلك . فقالوا : اجلس فإنما أنت أعرابي لا علم لك . فغضب عند ذلك وقال :
يا عشر قريش ، والله ما على هذا حالناتكم ، وعلى هذا عادناتكم ، أيصد عن بيته من
جاء معظمًا له ، والذي نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء له أو لأنفرين
بالأحابيش نفرة رجل واحد . فقالوا له : مه كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به
. .

ثم بعثوا إلى رسول الله ﷺ عروة بن مسعود التقي ، وخرج حتى أتى رسول الله ﷺ
فجلس بين يديه ثم قال :

يا محمد ، أجمعت أوشاب الناس (الأوشاب ، الأخلاط) ثم جئت بهم إلى بيضتك (
القبيلة والعشيرة) لتقضها بهم . إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل . قد لبسوا جلود
النمور ، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبداً .

^١ جبهوهم : واجهوه بما يكرهون .

وأيم الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً ، وأبو بكر الصديق خلف رسول الله ﷺ
قاعد ، فقال : امتص بظر اللات ، أَحْنُّ ننكشف عنه ؟ قال : من هذا يا محمد ؟

قال : هذا ابن أبي قحافة .

قالوا : أما والله لو لا يد كانت لك عندي لكافأتك بها ، ولكن هذه بها .

ثم جعل يتناول لحية رسول الله ﷺ وهو يكلمه . والمعيرة بن شعبة وافق على رأس
رسول الله ﷺ في الحديد . وجعل يقرع يده إذا تناول لحية رسول الله ﷺ ويقول : اكف يدك
عن وجه رسول الله قبل أن لا تصل إليك .

يقول عروة : ويحك ما أفظك وأغلظك .

فتبسم رسول الله ﷺ فقال له عروة : من هذا يا محمد ؟ قال : هذا ابن أخيك المغيرة
ابن شعبة . قال : أي غدر ، وهل غسلت سوأتك إلا بالأمس . فكلمه رسول الله ﷺ بنحو مما
كلم به أصحابه ، وأخبره أنه لم يأت يريد حرباً .

فقام من عند رسول الله وقد رأى ما يصنع به أصحابه ، لا يتوضأ إلا ابتدوا وضوءه
، ولا يبصق بصاقاً إلا ابتدوه ، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه . فرجع إلى قريش فقال
: يا عشر قريش ، إني قد جئت كسرى في ملكه وقيصر في ملكه ، والنجاشي في ملكه ،
وإني والله ما رأيت ملكاً في قومٍ قط مثل محمد في أصحابه ، ولقد رأيت قوماً لا يسلموه
لشيء أبداً . فروا رأيك .

وإن رسول الله ﷺ دعا خراش بن أمية الخزاعي ، فبعثه إلى قريش بمكة وحمله على
بعير له يقال له " الثعلب " ليبلغ أشرافهم عنه ما جاء له ، فعقرروا به جمل رسول الله ﷺ
وأرادوا قتله ، فمنعته الأحباب فخلوا سبيله حتى أتى رسول الله ﷺ .

ثم دعا عمر بن الخطاب لبيعثه إلى مكة فيبلغ عنه أشرف قريش ما جاء له فقال : يا
رسول الله إني أخاف قريشاً على نفسي وليس بمكة منبني عدي بن كعب أحد يمنعني وقد
عرفت قريش عداوتني إياها وغضبني عليها ولكنني أدلّك على رجل أعز بها مني عثمان بن

عفان فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب وأنه إنما جاء زائراً لهذا البيت ومعظماً لحرمته . فخرج عثمان إلى مكة فلقيه أبا بن سعيد بن العاص حين دخل مكة أو قبل أن يدخلها فحمله بين يديه ثم أجراه حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ فانطلق عثمان حتى أتى أبي سفيان وعظماء قريش فبلغهم عن رسول الله ما أرسله به فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ إليهم : إن شئت أن تطوف بالبيت فطف فقال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ . واحتبسه قريش عندها فبلغ رسول الله وال المسلمين أن عثمان بن عفان قد قتل . قال ابن إسحاق فحدثي عبد الله بن أبي بكر أن رسول الله ﷺ قال حين بلغه أن عثمان قد قتل : لا نيرح حتى ننأج القوم . فدعا رسول الله الناس إلى البيعة فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة فكان الناس يقولون : بايعهم رسول الله ﷺ على الموت . وكان جابر بن عبد الله يقول : إن رسول الله لم يبايعنا على الموت ولكن بایعنا على ألا نفر فبایع رسول الله ﷺ الناس ولم يتختلف عنه أحد من المسلمين حضرها إلا الجد بن قيس أخوبني سلمة فكان جابر بن عبد الله يقول : والله لکأني انظر إليه لاصقاً إيط ناقته قد ضباء إليها يستتر بها من الناس . ثم أتى رسول الله ﷺ أن الذي ذكر من أمر عثمان بن عفان باطل .

ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو أخابني عامر بن لؤي إلى رسول الله ﷺ وقالوا له :
إيت محمداً فصالحه ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عame هذا فوالله لا تحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبداً . فأتاه سهيل بن عمرو فلما رأه رسول الله ﷺ مقبلاً فقال : قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل فلما انتهى سهيل إلى رسول الله ﷺ تكلم فأطال الكلام وتراجع ثم جرى بينهما الصلح .

فلما التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب وثبت عمر بن الخطاب فأتى أبي بكر فقال : يا أبا بكر ! أليس برسول الله ؟ قال : بلى قال : أولسنا بالمسلمين قال : بلى قال : أليسوا بالمرشكين ؟ قال : بلى . قال فعلام نعطي الدنيا في ديننا ؟ قال أبو بكر : يا عمر : الزم غزره ، فإنيأشهد أنه رسول الله ، قال عمر : وأناأشهد أنه رسول الله . ثم أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ؟ ألسنت برسول الله .

قال : بلى .

قال : أولسنا بالمسلمين ،

قال : بلى .

قال : أو ليسوا مشركين ؟

قال : بلى .

قال : فعلام نعطي الدنيا في ديننا ؟

قال : أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ، ولن يضيعني .

فكان عمر يقول : ما زلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق من الذي صنعت يومئذ مخافة كلامي الذي تكلمت به ، حتى رجوت أن يكون خيراً .

ثم دعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب - رضوان الله عليه - فقال : اكتب " بسم الله الرحمن الرحيم " فقال سهيل لا أعرف هذا ولكن اكتب " باسمك اللهم " فكتبها ثم قال : اكتب : " هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو " فقال سهيل : لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ولكن اكتب اسمك واسم أبيك ، وقال رسول الله :

" هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيلبني عمرو . اصططحا على وضع الحرب على الناس عشر سنين ، يأمن فيها الناس ويكتف بعضهم عن بعض على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن ولية رده عليهم . ومن جاء قريشاً من مع محمد لم يردوه عليه . وأن بيننا عيبة مكوفة وأنه لا أسلال ولا أغلال وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه ..

فتوايثت خزاعة فقالوا : نحن في عقد محمد وعهده . وتواثبت بنو بكر فقالوا : نحن في عقد قريش وعهدهم ، وأنك ترجع عامك هذا فلا تدخل علينا مكة وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثةً معك سلاح الراكب ، السيوف في القرب ، لا تتدخلها بغيرها .

فبينا رسول الله ﷺ يكتب الكتاب هو وسهيل بن عمرو إذ جاء أبو جندل بن سهيل ابن عمرو يرسف في الحديد ، قد انفلت إلى رسول الله ﷺ وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ خرجوا وهم لا يشكون في الفتح لرؤيا رأها رسول الله ﷺ فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع ، وما تحمل عليه رسول الله في نفسه ، دخل على الناس من ذلك أمر عظيم حتى كادوا يهلكون .

ولما رأى سهيل أبا جندل قام إليه بضرب وجهه وأخذ بتلبيه ، ثم قال : يا محمد لقد لجت القضية بيبي ويبناك قبل أن يأتيك هذا . قال : صدقت . فجعل ينشره بتلبيه ويجره ليمرده على قريش ، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته : يا عشر المسلمين أرد إلى المشركين يفتوني في ديني ؟ فزاد ذلك الناس إلى ما بهم ، فقال رسول الله ﷺ يا أبا جندل ، اصبر واحتسب ، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً ، إننا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً ، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله ، وإننا لا نغدر بهم .

فوثب عمر بن الخطاب مع أبي جندل يمشي إلى جنبه ويقول : اصبر يا أبا جندل ، فإنهم المشركون ، وإنما دم أحدهم دم كلب ، ويدني عمر قائم السيف منه ، يقول عمر :

رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه فضنَّ الرجل بأبيه ونفذت القضية فلما فرغ من الكتاب أشهد على الصلح رجالاً من المسلمين ورجالاً من المشركين : أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعبد الله بن سهيل بن عمرو ، وسعد بن أبي وقاص ، ومحمود بن مسلمة ومكرز بن حفص وهو يومئذ مشرك وعلي بن أبي طالب ، وكان هو كاتب الصحيفة " . اهـ .

هذه قصة الحديبية فلنر آثارها وقيمة هذا العمل من الناحية السياسية الحركية : يقول الزهري ، مما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه إنما كان القتال حيث التقى الناس فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب وأمن الناس بعضهم بعضاً وتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه . ولقد دخل في تيناك السنين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك .

قال ابن هشام :

والدليل على قول الزهري أن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربع مائة في قول جابر بن عبد الله ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك في بسنتين في عشرة آلا " وحسبك أن تعلم أن خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة زعماء قريش أسلموا في هذه المرحلة .

ومن آثار هذه العملية :

أن تهدمت حجة قريش الأساسية في جمعها العرب على رسول الله ﷺ إذ أن قريشاً أخذت زعامتها من كونها مجاورة للكعبة بيت الله ولهذا الجوار ولتعظيمها هذا البيت كانت العرب تعظمهم وتدين لهم فلما سار رسول الله ﷺ معينا عمرته وتعظيمه للبيت الحرام تهدم أمم الرأي العام كثير من الحجب .

ومن آثار هذه العملية أن فرغ الرسول ﷺ من العرب الذين يسيرون في فلك قريش وغيرهم ، وتفرغ لليهود فأنهاهم من جزيرة العرب سياسياً وعسكرياً واقتصادياً ، ومن آثار هذه العملية أن افتعلت كثير من القبائل العربية بتعنت قريش حتى أن الأحابيش كادوا يدخلون المعركة بجانب محمد ﷺ يومها وهم حلفاء قريش المشركة .

ومن آثار هذه العملية أن أعطيت القبائل العربية حرية التحالف مع محمد ﷺ وهذا شيء ما كان ليكون من قبل ، فدخل من شاء من هذه القبائل في حلف رسول الله ﷺ .

ومن آثار هذه العملية كثرة إقبال الناس على الإسلام بعدها ، أن انقطع أمل الناس من غير المسلمين بنصرة أو عزة أو غلبة أو منعة إلا بالإسلام ، فضلاً عن انقطاع أملهم بإنهاء الإسلام وال المسلمين .

ومن آثار هذه العملية أن تقرغ رسول الله ﷺ لفتح آفاق أمته على العالم . وتقهيهم مهمتهم العالمية ، بإرسال رسالته وكتبه إلى الدول الكبرى يومذاك . كسرى وهرقل والمقوس والنجاشي ...

ومن آثار هذه العملية أن خدمت فتن المنافقين الذين كانوا يشدون أزرهم . وتقوى ظهورهم بقريش ، وتبعثرت القبائل العربية الوثنية ، وهدمت حدة قريش وعصبيتها ، واسترخت وأخذت تقوى تجارتها ، وركنت إلى السلام ، ولما كانت الهدنة مد IDEA المدة لم تذكر في البحث عن أحالف لها بينما كان المسلمون يتسعون يومياً .

ومن آثار هذه العملية فتح مكة . إذ عندما نقضت قريش عهدها واعتدى على حلفاء رسول الله p من بني خزاعة ، وعمد رسول الله p إلى مكة فاتحاً . لو لا صلح الحديبية وما أحاط به لرأيت عرب الجزيرة العربية كلهم وقد رمت أنوفهم وأقبلوا للدفاع عن مكة وكعبتها وأصنامها وقريشها ، ولكن صلح الحديبية والآثار التي ترتب عليه لم يبق بقية من الحميّة لا عند قريش ولا عند غيرها لها ، فكان أن فتحت مكة صلحاً بل لقد فتحت مكة من يوم دخال المسلمين في العام التالي للصلح بأعدادهم الضخمة وروحهم العالية المرتفعة ومظاهرتهم التي أرهبت من رآها .

لقد كنت ضربة سياسية لا يستطيعها غير محمد p . إذ ضربها وأصحابه غير راضين ، وأعداؤه لا يعرفون كيف يتصرفون . وإنك عندما تعلم أن عمر وكبار الصحابة كانوا كارهين لما حدث ، وترى بعد ذلك هذه الآثار ، تدرك أن الأفق الذي ينظر منه رسول الله p أفق فريد في تاريخ الزعامات كلها .

ولا يفوتنا قبل الانتهاء من هذا البحث أن نتعرض لمصير أقسى الشروط التي فرضتها قريش في المعاهدة والذي آثار المسلمين ، وهو أن قريشاً لا ترد من جاءها من المسلمين مرتدًا وأن المسلمين يردون من جاءهم من مكة مسلماً بدون إذن ، لقد كانت نهاية هذا الشرط أن طلبت قريش نفسها إلغاء هذا الشرط من المعاهدة وقصة ذلك ما يلي :

لما فر أبو بصير عبيد بن أسيد وهاجر إلى المدينة بعد صلح الحديبية أرسلت قريش وراءه رجلين وقالوا :

العهد الذي جعل لنا فدفعه إلى الرجلين فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة فنزلوا يأكلون من تمر لهم فقال أبو بصير لأحد الرجلين والله إنني لأرى سيفك هذا يا فلان جيداً فاستله الآخر فقال أجل والله لقد جربت به ثم جربت فقال أبو بصير : أرني أنظر إليه فأمكنه منه فضربه به حتى برد وفر الآخر حتى أتى المدينة فدخل المسجد يعود فقال p حين رأه : لقد رأى هذا

ذعرًا فلما انتهى إلى النبي قال : قتل والله صاحبى وإنى لم قتول فجاء أبو بصير فقال : يا نبى الله قد وفى الله ذمتك ، قد ردتني إليهم ثم أنجاني الله منهم فقال ﷺ : ويل أمه مسرع حرب لو كان له أحد . فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم فخرج حتى أتى سيف البحر . قال : وتلفت منهم أبو جندل بن سهيل فلحق بأبي بصير فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير حتى اجتمعت عنده عصابة ، فوالله ما يسمعون بغير لقريش خرجت إلى الشام إلا و تعرضوا لها فقتلوا هم وأخذوا أموالهم ، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشد الله تعالى والرحم ما أرسل إليهم فمن أتاه منهم فهو آمن فأرسل إليهم " .

وهكذا ألغت قريش نفسها أشد البنود قسوة كما ظنها المسلمون .

إذا عرفت آثار الحديبية وعرفت أن الصحابة كلهم كانوا غضاباً لهذا الصلح . حتى أن رسول الله ﷺ لما أمرهم بعد كتابة الصلح أن يقوموا فينحروا هديهم ويحلقوا متحللين من إحرامهم لم يقم منهم رجل واحد ، مما داخلمهم من الغم مع تكرار رسول الله ﷺ الأمر ثلاثة . ولم يفعلوا إلا بعد أن حلق عليه الصلاة والسلام ونحر هديه ، هنالك أفاقوا ونفذوا ما أمرهم به ، إذا عرفت هذا تدرك الأفق العالى الذي كان ينظر منه عليه السلام ، وتدرك أن قيادته جزء من صلتة بالله المحيط علماً بكل شيء فكان مسدداً راشداً مهدياً .

* * *

8 و 9 - الوصول إلى النصر وتطبيق ما كان العمل من أجله بعد النصر ، وإحكام البناء بحيث يكون قادراً على الصمود في المستقبل ، ووضع أسس النمو الدائب المتتطور بحيث تحفظ الدعوة بإمكانية السير عبر العصور :

لقد مضى على بدء الإسلام أربعة عشر قرناً ولا زال الإسلام في انتشار ولا زال يتسع ، ورغم كل ما تبذله الدعائيات الكافرة من أعدائه . سواء كانوا أصحاب دين أو غير أصحاب دين ، بطرق منتظمة وغير منتظمة ، فلا زال الإسلام هو الإسلام ولا زال قادراً على أكثر من الحركة ، ورغم الملابسات التاريخية التي أوقعت العالم الإسلامي في قبضة أعدائه ، ورغم سيطرة هؤلاء الأعداء ، فالإسلام باق . ورغم أن الكافرين استطاعوا أن يهبو لأعداء الإسلام وسائل الانتصار داخل العالم الإسلام ، فالإسلام شامخ يتحدى ويقهر .

وخلال هذا التاريخ الطويل دخل الإسلام في صراع مع ثقافات فغلبها ، ومع أديان فغلبها ، ومع قوى عظيمة فصهرها .

وخلال هذا التاريخ الطويل سقطت دول تحكم باسم الإسلام ، وقامت دول تحمل الإسلام واستوعب الإسلام الجميع .

وفي كل مرة كان الإسلام محمولاً حق الحمل ، كان أصحابه هم الغالبين وحضارته أرقى الحضارات وما أتي المسلمين إلا من تقصيرهم وتغريبتهم وجهلهم بالإسلام .

القرون الوسطى عند الأوروبيين قمة التأخر ، والقرون الوسطى عندنا قمة التقدم ، وكانوا يومها متمسكين بدينهم وكنا لا زلنا متمسكين بديننا ومن هنا مفرق الطريق ، حيث كان الإسلام حمل أتباعه على التقدم . وحيث كان غير الإسلام ديناً كان تأخر .

والإسلام الآن يصارع على كل مستوى شرقاً وغرباً فكراً وسلوكاً وهو في كل حال أبداً غالب وإن اضطهد المسلمين فذلك لقوة فكرهم لا شيء آخر .

وما أحد يجهل أن روح الجهاد في قلوب المسلمين هي التي حررت العالم الإسلامي من قبضة مستعمريه في عصرنا هذا ، وإن كان جهاد المسلمين ضرب بيد ناس منهم وليسوا منهم ، ففرضوا على المسلمين بعد التحرير مذاهب أخرى . هذا الإسلام الذي كان هكذا عبر العصور يحمله جيل إلى جيل وهو الآن يستعد ليكون له المستقبل كله .

هذا الإسلام استطاع أن يفعل هذا لأن الأساس الذي بناه رسول الله ﷺ له خلال ثلاثة وعشرين عاماً ، كان من القوة بحيث يحمل كل العصور ، ويسع كل العصور .

* * *

ونحن اليوم نرى دعوات فكرية وسياسية كثيرة ، لا تحمل في جوهرها إمكانية تطبيقها ، أو لا تستطيع قيادتها أن تتحققها في عالم الواقع مع أن بيدها كل السلطات وبيدها كل الوسائل ، ولكنها تقف عاجزة عن تحقيق الفكرة ، وأحياناً تتراجع من نصف الطريق ، ولكن الظاهرة التي نراها في حياة رسول الله ﷺ أنه خلال عشر سنوات فقط كان كل جزء من

أجزاء دعوته قائماً يمشي على الأرض ، على أكمل ما يكون التطبيق ، وكل جزء من أجزاء دعوته قابلاً للتطبيق خلال كل عصر وما مر عصر وإلا ورأيت الإسلام مطبقاً بشكل من الأشكال ، فإذا ما علمت بأن دعوة سياسية فكرية تحتاج إلى عشرات السنين حتى تنتشر وتنتصر وقد تطبق وقد لا تطبق ، أدركت أن العملية هنا ليست عملية عادلة وإنما هي شيء خارق للعادة تحس وراءه يد الله . وتحس وبالتالي أن الدين دين الله . وأن محمداً عبده ورسوله

...

وقد آثرنا هنا الاختصار لأن الرسالة الثالثة (الإسلام) كلها برهان عملي على أن شريعة الإسلام وأحكامه تعلو في كل عنصر وعلى كل فكر .

وننتقل هنا نقلة أخرى لاستعراض جوانب الشخصية القيادية لرسول الله ﷺ في أمور الحرب كما وعدنا .

* * *

(ب) الرسول عليه الصلاة والسلام

الشخصية القيادية العسكرية المثلية

قبل الكلام عن شخصية الرسول ﷺ العسكرية ، نحب أن نذكر بعضًا من مواقفه العسكرية كنماذج تكون بمثابة مقدمة للحديث في هذا الموضوع :

أ - قال ابن هشام يروي قصة فتح حصن خير عن أنس بن مالك :

" واستقبلنا عمال خير غادين قد خرجوا بمساخيهم ومكانتهم فلما رأوا رسول الله ﷺ والجيش قالوا : محمد والخميس ، فأدبروا هرابةً ، فقال رسول الله ﷺ : الله أكبر خربت خير إنا نزلتنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين .

قال ابن إسحاق :

وكان رسول الله حين خرج من المدينة إلى خير سلك على عصر (جبل بين المدينة ووادي الفرع) فبني له فيها مسجد ثم على الصهباء (موضع بينه وبين خير رودة) ثم أقبل رسول الله بجيشه حتى نزل بواد يقال له الرجيع ، فنزل بينهم وبين غطfan ، ليحول بينهم وبين أن يمدوا أهل خير ، وكانوا لهم مظاهرين على رسول الله ، فبلغني أن غطfan لما سمعت بمنزل رسول الله من خير جموا له ثم خرجوا ليظاهروا يهود عليه ، حتى إذا ساروا منقلة سمعوا خلفهم في أموالهم وأهليهم حسًّا . ظنوا أن القوم قد خالفوا إليهم فرجعوا على أعقابهم فأقاموا في أهاليهم وأموالهم وخلوا بين رسول الله وبين خير ... يفتحها حصناً حصناً . " ...

تأمل : عنصري المفاجأة والمداهمة ، حيث لم يستطع يهود حصن خير أن يجمعوا قوتهم ، وتأمل حيلولة رسول الله ﷺ بينهم وبين المدد ، وتأمل الاحتياطات المتخذة لإبقاء غطfan في موعدها .

* * * *

ب - بعد فتح مكة سمع رسول الله ﷺ أن قبائل هوازن وتنفيف ونصر وجسم وسعد بن بكر وناس من بني هلال ، قد جمعوا جموعهم لحربه ، فبعث إليهم عبد الله بن أبي حدر الأسلمي وأمره أن يدخل في الناس فقييم فيهم حتى يعلم علمهم ، ثم يأتيه بخبرهم فانطلق ابن حدر فدخل فيهم فأقام فيهم حتى سمع وعلم ما قد أجمعوا له من حرب رسول الله ﷺ ، وسمع عن مالك وأمر هوازن ما هم عليه ، ثم أقبل حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر .

يقول ابن هشام : فلما أجمع رسول الله ﷺ السير إلى هوازن ليلاقاهم ذكر له أن عند صفوان ابن أمية أدراعاً له وسلاحاً فأرسل إليه وهو يومئذ مشرك فقال : يا أبا أمية أعرنا سلاحك هذا نلحق فيه عدونا فقال : أَعْصَبْنَا يَا مُحَمَّد؟ قال : بل عارية مضمونة حتى نؤديها لك قال : ليس بهذا أَسْ فَأَعْطَاه مائة درع بما يكفيها من السلاح .

وخرج رسول الله ﷺ بجيش عدته اثنا عشر ألفاً منهم ألفان من أهل مكة .

وجعل أمير مقدمته خالد بن الوليد . وطبعاً المفترض أن تكون مهمتها استطلاعية .

يقول جابر بن عبد الله فيما يرويه عنه ابن هشام :

" لما استقبلنا وادي حنين انحدرنا في واد من أودية تهامة أجوف حطوط إنما تنحدر فيه انحداراً وفي عماليه الصبح (أي ظلامه قبل أن يتبيّن) وكان القوم قد سبقونا إلى الوادي فكمروا لنا في شعابه وأحنائه ومضائقه وقد أجمعوا وتمهّدوا وأعدوا " .

وهنا تجد أن خالداً رجل الحرب العظيم ، قد فشل في مهمته الاستطلاعية الضاربة ، إذ أصبح في الكمين هو ومقدمته . وكانت صدمة فرت منها المقدمة وثبتت خالد ، إلا أن الجيش لما رأى المقدمة فارة دون معرفة السبب ، والجيش فيه من أهل مكة الكثير وهم بعد ليسوا في حالة نفسية جيدة . ففروا وأخذ الناس هول المفاجأة وبدقائق معدودات فر الجيش كله ، ولم يبق حول رسول الله ﷺ أحد .

أخرج البخاري عن أنس - رضي الله عنه - قال : لما كان يوم حنين أقبلت هوازن وغطفان وغيرهم بنعمتهم وذرارتهم ومع رسول الله ﷺ عشرة آلاف والطلقاء فأدبروا عنه حتى بقي وحده فنادى يومئذ نداعين لم يخلط بينهما التفت عن يمينه فقال : يا معشر الأنصار ! قالوا

لبيك يا رسول الله ، أبشر نحن معك ثم التفت عن يساره فقال : يا معاشر الأنصار ! فقالوا : لبيك يا رسول الله أبشر نحن معك ، وهو على بغلة بيضاء فنزل فقال : أنا عبد الله ورسوله .

وروى ابن هشام عن العباس بن عبد المطلب قال :

إني أسمع رسول الله ﷺ آخذًا بحكمة بغلته (أي لجامها) البيضاء قد شجرتها بها و كنت امرأً جسimaً شديد الصوت و رسول الله ﷺ حين رأى ما رأى من الناس : أين أيها الناس ؟ فلم أر الناس يلوون على شيء فقال : يا عباس ! اصرخ يا معاشر الأنصار يا معاشر أصحاب السمرة ! فقال : فأجابوه لبيك ، فيذهب الرجل ليثني بغيره فلا يقدر على ذلك فيأخذ درعه فيقذفها في عنقه ويأخذ سيفه وترسه ويقتحم عن بغيره ويخلّي سبيله فيؤم الصوت حتى ينتهي إلى رسول الله ، حتى إذا اجتمع إليه منهم مائة استقبلوا الناس فاقتتلوا وكانت الدعوى أول ما كانت : يالأنصار ثم خلصت أخيراً ياللخزرج وكانوا صبراً عند الحرب ..

عن جابر بن عبد الله قال : بينما ذلك الرجل من هوازن صاحب الراية على جمله يصنع ما يصنع ، إذ هوى له علي بن أبي طالب ورجل من الأنصار يريدهانه فيأتيه علي بن أبي طالب من خلفه فضرب عرقوبه الجمل فوقع على عجزه ، ووثب الأنصار على الرجل فضربه ضربة أطن قدمه بنصف ساقه فانجف عن رحله واجتذب الناس فوالله ما رجعت راجعة الناس من هزيمتهم حتى وجدوا الأسرى مكتفين عند رسول الله .

تأمل هذه المقتطفات عن غزوة حنين : إرسال العيون للاستطلاع ، اختياره خالداً . استعارته الأدراع والسلاح ، تلافيه الهزيمة . إدارته المعركة بنفسه . معرفته ب الرجال الذين يعتمد عليهم في ساعة المحنة .

و قبل الانتقال عن هذا المقام ، نحب أن نذكر هنا موقفاً يجمع بين أعلى ما في العبرية العسكرية والسياسية :

بعد الانتهاء من معركة حنين قرر الرسول ﷺ أن يفتح الطائف ، فذهب إليها وحاصرها ، وكان أهلها عندهم خبرة في فن الدفاع العسكري ، والبلدة محصنة وخيراتها كثيرة ورأى الرسول ﷺ أن الحصار سيطول فاستشار نوفل بن معاوية فقال :

يا نوقل ! ما ترى في المقام عليهم ؟ فقال : يا رسول الله ثعلب في جحر إن أقمت عليه أخذته ، وإن تركته لم يضرك ، فأمر النبي ﷺ عمر بن الخطاب أن يؤذن في الناس بالرحيل .

والآن تصور منطقة الطائف وحولها قبائل موتورة منذ قريب لا زالت مستقلة فهي لا شك إذا تفرغت لنفسها ولم تشغل قد تسبب مشكلة خطيرة في قلب الدولة الإسلامية . إذ قد تكون مجمعاً لكل موتور حاقد .

فانظر كيف هيأ لها رسول الله ﷺ ما يشغلها ويضايقها حتى أسلمت :

كان قائداً القبائل المحاربة لرسول الله ﷺ يوم حنين مالك بن عوف . وقد فر بعد المعركة ولجا إلى تقيف فلما جاء وفد هوازن يفاوض الرسول ﷺ سأله عن مالك بن عوف ما فعل ؟ فقالوا : هو بالطائف مع تقيف . فقال رسول الله ﷺ : أخبروا مالكاً أنه إن أتاني مسلماً رددت عليه أهله وأماله وأعطيته مائة من الإبل ، فأتي مالك بذلك فخرج من الطائف ، وقد كان مالك خاف تقيفاً على نفسه أن يعلموا أن رسول الله قال ما قال فيحبسوه فأمر براحته فهبيئت له ، وأمر بفرس له فأتي به إلى الطائف فخرج ليلاً جلس على فرسه فركض حتى أتى راحتله حيث أمر بها أن تحبس ، فركبها فلحق برسول الله فأدركه بالجعرانة أو بمكة فرد عليه أهله وأماله وأعطاه مائة الإبل وأسلم فحسن إسلامه ... فاستعمله رسول الله ﷺ على من أسلم من قومه وتلك القبائل : ثمالة وسلمة وفهم ، فكان يقاتل بهم تقيفاً لا يخرج لهم سراح إلا أغمار عليه حتى ضيق عليهم فقال أبو محجن التقفي : هابت الأعداء جانبنا ثم تغزونا بنو سلمة . وأنانا مالك بهم ناقضاً للعهد والحرمة . وأنتونا في منازلنا ولقد كنا أولي نفقة .

فانظر كيف استطاع رسول الله ﷺ أن يشغل تقيفاً ويضايقها فيقضي على الأخطار والمشكلات المتوقعة بهذه البساطة الكبيرة .

* * * *

لعلك بهذهين المثالين من مواقفه العسكرية عليه الصلاة والسلام أخذت صورة على أن محمداً ﷺ في القيادة العسكرية فهو في كل شيء ، يمثل دائماً القمة التي لا يرقى إليها آخرون ، وقد حل لعباس محمود العقاد أن يعقد مقارنة بين محمد ﷺ والقائد العسكري الإفرنسي النابغة

في فن الحرب نابليون بونابرت ، فأرانا في هذه المقارنة أنه ما من قضية مهمة في أمر الحرب فطن لها نابليون وطبقها إلا وكان رسول الله ﷺ سباقاً لها . هذا مع أن نابليون كان متفرغاً مختصاً بفن الحرب . ثم إنه صادف في حياته العسكرية من الفشل ما لم يحدث قط لرسول الله ﷺ عسكرياً ، ولا من رياضه ودخلوا المعارك الكبرى بعده ، هذا مع ملاحظة الإمكانيات المحدودة لرسول الله ﷺ والإمكانيات الكثيرة الموجودة بيد غيره من أمثال نابليون ، وقد استطرد العقاد استطرادات مفيدة في هذا الموضوع نحب أن نقلها مع شيء من الحذف لبعض الجمل لفائتها ولكن قبل ذلك نحب أن نقرر هذه الحقيقة وهي :

أن الرسول ﷺ بدأ حياة دولته العسكرية بجيش مقداره ثلاثة وأربعين عشرين رجلاً . محاط بقبائل الجزيرة العربية كلها . مشركيها ويهودها ونصاراها وكلها معادية له ، وفي الجزيرة العربية وعلى أطرافها سلطان لفارس والروم ، وقد استهدفهم رسول الله ﷺ بحربه وبهذه القوة الصغيرة وبدعوته الكبيرة شق رسول الله ﷺ طريقه دعوة وسياسة وحرباً . فأخضع الجزيرة العربية كلها ، ولم يتوقف إلا وقد هيأ المسلمين لحرب الفرس والروم بأن واحد . فأتم خلفاؤه ما بدأه عسكرياً . فسقطت الدولة الفارسية وتقلصت الدولة الرومانية عن آسيا وأفريقيا تقربياً . كل ذلك في أقل من عشر سنوات وما حدث بعده من فتوحات لا يمكن أن ينسب إلا إليه فإنه من آثار تربيته ﷺ وتأسيسه وتحظيه .

وهذا شيء يتحدى التاريخ سابقاً ولاحقاً أن يكون قد حدث مثله ولو مرة في تاريخ العالم . فنحن إذا ما نقلنا هذه المقارنة لا نعني التساوي . حاشا ، وإنما نريد أن نبرهن على أن كل عظمة يرجح بها رسول الله ﷺ على الاختصاصيين المتفرغين لها ، وهو في كماله بها كماله في كل شيء غيرها ، يرجح الناس كلهم بكمالاتهم كلها .

* * * *

يقول " العقاد " : ونختار أربع القادة المحدثين وهو نابليون بونابرت على أسلوب حرب الحركة الذي كان هو الأسلوب الغالب في العصور الماضية ، والذي ظهر في الحرب العالمية الحضارة أنه لا يزال الخطوة الأخيرة في جميع الحروب ، على الرغم من الحصون والسدود . لأن اختيار نابليون بونابرت يبين لنا السبق في خطط النبي العسكرية ، بالمضاهاة بينها وبين خطط هذا القائد العظيم .

1 - "فنا比利ون" يوجه همه الأول إلى القضاء على قوة العدو العسكرية بأسرع ما يستطيع فلم يكن يعنيه ضرب المدن ولا اقتحام المواقع .. وإنما كانت عنايته الكبرى منصرفة إلى مبادرة الجيش الذي يعتمد عليه العدو بهجمة سريعة يفاجئه بها أكثر الأحيان وهو على يقين أن الفوز في هذه الهجمة يعنيه عن المحاولات التي يلجا إليها جلة القواد .

وعنده أنه يستفيد بخطته تلك من ثلاثة أمور ..

أن يختار الموقع الملائم ،
وأن يختار الفرصة ،
وأن يهاجم العدو قبل تمام استعداده .

وكان النبي ﷺ سابقاً إلى تلك الخطط في جميع تفصياتها ... فكان كما قدمنا لا يبدأ أحداً بالعدوان ، ولكنه إذا علم بعزم الأعداء على قتاله لم يمهلهم حتى يهاجموا جهد ما تواليه الأحوال ، بل ربما وصل إليه الخبر كما حدث في غزوة تبوك والناس مجذبون والقيظ ملتهم والشدة بالغة ... فلا يثنيه ذلك عن الخطة التي تعودها ، ولا يكف عن التأهب السريع وعن حض المسلمين على جميع الأموال وجمع الرجال ولا يبالي ما أرجف به المنافقون الذين توقعوا الهزيمة للجيش المحمدي ، فلم يحدث ما توقعوه .

وكان عليه الصلاة والسلام يعمد إلى القوة العسكرية حيث أصابها ، فيقضي على عزائم أعدائه بالقضاء عليها ... ولا يضيع الوقت في انتظار ما يختاره أولئك الأعداء وإضعاف أنصاره بتركه زمام الحركة في أيدي المهاجمين ، إلا أن يكون الهجوم وبالاً على المقدمين عليه ، كما حدث في غزوة الخندق .

2 - وكان نابليون يقول إن نسبة القوة المعنوية إلى الكثرة العددية كنسبة ثلاثة إلى واحد .

والنبي عليه الصلاة والسلام كان عظيم الاعتماد على هذه القوة المعنوية التي هي في الحقيقة قوة الإيمان . وربما بلغت نسبة هذه القوة إلى الكثرة العددية كنسبة خمسة إلى واحد في بعض المعارك مع رجحان الفئة الكثيرة في السلاح والركاب إلى جانب رجحائهم في عدد الجنود ..

ومعجزة الإيمان هنا أعظم جداً من أكبر مزية بلغها نابليون بفضل ما أودع نفوس رجاله من صبر وعزيمة ، فالنبي عليه الصلاة والسلام كان يحارب عرباً بعرب ، وقرشيين بقرشيين ، وقبائل من السلالة العربية بقبائل من صميم تلك السلالة ... فلا يقال هنا أن الفضل لقوم على قوم في المزايا الجسدية أو المزايا النفسية كما يمكن أن يقال هذا في جيوش نابليون . وكل فضل هنا فهو فضل العقيدة والإيمان .

3 - وقد كان نابليون مع اهتمامه بالقضاء على القوة العسكرية لا يغفل القضاء على القوة المالية أو التجارية التي يتناولها اقتداره ، فكان يحارب الإنجليز بمنع تجارتها وسفنهما أن تصل إلى القارة الأوروبية وتحويل العملات عن طريق إنجلترا إلى طريق فرنسا .

وهكذا كان النبي p يحارب قريشاً في تجارتها ، وبيعت السرايا في إثر القوافل كلما سمع بقاقة منها .

وأنكر بعض المتعصبين من كتاب أوربة هذه السرايا وسموها " قطعاً للطريق " وهي سنة المصادر بعينها التي أقرها " القانون الدولي " وعمل قادة الجيوش في جميع العصور ، ورأينا تطبيقها في الحرب الحاضرة وال Herb الماضية ، رشيداً تارة وغالباً في الحمق والشطط تارة أخرى .

4 - وقد أسلفنا أن نابليون كان يوجه همه إلى الجيش ، ولا يقتحم المدن أو يشغل باله بمحاصرتها لغير ضرورة عاجلة .

ونرجع إلى غزوات النبي عليه الصلاة والسلام فلا نرى أنه حاصر محله ، إلا أن يكون الحصار هو الوسيلة الوحيدة العاجلة لمبادرة القوة التي عسى أن تخرج منها قبل استعدادها ، أو قبل نجاحها في الغدر والحقيقة ، كما حدث في حصاربني قريظة وبني قينقاع ، فكان الحصار هنا كمبادرة الجيش بالهجوم في الميدان المختار بغير كبير اختلاف .

5 - وقد كان نابليون معتقداً برأيه في الفنون العسكرية ، ولا سيما الخطط الحربية ، ولكنه مع هذا الاعتداد الشديد لا يستغني عن مشاوره صحبه في مجلس الحرب الأعلى قبل ابتداء الزحف أو قبل العزم على القتال .

ومحمد عليه الصلاة والسلام كان على رجاحة رأيه يستشير صحبه في خطط القتال وحيل الدفاع ويقبل مشورتهم أحسن قبول ، ومن ذلك ما صنعه بدر ، وألمحنا إليه آنفًا - حين أشار عليه الحباب بن المنذر بالانتقال إلى مكان غير الذي نزلوا فيه أول الأمر ، ثم بتغوير الآبار وبناء حوض للشرب لا يصل إليه الأعداء . وقيل في روایات كثيرة إنه عمل بمشورة سلمان الفارسي في حفر الخندق عند المنفذ الذي خيف أن يهجم منه المشركون على المدينة .
فحرر الخندق وعمل النبي بيديه في حفره .

وقبول النبي مشورة سلمان عمل من أعمال القيادة الرشيدة وسنة من سنن القواد الكبار ، غير أنها نعتقد أنه عليه الصلاة والسلام كان خليقاً أن يشير بحفر الخندق لو لم يكن سلمان الفارسي بين أهل المدينة في إبان الهجمة عليها ، لأنه عليه الصلاة والسلام كان شديد الالتفات إلى سد التغور وحماية الظهور في جميع وقعته . وفي وقعة أحد جعل الجبل إلى ظهره وأقام على الشعب الذي يخشى منه النفاذ والالتفاف خمسين رامياً مشدداً عليهم في التزام موقفهم قائلاً لهم : احموا ظهورنا فإننا نخاف أن يجيئوا من ورائنا والزموا أماكنكم لا تبرحوا منه . وإن رأيتمونا ننهزم حتى ندخل عسكركم فلا تقارقوا مكانكم ، وإن رأيتمونا نقتل فلا تعينونا ولا تدفعوا عنا ، وإنما عليكم أن ترشقوا خيلهم بالنبل فإن الخيل لا تقدم على النبل . والذي يفعل هذا في شعب جبل لا يفوته أن يفعل مثله في ثغرة مدينة ، ولكن المشاورة هنا هي المقصودة بالمشاهدة بين ما سبق إليه النبي وما تبع فيه نابليون ، فهذه خصلة معهودة في كبار القواد لا تقدح فيما عرفوا به من قدرة على وضع الخطط وابتکار الأساليب .

6 - ولم يعرف عن قائد حديث أنه كان يعني بالاستطلاع والاستدلال عناية نابليون .

وكانت فراسة النبي في ذلك مضرب الأمثال ، فلما رأى أصحابه يضربون العبددين المستقيمين من ماء بدر لأنهما يذكران قريشاً ولا يذكران أبا سفيان ، علم بفطنته الصادقة أنهما يقولان الحق ولا يقصدان المراء . وسأل عن عدد القوم فلما لم يعرفوا العدد سأله عن عدد الجوز التي ينحرونها كل يوم فعرف قوة الجيش بمعرفة مقدار الطعام الذي يحتاج إليه . وكان صلوات الله عليه إنما يغول في استطلاع أخبار كل مكان على أهله وأقرب الناس إلى العلم بفجاجه ودوريه ويعقد ما يسمى اليوم مجلس الحرب قبل أن يبدأ بالقتال فيسمع من كل فيما هو خبير ه من فنون أو دلائل استطلاع .

7 - واشتهر عن نابليون أنه كان شديد الحذر من الألسنة والأقلام وكان يقول : إنه يخشى من أربعة أقلام ، ما ليس يخشاه من عشرة آلاف حسام .

والنبي عليه الصلاة والسلام كان أعرف الناس بفعل الدعوة في كسب المعارك وتغليب المقاصد ، فكان يبلغه عن بعض أفراد أنهم يخرون الذمة التي عاهدوا عليها ويشهرون به وبالإسلام ، أو يثيرون العشائر لقتاله ويقدعون في هجوه وهجو دينه ، فينفذ إليهم من يحاربهم في حصونهم أو يتکفل له بالخلاص منهم .

وعاب هذا بعض المعرضين من الكتاب الأوروبيين وشبهوه بما عيب على نابليون من اختطاف الدوق دانجان وما قيل عن محاولته أن يختطف الشاعر الإنجليزي كولرديج الذي كان يخوض في ذمه ويستهوي الأسماع بسحر حديثه .

إلا أن الفارق عظيم بين الحالتين ، لأن حروب الإسلام إنما هي حروب دعوة أو حروب عقيدة ، وإنما هي في مصدرها وغايتها كفاح بين التوحيد والشرك أو بين الإلهية والوثنية . وليس وقوف الجيش أمام الجيش إلا سبيلاً من سبل الصراع في هذا الميدان . فليس في حالة سلم مع النبي إذن من يحاربه في صميم الدعوة الدينية ويقصده بالطعن في لباب رسالته الإسلامية . وإن لم ينفر مع الناس لقتاله ولم يحرضهم على النكث بعهده وإنما هو مقاتل في الميدان الأصيل ينتظر من أعدائه ما ينتظره المقاتل من المقاتلين ، ولا سيما إذا كانت الحرب قائمة دائمة لا تقطع فترة إلا ريثما تعود .

أما نابليون فالحرب بينه وبين أعدائه حرب جيوش وسلاح ، فلا يجوز له أن يقتل أحداً لا يحمل السلاح في وجهه أو لا يدينه القانون بما يستوجب إزهاق حياته . وما نهض نابليون لنشر دين أو تفنيده ، ولو كان للرسول الإسلامي من غرض لجاز له أن يقتل المسالمة من يحاربونه في دينه وإن لم يشهدوا السيف في وجهه . فإن الضرب بالسيف لأهون من المقتل الذي يضربون فيه .

ذلك مقابلة مجملة بين الخطط والعادات التي سبق إليها محمد وجرى عليها نابليون بعد مئات السنين ، ومن الواجب أن نحكم على قيمة القيادة بقيمة الفكر أو الخطة قبل أن نحكم عليها بضخامة الجيوش وأنواع السلاح ، ولم يتخد محمد الحرب صناعة .. فإذا كان مع هذا لم يتقن منها ما يتولاه مدفوعاً إليه فله فضل السبق على جبار الحروب الحديثة الذي تعلمها

وعاش لها ولم ينقطع عنها منذ ترعرع إلى أن سكن في منفاه ، ولم يبلغ من نتائجه بعض ما بلغ القائد الأمي بين رمال الصحراء .

ولقد كانت خبرة النبي ببعوث الاستطلاع كخبرته ببعثة القتال فكانت طريقته في اختيار القائد وتزويده بالوصايا والأتباع مثلاً يحتذى في جميع العصور ، ولا سيما العصر الحديث الذي كثرت فيه ذرائع التخبئة وال Mara'iq وذرائع الكشف والدعوة فكثرت فيه - من ثم - حاجة المقاتلين إلى استقصاء أحوال العدو .

ففي الحروب الحديثة يتعدد ذكر الأوامر المختومة التي تصدر إلى قواد السرايا والسفن ليفتحوها عند مدينة معلومة أو بعد مسيرة ساعات أو في عرض البحر على درجة معينة من درجات الطول والعرض . إلى أمثل ذلك من العلامات التي تعين بها الجهات .

ويتحقق في أمثل هذه البعثات أن يكون القائد وحده مطلعًا على سر البعث ورجاله جمیعاً يجهلونه ولا يعرفون أهم خارجون في غزوة أم في مناوره استطلاع ، إلى ما قبل الحركة المقصودة بساعات معدودات وهناك تصدر الأوامر التي لا بد من صدورها للتهيؤ والتفيذ ولا خوف من كشفها في تلك الساعات لصعوبة الاستعداد الذي يقابلها به العدو إذا انكشفت له قبل تنفيذها بفترة وجيزة . ولا سيما إذا كانت الحركة من حركات البحر .

هذه الأوامر المختومة ليست بحديثة . وقد عرفت في المؤثرات النبوية على أتم أصولها التي تلاحظ في أمثلتها ، ومن ذلك أنه عليه الصلاة والسلام بعث عبد الله بن جحش ومعه كتاب أمره لا ينظر فيه حتى يسير يومين ، وفحواه أن " سر حتى تأتي بطن نخلة على اسم الله وبركاته ، لا تكرهن أحداً من أصحابك على المسير معك وامض فيمن تبعك حتى تأتي بطن نخلة فترصد بها غير قريش وتعلم لنا من أخبارهم " .

وهذا نموذج من الأوامر المختومة جامع لكل ما يلاحظ فيها حديثاً وقدماً وعند بدأه الدعوات على التخصيص .

فأولها كتمان لخبر عن يحيطون بالنبي عليه الصلاة والسلام ، فلا يبعد أن يكون منهم من هو مدخول النية عليه وعلى أصحابه من قبل قريش ، ولا يبعد أن يكون منهم من يوح بالخبر ولا يريد بهسوء أو يدرك ما في البوح به من الخطر المحظور ، ولا يبعد أن

يكون منهم الضعفاء والمخالفون ، وأن الاستعانة على قضاء الحاجات بالكتمان لسنة حكيمة من سنن النبي عليه الصلاة والسلام في جميع المطالب وهي في حروب الدعوات على التخصيص أقمن بالاتباع ، ولهذا كان إذا أراد غزوة ورثى بغيرها على النحو الذي يتبعه قادة الحروب إلى الآن .

ومما لوحظ في كتاب النبي عبد الله بن جحش كتمان الخبر عن أصحابه ثم وصاته ألا يكره أحداً منهم على المسير معه بعد معرفته بوجهته ، وهذا هو أهم الملاحظات في هذا المقام .

فقد يحارب الرجل وهو مكره مهدد بالموت الذي يتقيه إذ يفر من القتال ، ولكنه لا يستطيع وهو مكره ثم يفید استطلاعه من أرسلوه ، بل لعله ينقلب إلى النقيض فيحرف الأخبار عمداً أو يتلقاها على غير اكتراث ، أو يطلع الأعداء على أسرار أصحابه وهم غافلون عنه .

ولهذا تعاني الدول أكبر العناء في مراقبة الجواسيس بالجوايس وفي امتحان كل خبر بالمراجعة بعد المراجعة والمناقشة بعد المناقضة حتى تطمئن إلى صحته قبل الاعتماد عليه .

وفي الحروب الحاضرة تجربة جديدة من المستطاعين أو الرواد المتقدمين فقد عرف أن هتلر يعتمد على أفراد من جنده يهبطون إلى الطيارات وراء الصفوف ، فينزلون إلى مراكز المواصلات ويعثرون بين القرى المعزولة ، فيشيرون فيها الرعب والحيرة ويوهمون من يراهم أن الجيش المغير كله على مقربة منهم فلا جدوى لهم من الاستغاثة أو المقاومة ، ويحمل معظم هؤلاء الرواد المتقدمين أجهزة للمخاطبة يستعينون بها على الاتصال برؤسائهم من بعيد .

قيل في الإعجاب بهذه الخطة الهاتلرية كثير ، وقيل في انتقادها والتنبية إلى خطرها كثير .

فمن دواعي الإعجاب بها أنها أفادت في قطع المواصلات وإشاعة الذعر وتضليل المدافعين وأنها شيء جديد في شكله وإن لم يكن جديداً في غایته ومرماه .

ومن أسباب انتقادها أن كل فائدة فيها توقف على العقيدة وحسن النية . فهي تستلزم أن يكون الرائد غيراً على عمله متحمساً لإنجازه رقيباً على نفسه وهو بمعزل عن رقبائه فليس أيسر له إذ هو انفرد وأعوزته الرغبة في إنجاز عمله من أن يستأسر في أول مكان يصل إليه من بلاد الأعداء طلباً للسلامة . ولا عاقب عليه إلى نهاية القتال . ثم يتعلل بما شاء من المعاذير إن وجد بعد ذلك من يحاسبه ويعاقبه . وهيهات أن تستجمع الأدلة عليه في أمثل هذه الفوضى بين معاذير أو عدة معاذير .

فالخطة الهتلرية فاشلة لا محالة إن لم ينفذها مريدون متعصبون غير مكرهين ولا متشككين فيما هو موكول إليهم ، وهي لهذا أخرى أن تحسب من وحي إخوان الطريق وإلهام العقائد لا من النظام الذي يدرّب عليه كل جيش ويصلح لجميع الجنود ، فلو لا أن النازيين قضوا قبل الحرب الحاضرة زهاء عشر سنين ينفحون في نفوس الناشئة جذوة البغض ، ويلهبونهم بحماسة العقيدة ويخلقون فيهم اللدد الذي يغنى عن الرقابة ساعة التنفيذ ، لحطت الخطة كل الجبوط وانقلبت على النازيين شر انقلاب .

وها هنا تتجلى حكمة النبي عليه الصلاة والسلام في اشتراط الرغبة والطوعية واجتناب القسر والإكراه . فهذه " أولاً " بعثة منفردة لا سبيل إلى الإكراه الفعال بين رجالها إذا أريد . وهي " ثانياً " بعثة استطلاع لا يغني فيها عمل الكاره المقصور ، وألزم ما يلزم العامل فيها إيمانه وصدق نيته وحسن موئنه لمن أرسلوه ، فإن أعوزته هذه الصفة فقد أعوزه كل شيء .

أما عرض البعثة كلها وهو الاستطلاع ، فقد كان النبي عليه الصلاة والسلام عليماً بمزاياه . معنياً به غاية العناية ، فالعدو المجهول كالعدو المستتر بأسوار الحصون ، في حمى من الجهل به قد يحول دون الاستعداد له بالعدة الضرورية في الوقت الضروري ، ويجعل من ثم دون الانتصار عليه .

ونحن نكتب هذه الفصول وال Herb الروسية تذكرنا كيف أصيب نابليون في هذا الميدان حيث أصيب في وسائل الاستطلاع ، ثم تذكرنا كيف تكررت هذه الغلطة بعينها على نوع من المشابهة بين غزوة نابليون في روسيا أمس وغزوة هتلر لتلك البلاد اليوم .

فمن أسباب هزيمة نابليون إهماله النصائح التي سمعها في مجلس الحرب من بعض الثقات قبل التوغل في الحرب الروسية ، لاعتقاده خطأً أن القيصر سيطلب صلحه بعد أسابيع .

ومن أسباب تلك الهزيمة أن الروس كانوا يتراجعون أمامه تحت جنح الظلام ، ويخلون المدن والطرق حتى لا يرى فيها دياراً يسأله عن مكان الجيش المتراجع . أو يلقط من خلال أجوبته ما يعينه على الاستطلاع الذي كان شديد التعويل عليه .

أما " هتلر " فقد أتى من قبل هذين النقصين كما أتى من قبله من هو أعظم منه وأولى بالتحرج والأنفة .

فقد اشتهر أنه كان في مجلس الحرب على خلاف مع قواه الثقات الذين علموا من شأن الروس ما ليس له به علم . واشتهر أنه أخطأ في استطلاع القوم إذ خيل إليه أن الشعب الروسي يتحفز للثورة ويترقب الإغارة عليه لنصرته كائناً من كان ولو جاءت الغارة من عنصر معاد للعنصر السلافي وهو عنصر الجerman .

ومحمد عليه الصلاة والسلام لم يتعلم ما تعلم هتلر ونابليون ، ولكنه لم يخطئ قط مثل هذا الخطأ في جميع غزواته وكشوفه ، ولعلنا نفهم - كما درسنا زمانه الحافل بالعبر والأمثلة الباقية - أن دراسته ضرب من دراسة العصر الحديث والقادة المحدثين .

* * * *

عندما تتعقد المقارنة بين المعارك القديمة والمعارك العصرية . ينبغي أن ننظر إلى فكرة القائد قبل أن ننظر إلى ظواهر المعارك أو أشكالها أو أحجامها ، لأننا إذا نظرنا إلى الظواهر فلا معنى إذن للمقارنة على الإطلاق ، إذ من المقطوع به أن عشرة ملايين يجتمعون في ميدان واحد أضخم من عشرة آلاف ، وأن حرباً تدار بالمذياع والتليفون أعجب من حرب تدار بالفم والإشارة ، وأن نقل الجنود بالطائرات والدبابات أربع من نقلهم على ظهور الخيول والإبل ، وأن المدفع أمضى من السيف والرصاص أمضى من السهم ، فلا معنى إذن لمقارنة بالظواهر تنتهي إلى نتيجة واحدة وهي استضمام الحرب الحديثة والنظر إلى القيادة الغابرة كأنها شيء صغير إلى جانب القيادة التي توجه هذه الضخامة .

لكننا إذا نظرنا إلى فكرة القائد ، أمكننا أن نعرف كيف أن توجيهه ألف رجل قد تدل على براعة في القيادة لا نراها في توجيه مليون بينهم الراجل والراكب ، ومنهم من يركبون كل ما يركب من مخلوقات حية وآلات مخترعة .

و هذه الفكرة هي التي ترينا محمدًا عليه الصلاة والسلام قائداً حربياً بين أهل زمانه بغير نظير في رأيه وفي الانتفاع بمشورة صحبه ، و تبرز لنا قدرته النادرة بين قادة العصور المختلفة في توجيه كل ما يتوجه على يدي قائد من قوى الرأي والسلاح والكلام . وهذه القدرة هي شهادة كبرى للرسول تأتي من طريق الشهادة للقائد الخبير بفنون القتال .

* * * *

ويزيد هذه الشهادة عظماً ، أن الرجل الذي يجتب القتال في غير ضرورة رجل شجاع غير هياب ، شجاع وليس كبعض الهداء المصلحين الذين تجور فيهم فضيلة الطيبة على فضيلة الشجاعة ، فيحجمون عن القتال لأنهم ليسوا بأهل قتال .

فمحمد كان في طليعة رجاله حين تحدم نار الحرب وبهاب شواطئها من لا يهاب ، وكان علي فارس الفرسان يقول : " كنا إذا حمى البأس اتقينا برسول الله ﷺ فما يكون أحد أقرب منه إلى العدو " .

ولولا ثباته في وقعة حنين ، وقد ولت جمهرة الجيش وأوشك أن ينفرد وحده في وجه الرماة والطاعنين ، للحقت الهزيمة بال المسلمين ، وخروجه والليل لما يسفر عن صبحه ليطوف بالمدينة مستطلاً ، وقد هددها الأعداء بالغارة والحصار أمر لو لم تدعه إليه الشجاعة الكريمة لم يدعه إليه شيء ؛ لأن المدينة كانت يومئذ حافلة بمن يؤدون عنه مهمة الاستطلاع وهو قرير في داره ، ولكنه أراد أن يرى بنفسه فلم يثنه خوف ولم يعهد بهذا الواجب إلى غيره .

ومشاركته في الورقات الأخرى هي مشاركة القائد الذي لا يعفي نفسه وقد أعتقه القيادة من مشاركة الجندي عامة فيما يستهدفون له ، فهي شجاعة لا تؤثر أن تتوارى حيث يباح لها أن تتوارى وعندما العذر المقبول بل العذر المحمود .

وإذا كان القائد خبيراً بالحرب قديراً عليها غير هياب لمخاوفها ، ثم اكتفى منها بالضوري الذي لا محيس عنه ، فذلك هو الرسول تأثيه الشهادة بالرسالة من طريق القيادة العسكرية وتأنى جميع صفاتـه الحسنى تبعاً لصفاتـ الرسول . اهـ " عبرية محمد "

نقلنا كلام العقاد الآلف لما فيه من فوائد ، إلا أننا لا نعتقد أنه أحاط بمزايا رسول الله ﷺ العسكرية . ولا نعتقد أنه أراد ذلك ، وإنما لمس بعض هذه المزايا لمساً خفيفاً ، ولا نعتقد كذلك أننا نستطيع استجلاء هذه المزايا كلها لقصورنا أو لا وللإيجاز الذي نقصده ثانياً في هذه الكتابات ، غير أن هناك ميزة تربو على كل ما ذكر لرسول الله ﷺ من ميزاتـ في قضية الحرب لم يتعرض لها حتى الآن هي تأمينه ﷺ لجيشه ولدولته دائماً (الهيبية العسكرية) التي تجعل الآخرين دائماً في حالة رعب وقد عبر هو نفسه ﷺ عن هذه الحقيقة بقوله " ونصرت بالرعب مسيرة شهر " وأن من جملة عوامل النصر المهمة دائماً في حرب المسلمين هذه الناحية التي وطـ رسول الله ﷺ أركانها في حياته ، وحافظ عليها أصحابـ بعده ، وهي التي كانت تفعل في قلوب أعدائه المقاتلين الأفاعيل . ولو درسنا حياة الرسول ﷺ العسكرية لرأينا أن هدفاً كبيراً دائماً من أهداف عملياته العسكرية كان إبقاء هذه الهيبة وزيادتها وتأكيدها وتوسيع دائـتها حتى وصل المسلمين إلى حالة في النهاية كان الناس كلهم يهابونـهم ولا يهابونـ هم أحداً ، لا دولة كبرى ولا صغرى ولا قبيلة ولا جيشاً ولا سلاحاً ولا عدداً ولا عدة فتـري الجيش الصغير (3000) يهجم على الجيش الكبير (200.000) يوم مؤنة ولا يبالـي بالنتائج ، وإـليك عرضاً موجزاً لأعمالـ الرسول ﷺ العسكرية خلال سنة من أولـ سنـيـ المدينة لـتعرفـ كيفـ أـوجـدـ هذهـ الهـيـبـيـةـ العـسـكـرـيـةـ وـأـمـنـهاـ .

ما كاد يستقرـ بالمدينة حتى يرسلـ في رمضانـ من السنة الأولى للهـجرةـ حـمـزةـ بنـ عبدـ المـطـلـبـ فيـ ثـلـاثـينـ مـنـ الـمـسـلـمـينـ ، فـيلـتقـيـ بـأـبـيـ جـهـلـ يـقـودـ قـافـلـةـ لـقـرـيـشـ وـمـعـهـ ثـلـاثـ مـائـةـ رـاكـبـ فـيـ حـجـزـ بـيـنـ الـفـرـيقـيـنـ مـاجـدـيـ بـنـ عـمـروـ الـجـهـنـيـ فـلاـ يـقـعـ قـتـالـ .

وفيـ شـوالـ مـنـ نـفـسـ السـنـةـ يـرـسلـ عـبـيـدةـ بـنـ الـحـارـثـ فـيـ سـتـينـ رـاكـباًـ إـلـىـ وـادـيـ رـابـغـ فـيلـتقـيـ بـأـبـيـ سـفـيـانـ وـمـعـهـ مـائـةـ مـشـرـكـ فـيـ تـرـامـيـ الـفـرـيقـانـ بـالـنـبـلـ وـلـاـ يـقـعـ قـتـالـ .

وفيـ ذـيـ الـقـعـدـةـ يـرـسلـ سـعـدـ بـنـ أـبـيـ وـقـاصـ فـيـ نـحوـ عـشـرـينـ رـجـلـاًـ يـعـتـرـضـ عـرـاـ لـقـرـيـشـ وـلـكـنـهـ تـقوـتـهـ ، وـفـيـ صـفـرـ يـخـرـجـ الرـسـولـ ﷺ بـنـفـسـهـ بـعـدـ أـنـ يـسـتـخـلـفـ سـعـدـ بـنـ عـبـادـةـ عـلـىـ

المدينة فيسير حتى يبلغ ودان يريد قريشاً وبني ضمرة فلم يلق قريشاً وعقد حلفاً مع بني ضمرة .

وفي ربيع الأول خرج الرسول ﷺ على رأس مائتين من المهاجرين والأنصار إلى بواط معترضين عيراً لقريش يقودها أمية بن خلف ومعه مائة من المشركين ففاته .

وفي جمادى خرج إلى العشيرة من بطن ينبع وأقام بها شهراً صالح فيه بنى مدرج .

ثم أغار كرز بن جابر الفهري على المدينة واستأق سرحها فخرج النبي ﷺ في طلبه حتى بلغ وادي سفوان قريباً من بدر فهرب كرز ولم يدركه رسول الله ﷺ .

وعند مقلنه من هذه الغزوة أرسل عبد الله بن جحش بسرية فيها ثمانية من المهاجرين .

وفي رمضان كانت موقعة بدر الكبرى التي كانت أول صدام عنيف مسلح بين المسلمين وغيرهم سقط فيه قتلى أعنى المشركين ، فانظر من رمضان إلى رمضان كم سرية وكم غزوة حرکها رسول الله ومن حكم هذه السرايا :

1 - إنها تدريب عملي وإعداد نفسي للMuslimين يجعلهم دائماً في حالة تعبئة عامة وحذر دائم واستعداد يقظ وحركة قتالية سريعة .

2 - إشعار الأعداء بالقوة التي تهاجم ولا تنتظر حتى تهاجم ، وإلقاء الرعب في قلوب من يفكر بغدر وشر .

3 - الإشعار بالانتقال من مرحلة الصبر إلى مرحلة الرد بالمثل على الظلم وإيقاف المشركين في غير حدتهم .

وكانت معركة بد الضربة الساحقة التي حققت هذه الأغراض جميعاً ، وكان ما قبلها مقدمة لها ، وخلال عشر سنوات قضتها الرسول في المدينة ، تجد أن أعماله العسكرية من غزوات إلى سرايا بلغت عشرات وكلها كانت محكمة وسريعة وناجحة ، من غزوة ضد قريش

إلى عملية ضد اليهود ، إلى تحرك نحو القبائل العربية على الحدود الرومانية والفارسية . إلى مناوشة مع الدولة الرومانية ، ولم يقبض عليه الصلاة والسلام حتى فتح للمسلمين طريق العمل العسكري الذي انطلقوا منه إلى العالم . فلم يوقفهم شيء إلا ضعف جذوة الإسلام في أنفسهم لأمد .

والأهم من الناحية العسكرية مما قدمناه هو أن الرسول ﷺ بلغ بأتباعه من الانضباط العسكري مبلغًا ما بلغه قائد عسكري آخر ، ونحن نعلم أن الانضباط العسكري هو كل شيء في المعركة ولا يمكن أن تظهر عبرية قائد عسكرياً إلا إذا كان الانضباط موجوداً ولذلك فإن ثمانين بالمئة من عبرية القيادة العسكرية تظهر في انضباط جندها معها في اللحظة الحاسمة ، فإذا بلغ رسول الله ﷺ من هذا قمته وفي أمة العرب الشعب المارد التمرد الذي لا يعرف انضباطاً ولا طاعة فتلك معجزة المعجزات .

وكمثال على مدى الروح الانضباطية التي تتمتع بها المسلمين في آخر حياته عليه الصلاة والسلام ما حدث يوم غزو تبوك . إذ تخلف بعض الأتباع عن الذهاب معه ﷺ فأمر رسول الله ﷺ الناس بمقاطعتهم (وهم ثلاثة) فلم يكلمهم أحد حتى تاب الله عليهم وستمر معك القصة في / مبحث الثمرات / .

إن عبرية هذه القيادة لا مثيل لها في كل تصرف من تصرفاتها الصغيرة والكبيرة ، نجدها حيث يبقى أبي سفيان يوم فتح مكة على الطريق تمر به كتائب المسلمين كلهما ، حتى ينقطع آخر أمل له في المقاومة وحتى يتلاشى آخر تردد عنده في الاستسلام ، والتي نجدها حيث يغزو الروم يوم تبوك ويعقد المعاهدات مع أطراف دولتهم ، ممهداً بذلك لاستقبال الجيوش الإسلامية في المستقبل .

وإذا كانت نتائج العمل العسكري ميزاناً توزن به قيمة هذا العمل العسكري فإنه لا يوجد في ميزان العالم أقل من العمل العسكري الذي قام به رسول الله إذ ما من معركة حذث للأمة الإسلامية بعد إلا وكانت قبساً من شمس رسول الله ، وما من ظفر حققه المسلمون إلا ووراءه الروح التي بثها رسول الله في موات القلوب ، ولئن مرت ظروف انتصرت فيها الأمة الإسلامية في عصتنا . فاستغل انتصارها أعداؤها ، فإن تعاليم رسول الله ﷺ ستجعل هذه الأمة في وضع آخر مرة أخرى بإذن الله .

وبعد : إن الرسالة الثالثة من هذه السلسلة وهي عن الإسلام ، ستوضح تعاليم رسول الله بشكل مفصل . وهذا الذي جعلنا نقصر هذا البحث فقط على صفات الرسول دون ذكر التعاليم التي تتبع عنها هذه التصرفات ، وإنما أردنا إبراز الكمال الذي يتمتع به رسول الله في كل شيء بحيث استجتمع أعلى قمم السلوك البشري في كل شيء فكان الإنسان الوحيد الذي يصح أن يكون قدوة البشر العليا في كل شيء وبعد أن تقرأ الرسالة الثالثة سترى بوضوح أن البشرية لن يستقيم أمرها إلا بأخذها بتعاليم محمد والاقتداء به ، وأن الحدود التي حدتها رسول الله في حياته السلوكية والعملية في كل الجوانب هي أرفع وأعدل ما ترتفق إليه آمال البشر مع الواقعية التي لا تخرج هذه التعاليم إلى مثل معطلة ، وإن أي انحراف عن التأسي برسول الله واتباع تعاليمه إنما هو في الواقع ارتكاس وانتكاس مهما حاول أهل الباطل أن يفرضوا عليه من الألقاب والنعوت والتسميات . فالرسول عليه الصلاة والسلام قد أعطى البشر بوحي من الله الصيغة الوحيدة للحق ، فمهما ابتغت البشرية الهدى في غير هذه الصيغة فإنها إلى ضلالٍ تسير .

لقد رأيت في هذا الباب :

أن رسول الله صادق بذلك هذا على أنه رسول الله .

وأن رسول الله أمين في تنفيذ ما دعا إليه وذلك هذا على أنه رسول الله .

وأن رسول الله قد بلغ دعوة الله حقاً وذلك هذا على أنه رسول الله .

وأن رسول الله أعقل البشر وأعظمهم فطانة فذلك هذا على أنه رسول الله حقاً .

وأن رسول الله أعظم الناس في باب التربية والتعليم وذلك هذا على أنه رسول الله حقاً .

وأن رسول الله أكمل الخلق أباً وزوجاً وأخلاقاً وقيادة وكل ذلك ذلك على أنه رسول الله حقاً .

ورسول تدلّك صفاته على رسالته إلى أين تفارقه متبعاً أصنام الهوى وأباطيل الهوس
ومجانين الضلال ، إن هؤلاء لا يسيرون بك إلا إلى الهاوية .

ولكن رسول الله لا يدلّك عليه فقط صفاته بل قامت الأدلة على رسالته حتى إنه لم
يزغ عن الرؤية إلا أعمى .

فإلى الباب الثاني لترى الدليل الكامل الآخر على أن محمداً رسول الله .

الباب الثاني

المعجزات

المعجزات

سنكتب في هذا الباب فقرتين وتعليقياً :

الفقرة الأولى :

حول المعجزة القرآنية نتحدث فيها عن خمسة جوانب من جوانب المعجزة القرآنية ، كل منها يشهد أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون إلا من عند الله .

الفقرة الثانية :

معجزات أخرى لرسول الله ﷺ غير القرآن نتحدث عن تسعة أنواع منها ، كل واحدة منها تشهد أن محمداً رسول الله .

التعليق :

ونتحدث فيه عن الفارق بين المعجزة وغيرها من الأمور التي يراها الناس خارقة للعادة ، ونرجو ألا ينتهي هذا الباب إلا وقد اشرح القلب ببرد اليقين أن محمداً رسول الله وأنه ليس أمام الإنسان إلا طريق محمد ﷺ وحده . فذلك الذي يصح للإنسان أن يسلكه {وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَأَيْرٌ} .

فإلى الفقرة الأولى من هذا الباب .

* * *

الفقرة الأولى

المعجزة القرآنية

- 1 -

يقول عليه الصلاة والسلام : " ما مننبي إلا وأوتني من الآيات ما مثله أمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتته وحيًا أوحى إليَّ فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيمة " ¹ . إن النبيين عليهم الصلاة والسلام كانت معجزاتهم شاهدة على صدق الوحي الذي أنزل إليهم وبلغوه . أما الرسول محمد فمعجزته الرئيسية كانت في نفس الوحي . فالوحي نفسه فيه دليل على أنه من عند الله عز وجل إذ هو ذاته المعجزة ، ولذلك عندما كان المشركون يطّلبون آية كانوا يلفتون إلى أن الآية بين أيديهم :

{وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّنْ رَبِّهِ فَلَمَّا أَلَّمَ الْأَيَّاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِلَمَّا أَنَّ نَذِيرًا مُّبِينًا * أَوْلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْكِتَابَ يُتَلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لِرَحْمَةً وَذِكْرًا لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} العنکبوت : 50 ، 51 .

وإذا كان القرآن باقياً بحفظ الله {إِنَّا نَحْنُ نَرَئُنَا الْذِكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} الحجر 9 .

فالمعجزة إذن باقية محسوسة يستطيع كل إنسان إن صدق أن يعرفها ويتيقنها بعلم يقين .

{بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أَوْثَوْا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ} العنکبوت : 49 .

¹ أخرجه البخاري ومسلم وأحمد .

وهذا القرآن من أين أخذته ذلك على ذاته ، على شرط أن تأخذه بعلم ، وتطلب الحق فيه بصدق ، فالعالم بأي علم له علاقة بالقرآن يستطيع أن يرى في القرآن الحق الذي يعلو أن يكون مصدره بشراً .

{وَيَرَى الْكُفَّارُ أُولُؤُ الْعَزَمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ} سباء : 9 .

فالعالم باللغة ، الدراك لأسرارها ، البصير فيها ، يرى أن لغة القرآن ليست ببيان بشر . والعالم بأساليب التعبير ومجال البيان ولفتات البلاغة ، يرى أن ما في القرآن من أسلوب وبيان وبلاحة جل عن طوق بشر .

والعالم المحيط بالتاريخ المتثبت بما كان ، سواء قبل نزول القرآن أو بعده . يرى أن الخبر الذي في القرآن ليس مصدره البشر .

والعالم بالكون قوانين وواقعاً يرى أن القرآن ليس من عند بشر إذ ما فيه من علم لم يكن ساعة نزوله معروفاً ، شيء ضخم فيه دليله .

والعالم بالنفس غائزها وما يصلحها ويفسدها ، وما يرتفع بها ويذهب ، يستطيع إدراك ربانية القرآن .

والعالم بالتشريع الاجتماعي الجنائي والاقتصادي ، وغير ذلك من أنواع التشريع يمكنه معرفة ربانية القرآن .

والعالم بالأخلاق والتربية والسلوك ، يستطيع أن يرى الله في قرآنـه .

والعالم بالأمم حضارتها وعمانها ، والعوامل التي تبنيها وتهدمها يستطيع أن يرى القرآن في مصدره الرباني .

والعالم بالكتب السماوية كالتوراة والإنجيل والزبور ، يدرك أن كتاباً يحكم في أدق قضايا الخلاف بين أتباع الديانات ، ليس مصدره محمداً الذي لم يسمع كتاباً ولم يقرأ .

إن العالم يرى ، وطالب الحق يرى ، أما المتكبر ، أما الحاسد ، أما طالب الدنيا ، أما الظالم ، أما أعمى القلب المظلم البصيرة ، أما هؤلاء فلن يروا ، لأنهم ليسوا أهلاً للرؤيه .

{سَأَصْرُفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَنْكَبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِعَيْرِ الْحَقِّ} (الأعراف : 149) .

{وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلَنَا بَيِّنَكَ وَبَيِّنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً * وَجَعَلَنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكْلَهُ أَنْ يَقْهُوْهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقَرَأْ} (الإسراء : 45 ، 46) .

{وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ} العنكبوت : 49 .

إن مثل هذا النوع من البشر الذي يجدد ، وقلبه مستيقن يمنعه من الإقرار الكبير والبطر ، ليس لك إلى مناقشته سبيل ، إذ الحجة وعدمها معه سواء .

{وَجَحَدُوا بِهَا وَأَسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا} النمل : 14 .

إذ ليس سبب إنكاره عدم الحجة ، بل السبب في ذاته هو ، وإن الذين عانى منهم رسول الله ﷺ وكل رسول هم من هذه الطبقة العاتية ، وليسوا من أولئك الذين يبحثون عن الحق حتى إذا وجوهه عرفوه وقبلوه واعتنقوه .

{فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ} الأنعام : 33 .

وإليك هذه القصة التي ذكرها ابن إسحاق : أتى الأحسن بن شرقي أبا جهل فدخل عليه بيته فقال : يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ قال : ماذا سمعت ؟ تنازعننا وبنو عبد مناف الشرف أطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تجاذبنا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء ، فمتى ندرك هذه ؟ والله لا نسمع به أبداً ولا نصدقه . فقام عنه الأحسن بن شرقي .

هذا هو نمط الناس الذين لم يؤمنوا بالقرآن ، ليس لهم عذر ولا مستمسك وأنى يكون لهم عذر وتحدي المعجزة يقع آذانهم وهم صامتون .

{أَمْ يَوْلُونَ أَقْرَاهُ فُلْ قَائِمَا بِعَشْرِ سُورَ مُّثْلِهِ مُقْرَيَاتٍ} هود 13 .

اكذبوا و هاتوا مثل سوره ولكنهم لم يفعلوا وحتى الذي ادعى النبوة والوحى كمسيلمة .
لم يتكلم ليعارض القرآن بل كان يعترض أن القرآن وحى سماوي ، ولكنه تكلم ليقال : وها أنا
يوحى إِلَيْهِ و لكنه لم يتحد بوجهه .

{وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مُّثْلِهِ وَأَذْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ
اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأَنْتُمُ الظَّارِفُونَ} البقرة 23 ، 24 .

لقد تحداهم أن يفعلوا وقال لهم : لن تفعلوا ولم يفعلوا أليس في ذلك عجب ؟

عجب لأن من عاداتهم المساجلة والمعارضة . فلم يساجلوا هنا ولم يعارضوا .

و عجب لأنهم أمة البيان وبهتوا أمام البيان .

و عجب لأنهم فعلوا كل شيء من أجل القضاء على الدعوة الجديدة و سكتوا عن أبسط
الأشياء وهو الكلام .

و عجب أن وارث الكلام من شعرائهم وأئمة البيان عندهم . أصبحوا مسلمين كحسان
والخنساء وبجير وكعب والخطيبة ولبيد . وهم الأعلم باللغة والأبصر فيها ولبعضهم لسان أشد
من السيف ، ومع ذلك كان موقفهم السكوت ثم التسليم .

" أليس عجباً أن تجد الخنساء الشاعرة وهي التي قالت لحسان بن ثابت في سوق
عكاظ حين أشدها .

وأسيافنا يقطرن من نجدة دما
فأكرم بنا خالاً وأكرم بنا أينما

لنا الجففات الغر يلمعن في الضحي
ولدنا بني العنقاء وابن محرق

ضعف افتخارك وأبرزته في ثمانية مواضع قال : وكيف ؟ قالت : قلت لنا الجفනات ، والجفناط ما دون العشر . ولو قلت : الجفان لكان أكثر . وقلت : الغر . والغرفة البياض في الجبهة . ولو قلت : البيض لكان أكثر اتساعاً . وقلت : يلمعن ، واللمع شيء يأتي بعد الشيء ، ولو قلت : يشرقن لكان أكثر لأن الإشراق أدوم من اللمعان ، وقلت : بالضحى ، ولو قلت : بالعشى لكان أبلغ في المديح ، لأن الضيف في الليل أكثر طروقاً ، وقلت : أسيافنا ، والأسياف دون العشر ، ولو قلت : سيوفنا كان أكثر ، وقتل : يقطرن ، فدللت على قلة القتل . ولو قلت يجرين لكان أكثر : لانصباب الدم ، وقلت : دماً ، والدماء أكثر من الدم ، وفخرت بمن ولدت ، ولم تفخر بمن ولدوك " راجع إعجاز القرآن للرافعي .

هذه نفسها النقاد الشاعرة التي ملأت الدنيا نحيباً على أخيها صخر تفقد أولادها الأربع في الإسلام في معركة واحدة ، فلم تذرف دموعة بل تحمد الله ، لقد آمنت بالقرآن وغير القرآن أعماقها .

لقد شعر العرب الأصحاب يوم تنزل القرآن أن هذا القرآن الذي يسمعونه لم يخرج من بشر ، كانوا يحسون هذا في أعماقهم سواء في ذلك مؤمنهم وكافرهم .

وانظر هذين النصين عن مؤمن وكافر :

أ - روي أن أبا بكر رضي الله عنه - وكان أنسب العرب وأعلمهم بلغاتها وأشعارها وأمثالها - سأله أقواماً قدموه عليه من بنى حنيفة ، عن كلام مسيلة ، وما كان يدعوه قرآنًا فحكوا له ، فقال أبو بكر : سبحان الله ! وحيكم إن هذا الكلام لم يخرج عن إل (أي عن ربوبية) فأين كان يذهب بكم¹ ؟ فانظروا مفهوم كلامه وشعوره . إن القرآن خارج من الله وليس من بشر .

ب - " وروي أن الوليد بن المغيرة المخزومي جاء إلى النبي ﷺ ، فقرأ عليه القرآن ، فكانه رق له ، فبلغ ذلك أبا جهل ، فأتاه فقال : يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوكه لئلا تأتي محمداً ل天涯 لما قاله . فقال الوليد : قد علمت قريش أنني من أكثرها مالاً .

¹ البداية والنهاية ج 6 ص 326 .

قال أبو جهل : فقل فيه قوله لا يبلغ قومك أذك كاره له .

قال : وماذا أقول ؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني ، ولا برجزه ولا بقصيدة ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا ، ووالله إن قوله حلاوة وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثير أعلاه معدق أسفله ، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه ، وإنه ليحطم ما تحته .

قال : لا يرضي عنك قومك حتى تقول فيه .

قال : فدعني حتى فكر ، فلما فكر قال : (هذا سحر يؤثر) يأثره عن غيره .

ولما اجتمعت قريش عند حضور الموسم قال لهم الوليد : إن وفود العرب ترد فأجمعوا فيه (يعني النبي ﷺ) رأياً لا يكذب بعضكم بعضاً فقالوا : نقول كاهن .

قال : والله ما هو بكاهن ولا هو بزمزمته ولا سجمه .

قالوا : مجنون .

قال : ما هو بمجنون ولا بخنقه ولا وسنته .

قالوا : فنقول شاعر .

قال : ما هو بشاعر قد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وفريضه ومبسوطه ومقوضه .

قالوا : فنقول ساحر ، قال : ما هو بساحر ولا نفثه ولا عقده .

قالوا : بما نقول ؟

قال : ما أنت بقائلين من هذا شيئاً إلا وأنا أعرف أنه لا يصدق ، وإن أقرب القول أنه ساحر وأنه سحر يفرق بين المرأة وابنه والمرء وأخيه والمرء وزوجته والمرء وعشيرته فتفرقوا وجلسوا على السبل يحدرون الناس " ١ .

إن هذا الإحساس بربانية المصدر ، والتحدي من المصدر نفسه ، وظهور العجز قديماً وأبداً ما ترك لكافر عذراً ولا حجة .

والناس إما صافي الفطرة يستجيب لأول بارقة نور ، فيشتغل نور فطرته ، وإما إنسان أصاب فطرته تعقيد وتوهم ، سواء بسبب الوراثة أو الفكر الخاطئ مثل هذا إنما نطالبه بالعلم قبل الحكم ، وبالبحث بعد العلم ، وسيرى الآية واضحة والمعجزة قائمة من أي أبواب العلم أتهاها .

أ - فهو لو درس حياة الرسول ﷺ قبل النبوة وبعد النبوة قبل القرآن وبعد القرآن يجد جواباً قاطعاً ، إنه الوحي والنبوة وليس غيرهما رجل أمي جاوز الأربعين لم يعرف عنه خاللها أنه تكلم بشيء له علاقة بدين ، ولا درس ولا كتب فلم يتلق علمًا ولم يقرأ كتاباً دينياً أو غير ديني ، ثم البيئة بيئه أمية ولكنها ذكية لا تعلم عن النبوءات والرسالات شيئاً ، فليست هناك مقدمة تشير إلى نتيجة ومع ذلك وإذا بقرآن يتلى ، ودين يقوم ، ومفاهيم تغير بسر هذا القرآن الذي يتحدى فيسكت المتحدون ، وهذا ما أشار القرآن إليه كدليل على النبوة لا يبقى معه ريب .

{وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُطُهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَأْرَتَابَ الْمُبْطَلُونَ} العنبوت : 48 .

{وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعْلَمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمَيٌ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ} النحل : 103 .

{وَكَذَلِكَ أُنْصَرَفُ أَلَايَاتٍ وَلَيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلَتَبَيَّنَ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} الأنعام : 105 .

إن دارس القرآن العظيم لا يمكن أن يتصور أن ما فيه صادر عن جهل ، بل يرى أنه لا بد صادر عن علم محيط ، وهناك سر المعجزة . ولذلك قال الكافرون : تعلم محمد ودرس

¹ رواه ابن هشام في السيرة .

. وإن ثبت التاريخ أن محمداً لم يدرس ولم يتعلم ، والقرآن كله حكمة وعلم فليس هناك مصدر إلا الوحي ولا بد هنا من التأكيد على ناحيتين :

الأولى : أن الكافرين مقرون بأن هذا القرآن لا يمكن أن يكون على هذه الحالة إلا إذا كان محمد قد تعلم أعظم ما يكون العلم ، وتصورهم حدوث تعلمه هو الذي يجعلهم يستبعدون معنى الوحي . فإذا ما ثبت أنه لم يتعلم ولم يتلق علمًا من أحد ، شيء مشهور ، فإن مكة لم يكن بها أهل كتاب إلا ورقة بن نوفل وحداد ، والحادي أعمى . وكم يمكن أن تكون تفاصيله العامة والدينية في زمن ما كانت الكتب الدينية فيه إلا عند رؤساء البيانات ولم تكن مترجمة ، ثم جلوس الرسول عليه لأخذ منه شيء مبتوت من عدم وجوده . وكذلك ورقة وليس هناك أي نص تاريخي يشير إلى غير هذا بل كل النصوص على أن المعلم الوحيد للرسول م هو الوحي .

الثانية : أن النبوة قائمة على الصدق والذين اتبعوا النبي اتبعوه لأنه صادق . ولو رأوا وهم الذين يخالطونه ليلة نهار ذرة شبهة لأنكروا وبيروا . وهم من هم ، فإذا ما ذكر القرآن كما ورد في الآيات أن النبي ﷺ لم يتلق علمًا من أحد وكان الذين حول الرسول ﷺ وهم أعرف الناس به صبياً وشاباً وكهلاً يعرفونه غير هذا لرأوا في ذلك مدخلًا يشكون فيه بالصدق ، ولو كان القرآن من عند محمد وكان قد تعلم عن غيره من الناس ، لما نفي مثل هذا النفي الذي يمكن افتضاحه بسهولة لو كان .

إذا ما تأكّلت الناحيَةُ الأولى والثانية . شهادة التاريخ ، وشهادة واقع الحال ، وانتقى إمكانية التعلم البشري ، لم يبق إلا الوحي مصدرًا لأعظم أثر في تاريخ البشرية .

ب - وكذلك لو درس الإنسان ظاهرة الوحي نفسها بإمعان وتبصرة وأحاط بها إحاطة ما وحكم العلم والعقل . لوجد أن المسألة وهي ليست غير ذلك ، وأنها النبوة ليس إلا درس مثلًا هذه الآثار التي هي بعض مما حدث الصحابة عن هذه الظاهرة .

عن عمر رضي الله عنه قال :

كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي يسمع عند وجهه كدوبي النحل فأنزل عليه يوماً فمكث ساعة ثم سري عنه فقرأ {فَدُّ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ} إلى عشر آيات منها من أولها وقال : من

أقام هذه العشر آيات دخل الجنة ثم استقبل القبلة ورفع يديه وقال : (اللهم زدنا ولا تقصنا وأكرمنا ولا تهنا وأعطنا ولا تحرمنا وأثرنا ولا تؤثر علينا اللهم وأرضنا وارض عننا ...) الترمذى .

وفي مسلم عن أبي هريرة قال :

كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي لم يستطع أحد منا يرفع طرفه إليه ، حتى ينقض الوحي . وفي لفظ كان إذا نزل عليه الوحي استقبلته الرعدة . وفي رواية كرب لذلك ، وتربد وجهه ، وغمض عينيه ، وبما غط كغطيط البكر .

وعن زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه قال :

كان إذا نزل على رسول الله ﷺ السورة الشديدة أخذه من الكرب والشدة على قدر شدة السورة ، وإذا نزل عليه السورة اللينة أصابه من ذلك على قدر لينها .

وفي رواية البخاري عن عائشة رضي الله تعالى عنها :

في فحص عنه وإن جبيه ليتصبب من العرق في اليوم الشديد البرد . إن هذه الحالة التي ترافق ظهور النص القرآني ليست حالة عادية كما أنها ليست حالة مرضية .

فالحالة المرضية لا يرافقها تصبب عرق ، ولا يرافقها ظهور نص كالنص القرآني وقد يكون سورة طويلة . كsurah al-An'am ، أو يكون نصاً شرعياً من أدق النصوص التشريعية في تاريخ العالم كنصوص المواريث .

إن هذه الظاهرة تدل على أن مصدر القرآن الخارجي عن ذات محمد ﷺ : {إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى} النجم : 4 .

ج - وكذلك لو درس الإنسان النص القرآني بامean فإنه سيصل إلى نتيجة واحدة ، هي أن هذا النص لا يمكن أن يكون من عند بشر ، بل لا بد أن يكون من عند الله والنـص القرآني بين أيديـنا . فـتعال نـستعرض بعض خـصائـصـه وبعضاً من معانـيه فإنـنا سـنـجـدهـ أـدـلـ علىـ

ذاته ، وأكثر إقناعاً للراغب في الحق الطالب له ، ونثر أن نسلك في هذا الاستعراض
الطريق التالي :

إن الأعلم بالقرآن هو صاحب القرآن ، وهو أولى من يتحدث عن خصائصه وأولى
من يصف مناهي دلالاته وإعجازه ، ونحن نجد أثناء دراستنا لهذا القرآن آيات كثيرة تحدثت
عن صفات هذا القرآن وخصائصه . فلو أتنا تتبعنا هذه الآيات وفهمناها نكون قد أدركنا
خصائص القرآن بشكل أ GOOD ، وأكثر إحاطة ، وأقرب إلى السهولة ، مع ملاحظة أتنا سند
إن شاء الله مع كل خاصية دليلها والبرهان عليها ليطمئن قلب الشاك ، ويرتاح قلب المؤمن
بالعلم الذي لا يدحض {وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ أَلَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ فُلُوبُهُمْ
وَإِنَّ اللَّهَ لِهَاوَ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} الحج : 54 .

- 1 -

يتصور بعض الناس الذين يقرأون القرآن من أهله ومن غير أهله ، أن السورة
القرآنية لا تشكل وحدة متناسقة متراقبة ، وأنه لا صلة بين الآيات وإن كانت هناك صلة بين
بعض آيات السورة ، فإن السورة ككل فاقدة هذا التماسك ، وكما يتصورون هذا التصور في
السورة الواحدة يتصورونه بشكل أكبر بالنسبة للقرآن كله ، ولسوره كلها فلا رابطة بين
السورة والسورة ولا رابطة بين سور القرآن عامة .

وهذا التصور أقل ما يقال فيه ، إنه تصور فاسد يقوم على جهل كبير ، وعلى بساطة
في الفكر وضحالة في النظر . فما كان القرآن ليكون كذلك ، وقد رتب الله آياته في السورة
الواحدة ورتبت الله سوره على الشكل الذي نراه . فإن السيد الرسول ﷺ كان يؤمر بأن يضع
الآلية في مكانها من السورة ، والسورة في مكانها من القرآن ، فترتيب الآيات في السورة
الواحدة بوحى ، وترتيب السور في القرآن بوحى ، والله عز وجل حكيم علي ، وقد وصف
كتابه بأنه علي وحكيم ، {وَإِنَّهُ فِي أُمّ الْكِتَابِ لَدِيَنَا لَعَلَيْهِ حَكِيمٌ} الزخرف : 4 .

فلا يكون كلام غير الله أكثر ترتيباً ، وأكثر انسجاماً من كتاب الله . وسنذكر هنا
نموذجين من الأمثلة . نموذجاً نتبين فيه ترابط السورة القرآنية وتناسقها ، ونموذجأ نتبين فيه
الصلة بين سور القرآن عامة ، وإن في كتابنا " الأساس في التفسير " لمزيد بيان .

النموذج الأول

افتح المصحف على سورة (ق) وتأمل :

تبدأ السورة هكذا :

{ق وَالْقُرْآنُ الْمَحِيدُ * بَلْ عَجِيْبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذَرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيْبٌ
* إِلَّا مِثْنَا وَكُلُّا ثُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيْدٌ * فَذَلِكَ عِلْمُنَا مَا تَنْفَصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيْظٌ} .

تبدأ السورة بمقدمة هي الآية الأولى ثم يأتي حرف "بل" ثم حديث عن الكافرين وتعجبهم من بعثة منذر ينذرهم بالبعث بعد الموت . واستبعادهم لهذه المسألة ، ثم يأتي الرد عليهم أنه وإن أصبحوا تراباً فإن الله يعلم ما أخذته الأرض منهم . وإذا كان علم الله كذلك فلا استبعاد لخلفهم مرة ثانية . إذن بإيجاز مقنع ذكر هذا المقطع من السورة إشكالاً للكافرين ورد عليه فانتهى بذلك المقطع من السورة ليبدأ مقطع جديد والملحوظ في المقطع الجديد أنه كذلك مبدئ ب الكلمة " بل " كما بدأ المقطع الأولى بكلمة " بل " وفيه حديث عن تصورات للكافرين ورد عليهم فشأنه شأن الأول يقول :

{بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لِمَا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرْيَجٍ} ق : 5 .

هذا موقف الكافرين من الوحي الذي أنذرهم به الرسول ، فيما له علاقة باليوم الآخر ويأتي الرد : {أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقُهُمْ كَيْفَ بَنَيَّا هَذِهِ زَيْنَاتٍ وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ * وَالْأَرْضَ
مَدَدَّنَا هَا وَلَقِيَّا فِيهَا رَوَاسِيَّا وَأَنْتَنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ رُوحٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةٌ وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُتَّبِّبٍ *
وَتَزَلَّنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارِكًا فَأَنْبَتَنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالْأَخْلَلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ تَضِيدُ
رَرْفَأٌ لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتَانًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ} . ق : 6 - 11 .

هذا الجزء الأول من الرد ، وفيه لفت نظرهم القرآن إلى الكون ليتعرفوا فيه على الله وقدرته ، حتى أوصلهم إلى رؤية إحياء البلد الميت بالمطر ، والنبات يكون ميتاً ينزل عليه المطر فيحيا و ... كذلك الخروج ، بهاتين الكلمتين اللتين تأتيان بعد لفت النظر هذا ؛ يأتي الرد المفحّم لهؤلاء الذين استبعدوا بعث الإنسان وكذبوا رسول الله .

ولازلنا حتى الآن في المقطع الثاني :

{كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمٌ نُوحٌ وَأَصْحَابُ الْرَّسُّ وَنَمُودُ * وَعَادٌ وَفَرْعَوْنُ وَإِخْرَانُ لَوْطٍ * وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمٌ تَبَعَ كُلُّ كَذَبَ الرَّسُّلَ فَهَقَ وَعَيْدٌ * أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ} ق : 12 ، 15 .

رأينا في بداية هذا المقطع {بِلْ كَذَبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ} ورأينا الرد الأول ، تتمة الرد يذكر القرآن مثيراً : كما كذب هؤلاء فقد كذب غيرهم .. وبعد أن يعرض علينا هوية المكذبين . يجعلنا نتعجب ونستكر تكذيبهم ويقيم الحجة عليهم بكلمة {أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ} إذا كان الله خالق الإنسان أول مرة ولم يعجزه ولم يتعبه أفيعجز أن يخلقكم مرة ثانية ؟ .

وبذلك ينتهي المقطع الثاني ليبدأ المقطع الثالث ويلاحظ كذلك أنه مبدوء بكلمة " بل " كما بدأ المقطوعان الأول والثاني ، وفيه حديث عن نفس المضمون يقول :

{بِلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقِ جَدِيدٍ} ق : 15 . الكافرون شاكون في خلقهم مرة ثانية ويأتي الرد على مرحلتين كل مرحلة مبدوءة بكلمة " ولقد " كما كان الجواب في المقطع الأول مبدوءاً بكلمة " قد " عند قوله {قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْفَصُ أَلْأَرْضَ مِنْهُمْ} .

يقول :

{وَلَقَدْ خَلَقْنَا إِلَيْنَا وَنَعْلَمُ مَا تُوَسِّوسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ * إِذْ يَتَأَقَّى الْمُتَّاقِيَانَ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدِيهِ رَقِيبٌ عَيْنِيْدُ * وَجَاءَتْ سَكَرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ * وَتَفَحَّصَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ * وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ * لَقَدْ كُنْتَ فِي غُفَّلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غُطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ * وَقَالَ قَرِيْبُهُ هَذَا مَا لَدَيَ عَيْنِيْدُ * أَقْيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَيْدٌ * مَنَاعَ لِلْخَيْرِ مُعَنِّدٌ مُرِيبٌ * الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَيْهَا آخِرَ فَلَقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ * قَالَ قَرِيْبُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتَهُ وَلَكِنَ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ * قَالَ لَا تَحْتَصِمُوا لَدِيَ وَقَدْ قَدَمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ * مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدِيَ وَمَا أَنَا بِظَلَامٍ لِلْعَيْدِ * يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلْ أُمْتَلَّتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ * وَأَرْفَقْتُ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَذَا مَا تُوَعَّدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَوْيِطٍ * مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ * أَنْخَلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ * لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ * وَكَمْ أَهْلَكَنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَفَقُوا فِي الْأَبْلَادِ هُلْ مِنْ مَحِيصٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لِذِكْرِي لِمَنْ كَانَ لَهُ قُلْبٌ أُوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ} ق : 16 - 37 .

وبهذا تنتهي المرحلة الأولى من الرد على شعورهم ، وهي مرحلة تذكر بخلق الإنسان . وعلم الله بكل ما يحول بخاطره . ورقابة الملائكة على الإنسان ، وتذكير الإنسان بالموت ، وبالمصير الفظيع الذي أعد للكافر ، وبالمصير المشرق المعد للمؤمن النقي . وإن هذا وعد من الله للمؤمن . وتختم هذه المرحلة بالإعلان أن الإنسان ذا القلب وأن الإنسان الذي يصغي بتدبر ، يكفيه هذا البيان ليتذكرة . وتبدأ المرحلة الثانية من الرد وتستمر حتى نهاية السورة .

{ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ * فَأَصْبَرْنَاهُ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبَّحَ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغَرُوبِ * وَمِنَ اللَّيلِ فَسَبَّحَهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ * وَأَسْتَمَعَ يَوْمَ يُنَادَى الْمُنَادَى مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ * يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخَرُوجِ * إِنَّا نَحْنُ نُحْبِي وَتَمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ * يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ * تَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَارٍ فَذَكِرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدٌ } ق : 45 - 38

تذكرة هذه الفقرة بأن الله خالق السموات والأرض وما فيهما في مدة قصيرة بلا تعب ، وفي هذا الكلام رد مقنع على الشك ، هذا الإله لا يعجز عن إعادة الإنسان مرة ثانية .

وهل شك الإنسان في محله ؟

وفي الفقرة أمرة للرسول ﷺ بالصبر على أقوالهم - الآفة الذكر - التي رأيناها في المقطع الأول {إِذَا مِنَّا وَكَثُرَأَبَا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ} وفي المقطع الثاني : {بَلْ كَدَبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ} وفي المقطع الثالث : {بَلْ هُمْ فِي لِبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ} والعبارة لله ويؤكد أن يوم القيمة آت وأنهم محشورون وأن الله يعلم أقوالهم وأن مهمته أن يذكريهم . فخاتمة السورة إذن تخاطب النبي وتعلمك كيف ينبغي أن يكون موقفه .

وكما ترى من استعراض هذه السورة . فإن التناسق والترتيب والوحدة والتكميل كل هذه موجودة بشكل واضح في السورة . فإذا ما أتى إنسان معرض أو معرض . وقال : إنه لا رابط بين الآيات في السورة الواحدة ، فإنه لا شك يدل على فساد ذوقه ، وعمى بصيرته ، وليس ذلك بضار القرآن شيئاً .

ولعل هذا المرور الخاطف على هذه السورة وضح لنا تناسق سور القرآنية ووحدتها وانسجامها وترابطها ، وهذا الذي رأيناها هنا نستطيع أن نراه في كل سورة قرآنية من الفاتحة

إلى سورة الناس بما في ذلك السور الكبيرة كالبقرة وآل عمران .. ونتيجة لهذا القول نقول :
إن الترتيب في كل سورة من سور القرآن كائن بشكل معجز فهو مع كماله في بابه لا يستطيع
أن يدركه إلا إنسان بلغ الذروة في نصح التأمل . فهل يمكن أن يكون هذا ولد بيئه أمية ؟ .

النموذج الثاني

والآن ننتقل لإثبات الأمر الآخر :

إن القرآن كله مترابط فيما بينه ، يشكل وحدة منتظمة مترابطة .

أول سورة من سور القرآن هي الفاتحة ويلاحظ أنها أوجزت معاني القرآن كله . فمعاني القرآن كلها تدور حول العقائد ، والعبادات ، ومناهج الحياة ، والsurah بدأ بالعقيدة {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * مَالِكُ يَوْمَ الدِّينِ} وثبتت بالعبادات {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} وثبتت بمناهج الحياة {أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ} وبيّنت أخيراً أن منهاج المسلمين متميّز {غَيْرَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الْظَّالِمِينَ} ويلاحظ أن آخر فقرة فيها مبدوعة بكلمة {أَهْدِنَا} ويأتي في أول سورة البقرة {الْمَ * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ} فالارتبطة إذن بين سورة الفاتحة والبقرة والقرآن كله واضحة .

ننتقل الآن إلى سورة البقرة والsurah التي تليها إلى سورة يونس وهي المسماة بالسبعين الطول : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، والأنفال ، والتوبة ، لنرى هل هناك رابطة بين هذه السور :

نظرة على سورة البقرة نلقّيها ترينا :

1 - أن السورة مبدوعة بأحرف {الْمَ} ويأتي بعدها عشرون آية تتحدث عن أقسام الناس في المصطلح القرآني . متّقين ، وكافرين ، ومنافقين ، وتصف كلاً من هؤلاء .

2 - تأتي بعد ذلك خمس آيات مبدوعة بكلمة {يَأَيُّهَا النَّاسُ} وفيها دعوة إلى الناس جميعاً أن يكونوا من الفئة الأولى " المتّقين " وإن طريق التقوى هو عبادة الله ، وتصف الآيات مظاهر قدرة الله ، وكون القرآن لا شك فيه ، ومصير الذين لا يسلكون هذا السبيل ومصير الذين يسلكونه .

3 - تأتي بعد ذلك ثلاث آيات تتحدث عن الله عز وجل والقرآن ، وموقف المهددين منه ، وضلال الصالين به وصفاتهم {الَّذِينَ يَنْفُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيَاتِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوَصِّلَ وَيُسَيِّدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} ومناقشة من يكفر بالله عز وجل .

4 - تأتي بعد ذلك آية مبدوعة بكلمة { هُوَ } تتحدث عن الله أنه خلق كل شيء في الأرض للبشر .

5 - تأتي بعد ذلك عشر آيات تتحدث عن قصة آدم عليه السلام ، ونزوله إلى الأرض وتختتم بالقاعدة التي تحاسب عليها البشرية { فَمَنْ تَبَعَ هُدًى يَأْتِي بِلَحْفٍ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } .

6 - {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوَا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوَا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنَّمَا لَا تَعْلَمُونَ} ثم تأتي آية مبدوعة بكلمة {يَسْأَلُونَكَ} الآية فيها استثناء من الصحابة عن قضية لها علاقة بالقتل ثم تفصيلات في أمور كثيرة . حتى تختتم السورة . ومن السهل جداً على دارس السورة أن يجد وحدتها ، وليس هذا ما نريده الآن بل نريد إثبات الصلة بين هذه السورة والسور ستة التي تليها .

ولعلك تدهش إذا قلنا لك إن السور ستة الطول التي تأتي بعدها إنما تشرح وتفصل هذه المقامات التي ذكرناها لك بشكل واضح لا يلتبس على المتأمل . وهي تشرح هذه المقامات بالترتيب الموجود في سورة البقرة وكأن هذه المقامات تحتاج إلى زيادة إيضاح فجاءت كل سورة تشرح كل واحدة منها مقاماً وهاك الدليل :

1 - سورة البقرة مبدوعة بأحرف {الم} وسورة آل عمران مبدوعة بنفس الأحرف .
سورة البقرة مبدوعة بآية {ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ} . سورة آل عمران مبدوعة بهاتين الآيتين {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ} .

العشرون آية الأولى في البقرة تتحدث عن المتقين والكافرين والمنافقين . سورة آل عمران كلها توضح ملامح هذه الفئات الثلاث ، والحدود التي ينبغي أن تقف عليها الجماعة المسلمة في علاقتها مع الفئتين الآخرين .

2 - بعد العشرين آية من سورة البقرة تأتي الآية المبدوعة بـ {يَا أَيُّهَا النَّاسُ} والتي تبين للإنسان طريق التقوى وأن النقوى هدف {أَعْبُدُو رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقْتُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقَوْنَ} .

وتأتي سورة النساء بعد سورة آل عمران مبدوعة بآية :

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ} . نفس النداء . نفس المعاني .
وكأنك عندما تدرس سورة النساء إنما تدرس التقوى طریقاً وسلوکاً .

3 - وبعد هذه الآيات تأتي الآيات التي تتحدث عن نقض العهد . وتأتي بعد سورة النساء سورة المائدة وهي مبدوعة بالأمر بالوفاء بالعقود {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُهُودِ} وفي السورة أكثر من آية تذكر العهود .

{وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِنْ ثَاقِبَةِ الْذِي وَأَنْتُمْ بِهِ إِذْ قَاتَلُمْ سَمِعْنَا وَأَطْعَنَا} وكأن السورة تذكر المعاني الأساسية للعهود الأساسية التي من تمسك بها اهتدى بهدي القرآن وإلا ضل .

4 - وبعد آيات سورة البقرة هذه تأتي الآية {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً} وتأتي بعد سورة المائدة سورة الأنعام التي تتردد فيها كلمة {هُوَ} {هُوَ} مرات كثيرة . الآية الثانية {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ} والآية (19) {وَهُوَ الْفَاعِلُ فَوْقَ عِيَادِهِ} والآية (61) {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّأْكُمْ بِاللَّيلِ} و ...

وهكذا مرات ، وآخر آية في السورة تكاد تكون معنى حرفيًا لآلية سورة البقرة {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّبِيلُوكُمْ فِي مَا آتَيْتُكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَورٌ رَّحِيمٌ} فكأن سورة الأنعام كها تقسيط لمجمل الآية في سورة البقرة .

5 - وتأتي بعد ذلك في سورة البقرة قصة آدم ، وتنتهي بالقاعدة التي ذكرناها {فَمَنْ تَبَعَ هُدَائِي ..} وتأتي بعد سورة الأنعام سورة الأعراف والآية الثانية فيها {أَتَبْغُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ} والآية الأولى فيها تقول {المص * كِتَابٌ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتَذَرَّ بِهِ وَذَكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ} .

وتأتي بعد ذلك قصص عن أمم وكيف كان موقفهم من الهدى المنزلي عليهم فكأن السورة كلها عرض عملي وتاريخي ومناقشة في جو القاعدة التي انتهت بها قصة آدم في سورة البقرة .

6 - وكما أنه بعد آية القتال في سورة البقرة تأتي كلمة {يَسْأَلُونَك} وفيها استفهام عملاً له علاقة بالقتال ، فإن سورة الأنفال بعد الأعراف مبدوعة بكلمة {يَسْأَلُونَك} .

والسورة كلها والسورة التي بعدها وهي سورة " التوبة " تتحدثان عن القتال وأدب الحرب ، ويلاحظ أن السورتين في القرآن مكتوبتان بلا فاصل " البسمة " فكأن السورتين شرح وتوضيح للفريضة التي ذكرها الله في سورة البقرة .

ونظن أن قد وضحت الرابطة التي تربط هذه السور فيما بينها .

ولتكن سترى أعجب إن شاء الله تعالى إذا درست تفسيرنا " الأساس في التفسير " .

ونستطيع هنا أن نضع أساس نظرية في موضوع الوحدة القرآنية فنقول :

إن كل مجموعة سور من القرآن تشكل كلاماً متكاملاً ، وهذه المجموعات كلها إنما تفصل المعاني التي ذكرتها سورة البقرة على الترتيب مع تبيان وتوضيح وتفصيل ، وقد رأينا مثالاً على ذلك ، ويلاحظ أن كل مجموعة من السور قد عرض الأساس النظرية والعملية للإسلام ، بحيث إن من يقرأ أي مجموعة من هذه المجموعات ، يتذكر بكل الحقائق الأولية في الإسلام . كما يلاحظ أن كل مجموعة من هذه المجموعات قد عرضت هذه الحقائق بلغة وطريقة عرض ونغمة جرس مختلف عن الأخرى ، مما يبهر الإنسان ولا يستطيعه مخلوق : أن تعرض قضية واحدة على عشرات الأوجه وبطرق كثيرة من العرض . المعاني في البقرة مرتبة ترتيباً معيناً ، ثم كل مجموعة سور تشكل وحدة عرض المعاني القرآنية على ترتيب عرضها في سورة البقرة ، هذه المجموعات تتدرج في الغالب من الطول إلى القصر ، كل وحدة تذكر الإنسان بالمعاني الأساسية بطريقة عرض تختلف عما قبلها . ولو تأملت سورة العصر فما بعدها لرأيت نفس ترتيب العرض في سورة البقرة مع فارق القصر ، فهل يمكن أن يكون هذا من عند بشر !

ولعلنا استطعنا بفضل الله بعد ما نقدم توضيح هذه الآيات التي وصف الله بها كتابه :

1 - {كَتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} هود : 1 .

2 - {كَتَابًا مُتَشَابِهًـا مَتَّانِي} . الزمر : 23 .

3 - {إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ} {وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلَىٰ حَكِيمٌ} فبسبب ما رأيناه كان القرآن مفصلاً ، وكان متشابهاً ، وكان مثاني ، وكان مذكراً ؛ لأن كل جزء منه يذكر بما ينبغي أن يتذكره الإنسان . وبمثل هذا وبمثل ما يأتي بعد كأن هذا الكتاب على غاية الحكمة ولا يعلوه كتاب أبداً عرفه البشر .

- 2 -

ومن خصائص هذا القرآن التي تشير إلى ربانية مصدره ، ما أشار إليه القرآن بقوله

:

{فَلَمْ أَنْزَلْهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} . {أَلَّا كُنَّ اللَّهُ يَشْهُدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ} {سَرِّيْهُمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبْيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ} .

لقد أخبر الله في الآية الأخيرة أنه سيكشف للناس خفايا هذا الوجود ، و دقائق هذا الإنسان وأن الكشف فيه دليل صادق على أن القرآن حق ، إذ ما سيعرفه الإنسان سيطابق ما في القرآن وهذا لا يكون إلا إذا كان منزل القرآن هو الله العالم بأسرار السماوات والأرض ولئن كانت الآية الأخيرة نبوءة كاملة في حد ذاتها ، تحققت بما كشف الإنسان حتى الآن فإن ما سنذكره من أمثلة سيكون برهاناً كاملاً على نسبة القرآن الله جل جلاله :

لقد تحدث القرآن بلغة واضحة عن كثير من القضايا الكونية ، مما لم يكن معروفاً قطعاً قبل أربعة عشر قرناً في أي مكان من العالم ، فضلاً عن أن يكون معروفاً وفي جزيرة العرب حيث الأمة الأممية ، التي كانت معارفها عن الكون محدودة وسطحية ، فكان حديث المحيط بسر كل شيء . وللما تقادم الزمان أكثر ظهرت دقة القرآن أكثر . فيصبح الإنسان

أمام الحقيقة التي لا شك فيها أن خالق الكون ومنزل القرآن واحد ، الله رب العالمين ، وهذه أمثلة وفي القرآن المزيد لمسترید :

أ - قال الله تعالى :

{وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لِعِبْرَةً تُسْقِيكُمْ مَمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمَ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ} النحل 66 .

يقول العلم اليوم إن الحليب قبل أن يصبح في الثدي ، يمر على عملية تصفية . الأولى تصفيته من الفضلات وذلك بعد الهضم ونزول السائل الحليبي إلى الأمعاء ، إذ تقوم الزغبيات المعاوية بامتصاص المواد الغذائية طارحة إياها في الدم ومبقية الفضلات في المعدة حيث تطرح خارج الجسم . وأما المواد المتتصنة التي طرحت في الدم فإن قسمًا منها يغذي جسم الكائن الحي ، وقسمًا آخر تصفيه الغدد اللبنية من الدم وترسله إلى الضرع حليباً خالصاً سائغاً للشاربين .

إذن قال العلم هذا الحليب يصفى أولاً من الفضلات ثم من الدم .

وقال القرآن { من بين فرث } والفرث هو الفضلات { ودم لبنا خالصا ... } .

وهذه الحقيقة العلمية التي يذكرها القرآن هنا عن خروج اللبن من بين فرث ودم لم تكن معروفة لبشر وما كان بشر في ذلك العهد ليتصورها فضلاً عن أن يقررها بهذه الدقة العلمية الكاملة ، وما يملك إنسان يحترم عقله أن يماري في هذا أو يجادل ، وجود حقيقة واحدة من نوع هذه الحقيقة ، يكفي وحده لإثبات الوحي من الله بهذا القرآن .

ب - قال تعالى :

{فَمَنْ يُرِدُ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدُ أَنْ يُضْلِلَهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيْقَا حَرَاجًا كَائِمًا يَصَعَّدُ فِي السَّمَاءِ} الأنعام 125 .

"منذ اكتشاف الطبقات العليا من الجو بفضل الطيران والبالونات ، استطعنا أن ندرك ظاهرة كونية تنتج عن نقص أوكسجين الهواء في طبقات الجو العليا ، إذ يشعر الصاعد في هذا العلو ببعض الصعوبة في التنفس ويحس بالضيق ، والآية القرآنية صرحت بأن من يرتفع في السماء يشعر بعوارض الضيق ، ولذلك يستعمل الطيارون الذي يصعدون إلى الارتفاعات العالية أجهزة التنفس الصناعية حتى يتقادوا هذه الحالة ولقد لفتت هذا الظاهر نظرة هواة التسلق حتى قبل ارتياض الطبقات الجوية العليا . ويلاحظ أن الآية لم تعبّر عن لفظ الصعود في الجبال بل عبرت عن الصعود في السماء . كما أن بلاد العرب ذات سطح منبسط وصحراء ممتدة وليس فيها جبال عالية بحيث يأخذ الساكن فيها فكرة عن تسلق الجبال وما يشعر المتسلق فيها من ضيق " .

ج - قال تعالى :

{وَمَنْ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} الذاريات : 49 .

وقال : {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَرْوَاحَ كُلَّهَا مِمَّا ثَبَتَ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ} يس : 36 .

القاعدة في اللغة العربية أن (كل) إذا أضيفت إلى معرفة عمت أجزاءها وإذا أضيفت إلى نكرة عمت أفرادها ، وفي الآية الأولى أضيفت (كل) إلى نكرة لذلك تعم جميع الأشياء .

يقول صاحب ظلال القرآن " وهذه حقيقة عجيبة تكشف عن قاعدة الخلق في هذه الأرض وربما في هذا الكون ، إذ إن التعبير لا يخص الأرض قاعدة الزوجية في الخلق وهي ظاهرة في الأحياء ولكن كلمة شيء تشمل غير الأحياء أيضاً ، والتعبير يقرر أن الأشياء كالأحياء مخلوقة على أساس الزوجية ، وحين تذكر أن هذا النص عرفه البشر منذ أربعة عشر قرناً وأن فكرة عموم الزوجية حتى في الأحياء لم تكن معروفة حينذاك فضلاً على عموم الزوجية في كل شيء حين تذكر هذا نجدنا أمام أمر عجيب عظيم وهو يُطلعنا على الحقائق الكونية في هذه الصورة العجيبة المبكرة كل التكثير .

كما أن هذا النص يجعلنا نرجح أن البحث العلمية سائرة في طريق الوصول وهي لا تكاد ...

إن بناء الكون كله يرجع إلى الذرة وأن الذرة مؤلفة من زوج من الكهرباء موجب وسالب .

د - قال تعالى :

{يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْعَغَةٍ مُخْلَقَةٍ وَغَيْرُ مُخْلَقَةٍ لِتَبَيْنَ لَكُمْ وَتُؤْكِرُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجْلٍ مُسَمَّى ثُمَّ ظَفَّلًا ثُمَّ لِتَبَلُّغُوا أَسْدَكُمْ} الحج : 5 .

وقال : {أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِّنْ مَاءٍ مَهِينٍ * فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * إِلَى قَدْرٍ مَعْلُومٍ * فَقَدَرْنَا فَيَنْعِمُ الْقَادِرُونَ} المرسلات : 20 ، 23 .

وقال : {وَلَقَدْ خَلَقْنَا أَلْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْعَغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْعَغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ } المؤمنون : 12 - 14 . وقال : {إِنَّا بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ} العلق : 22 .

" يتم الإخصاب بين الحيوان المنوي للرجل وبويضة المرأة في أعلى القناة الوالصة بين المبيض والرحم ، فيبدأ الجنين خلية واحدة ولكن الإنسان كله بكل عناصره وخصائصه يكون مختصراً في تلك الخلية الواحدة ، ثم تتحرر في اتجاه الرحم مستغرقة في رحلتها ما يقارب الأسبوع ، تكون خلاله قد تكاثرت حتى أصبحت كتلة من الخلايا تلتتصق هذه الكتلة بجدار الرحم فتهشه ربما بواسطة أنزيمات معينة حتى تعلق به نقطة صغيرة تتغذى على دم الأأم ، وليس أدق من كلمة العلق في وصف شكل ونشاط الجنين في هذه المرحلة ثم تأخذ هذه العلقة في النمو ، وتأخذ خلاياها في التنوع ، ويكون شكلها مستديراً بغير انتظام ، وتبقى كذلك بضعة أسابيع يكون الدم فيها في (برك) صغيرة لا في شرائين محددة ، إن شكلها لا يختلف عن شكل قطعة من اللحم الممضوغ وإن كان طولها لا يتعدى بضعة مليمترات .

ثم ينشأ طراز من العظم أكثر شفافية وأقل صلابة وأشد رخاوة من العظم العادي هو الغضروف الذي تترسب حوله مادة العظم فيما بعد ، وتنشط الخلايا في كافة أجزاء المضغة مكونة الأنسجة والأجهزة التي تكسو العظام المكونة لحماً .

وهنا يقف الإنسان مدھوشًا أمام ما كشف عنه القرآن من حقيقة في تكوين الجنين لم تعرف على وجه الدقة إلا أخيراً بعد تقدم علم الأجنة التشريحي . وذلك أن خلايا العظام هي التي تتكون أولاً في الجنين ، ولا تشاهد خلية واحدة من خلايا اللحم إلا بعد ظهور خلايا العظام ، وتمام الهيكل العظمي الغضروف في للجنين . وهي الحقيقة التي يسجلها النص القرآني {مُضْعَةٌ فَخَلَقَاهُ الْمُضْعَةٌ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا} فسبحان العليم الخير .

في كل المراحل السابقة لا توجد فروق بين جنين الإنسان وجنين الحيوان ولكن ما أن يوشك الشهر الثاني للحمل على الانتهاء حتى تتضح الخصائص الإنسانية لهذا الجنين فإذا به خلق آخر ...

إن الجنين الإنساني مزود بخصائص معينة هي التي تسلك به طريقه الإنساني فيما بعد ، وهو ينشأ { خلقاً آخر } في آخر أطواره الجنينية بينما يقف الجنين الحيواني عند التطور الحيواني لأنه غير مزود بتلك الخصائص . ومن ثم فإنه لا يمكن أن يتجاوز الحيوان مرتبة الحيوانية فيتطور إلى مرتبة الإنسان تطوراً آلياً كما تقول النظريات المادية ، فهما نوعان مختلفان اختلفا بتلك النفحة الإلهية التي بها صارت سلالة من الطين إنساناً . واحتلفا بعد ذلك بتلك الخصائص المعينة الناشئة من تلك النفحة التي ينشأ بها الجنين الإنساني خلقاً آخر ، إن الإنسان والحيوان يتشاركان في التكوين الحيواني ، ثم يبقى الحيوان حيواناً في مكانه لا يتعداه ، ويتحول الإنسان خلقاً آخر قابلاً لما هو مهيأ له من الكمال بواسطة خصائص مميزة ولهبها له الله عن تدبير مقصود لا عن طريق تطور آلي من نوع الحيوان إلى نوع الإنسان {فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}.

وإن الناس ليقون دهشة أمام ما يسمونه " معجزات العلم " ¹ حين يصنع الإنسان جهازاً يتبع طريقاً خاصاً في تحريكه دون تدخل مباشر من الإنسان . فأين هذا من سير لجنين

¹ لا يجوز إطلاق المعجزة إلا على الأمر الخارق للعادة الذي يجري على يد الرسل بقدرة الله .

في مراحله تلك وأطواره وتحولاته ، وبين كل مرحلة ومرحلة فوارق هائلة في طبيعتها وتحولات كاملة في ماهيتها ؟

غير أن البشر يمرون على هذه الخوارق مغمضي العيون مغلقي القلوب . لأن طول الألفة أنساهم أمرها الخارق العجيب ، وأن مجرد التفكير في أن الإنسان هذا الكائن المعقد كله ملخص وكامن بجميع خصائصه وسماته وشياته في تلك النقطة الصغيرة التي لا تراها العين المجردة ، وإن تلك الخصائص والسمات والشيات كلها تنمو وتتفتح وتتحرك في مراحل التطور الجنينية حتى تبرز واضحة عندما ينشأ خلقاً آخر . فإذا هي ناطقة بارزة في الطفل مرة أخرى . وإذا كان الطفل يحمل وراثاته الخاصة فوق الوراثات البشرية العامة . هذه الوراثات وتلك التي كانت كامنة في تلك النقطة ..

إن مجرد التفكير في هذه الحقيقة التي تتكرر كل لحظة لكافٍ وحده أن يفتح مغاليق القلوب على ذلك التدبير العجيب الغريب .

كل هذا يتم في القرار المكين الذي هو الرحم وأن من يدرس تشريح الرحم وموضعه المكين الأمين في أسفل بطن المرأة ويرى ذلك الوعاء ذا الجدار العريض السميك ، ثم يرى هذه الأربطة العريضة ، والأربطة المستديرة ، وهذه الأجزاء من البريتون التي تشده إلى المثانة والمستقيم ، وكلها تحفظ توازن الرحم وتشد أزرره وتحمييه من الميل أو السقوط . تطول معه إذا ارتفع عند تقدم الحمل ، وتقصّر إلى طولها الطبيعي تدريجياً بعد الولادة . إن من يدرس كل ذلك يعرف تكوين الحوض وظامنه يعرف جيداً صدق قوله تعالى :

{لَمْ جَعَلْنَا نُطْفَةً فِي قَرَارِ مَكِينٍ} المؤمنون : 13 .

هـ - {وَأَرْسَلْنَا أَلْرِيَاحَ لِوَاقِحَ فَانزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَاسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بَخَازِنِينَ} الحجر : 22 .

{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُرْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤْلِفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خَلَالِهِ وَيَنْزَلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ حِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصَبِّبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرُفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرَقَهُ يَذَهَبُ بِالْأَبْصَارِ} النور : 43 .

" إن العوامل المسببة للأمطار محورها الكهربائية الجوية وقد أشير إليها إشارات واضحة كما سنرى في هاتين الآيتين ، كما ضمت الآياتان معاني أخرى .

لقد كان الناس قبل يحملون وصف الرياح " باللوافق " على أنها لواحة للزرع والشجر وهذا منهم إغفال للنصف الثاني من الآية . إذ لو كان ما ذهبوا إليه هو المراد لترتب عليه إزكاء الزرع وإخراج الثمر للناس يأكلونه لا إِنْزَال الماء من السماء يشربونه ، أما وقد رتب الله على إرسال الرياح لواحة إِنْزَال الماء من السماء يسقاه الناس فقد تحمّل أن يكون " "اللوافق " " معنى آخر غير معنى تلقيح الزرع ويكون مع ذلك - من ناحية - شبيهاً بلقاح الأحياء من زروع وحيوان ، ومن ناحية أخرى يكون بينه وبين نزول الماء ما بين العلة والمعلول ، أو السبب والسبب ، وما عليك الآن إلا أن تتذكر بعض الحقائق العلمية حتى ترى سر الإعجاز في الآية :

إن تكافث السحاب مطراً أثر عن الكهربائية ، إذ من السحاب ما كهربائيته سالبة ، ومنه ما كهربائيته موجبة ، والرياح هي أداة اتحاد أنواع السحب حتى يتكون المطر . وهذا هو المراد كما هو ظاهر في الآية من وصف الرياح بأنها لواحة .

فالملائحة هنا بين قطيرات أو بين سحاب وسحاب والشبه تام بين التلقيح الكهربائي والتلقيح النباتي ، فكما تتحد الخليتان في حالة التلقيح النباتي لتشكل خلية واحدة لها غير خواص الخليتين الأصليتين فكذلك في حالة اتحاد سحاب وسحاب إذ ينشأ عنها برق ورعد ومطر ، إذ ينزل المطر أكثر عنه التفريغ الكهربائي السحابي .

فاية الحجر تلك هي مظهر من مظاهر الإعجاز المتعدد للقرآن لأن تلاقي السحاب وأثره في نزول المطر أمر كان يجهله الإنسان حتى كشف عنه العلم الحديث .

ثم زادت آية النور الإعجاز {سَحَاباً نَّمَّ يُؤْلَفُ بَيْنَهُ} فإن التأليف بين السحاب ما هو إلا إشارة واضحة بل وصف دقيق للتقريب بين السحاب المختلف الكهربائية حتى يتजاذب ويتبعاً في الجو تبعية تتفق مع ما سيخلق من برق وصواعق ومن مطر أو برد .

فإذا كان السحاب المتجاذب بعضه فوق بعض نشأ السحاب الركام عظيماً ، فإذا حدث التفريغ داخل السحاب بين بعض تلك الطبقات وبعض - كما هو الغالب - نزل المطر

الناشيء عن التفريغ من خلال الطبقات الدنيا ، وتكبر قطراته أثناء نزولها بما تستلحقه من القطيرات وهو الودق ، فإذا بلغت الحالة الجوية الكهربائية في ذلك السحاب الركام من القوة والاضطراب ما يسمح بوقوع تلك الظاهرة الغريبة ظاهرة تردد بلورات الماء بين منطقتين ثلجية علوية ومطالية سفلية تكون البرد ونما حتى يصير أثقل من أن يظل في أسر تلك القوى فيسقط على الأرض والإنسان لا يعرف كثيراً عن الظروف التي يتكون فيها البرد ولكنه يعرف أنها ظروف يسودها اضطراب جوي عظيم . هذا الاضطراب قد أشارت إليه الآية وإلى طبيعته إشارتين :

الأولى : حين شبهت السحاب الركام الذي يتكون البرد داخله بالجبال . ومشهد السحاب كالجبال لا يبدو كما يبدو لراكب الطائرة وهي تعلو فوق السحب أو تسير بينها ، فإذا المشهد مشهد الجبال حقاً بضخامتها ومساقطها وارتفاعاتها وانخفاضاتها وأنه لتعبير مصور للحقيقة التي لم يرها الناس إلا بعد ما ركبوا الطائرات .

والثانية : حين أشارت إلى عظم القوى الكهربائية المشتركة في تكوينه بنصها على عظم برقه وشنته وبلغه من الحرارة درجة الإبلاض أو ما فوق ذلك {يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ} النور : 43 .

و - {أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَ الظَّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلَنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ ذَلِيلًا * ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا} الفرقان : 45 ، 46 .

نحن نعلم أن الجو هو تراكم طبقات متتابعة ، تقل فيها بينها كثافة الهواء ابتداء من الأرض ، وفي وسط كهذا يجب أن يكون مسلك الشعاع الضوئي منحنياً طبقاً للقانون الثاني للعالمين (الهيثم - ديكارت) وهو قانون الانكسار ... إن قانون (الهيثم - ديكارت) يقول بأن الشعاع الضوئي الذي ينتشر في مجال ذي كثافة متغيرة باستمرار يخط في مسیره خطأ منحنياً ذا تجويف متوجه نحو النقط الأكثر كثافة وفي هذا المجال يقبض الظل " قبضاً يسيراً " بالنسبة لما قد يكون عليه في الفراغ الذي لا يوجد فيه انكسار . ذلك توافق عظيم بين ما كشفه الإنسان مما لم يكن معروفاً زمان تنزل القرآن وبين القرآن .

ز - {وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ} الذاريات : 47 . وهكذا يبدو الكون من خلال الآية - بسبب استعمال اسم الفاعل " موسع " الذي يفيد الاستمرار في هذه الحالة - وكأنه في حالة

توسيع مستمر وكأنه يزداد على الدوام ، هذه المسألة أصبحت الآن من مسلمات العلوم وهي التي هالت (انشتين) عندما اكتشف عالم الطبيعة (هابل) أن الكواكب السديمية تبتعد عن (سديمنا) واستتبط عالم الرياضة البلجيكي (لسومتر) من ذلك نظرية امتداد الكون ، أو ليس عجيباً مذهلاً أن يضع الوحي دائماً معالمه المضيئة أمام الفكر العلمي حتى كأنها تصف له الطريق وهل يستطيع أحد أن يقول بأن معالم بهذه قد انبثقت من عقل أمي .

ح - {وَرَى الْجِبَالَ تَحْسِبَهَا جَامِدًا وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِلَهٌ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ} النمل 88 .

{يُعْشِي اللَّيْلَ الَّنَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَتَّىٰ} الأعراف 54 .

إن في هاتين الآيتين إشارتين واضحتين إلى موضوع دوران الأرض ، الآية الأولى تلقت النظر إلى أن الإنسان لأول وهلة يرى الجبال ثابتة ، ولكنها في الواقع الأمر تسير تبعاً لسير الكرة الأرضية ذاتها ويدرك بعض المفسرين إلى أن الآية في حديث الآخرة ولكن نهايتها : {صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ} تدل على أنها في عالمنا هذا .

والآية الثانية تشير إلى نفس المعنى وإن كانت الإشارة أبعد وذلك :

لنفرض أن الشمس والأرض ثابتتان إذن يكون قسم من الأرض نهاراً دائماً وآخر ليلاً دائماً ، فإذا ما فرضنا أن الشمس هي التي تدور حول الأرض فإنه في هذه الحالة يكون المنبع الضوئي هو المتحرك وإذن فالنهار هو السائر والليلتابع .

وعلى عكس ذلك في حالة دوران الأرض فالمنبع الضوئي ثابت نسبياً¹ أي بالنسبة للأرض - وإن كان هو في حد ذاته متحركاً ، وفي حالة ثبات المنبع الضوئي يكون الليل هو السائر وحركة النهار تابعة وهذا الذي ذكرته الآية إذ قالت : {يُعْشِي اللَّيْلَ الَّنَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَتَّىٰ} فالليل هو الذي يطلب النهار ولا يكون هذا إلا إذا كانت الأرض هي التي تدور حول نفسها ، ولزيادة التوضيح نقول : إذا عمل الفعل - في اللغة العربية - بمعنى لغيره ليس أصلهما مبتدأ

¹ يقول علماء الكون اليوم : إن للشمس ثلاث حركات . حركة عمودية باتجاه كوكبة الجائني مع الكواكب السيارة ، وحركة حول نفسها ، وحركة مع مجرتها .

وخبر . فال الأول منها يكون فاعلاً في المعنى والثاني مفعولاً ، ولا يصح تقديم ما هو مفعول في المعنى على ما هو فاعل بالمعنى في حالة وجود اللبس وآية : {يُعْشِيُ الظَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَتَّىٰ} عمل فيها الفعل يغشى بمحضتين كل منها يصلح أن يكون فاعلاً ومفعولاً . فلا بد إذن أن الفاعل في المعنى يكون هو المقدم فلما قال الله عز وجل {يُعْشِيُ الظَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَتَّىٰ} دل على أن الليل هو الفاعل في المعنى وهو الفاعل في قوله عز وجل : {يَطْلُبُهُ حَتَّىٰ} يقول ابن مالك :

من ألسن من زاركم نسج اليمن
وترى ذاك الأصل حتما قد يرى
والأصل سبق فاعل معنى كمن
ويلزم الأصل لموجب عرى

ط - والآيات القرآنية في هذا المعنى كثيرة لمن أراد أن يتتبع وكلها تشير إلى شيء واحد : إن هذا القرآن لا يمكن أن يكون من عند بشر فإنه إذ تجد في كلمتين حقيقة علمية ما عرفها الناس إلا في زمن متاخر تصبح أمام شيء خارق جداً جداً .

فعندما يقول : {وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً} تجد نفسك أمام أدق النظريات الجيولوجية التي تقول بأن للجبال جذوراً وتدية في الأرض يعدل امتدادها ضعفي ارتفاع الجبل عن الأرض .

وعندما يقول {إِذَا زُلْزَلَتِ الْأَرْضُ زُلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَنْقَالَهَا} تجد نفسك أمام أدق النظريات الجيولوجية التي تعب العلم حتى وصل إليها وهي أن الاضطرابات تسبق البركان وإن باطن الأرض أثقل من قشرها وإن كانت الآية لم تأت لبيان هذا ولكنها مع هذا لم تتناقض مع النظريات العلمية .

وعندما يقول في قراءة صحيحة :

{وَجَعَلَ فِيهَا سُرُجًا} عن السماء تجد نفسك أمام حقيقة عملية غير متوقعة فالسراج في اصطلاح القرآن الشمس وفي الماضي لم تكن تعرف إلا شمس واحدة وإذا بالعلم اليوم يقول هذه النجوم كلها شموس .

وعندما يقول :

{وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقِرٍ لَهَا} تجد نفسك أمام أدق الحقائق عن الشمس التي تبين أخيراً أنها تشارك مجرتها في دورتها وتدور حول نفسها وهي مع هذا تسير في اتجاه عامودي نحو كوكبة الجاثي ويتوقع العلم حدوث حالة ما لها في يوم من الأيام .

وعندما يقول :

{يُكُورُ اللَّيلُ عَلَى النَّهَارِ وَيُكُورُ النَّهَارُ عَلَى اللَّيلِ} الزمر . تجد نفسك أمام مسألة كروية الأرض إذ التكوير إنما يكون للشيء الدائري ، كما تجد نفس المعنى في قوله : {وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا} فالأدحية والأدحورة بيض النعام .

وعندما يقول :

{وَالْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيٌّ أَنْ تَمِيدَ بَعْضَهُ} النحل : 15 . تجد نفسك أمام الحقيقة العلمية التي تقول : إنه لو لا الجبال ل كانت قشرة الأرض في حالة تششقق دائم ، وبالتالي في حالة ميدان واضطراب شديد .

وعندما يقول :

{أَوَلَمْ يَرَ الظِّنَنَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَبْقًا فَفَتَّاهُمَا} الأنبياء : 30 .

" تجد نفسك أمام ما كشفه العلم بعد زمن في كلا تفسيري الآية سواء فسرنا " رتقا " بأنهما كانتا شيئاً واحداً وهذا ينسجم مع أدق النظريات العلمية خاصة السديمية أو فرسنا " رتقا " بأن الأرض كانت لا تبت والسماء لا تمطر وهذا ينسجم مع النظريات التي تقول إن الأرض كانت في الأصل كتلة نارية كالشمس فلم يكن وقتذاك شيء حي أو ماء ، وكلا التفسيرين أشار إليه ابن كثير .

هذا وأمثاله كثير ولو أنصف العقل عرف أن هذا القرآن أنزله خالق السماوات والأرض العليم بهما {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ الْلَّطِيفُ الْخَبِيرُ} الملك : 14 .

ومن خصائص هذا القرآن التي تشير إلى ربانية مصدره ما أشار إليه القرآن بقوله :
﴿وَإِنَّهُ لِكَلْبٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ فصلت : 41 ، 42 .

لقد تكلم القرآن عن الماضي وتكلم عن المستقبل وفي كلامه عن الماضي أو المستقبل تنزّه عن الخطأ وجل عن الباطل ، وهو في كلا الأمرين يقدم الدليل الكامل على أنه من عند الله .

وقد حاول أناس أن يطعنوا في بعض أخباره عن الماضي متصرورين أن بعد الزمان يجعل كلامهم مقولاً عند غير المؤمنين ، وهم يدعون في ذلك النقد العلمي والتزاهة التاريخية ، ولكن العلم أثبت بالكشف المحسوسة تخريفهم وصدق القرآن . قال العقاد في كتابه (مطلع النور) :

" فمن أقطاب هؤلاء المخرفين من أنكر عاداً وثموداً ، وأنكر الكوارث التي أصابتهم بغير حجة ، إلا أنه يحسب أن المنكر لا يطالب بحجة ولا يعب على النفي الجراف . فما لبثوا طويلاً حتى تبين لهم أن عاداً (Oadita) وثمود (Thamudida) مذكورتان في تاريخ بطليموس وأن اسم عاد مuron باسم إرم في كتب اليونان فهم يكتبونها (ادراميت) ويؤيدون تسمية القرآن لها بعد إرم ذات العماد وعثر المنقب (موزيل التشيكي) صاحب كتاب الحجاز الشمالي على آثار هيكل عند مدین منقوش عليه كلام بالنبطية واليونانية وفيه إشارة إلى قبائل ثمود .

ومن أقطاب هؤلاء المخرفين من أنكر أبرهة ، وكتبة جيشه ، واهتمامه بتعطيل الكعبة ، وبناءه القليس في صنعاء لصرف العرب عن الكعبة إليها ثم تكتشف النقوش عن اسمه على خرائب سد مأرب ملقباً بالأمير الحبشي من قبل " ملك الحبشة وسباً وريدان وحضرموت واليمامنة وعرب الوعر والسهل " .

ويروي الرحالة (بروس) الذي زار بلاد الحبشة في القرن الثامن عشر أن الأحباش يذكرون في تواريχهم أن أبرهة قصد مكة ثم ارتد عنها لما أصاب جيشه من المرض الذي

يصفونه بصفة الجري ، ولا يقل عن هذه الأسانيد جمِيعاً سند التاريخ بعام الفيل قبلبعثة المحمدية بجيٰل واحد بل أقل من جيٰل " .

إنه ما من شيء تحدث عنه القرآن في الماضي إلا وكانت وقائع التاريخ القديم ونصوله وحفياته تؤديه من أدق التفصيات - حيث يحدثنا القرآن عن شك بعض النصارى أنفسهم في صلب المسيح ، فتكون فرقـة كبيرة من فرقـهم قدـما لا تؤمن بصلـب المسيح - إلى أكبر الواقع حيث يحدثنا القرآن عن الطوفـان العظيم الذي تذكرـه مصادر التاريخ القديم كلـها ، سواء المصادر المصرية ، أو اليونانية ، أو البابلية ، ويأتي التقـيب لحديث ليـرى طـميـه ويـحدد مكانـه .

وعندما نعلم أن قسماً من أخبار القرآن كان معروفاً عند العرب ، وقسماً كان مجولاً لا يعرف شيء عنه ، كقصة الطوفـان . إذ يقول القرآن عنها {تَلَكَ مِنْ أَنْبَاءَ الْغَيْبِ تُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا} هود : 49 . ولم يكن هناك مصدر آخر غير الوحي كما هو ثابت تاريخياً يأخذ عنه محمد p . يتبيـن كنتـيـجة لهذا كـيف أن هذا القرآن لا يمكن أن يكن مصدرـه غير الله عـز وجـل .

{ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ } فصلـت 42 .

وأما حديثـه عن المستقبل ، وتصـديقـ المستـقبل حـديثـه . فـذلك أـدل فيـ بـابـه علىـ أنهـ منـ عندـ الله . فـماـ منـ كـلمـةـ قالـهاـ القرآنـ قدـماـ وـنقـضـتهاـ الـوقـائـعـ علىـ مرـ الأـيـامـ ، حتىـ هذاـ الزـمانـ وـإـلـىـ آـخـرـ الزـمانـ . سواءـ فيـ ذـلـكـ ماـ فيـ القرآنـ منـ تـشـريعـ أوـ إـخـبارـ أوـ بـيـانـ ، ولـتـشـريعـ القرآنـ محلـ آخرـ نـدرـسـهـ فـيـهـ .

وقد رأينا مثلاً فيـ الخـاصـيـةـ السـابـقـةـ علىـ أنـ بـيـانـهـ عنـ الكـونـ كانـ موـافـقاًـ - وـلاـ يـمـكـنـ أـلـاـ يـكـونـ - لـمـ اـكـتـشـفـ الإـلـاسـانـ منـ حـقـائقـ . وـنـرـيدـ هـنـاـ أـنـ تـنـتـحدـثـ عـنـ شـيـءـ مـاـ أـخـبـرـ بـهـ عـنـ المـسـتـقـبـلـ وـوـقـعـ ، وـقـبـلـ أـنـ نـبـدـأـ بـضـرـبـ الـأـمـلـةـ نـحـبـ أـنـ ذـكـرـ كـيفـ أـنـ فـيـ هـذـهـ الخـاصـيـةـ دـلـيـلاًـ لـاـ يـدـحـضـ عـلـىـ أـنـ القرآنـ مـنـ عـنـ اللهـ وـذـكـرـ :ـ

إنـ عـلـمـ الإـلـاسـانـ مـحـدـودـ بـالـزـمانـ الـحـاضـرـ وـالـمـاضـيـ ، أـمـاـ المـسـتـقـبـلـ فـهـ غـيـبـ مـسـتـورـ مـجـهـولـ ، وـالـإـلـاسـانـ يـسـتـطـيـعـ أـنـ يـواـزنـ وـيـقـاـيسـ لـيـصـلـ إـلـىـ اـحـتمـالـ فـيـ أـمـرـ هـذـهـ المـسـتـقـبـلـ ، قـدـ

يقع وقد لا يقع وهو أبداً لا يستطيع أن يجزم ، فعندما يحدثنا كتاب عن بعض ما سيأتي حديثاً جازماً ، ثم يقع هذا المخبر عنه تماماً وقوعاً مطابقاً مرات دون أن يخرم ذلك مرة ، إننا في هذه الحالة لا بد واجدون غير علم الإنسان وإحاطته ، إنه لا بد أن يكون ذلك أثراً من علم محيط منكشف أمامه المستقبل كالحاضر والماضي إنه علم الله عز وجل . وهذه أمثلة مما في القرآن :

أ - {وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ الْأَنْاسِ} المائدة 67 .

روى الإمام أحمد عن عائشة - رضي الله عنها - أن رسول الله ﷺ سهر ذات ليلة وهي إلى جنبه قالت : ما شأنك يا رسول الله ؟ قال : " ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة " قالت : فيينا أنا على ذلك إذ سمعت صوت السلاح فقال : من هذا ؟ فقال : أنا سعد بن مالك ، فقال : ما جاء بك ؟ قال : جئت لأحرسك يا رسول الله : قالت : سمعت غطيط رسول الله في نومه " .

وروى الترمذى والحاكم عن عائشة وروى الطبرانى عن أبي سعيد الخدري قال :

كان النبي ﷺ يحرس بالليل فلما نزلت هذه الآية ترك الحرس وقال : " يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله " .

من هذين الأثنين يتبين لنا أن رسول الله ﷺ كان يحب أن يحرس وكان يحب أن يحتاط في أمر حماية نفسه ، وقد حرسه الصحابة حتى نزول هذه الآية التي تجزم أن الرسول ﷺ معصوم من الناس

لن تستطيع يد قاتل أن تمتد إليه ، وهذا إخبار عن غيب إذ من الذي يستطيع أن يجزم أنه لن يقتل قتلاً مع توافر دواعي التعرض للقتل خاصة لرجل كمحمد ! عاده الناس جميعاً وصار للعداء مظهر الدم في أمة تأصل فيها معنى الثأر . إن مثل هذا لا يجزم به إنسان متماسك عقلياً ، إن لم يكن مصدر ذلك العلم المحيط .

ونذكر لنا السيرة محاولات كثيرة أعدها اليهود لاغتياله ، ومحاولات كثيرة أعدها المشركون كلها لم تبلغ شيئاً في الوقت الذي لم يكن أي مانع بشري يحول دون تنفيذ الجريمة

إلا عنية الله . وعدا عن محاولات الاغتيال فقد كانت معارك الرسول ﷺ كثيرة وكانت خطيرة وكان الرسول ﷺ هو هدف العدو فيها ، وما حدث أبداً أن ولی الرسول ﷺ العدو ظهره وكان أقرب أصحابه إلى العدو ساعة المعركة وكانوا يلوذون به إذا حمى الوطيس كما يذكر ذلك صناديدهم ، ومع هذا وذاك فالآية تجز أن هذا الإنسان معصوم لن يقتل وقد كان

لقد انتقل الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلى بيد القدرة الإلهية لا بتسليم إنسان .. ونذكر هنا أثرين يوضحان حماية الله لرسوله ﷺ في أشد ساعات الخطر ؛ تحقيقاً لوعده .

- روی ابن حبان فی صحيحه عن أبی هریرة وروی مسلم فی صحيحه عن جابر
قال :

كنا إذا أتينا في سفرينا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله ﷺ فلما كنا بذات الرقاب
نزلنبي الله ﷺ تحت شجرة وعلق سيفه فيها فجاء رجل من المشركين فأخذ السيف فاخترطه
وقال للنبي ﷺ أتخافني؟ قال: لا . قال: فمن يمنعك مني؟ قال: الله يمنعني منك ضع
السيف فوضعه .

- وروى الشیخان : في غزوة حنین انكشف المسلمين وولوا مدربین فطفق الرسول
میرکض جهہ العدو راکباً بغلته وعمه العباس آخذ بلجامها یکفھا عن الإسراع فأقبل
المشرکون إلیه فلما غشوه لم یفر ولم ینکص بل نزل عن بغلته کأنما یمکنهم من نفسه وجعل
یقول : أنا النبی لا کذب ، أنا ابن عبد المطلب . کأنما یتھداهم ویدلهم على مکانه فوالله ما
نالوا منه نیلاً بل أیده الله بجندھ وکف عنه أیدیھم بیده .

إن نبوة تقول لإنسان وهو معرض كل يوم لخطر القتل : لن تقتل . لا يمكن أن يجزم بها رجل يحترم نفسه أن يكذبه الناس ما لم يكن ذلك وحياً من الله الذي يعلم الغيب وببيده الموت والحياة .

ب - {سَيَهْرُمُ الْجَمْعُ وَيُوْلُونَ الدُّبْرَ * بَلِ الْسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمْرٌ} القمر

نزلت هذه الآية في مكة كما روى البخاري عن عائشة : (نزل على محمد بمكة وإنى لجارية ألعب) : { بل السّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ } وال المسلمين وقد اذاك مستضعفون في مكة قليلون رمتهم العرب عن قوس واحدة ولم تكن هناك أية فكرة قتال ، ولو كان قتال فلم يكن متوقعاً في ميزان القوة أن يغلب المسلمين ، ومع ذلك تنزل هذه الآية المنبهة فلا يفهم المسلمون المراد منها حتى عمر . روى ابن أبي حاتم عن عكرمة قال :

لما نزلت : { سَيَهْزُمُ الْجَمْعُ وَيُؤْلُونَ الدُّبُرَ } قال : عمر : أي جمع يهزء ؟ أي جمع يغلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثبت في الدرع وهو يقول : { سَيَهْزُمُ الْجَمْعُ وَيُؤْلُونَ الدُّبُرَ } فعرفت تأويلها يومئذ . وقد وقعت الواقعة بعد فترة طويلة تميز بها معسكر الكافرين عن معسكر المؤمنين وأصبح للMuslimين دار ، وللمشركين دار ، واصطدم الجماعان ، وكان رسول الله ﷺ عارفاً يومها أنه اليوم الموعود . روى البخاري عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال وهو في قبة له يوم بدر : أشده عهلك و وعدك اللهم إن شئت لم تبعد بعد اليوم في الأرض . فأخذ أبو بكر رضي الله عنه بيده وقال : حسبك يا رسول الله لقد أحدثت على ربك . فخرج وهو يثبت في الدرع وهو يقول : { سَيَهْزُمُ الْجَمْعُ وَيُؤْلُونَ الدُّبُرَ * بَل السّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ } وقد انتصر جمع الإيمان ، وهزم جمع الكافرين وصدق القرآن العظيم ، وآمن المؤمنون أن هذا إنما هو علم الله الذي لا يخطئ .

ج - { إِنَّمَا * غَلَبَتِ الْرُّومُ * فِي أَذْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلْبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بَضْعِ سِنِينَ لَلَّهُ أَكْبَرُ } من قَبْلٍ وَمَنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ .

- كان المشركون يجادلون المسلمين في مكة قبل الهجرة ، يقولون لهم إن الروم أهل كتاب وقد غلبتهم المجوس ، وأنتم تزععون أنكم ستغلبوننا بالكتاب الذي أنزل عليكم ، فسنغلبكم كما غلت فارس الروم فنزلت الآية ..

ولقد كان الإخبار بهذا النصر وبأنه كائن في وقت معين إخباراً بأمررين كل منهما خارج عن متناول الظنون . ذلك أن دولة الروم كانت قد بلغت من الضعف حدّاً يكفي من دلائله أنها غزيت في عقر دارها ، وهزمت في بلادها ، فلم يكن أحد يظن أنها تقوم لها بعد ذلك - إلى أمد طويل - قائمة فضلاً عن أن يحدد الوقت الذي سيكون لها فيه النصر ، ولذلك كذب به المشركون وتراهنوا على تكذيبه ، على أن القرآن لم يكتف بهذين الوعدين بل عززهما بثالث حيث يقول { وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ } الروم : 3 ، 4 .

إشارة إلى أن اليوم الذي يكون فيه النصر هناك للروم على الفرس . سيقع فيه هنا نصر للمسلمين على المشركين ، وإذا كان كل واحد من النصرين في حد ذاته مستبعداً عن الناس أشد الاستبعاد ، فكيفطن بوقوعهما في يوم ؟

لذلك أكد القرآن أعظم التأكيد بقوله {وَعْدُ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} الروم . ولقد صدق الله وعده فتمنى للروم الغلبة على الفرس بإجماع المؤخرین في أقل من تسع سنين ، وكان يوم نصرها هو اليوم الذي وقع فيه النصر للمسلمين على المشركين في غزوة بدر الكبرى . كما رواه الترمذی عن أبي سعيد ورواه الطبری عن ابن عباس وغيره . فكانت نبوة ثلاثة في الآية تتحقق .

د - {ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَأَسْتَكَبَ * قَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ * إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ * سَاصْلِيَّهُ سَقَرَ} المدثر 21 - 26 .

{تَبَتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلِي أَنَارَأِ دَاتَ لَهَبٍ * وَأَمْرَأُهُ حَمَالَةُ الْحَطَبِ * فِي جَيْدِهَا حَبْلٌ مِّنْ مَسَدٍ} .

النص الأول :

في الوليد بن المغيرة كما هو معروف من أسباب النزول .

ولكن النص الثاني في عم النبي ﷺ وزوجة عمه ، والنصان يخبران في حياة الثلاثة أنهم سيدخلون النار وهذا يعني أنهم سيموتون على الكفر ولن يدخلوا في الإسلام واضح في ذلك الإخبار عن الغيب . فكم من مشرك كان مثلهم ضلالاً وكفراً وعتواً وكيداً بال المسلمين ، ثم كان بعد من المسلمين كأبي سفيان وخالد وعمرو بن العاص .. وظواهر الأمور لم تكن تدل على أن الوليد مثلاً أبعد من أبي سفيان عن الإسلام . فللوليد تلك الشهادة العظيمة التي رأيناها سابقاً في القرآن كما أن الآخر عم النبي ﷺ ولكنها النبوة التي لا تختلف إذ تقول فيكون ما قالت ، ولم يحدث أن القرآن ذكر إنساناً بأنه من أهل النار ثم أسلم .

هـ - {لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولُهُ الْرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ أَمْنِينَ مُحَكِّمٍ رُّعْوَسَكُمْ وَمُؤَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعِلَّمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَحَّا قَرِيبًا} الفتح . 27

منع المسلمين من دخول مكة عام الحديبية واشترطت عليهم قريش إذا جاؤها في العام المقبل أن يدخلوا عزلاً من كل سلاح إلا السيف في القرب .

فهل كان للمسلمين أن يتقووا بوفاء المشركين بعقدهم وقد بلوا منهم نكث العهود ، وقطع الأرحام ، وانتهاك شعائر الله ؟ أليسوا اليوم يحسبون هديهم أن يبلغ محله ؟ فماذا هم صانعون غداً ؟

على أنهم لو صدقوا في تمكين المسلمين من الدخول فكيف يأمن المسلمين جانبهم إذا دخلوا عليهم دارهم مجردين من دروعها وقوتهم ؟ ألا يمكن أن تكون هذه مكيدة يراد منها استدراجهم إلى فخ ؟ وأية ذلك : اشتراط تجردهم من السلاح إلا السيف في القراب وهو سلاح قد يطمئن به المؤمن إلى أنهم لن ينالوا بأيديهم ورماحهم ولكن لا يأمنون معه أن ينالوا بسهامهم وبنبالهم .

في هذه الظروف المريرة يجيئهم الوعد الجازم بالأمور الثالثة مجتمعة : الدخول والأمن وقضاء الشعيرة . فدخلوها في عمرة القضاء آمنين ، ولبثوا فيها ثلاثة أيام حتى أتموا عمرتهم ، وقضوا مناسكهم كما أخرج ذلك الشيخان . وكان من بعد ذلك الفتح القريب .

و - كان القرآن بمكة يقص على المسلمين ما يثبت به فؤادهم ، ويعدهم الأمن والنصر الذي كان لمن قبلهم {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَاتِنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنَاحَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ} الصافات : 171 - 173 .

{إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} غافر : 51 .

كان هذا يوم كانوا في مكة حيث كانوا ينامون على خوف ، ويستيقظون على خوف . ثم هاجروا إلى المدينة فكيف كان الحال ؟

روى الحاكم وصححه (لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة وأوتهم الأنصار ، رمتهم العرب عن قوس واحدة وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ولا يصبحون إلا فيه فقالوا : أترون أنا نعيش آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله فنزلت الآية : {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيُسْتَخْلَفُوكُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا أُسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكَّنَ لَهُمْ دِينُهُمُ الَّذِي أَرْتَضَ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا } النور : 55 .

وروى ابن أبي حاتم عن البراء قال :

" نزلت هذه الآية ونحن في خوف شديد " فانظر بعد ذلك ماذا كان من نصر وماذا كان من أمن ، وماذا كان من استخلاف بلدة عدد سكانها مئات تقوم بها دولة كل من حولها يعاديها ، وإذا بها في سنوات تضرب كل جزيرة العرب وتنتصر عليها ، وتضرب أكبر دولتين في العالم الفرس والروم فتنتصر عليهما ، ثم تتساح في الأرض فلا يستعصي على سيف أهلها شعب ولا بلد .

ز - {وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونَ اللَّهِ مِنْ وَلَيٍّ وَلَا نَصِيرٍ } الشورى : 31 . {وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ } العنكبوت : 22 .

إن الكلام عن الشيء فرع تصوره هذا بالنسبة للإنسان . أما بالنسبة للذات الإلهية ، فإن الكلام عن شيء أثر العلم به . وأنت ترى في هاتين الآيتين خطاباً للإنسان أنه لن يعجز الله ، ولكن يلاحظ في الآية الأولى أنه خاطب الإنسان على الأرض فقط ، وفي الآية الثانية خاطبه على الأرض وفي السماء . فزيادة " في السماء " إذن في الآية الثانية زيادة ذات دلالة كبيرة ، هذه الزيادة فيها معنى النبوة التي تبشر بإمكانية صعود الإنسان إلى السماء ومخاطبه في كل أحواله بأنه خاضع لقهر المشيئة غير خارج عما تريد هذه الذات .

يا إنسان لن تعجزني على الأرض ، وإذا صعدت إلى السماء فلن تعجزني ، ولم يصعد الإنسان إلى السماء إلا في عصرنا هذا ، فكأن الخطاب إذن لإنساناً الحالي وذلك من أسرار الإعجاز .

وفي كل حال يظهر لك أن الزمان يظهر ما في القرآن من حق ، وكيف أن هذا القرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

ح - {وَالْخَيْلَ وَالْبَغَالَ وَالْحَمِيرَ لَئِرْكُبُوهَا وَزَيْنَةٌ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} النحل : 8 .

{وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَسْحُونَ * وَخَلَقَ لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ} يس :

. 42 ، 41

الآية الأولى ذكرت أصنافاً مما يركبه الإنسان وله فيه زينة ، وبعد أن عد هذه الأصناف ذكر أنه سيخلق ما لم يعلمه الصحابة المخاطبون الأول بهذه الآية ، ومن جو الآية نفهم أن هذا الشيء سيخلقه الله عز وجل هو مما يركب وفيه زينة في نفس الوقت غير الخيل والبغال والحمير .

والآية الثانية تحدد نوع تحديد بعض صفات هذه المركبات وتقول : {وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَسْحُونَ * وَخَلَقَ لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ} .

ترى ما هذا الذي هو من جنس الفلك ويركتبه الإنسان ؟

لقد كان يومها في مستقبل الغيب السفينة الفضائية والطائرة والسيارة والقطار وكل هذه المركبات التي رأيناها حديثاً وهذا كله يدخل في كلمة { وَخَلَقَ لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ} يس : 42 .

وإذن فنحن أمام آيتين تبشران بمركبات جديدة للإنسان ، وقد كان ما بشر به القرآن ، يبقى معنى لا بد من الإشارة إليه وهو أننا نلاحظ تطور المركبات يوماً بعد يوم كل يوم يأتي بجديد لا يعلمه الإنسان قبل وجوده وهذا الشيء نفسه نفهمه من آخر الآية الأولى { وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} النحل : 8 .

فالقرآن في الحقيقة يخاطب الإنسان أبداً في كل زمان ومكان . فعندما أسمع الخطاب اليوم { وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} أفهم أن في غد شيئاً جديداً ، ويكون إذن ما نراه من تطور كل يوم في عالم المركبات داخل ضمناً في الآية .

وأخيراً نقول : إن بعض الصحابة منذ تنزل القرآن فهم أن الله سيخلق للإنسان ما يركبه غير ما يعده الناس قديماً يسير في البر كما تسير السفن في البحر .

ط - {وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَمَّا} الأعراف 168 .

{وَإِذْ تَأْدَنَ رَبُّكَ لِيَبْعَثَ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ} الأعراف :

. 167

{ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْذَّلَّةُ أَيْنَ مَا تَقْفَوْا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنْ أَنْفُسِ النَّاسِ} آل عمران : 112

هذه الآيات في اليهود وإن واقع التاريخ ، ومستقبل الزمان بالنسبة لعصر تنزل القرآن ، هو الذي يفسرها ، فكان ما حدث تفسير القراءة الإلهية للعلم الإلهي ، إذ كان اليهود مشردين طوال هذا الزمان ، كما أخبر الله {وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَمَّا} ومع هذا التقطيع كان العذاب المتواصل من لدن عصر القرآن إلى هذا الزمان .

والتاريخ يقص علينا قصة هذه الحقبة من تاريخ اليهود ، وأنها اضطهداد دائم ، وذلة دائمة ، من ملاحقة الأسبان لهم ، إلى مطاردة الكنيسة في كل مكان ، إلى ما وقع لهم في روسيا ، وآخر أنباء هذا العذاب ما سامهم إياها النازيون مما يعرفه أهل الأرض جميعاً . هذه صورة مما وقع لهم في الغرب ، والصورة الأخرى التي وقعت لهم في الشرق والغرب أنهم أبداً محكومون من غيرهم ، وأنهم أبداً يعانون حياة الذلة ، وفي هذا وذلك عذاب {وَإِذْ تَأْدَنَ رَبُّكَ لِيَبْعَثَ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ} الأعراف 167 .

ثم حدث أن عطفت عليهم الشعوب والحكومات . أمريكا ، وإنكلترا ، وروسيا ، وفرنسا ... والناس فكان لهم ما يسمى دولة فارجع بعد ما ذكرناه إلى الآية الثالثة ترى كيف قامت المعجزة {ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْذَّلَّةُ أَيْنَ مَا تَقْفَوْا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنْ أَنْفُسِ النَّاسِ} آل عمران

. 112 :

عذاب متواصل وذلة دائمة إلا بحبل من الله وحبل من الناس ، فلما كان هذان الحالان صار لهم دولة ، ولكن الآية الأولى تذكر أن العذاب لن ينقطع عنهم إلى يوم القيمة . لذلك فهم على موعد معنا نحن المسلمين {فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ} الصافات : 177

. وفي التوراة الحالية المحرفة هذا القول " سأجمعك يا إسرائيل في أرض الميعاد ثم أذبحك ذبحاً " وسيعلمون ماذا سيفعل بهم جند الله بعد أن تنتهي هذه الردة عن الإسلام إن شاء الله .

ي - والذي يريد أن يتبع هذا النوع مما في القرآن يجد الكثير . ففي آية {إِنَّا هَنُّ نَرَزَلْنَا الْذِكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} الحجر : 9 . غيب تحقق وفي آية {فَإِنْ لَمْ تَقْعُلُوا وَلَنْ تَقْعُلُوا} البقرة : 24 . غيب تحقق وفي آية {سَرِّيْهُمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ} غيب تحقق مظهره ما كشف الإنسان من علم وما يكشف ، وفي آية {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا} غيب تحقق وفي آية {إِنَّ الَّذِي قَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ} القصص 85 . أي إلى مكة فيها غيب تتحقق .

والشيء الذي نريد أن نخرج به هو أن القرآن إذا قال ذلك العلم الذي لا يخطئ لأنـه علم الله المحيط .

غير أن فهمـنا للقرآن قد يخطئ وهذا هو البلاء الكبير عندما نفهم القرآن فهماً خاطئاً ، ونعطيـه للناس ، بل نلزمـهم به أو يلتزمـون . وهذا خطر كبير . لذلك ينبغي أن نكون على حذر عندما نقرأ تفاسـير القرآن : وكل مفسـر فهمـ القرآن على ضوء ثقافة عصرـه فقدمـ لنا فهمـ للقرآن وتفسـيراً للقرآن وشـتان بين الفهمـ الخاطئـ للقرآن وحقيقةـ القرآن .

- 4 -

شيء آخر يدلـك على أنـ هذا القرآن مصدرـه الله عـز وجلـ ، وأنـه ما كان ليكون هـكذا لوـلا أنه منزلـ من عندـ الله الذي أحـاطـ علمـه بكلـ شيءـ . هذا الوجهـ الذي نـريدـ أنـ نـتحدثـ عنهـ هوـ الذي أـشارـتـ إـلـيـهـ الآياتـ القرـآنـيةـ التـالـيةـ :

{إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفْصُلُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} النـملـ :

. 76

{يـا أـهـلـ الـكـتابـ فـذـ جـاءـكـمـ رـسـولـنـا يـبـيـنـ لـكـمـ كـثـيرـاً مـمـا كـلـمـ تـخـفـونـ مـنـ الـكـتابـ وـيـعـفـوا عـنـ كـثـيرـ} المـائـدةـ : 15 .

{وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِبَيْنَ لِهُمُ الْذِي أَخْتَلُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّفَوْءٍ} النحل : 64 .

{مَا كَانَ حَدِيثًا يُقْرَأُ وَلَكِنَ تَصْدِيقَ الْذِي بَيْنَ يَدَيْهِ} يوسف : 111 .

* * *

إن الدراسات النقدية للتوراة لم تعترف بالصحة إلا لسفر واحد من أسفارها . هو سفر "أرمياء" كما يذكر (مونتيه) في تاريخ الكتاب المقدس ، وليس الإنجيل بأسعد حالاً . فقد ألغى مجمع أساقفة (نيقيه) كثيراً من أخباره مما زرع الشك حول ما تبقى منه وهو الأنجلترا . وهذه الأخيرة بدورها لا تعتبر الآن من الصراح . لأن النقد أثبت أنها قد وضعت بعد المسيح بأكثر من قرن أي بعد عصر الحواريين الذي تنسب إليهم التعاليم المسيحية وعلى هذا فإن شكوكاً كثيرة تحوم الآن حول القيمة التاريخية للوثائق اليهودية والمسيحية . (انظر كتاب الظاهرة القرآنية) .

إن إنجيلاً واحداً نطق به عيسى على أنه كلمة الله ، فلِمَ يكون الإنجيل أربعة ولم كان بينها اختلاف وتعارض وزيادة ونقص ، ولقد لعن أرمياء في سفره المذكور (أفلام النساخ الكاذبة) .

ومن هنا كان للقرآن فيما يتعلق بهذه الكتب موافق كل منها يشير إلى ربانية مصدره ، حيث إن هذه المواقف كلها تدل على علم مطلق لا يأتيه الشك ، حتى يتحدى في بعض المواقف أن يأتوا بالتوراة ليثبتوا ما يدعون مما يذكر القرآن خلافه {كُلُّ الطَّعَامُ كَانَ حَلَّ لِبْنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَزَّلَ اللَّوْرَاهُ فَلْ قَاتُلُوا بِالْتَّوْرَاهُ فَأَتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} آل عمران : 93 .

- أول هذه المواقف أن التوراة والزبور والإنجيل ، هذه الموجودة حالياً ليست هي بالضبط الكتب السماوية الأصلية بل داخلها تحريف وتبدل ، ونسبي قسم منها وقد رأينا موقف النقد العلمي العقلي النصراني من هذا الموضوع وكلمة أرمياء التي تتفق مع ما ألح القرآن عليه :

{وَمِنْهُمْ أُمِيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيًّا وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظْلُمُونَ * فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْثُرُونَ
الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدَ اللَّهِ لَيَسْتُرُوا بِهِ ثُمَّا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مَا كَتَبْتُ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ
لَهُمْ مَا مَمَّا يَكْسِبُونَ } البقرة : 78 - 79 .

{مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ} النساء : 46 . {يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ
مَوَاضِعِهِ وَتَسْوِي حَظًا مِمَّا ذُكِرُوا بِهِ} المائدة : 41 .

- الموقف الثاني :

ذكر القرآن الكريم كثيراً مما كان في التوراة والإنجيل من معان ووحي ، وعندما نستعرض هذه النصوص وتقرأ التوراة والإنجيل فإننا نجد هذه النصوص قد طابت ما في التوراة والإنجيل ، مما يدل على أن قسماً من التوراة والإنجيل لم يحرف ، وعلى أن الله العليم بما أنزل هو منزل القرآن ، إذ لا شك تاريخياً كما مر أن محمداً ليس له أي اطلاع على كتب دينية أو غير دينية :

وهذه أمثلة :

أ - يقول القرآن :

{لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكُ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَمَ اللَّهَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ الْثَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ} .
{وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَنْتَ فَلَتَ لِلنَّاسِ أَنْخُذُونِي وَأَمِي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَفُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتَ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلُمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَامُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمْرَتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ} المائدة : 116 .

ويقول إنجيل يوحنا الفقرة الثالثة الباب السابع عشر (وهذه الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته) .

ويوقل إنجيل مرقس الباب الثاني عشر (28) (فجاء واحد من الكتبة وسمعهم يتحاورون فلما رأى أنه أجابهم حسناً سأله أية وصية هي أول الكل فأجابه يسوع أن أول كل

الوصايا اسمع يا إسرائيل الرب إلها رب واحد وتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك هذه هي الوصية الأولى) .

ويقول إنجيل متى الباب التاسع عشر (16) (وإذا واحد تقدم وقال أيها المعلم الصالح أي صلاح أعمل لتكون لي الحياة الأبدية فقال له لماذا تدعوني صالحاً ليس أحد صالحاً إلا واحد وهو الله) .

هذه نصوص صريحة في الأنجلح الحالية تثبت أن دعوة عيسى كانت للتوحيد وأنه رسول الله ثم كان الانحراف وأتى القرآن ليصحح الانحراف .

ب - يقول القرآن على لسان عيسى {وَمُصدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ الْتَّوْرَةِ ... } ويقول {وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْتَّوْرَةِ} المائدة : 46 . ويقول مخاطباً لنا : {شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعَيْسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ} الشورى ك 13 .

ويذكر إنجيل متى إصلاح (5) على لسان عيسى : لا تظنو أنني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ما جئت لأنقض بل لأكمل فإن الحق أقول لكم إلى أن تزول السماوات والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل فمن نقض إحدى هذه الوصايا الصغرى وعلم الناس هكذا يدعى أصغر في ملكوت السماوات وأما من عمل وعلم فهذا يدعى عظيماً في ملكوت السماوات فإني أقول لكم : إن لم يزد بركم على الكتبة والقديسين لن تدخلوا ملكوت السماوات " .

ج - يقول القرآن :

{وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ الْأَنْفُسَ بِالْأَنْفُسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأَدْنَ بِالْأَدْنِ وَالسِّنَ بِالسِّنِنِ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَارٌ لَهُ} المائدة : 45 . وفي الإصلاح (21) من سفر الخروج .

وهذه هي الأحكام التي تضع أمامهم (من ضرب إنساناً فمات يقتل قتلاً ومن ضرب أباه أو أمه يقتل قتلاً وإن حصلت أدية تعطي نفساً بنفس وعيناً بعين وسناً بسن ويداً بيد ورجالاً برجل وكياً بكى وجراً بجرح وضاً برض) .

د - يقول القرآن :

{هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَارٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا} . {وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ
وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ} . {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً} .

ونقول التوراة في الإصلاح الأول من سفر التكوين بعد ذكر قصة الخلق . (وقال الله نعمل الإنسان فخلق الإنسان ذكراً وأنثى وباركهم الله وقال لهم اثمروا وأملأوا الأرض وأخضعواها وتسلطاوا وكان .. يوماً سادساً) . وفي الإصلاح الثاني من سفر التكوين :

- (فأكملت السماوات والأرض وكل جندها) .

- (هذه مبادئ السماوات والأرض حين خلقت يوم عمل رب الإله الأرض والسماوات) .

- (وجعل رب الإله آدم تراباً من الأرض ونفخ في أنفه نسمة حياة فصار آدم نفساً حية) .

(فأوقع رب الإله سباتاً على آدم فنام فأخذ واحدة من أضلاعه وملا مكانها لحماً وبني رب الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأة وأحضرها إليه) .

ه - يقول القرآن :

{مَا أَشْهَدْنَاهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ} الكهف ويقول {مَرَاجِ الْبَحْرَيْنِ
يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ} ويقول {إِنَّمَا نَجْعَلُ الْأَرْضَ مَهَاداً * وَالْجَيَالَ أُوتَاداً * وَخَلَقْنَاكُمْ
أَرْوَاجاً * وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُباتاً * وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ مَعَاشًا * وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً

شِدَاداً * وَجَعَلَنَا سرَاجاً وَهَاجَاً * وَأَنْزَلَنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً تَحَاجَأً * لِتُخْرَجَ بِهِ حَبَّاً وَنَبَاتاً *
وَجَاتِ الْفَافَ } النَّبَا : 6 - 16 .

وفي سفر أیوب إصلاح (38) أجاب رب أیوب وقال : (شد الان حقوقك كرجل - أي قف باستعداد - فإني أسألك فتعلمني : أين كنت حين أست الأرض ؟ أخبر إن كان عندك فهم من وضع قياسها وعلى أي شيء قررت قواعدها أو من وضع حجر زاويتها عندما ترنمت كواكب الصبح معاً وهتف جميع بنى الله من حجز البحر بمصاريع حين اندفق من فم الرحيم هل تربط أنت عقد الثريا أو تفك ربط الجبار أخرج المنازل من أوقاتها وتهدي الشمس مع ... من يهيء للغراب صيده إذا نعب فراخه إلى الله فأجاب أیوب : رب وقال : ها أنذا حقير فماذا أجوابك وضعت يدي على فمي " .

و - يقول القرآن :

{ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكَلِيلٌ * لَا
تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ الْأَطِيفُ الْخَيْرُ } ويقول {لِيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} ويقول
{اللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} .

ونقول التوراة سفر الخروج :

"الرب يملك إلى الدهر إلى الأبد " (ص 15 وفي الإصلاح (37) " عند الله جلال مرعب القدير لا ندركه عظيم القوة والحق وكثير البر " وفي الإصلاح (33) " هو ذا الله يتعالى بقدرته من مثله " هو ذا الله عظيم ولا نعرفه وعدد سنيه لا ي Finch " .

ز - يقول القرآن :

{وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ أَتَخَذَنُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ} البقرة : 51 .

ويقول {وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضِبَانَ أَسِفًا قَالَ بِسْمَةَ حَلْفُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعْجَلُنُمْ
أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ} الأعراف : 150 ويقول {وَأَنْظُرْ إِلَى إِلَهَكَ الَّذِي ظَلَّتْ عَلَيْهِ عَاكِفًا
لِلْحَرَقَةِ ثُمَّ لَنْسِقَهُ فِي الْيَمِّ} طه : 97 .

(وفي الإصلاح (32) من سفر الخروج (فانصرف موسى ونزل من الجبل ..)
وكان عندما اقترب إلى المحلة أنه أبصر العجل والرقص فحمي غضب موسى وطرح
اللوحين من يديه ...

ثم أخذ العجل الذي صنعوه وأحرقه بالنار حتى صار ناعماً وذراء على وجه الماء .

ح - يقول القرآن متحدثاً عن موسى :

{قَالَ رَبِّ أَرْنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي} الأعراف : 143 .

وفي الإصلاح (33) من سفر الخروج (فقال موسى : أرني مجده ... (18) .
قال لا تقدر أن ترى وجهي لأن الإنسان لا يراني ويعيش) (20) .

ط - يقول القرآن :

{وَإِذْ أَخَذْنَا مِئَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهُ وَبِالْأَوَالِدِينِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى
وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنَأ} البقرة : 83 .

وفي الإصلاح العشرين من سفر الخروج : (أنا رب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية لا يكن لك آلهة أخرى أمامي لا تصنع لك تمثلاً منحوتاً ولا صورة مما في السماء ... لا تسجد لهن ولا تعبدهن لأنني أنا رب إلهك غيور وأصنع 'إحساناً' إلى ألف من محبي وحافظي وصيادي ..) .

ي - يقول القرآن في سورة يوسف عن يوسف عليه السلام :

{إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَيْمَهُ يَابْنَ إِنَّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ} ويقول سفر التكوين الفصل (37) (قال رأيت حلماً أيضاً كان الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً ساجدة له) .

ويقول القرآن على لسان إخوة يوسف :

{أَفْتَلُوا يُوسُفَ أَوْ أَطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ *
قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالثُّوْفَةُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِ يَلْقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعْلَمُينَ }
يوسف : 10 .

وفي سفر التكوين :

(وَالآن تَعَالَوْا نَفْتَلُهُ وَنَطْرَحُ فِي بَعْضِ الْآبَارِ وَنَقُولُ : إِنْ وَحْشًا ضَارِيًّا افْتَرَسَهُ وَنَرَى
مَا يَكُونُ مِنْ أَحَلَامِهِ ، وَقَالَ لَهُمْ رَأْوَيْنٌ لَا تَسْفَكُوا دَمًا اطْرَحُوهُ فِي هَذَا الْبَئْرِ الَّتِي فِي الْبَرِّيَّةِ)

ويقول القرآن :

{فَأَلْوَأُ يَأْبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَيِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَنَاعِنَا فَأَكَلَهُ الدَّنْبُ ... } .

{وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ} يوسف .

وفي سفر التكوين :

(فَأَخْذُوا قَمِيسَ يُوسُفَ وَذَبَحُوا تِيسًا مِنَ الْمَعْزِ وَغَمْسُوا الْقَمِيصَ فِي الدَّمِ .. وَحَشَ
ضَارَ أَكْلَهُ افْتَرَسَ يُوسُفَ افْتَرَاسًا) .

ويقول القرآن :

{وَرَأَوْدَنَهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهِ عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لِكَ قَالَ مَعَادُ اللَّهِ إِنَّهُ
رَبِّي أَحْسَنَ مَوَايِ } يوسف 23 .

وفي سفر التكوين :

(وكان بعد هذه الأمور أن امرأة مولاه طمحت عينها إلى يوسف وقالت ضاجعني فأبى وقال لامرأة مولاه هو ذا مولاي لا يعرف معي شيئاً مما في البيت وجميع ما هو له جعله في يدي ... فانتفق في بعض الأيام أنه دخل البيت ليتعاطى أمره ولم يكن في البيت أحد من أهله فأمسكت بثوبه وقالت ضاجعني) .

ويقول القرآن :

{وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانَ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُبُّلَاتٍ خُضْرٌ وَأَخْرَى يَابِسَاتٍ يَأْكُلُهَا الْمَلَأُ أَفْلُونِي فِي رُؤْبِيَّا إِنْ كُنْتُ لِرُؤْبِيَّا تَعْبُرُونَ * قَالُوا أَضْعَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا تَحْنُّ بِثَوْبِيْلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِيْنَ} يوسف .

ويقول سفر التكوين :

(إن فرعون رأى حلمًا كأنه واقف على شاطئ النهر فإذا بسبع بقرات صاعدة منه وهي حسان المنظر وسمان الأبدان فرتعت في المرج وكأن سبع بقرات أخرى صاعدة وراءها من النهر وهي قباح المنظر وعجاف الأبدان فوقفت بجانب تلك على شاطئ النهر فأكلت البقرات القباح المنظر العجاف الأبدان السبع بقرات الحسان المنظر السمان ...

ثم نام فحلم ثانية فرأى كأن سبع سنابل قد نبتت في ساق واحدة وهي سمان جياد وكان سبع سنابل دقاقاً قد لفحتها الريح الشرقية نبتت وراءها فابتلاعت السنابل الدقاد السبع السنابل السميكة الممتلئة واستيقظ فرعون فإذا هو حلم فلما كانت الغداعة انزعجت نفسه فبعث ودعا جميع سحرة مصر وجميع حكمائها فقص عليهم فرعون حلمه فلم يكن من يعبره لفرعون) .

* * *

من هذه النقول نعرف معنى الآية القرآنية التي ختمت بها سورة يوسف {مَا كَانَ حَدِيثًا يُفَرَّىٰ وَلَكِنَ تَصْدِيقَ الْذِي بَيْنَ يَدَيْهِ} ونعرف كذلك وحدة الوحي وجوده إذ رأينا أن سيدنا محمداً لم يتلق أي تعليم سابق مما يوهم أن مثل هذا التلاقي وليد دراسة ، كما أن البيئة العربية لم تكن منتشرة فيها هذه المعاني أبداً . ولم تكن تعرفها ، بدليل الآية التي ذكرت في

سورة يوسف عقب القصة {ذلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ تُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوكُمْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ} يوسف : 102 .

فعدنما يتم التلاقي بين معنى ذكره الإنجيل أو التوراة أو الزبور مع معنى موجود في القرآن ، مع ملاحظة ما ذكرناه آنفاً فذلك دليل لا يدحض على أن هذا القرآن من عند الله {إِنَّ اللَّهَ يَشْهُدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلْهُ بِعِلْمِهِ} النساء : 166 .

- الموقف الثالث :

رأينا فيما مضى أن التوراة والإنجيل والزبور في الأصل من عند الله ، ورأينا كذلك أنها داخلها تحريف وتبدل وتغيير ونسيان وضياع ، والشيء العادي إذن بعد هذا ، أن تحدث انحرافات ضخمة نتائج لها ، ومفاهيم خاطئة ، وتصورات فاسدة ، واختلافات كثيرة ، ويأتي القرآن ليصحح لهم هذه المفاهيم كلها ، وهذه الأخطاء كلها ، وهذه الانحرافات كلها . فيبين ويوضح ويوبخ ويعاتب ويدعوا وينذر ، ويعلل ويوضح ، ويطالب ويأمر ، وينهي بجزم وحزم وتعليم وإرشاد وأستاذية مطلقة ، وسيادة بينة . فرداً اليهود والنصارى معاً إلى القصد وإلى الطريق المستقيم {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفْصُلُ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} النمل : 76 {بَأَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مَنْ أَرْرُسْلُلَ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} المائدة : 19 .

وهذه أمثلة :

أ - أعطى قسم من الكتابيين العصمة لبعض البشر من ليسوا بأنبياء ، فأطاعوهم وعطوا نصوص الكتب السماوية ، كما هو مشاهد الآن عند النصارى مع البابا . فقال لهم {إِنَّهُمْ لَا يَخْدُلُونَ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ} التوبة : 31 .

وقال :

{فَلَمْ يَأْهُلْ الْكِتَابَ لَا تَعْلُوَ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَبَعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلَّوْا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ} المائدة : 77 .

ب - ووصف بعض الكتابيين الله بصفات خلقه . قالوا عنه إنه خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استراح في اليوم السابع فقال لهم ولغيرهم .

{وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنُهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُعُوبٍ} ق : 38 .

ج - ووقف اليهود من عيسى ابن مريم وأمه موقفاً منكراً فقال عنهم :

{فَبِمَا نَفَضُّهُمْ مَيَّاْقُهُمْ وَكُفُّرُهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلُهُمُ الْأَئِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُهُمْ فُلُوبُنَا عَلَفُ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفُّرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا * وَبِكُفُّرِهِمْ وَقَوْلُهُمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْنَانَ عَظِيمًا * وَقَوْلُهُمْ إِلَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبَهَ لَهُمْ} النساء : 155 . 167 -

د - وأله بعض النصارى عيسى ابن مريم فقال :

{لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ أَعْبُدُو اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكُ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ} المائدة : 72 .

ه - وقال بعض النصارى بالتبليغ فرد عليهم :

{لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ} ووضع عيسى وأمه في محل الصحيح {مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأَمْمَةٌ صِدِيقَةٌ كَانَ أَيْكَلَانَ الْطَّعَامَ} المائدة : 75 .

و - تصور بعض الكتابيين أن إثنهم يحمله غيرهم وأن الإنسان آثم بالأصل قالوا بالخطيئة الأزلية ورفعها بال المسيح {لَيْسَ بِأَمَانِيْكُمْ وَلَا أَمَانِيْ أَهْلُ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ} النساء : 123 .

وقال :

{وَلَا تَنْزِرُ وَازْرَةً وَزْرَ أَخْرَى} الأنعام : 164 .

والأمثلة كثيرة جداً على هذا في القرآن ، كثرة تلقت النظر لدرجة أن الإنسان لا يشك بتاتاً إذا طالع هذه الكتب كلها . إن القرآن قد استوعب معانيها وأصلح ما أفسدوه فيها ، وأقام الناس على الحق الذي لا شبهة فيه ، ويخرج أخيراً بهذه النتيجة .

إن الحديث عن الكتب السماوية وأهلها في القرآن يدل على علم محيط كامل بهذه الكتب وأهلها ، ويدل على علم محيط كامل في مواطن الخلاف التي لم يكن منها شيء معروف في جزيرة العرب ، ويدل على علم محيط كامل في مواطن الانحراف ، وكذلك بالتناقض بين النصوص ، أكثر عن هذا الانحراف واستعمال دقيق كامل للمصطلحات الكتابية . هذا مع أمية الرسول ﷺ وجود هذه الكتب في غير اللغة العربية ، وعدم انتشارها ، وجهل البيئة العربية بمضامينها ، وثبتت أن الرسول ﷺ لم يتلق تعليماً من أحد .

إن هذا كله لا شك يثبت أن هذا القرآن وحي من عند الله .

- 5 -

وآخر ما نريد ذكره في فصل المعجزة القرآنية . هذه الخطوط العامة حول لغة القرآن ، وأسلوب القرآن ، وفي ذلك برهان أي برهان على كون هذا القرآن من عند الله .

إن المبتدئ في طريق ليس له فيها تجربة سابقة ولا لأحد قبله زيادة فيه ، يختلف وضعه عن المجرب الخبر ، أو من صاحب المجربيين واستفاد من خبرتهم ، كما يقال هذا في الحل والترحال ، يقال مثله عن عالم الأدب ، لم كان حسان بن ثابت في الجاهلية أقوى شاعرية منه في الإسلام ؟

لأن المعاني التي كان يتحدث عنها في الجاهلية معان مطروقة من شعراء قبله . قالوا فيها كثيراً ، وفتحوا فيها آفاقاً واسعة استفاد منها . فقال وأجاد .

أما في الإسلام فالوضع يختلف . فقد أتى الإسلام بمفاهيم جديدة وقيم ومثل عليها تختلف بما في الحياة الجاهلية ، وأقام نظاماً للحياة على أساس معاكسة تماماً لما كان عليه الناس ، والمعركة بين جديد وقديم . فكان إذن هو يتحدث عن هذا الشيء الجديد كله رائداً

غير مسبق ، فشيء عادي إذن أن يكون شعره الإسلامي أضعف من شعره الجاهلي . إن زهير ابن أبي سلمى لم يكن شعره بهذه الجودة لو لم يستند من تجربة حجر الشعريّة ، ولو لا شعر زهير ما كان الحطيئة جيد الشعر ومعاني هؤلاء واحدة .

هذه قضية ينبغي أن تكون على ذكرنا ، ونحن نتحدث عن لغة القرآن وأسلوب القرآن .

وأجرت عادة الناس أن لغة الأدب غير لغة القانون ، ولغة المخاطبة غير لغة الشعر ، وطريقة التعبير عن القضايا العلمية ، تختلف عن طريقة التعبير في قضايا الخيال والتصور أو العاطفة ، وفي الأدب عادة يشطح الخيال فيقرب البعيد يبعد القريب فيكون كذب وشطط وإسفاف ومجانة ..

وهذه قضية ثانية ينبغي أن تكون على ذكرنا كذلك .

والأديب عادة ينتزع الصورة من بيئته ، ومن محطيه مما يشاهده أو يسمعه فيحلل ويركب ويغوص ويحلق ويدقق ، ولكنه لا يخرج عن بيئته ومحطيه :

من زهير إذ يقول :

ترى العين والأرام في عرصاتها وأطلاؤها ينهضن من كل مجثم

إلى علي بن الجهم إذ يقول للخليفة :

أنت كالكلب في الحفاظ على الود وكالتيس في قراع الخطوب

وهذه قضية ثالثة كذلك ينبغي أن نذكرها أثناء الحديث عن لغة القرآن وأسلوب القرآن .

وأي شاعر تكلم ، وأي أديب قال أو كتب ، لو عرض عليه ما قال بعد مدة من قوله أو كتابته ، لغير أو بدل أو قدم أو آخر ، وأي قول قيل يمكن أن ينتقده الناقدون . فيرون كلمة

أجود من كلمة ، وحرفاً أجمل من حرف ، وجرساً ألطف من جرس ، أو أكثر مناسبة ، وقد تجد القصيدة الجيدة فتجد فيها كلمة غير مناسبة لما قبلها ، أو جرساً غير منسجم مع معنى ، إلى آخر ما هو معروف عند نقاد الكلام ، ولا تخلو قصيدة قيلت من أن توجد كلمة فيها يوجد غيرها أفعى منها أو أدق تعبيراً أو أوجد معنى .

وفيما رأينا من نقد الخنساء لحسان في أوائل هذا البحث مثل كاف ، فإذا ما اتضحت هذه القضايا كلها نقول : إن إنساناً يعقل لا يستطيع أبداً أن يتصور أن هذا القرآن من عند محمد أو سواه من البشر ، بل لا بد أن يكون مصدر هذا القرآن ذات العلية ذات الله عز وجل :

أ - فالقرآن لا يمكن أن يكون وليد البيئة العربية . فما فيه من صور وما فيه من أمثل جل عن طوق الفكر وبعد عن قدرة البشر . خذ مثالين على ذلك :

أولاً - {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَابٌ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوْقَاهُ حِسَابٌ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ * أَوْ كَظُلْمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِيٌّ يَعْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلْمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكُنْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ } النور : 39 ، 40 .

إن هذا النص وخاصة المثل الثاني منه لا يمكن أن يكون وليد البيئة العربية ولا وليد العصر الذي وجد فيه ولتعرف لماذا ؟ اقرأ هذا التعليق : (في هذه الآية إشارة إلى الأمواج الداخلية والسطحية فأضخم أمواج المحيط وأشدتها رعباً هي أمواج غير منظورة تتحرك في خطوط سيرها الغامضة بعيداً في أعماق البحر ، وقد كان من المعروف منذ سنين كثيرة أن سفن البعثان إلى القطب الشمالي كانت تشق طريقها بكل صعوبة فيما كان يسمى بالماء الميت ، والذي عرف الآن بأنه أمواج داخلية . وفي عام 1900 م لفت الأنظار كثير من مساحي البحاري الإسكندنافيين إلى وجود أمواج تحت سطح الماء ، والآن بالرغم من أن الغموض لا يزال يكتفى أسباب تكوين هذه الأمواج العظيمة التي ترتفع وتهبط بعيداً أسفل السطح فإن حدوثها على نطاق واسع في المحيط قد أصبح أمراً معروفاً جيداً ، فهي تقذف بالغواصات في المياه العميقه كما تعمل شقيقاتها السطحية على قذف السفن . ويظهر أن هذه الأمواج تتكرر عند التقائها بتيار الخليج ، وبتيارات أخرى قوية في بحر عميق ، فالآية القرآنية تقول : {في بَحْرٍ لُّجِيٍّ} إذن الكلام عن بحر عميق {يَعْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ} إذن أمواج داخلية وأمواج

سطحية { من فوقه سحاب } إذن الكلام عن مكان يكثر فيه الضباب والصورة إنما تطبق على الإنسان إذا كان تحت الأعماق أي تحت الأمواج الداخلية^١ مثل هذا التصوير معجز لا يتصور من رجل الجزيرة العربية قبل أربعة عشر قرناً .

ثانياً - {ولو أتَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمْدُدُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةً أَبْحُرٍ مَا نَفَدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ} لقمان 27 . {فَلَمْ يَكُنَ الْبَحْرُ مَدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمَذَادِهِ} مثل هذه الصورة مما لا يخطر على قلب بشر في التعبير عن سعة علم الله بالكلمات التي تعبر عن هذا العلم الذي لا يتناهى بهذا التصوير البالغ الروعة الموجز الواضح السهل . أن تقلب الأشجار كلها أقلاماً والبحار كلها حبراً وفوق البحر أبحر وتبدأ الأقلام بالكتابة وينفذ ماء البحر وتنقى بعد ذلك الكلمات لا تنتهي ، إن الأمة التي كان تصورها عن الإله أن تصنع صنم التمر ثم تعبده ثم تأكله ، ليس بالإمكان أن يصدر عن فرد من أبنائها مثل هذا التعبير والتصور ولكنه كلام الله .

ب - القرآن الكريم نزل منجماً خالل ثلاثة وعشرين عاماً وكتاب تم جمعه خلال هذه الفترات الطويلة لا بد - إلا إذا كانت المسألة غير عادية - أن يكون هناك اختلاف في أسلوبه قوة وضعفاً ما بين بدايته إلى نهايته ولا بد أن يكون هناك اختلاف في المضامين . وهذا شيء يلاحظ عند كل من تعاطى صناعة الكلام ، وصناعة الأفكار ، وصناعة الإصلاح وصناعة الأمم . التجربة تغير الرأي ، والتجربة تقوى الأسلوب ، وليس آراء الإنسان بعد عشرين عاماً من العمل الإصلاحي هي نفسها قبل العشرين ، ولكنك في القرآن تجد ظاهرة الوحدة في الأسلوب سواء في ذلك ما نزل أولاً أو ما نزل أخيراً سواء في ذلك النص التشريعي ، أو النص الوعظي أو النص الوصفي أو النص القصصي ، وظاهرة الوحدة في المعاني فلا تجد معنى متاخراً ينقص معنى متقدماً ، بل يتممه وكل ذلك يتم بلا تدبير أو ترتيب أو تفكير يخرج النص الموحى به من فم رسول الله ﷺ فيأخذ محله في القرآن ، ويبقى كما هو بلا تغيير ولا تبدل ، ويبقى هذا الأسلوب متميزاً مقرضاً ما عرف له مثيل من قبل ومن بعد مختلفاً عن أسلوب محمد بن نفسه في الكلام مع بقاء معاني القرآن أعظم وأحكم وأروع ما سمعته أذن الإنسان . فالمسألة بإنصاف ليست بشرية وهذه أمثلة على وحدة الأسلوب ووحدة المعاني .

^١ روح الدين الإسلامي .

من النصوص التشريعية في القرآن :

{يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أُولَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ أُنْثَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلَاثًا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النَّصْفُ وَلِأُبُوِيهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرَثَهُ أَبُواهُ فَلِأَمْمَهُ الْأَلْثَلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأَمْمَهُ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دِينِ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَنْدِرُونَ أَيْهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْمًا حَكِيمًا} النساء : 11 .

ومن النصوص القصصية :

{وَقِيلَ يَأْرُضُ أَبْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْمَاءُ أَقْلَعِي وَغَيْضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} هود : 44 .

{وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِيعِهِ فَإِذَا خِفْتَ عَلَيْهِ فَأَقْبِهِ فِي الْلَّيْمِ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّ رَأْدُوْهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ} القصص : 7 .

ومن النصوص الوعظية :

{يَأْيُهَا إِلْيَاهُنَّ مَا غَرَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمُ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَىٰ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَبَكَ * كَلَّا بْلَى تُكَدِّبُونَ بِالدِّينِ * وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ * كِرَاماً كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَعْمَلُونَ * إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَارَ لَفِي جَحِيمٍ} الانفطار : 6 - 14 .

ومن النصوص الوصفية :

{إِنَّمَا نَجْعَلُ الْأَرْضَ مَهَادًا * وَالْجِبَالَ أُوتَادًا * وَخَلْقَاتِكُمْ أَرْوَاجًا * وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا * وَجَعَلْنَا الْلَّلَيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا * وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا * وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجَا * وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَاجًا * لِتُخْرُجَ بِهِ حَبَّاً وَتَبَاتًا * وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا } النَّبَا : 6 - 15 .

هذه النصوص كما ترى بعضها نزل سابقاً وبعضها نزل لاحقاً ، وكلٌ يتحدث عن معنى ولكن هل تجد اختلافاً في الأسلوب ؟

إن إنساناً ذا عقل لا يستطيع أن يحكم على هذه الظاهرة إلا أنها خارقة للعادة .

أول آية نزلت في الخمر قوله تعالى :

{وَمِنْ ثَمَرَاتِ الْخَيْلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكِّرًا وَرَزْقًا حَسَنًا} النحل : 67 .

فتعبير السكر والرزق الحسن دل على أن السكر غير الرزق الحسن ، فكانت أول آية غمزت من الخمر . ثم تأتي الآية الأخرى {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا} البقرة : 219 .

ثم تأتي الآية الأخرى :

{ لَا يَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ } النساء : 43 .

ثم تنزل الآية الأخيرة :

{يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَرْزَالُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَأَجْتَنِبُوهُ لَعْنَكُمْ تُفْلِحُونَ} المائدة : 90 . فهل تجد تناقضاً بين أول آية ذكرت الخمر وآخر آية . وعلى هذا فقس . فالقرآن تكامل خلال ثلاثة وعشرين عاماً . ما نقص معنى متاخرة معنى متقدم بل أكمله وأوضحه وتتممه . وصدق الله العظيم {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ أَخْتِلَافًا كَثِيرًا} النساء : 82 .

ح - القرآن الكريم طرق معاني ما طرقها أحد من قبل في أمة العرب .

فالافتراض لو كان الأمر بشرياً ، أن يرى آثار ذلك من ضعف صياغة ، وركبة كلمات ، وتعلثم وتتكلف إلى غير ذلك ، إلا أن الواقع غير ذلك فقد تحدث القرآن عن الجنة والنار والملائكة والإنسان والجن والأخلاق والسياسة والكفر والإيمان ، وتحتاج عن الذات الإلهية ، وناقشت المعارضين ، وأفحى المجالسين ، وهو في ذلك كله في أعلى طبقات البلاغة ، وفي أعظمها ، وكل من أتى بعد وتحتاج عن أي معنى طرقه القرآن ، كان فيما قال أقل فصاححة وبياناً غير واضح المعنى إذا ما قيس ما قيل إلى لغة القرآن . لدرجة أنك لا تستطيع أن تجد في اللغة العربية كلها كلمة تحل محل الكلمة القرآنية بجملها وجرسها ، وما تعطيه من معنى ، ومناسبتها لما قبلها وبعدها . هذه البلاغة العظيمة كلها لم يراقبها شطحة فكر ، ولا كذبة خاطر ، ولا لفحة غير واقعية . بل الحق الذي لا ينافق فيه واحد .

ونرى ذلك بشكل مضطرب من أول القرآن لآخره . كتاب ضخم لا يختلف فيه حرف عما قلناه ، وزيادة على ذلك فإن الكلمة القرآنية ، والآية القرآنية تكاد تعطيك معناها وإن لم تعرفه ، وتكشف لك عما فيها وإن لم تفهم ، فجرس الحرف ، ومحل الكلمة في الآية ، ومحل الآية في السورة ، كل ذلك عجيب ، مظهر عجبه أن هذا الكتاب على كونه أعلى طبقة في طبقات البلاغة عرفه الإنسان ، فإنه سهل لدرجة أنه يفهمه كل إنسان ، ولكن كل إنسان يأخذ منه على قدر طاقته العقلية والروحية والقلبية . وكلما ارتقى أكثر كان في القرآن أكثر ، وكلما أتى جيل وجد في القرآن جديداً تفهمه الأجيال كلها . ولا تحيط بما فيه الأجيال كلها وصدق الله {وَلَقَدْ يَسِّرْنَا الْقُرْآنَ لِذِكْرِ فَهَلْ مِنْ مُذَكَّرٍ} القمر 17 .

يقرؤه عالم الاقتصاد المختص ، فيستخرج منه أرقى ما تترافق به الحياة الاقتصادية للإنسان ، ويكتب في ذلك كتاباً ضخماً وفي القرآن مزيد لمستزيد .

يقرؤه عالم الجيولوجيا فيجد فيه أعجب ما اكتشف علم الجيولوجيا في القرن العشرين ، فيؤلف في ذلك كتاباً ضخماً وفي القرآن مزيد لمستزيد .

ويقرؤه عالم الفلك فيجد فيه أعجب ما عرف الإنسان في الفلك وفي القرآن مزيد ...

ويقرؤه عالم الاجتماع فيرى أن الحياة الاجتماعية إذا خرجت عن سنن القرآن كان في ذلك دمارها .

ويقرؤه ويقرؤه أصحاب كل اختصاص فيرون أنهم لا يسعهم أن يكونوا إلا تلاميذ صغاراً ولا يحيطون بأسراره علماء .

ويقرؤه الرجل العادي فيفهمه فيتذكرة وي بكى ويتعظ . إنه كتاب كل إنسان وإن كان بيانيه أرقى من كل بيان ، وكلمته أفصح من كل كلمة ، حتى أنك لو فتشت في كل قواميس اللغة عن كلمة تحل محل الكلمة القرآنية ف تكون أجمل منها أو أحكم أو أفصح أو حاولت أن تقدم كلمة منه عن محلها أو تحذفها أو تؤخرها بحيث يكون ما فعلت أحسن مما كان فإنك لا تستطيع مهما بذلت من جهد . بل تنقطع ويبقى القرآن هو القرآن . وزيادة على ذلك فإنك لا

تجد الكلمة التي تعطيك المعنى المقصود بأبعاده كلها كالكلمة القرآنية . وهذه أمثلة توضح هذا الذي قدمناه هنا .

{ولكم في القصاص حياة} البقرة : 179 .

قارن هذا التعبير بأي كلمة قالتها العرب في معناها أو يمكن أن تقولها فإنك ستجد الفارق الكبير بين التعبير القرآني وأي تعبير آخر . فمثلاً قال العرب في معنى الآية ما يلي : (قتل البعض إحياء للجميع) و قالوا (أكثروا القتل ليقتل القتل) و قالوا (القتل أنفى للقتل) ولعل آخرها أجودها فلنقارنه بالآية لنجد أن التعبير القرآني أوضح وأبلغ وأحكم في ستة أوجه وبعضهم أوصلها إلى أكثر من عشرة :

أولاً - إن التعبير القرآني أحسن لأن المقارنة ما بين كلمتي (القصاص حياة) و (القتل أنفى للقتل) .

ثانياً - إن قولهم (القتل أنفى للقتل) فيه التباس إذ ظاهره أن القتل سبب لانتقاء نفسه بخلاف لفظ القرآن فإنه واضح فيه أن نوعاً من القتل وهو القصاص سبب لنوع من أنواع الحياة .

ثالثاً - في قولهم (القتل أنفى للقتل) كررت الكلمة القتل مرتين أما التعبير القرآني فذكرت فيه كلمتا قصاص وحياة .

رابعاً - في قولهم (القتل أنفى للقتل) لم يشمل إلا نوعاً مما ينبغي القصاص فيه . أما التعبير القرآني فيشمل القتل وغير القتل ، من ما القصاص فيه سبب من أسباب الحياة السعيدة الآمنة .

خامساً - إن القصد من القصاص حفظ الحياة الإنسانية ولذلك كان تعبير القرآن أجود ، إذ أوضح المقصود مباشرة ، من تعبيرهم الآخر إذ ذكر المقصود تبعاً .

سادساً - وأخيراً فإن تعبيره قاصر وموهم وخارطى : إذ قد يكون القتل سبباً لكثرة القتل كالقتل ظلماً ، فتعبيرهم عمم مع أنه ما كل قتل نافياً للقتل على خلاف التعبير القرآني . فإنه صحيح شامل غير موهم ، صادق ظاهراً وباطناً . كيف قلبه أعطاك معنى صحيحاً .

وفي تعريف كلمة القصاص وتکير كلمة الحياة في التعبير القرآني ، معانٍ عظيمة كبيرة أما هنا فليس في تعريف ولا إخبار أي ميزة .

{وَأَعْدُوا لَهُمْ مَا أُسْتَطِعُنَّ مِنْ قُوَّةٍ وَمَنْ رِبَاطُ الْخَيْلِ} الأنفال : 60 .

هذا طلب أمرت به الأمة الإسلامية بالاستعداد ، وهو أمر لها في كل زمان ومكان . وشمل كل ما يلزم من أمر الإعداد والاستعداد ولنحاول أن نفهم النص :

من : في اللغة العربية تأتي للجنس أحياناً وهذا معناها هنا ، والقوة فسرها الرسول ﷺ بالرمي فلما قال الله {وَأَعْدُوا لَهُمْ مَا أُسْتَطِعُنَّ مِنْ قُوَّةٍ} صار المعنى وأعدوا لهم ما تستطعون إعداده مما يرمي به ، أي من جنس ما يرمي به ، فشمل ذلك السهم والصاروخ والمدفع والقنبلة الذرية ، وكل ما يمكن أن يخترعه الإنسان من أدوات الرمي ، ولما قال {وَمَنْ رِبَاطُ الْخَيْلِ} أي وجنس رباط الخيل ، فشمل ذلك كل ما يركب للمعركة أي شمل التعبير كل الآليات .

أرأيت الإعجاز الواضح إذ يسع النص القرآني الزمان كله ، والمكان كله ، ولو أنك حاولت أن تغير كلمة أو حرفاً من هذا لتعبير لبدا القصور ، فإنك ستجعل النص لزمان دون زمان أو قاصراً على جزء مما ينبغي إعداده .

{ هُنَّ لِيَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَاسٌ لَهُنَّ } البقرة 187 .

هذا التعبير القصير الذي عبر عن المرأة بأنها لباس للرجل ، وكذلك الرجل بالنسبة للمرأة كم فيه من معانٍ ؟

أولاً - يشترط في اللباس أن يكون خاصاً بصاحبـه ، وملكاً له وحده ، وكذلك ينبغي أن تكون كلها لزوجها لا لغيره . لا خدتها ولا عينها ولا جسمها ولا ...

ثانياً - ويشترط في اللباس أن يكون ساتراً لعورة الرجل ، وكذلك لعورة المرأة ، وكذلك المرأة بالنسبة للرجل أو العكس ، زوجتي ينبغي أن تكون ساترة لعيوبها لا تقضي على إيمانها إذا كانت أدلة فضيحة لهذا شيء لا يحتمل .

ثالثاً - ويشترط في اللباس أن يكون طاهراً ونظيفاً وكذلك المرأة أو الرجل .

رابعاً - ويشترط في اللباس أن يكون مناسباً لمكانة الإنسان الاجتماعية وكذلك الرجل مع المرأة .

فهل تجد في اللغة العربية كلها كلمة تحل محل هذه الكلمة بحيث يبقى الجمال والكمال والجرس والانسجام مع السابق واللاحق وتعطي هذه المعاني كلها .

{تساؤكْمْ حَرْثُ لَكْمْ} البقرة 223 .

الحرث هي الأرض التي تفلح ليلاقي فيها البذر ويلقي البذر من أجل الثمر ، فالرجل مهمته إلقاء البذار والمرأة مهمتها حضانة البذر . الأرض يعتني بها حتى نقطف الثمرة ، وتختار صلاحية للزراعة ، ولا يلقي الإنسان بذاته في الأرض ويتركها ، ولا يبذر في غير أرضه وقد تختلف طريقة البذار ويبقى محل البذار واحداً .

هل تجد كلمة في اللغة العربية تحل محل كلمة حرث ، لو قلت "أرض" لما أعطت المعنى المراد ولو قلت ولو قلت فلن تجد أجمل وأكمل وأكثر معاني وأجود وأصدق منها في محلها .

{فَأَوْقِدْ لِي يَهَامَانْ عَلَى الْطِينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا} القصص 38 .

الطين المشوي يسمى آجراً أو قرميداً بعد عملية صنعه ترى هل تحل واحدة من الكلمتين في محل هذا التعبير الجميل المصاغ هذه الصياغة العظيمة . ثم التعبير القرآني يدل على أن الآجر من ساعة الطلب غير موجود وفي ذلك لفتة تدلنا على حماقة فرعون وبطره إذ

لم يقدر الزمان الكافي لعمل يحتاج إلى زمن طويل وهل يحل محل كلمة الصرح كلمة أخرى

.

{فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الظُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْفَمَلَ وَالضَّفَادَعَ وَاللَّدَمَ آيَاتٍ مَّقْصَدَاتٍ فَأَسْتَكَبُرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ} الأعراف 133 .

ترى لو تقدمت كلمة متأخرة على أخرى متقدمة ، فهل يبقى الجمال والتناسق واللطافة والوزن والنغم والخفة على الأدن كما هي موجودة في هذه الصياغة ؟ حتماً لا ...

{كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَتَّهِ لَتَسْقَعُ بِالنَّاصِيَةِ} العلق : 15 .

لو سألك سائل ماذا تعني كلمة سفع في اللغة العربية فإنك لا تعرف إلا إذا رجعت إلى قاموس ، ولكنك إذا رجعت إلى الآية وتلوتها فإن قلبك يكاد يحس بمعناها وإن لم تعرف معناها وذلك سر من أسرار القرآن يحسه كل من له صلة بهذا القرآن .

وبعد القرآن لا يمكن أن يكون وليد بيئة ولا يمكن أن يكون الكمال فيه والتناسق فيه والترتيب فيه والجمال فيه والوحدة فيه إلا من عند الله العظيم العليم .

* * *

والذي ذكرناه في هذه الفقرة الخامسة هو من خصائص القرآن المذكورة في الآيات :

{وَلَقَدْ يَسَرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكَّرٍ} القمر 17 {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عَنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ أُخْتِلَافاً كَثِيرًا} النساء 82 {قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عَوْجٍ} الزمر : 28 .
{إِنَّ اللَّهَ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ} الزمر : 23 .

* * *

وبهذا نختم الحديث عن المعجزة القرآنية ، ولم نذكر إلا الطرف الأقل عنها . وإلا في القرآن مناحي لو بحثت لكان هنا محلها ككون القرآن فيه تبيان كل شيء {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبَيَّنَ لِكُلِّ شَيْءٍ} النحل : 89 .

وكون القرآن يهدي دائماً وفي كل شيء لأقوم الطرق .

{إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلّٰتِي هِيَ أَفْوَمُ} الإسراء 9 .

وغيرها وغيرها مما وصف الله به كتابه ، وتجد مصادقه فيه .

ولعل فيما كتب في هذه الفقرة كفاية لطالب الحق ليؤمن أن هذا القرآن من عند الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإذا بقي في قلبه شك ، فليجرب أن يمؤلف مثل سورة مهما كانت قصيرة من سور القرآن ، فإن عجز فليجرب أن يتعاون مع الآخرين من هم أبلغ ، فإن عجزوا فقد قامت عليهم الحجة ولم يبق إلا الضلال والحمامة وعمى القلب وموت الضمير .

{وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ فَأَتُؤْمِنُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ وَأَدْعُوْا شَهَادَاتَكُمْ مِّنْ دُونِ اللّٰهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأَتَقُولُوا النَّارَ الَّتِي وَقُوْدُهَا النَّاسُ وَالْحَجَارَةُ أُعَدَّتُ لِلْكَافِرِينَ } البقرة : 23 ، 24 .

{لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِيَعْضُ ظَهِيرًا} الإسراء 88 .

{قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِنْهُ هُوَ فِي شِيَاقِ بَعِيدٍ} فصلات

. 52

* * *

وإلى الفقرة الثانية من هذا الفصل .

الفقرة الثانية

معجزات أخرى

إن قدرة الإنسان محدودة بما حددها الله عز وجل به من عالم القوانين والأسباب ، فما كان ضمن هذه الدائرة استطاعه الإنسان وإلا فلا . فالإنسان مثلاً يستطيع إذا توفر لديه أوكسجين وهيدروجين والأدوات اللازمة لإحداث تفاعل بينهما أن يصنع منها ماء فهذا داخل ضمن قوانين الكون واستطاعة الإنسان ، ولكن الإنسان لا يستطيع أن يوجد ماء من عدم مطلق ، ويستطيع الإنسان أن يتحكم بالكمبيوترات وببروتونات النحاس فيصبح النحاس ذهباً إذا توفرت لذلك شروط وأدوات معينة . ولكن الإنسان لا يستطيع أن يوجد ذهباً من لا شيء ، والبخار الموجود في الجو ينعدم مطراً إذا وجدت شروط معينة من برودة وكثافة وغيرها ، ويستطيع الإنسان ببعض الوسائل أن يوفر هذه الشروط في الجو فينزل مطراً صناعياً كما يقولون . ولكن لا يستطيع الإنسان بمجرد الكلام أن ينزل مطراً .

إذن رغم ما أعطى الله الإنسان من إمكانات يستطيع بها تسخير هذا الكون لصالحه ، فإن قدرة الإنسان محدودة ضمن قوانين هذا الكون .

ويبقى الله وحده ذا السلطان المطلق ، والقدرة المطلقة التي يخلق بها ما شاء من الممكنات .

بعد هذا نقول : إن مما يعرف به الإنسان أنه رسول الله هو أن تظهر معه آثار قدرة الله . فتظهر على يديه خوارق لعادات هذا الكون وقوانينه وأسبابه هذا الكون مما لا يمكن أن يكون للجهد البشري فيه تعلق ، فيعرف الناس بذلك أن هذا الإنسان رسول الله . بدليل أنها ظهرت معه آثار قدرة الله . وتقوم بذلك حجة الله على خلقه بأنه أرسل رسولاً ، وتقوم بذلك حجة الرسول على الخلق بأنه صادق في دعوى الرسالة ، ولا يكون لأحد عذر في عدم متابعة الرسول بعد ذلك .

وكما نقوم الحجة على من عاصر الرسول ﷺ تقوم على من بعدهم بثبوت معجزاته تاريخياً إذ الثابت تاريخياً كالثابت مشاهدة في إقامة الحجة .

* * *

ولم يوجد رسول أبداً في تاريخ العالم كانت له معجزات كثيرة ثابتة ثبوتاً تاريخياً يتحدى أدق معايير النقد التاريخي مثل ما كان لخاتم رسول الله محمد ﷺ . فإن معايير النقد التي وضعها علماء المسلمين لاستخلاص الواقع الصحيح الثابتة عن رسول الله ﷺ ما وصل إليها العالم قط ولا يرقى إلى نتائجها شك .

والدارس لهذه المعجزات الثابتة تاريخياً يرى بوضوح لا مزيد عليه ، آثار قدرة الله المباشرة مؤيدة لرسول الله ﷺ بأشكال وصور ومظاهر تحيط بكل الأوضاع . مما لا يبقي ريباً لمرتاب . إلا إذا مات إنسانه مع قلبه فعمي بذلك عقله .

وهذه نماذج من هذه الواقعات التي لا تفسر إلا بالقدرة الإلهية المؤيدة لرسول الله ﷺ مع ملاحظة أن المعجزة الأساسية لرسول الله والتي بها قامت الحجة على خلق الله في كل العصور هي القرآن ، الذي رأينا بعض ما فيه في الفقرة السابقة مما يشهد أنه كتاب الله ومع ملاحظة أننا لم نرد الاستقصاء هنا وإنما أردنا ضرب الأمثلة فقط ، وإلا فمعجزات الرسول عليه الصلاة والسلام كثيرة جداً .

- 1 -

أخرج مسلم والبيهقي وأبو نعيم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما : قال : سرنا مع رسول الله ﷺ في غزوة ذات الرقاع فقال رسول الله ﷺ يا جابر ناد بوضوء . فقلت ألا وضوء ؟ ألا وضوء ؟ قلت يا رسول الله ما وجدت في الركب من قطرة ، وكان رجل من الأنصار يبرد لرسول الله ﷺ الماء فقال لي : انطلق إلى فلان الأنصاري فانظر في أشجاره من شيء ، فانطلقت إليه فنظرت فيها فلم أجده فيها إلا قطرة^١ في غزلاء^٢ شجب^٣ يابسة مما لو أفرغه لشربه واحد فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته قال :

^١ قطرة : يسير في الماء .

^٢ عزلاء : فم الرواية ومصب الماء منها .

^٣ شجب : قربة بالية ، وسميت بذلك لأنها جلد قد شجب : أي عطب .

اذهب فأنتي به ، فأتيته به فأخذه بيده فجعل يتكلم بشيء لا أدرني ما هو ويغمزه بيده
ثم أعطانيه فقال :

" يا جابر ناد بجفنة¹ الركب فقلت " .

يا جفنة الركب ، فأتيت بها تحمل فوضعت بين يديه فقال رسول الله ﷺ بيده هكذا
فسططها في الجفنة وفرق بين أصابعه ثم وضعها في قعر الجفنة وقال : خذ يا جابر فصب
علي وقل بسم الله ، فرأيت الماء يفور من بين أصابعه ففارت الجفنة وفارت حتى امتلأ فقال
يا جابر ناد من كانت له حاجة بماء ، فأتى الناس فاستقوا حتى رروا ورفع رسول الله ﷺ يده
من الجفنة وهي ملأى .

وأخرج الشیخان من طريق إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس رضي الله عنه
قال : " رأيت رسول الله ﷺ وحانَت صلاة العصر والتّمس الناس الوضوء فلم يجدوه فأتى
بوضوء فوضع رسول الله ﷺ يده في ذلك الإناء وأمر الناس أن يتوضأ منه فرأيت الماء ينبع
من تحت أصابعه فتوضاً الناس حتى توضأوا من عند آخرهم " .

وأخرج الشیخان من طريق ثابت رضي الله عنه " أَنَّ النَّبِيَّ صَدَّقَ بِمَا دُعَا بِهِ فَأَتَى بِقَدْحٍ
رَحَّا فِيهِ شَيْءٌ مِّنْ مَاءٍ فَوَضَعَ أَصَابِعَهُ فِيهِ فَجَعَلَتِ الْأَنْظَرُ إِلَى الْمَاءِ يَنْبَغِي
فَجَعَلَ الْقَوْمَ يَتَوَضَّؤُونَ فَحَزَرَتْ مِنْ تَوْضِيْهِ مَا بَيْنَ السَّبْعِينَ إِلَى الشَّمَائِلِ " .

وأخرج الشیخان عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ وأصحابه كانوا بالزرداء فدعاه
بقدح فيه ماء فوضع كفه فيه فجعل الماء ينبع من بين أصابعه وأطراف أصابعه فتوضاً
أصحابه به جميعاً . قلت لأنس كم كانوا قال : زهاء ثلاثة مائة " .

وأخرج أحمد والبيهقي والبزار والطبراني وأبو نعيم عن ابن عباس رضي الله عنهما
قال : " أَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا وَلَيْسَ فِي
الْعَسْكَرِ مَاءً . قَالَ هَلْ عَنْكُمْ شَيْءٌ؟ قَالَ : نَعَمْ . فَأَتَى بِإِنَاءٍ فِيهِ شَيْءٌ مِّنْ مَاءٍ فَجَعَلَ رَسُولُ

¹ القصعة التي تشع عشرة فاكثر .

الله م أصابعه في فم الإناء وفتح أصابعه قال : فرأيت العيون تتبع من بين أصابعه فأمر بلالاً أن ينادي في الناس الوضوء المبارك " .

وأخرج البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : " إنكم تعدون الآيات عذاباً وكنا نعدها بركة على عهد رسول الله م قد كنا نأكل مع النبي M ونحن نسمع تسبيح الطعام وأتى النبي M بإماء فجعل الماء ينبع من بين أصابعه فقال النبي M حي على الطهور المبارك والبركة من الله حتى توضأنا كلنا " .

وأخرج البخاري عن المسور بن مخرمة رضي الله عنه " أن رسول الله M نزل بالحديبية على ثمد قليل الماء يتربضه الناس تربضاً فلم يلبث الناس حتى نزحوه وشكى لرسول الله M العطش فانتزع سهماً من كناته ثم أمرهم أن يجعلوه فيه فوالله ما زال يجيش لهم الري حتى صدوا عنه وكانوا بضع عشرة مائة من أصحابه " .

وأخرج البخاري عن البراء رضي الله عنه قال : تعدون أنتم الفتح فتح مكة وقد كان فتح مكة فتحاً ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية كنا مع رسول الله M أربع عشرة مائة والحادية بئر فنزنها فلم نترك فيها قطرة بلغ ذلك النبي M فأتاها فجلس على شفيرها ثم دعا بإماء من ماء فتوضاً ثم تمضمض ودعا ثم صبه فيها فتركها غير بعيد ثم إنها أصدرتنا ما شئنا نحن وركابنا .

وأخرج مسلم عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال : " قدمنا مع رسول الله M الحديبية ونحن أربع عشرة مائة معها خمسون شاة ما ترويها فقد رسول الله M على جابها يعني الركبة فإذا دعا وإنما برق فيها فجاشت فسقينا وأسقينا " .

وأخرج مسلم عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنهم خرجوا مع رسول الله M عام تبوك فقال : " إنكم ستأتون غداً إن شاء الله عين تبوك وإنكم لن تأتواها حتى يضحي النهار فمن جاءها فلا يمس من مائها شيئاً فأتاها والعين مثل الشراك تبض بشيء من ماء فعرف من العين قليلاً قليلاً حتى اجتمع في شيء ثم غسل وجهه ويديه ثم أعاده فيها فجرت العين بماء كثير فاستقي الناس ثم قال رسول الله M : يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة أن ترى ما ه هنا قد مليء جناناً " .

وأخرج الشیخان عن عمران بن حصین رضی الله عنہما قال : " کنا فی سفر مع رسول الله ﷺ فشکا إلیه الناس العطش فدعا علیاً ورجل آخر فقال : اذهبا فابغیانی الماء فانطلقا فلقيا امرأة بين مزادتين أو سطحین من ماء على بعيرها فقال لها أين الماء قالت عهدي بالماء أمس هذه الساعة (أي يبعد مسيرة يوم كامل) فانطلقا بها إلى رسول الله ﷺ فدعا بإماء فأفرغ فيه من أفواه المزادتين فمضمض في الماء وأعاده في أفواه المزادتين وأوكأ أفواههما وأطلق العزالی (أي مصب الماء من القرابة) ونودي في الناس أن اسقوا واستقوا فسوقی من شاء واستقی من استقی وهي قائمة تنظر ما يفعل بمائتها وایم الله لقد أفلعوا عنهم وإنه ليخیل إلينا أنها أشد ملاء منها حين ابتدأوا فيها فقال رسول الله ﷺ : اجمعوا لها فجمعوا لها من بين عجوة ودقیقة وسویقة حتى جمعوا لها طعاماً كثیراً فقال لها رسول الله ﷺ : تعلمين والله ما رزئنا من ماذاك شيئاً ولن الله عز وجل هو سقانا . قال : فأنت أهلها وقد احتبس عنهم فقالوا : ما حسبك يا فلانة ، قالت : العجب لقینی رجلان وذهبا بي إلى هذا الذي يقال له : الصابئ ففعل بمائی کذا وكذا الذي قد كان فوالله إنه أسرح من بين هذه وهذه وقالت بأصبعها الوسطی والسبابة فرفعتهما إلى السماء تعنی السماء والأرض أو أنه لرسول الله حقاً .

قال : فكان المسلمون بعد يغيرون على ما حولها من المشركين ولا يصيرون الصرم الذي هي فيه فقالت يوماً لقومها ما أرى إلا أن هؤلاء القوم يدعونكم عمداً فهل لكم في الإسلام فأطاعوها فدخلوا في الإسلام " .

وأخرج مسلم عن أبي قتادة أن النبي ﷺ كان في سفر فأسرى ثم نام فما استيقظ إلا والشمس في ظهره فدعا بميضأة¹ كانت معی فيها شيء من ماء فتوضاً منها ثم قال احفظ علينا ميضانك فسيكون لها نبأ فسار حتى امتد النهار فقال الناس هلکنا وعطشنا فقال : لا هلک عليکم .

ثم قال انطلقا إلى غمري (يعني القدم الصغير) فدعا بالميضأة فجعل النبي ﷺ يصب وأبو قتادة يسقيهم فقال النبي ﷺ أحسنوا الماء لكم سيروى حتى ما بقى أحد .

¹ الميضأة : إناء يوضع فيه الماء .

أخرج البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يخطب إلى جذع فلما اتَّخذ المنبر تحول إليه فحن الجذع فأتاَه النبي ﷺ فمسحه فسكن .

وأخرج أحمد وابن سعد والدارمي وابن ماجه وأبو نعيم والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان يخطب إلى جذع قبل أن يتخذ المنبر فلما اتَّخذ المنبر وتحول إليه حن الجذع فأتاَه فاحتضنه فسكن فقال ﷺ : " لو لم أحضنه لحن إلى يوم القيمة " .

وأخرج الدارمي والترمذى وأبو يعلى والبيهقي وأبو نعيم عن أنس رضي الله عنه قال : " كان رسول الله ﷺ يقوم إلى جذع فلما اتَّخذ المنبر وقعد عليه خار الجذع كخوار الثور حتى ارتج المسجد بخواره فنزل إليه رسول الله ﷺ فالترمذى فسكت فقال : والذى نفسي بيده لو لم ألتزم لما زال هكذا إلى يوم القيمة حزناً على رسول الله ﷺ " .

وأخرج ابن سعد وابن راهويه في مسنده والبيهقي عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه " أن رسول الله ﷺ كان يقوم إلى خشبة فلما اتَّخذ المنبر حنت الخشبة فأقبل الناس عليها فرقوا من حنينها حتى كثُر بكاؤهم فنزل ﷺ فأتاها فوضع يده عليها فسكن " .

وأخرج الدارمي وابن ماجه وابن سعد وأبو يعلى وأبو نعيم والبيهقي عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال : " كان النبي ﷺ يخطب إلى جذع فصنع المنبر فلما جاوز ذلك الجذع إليه خار حتى تتصدع وانشق فنزل ﷺ فمسحه بيده حتى سكت " .

وأخرج البيهقي وأبو نعيم عن أم سلمة رضي الله عنها قالت : " كان لرسول الله ﷺ خشبة يستند إليها إذا خطب فصنع له منبر فلما فقدته خارت خوار الثور حتى سمعها أهل المسجد فأتاها ﷺ فاحتضنها فسكنت " .

وأخرج ابن أبي شيبة والدارمي وأبو نعيم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : " كان رسول الله ﷺ يخطب إلى جذع فصنع له منبر فلما قام عليه حن الجذع حنين الناقة إلى ولدتها فنزل إليه رسول الله ﷺ فضممه إليه فسكن " .

وأخرج ابن أبي شيبة والدارمي وأبو نعيم عن أبي سعيد الخدري قال : " كان رسول الله ﷺ يخطب إلى جذع فصنع له منبر فلما قام عليه حن حنين الناقة إلى ولدها فنزل عليه رسول الله ﷺ فضمه إليه فسكن " .

وأخرج البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : " كان جذع يقوم إليه النبي ﷺ فلما وضع له المنبر سمعنا للجذع صوتاً مثل أصوات العشار .. (النياق) .. حتى نزل النبي ﷺ فوضع يده عليه فسكت ".

قال التاج السبكي : حنين الجذع متواتر لأنه ورد عن جماعة من الصحابة إلى نحو العشرين من طرق صحيحة تقييد القطع بوقوعه ، وقال القاضي عياش في (الشفاء) : إنه متواتر . **وقال البيهقي :** قصة حنينه من الأمور الظاهرة التي نقلها الخلف عن السلف .

- 3 -

آخر ج البخاري عن أنس رضي الله عنه قال : أصابت الناس سنة (جدب) على عهد رسول الله ﷺ فبينا رسول الله ﷺ على المنبر يوم الجمعة يخطب أئمَّةً أعرابيًّا فقال : يا رسول الله هلك المال وجاء العيال فادع الله لنا . فرفع رسول الله ﷺ يديه وما نرى في السماء قزعة ، فو الذي نفسي بيده ما وضعهما حتى ثار سحاب كأمثال الجبال ثم لم ينزل عن المنبر حتى رأيت الماء يتحادر على لحيته فمطرنا يومنا ذلك ومن الغد وبعد الغد والذي يليه حتى الجمعة الأخرى فقام ذلك الأعرابي فقال : يا رسول الله تهدم البناء فرفع رسول الله ﷺ يديه وقال : اللهم حوالينا ولا علينا فما يشير بيده إلى ناحية من السحاب إلا انفوج حتى صارت المدينة مثل الجوبة وسال الوادي قناة شهراً ولم يجيء أحد من ناحية إلا حدث بالجود " وأخرج مسلم مثله .

وأخرج البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : ربما ذكرت قول الشاعر وأنا
أنظر إلى وجه رسول الله ﷺ على المنبر يتسقى بما ينزل حتى يجيش كل ميزاب :

وأبيض يستقي الغمام بوجهه
شمال اليتامي عصمة للأرمel

وأخرج أبو نعيم عن ابن عباس رضي الله عنهم أن ناساً من مصر أتوا النبي ﷺ فسأله أن يدعوه أن يسقيهم فقال : اللهم اسقنا غيثاً مغيثاً هنيئاً مريئاً غدقاً طبقاً نافعاً غير ضار عاجلاً غير راث فأطبقت عليهم حتى مطروا سبعاً .

- 4 -

وأخرج الدارمي وأبو يعلى والطبراني والبزار وابن حبان والبيهقي وأبو نعيم بسند صحيح عن ابن عمر رضي الله عنهم قال :

كنا مع النبي ﷺ في سفر فأقبل أعرابي فلما دنا قال له النبي ﷺ أين ترید قال إلى أهلي قال هل لك في خير قال : وما هو قال : تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله قال : من شاهد على ما نقول ؟ قال : هذه الشجرة ، فدعها رسول الله وهو بشاطئ الودي فأقبلت تحد الأرض خداً حتى جاءت بين يديه فاستشهدوا ثلثاً فشهدت أنه رسول الله ﷺ ثم رجعت إلى منبتها ورجع الأعرابي إلى قومه فقال إن يتبعوني آتاك بهم وإن رجعت إليك فكنت معك .

وروى البخاري في تاريخه والبيهقي والدارمي بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهم قال جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال : بم أعرف أنك رسول الله ﷺ ؟ فقال : إن دعوت هذا العذق من هذه الخلة أتومن بي ؟ قال : نعم . فدعاه فجعل ينقر (أي يثبت) حتى أتاه فقال : ارجع فعاد إلى مكانه فأسلم الأعرابي .

وفي رواية : فجعل ينزل من الخلة شيئاً فشيئاً حتى سقط على الأرض فأقبل وهو يسجد ويرفع حتى انتهى إلى النبي ﷺ ثم قال له : ارجع فعاد فأسلم الأعرابي وقال : أشهد أنك رسول الله .

وروى الإمام أحمد والطبراني والبيهقي عن يعلى بن مرة التقي رضي الله عنه قال : كنت مع النبي ﷺ في مسيرة فذكر الحديث إلى أن قال : ثم سرنا حتى نزلنا منزلة فنام النبي ﷺ فجاءت شجرة تشق الأرض حتى غشيتها ، وفي رواية : طافت به ثم رجعت إلى مكانها فلما استيقظ ﷺ ذكرت له ذلك فقال : " هي شجرة استأذنت ربها في أن تسلم عليّ فأذن لها " .

وأخرج البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما - قال : آذنت (أي أعلم) النبي ﷺ بالجن ليلة استمعوا له شجرة وأن الجن قالوا : من يشهد لك (أي بأنك رسول الله) فقال ﷺ : " هذه الشجرة " ثم دعاها للشهادة فجاءت تجر عروقها لها قعاقع .

وأخرج الإمام أحمد والبيهقي والطبراني بسنده صحيح عن يعلى بن سبابه رضي الله عنه قال : كنت مع النبي ﷺ في سفر فأمر وَبَيْتَيْنِ (أي نخلتين صغيرتين) فانضممتا .

وأخرج البزار عن بريدة بن الخصيب رضي الله عنه قال :

سئل أعرابي النبي ﷺ آية (أي علامة) تدل على أنه رسول الله فقال له : قل لنراك الشجرة : رسول الله يدعوك . فدعاهما فمالت الشجرة عن يمينها وشمالها وبين يديها وخلفها فقطعت عروقها ثم جاءت تخد الأرض تجر عروقها مغيرة حتى وقفت بين يدي رسول الله فقالت : السلام عليك يا رسول الله . قال الأعرابي : مرها فلترجع إلى منبتها فرجعت فدلت عروقها فاستوت فقال الأعرابي : ائذن لي أسجد لك ، أي بعد أن آمن به ﷺ كما صرح به في رواية فقال له ﷺ : " لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها " . فقال الأعرابي : فأذن لي أقبل يديك ورجليك فأذن له .

قال الشيخ أحمد الدحلان في السيرة النبوية : وأحاديث كلام الشجر له ﷺ كثيرة شهيرة رواها أهل السنن عن كثير من الصحابة منهم عمر بن الخطاب . وعلي بن أبي طالب . وعبد الله بن عمر ، وجابر بن عبد الله ، وأسامه بن زيد ، وأنس بن مالك ويعلى بن مرة وغيرهم رواها عنهم أضعافهم من التابعين .

وقال القاضي عياض في الشفاء عنها : فصارت في انتشارها من القوة حيث هي ، قال الشهاب الخفاجي : يعني أنها نقلت عن كثير من الصحابة والتابعين حتى بلغت التواتر المعنوي وصارت في مرتبة قوية لا يشك فيها أحد من العلاء .

{أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَ الْقَمَرُ * وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌ * وَكَذَّبُوا
وَأَتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌ} القمر 1 - 3 .

وروى البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : انشق القمر في عهد رسول الله
فرقتين فرقه فوق الجبل وفرقه دونه فقال عليه الصلاة والسلام :

" أشهدوا "

وروى البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه : " أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ
أَنْ يَرِيهِمْ آيَةً فَأَرَاهُمْ انشقاقَ الْقَمَرِ شَقَّتِيْنِ حَتَّى رَأُوا حِرَاءَ بَيْنَهُمَا " .

وروى الترمذى من حديث ابن عمر في قوله تعالى : {أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَ الْقَمَرُ}
قال : قد كان ذلك على عهد رسول الله P انشق فلتنتين دون الجبل وفقة فوق الجبل . فقال
رسول الله P " أشهدوا " .

وروى الإمام أحمد عن جبير بن مطعم قال : " انشق القمر على عهد رسول الله P
فصار فرقتين : فرقة على هذا الجبل وفرقه على هذا الجبل فقالوا سَحَرَنَا مُحَمَّدٌ فقلوا إن كان
سَحَرَنَا فَإِنَّهُ لَا يُسْتَطِعُ أَنْ يَسْحِرَ النَّاسَ " .

وروى أبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس قال :

" اجتمع المشركون إلى رسول الله P منهم الوليد بن المغيرة وأبو جهل والعاص بن
وائل والأسود بن المطلب والنضر بن الحارث ونظراؤهم فقالوا للنبي P إن كنت صادقاً فشق
لنا القمر فلتنتين ، فسأل ربه فانشق " .

ونقل الخطيب في تفسيره عن حذيفة وقد خطب في المدائن قوله : " أَلَا إِنَّ السَّاعَةَ قَدْ
اقْتَرَبَتْ وَأَنَّ الْقَمَرَ قَدْ انشقَ عَلَى عَهْدِنِبِيكُمْ " .

وكفى ذكره في القرآن الكريم حتى يحكم بتوارثه إذ الآيات وضاحية فيه ولا يمكن أن تفسر بغيره ولذلك أجمع المفسرون وأهل السنة على وقوعه كما قال القاضي عياض والسبكي وغيرهم .

ونقل صاحب كتاب إظهار الحق عن المقالة الحادية عشر من تاريخ فرشنة ، أن أهل مليبار من إقليم الهند رأوه أيضاً " أي حادث انشقاق القمر " .

وذكر الحافظ المزى عن ابن تيمية أن بعض المسافرين ذكر أنه وجد في بلاد الهند بناءً قديماً مكتوباً عليه بني ليلة انشقاق القمر .

وقد أثار بعض مبشرى النصارى شبهات حول هذا الموضوع ، من ناحية أن هذا الحدث كان ينبغي أن يذكر في كل التاريخ العالمية لو كان صحيحاً متassين أن الخسوف مثلاً قد يقع في منطقة من العالم ، ويبقى ساعات ولا يراه إلا أهلها . وقد ناقش مقالتهم صاحب الكتاب المذكور آنفاً . وننقل جزءاً من مناقشته للأمر قال :

1 - إن انشقاق القمر كان في الليل ، وهو وقت الغفلة والنوم والسكون عن المشي ، والتردد في الطرق ، سيما في موسم البرد ، فإن الناس يكونون مستريحين في داخل البيوت وزواياها ، مغلقين أبوابها ، فلا يكاد يعرف من أمور السماء شيئاً إلا من انتظره واعتنى به ، ألا ترى إلى خسوف القمر فإنه يكون كثيراً وأكثر الناس لا يحصل لهم العلم به حتى يخبرهم أحد به في السحر .

2 - إن هذه الحادثة ما كانت ممتدة إلى زمان كثير فما كان للناظر أن يذهب إلى الغير الذي هو بعيد عنه وينبهه أو يوقظ النائم ويريه .

3 - إنها لم تكن متوقعة الحصول لأهل العلم ينظرونها في وقتها ، ويزرونها كما أنهم يرون هلال رمضان ، والعيدان والكسوف والخسوف في أوقاتها غالباً لأجل كونها متوقعة الحصول ، ولا يكون نظر كل واحد إلى السماء في كل جزء من أجزاء النهار أيضاً فضلاً عن الليل ، فلذلك رأى الذين كانوا طالبين لهذه المعجزة ، وكذلك من وقع نظره في هذا الوقت إلى السماء ، كما جاء في الأحاديث الصحيحة أن الكفار لما رأوها قالوا : سحركم ابن أبي كبيسة فقال أبو جهل : هذا سحر فابعثوا إلى أهل الأفاق حتى تنتظروا رأوا ذلك أم لا . فأخبر

أهل آفاق مكة أنهم رأوه منشقاً وذلك لأن العرب يسافرون في الليل غالباً ويقيمون في النهار ،
قالوا هذا سحرٌ مستمرٌ ... ثم نقل ما ذكرناه قبل هذا النقل .

4 - إنه قد يحول في بعض الأمكنة وفي بعض الأوقات في الديار التي ينزل فيها المطر كثيراً فإنه يكون في بعض الأمكنة سحاب غليظ ونزول المطر بحيث لا يرى الناظر في النهار الشمس ولا هذا اللون الأزرق إلى ساعات متعددة ، وكذا لا يرى في الليل القمر والكواكب ولا اللون المذكور في بعض أمكنة أخرى . لا أثر للسحب ولا للمطر ، وتكون المسافة بين تلك الأمكنة والأمكنة الأولى قليلة ، وأهل البلاد الشمالية كالروم في موسم نزول الثلوج والمطر لا يرون الشمس إلى أيام فضلاً عن القمر .

5 - إن القمر لاختلف مطالعه ليس في حد واحد لجميع أهل الأرض فقد يطلع على قوم قبل أن يطلع على آخرين فيظهر في بعض الآفاق وبعض المنازل على أهل بعض ابلاد دون بعض ...

- 6 -

أخرج البخاري عن البراء رضي الله عنه : أن عبد الله بن عتیک لما قتل أبا رافع ونزل من درجة بيته سقط إلى الأرض فانكسر ساقه قال فحدثت النبي ﷺ : ابسط رجلك فبسطتها فمسحها فكأنما لم أشكها قط .

وأخرج الشیخان (البخاري ومسلم) عن سهل بن سعد رضي الله عنه " أن رسول الله ﷺ قال يوم خیر : لأعطيين هذه الرایة غداً رجلاً یفتح الله على يديه فلما أصبح قال : أین على بن أبي طالب قالوا : یشتکي عینیه قال : فأرسلوا إليه فأتى به فبصق رسول الله ﷺ في عینیه ودعا له فبراً حتى كأن لم يكن به وجع " .

وأخرج البخاري عن یزید بن أبي عبید قال :

" رأیت أثر ضربة في ساق سلمة بن الأکوع فقلت : ما هذه الضربة ، قال : ضربة أصابتني يوم خیر فقال الناس : أصیب سلمة فأنت رسول الله ﷺ فنفث فيها ثلاث نفاثات فما اشتكیت منها حتى الساعة " .

وأخرج النسائي والترمذى والحاكم والبىهقى وصححوه وأخرجه البرهان الحلى من طرق متعددة حتى قال الشهاب الخفاجى فى شرح الشفاء : فلم يبق فيه شبهة .

عن عثمان بن حنيف رضي الله عنه أن رجلاً أعمى قال :

" يا رسول الله ادع الله لي أن يكشف عن بصرى فقال له رسول الله ﷺ : انطلق فتوضاً ثم صل ركعتين ثم قل : اللهم إِنْ أَسْأَلُكَ مَا تَعْلَمُ إِنِّي أَتُوَجِّهُ إِلَيْكَ إِنْ يَكُفُّنِي شَفَاعَتُكَ فِيٍّ ، فَمَا قَامَ الْقَوْمُ مِنْ مَجَالِسِهِمْ إِلَّا وَرَجَعَ الرَّجُلُ وَقَدْ أَبْصَرَ ، وَكَانَ عُثْمَانَ بْنَ حَنْيَفَ وَبْنَهُ يَعْلَمُونَ لِلنَّاسِ فَيُدْعُونَ بِهِ عِنْدِ تَعْسُرِ قَضَاءِ الْحَاجَاتِ فَتَقْضِيَ " .

وأخرج ابن عدي وأبو يعلى والبىهقى من طريق عاصم بن عمر بن قتادة عن جده قتادة ابن النعمان : " أنه أصيبت عينه يوم بدر فسألت حدقته على وجنته فأرادوا أن يقطعوها فسألوا رسول الله ﷺ فقال : لا فدعا به فغمز حدقته براحته فكان لا يدرى أى عينيه أصيبت " .

وأخرج البىهقى من وجه آخر عن قتادة مثله وزاد بعد قوله " براحته " وقال : " اللهم اكسه جمالاً " .

وأخرج ابن سعد عن زيد بن أسلم رضي الله عنه " أن عين قتادة بن النعمان أصيبت فسألت على خده فردتها رسول الله ﷺ فكانت أصح عينيه " .

وأخرج البىهقى وأبو نعيم والطبرانى من طرق أن عين قتادة أصيبت يوم أحد فوقعت على وجنته فردتها ﷺ فكانت أحسن عينيه .

ولفظ روایة الطبرانی وأبی نعیم عن قتادة قال : كنت يوم أحد أتقى السهام بوجهي دون وجه رسول الله ﷺ فكان آخرها سهماً ندرت منه حدقتي فأخذتها بيدي وسعيت إلى رسول الله ﷺ فلما رآها في كفى دمعت عيناه فقال : اللهم ق عين قتادة كما وقى وجه نبیک بوجهه فلجعلها أحسن عينيه وأحدّهما نظراً فصارت كذلك .

والظاهر أن إحدى عينيه أصيبت في بدر والأخرى في أحد .

وأخرج الإمام أحمد والطبراني عن الوازع قال : قدمت على رسول الله ﷺ والأشج في ركب ومعنا رجل مصاب فقلت : يا رسول الله إن معي حالاً مصاباً فادع الله له قال : ائنني به ، فأتيت به فأخذ طائفة من ردائه فرفعها حتى رأيت بياض إيطيه ثم ضرب ظهره وقال : اخرج عدو الله فأقبل ينظر نظر الصحيح ليس بنظره الأول ثم أقعده بين يديه فدعاه ، ومسح وجهه فلم يكن في الوفد أحد بعد دعوة رسول الله ﷺ يفضل عليه .

وأخرج أبو يعلى والبيهقي بسند حسن بن حجر في المطالب العالية عن أسامة بن زيد قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى الحجة التي حجها حتى إذا كنا ببطن الروحاء نظر إلى امرأة تؤمه فحبس راحلته ، فلما دنت منه قالت : يا رسول الله : هذا ابني ما أفاق من يوم ولدته إلى يومي هذا فأخذه رسول الله ﷺ منها ووضعه ببني صدره وواسطه الرحل ثم نقل في فيه وقال : اخرج يا عدو الله فإني رسول الله ثم ناولها إياه وقال خذيه فلا بأس عليه قال أسامة : فلما قضى رسول الله ﷺ حجه انصرف حتى إذا نزل ببطن الروحاء أتته تلك المرأة بشاة قد شوتها ...

وأخرج أحمد وابن أبي شيبة والبيهقي والطبراني وأبو نعيم من طريق سليمان بن عمرو بن الأحوص عن أمه أم جنبد قالت :

رأيت رسول الله ﷺ عند جمرة العقبة فرمى ورمى الناس ثم انصرف فجاءت امرأة ومعها ابن لها به مس (أي جنون) قالت : يا رسول الله ابني هذا به بلاء لا يتكلّم فأمرها النبي ﷺ فجاءت بتور (إناء من حجارة فيه ماء) فأخذه ﷺ بيده فمج فيه ودعا فيه وأعاده فيه ثم أمرها فقال : اسقيه واغسليه فيه قالت : هب لي من هذا الماء قالت : خذيه منه فأخذت منه حفنة فسقيتها ابني عبد الله فعاش فكان من يره ما شاء الله أن يكون قالت : ولقيت المرأة فزعمت أن ابنها برأ وأنه غلام لا غلام خير منه " ولفظ أبي نعيم : برأً وعقل عقلًا ليس كعقول الناس " .

وأخرج أحمد والدارمي والطبراني والبيهقي وأبو نعيم عن ابن عباس رضي الله عنهما أن امرأة جاءت بابن لها فقالت : يا رسول الله إن بابني هذا جنوناً وإنه يأخذ عنده غداءنا

وعشاءنا فيفسد علينا ، فمسح رسول الله ﷺ صدره ودعاه فشخ ثعة فخرج من جوفه مثل الجرو الأسود فشفى .

وأخرج الحاكم عن أبي بن كعب قال :

كنت عند النبي ﷺ فجاء أعرابي فقال : يا نبي الله إن لي أخاً به وجع قال : وما وجعه قال : به لم (أي جنون) قال : فائتني به فأتأهله فوضعه بين يديه فعوذه النبي ﷺ بفاتحة الكتاب وأربع آيات من أول سورة البقرة وهاتين الآيتين :

{وَإِلَهُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ} .. وآية الكرسي وثلاث آيات من آخر سورة البقرة وآية من آل عمران : {شَهَدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} وآية من الأعراف : {إِنَّ رَبَّكُمْ ...} وآخر سورة المؤمنون : {قَتَّالَى اللَّهُ الْمَلَكُ الْحَقُّ} .. وآية من سورة الجن {وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا ..} وعشرون آيات من أول الصافات وثلاث آيات من آخر سورة الحشر و{فَلَمْ يَرَهُ إِلَهٌ أَحَدٌ} والمعونتين فقام الرجل كأنه لم يشك شيئاً قط .

ورواه عبد الله بن الإمام أحمد في الزوائد بسند حسن .

ومعجزة أخرى متواترة النقل تقدم لها بما يلي :

لقد صعد الإنسان إلى ارتفاعات كبيرة في هذا القرن ، ولكن رغم هذا فإنه باق ضمن إطار معين محدود في السرعة والزمان والمكان . فهو ما جاوز بعد دائرة الأرض ومجاوزته دائرة المجموعة الشمسية مستحيل وأقرب نجم إلى مجموعة الشمسي على ما يقال يبعد حوالي أربع سنين ضوئية أي لو سار الإنسان بسرعة 300000 كم في الثانية فإنه يصل بعد أربع سنوات وهذا مستحيل المستحيلات .

وهنا يظهر الفارق بين المعجزة والعادة ، المعجزة تتعلق بقدرة الله المباشرة أما العادة فهي خاضعة للأسباب التي جعل الله عز وجل هذا العالم يسير عليها .

فقد أسرى برسول الله ﷺ من مكة إلى القدس وعرج به إلى ما فوق السماء السابعة ورجع في مدة قصيرة لجداً لم تتجاوز دقائق أو سويعات قليلة فكان في ذلك معجزة دلت على قدرة الله تعالى أن محمداً رسول الله ﷺ .

وقد يقول قائل : إن المعجزة حتى تقوم بها الحجة على الناس ينبغي أن تكون مشاهدة يراها الناس ، والإسراء والمعراج لم يرها أحد وإنما أخبر عنها محمد رسول الله ﷺ نفسه والإخبار بالمعجزة وحده من أصحابها لا تقوم به الحجة على الناس .

والجواب أن الحجة قامت بسبب أن الرسول ﷺ أخبر عن قضايا ما كان ليستطيع الإلقاء عنها لو لا أنه أسرى به وurge وبهذا قامت الحجة على الناس . إذ أن الناس عندما أخبرهم بما حدث له سأله دليلاً فقدم لهم جواباً عن كل ما سأله وهذه أمثلة :

أ - أخرج ابن أبي حاتم عن يزيد بن أبي مالك عن أنس ... فلما سمع المشركون قوله أتوا أبا بكر فقالوا يا أبا بكر هل لك في أصحابك يخبر أنه أتي في ليلته هذه مسيرة شهر ثم رجع مسيرة شهر ثم رجع في ليلة فقال أبو بكر : إن كان قاله فقد صدق . وإننا لنصدقه فيما هو أبعد من هذا ، نصدقه على خبر السماء . فقال المشركون لرسول الله ﷺ : ما علامة ما تقول : قال : مررت بعيير لقريش وهي في مكان كذا وكذا فنفرت الإبل منها واستدارت وفيها بعيير عليه غراراتان غرارة سوداء وغرارة بيضاء فصرع فانكسر فلما قدمت العيير سأله المشركون فأخبروهم الخبر على مثل ما حدثهم رسول الله ﷺ .

ب - أخرج الشیخان عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : لما كذبته قريش حين أسرى بي إلى بيت المقدس قمت في الحجر فجلت الله لي بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه .

ج - أخرج ابن أبي حاتم والبيهقي وصححه والبزار والطبراني وابن مردويه عن شداد بن أوس : "... فأتاني أبو بكر فقال : يا رسول الله أين كنت الليلة فقد التمسكت في مظانك فقلت : علمت أنني أتيت بيت المقدس الليلة فقال : يا رسول الله إنه مسيرة شهر فصفه لي قال ففتح لي صراطي كأنني أنظر إليه لا يسألني عن شيء إلا أني أتيت عنه قال أبو بكر : أشهد أنك رسول الله فقال المشركون : انظروا إلى ابن أبي كبشة يزعم أنه أتي بيت المقدس الليلة فقال : إن من آية ما أقول لكم أنني مررت بعيير لكم بمكان كذا وكذا قد أضلوا بعييراً لهم

فجمعه فلان وأن مسيرهم ينزلون بهذا ثم كذا ويأتونكم يوم كذا وكذا يقدمهم جمل آدم عليه مسح أسود وغراحتان سوداوان فلما كان ذلك اليوم أشرف الناس ينتظرون حتى كان قريباً من نصف النهار أقبلت العبر يقدمهم ذلك الجمل الذي وصفه رسول الله ﷺ .

وليس في هذا النص والنص الأول تناقض فالنص الأول يتحدث عن جمل عليه غرارة بيضاء وأخرى سوداء انكسرت رجله أما هذا فيتحدث عن الجمل الأول في القافلة وعليه غراحتان سوداوان .

د - أخرج أحمد وابن أبي شيبة والنسائي البزار والطبراني وأبو نعيم بسنده صحيح من طريق زرارة بن أوفى عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : لما كان ليلة أسرى بي فأصبحت بمكة قطعت وعرفت أن الناس مكذبي فقد معزل لا حزيناً فمر به عدو الله أبو جهل فجاء حتى جلس إليه فقال له كالمستهزئ :

هل كان من شيء ؟ قال : نعم قال : وما هو ؟ قال : إني أُسرى بي الليلة ، قال : إلى أين - قال : إلى بيت المقدس قال : ثم أصبحت بين ظهرانينا ؟ قال : نعم فلم ير أن يكذبه مخافة أن يجده الحديث إن دعا قومه إليه قال :

أرأيت إن دعوت قومك أتحدهم ما حدثني ؟ قال : نعم قال : هيا عشر بنى كعب بن لؤي فانقضت إليه المجالس وجاءوا حتى جلسوإليهما قال : حدث قومك بما حدثني فقال رسول الله ﷺ :

إني أُسرى بي الليلة قالوا : إلى أين ؟ قال : إلى بيت المقدس قالوا : ثم أصبحت بين ظهرانينا ؟ قال : نعم قال : فمن بين مصدق ومن بين واضع يده على رأسه متعجبأ قالوا : و تستطيع أن تتعت المسجد وفي القوم من سافر إليه قال رسول الله ﷺ : فذهبت أنت فما زلت أنت حتى التبس على بعض النعوت فجيء بالمسجد وأنا أنظر إليه حتى وضع دون دار عقيل أو عقال فنعته وأنا أنظر إليه فقال القوم : أما النعوت فهو الله لقد أصاب .

ه - أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي وابن عساكر من طريق أبي هارون العبدلي عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه حدث عن ليلة أسرى به ... ثم أصبح بمكة يخبرهم العجائب : إني أتيت البارحة بيت المقدس وعرج بي إلى السماء ثم رأيت

كذا وكذا فقال أبو جهل : ألا تعجبون مما يقول محمد قال : فأخبرهم بغير قريش قال : لما كانت في مصعدي رأيتها في مكان كذا وإنها نفرت فلما رجعت رأيتها عند العقبة وأخبرهم بكل رجل وبغيره كذا ومتاعه كذا فقال رجل : أنا أعلم الناس ببيت المقدس كيف بناؤه وكيف هيئته وكيف قربه من الجبل ؟ فرفع لرسول الله ﷺ بيت المقدس فنظر إليه فقال : بناؤه كذا وهيئته كذا وقربه من الجبل كذا فقال : صدقت .

و - وأخرج أبو نعيم عن محمد بن كعب القرظي قال : بعث رسول الله ﷺ دحية الكلبي إلى قيسر الروم وذكر قصة اجتماع أبي سفيان بهرقل وأسئلة هرقل لأبي سفيان إلى أن يذكر ما يلي على لسان أبي سفيان .

قلت : أيها الملك ألا أخبرك عنه خبراً تعرف أنه قد كذب . قال : وما هو ؟ قلت : إنه يزعم لنا أنه خرج من أرضنا أرض الحرم في ليلة فجاء مسجدكم هذا مسجد إيليا ورجع إلينا في تلك الليلة قبل الصباح قال : وبطريق إيليا عند رأس قيسر قال الطريق : قد علمت تلك الليلة قال فنظر إليه القيسير وقال : ما علمك بها ، قال : إنني كنت لا أبیت ليلة حتى أغلق أبواب المسجد فلما كانت تلك الليلة غلت الأبواب كلها غير باب واحد غلبني فاستعنت عليه بعمالي ومن يحضرني كلهم فعالجناه فلم نستطع أن نحركه وكأنما نزاول به ج بلاً فدعوت الناجرة فنظروا إليه فقالوا : هذا باب سقط عليه النحات والبنيان فلا نستطيع أن نحركه حتى نصبح فننطر من أين أتى فرجعت وتركته مفتوحاً فلما أصبحت غدوت فإذا الحجر الذي من زاوية الباب منقوب وإذا فيه أثر مربط الدابة فقلت لأصحابي : ما حبس هذا الباب الليلة إلا علىنبي وقد صلى الليلة في مسجدهنا ، فقال قيسير : يا عشر الروم أليس تعلمون أن بين عيسى وبين الساعة نبياً بشّركم به عيسى وهذا هو النبي الذي بشر به عيسى فأجيبوه إلى ما دعا إليه فلما رأى نفورهم قال : يا عشر الروم دعاكما ملکكم يختبركم كيف صلابتكم في دينكم فشتمتموه وسببتموه وهو بين أظهركم فخرعوا له سجداً .

ز - وأخرج مسلم من طريق أبي سلمة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : لقد رأيتني من الحجر وقريش تسألني عن مسراي فسألوني عن أشياء من بيته المقدس لم أثبتها فكربت كرباً ما كربت مثله قط فرفعه الله لي أنظر إليه ما يسألوني عن شيء إلا أثبتهم به .

وهنالك سؤال آخر يسأله بعض الناس وهو أين هي السماء التي عرج إليها رسول الله

؟

والجواب أن القرآن قد ذكر السماء في كثير من آياته وأراد بها المعنى اللغوي لها .
ونذكر أحياناً السماء وأراد بها معنى اصطلاحياً له ارتباط بالمعنى اللغوي ، ففي اللغة كل ما علاك فهو سماء : قال الله تعالى {وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً} فهنا أراد المعنى اللغوي فقط وأما في قوله تعالى {تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَقْطَرُنَّ مِنْ قَوْقَنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ} {اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ} فالمراد هنا السماء بالمعنى الاصطلاحي كما في قوله عليه الصلاة والسلام :

" إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أطت السماء وحق لها أن تتط لليس فيها موضع أربع أصابع إلا ... " ¹ فالمقصود بالسموات هذه سكن الملائكة ، والتي فيها الجنة في السماء السابعة ، وسفتها عرش الرحمن ، وهذه السموات هي التي عرج إليها رسول الله ﷺ كما سنرى في الأحاديث بعد قليل . أما أين هي فالله أعلم بذلك . إذ هي من المغيبات عنا في فهمي أما ما يتصوره بعض الناس بأن هذه الزرقة هي السموات فهذا خطأ ووهم ، إذ هذه الزرقة ترى من الأرض فقط فإذا ما ارتفع الإنسان في الفضاء غابت فهي انعكاسات أضواء وأنوار وأجواء .

وإذن فنحن نؤمن أن هناك سموات سبعاً ، وعرشاً فوقها ، أثبتناها بإثبات الله يابها ، وإخبار رسول الله عنها ، ولا نجزم بمكانتها وإن كنا نجزم أنها في جهة فوق بالنسبة لسكن الأرض ، ولا نعرف عنها إلا ما أخبرنا الله ورسوله ، هذه السموات هي التي كان إليها العروج وهي التي تصعد إليها أرواح البشر ، وتتنزل الملائكة والروح منها .

* * *

ويتسائل آخرون : ما الحكمة في الإسراء والمعراج ؟

والحكمة - والله أعلم - تكمن في ناحيتين :

¹ أخرجه الترمذى وابن ماجه وأحمد وإسناده حسن .

الأولى: أن الله أرى رسوله ما دعا إليه فقد أمر الرسول ﷺ أن يدعو إلى الإيمان بالجنة ورأى الجنة ، وأن يدعو إلى الإيمان بالرسل ورأى الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، وإلى الإيمان بالملائكة ورأى الملائكة ، وإلى الإيمان بالله ورأى أثار قدرة الله وملكته وقد ذكر الله في القرآن حكمة الإسراء بقوله {حَوْلَهُ لِتُرَيَّهُ مِنْ آيَاتِنَا ...} .

الثانية : أن الله يُعِدُ رسوله لمرحلة جديدة من مراحل الدعوة الإسلامية . هذه المرحلة تشبه المرحلة التي رأى فيها موسى آيات الله الكبرى وهي مرحلة مجابهة فرعون فقد قال الله عن موسى : {إِنِّي رَأَيْتُكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَىٰ * أَذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ} إن موسى الذي سيقابل فرعون الطاغية هد هيء بهذه الرؤية لاحتقار كل القوى الأرضية ما دامت معه قوة الله : وسيدنا رسول الله ﷺ كان مأموماً بالصبر طوال المرحلة المكية ، وبعد الهجرة أمر بالمجابهة وكان الإسراء والمعراج قبل الهجرة بقليل . فكانت رؤية آيات الله الكبرى تمهدًا لهذه المرحلة التي سيقف فيها رسول الله ﷺ بالقلة من أصحابه في وجه الدنيا كلها . قال الله تعالى في أوائل سورة النجم بعد الحديث عن المعراج : {لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ} ومن قبل كما ذكرنا أرى موسى من آيات الله الكبرى قبل مرحلة المجابهة .

وأخيراً بعد هذه المقدمات عن هذه المعجزة نبدأ بذكر طرف عنها . قال الحافظ السيوطي :

اعلم أن الإسراء ورد مطولاً ومحتصراً من حديث أنس وأبي بن كعب وبريدة وجابر بن عبد الله وحديفة بن اليمان وسمرة نجذب وسهم بن سعد وشداد بن أوس وصهيب وابن عباس وابن عمر وابن عمرو وابن مسعود وعبد الله بن أسعد بن زراره وعبد الرحمن بن فرط وعلي بن أبي طالب وعمر بن الخطاب ومالك بن صعصعة وأبي أمامة وأبي أيوب وأبي حية وأبي الحمراء وأبي ذر وأبي سعيد الخدري وأبي سفيان بن حرب وأبي ليلى الأنصاري وأبي هريرة وعائشة وأسماء بنتي أبي بكر وأم هانئ وأم سلمة .

وعد الإمام القسطلاني في المواهب اللدنية ستة وعشرين صحابياً وصحابية رووا حديث الإسراء والمعراج فهو إذن حديث متواتر مع نص القرآن عليه في سوري الإسراء والنجم وهذه بعض روایات الحديث :

أ - أخرج مسلم من طريق ثابت عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : أتيت بالبراق وهو دابة أبيض طویل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه فركبته حتى أتيت بيت المقدس فربطه بالحلفة التي تربط بها الأنبياء ثم دخلت المسجد فصلبت فيه ركعتين ثم خرجت فجاعني جبريل بإماء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن فقال جبريل : اخترت الفطرة ثم عرج بنا إلى السماء الدنيا فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل قيل : ومن معك قال : محمد قيل : وقد بعث إليه قال : قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بأدم فرحب بي ودعا لي بخير ، ثم عرج بي إلى السماء الثانية فاستفتح جبريل فقيل : من أنت قال : جبريل قيل : ومن معك قال : محمد قيل وقد بعث إليه قال : قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا ببني الخالة عيسى ابن مریم ويحيى بن زکریا فحربا بي ودعوا لي بخير ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة فاستفتح جبريل فقيل : من أنت قال : جبريل قيل : ومن معك قال : محمد قيل : وقد بعث إليه قال : قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بيوسف وإذا هو قد أعطى شطر الحسن فرحب بي ودعا لي بخير ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة فاستفتح جبريل قيل : من هذا قال : جبريل قيل : ومن معك قال : محمد قيل : وقد بعث إليه قال : قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بآدريس فرحب بي ودعا لي بخير ، ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة فاستفتح جبريل قيل : من هذا قال : جبريل قيل : ومن معك قال : محمد قيل : وقد بعث إليه قال : قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بهارون فرحب بي ودعا لي بخير ، ثم عرج بنا إلى السماء السادسة فاستفتح جبريل قيل : من هذا قال : جبريل قيل : ومن معك قال : محمد قيل : وقد بعث إليه قال : قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بموسى فرحب بي ودعا لي بخير ثم عرج بنا إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل قيل : من هذا قال : جبريل قيل : ومن معك قال : محمد قيل : وقد بعث إليه قال : بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بـ إبراهيم مسند ظهره إلى البيت المعمور وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى فإذا ورقها كاذان الفيلة وإذا ثمارها كالقلال فلما غشتها من أمر الله ما غشي تعيرت بما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها فأوحى إلى ما أوحى ففرض على خمسين صلاة في كل يوم وليلة فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فقال : ما فرض ربك على أمتك قلت : خمسين صلاة قال : ارجع إلى ربك فسألته التخفيف فإن أمتك لا تطيق ذلك فإني قد بلوت بنى إسرائيل وخبرتهم فرجعت إلى ربي فقلت : يا ربِي خف عن أمتي فحط عني خمساً فرجعت إلى موسى فقلت : حط عني خمساً قال : إن أمتك لا يطيقون ذلك فارجع إلى ربك فسألته التخفيف قال فلم أزل أرجع بين ربي وبين موسى حتى قال يا محمد إنهم خمس صلوات كل يوم وليلة لكل صلاة عشر بذلك خمسون صلاة ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت لها حسنة فإن عملها كتبت لها عشرة ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئاً فإن عملها

كتبت سيدة واحدة فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته فقال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فقلت : قد رجعت إلى ربى حتى استحييت منه .

ب - وأخر مسلم عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : مررت ليلة أسرى بي على موسى قائماً يصلّي في قبره .

ج - وأخرج أحمد وابن أبي شيبة والترمذى والحاكم وصححه والنمسائى وابن جرير وابن مردويه والبيهقى عن حذيفة أنه حدث عن ليلة أسرى بمحمد ﷺ : " ما زايل البراق حتى فتحت له أبواب السموات فرأى الجنة والنار ووعد الآخرة أجمع ثم عاد " ولفظ ابن مردويه فأري ما في السموات وأري ما في الأرض .

د - أخرج مسلم من طريق مرة الهمданى عن ابن مسعود قال لما أسرى برسول الله ﷺ فانتهى إلى سدرة المنتهى ما يقصد به - وفي لفظ ما يعرج - به من الأرواح حتى يقبض منه وإليها ما ينتهي ما يهبط به من فوقها حتى يقبض . إذ يغشى السدرة ما يغشى قال غشيتها فراش من ذهب وأعطي رسول الله ﷺ الصلوات الخمس وخواتيم سورة البقرة وغفر لمن لا يشرك بالله من أمنته شيئاً المحميات .

- 8 -

وعندما يدعو رسول الله لإنسان فإنك تجد ما دعا له قد تحقق كما دعا ، وكثرة الحوادث في هذا الموضوع يجعل الإنسان على اليقين الكامل أن محمداً رسول الله وأن الله عز وجل يؤيد رسوله ويستدده ويستجيب دعاءه حتى لا يشك معه قيمة الكلمة التي تخرج من فم رسول الله ﷺ .

وقد قال القاضي عياض في الشفاء : إجابة دعوة النبي ﷺ لجماعة دعا لهم أو عليهم متواترة معلومة ضرورة . وأخرج الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال : " كان النبي ﷺ إذا دعا للرجل أدركه ولد ولد " .

وهذه أمثلة منتقاة من عشراتحوادث بل مئاتها وفي كل منها دليل ما قلناه :

أ - أخرج الحاكم وصححه والبيهقي عن علي رضي الله عنه قال : بعثني رسول الله m إلى اليمن فقلت : يا رسول الله تبعثني وأنا شاب أقضى بينهم ولا أدرى ما القضاء فضرب بيده في صدري وقال : اللهم اهد قلبه وثبت لسانه فوالذي فلق الحبة ما شككت في قضاء بين اثنين .

ب - أخرج البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله m قال لعبد الرحمن : "بارك الله لك " وأخرجه ابن سعد والبيهقي من وجه آخر وزاد : قال عبد الرحمن : لقد رأيتني ولو رفعت حرجاً لرجوت أن أصيّب تحته ذهباً أو فضة .

ج - أخرج الترمذى والحاكم وصححه عن سعد رضي الله عنه أن النبي m قال : اللهم استجب لسعد إذا دعاك فكان لا يدعوك إلا استجيب .

د - أخرج الشیخان عن ابن عباس رضي الله عنهمما قال دعا لي النبي m فقال : " اللهم فقهه في الدين " وأخرجه الحاكم والبيهقي وأبو نعيم من وجه آخر عنه بزيادة : " وعلمه التأویل " فصار حبر هذه الأمة ولا سيما في علم التفسير .

وأخرج الإمام أحمد وأبو نعيم عن ابن عباس رضي الله عنهمما قال : مسح رسول الله m رأسه ودعا لي بالحكمة فلم تخطئني دعوة رسول الله m .

ه - أخرج الشیخان عن أنس رضي الله عنه قال :

اشتكى ابن لأبي طلحة فمات وأبو طلحة خارج فلما رأت امرأته أنه قد مات هيأت شيئاً ونحته في جانب البيت فلما جاء أبو طلحة قال : كيف الغلام قالت : هدأت نفسه وأرجو أن يكون قد استراح وظن أبو طلحة أنها صادقة فبات فلما أصبح اغتنسل فلما أراد أن يخرج أعلمه أنه قد مات فصلى مع النبي m ثم أخبر m بما كان منها ف قال m لعل الله يبارك لكما في ليلتكما قال سفيان : قال رجل من الأنصار : فرأيت لهما سبعة أولاد كلهم قد قرأ القرآن .

و - أخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : ما على وجه الأرض مؤمن ولا مؤمن إلا وهو يحبني قلت : وما علمك بذلك قال : إني كنت أدعو أمي إلى الإسلام فتابى فقلت : يا رسول الله أدع الله أن يهدي أم أبي هريرة إلى الإسلام فدعا لها ، فرجعت فلما

دخلت البيت قالت : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فرجعت إلى رسول الله ﷺ وأنا أبكي من الفرح كما كنت أبكي من الحزن وقلت : يا رسول الله قد استجاب الله دعوتك وهدى أمي هريرة إلى الإسلام فادع الله أن يحببني وأمي إلى عباده المؤمنين وأن يحبهم إلينا فقال ﷺ : اللهم حبب هذا وأمه إلى عبادك المؤمنين وحببهم إليهما فما أعلم مؤمناً ولا مؤمنة إلا وهو يحبني وأحبه .

ح - أخرج الشیخان عن سلمة بن الأکوع رضی الله عنه قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى خیر فسرا لیلاً فقال رجل من القوم لعامر بن الأکوع : ألا تسمعنا من هنیهاتك - وكان عامر رجلاً شاعراً - فنزل يحدو القوم بقوله :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا فاغفر فداء لك ما افتقينا	ولا تصدقنا ولا صلينا وثبت الأقدام إن لاقينا
---	--

قال رسول الله ﷺ : من هذا السائق قالوا : عامر قال : يرحمه الله قال رجل من القوم : وجبت يا رسول الله هلا متعتننا به فلما تصف القوم تناول عامر سيفه ليضرب به ساق يهودي فرجع ذباب سيفه فأصاب ركبته فمات منه . وأخرجه مسلم من وجه آخر وفيه فقال : من هذا القائل قالوا : عامر قال : غفر لك ربنا قال : وما خص رسول الله ﷺ قط أحداً به إلا استشهاده قال عمر : لولا متعتننا بعامر أي ما ستغفر لإنسان يخصه قط إلا استشهد .

ط - أخرج البخاري عن أبي عقيل أنه كان يخرج به جده عبد الله بن هشام إلى السوق ليشتري الطعام فيتقاه ابن الزبير وابن عمر فيقولان أشركنا فإن رسول الله ﷺ قد دعا لك بالبركة فيشركمه فربما أصاب الراحلة كما هي فيبعث بها إلى المنزل .

ي - أخرج الشیخان عن أبي بكر رضی الله عنه قال : طلبنا القوم فلم يدركنا منهم غير سرافه بن مالک على فرس له فقلت : يا رسول الله هذا الطلب قد لحقنا قال : لا تحزن إن الله معنا فلما كان بيننا وبينه قدر قيد رمحين أو ثلاثة دعا رسول الله ﷺ فقال : اللهم اكتفنا بما شئت فساخت به فرسه في الأرض إلى بطنها فقال : يا محمد قد علمت أن هذا عملك فادع الله أن ينجيني مما أنا فيه فوالله لأعمين على من ورأي من الطلب فدعا له رسول الله ﷺ فانطلق راجعاً .

ك - أخرج البخاري في الأدب والنسائي عن أم قيس أنها قالت توفي ابني فجزعت فقلت للذي يغسله ، لا تغسل ابني بالماء البارد فيقتله فانطلق عكاشة بن محسن إلى رسول الله ﷺ فأخبره بقولها فتبسم ثم قال طال عمرها فلا يعلم امرأة عمرت ما عمرت .

ل - أخرج البيهقي وأبو نعيم من طريق يعلى بن الأشدق قال : سمعت النابغة نابغة بنى جعدة يقول : أنشدت رسول الله ﷺ شعراً فأعجبه فقال : جدت لا يفْضُض الله فاك قال يعلى : فقد رأيته ولقد أتى عليه نيف ومائة سنة وما ذهب له سن .

م - أخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهم أن رسول الله ﷺ بعث بكتابه إلى كسرى فلما قرأه كسرى مزقه فدعا عليهم رسول الله ﷺ أن يمزقوا كل ممزق فمزقوا .

ن - وروى البيهقي بإسناد صحيح أنه ﷺ دعا على الحكم بن أبي العاص وكان يختلج بوجهه أي يحرك وجهه وحاجبيه وشفتيه استهزاءً بالنبي ﷺ فقال كن كذلك فلم يزل يختلج إلى أن مات .

س - وأخرج مسلم عن الأكوع رضي الله عنه أن رجلاً أكل عند النبي ﷺ بشماله فقال : كل بيمنيك قال : لا أستطيع قال : لا استطعت ، ما منعه إلا الكبر . قال فما رفعها إلى فيه بعد .

- 9 -

عندما تدرس حياة رسول الله ﷺ تجدك دائمًا أمام حادث تشعر فيه أنك أمام قدرة الله المباشرة التي لا دخل لعالم الأسباب فيها ، ولا تستطيع أبداً أن تجد تعليلًا لما تراه ، أو نقل إليك نقلًا صحيحاً ، إلا أن الله جلت حكمته يجري على يد هذا الرسول العظيم ﷺ ما تقوم به الحجة على الكافر ، ويزداد به المؤمن يقيناً ويخرج به الشاك عن شكه .

ولا يفوتنا هنا ونحن ننقل نوعاً آخر من أنواع معجزاته ﷺ أن نشير مرة ثانية إلى أن هذه النقول هي أدق نقول تاريخية في العالم . لأن معايير النقد التي وضعت لاستخراج صحيحة لا مثيل لها أبداً . مع ملاحظة أنها منقوله في النهاية عن الصحابة الذين كانوا يعتقدون أن الكذب على رسول الله ﷺ من أكبر الكبائر ، وقد رياهم رسول الله ﷺ على الصدق

، وما كان أحدهم يسكت على باطل رآه . فلو حدث أن صحابياً أخطأ في النقل فـإِنَّهُمْ جمِيعاً كانوا يردون عليه إذا بلغهم خطأه ، وإن فنحن إذ ننقل هذه النقول ننقلها باطمئنان الواثق إلى ما بين يديه ، ولئن كان في الأخبار المروية عن الرسول ﷺ ما هو ضعيف فالعلة تكمن في أجيال ما بعد الصحابة وعلماء النقد عند المسلمين ما تركوا أمثال هذه تمر . بعد هذا نبدأ بنقل مجموعة من الآثار لها صلة بالمعجزات وما نقله غيض من فيض ، وكثير مما نقلناه مروي بعدة روایات عن عدة صحابة ، ومخرج في عدة كتب ، ولكن اخترنا روایة من مجموع روایات الحادثة الواحدة وهاك هذه المختارات .

أ - روى البخاري ومسلم وغيرهما عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما في قصة حفر الخندق قال : رأيت بالنبي ﷺ خصاً شديداً ، وهو ضمير البطن من الجوع فأخذت جراباً فيه صاع من شعير ولنا بهيمة - وهي الصغيرة من أولاد المعز - وفي روایة عن جابر رضي الله عنه : أنا يوم الخندق تحفر فعرضت لنا كدية شديدة فجاءوا إلى النبي ﷺ فقالوا : هذه كدية عرضت في الخندق قال : أنا نازل ، ثم أقام وبطنه معصوب بحجر ولبشا ثلاثة أيام لا نذوق ذوقاً فأخذ النبي ﷺ فضرب فعادت كثيناً أهيل فقلت : يا رسول الله إذن لي إلى البيت فأذن قلت لامرأتي : رأيت بالنبي ﷺ شيئاً ما كان لي في ذلك صبر فعندك شيء ؟ قالت : عندي شعير وعناق فذبحت العناق وطبخت الشعير حتى جعلنا اللحم في البرمة ثم جئت النبي ﷺ والعجين قد اختمر والبرمة بين الأنافى - أي الأحجار التي توضع عليها القدر - كادت أن تتضج وقالت امرأته : لا تفصحني برسول الله ﷺ وبمن معه فجئت فساررته فقلت : يا رسول الله ذبحنا بهيمة لنا وطبخنا صاعاً من شعير فتعال أنت ونفر معك يعني دون العشرة وفي روایة قلت طعيم لنا صنعته فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان وكنت أريد أن يصرف وحده قال : كم هو ذكرت له فقال : كثير طيب قل لها لا تنزل البرمة ولا الخبز من التبور حتى آتي فصالح النبي ﷺ يا أهل الخندق إن جابراً صنع سوراً فحيهلاً بكم - أي هلموا مسرعين - والسور الطعام الذي يدعى إليه .

وفي روایة فقال : قوموا فقام المهاجرون والأنصار فلما دخل على امرأته قال : وحيك جاء النبي ﷺ بالأنصار والمهاجرين ومن معهم قالت : هل سألك قلت : هل سألك قلت : نعم . وفي روایة قال : لقيت من الحياة ما لا يعلمه إلا الله تعالى وقلت : جاء الخلق على صاع من شعير وعناق فدخلت على امرأته أقول : افتضحت جاءك رسول الله بالجند أجمعين فقلت : هل كان سألك كم طعام فقلت : نعم فقالت : الله ورسوله أعلم نحن أخبرناه بما عندنا وفي روایة أنها خاصمته في أول الأمر وقالت : بك بك فلما أعلمها أنه أعلم النبي ﷺ سكن ما عندها وقالت :

الله ورسوله أعلم لعلها بإمكان خرق العادة دل ذلك على وفور عقلها وكما فضلها رضي الله عنها .

قال النبي ﷺ : لا تنزل برمتكم ولا يخزن عجينكم حتى أجيء . وفي رواية قال جابر فجئت وجاء النبي ﷺ يقدم الناس فأخرجت المرأة له عجينًا وبصق فيه وبارك ثم عمد إلى برمتنا وبصق فيها وبارك أي دعا بالبركة ثم قال لجابر : ادع خابزة لتخبز مع زوجتك ثم قال لها : اقدحي من برمتكم ولا تنزلوها وهم - أي القوم الذين جاءوا معه - ألف وأفدهم عشرة عشرة يأكلون فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوه وانحرروا - أي مالوا عن الطعام - وإن برمتنا لتعط أي لتخلي وتغور كما هي وإن عجيننا ليخزن كما هو . وفي رواية قال ﷺ لأصحابه ادخلوا ولا تضاغطوا فجعل يكسر الخبز ويعرف حتى شبعوا أجمعين والتنور والقدر أملاً مما كانا فقال : كلي واهدي فلم نزل نأكل ونهدي يومنا أجمع . وفي رواية فأكلنا وأهدينا لغيرنا فلما خرج ﷺ ذهب ذلك .

ب - وأخرج مسلم عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة فأصابنا جهد حتى همنا أن ننحر بعض ظهرنا فأمر نبي الله ﷺ فجمعنا مزاودنا فبسطنا له نطعًا فاجتمع زاد القوم على النطع فطاولت لأحرزكم هو فحضرته كربضة لعنز ونحن أربع عشرة مائة فأكلنا حتى شبعنا جميعاً ثم حشونة جرباننا ثم قال رسول الله ﷺ هل من وضوء فجاء رجل بإداوة فيها نطفة ماء فأفرغها في قدح فتوضأنا كلنا ندفعه دفقة أربع عشرة مائة (نصبه صباً كثيراً واسعاً) .

ج - وأخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال لما كان يوم غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة فقالوا يا رسول الله لو أذنت لنا ننحر نواضحنا فأكلنا وادهنا ؟ فقال عمر : يا رسول الله إن فعلت قل الظهر ولكن ادعهم بفضل أزوادهم وادع الله لهم فيها بالبركة لعل الله أن يجعل في ذلك الخير فقال رسول الله ﷺ نعم فدعا بقطع فبسطه ثم دعا بفضل أزوادهم فجعل الرجل يأتي بكف ذرة ويجيء الآخر بكف تمر ويجيء الآخر بكسرة حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير فدعا رسول الله ﷺ بالبركة ثم قال لهم خذوا في أوعيتكم فأخذوا حتى ما تركوا في العسكر وعاء إلا ملؤوه فأكلوا حتى شبعوا وفضلت فضلة فقال رسول الله ﷺ : أشهد أن لا إله إلا الله وأنني رسول الله لا يلقى بهما عبد غير شاك فيحجب عن الجنة . وأخرجه بنحوه ابن سعد والحاكم وصححه البيهقي وأبو نعيم عن أبي عمرة الأنصارية رضي

الله عنه وأخرجه ابن راهويه وأبو يعلى وأبو نعيم وابن عساكر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، عنه بلفظ :

خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك فأصابنا جوع شديد فقلت : يا رسول الله خرج إلينا أروم وهم شباع ونحن جياع وأرادت الأنصار أن ينحرروا نواضحهم ، فنادى في الناس من كان عنده فل من زاد فليأتنا فحرزنا جميع ما جاءوا به فوجدوه سبعة وعشرين صاعاً ، فجلس رسول الله ﷺ إلى جنبه فدعا فيه بالبركة ثم قال : أيها الناس خذوا ولا تتبهوا فأخذوه في الجرب والغرائز حتى جعل الرجل يعقد قميصه فأخذ فيه حتى صدرها وإنه نحو ما كان يحرزون فقال النبي ﷺ : أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله لا يأتي بهما عبد بحق إلا وقاه الله حرّ النار .

د - وأخرج الشیخان عن أنس رضي الله عنه قال : قال أبو طلحة لأم سليم : لقد سمعت صوت رسول الله ﷺ ضعيفاً أعرف فيه الجوع فهل عندك من شيء فقالت : نعم فأخرجت أقراصاً من شعير ثم ذهبت إلى رسول الله ﷺ فقال : أرسلك أبو طلحة قلت : نعم قال : لمن معه قوموا فجئت أبا طلحة فأخبرته فقال أبو طلحة : يا أم سليم قد جاء رسول الله ﷺ والناس وليس عندنا ما نطعمهم قالت : الله ورسوله أعلم فدخل رسول الله ﷺ فقال : هلمي ما عندك يا أم سليم فأنت بذلك الخبز فأمرت به ففت وعصرت عليه عكة لها فأدمته ثم قال فيه رسول الله ﷺ ما شاء أن يقول ثم قال ائذن لعشرة فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا ثم قال : ائذن لعشرة فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم قال ائذن لعشرة حتى أكل القوم كلهم وشبعوا والقوم سبعون رجلاً أو ثمانون . وأخرجه مسلم من عدة طرق وفي بعضها ثم أكل رسول الله ﷺ وأهل البيت وأفضلوا ما بلغ جيرانهم ، وفي بعضها قال : بسم الله اللهم أعظم فيها البركة .

ه - وأخرج الدارمي وابن أبي شيبة والترمذی الحاکم والبیهقی وصححه وأبو نعيم عن سمرة بن جندب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أتى بقصبة فيها طعام فتعاقبوها إلى الظهر منذ غدوة يقود قوم ويقد آخرون ، فقال رجل لسمرة هل كانت تمد ؟ قال : ما كانت تمد إلا من هنَا وأشار إلى السماء .

و - وأخرج البخاري عن عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهمما قال : كنا مع النبي ﷺ ثلاثة ومائة فقال : هل مع أحد منكم طعام ؟ فإذا مع رجل صاع من طعام أو نحوه فعجن ثم جاء رجل بغم يسوقها فاشترى منه شاة ، فأمر بها فصنعت ، وأمر رسول الله ﷺ

بسود البطن أني يشوى ، قال : وابن الله ما من الثلاثين ومائة إلا وقد حزّ له رسول الله ﷺ من سواد بطنها إن كان شاهداً أعطاه وإن كان غائباً خبأ له ، قال : وجعل منها قصعتين فأكلنا منها أجمعون وشبينا وفضل من القصعتين فحملنا على البعير .

ز - وأخرج الطبراني في الأوسط بسند حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : دعاني النبي ﷺ فقال : انطلق إلى المنزل فقل : هلموا الطعام الذي عندكم فأعطوني صحيفة فيها عصيدة بتمرة فأتته بها فقال لي : ادع أهل المسجد فقلت في نفسي : الويل لي مما أرى من قلة الطعام والويل لي من المعصية فدعوتهم فاجتمعوا فوضع النبي ﷺ أصابعه فيها وغمز نواحيها وقال كلوا باسم الله فأكلوا حتى شبعوا وأكلت حتى شبعت ورفعتها فإذا هي كهيئة حين وضعتها إلا أن فيها آثار أصابع النبي ﷺ .

ح - وأخرج أبو يعلى والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي وأبو نعيم عن قيس بن النعمان رضي الله عنه قال لما انطلق رسول الله ﷺ وأبو بكر مستخفين مراً بعد يرعى غنمًا فاستقياه اللبن فقال : ما عندي شاء تحلب غير أن هنا عناقًا حملت أول الشتاء وقد أخرجت وما بقي لها لبن فقال ﷺ : ادع بها فدعا بها فاعتقها النبي ﷺ ومسح ضرعها ودعا وجاء أبو بكر بمحن حلب ﷺ وسقى أبا بكر ثم حلب فسقى الراعي ثم حلب فشرب هو ﷺ فقال الراعي : من أنت فوالله ما رأيت مثلك قط قال : محمد رسول الله قال : أنت الذي تزعزع قريش أنه صاب ؟ قال : إنهم ليقولون ذلك قال : فأشهد أنكنبي وإن ما جئت به حق وأنه لا يفعل ما فعلت إلانبي .

ط - وأخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : والله الذي لا إله إلا هو إن كنت لأعتمد على كبدي على الأرض من الجوع وإن كنت لأشد الحجر على بطني من الجوع ولقد قعدت يوماً على الطريق فمر بي أبو بكر فسألته عن آية من كتاب الله ما سأله إلا ليستبني فمر ولم يفعل ثم مر بي أبو القاسم ﷺ فتبسم حين رأني وعرف ما في نفسي وما في وجهي ثم قال : يا أبا هريرة قلت : لبيك يا رسول الله .

قال : الحق ومضى فاتبعته فدخل واستأذنت فأذن لي فدخلت فوجد ﷺ لبناً في قدر فقال : من أين هذا اللبن ؟ قالوا : أهداه لك فلان أو فلانة قال ﷺ : " أبا هريرة " .

قلت : لبيك يا رسول الله .

قال : الحق بأهل الصفة فادعهم وادعهم لي قال : وأهل الصفة أضياف الإسلام لا يأبون إلى أهل ولا مال ، إذا أنته صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئاً فإذا أنته هدية أرسل إليهم فأصاب منهم وأشركهم فيها فساعني ذلك وقلت : وما هذا اللبن في أهل الصفة كنت أرجو أن أصيّب من هذا اللبن شربة أنتقى بها وإنّي لرسول فإذا جاءوا أمرني ما أن أعطيهم ، ما عسى أن يبلغني من هذا اللبن ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله بد ، فأتيتهم فدعوتهم فأقبلوا وأخذوا مجالسهم من البيت فقال : أبا هريرة قلت : لبيك يا رسول الله قال خذ : فأعطيهم فأخذت القدر فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يروي ثم يرد على القدر أعطيه لآخر فيشرب حتى يروي ثم يرد على القدر حتى انتهيت إلى رسول الله وقد روي القوم كلهم فأخذ القدر فوضعه على يده ونظر إلى وتبسم وقال : يا أبا هريرة قلت : لبيك يا رسول الله قال : بقيت أنا وأنت قلت : صدقت يا رسول الله قال اقعد فاشرب فشربت فقال اشرب فشربت فما زال يقول اشرب فاشرب حتى قلت لا والذى بعثك بالحق ما أجد له مسلكاً فأعطيته القدر فحمد الله وسمى وشرب الفضة .

* * *

وبعد هذا ننتقل إلى خاتمة هذا الباب :

تعليق

إن المعجزة حجة على صحة الدعوة . غير أن بعض الناس يحاول أن يتهرب من حجيتها بذكر أشياء خارقة للعادة تظهر على يد غير الرسل ، يراها الناس ثم يعتبر ذلك دليلاً على أنه لم تقل عليه الحجة بالمعجزة ، والحقيقة أن هناك أشياء كثيرة يراها الناس خارقة للعادة وليس كذلك . والمعجزة تختلف عن كل هذه الأشياء وبهذا تقوم الحجة على الناس ولنضرب أمثلة :

نسمع كثيراً عن أخبار سحرة يأتون بأشياء عجيبة ، ونسمع كثيراً عن أشياء عجيبة تظهر على يد فقراء الهند ، والرسول ما أخبرنا عن خوارق تظهر على يد الدجال في آخر الزمان ويروي لنا الثقات أن هناك ناساً من صلحاء المسلمين تظهر على أيديهم خوارق للعادة . فمثلاً يذكر ابن تيمية أن الشيخ عبد القادر الجيلاني منقوله كراماته تواترًا .

فما مقام المعجزة التي تقوم بها الحجة بين هذه الأشياء ؟

كما ذكرنا في مقدمة هذه الفصول أن المعجزة تكون بخلق الله المباشر دون أن يكون للأسباب الكونية فيها أي تعلق . على خلاف السحر فإنه علم له قوانينه من أتفها ظهر على يده منه ، وعلى خلاف الأعاجيب التي تظهر نتيجة الرياضيات الروحية فإن ذلك أثر عن أسباب وقوانين كونية تخضع لها عوالم الروح .

ومن هنا كانت هذه الأشياء في الحقيقة نتائج عادية لمقدمات خاصة ، أما معجزة الرسول ﷺ فختلف عن هذا كله لأنها ليست وليدة علم أو قانون كوني وسبب ، أما الخارقة للعادة التي تظهر على يد رجل صالح ، فهي مثل المعجزة من حيث كونها خارجة عن الأسباب ، ومن حيث كونها بقدرة الله المباشرة .

ولكنها في العادة لا تكون إلا على يد إنسان متمسك بحبل رسول الله ﷺ فهي أثر من آثار اتباع الرسول . فهي كرامة لمن ظهرت على يده معجزة للرسول . لأنه لولا اتباعه للرسول ما أظهر على يديه مثل هذه الخوارق ، فالكرامة والمعجزة من مشكاة واحدة ، ولكن المعجزة تظهر مع دعوى الرسالة ، والكرامة تظهر تأييداً لصاحب الرسالة على يد إنسان متبع للرسول .

ولا نحكم على الخارقة أنها كرامة إلا بعد التأكد من استقامة صاحبها على أمر الله وسنة رسوله .

إن سنة الله جرت ألا يظهر خارقة للعادة بكل شروطها على يد إنسان كذاب في دعوى الرسالة عنه ، وهذا سر الفرق الحقيقي بين المعجزة وكل خارقة أخرى .

صاحب الكرامة لا يدعى الرسالة ، ولذا فإن ظهورها على يده لا يجعل في الأمر التباساً ، خاصة وهو متبع لرسول الله متمسك بشريعته .

وأما المسيح الدجال فليس يدعى الرسالة وتنظر معه الخوارق تأييداً لها حاشا ، ولكنه إنسان جعله الله عز وجل أعظم فتنة للبشر إذ يدعى الألوهية ويظهر معه شيء من آثار قدرة الله ليبيقي العقل البشري مسؤولاً ، إذ العقل يعرف الله بصفات الكمال وهذا الإنسان لا يمكن أن يكون هو الله . فما يظهره الله على يده فتنة يختبر بها العباد ، ولا يلتبس ما يظهر على يده

بالمعجزة التي تقوم بها الحجة ، لأنه لا يدعى الرسالة أصلًا ، ولو كان يدعى الرسالة ما ظهرت على يده مثل هذه الخوارق .

وإذن بعض ما يظهر للناس أنه خوارق للعادة ليس هو في الحقيقة من هذا النوع .

وبعضها لا يظهر مع دعوى الرسالة فلا يلتبس بالمعجزة .

وتبقى المعجزة شاهدة على صحة دعوى الرسالة ، والكرامة إذا خرجت من أهلها دليل على صدق التابع والمتبوع ، فلا التباس بين المعجزة وغيرها والحجّة قائمة على البشر بها .

ولا عذر لأحد لا يتبع صاحبها .

وأخيرًا وقد انتهى هذا الباب .

نقول :

إن إنساناً يرى معجزة المعجزات بين يديه (القرآن) ثم لا يؤمن بأن محمداً رسول الله ، فهو أعمى القلب والعقل .

وإن إنساناً تؤكد له أصدق الوثائق التاريخية كثرة معجزات محمد عليه الصلاة والسلام ثم لا يؤمن به ، مظلوم الوجدان والضمير .

وإن إنساناً مثل هذا ليقولن في يوم :

{ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعْيِرِ * فَأَعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعْيِرِ } الملك 10 ، 11 .

* * *

وإلى الباب الثالث لنرى برهاناً على أن محمداً رسول الله .

الباب الثالث

النبوءات

النبواء

إن المستقبل مجهول للإنسان ، وكل ما يستطيع أن يتصوره الإنسان بالنسبة للمستقبل هو من باب التوقعات التي تعتمد على المقدمات المؤدية للنتائج ، وحتى في هذه فمهما أتى الإنسان من صدق الحدس ، وقوة الإدراك ، فإن كلامه يبقى من باب التوقعات التي يمكن أن تقع ، أما في حالة عدم وجود المقدمات التي تؤدي إلى النتائج ، فالمسألة تبقى من باب التخرصات أو التبوهات ، ووقوعها في هذه الحالة من قبيل المصادرات ، وعدم وقوعها هو الأصل ، لقد تنبأ اليهودي الشيعي الخبيث "ماركس" أن الثورة الشيعية ستكون في ألمانيا وإنكلترا ، وكان يستبعد أن تقوم في روسيا فكانت في روسيا لملابسات خاصة ولم تكن في ألمانيا أو إنكلترا .

فإذا ما وجدنا ظاهرة عند إنسان ، هذه الظاهرة هي أنه تحدث عن المستقبل حديثاً ما خرمه المستقبل ، ولا في جزء من أجزائه ، فنحن إذن أمام ظاهرة تحتاج إلى تحليل وتعليق ، وليس كلامنا هنا إلا في حالة التصديق الكامل من الواقع للنبوة الثابتة ، فليس كلامنا إذن في التوقعات ، وليس كلامنا في التكهنات الكهنية التي يكذب الواقع عشرات منها ، وليس كلامنا في النبوءات المدعّاة التي يُدعى أنها قيلت قبل وقوع مضمونها ، والحقيقة أنها قيلت بعده ، وليس كلامنا في أمر بُيَّنَ فتنبأ بوقوعه بعض منْ بَيَّنَه ، وليس كلامنا في إنسان تحققت بعض نبوءاته وكذب الواقع بعضها ، وليس كلامنا في نبوءة كانت عن رؤيا منام أو ما يشبه رؤيا منام ، وليس كلامنا في نبوءة صدرت عن تابع النبي فكانت كرامة له باتباعه لهذا النبي .

وإنما كلامنا في إخبار عن المستقبل المجهول ، عن رجل يقول عن نفسه أنه رسول ، ويتحقق هذا المستقبل تحققاً تماماً لا يخرم منه شيء ، فذلك إذن نبوة لا شك فيها واتصال بالله عالم الغيب والشهادة لا شك فيه .

هكذا يذكرون عن التوراة وهذا ذكر القرآن يقول الله في القرآن : {عَالَمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنْ أَرْتَضَى مِنْ رَسُولِي} الجن : 26 ، 27 .

ويذكرون عن التوراة : (فإن أحببت وقلت في قلبك كيف أستطيع أن أميز الكلام الذي لم يتكلم به الرب بهذه تكون لك آية إن ما قاله لك النبي باسم الرب ولم يحدث بهذا الرب لم

يُكَلِّمُ بَهُ بَلْ ذَلِكَ النَّبِيُّ صُورَةً فِي تَعْظِيمِ نَفْسِهِ وَلَذِكَ لَا تَخْشَهُ) . الْبَابُ الثَّامِنُ عَشْرُ مِنْ كِتَابِ الْإِسْتِثْنَاءِ التَّنْتِيَّةِ 22 .

وَهَذِهِ نَبُوَّاتٍ تَحْدُثُ بِهَا السَّيِّدُ الرَّسُولُ مُحَمَّدٌ ﷺ تَجْعَلُكَ عَلَى مِثْلِ الشَّمْسِ وَضُوحاً ، أَنْ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَنَّهُ لَا يُنْطِقُ عَنِ الْهُوَى وَالَّذِي نُعْرَضُهُ هُنَّا فِي هَذَا الْفَصْلِ قَلِيلٌ مِنْ كَثِيرٍ نَجْتَرِي بِهِ حَتَّى يَأْخُذَ الْإِنْسَانُ صُورَةً وَاضْحَى الْمَعَالَمُ عَنْ هَذَا الْمَوْضُوعِ وَمِنْ أَرَادَ التَّوْسُّعِ فِيهِ بِالْكِتَابِ الَّتِي اسْتَقْصَتْ هَذِهِ الْأَبْحَاثُ ، وَسْتَرَى فِي الْأَمْمَةِ الَّتِي سِنْذِكُرُهَا نَبُوَّاتٍ عَنْ حَوَادِثِ مُعِينَةٍ لِلْأَشْخَاصِ مُعِينَينَ وَنَبُوَّاتٍ وَقَعَتْ قَدِيمًاً وَآخَرَى نَرَاهَا الْآنُ . وَنَبُوَّاتٍ عَنْ حَوَادِثِ خَاصَّةٍ أَوْ عَامَّةٍ تَقْعُدُ لِلْأُمَّةِ إِلْسَامِيَّةِ أَوْ فِيهَا قَرِيبًاً مِنْ حَيَاةِ الرَّسُولِ ﷺ أَوْ بَعِيدًاً وَهَذِهِ هِيَ الْأَمْمَةُ فَتَأْمَلُهَا :

1 - روى البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : صعد النبي ﷺ أحداً ومعه أبو بكر وعمر وعثمان فرجف بهم فقال : اثبت أحد فإنما عليكنبي وصديق وشهidan .

هَذِهِ نَبُوَّةٌ تَذَكَّرُ أَنَّ عُمَرَ وَعُثْمَانَ يَسْتَشْهِدَانِ . وَقَدْ قُتِلَ عُمَرُ أَبُو لَؤْلَؤَةَ ، وَقُتِلَ عُثْمَانُ فِي الْفَتْنَةِ الْمُعْرُوفَةِ .

2 - وفي الصحيحين واللفظ لمسلم عن أبي موسى الأشعري : أنه توضأ في بيته ثم خرج فقال : لألم من رسول الله ﷺ ولأكون معه يومي هذا ، فجاء المسجد فسأل عن النبي ﷺ ، فقالوا : خروج وجه هنا ، فخرجت على إثره أسأل عنه حتى دخل بئر (أرئيس) ، فجلست عند الباب وبابها من جريد حتى قضى رسول الله ﷺ حاجته وتوضأ ، فقمت إليه فإذا هو قد جلس على بئر (أرئيس) وتوسط قفها (حافة البئر) وكشف عن ساقيه ودلاهما في البئر فسلمت عليه ثم انصرفت فجلست عند الباب فقلت لأكون بباب رسول الله ﷺ اليوم فجاء أبو بكر فدفع الباب فقلت من هذا ؟ فقال : أبو بكر .

فَقَلَّتْ عَلَى رَسَالَكَ ثُمَّ ذَهَبَتْ فَقَلَّتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا أَبُو بَكَرَ يَسْتَأْذِنُ .

فَقَالَ : ائْذُنْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ فَأَقْبَلَتْ حَتَّى قَلَّتْ لِأَبِي بَكَرَ :

ادخل ورسول الله ﷺ يبشرك بالجنة ، فدخل أبو بكر فجلس عن يمين رسول الله ﷺ معه في القف ، ودلی رجلیه في البئر كما صنع النبي ﷺ وكشف عن ساقیه ، ثم رجعت فجلست وقد تركت أخي يتوضأ ويلحقني فقلت : عن يرد الله بفلان خيراً - يزيد أخاه - يأت به فإذا إنسان يحرك الباب فقلت من هذا ؟

قال : عمر بن الخطاب .

فقلت : على رسلاک .

ثم جئت إلى رسول الله ﷺ فسلمت عليه وقلت :

هذا عمر يستأذن فقال : ائذن له وبشره بالجنة ، فجئت عمر فقلت : أذن ويبشرك رسول الله ﷺ بالجنة ، فدخل فجلس مع رسول الله ﷺ في القف عن يساره ، ودلی رجلیه في البئر ، ثم رجعت فجلست فقلت : إن يرد الله بفلان خيراً - يعني أخاه - يأت به فجاء إنسان فحرك الباب فقلت من هذا ، فقال : عثمان بن عفان فقلت : على رسلاک ، وجئت النبي ﷺ فأخبرته فقال :

ائذن له وبشره بالجنة مع بلوى تصيبيه ، فجئت فقلت : ادخل ويبشرك رسول الله ﷺ بالجنة مع بلوى تصيبك . وفي رواية أخرى فقال : اللهم صبراً فدخل فوجد القف قد ملئ فجلس وجاههم من الشق الآخر .

فهذه نبوءة في أن عثمان ستصيبه بلوى وقد كانت هذه البلوى هي ما حدث له في الفتنة التي أدت إلى قتلها عليه الرضوان ، ومما يرشح هذا المعنى ما رواه ابن عبد البر في الاستيعاب عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ .

" ادعوا لي بعض أصحابي فقلت أبو بكر ؟ قال : لا . فقلت : عمر ؟ قال : لا . فقلت : ابن عمك علي ؟ قال : لا . فقلت : عثمان ؟ قال : نعم . فلما جاء قال لي بيده ، فتحيت فجعل رسول الله ﷺ يساره ولون عثمان يتغير فلما كان يوم الدار وحصر قيل له : ألا تقاتل ؟ قال : لا . إن رسول الله عهد إلي عهداً وأنا صابر نفسي عليه .

3 - روى الشیخان عن أنس بن مالك : أن رسول الله ﷺ كان يدخل على أم حرام بنت ملحان - وهي من خالاته من الرضاع - فتقطعه وكانت أم حرام تحت عبادة بن الصامت ، فدخل عليها رسول الله ﷺ فأطعنته ، فنام رسول الله ﷺ ثم استيقظ وهو يضحك قالت : ما يضحكك يا رسول الله ؟

قال : ناس من أمتي عرضوا عليّ ، غزاة في سبيل الله ، يركبون ثج هذا البحر ملوكاً على الأسرة .

قالت : فقلت : يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم ، فدعا لها ثم وضع رأسه فنام ثم استيقظ وهو يضحك .

قالت : ما يضحكك يا رسول الله ؟

قال : ناس من أمتي عرضوا علي غزاة في سبيل الله ، كما قال في المرة الأولى .

قالت : يا رسول الله : ادع الله أن يجعلني منهم .

قال : أنت من الأولين .

وقد غزا معاوية بن أبي سفيان قبرص في سنة ثمان وعشرين هجرية ومعه من كبار الصحابة أبو ذر وأبو الدرداء وعبادة بن الصامت ، وكانت مع عبادة زوجة أم حرام بنت ملحان .

4 - أخرج الشیخان أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال يوماً : أليكم يحفظ ما قال رسول الله ﷺ في الفتنة التي تمواج كموج البحر فقال حذيفة رضي الله عنه : ليس عليك منها بأس يا أمير المؤمنين إن بينك وبينها باباً مغلقاً . قال : أفتح أم يكسر . قال : يكسر قال : إذن لا يغلق أبداً فقيل لحذيفة : من الباب ؟ قال : هو عمر قيل له : أكان عمر يعلمك ؟ قال نعم كما يعلم دون غد الليلة إني حدثته حديثاً ليس بالأغالط .

وأخرج الطبراني عن أبي ذر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : لا تصيبكم فتة ما دام هذا فيكم يعني عمر . ويروى معناه عن عثمان بن مظعون وخالد بن الوليد . ولكننا نعلم أن الفتة بين المسلمين وقعت بعد عمر . أما الرد فلم تكن الفتة بين المسلمين ، وإنما كفر بالإسلام حاربه المسلمون وهم يد واحدة .

5 - وأخرج الشیخان عن سلمة بن الأکوع رضي الله عنه قال : كان علي تخلف عن النبي ﷺ في خیر وکان رمداً فقال :

أنا أتخلف عن رسول الله ﷺ فخرج فلحق به فلما كان مساء الليلة التي فتح الله في صباحها قال رسول الله ﷺ : لأعطيين الراية غداً رجلاً يحبه الله ورسوله يفتح الله عليه ، فإذا نحن بعلی وما نرجوه فقالوا : هذا على فأعطاه الراية ففتح الله عليه .

ووردت القصة أيضاً من حديث ابن عمر وابن عباس وسعد وأبي هريرة وأبي سعيد الخدري ، وعمران بن حصين وجابر وأبي ليلي ، أخرجها كلها أبو نعيم .

6 - أخرج البخاري عن أبي بكرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ للحسن : إن ابني هذا سيد ولعل الله يصلح به بين فتتین عظيمتين من المسلمين . فهذه نبوءة عن انقسام وفرقة وصلح بواسطة الحسن ، وقد كان الانقسام وجرت الدماء ثم أصلح الله الحال عندما تنازل الحسن لمعاوية عن الخلافة ، وحقن دماء المسلمين .

7 - وأخرج الشیخان عن سعد بن أبي وقاص قول رسول الله له وقد مرض بمكة حتى أشرف على الموت : "لعلك تخلف - أي تعيش - حتى ينتفع بك أقوام ويستضر بك آخرون " فشفاه الله وفتح الله العراق على يديه وهدى به أنساً أسلموا على يديه وغنموا معه . وأضر الله به ناساً من الكفار جادهم وقتل منهم وسبى .

8 - وأخرج الشیخان عن أبي سعيد ومسلم عن أم سلمة وأبي قتادة أن رسول الله ﷺ قال لumar : نقتلك الفتة الباغية قال الحافظ السيوطي : هذا الحديث متواتر رواه من الصحابة بضعة عشر .

ففي الحديث ثلات نبوءات أن هناك فئة باغية وأن عماراً سيقتل قتلاً ، وأن الفئة الباغية قاتلته وقد كان كل هذا إذ قاتلته فئة معاوية ولم يكن بجانبها الحق ، وقد دخل كثير من الصحابة المعركة بجانب علي بعد مقتل عمار لكون الحديث حجة له في كونه على الحق .

9 - أخرج البخاري عن عدي بن حاتم قال : بينما أنا عند رسول الله ﷺ أتاه رجل فشكاه إليه الفاقة وأتاه آخر فشكاه إليه قطع السبيل فقال : يا عدي بن حاتم إن طالت بك حياة لترى العين ترحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله - قلت فيما بيني وبين نفسي فأين ذمار طيء الذين سعرووا البلاد - ولئن طالت بك حياة لفتحن كنوز كسرى قلت : كسرى بن هرمز .

قال : كسرى بن هرمز ، ولئن طالت بك الحياة لترى الرجل يخرج ملء كفيه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه فلا يجد قال عدي :

قد رأيت العين ترحل من الحيرة حتى تطوف بالبيت لا تخاف إلا الله و كنت في مين افتحت كنوز كسرى ، ولئن طالت بك حياة سترون الثالثة .

قال البيهقي : قد وقعت الثالثة في زمن عمر بن عبد العزيز ثم أخرج عن عمر بن أسد عن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب قال : إنماولي عمر بن عبد العزيز سنتين ونصفاً ، والله ما مات عمر بن عبد العزيز حتى جعل الرجل يأتيانا بالمال العظيم فيقول :

اجعلوا هذا حيث ترون في القراء مما يربح حتى يرجع بما له نذكر من يضعه فيهم فلا نجد فيرجع بما له ، قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس .

10 - أخرج الشیخان عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : بينما نحن عند النبي ﷺ وهو يقسم قسماً إذ أتى ذو الخوبصرة فقال يا رسول الله : اعدل قال : ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل ، خبت وخسرت إن لم أكن أعدل . قال عمر : يا رسول الله أئذن لي فيه أضرب عنقه ، فقال رسول الله ﷺ : فإن له أصحاباً يحرق أحدهم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية آيتهم رجل أسود إحدى عضديه مثل ثدي المرأة أو مثل البضعة تدر در يخرجون على خير فرقة من الناس . قال أبو سعيد فأشهد أنني سمعت هذا من رسول الله ﷺ ، وأشهد أن علي بن

أبي طالب قاتلهم وأمر بذلك الرجل فالتمس فوجد فأتي به حتى نظرت إليه على نعت رسول الله ﷺ الذي نعته .

وأخرج مسلم عن عبيدة قال لما فرغ علي من أصحاب النهر قال : ابتغوا فيهم إن كانوا القوم الذين ذكر رسول الله ﷺ فيهم رجلاً مخدج اليد ، فابتغيناه ، فوجدناه فدعوناه إليه فجاء حتى قام عليه فقال : الله أكبر ثلثاً . والله لو لا أن تبطروا لحدثكم بما قضى الله على لسان رسول الله ﷺ لمن قتل هؤلاء ، قلت : أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ قال أي ورب الكعبة . ثلاثة مرات .

11 - أخرج مسلم عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها أنها قالت للحجاج : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " إن في ثقيف كذاباً ومبيراً . فاما الكذاب فقد رأيناها وأما المبير فلا أخالك إلا إياه " وقد روى ابن سعد والبيهقي عن عمر ما يشير إلى الحجاج ، وكذلك روى الإمام أحمد والبيهقي عن الحسن ما يشير إليه ، وأخرج البيهقي عن علي كذلك ما يشير إليه .

12 - وأخرج الشیخان عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده ، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده ، والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله .

وأخرج البخاري عن أبي هريرة .

وأخرج الحارث بن أبي أسمة عن أبي محيريز قال : قال رسول الله ﷺ : فارس نطحة أو نطحتان ، ثم لا فارس بعد هذا أبداً ، والروم ذوات القرون كلما هلك قرن خلفه قرن .

ومعروف تاريخياً أنه بسقوط دولة الأكاسرة انتهى أمرهم تماماً ولم يستردوا ملوكهم بتاتاً وبقي من يومها الأمر للمسلمين ، وبسقوط دولة القياصرة في القسطنطينية انتهت دولتهم تماماً ولم يستردوها مرة ثانية وبقي من يومها الأمر للمسلمين ، مع ملاحظة أن الدولة الرومانية طال أمرها حتى سقطت بيد المسلمين نهائياً ، على عكس الدولة الفارسية وهذا ما أشار إليه الحديث الثاني .

13 - وأخرج أبو داود والترمذى عن سفيينة قال : قال رسول الله ﷺ : الخلافة بعدي في أمي ثلاثون سنة ، ثم تصير ملكاً عضوضاً بعد ذلك وهكذا وقع خلافة أبي بكر سنتان وثلاثة أشهر وعشرون يوماً ، وخلافة عمر عشر سنين وستة أشهر وأربعة أيام ، وخلافة عثمان إحدى عشر سنة وإحدى عشر شهراً وثمانية عشر يوماً وخلافة علي أربع سنين وعشرة أشهر أو تسعه ، وخلافة الحسن ستة أشهر فكانت ثلاثين .

والحديث الذى رواه البزار بسند حسن صحيح يتحدث بشكل واضح عن مراحل الحكم في الأمة الإسلامية ، كما وقعت وثبتت هنا نص الحديث كما ورد في كتاب " المواقفات " و " الإمامة " .

" إن أول دينكم نبوة ورحمة وتكون فيكم ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله جل جلاله ، ثم يكون ملكاً عاصياً فيكون فيكم ما شاء الله أن يكون ، ثم يرفعه الله جل جلاله ثم يكون ملكاً جبارياً فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله جل جلاله ثم تكون خلافة على منهاج النبوة تعمل في الناس بسنة النبي ، ويلقي الإسلام بجرانه في الأرض يرضى عنها ساكن السماء وساكن الأرض لا تدع السماء من قطر إلا صبته مدراراً ، ولا تدع الأرض من نباتها وبركاتها شيئاً إلا أخرجه " .

و واضح أن الدورين الأولين والثاني انتهىا بزوال الخلافة الراشدة ، وأن الدور الثالث استمر حتى زوال الدولة العثمانية ، وأن الدور الرابع هو الذي نحن فيه وأن الدور الخامس قادم بإذن الله .

14 - وأخرج مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " إنكم ستفتحون أرضاً يذكر فيها القيراط فاستوصوا بأهلها خيراً فإن لهم ذمة ورحماً " والمقصود بالرحم أنهم أخوال إبراهيم بن السيد الرسول ﷺ : إذ المقصود في ذلك أرض مصر والآثار في الأخبار عن فتح مصر كثيرة .

15 - وأخرج البيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : " وعدنا رسول الله ﷺ غزو الهند " . وقد غزوناها .

16 - روى الستة إلا النسائي عن عليه الصلاة والسلام :

" لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً نعالهم الشعور ، ولا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً صغار الأعين حمر الوجوه ذلف الأنوف كأن وجوههم المطرقة " وينطبق الوصف تماماً على التتار ، أما أصحاب نعال الشعر فقد ذكر البيهقي : أن قوماً من الخوارج بناحية الري وكانت نعالهم الشعر وقوتلوا .

17 - أخرج أبو يعلى عن معاوية بن خديج رضي الله عنه قال : كنت عند معاوية فأتاها كتاب عامله أنه أوقع بالترك وهزمهم فغضب معاوية من ذلك ثم كتب له لا تقاتلهم حتى يأتيك أمرؤ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : " لظهورن الترك على العرب حتى تلحقها بمنابت الشیح والقیصوم " وهم نبتان يوجدان في بلاد العرب وقد حدث أن السلطان خلال أربع مائة عام كان للترك على العرب إلا مناطق الصحراء .

18 - روى البخاري " لا تقوم الساعة حتى يقتل فتنان عظيمتان دعواهما واحدة وحتى يبعث دجالون قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله " .

وفي حديث ابن الزبير .

" بين يدي الساعة ثلاثون كذاباً " .

وأخرج أحمد عن حذيفة بسند جيد " سيكون في أمتي كذابون ودجالون سبعة وعشرون أربعة نسوة إني خاتم النبيين لانبي بعدي " .

وقد ظهر كثير من هؤلاء الكاذبين حتى الآن ولعل أبرزهم في عصرنا غلام أحمد القادياني الذي ادعى أنهنبي نسخت به شريعة محمد ﷺ ومن هذه السلسلة الخبيثة مسلمة ، والأسود العنسي وسجاح .

19 - روا البخاري والحاكم في المستدرك عن أبي هريرة " لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل بيصرى " . روى ابن شيبة وأحمد والحاكم صححه عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : ليت شعري متى تخرج نار من جبل وراق

تضيء لها أعنق البحت ببصري كضوء النهار " ويبدو أن الحديث هنا عن بركان عظيم يخرج من أرض الحجاز من مكان عينه الرسول .

وقد وقع هذا .

قال النووي : تواتر العلم بخروج هذه النار عن جميع أهل الشام قال السمهودي : وكانت في زمانه وكان ابتداء الزلزلة بالمدينة مستهل جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستمائة لكنها كانت خفيفة فلم يدركها بعضهم مع تكررها ، واشتدت في يوم الثلاثاء وظهرت ظهوراً عظيماً ثم في ليلة الأربعاء ثالث الشهر في الثالث الأخير من الليل حدث زلزلة عظيمة جداً أشفع الناس منها واستمرت تزلزل بقية اليوم ثم إلى يوم الجمعة ولها دوي أعظم من الرعد فتموج الأرض وتتحرك الجدران حتى وقع في يوم واحد دون ليلته ثمانية عشرة حركة .

وكانت هذه كلها مقدمات لظهور هذه النار وقد وصف القسطلاني في كتاب أفرده لهذه الحادثة هذه النار :

" إن ضوئها استولى على ما بطن وما ظهر حتى كأن الحرم والمدينة قد أشرقت بهما الشمس وتتأثر من لهيبها النيران ، وصار نور الشمس على الأرض يعتريه صفرة ، ولو أنها هي يعتريه حمرة والقمر كأنه كسف " .

وقال القسطلاني كذلك : " أنها لم تزل مارة على سبيلها وهي تسحق ما والاها وتذيب ما لاقتها من الشجر الأخضر والحصى ، وإن طرفها الشرقي آخذ بين الجبال فحالت دونها ثم وقفت ، وإن طرفها الشامي وهو الذي يلي الحرم اتصل بجبل يقابلها يقال له وعيرة على قرب من شرقي جبل أحد " .

وقد ذكر هذه النار السمهودي في تاريخ المدينة ، وذكرها القاضي سنان والقاشاني والعماد بن كثير والمطري وغيرهم ...

20 - وفي الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم " وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البناء " .

21 - روى مسلم عن أبي هريرة قال : " قال رسول الله ﷺ صنفان من أمتي من أهل النار لم أرهما بعد . قوم معهم سياط كأدناب البقر يضربون الناس ، ونساء كاسيات عاريات ممیلات مائلات رؤوسهن كأسنة البخت " .

وروى الإمام أحمد والحاكم عن ابن عمر :

" يكون في آخر هذه الأمة رجال يركبون على المياثر حتى يأتوا أبواب المساجد . نساؤهم كاسيات عاريات على رؤوسهن كأسنة البخت العجاف العنوهن فإنهن ملعونات ، لو كانت وراعكم أمة من الأمم لخدمتم نساء الأمم قبلكم " .

ولعل أدق وصف لما عليه وضع النساء في زماننا من تبرج وعري تشن ومية وفتنة ، هو ما وصفهن به الحديث الشريف ، وهذا لا شك معجزة واضحة . إذ ما كان أحد يستطيع أن يتصور أن تصبح المرأة المسلمة في مثل هذه الحالة التي عليها الآن ، حتى إنك لو كنت في بداية هذا القرن الرابع عشر الهجري لما استطعت أن تتصور بشكل من الأشكال هذا الوضع الحاضر لامرأة أصلها مسلمة .

22 - أخرج أبو داود والبيهقي عن ثوبان رضي الله عنه قال : " قال رسول الله ﷺ يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذ ؟

قال : بل أنتم كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذف في قلوبكم الوهن . قيل وما الوهن يا رسول الله : قال حب الدنيا وكراهيته الموت " .

والمرأب لوضع المسلمين منذ ظهور ما يسمى بالمسألة الشرقية حتى الآن يجد هذه الظاهرة ظاهرة طمع الأمم في العالم الإسلامي والكيد له والتخطيط لامتصاص خيراته واضحة جداً مع ما وصف به رسول الله المسلمين .

23 - وهذه جملة أحاديث تراها في عصرنا هذا واقعاً يتحرك أمامك :

" إن بين يدي الساعة فشو التجارة حتى تعين المرأة زوجها على التجارة - وقطع الأرحام وفسو القلم وظهور الشهادة بالزور وكتمان شهادة الحق " .

" يأتي على الناس زمان لا يتبع فيه العليم ولا يستحيا فيه من الحليم ، ولا يوقر فيه الكبير ولا يرحم فيه الصغير يقتل بعضهم بعضاً على الدنيا ، قلوبهم قلوب الأعاجم وألسنتهم ألسنة العرب لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً يمسى الصالح فيهم متسخيفاً أولئك شرار خلق الله لا ينظر الله إليهم يوم القيمة " .

" لا تقوم الساعة حتى يجعل كتاب الله عاراً ويكون الإسلام غريباً ، وحتى تبدو الشحناء بين الناس وحتى يقبض العلم وبهرم الزمان وينقص عمر البشر وينقص السنون والثمرات ويؤتمن التهماء ، ويتهם الأمباء ، ويصدق الكاذب ويذبح الصادق ، ويكثر الهرج - وهو القتل - وحتى تبني العرف أي القصور فتطاول وحتى تحزن ذوات الأولاد أي لعقوق أولادهن ، وتقرح العواقر ويظهر البغي والحسد والشح وبهلك الناس ويكثر الكذب ويقل الصدق وحتى تختلف الأمور بين الناس ويتبخ الهوى ، ويقضي بالظلم ويكثر المطر ويقل الثمر ويغيب العلم (أي علم حقيقة الإسلام) غيضاً ، ويغيب الجهل فيضاً . ويكون الولد غيظاً والشقاء قيظاً ، ويقوم الخطباء بالكذب فيجعلون حقي لشرار أمتي ، فمن صدقهم بذلك ورضي به لم يرج رائحة الجنة "

* * *

وأخيراً نقول :

إن هذا الباب ألفت فيه كتب كثيرة ونقل فيها الكثير والكثير ، وهو قليل بالنسبة لما ذكره الرسول ﷺ للصحابية عن المستقبل ، فقد روى البخاري ومسلم عن حذيفة قال " قام فينا رسول الله ﷺ مقاماً مما ترك شيئاً يكون من مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدثه ، حفظه من حفظه ونسيه من نسيه ، وقد علمه أصحابي هؤلاء وإن ليكون منه شيء قد نسيته فأراه فأنكر كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه ثم إذا رأه عرفه " .

وروى مسلم عن عمرو بن أخطب الأنصاري قال : صلى لنا رسول الله ﷺ الفجر وصعد المنبر فخطبنا حتى حضرت الظهر ، فنزل فصلى ثم صعد المنبر فخطبنا حتى

حضرت العصر ، فنزل فصلي ثم صعد المنبر فخطبنا حتى غربت الشمس ، فأخبرنا بما هو
كائن إلى يوم القيمة فأعلمنا أحفظنا " .

إنها النبوة ولا شيء غير ذلك {فَمَنْ شَاءَ فَلِيؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلِيَكُفِرْ} .. {مَنْ أَهْنَدَى فَإِنَّمَا
يَهْنَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضْلِلُ عَلَيْهِمْ} الإسراء 15 .

النبوة التي دلتنا بما أخبرتنا عنه من غيوب أن لصحابها صلة كاملة بالله ، ولو لا ذلك
ما ظهر في كلام صاحبها آثار علم الله المحيط في الماضي والحاضر ، وكأنما المستقبل أمامه
مكشوف يكشف الله له .

وهذه آثار أخرى عن رسول الله ﷺ لا تحتاج إلى شرح لوضوح انتظامها على وضع
أمنتا في هذا العصر ، فكأنما قيلت فيه عنه وهي مسطورة في كتب الإخبار عنه عليه الصلاة
والسلام من مئات السنين نقلناها من كتاب مطابقة الاختراعات العصرية للأحاديث النبوية .

1 - " لا تقوم الساعة حتى تروا أموراً عظاماً لم تكونوا ترونها ولا تحدثون بها أنفسكم
1" .

2 - " ولن يكون ذلك (أي من قضية الدجال) حتى تروا أموراً يتقادم شأنها في
أنفسكم وتساؤلون بينكم هل كان نبيكم ذكر لكم منها ذكراً " .²

3 - " لا تقوم الساعة حتى يخرج الناس من المدينة إلى الشام يبتغون فيها الصحة " .³

والشام تشمل فلسطين ولبنان والأردن وسوريا ، وانظر حال مصايف هذه البلاد تجد
كيف أنها مملوئة بالحجازيين وغيرهم ممن يأتون للراحة فقط مما لم يكن موجوداً من قبل .

¹ أخرجه نعيم بن حماد وأحمد والبزار والطبراني .

² أخرجه أحمد .

³ أخرجه الديلمي .

4 - " لا تقوم الساعة حتى تمطر مطراً لا تكن منها بيوت المدر ولا تكن منها إلا بيوت الشعر "¹ . ولعل صور الطائرات في الحرب العالمية الثانية وهي تمطر المدن بوابل القنابل فترزع كل بناء . تذكرنا بجزء مما ينطبق الحديث عليه . إذ تأثير هذه القنابل على بيوت المدر أكثر من تأثيرها على بيوت الشعر .

5 - " إن الله تعالى قال في الحديث القدسي " :

" أبى العلم في آخر الزمان حتى يعلمه الرجل المرأة والعبد والحر والصغير والكبير فإذا فعلت ذلك بهم أخذتهم بحقهم "² .

ومن رأى تسهيل العلم في زماننا وكثرة أدواته ومعاهده من مدارس وإذاعة وجرائد ومجلات و ... رأى مصداق الحديث .

6 - ومن حديث علي وله حكم المرفوع .

" ويحا للطالقان فإن الله فيه كنوزاً ليست من ذهب ولا فضة "³ والطالقان من قزوين وتلك ناحية وجود البترول في إيران .

7 - " تخرج معادن مختلفة معدن منها قريب من الحجاز يأتيه من أشرار الناس "⁴ .

ونحن نعلم أن معدن البلاد القرية من الحجاز في عصرنا إنما استخرجه أول ما خرج الأجانب بوسائلهم الكثيرة وفي الحديث الآخر " ستكون معادن يحضرّها شرّار الناس " ولاحظ كلمة يحضرّها المشددة الضاد ⁵ .

¹ أخرجه أحمد بسند صحيح .

² أخرج الدارمي وأبو نعيم .

³ أخرجه أبو الغنائم الكوفي في كتاب الفتن .

⁴ أخرجه الحكم .

⁵ أخرجه أحمد .

8 - "لِيَأْتِينَ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَبْقَى مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَكَلَ الرِّبَا فَمَنْ لَمْ يَأْكُلْهُ أَصَابَهُ مِنْ غَبَارٍ" .¹

ومن رأى في زماننا قيام الحياة الاقتصادية كلها على المصارف والبنوك رأى الواقع الذي أخبر عنه الحديث .

9 - "مَا أَنْتُمْ إِذَا مَرَجُ الدِّينَ وَسَفَكُ الدَّمَاءَ وَظَهَرَتِ الزِّينَةُ وَشَرْفُ الْبَنِيَانِ" .²

وفي زماننا حدث هذا كله : اختلط الدين وكثير القتل وظهرت الزينة وكثير البنيان وشرف وتطاول كما في حديث آخر "وَهُنَّ يَتَطَالُونَ النَّاسَ فِي الْبَنِيَانِ" .³

10 - "لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ يَكُونَ الْقُرْآنُ عَارًّا وَيَتَقَارَبُ الزَّمَانُ" . وقد أصبح القرآن الآن عند بعض الناس في بعض الأقطار رجعياً وأصحابه يعيرون بالرجعية وتقرب الزمان حتى قطعت المسافة الطويلة بالزمن القصير .

11 - "كَيْفَ بِكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ إِذَا طَغَى نَساؤُكُمْ وَفَسَقَ شَبَابُكُمْ قَالُوا :

يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ هَذَا لَكَائِنٌ قَالَ : نَعَمْ⁵ . وقد حدث هذا كما يشاهد واقعاً .

12 - "إِذَا كَثُرَ قَرَاؤُكُمْ وَقَلَتْ عِلْمَاؤُكُمْ وَكَثُرَتْ أُمْرَاؤُكُمْ وَقَلَتْ أَمْنَاؤُكُمْ . وَالْتَّمَسَ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ وَتَفَقَّهَ لِغَيْرِ اللَّهِ ..."⁶ .

وقد كثُر القراء وقل العلماء وكثُر الأمراء وأصبحت الدنيا هدفاً ولم تعد معاهد العلم في الغالب تخرج طلاباً لله .

¹ أخرجه أبو دلو وابن ماجه والحاكم .

² أخرجه الطبراني .

³ من حديث رواه البخاري .

⁴ أخرجه الطبراني .

⁵ أخرجه أبو يعلى والطبراني .

⁶ أخرجه أبو نعيم في الحلية .

13 - "إن بين يدي الساعة سنتين خداعه يصدق فيها الكاذب ويكتنف فيها الصادق ويؤتمن فيها الخائن ويخون فيها الأمين وينطق فيها الروبيضة قيل : وما الروبيضة قال : الرجل التافه ينطق في أمر العامة " .

"والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى يظهر الفحش والبخل ويخون الأمين ويؤتمن الخائن وتهلك الوعول وتظهر التحوت قالوا : يا رسول الله وما الوعول وما التحوت ؟ قال : الوعول وجوه الناس وأشرافهم ، والتحوت الذين كانوا تحت أقدام الناس لا يعلم بهم " ¹ .

"وكان زعيم القوم أرذلهم " ² .

ومن رأى واقع السنين التي نعيشها علم مصدق هذه الآثار إذ تسلط على الناس في أكثر من مكان أكثر الناس وضاعة وانحطاطاً وتقاهة ، وضاع أصحاب الحلوم والعقول .

14 - "سيكون من بعدي سلاطين ، الفتن على أبوابهم كبارك الإبل لا يعطون أحداً إلا أخذوا من دينه مثله" ³ . ولعل كلمة "كمبارك الإبل" أبلغ وصف للسيارات .

15 - "يوشك أن يؤمر عليهم الرويجل فيجتمع إليه قوم محلقة أقفيتهم بيض قمحهم فإذا أمرهم بشيء حضروا" ⁴ .

فانظر هذا الوصف الدقيق لنوع الحلاقة والقمصان التي يلبسها بعض الموظفين ممن لم يكن نوعيتها معروفة قديماً .

16 - "والمشي بالأأسواق والأفخاذ بادية" ⁵ . وهذا ينطبق على ما يسمى في زماننا بالفرق الرياضية والكشفية ويرى خاصة أثناء الاستعراضات .

¹ أخرجه الطبراني .

² أخرجه الترمذى .

³ أخرجه الطبراني والحاكم .

⁴ أخرجه الطبراني .

⁵ أخرجه الديلمى .

17 - "قص اللحية"¹ . وقد أصبح الآن هو السائد واللحية مستغربة .

18 - "لتسلكن سفن من قبلكم حذو النعل بالنعل ، ولتأخذن بمثل أخذهم إن شبراً فشبر وإن ذراً عاً فذراع ، وإن باعاً فباع ، حتى لو دخلوا حجر ضب دخلتم فيه"² . ومن رأى كثرة التقليد في عصرنا للغربيين في أي مسلك سلکوه شاهد يقيناً وقوع الحديث .

19 - وما رواه معاذ في أشراط الساعة :

"إن الدم يسفك بغير حقه ، والمال يعطى على الكذب"³ . وترى المال يعطى على الكذب في صورة إعطائه رجال المباحث السياسية على تقارير ، قسم كبير منها كاذب ، ولكتاب روایات مختلفة ، وإعداد برامج إذاعية مختلفة كاذبة وأشياء كثيرة من هذا القبيل .

20 - "ويح لهذه الأمة ماذا يلقى فيها من أطاع الله؟ كيف يكذبونه ويضربنه إنه أطاع الله من أجل أنهم ما أطاعوا الله - قال عمر بن الخطاب : يا رسول الله الناس يومئذ على الإسلام؟

قال : نعم يا عمر

قال عمر : يا رسول الله الناس يومئذ على الإسلام؟

قال : نعم يا عمر .

قال عمر : يا رسول الله ولم يبغضون من أمرهم بطاعة الله؟

قال ترك القوم الطريق وتزين الرجل منهم بزيينة المرأة لزوجها وتبرج النساء زيه زي الملوك الجبارية يسمون كالنساء فإذا تكلم أولياء الله وأمرؤهم بطاعة الله قيل له : أنت

¹ أخرجه ابن عساكر في تاريخه .

² أخرجه الطبراني .

³ أخرجه نعيم بن حماد .

قرین الشيطان ورأس الضلاله تكذب بالكتب تحرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، تأولوا كتاب الله على غير تأويله واستذلوا أولياء الله^١ .

ومن عرف وضع الأمة الإسلامية اليوم رأى كيف أن الدعاء إلى الله وشرعيته يضطهدون في كل مكان من قبل الحكام الظالمين .

21 - " ستكون فتنة يفارق الرجل فيها أخاه وأباه تطير الفتنة في قلوب الرجال منهم إلى يوم القيمة حتى يغدر الرجل فيها بصلاته كما تعير الزانية بزناها"^٢ .

وما رؤيت هذه الفتنة في العالم الإسلامي إلا هذا العصر الذي فيه يلام الرجل على صلاته ويوبخ ، ويعير مع كثرة دعوات السوء المنتنة ودخول أصحابها فيها . واستمرارهم عليها مع بطلانها .

22 - " يأتي على الناس زمان يخير الرجل فيه بين العجز والفجور فمن أدرك ذلك زمان فليختر العجز على الفجور"^٣ .

23 - " سيخرج قوم في آخر الزمان هم دجالون كذابون ببدع من الحديث لم تسمعوا به أنتم ولا آباءكم فإياكم وإياهم لا يفتونكم"^٤ .

24 - " إذا كنت في قوم عشرين رجلاً أو أقل أو أكثر فتصفحت وجوههم فلم تر فيهم رجلاً يهاب الله عز وجل فاعلم أن الأمر قد حضر"^٥ .

25 - " لا تقوم الساعة حتى يفيض المال فيضاً ، ويغি�ض الكرام غيضاً ، ويجرئ الصغير على الكبير وللئيم على الكريم"^٦ .

^١ أخرجه ابن وضاح في البدع .

^٢ أخرجه نعيم بن حماد والطبراني .

^٣ أخرجه أحمد وأبو يعلى والحاكم وقال : صحيح على شرط الشيخين .

^٤ أخرجه ابن وضاح في البدع .

^٥ أخرجه أحمد والطبراني والبيهقي .

^٦ أخرجه الطبراني .

26 - "سيأتي على الناس زمان تمت فيه الصلوات ، ويشرف فيه البيان ويكثر فيه الحلف والتلاعن ويفشو فيه الرشا والزنا ، وتتابع الآخرة بالدنيا . فإذا رأيت ذلك فالنجا والنجا قيل : وكيف النجا قال : كن حلساً من أحلاس بيتك وكف لسانك ويدك " .¹

27 - " ليأتين على الناس زمان يؤمن بالله ولا يشركون به شيئاً ويصومون رمضان ويصلون الخمس وقد سلباوا دينهم لأنهم رأوا الحق فتركوه " .²

28 - " إني لأعلم أهل دينين من أمّة محمد ﷺ في النار قوم يقولون : إن كنا أولنا ضلالاً ما بال خمس صلوات في اليوم والليلة إنما هما صلاتان : العصر والفجر " .³

والذي يعرف شيئاً عن طائفة الإسماعيليين يدرك صدق الحديث فإنهم يؤمنون أن عليهم صلاتين فقط صباحاً ومساءً .

29 - " سيظهر شرار أمتي على خيارهم حتى يستخفى فيهم المؤمن كما يستخفى فيكم المنافقون اليوم " .⁴

30 - " ليكونن في أمتي أقوام يستحلون الحر والحرير والخمر والمعازف " .⁵ وهذا واقع الآن بشكل واضح .

31 - " إنه سيخرج في أمتي أقوام تتجارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبها لا يبقى منها عرف ولا مفصل إلا دخله " .⁶

32 - " لا يخرج الدجال حتى يذهل الناس عن ذكره وحتى ترك الأئمة ذكره على المنابر " .⁷

¹ أخرجه ابن أبي الدنيا .

² أخرجه ابن وضاح .

³ أخرجه الحاكم .

⁴ أخرجه البيلمي .

⁵ أخرجه البخاري .

⁶ أخرجه أبو داود .

⁷ أخرجه الإمام أحمد .

33 - "لتقضن عرى الإسلام عروة عروة . فكلما انتقضت عروة تشبت الناس بالتي ثبّتها وأولئن نقضّا الحكم وآخرهن الصلاة"¹ .

34 - " يأتي على الناس زمان يصبح الرجل بصيراً ويمسي ما يبصر شعراً² . أي يصل الحق .

35 - " إن الناس دخلوا في دين الله أفواجاً وسيخرجون منه أفواجاً"³ .

36 - " إن بين يدي الساعة فتناً كقطع الليل المظلم فتن كقطع الدخان يموت فيه قلب الرجل كما يموت بدهنه ، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً ، يبيع أقوام أخلاقهم ودينهم بعرض من الدنيا"⁴ .

37 - " ليت شعري كيف أمتى بعدي حتى تتبخر رجالهم وتمرح نساؤهم ، ليت شعري كيف هم حين يصيرون صفين صفاً ناصبي نحورهم في سبيل الله . وصفاً عملاً لغير الله"⁵ .

38 - " إذا ظهر فيكم السكرتان : سكرة الجهل وسكرة حب العيش وجاهدوا في غير سبيل الله يومئذ بكتاب الله سراً وعلانية كالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار"⁶ .

39 - " ذلك أيام الهرج حين لا يأمن الرجل جليسه"⁷ .

40 - " قال أبيض رجل من أصحاب رسول الله ﷺ : والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى لا تبقى ملة إلا ولها منكم نصيب . قلت يبادرون يخرجون من الإسلام ؟

¹ أخرجه الإمام أحمد والطبراني .

² أخرجه نعيم بن حماد .

³ أخرجه أحمد .

⁴ أخرج أحمد و الطبراني والحاكم .

⁵ أخرجه ابن عساكر .

⁶ أخرجه نعيم بن حماد .

⁷ أخرجه الحاكم .

قال : يصلون بصلاتكم ويجلسون مجالسكم وهم معكم في سوادكم ، وكل ملة منهم نصيب . قلت : (أي الوليد راوي الحديث) إِي وَاللَّهِ لَكُلِّ مَلْةٍ مِّنْهُمْ نَصِيبٌ إِلَّا إِسْلَامٌ فَلَا
نصيب له منهم إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ¹ .

41 - " من اقتراب الساعة أن ترفع الأشرار وتوضع الأخيار ويفتح القول ويخزن العمل " .

42 - " من اقتراب الساعة تشبه الرجال بالنساء والنساء بالرجال " .²

وأنت إذا ما تأملت هذه الآثار فإن لا تجد فيها حديثاً إلا وتراه أمامك واقعاً على الأرض الآن ، مما لم يكن موجوداً من قبل . حتى أن رأي العين لا يصف بأبلغ من هذا ، وإنما كان هذا ، لأنه أثر علم الله المحيط الذي أطلع على بعضه محمداً p فقال ما قال ووقع كل ما قال . وفي ذلك الشهادة الكاملة على أن محمداً p رسول الله حقاً وصدقأً لا يمترى في ذلك إلا متكبر أو حاسد أو شيطان يرى الحق ولا يتبعه .

إن النبوات التي اختزناها كلها نبوءات قد وقعت وهناك نبوات أخرى لم يحن وقتها بعد ، ومن العجيب أن بعضها مذكور في الكتب الدينية السابقة على رسولنا عليه الصلاة والسلام ، وهذا يؤكد أن مصدر هذه النبوات السابقة الوحي وأنها من القسم الذي لم يحرف في الكتب الأولى ، وكل تعليم آخر ظاهر الفساد ، فلم تكن مثل هذه القضايا منتشرة ولا معروفة في الجزيرة العربية .

والرسول عليه الصلاة والسلام أمي لا يحسن القراءة ، ولم تكن هذه الكتب أصلاً مترجمة إلى العربية في ذلك الزمان ، عدا عن كون النسخ محدودة جداً لا توجد إلا عند رؤساء الدين اليهودي بالنسبة لنسخ التوراة . غير أن بعض هذه النبوءات موجودة في كتب العهد الجديد التي لا يؤمن بها اليهود أصلاً . وليس موجودة عندهم ولم تكن هناك أي صلة

¹ أخرجه عبдан في كتاب الصحابة .

² أخرجه أبو نعيم في الحلية .

بين النصارى ورسول الله عدا عن كون الفكر النصراني لم يكن له أي صدى في مكة والمدينة . إلا ما ذكر أن ورقة بن نوفل كان له مثل هذا الاتجاه .

إلا أن اتصال الرسول بورقة كان محدوداً ومحظوظاً ما جرى فيه ، وورقة آمن برسالة محمد من اللحظة الأولى ، فليس هناك من تعليق لوجود هذه النبوات المشتركة إلا وحده المصدر وهو الوحي .

أبرز هذه النبوات المشتركة ثلاثة :

1 - الإخبار عن ياجوج ومأجوj .

2 - الإخبار عن المسيح الدجال .

3 - الإخبار عن نزول عيسى ابن مريم في آخر الزمان وأنه يقتل الدجال .

فقد أخبر الرسول عليه الصلاة والسلام عن مجيء ناس ذوي عدد هائل سموا باسم ياجوج ومأجوj إلى منطقة في فلسطين قبيل قيام الساعة ، وأخبر عليه الصلاة والسلام بأحاديث متواترة عن ظهور إنسان سماه المسيح الدجال يدعى الأولوية وهو أكبر ما فتن به البشر ، وأن المسيح عليه السلام يقتله بعد نزوله .

وقد ذكر في كتاب المشاهدات الباب 19 وفي الباب الثاني من الرسالة الثانية إلى أهل تسالونيقي وهما كتابان نصرانيان .

" إن عيسى - عليه السلام - سيقتل الدجال وعسكره بعد نزوله " .

وقد نقل عن حزقيال عليه السلام في كتب العهد القديم أنه أخبر عن خروج ياجوج ومأجوj في الزمن المستقبل وإهلاكهم حين وصولهم إلى جبال إسرائيل ثم عقب على ذلك في الكتاب المنسوب إليه في الباب التاسع والثلاثين الفقرة الثامنة .

" ها هو جاء وصار يقول رب الإله هذا هو اليوم الذي قلت عنه " إشارة إلى يوم القيمة .

إن هذا كله يؤكد لنا رسالة محمد عن الله و يجعلنا على اليقين الذي لا شك معه ، أن ما قاله عليه الصلاة والسلام هو الحق الذي لا يمترى فيه .

ملاحظة : قصة يأجوج ومأجوج واردة كذلك في القرآن ، ولكن التفصيات التي ذكرناها عن الرسول p آنفاً توضح وتتبين الآيات القرآنية .

* * *

الباب الرابع

الثمرات

الثمرات

إن دعوة الرسل عليه الصلاة والسلام تختلف عن أي دعوة أخرى من دعوات البشر المنبته عن هداية الله ، ولذلك كان شيئاً عادياً تماماً أن تكون آثارها وثمارها تختلف عن غيرها ، فإذا كان من ثمار الدعوات الأخرى الإغرار في الشهوات والملذات الحيوانية ، فإن من ثمار دعوة الرسل ضبط النفس إلا عن المتع المعقوله .

وإذا كان من ثمار الدعوات الأخرى عدم التقيد بالحق والخير والمعروف ، فإنه شيء عادي أن يكون من ثمرات دعوة الرسل الالتزام بهذا ، وإذا كانت دعوات غير الرسل تعتبر الجمال مقدماً على الأخلاق ، فشيء عادي أن يكون من ثمرات دعوة الرسل اعتبار الجمال في الأخلاق الكريمة العالية .

إن الفطرة تحس بالخير والشر ، وإن فطرة الإنسان تستشعر الثمرة الطيبة للدعوة الطيبة ، كما يستشعر نعم الإنسان حلاوة الثمرة الطيبة ، وإن فطرة الإنسان تستشعر الثمرة الخبيثة للدعوة الخبيثة ، كما يستشعر نعم الإنسان مرارة الثمرة الرديئة .

ولذلك كان عند الفطرة نوع بصيرة تستطيع بها أن تميز ثمرات الرسول الحق من ثمرات مدعى النبوة الكاذب ، وأن ترى في آثار كلٍ ما يدل على صدق الأول وادعاء الثاني .

وقد أشارت الكتب السماوية إلى هذا المعنى :

فقال الله تعالى في القرآن :

{وَالْبَلْدُ الْطَّيِّبُ يَخْرُجُ تَبَائِهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبَثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكَدًا} الأعراف : 58 .

ويذكرون في إنجيل يوحنا الباب السابع الفقرة الخامسة عشر على لسان المسيح قوله :

" احذروا من الأنبياء الكَذَّابَةَ الذين يأتونكم بثيابِ الحمَّانِ ولكنهم من داخِلِ ذئابِ خاطفةٌ من ثمارِهم تعرفونه ، هل يجتَّون من الشوكِ عَنْهَا أو من الحسَكِ تَبَاهُنَا " .

يقول الله تعالى :

{مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشْيَاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحْمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَتَّهُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرَضُوا نَّاسٍ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثْرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التُّورَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطَأً فَازَرَهُ فَأَسْتَعْظِلُ فَأَسْتَوْى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الْزُّرَّاعُ لِيَغِيظُ بِهِمُ الْكُفَّارَ} . الفتح : 29

ويذكرون في الباب الثالث عشر من إنجيل متى على لسان المسيح عليه السلام :

" قدم لهم مثلاً آخر قائلاً : يشبه ملوك السموات حبة خردل أخذها إنسان وزرعها في حقله وهي أصغر جميع البذور ، ولكن متى نمت فهي أكبر البقول وتصير شجرة حتى أن طيور السماء تأتي وتؤوي في أغصانها " .

يعرف النبي من ثماره ، لذلك كان لا بدً من كتابة هذا الباب لتبيان أن ثمار محمد عليه الصلاة والسلام لا يمكن أن تكون إلا ثمارنبي .

وسنستعرض في هذا الفصل عشر ثمرات من ثمراته عليه الصلاة والسلام . في كل منها شهادة كاملة على أنها منبقة من شجرة النبوة الطيبة العطرة المتميزة .

أولاً - التوحيد :

في الهند اليوم حوالي 200 مليون بقرة ، هذه الأبقار يعتبرها الهنود مقدسة ، وبالتالي فإنه لا يستفيدون منها بتاتاً ، ويحرمون ذبحها ، وأكثر من هذا فإن الشعب الهندي كله مسرخ لخدمتها ، وتعيش على حسابه ، فكم يحتاج هذا العدد من الأبقار إلى مراع وطعام ؟

وكم تعطل طاقات على حساب هذا النوع من الشرك ؟

وزيادة على ذلك فإن لهذا البقر سلطاناً على كل شيء . تقف البقرة فتوقف وراءها السيارات ولا يزعجها أحد حتى تمضي هي فتمضي غيرها . وتبول في أي مكان ، وتخشي في أي مكان . وتعتدى على مال أي إنسان ، ولا أحد يجرؤ على أن يعترض سبيلها بشيء .

وفي الهند هذه السنين مجاعة تهدد عشرات الملايين ، ترى لو استفاد الشعب الهندي من البقر
ألا تحل شيء من أرمته ؟

إن هذه الصورة من صور الشرك جعلت البشر مسخراً لخدمة البقر .

وفي مصر اليوم أهرامات ضخمة جداً ، وأحجارها ضخمة جداً ، نقلت من أماكن
بعيدة جداً ، نقلهاآلاف من أبناء الشعب المصري إلى منطقة الأهرامات ، وتعجبت في بناء هذه
الأهرامات آلاف الأدمغة وآلاف الأيدي من أجل ماذا ؟

من أجل أن يصنعوا قبراً لفرعون الذي كانوا يعبدونه كإله !! فكم أنفق من جهد ، وكم
أنفق من أموال ؟ بسبب هذه الصورة من صور الشرك ، بصرف النظر عما تمثله هذه
الأهرامات من تقدم مدنى .

شعب من البشر مسخر كله لخدمة فرد من البشر .

وفي العالم اليوم حوالي ثلاثة عشر مليوناً من الطائفة الإسماعيلية ، التي تبعد رجلاً
كإله وتقدم له كل عام خمس أموالها ، تجعله في كفة ميزان ، وتجعل الذهب في كفة أخرى
حتى يتساوا ، وتقدمه له كهدية سنوية ، ثلاثة عشر مليوناً من البشر يستغلهم فرد باسم
الألوهية . ليجهدوا ويقدموا ، أما هو فيأخذ ويكنز وينفق بلا حساب على أشياء كثيرة وقد
يكون المرشح لهذا المنصب داعراً فاسقاً ماجناً ، ينال هذا كله ويصرفه في كل سبيل داعر ،
ذلك أثر من آثار الشرك بالله ، أن يستغل فرد من البشر شعباً كاملاً من البشر باسم ألوهية
الإنسان وعبودية الإنسان للإنسان .

وفي العالم اليوم شعوب وثنية ، وقد يدعاً كانت الوثنية منتشرة في العالم كله لم تخل
منها أمة من الأمم :

الرومان واليونان ، والهنود والصين واليابان والعرب .. والشعوب الإفريقية من مصر
إلى غيرها .. فماذا تعني هذه الوثنية ؟ قبل أن نقول ماذا تعني نضرب أمثلة عن نماذج منها :

أ - عند العرب :

1 - روى البخاري عن أبي رجاء العطاردي قال : كنا نعبد الحجر ، فإذا وجدنا حجراً هو خير منه ألقيناه وأخذنا الآخر ، فإذا لم نجد حجراً جمعنا حثوة من تراب ثم جئنا بالشاة فحلبنا عليه ثم طفنا به .

2 - وقال الكلبي : كان الرجل إذا سافر فنزل منزلًا أخذ أربعة أحجار فنظر إلى أحسنها فاتخذه ربًا ، وجعل ثلاثةً أثافيًّا لقدره وإذا ارتحل تركه .

3 - وقال صاعد في كتاب (طبقات الأمم) : كانت حمير تعبد الشمس ، وكنانة القمر ، وتريم الدبران ، ولخم وجذام المشترى ، وطيء سهيلًا ، وقبس الشعري العبور ، وأسد عطارد .

4 - وقال الكلبي : كان لأهل كل دار من مكة صنم في دارهم يعبدونه ، فإذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنع في منزله أن يتمسح به ، وإذا قدم من سفر كان أول ما يصنع إذا دخل منزله أن يتمسح به أيضًا .

5 - وكان لكل قبيلة من العرب صنم ولكل ناحية أو مدينة صنم خاص وكان في فناء الكعبة وحدها ثلاث مائة وستون صنماً للعبادة .

6 - قال سعيد بن جبير في شرح الأزلام : "الأزلام حصى بيض كانوا إذا أرادوا غدوًا أو روحًا كتبوا في قدحين في أحدهما : أمرني ربى وفي الآخر نهاي ربى ، ثم يضربون بهما فأيهما خرج عملوا به " .

ب - عند الهند :

يقول أبو الحسن الندوبي في كتابه : "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" عن حال الوثنية في الهند :

"بلغت الوثنية أوجها في القرن السادس ، فقد كان عد الآلهة في ويد ثلاثة وثلاثين ، وقد أصبحت في هذا القرن 330 مليوناً ، وقد أصبح كل شيء رائعاً وكل شيء جذباً ، وكل

مرفق من مراقب الحياة إلهاً يعبد ، وهكذا جاوزت الأصنام والتماثيل والآلهة الإلهات الحصر وأربت على العد ، فمنها أشخاص تاريخية وأبطال تمثل فيهم الله - زعموا - في عهود وحوادث معروفة ومنها جبل تجلى عليها بعض آلهتهم ، ومنها معادن كالذهب والفضة تجلى فيها إله ، ومنها نهر الكنج الذي خرج من رأس " مهاديو " الإله ، ومنها آلات الحرب وآلات الكتابة وآلات التناول وحيوانات أعظمها البقرة ، والأجرام الفلكية وغير ذلك ، وأصبحت الديانة نسجاً من خرافات وأساطير وأنشيد وعقائد وعبادات ما أنزل الله بها من سلطان ، ولم يستغها العقل السليم في زمن من الأزمان " .

ج - والفرس :

كانوا يعبدون ملوكهم ونيرانهم ، واليابانيون يعتبرون ملکهم ابن الشمس المعبودة ، واليونانيون يعبدون إله المطر فلاناً وإله الحب فلانة وإله الحرب فلاناً .. وهكذا ..

* * *

فماذا تعني هذه الوثنيات كلها ؟

تعني أن الإنسان اعتبر نفسه أقل من الحجر ، وأقل من الشمس وأقل من الحيوانات ، وأقل من مظاهر الطبيعة كلها ، بل جعلها في مقام السيد ، وجعل نفسه في مقام العبد الذليل ، وجعلها تتحكم فيه بواسطة وبغير واسطة .

وقال النصارى : إن المسيح ابن الله وأعطوه حكم الأب - تعالى الله عما يقول
الظالمون علوأ كبيراً -

فأصبح المسيح عندهم إلهاً ، كما اعتبر الهنود بودا من قبل إلهاً ، وهؤلاء وهؤلاء صنعوا التماثيل لهذا وهذا وعبدوها ، فأصبحت كلاً من الديانتين ديانة وثنية شركية من ناحيتين : من ناحية عبادة الأصنام ومن ناحية عبادة الإنسان ، ونتج عن هذا عند النصارى أن اعتبروا خليفة المسيح الممثل في البابا له حكم المسيح من حيث طاعة أوامر ونواهيه ، فأصبح التحليل والتحريم والتضليل والتخريف الذي عليه طابع الديانة المقدسة الصادر من قبل البابا هو كل شيء . فكانت مأساة وفظائع من حَجْرٍ على العقل ، وقتل للأنفس ، وسلب للحريات ، ومقاومة لكل حق وقد ذكر التاريخ من ذلك الكثير .

* * *

وأَلْحَدْ نَاسٌ قَدِيمًا وَأَلْحَدْ نَاسٌ فِي هَذَا الْعَصْرِ ، فَمَاذَا يَعْنِي الْإِلْهَادُ ؟

يعني الإلهاد أن الإنسان عبد الكون كله بدلًا من أن يعبد أجزاء منه ، وخلع على الكون كله صفات الألوهية ، فالكون يخلق ويرزق ، ويعطى وينفع ، ويحيي ويميت ، ويتصرف ويعمل ورتب ويدفع ويكون ، واعتبروا أنفسهم أعظم ما في هذا الكون فعبدوا أنفسهم ؛ اعتبروا أن الإنسان مصدر التشريع ، ومصدر الحاكمة ، ومصدر الأمر والنهي . وهو حر أن يفعل وأن يترك وأن يعمل كل شيء فغلبتهم شهواتهم ، وظلموا بعضهم ، وأصبح كل واحد من هؤلاء يعتبر نفسه إلهًا ، وأخيراً اعتبرت الفلسفة الشيوعية الشعب كله إلهًا يفعل ما يشاء ، لا راد لحكمه ، وتمثل الشعب بأفراد تصرفوا كالآلهة ، فحدث على يدهم من المأساة ما لم يحدث على يد غيرهم ، حتى إنه قتل في زمان ستالين وحده تسعه عشر مليوناً من أبناء الشعوب المسماة بالاتحاد السوفيتي .

فلم يكن الإلهاد إذن إلا صورة من صور الشرك ، انتقل به الإنسان من الجزئية إلى الكلية ، ومن الشرك الواضح إلى الشرك المقنع ، فأعطى الكون كله صفات الألوهية بعدما كان يعطي أجزاء منه ، وعبد نفسه وتعبد لها عندما كان يعبد غيره .

* * *

ومحمد وحده بوحي من الله ، من يوم بعثته إلى قيام الساعة ، هو الذي وضع الإنسان في مطلع الصحيح فعلمه :

1 - أن الكون كله ، قمره وشمسه ونجومه وأرضه وحيواناته من بقر ونمرا وأسد وعجل ، ونباتاته كلها ، وأحجاره ومعادنه وكل شيء فيه خلق للإنسان ! فالإنسان سيده والإنسان مكرم ومفضل عليه .

{هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً} البقرة : 29 .

{أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} لقمان : 20 .

ومن حق الإنسان أن يستفيد من الأرض وخيراتها ، ومن القمر وما فيه ومن المريخ
وغيره ، كل الكون مسخر للإنسان والإنسان أكرم ما فيه :

{ولَقَدْ كَرَمْنَا بَنِي آدَمَ} الإسراء : 70 .

2 - وأن الله خالق الكون والإنسان ، هو وحده الإله المتصف بكل كمال ، المنزه عن
كل نقص ، المستحق وحده للعبادة . والإنسان عبده وحده .

{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونَ} الذاريات : 56 .

فالناس كلهم عباد الله . ورسولهم ونبيهم ، وملكهم وخدمتهم ، وكبيرهم وصغيرهم ،
ولا يجوز أن يعطوا عبوديتهم لأحد سواه .

{ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَأَعْبُدُونَ } الأنبياء :

. 25

{مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيهِ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالثُّبُوتَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُوئُنَا عِبَادًا لِّي مِنْ
دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُوئُنَا رَبَّانِينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ} آل عمران : 79 .

{فَلَمَّا أَنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مَّتَّكِمٌ يُوَحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلَيَعْمَلْ
عَمَلاً صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} الكهف : 110 .

لَا إِلَهَ إِلَّا الله

لا حجر ولا قمر ولا بشر ولا كون ولا مجلساً نيارياً يحل ويحرم كما يشاء ، ولا
شعب ولا حاكم ولا محكوم ولا البشرية كلها .

كل الكون للإنسان ، والإنسان الله . مقام الإنسان السيادة على المخلوقات ، لأنها
مسخرة له ، والعبودية الله وحده : بنقلة واحدة نقل محمد م البشر من أحط الدرجات إلى أعلى

الدرجات ، وبذلك وجد المسلم ، وهذه أول ثمرة من ثمار محمد ﷺ وهي أول ثمرة من ثمار كلنبي ولكن الناس انحرفوا :

مكتوب في نسخ التوراة الموجودة الآن :

(لو دعانبي أو من يدعى الإلهام في المنام إلى عبادة غير الله يقتل هذا الداعي وإن كان ذا معجزات عظيمة) الباب الثالث عشر من سفر الاستثناء ، وفي الباب السابع عشر منه :

(لو ثبت على أحد عبادة غير الله يرجم رجلاً كان أو امرأة)

ومكتوب في نسخ الإنجيل الحالي :

(وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته) " إنجيل يوحنا الباب السابع عشر - 3 ."

وفي الباب الثاني عشر من إنجيل مرقص - 28 - (فجاء واحد من الكتبة وسمعهم يتحاورون فلما رأى أنه أجابهم حسناً سأله : أية وصية هي أول الكل فأجابه يسوع : إن أول كل الوصايا : اسمع يا إسرائيل رب إلها رب واحد) .

* * *

وبهذه النظرة إلى الكون والإنسان ، فتح المسلم أفقاً الكون بالتجربة والمشاهدة ، يدفعه في ذلك عقيدة أن الكون كله للإنسان ، وعليه أن يستفيد منه ، ولئن وصلت الحضارة الغربية اليوم إلى القمة في تسخير الكون ، فذلك بسبب أنها أخذت هذا المعنى عن الحضارة الإسلامية ، ولو لا ذلك لما كان في أوروبا حضارة ولا علم وأين يكون ومحاكم التفتيش وسيف الكنيسة مسلطة على رأس كل من يفكر ، يقول بريفولت في كتابه " بناء الإنسانية " :

" ما من ناحية من نواحي تقدم أوروبا إلا وللحضارة الإسلامية فيها فضل كبير وآثار حاسمة لها تأثير كبير ."

ويقول في موضع آخر :

لم تكن العلوم الطبيعية التي يرجع فيها الفضل إلى العرب هي التي أعادت أوروبا إلى الحياة ، ولكن الحضارة الإسلامية قد أثرت في حياة أوروبا تأثيرات كبيرة ومتعددة منذ أرسلت أشعتها الأولى إلى أوروبا " .

ولكن للأسف فإن أوروبا أخذت جزءاً فقط من هدي محمد ﷺ في هذا الموضوع ولو أخذته كله لأفلحت واهتدت .

إن هذه الثمرة من ثمار محمد ﷺ التي لا يصلح الإنسان إلا بها ، ولا يأخذ محله الصحيح إلا إذا اعتقدها ، لا يمكن أن تكون على هذا الكمال والتمام في دعوة محمد عليه الصلاة والسلام لو لا أنه رسول الله حقاً . أراد الله به أن ترجع الإنسانية عن الانحراف إلى الاستقامة .

* * *

ثانياً - التبشير باليوم الآخر وطلب النجاة فيه وجعله محور سلوك الإنسان :

مكتوب في كتاب أيوب في الباب الثاني والأربعين منه فقرة (17) : (ومات أيوب شيئاً معمراً وبيعث مرة أخرى مع الذين يبعثهم رب) .

ومكتوب في إنجيل مرقس الباب الثالث عشر فقرة (32) : (وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ، ولا الملائكة الذين في السماء ولا (الأبن) أي المسيح إلا (الأب) أي الله) ، وتعالى أن يكون أباً أو يكون له ولد ، وإنما ذكرنا العبارة هنا لننذر على ذكر يوم القيمة في كتب العهد القديم والجديد .

ومكتوب في الباب التاسع عشر من إنجيل متى هكذا (16) : (وإذا واحد تقدم وقال أيها المعلم الصالح أي صلاح أعمل لتكون لي الحياة الأبدية) .

إن الرسل كلهم بعثوا من أجل أن يبشروا بالحياة الأبدية الطيبة للصالحين والعذاب الأبدى للطالحين .

{رَسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ أَرْسَلُوكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} النساء : 165 .

إن من ثمار محمد ﷺ أنه أخرج بإذن الله وأمره جيلاً من البشر لم يعد له همة إلا في أن ينال رضا الله ، وينال سعادة الأبد ، ودل البشرية على الطريق إلى ذلك . فكان أتباعه أعظم نماذج عرفها العالم كطلاب آخرة بعد النبيين ، هذا مع قيام كامل في أمر الدنيا إصلاحاً ورعاية ، ولكن كممر إلى الآخرة ، وهذه أمثلة على هذه النماذج تخرجها تربية محمد ﷺ في كل جيل وكان فيها القدوة الأولى :

1 - أخرج الإمام أحمد بإسناد صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال :

حدثي عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال :

"دخلت على رسول الله ﷺ وهو على حصير قال : فجلست فإذا عليه إزاره وليس عليه غيره ، وإذا الحصير قد أثر في جنبه ، وإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع وقرظ (ورق السلم يدفع به) في ناحية من الغرفة ، وإذا إهاب معلق فابتدرت عيناي فقال : ما يبكيك يا ابن الخطاب ؟ فقلت : يا نبي الله وما لي لا أبكي وهذا الحصير قد أثر في جنبك وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى وذاك كسرى وقصير في الثمار والأنهار وأنت نبي الله وصفوته ، وهذه خزانتك ! قال : يا ابن الخطاب ! أما ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا ؟ "

2 - وأخرج أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت :

"مات أبو بكر رضي الله عنه فما ترك ديناراً ولا درهماً ، وكان قد أخذ قبل ذلك ماله فألقاه في بيت المال " .

3 - ومن حديث طويل أخرجه ابن عساكر عن الحسن البصري في عمر بن الخطاب :

" قالوا : ما ترون يا معاشر المهاجرين والأنصار إلى زهد هذا الرجل وإلى حلته ؟ "

لقد تقاصرت إلينا أنفسنا مذ فتح الله على يديه ديار كسرى وقيصر ، وطرف المشرق والمغرب ، ووفود العرب والعماليق يأتونه فيرون عليه هذه الجبة قد رقعها الثني عشرة رقة .
فلو سألتم معاشر أصحاب محمد ﷺ وأنتم الكفرا من أهل المواقف والمشاهد مع رسول الله ﷺ والسابقين من المهاجرين والأنصار يغيّر هذه الجبة بثوب لين يهاب فيه منظره ويغذى عليه بجفنة من الطعام ويراح عليه بجفنة يأكله ومن حضره من المهاجرين والأنصار .

قال القوم بأجمعهم : ليس لهذا القول إلا علي بن أبي طالب رضي الله عنه فإنه أجرأ الناس عليه وصهره على ابنته ؛ أو ابنته حفصة - فإنها زوجة رسول الله ﷺ وهو موجب لها لموضعها من رسول الله ﷺ . فكلموا عليها فقال علي :

لست بفاعل ولكن عليكم بأزواج النبي ﷺ فإنهن أمهات المؤمنين يحترئن عليه .

قال الأحنف بن قيس : فسألوا عائشة وحفصة رضي الله عنهما وكانتا مجتمعتين .

قالت عائشة : إن سائلة أمير المؤمنين ذلك .

وقالت حفصة : ما أراه يفعل وسيبين لك ذلك .

دخلتنا على أمير المؤمنين فقربهما وأدنها .

قالت عائشة : يا أمير المؤمنين أتأذن أكلمك ؟

قال : تكلمي يا أم المؤمنين ! قالت : إن رسول الله ﷺ مضى لسبيله إلى جنته ورضوانه لم يرد الدنيا ولم ترده ، وكذلك مضى أبو بكر رضي الله عنه على إثره لسبيله بعد إحياء سنن رسول الله ﷺ وقتل المكذبين ، وأدحض حجة المبطلين ، بعد عدله في الرعية ،

و قسمه بالسوية ، وإرضاء رب البرية ، فقبضه الله إلى رحمته ورضوانه وألحقه بنبيه صلى الله عليه وآله وسلم بالرفيق الأعلى . لم يرد الدنيا ولم ترده ، وقد فتح الله على يديك كنوز كسرى وقيصر وديارهما ، وحمل إليك أموالهما ودانت لك أطراف المشرق والمغارب ، ونرجو من الله المزيد ، وفي الإسلام التأييد ، ورسل العجم يأتونك ، ووفود العرب يردون عليك ، وعليك هذه الجبة ، وقد رقعتها انتي عشرة رقعة ، فلو غيرتها بثوب لين يهاب فيه منظرك ، ويغذى عليك بجفنة من الطعام ويراح عليك بجفنة تأكل انت ومن حضرك من المهاجرين والأنصار .

فبكى عمر عند ذلك بكاءً شديداً ثم قال :

سألك بالله هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شبع من خبز بـ عشرة أيام أو خمسة أو ثلاثة ، وجمع بين عشاء وغداء حتى لحق بالله ؟ !

قالت : لا .

فأقبل على عائشة فقال :

هل تعلمين أن رسول الله ﷺ قرب إليه طعام على مائدة في ارتفاع شبر من الأرض .
كأن يأمر بالطعام فيوضع على الأرض ويأمر بالمائدة فترفع ؟ قالتا : اللهم نعم . قال لها :
أنتما زوجتا رسول الله ﷺ وأمهات المؤمنين ، ولكلما على المؤمنين حق وعلى خاصة . ولكن
أنتما ترغباتي في الدنيا وإنني لأعلم أن رسول الله ﷺ ليس جهة من الصوف فربما حاك جلد
من خشونتها ، أتعلمان ذلك ؟

قالتا : اللهم نعم .

قال : هل تعلمين أن رسول الله ﷺ كان يرقد على عباءة على طاقة واحدة وكان مسحأ
في بيتك يا عائشة تكون بالنهار بساطاً وبالليل فراشاً فتدخل عليه فنرى أثر الحصير على جنبه
، ألا يا حفصة أنت حدثتني أنك ثبتي له ذات ليلة فوجد لينها فرق فلم يستيقظ إلا بأذان بلال
قال لك يا حفصة ماذا صنعت ؟ أثبتت المهد ليأتي حتى ذهب بي النوم إلى الصباح ؟ مالي
وللدنيا ومالي شغلتني بلين الفراش !

يا حفصة ، أما تعلمين أن رسول الله ﷺ كان مغفوراً له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ،
أمسى جائعاً ورقد ساجداً ، ولم يزل راكعاً وساجداً وباكياً ومتضرعاً في آناء الليل والنهار إلى
أن قبضه الله برحمته ورضوانه ! لا أكل عمر طيباً ، ولا لبس ليناً ، فله أسوة ب أصحابيه ، ولا
جمع بين أدمتين إلا الملح والزيت ، ولا أكل لحماً إلا في كل شهر ينفع ما انفع من القوم ،
فخرجتا فخبرتا بذلك أصحاب رسول الله ﷺ فلم يزل كذلك حتى لحق بالله عز وجل .

4 - وعن الحسن أنه سئل عن القاتلين في المسجد فقال : رأيت عثمان بن عفان
رضي الله عنه يقيل في المسجد وهو يومئذ خليفة ، قال :

ويقوم وأثر الحصير بجنبه ،

فيقال : هذا أمير المؤمنين ، هذا أمير المؤمنين¹ .

وعن شرحبيل بن مسلم أن عثمان رضي الله عنه كان يطعم الناس طعام الإمارة
ويدخل بيته فياكل الخل والزيت (حياة الصحابة) .

5 - أخرج أبو نعيم في الحلية (ج 1 ص 82) عن رجل من ثقيف أن علياً رضي الله
عنه استعمله على عكرا قال :

ولم يكن السواد يسكنه المصلون - وقال لي : إذا كان عند الظهر فرح إلى فرجعت
إليه فلم أجد عند حاجباً يحسني دونه ، فوجنته جالساً وعنده قدر وكوز ماء - فدعا بطينة
فقلت في نفسي :

لقد آمنني حتى يخرج إلى جوهرًا ولا أدرى ما فيها ، فإذا عليه خاتم فكسر الخاتم ،
فإذا فيهما سويق ، فأخرج منها فصب في القدر ، فصب عليه ماء فشرب وسقاني ، فلم
أصبر فقلت :

¹ أخرجه أبو نعيم في الحلية ج 1 ص 60 ، وأحمد كما في صفة الصفوة ج 1 ص 116 بمثله .

يا أمير المؤمنين ! أتصنع هذا بالعراق وطعام العراق أكثر من ذلك !

قال : أما والله ما أختم عليه بخلاً عليه ، ولكنني أبتاع قدر ما يكفيوني فأخاف أن يفني
فيصنع من غيره ، وإنما حفظي لذلك ، وأكره أن أدخل إلا طيباً .

6 - أخرج أبو نعيم في الحلية (ج 1 ص 101) عن عروة قال : دخل عمر بن الخطاب على أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه فإذا هو مضطجع على طنفسة رحمه ، متوسد الحقيقة فقال له عمر : ألا اتخذت ما اتخذ أصحابك ؟

فقال : يا أمير المؤمنين ؟ هذا يبلغني المقيل . وقال معمر في حديثه :

لما قدم عمر الشام ثقاه الناس وعظماء أهل الأرض فقال عمر : أين أخي قالوا : مَنْ
؟ قال : أبو عبيدة ، قالوا الآن يأتيك ! فلما أتاه نزل فاعتقه فقال ، ثم دخل عليه بيته فلم ير
في بيته إلا سيفه وترسه ورحله .

7 - وأخرج أبو نعيم في الحلية عن الحسن قال :

" كان عطاء سلمان رضي الله عنه خمسة آلاف درهم ، وكان أميراً على زهاء ثلاثين
ألفاً من المسلمين ، وكان يخطب الناس في عبادة يفترش بعضها ويجلس بعضها ، وإذا خرج
عطاؤه أمضاه (أي تصدق به) ويأكل من سفيف يده " .

8 - وروى الإمام أحمد عن محمد بن كعب ناساً نزلوا على أبي الدرداء رضي الله
عنه ليلة قرة فأرسل إليهم بطعم سخن ، ولم يرسل إليهم بلحف ، فقال بعضهم : لقد أرسل
إلينا بالطعم فما هنأنا مع القر ، لا أنتهي أو أبين له . قال الآخر : دعه ، فأبى .

فجاء حتى وقف على الباب ، رآه جالساً وامرأته ليس عليها من الثياب إلا ما لا يذكر
فرجع الرجل وقال :

ما أراك بت إلا بنحو ما بتنا به ،

قال : إن لنا داراً ننتقل إليها قدمنا فرشنا ولحفنا إليها (أي الدار الآخرة) ولو أفيت
عندنا منه شيئاً لأرسلنا إليك به وإن بيني أيدينا عقبة كؤوداً ، المُخْفِ فيها خير من المُتَقْلَّب
أفهمت ما أقول لك ؟

قال : نعم .

9 - وأخرج أبو نعيم عن عمر بن حمزة بن عبد الله قال : كنت جالساً مع أبي فمر
رجل فقال :

" أخبرني ما قلت لعبد الله بن بن عمر رضي الله عنه يوم رأيتاك تكلمه بالجرف ؟ قال
: قلت يا أبا عبد الرحمن ! رقت مضغتك ، وكبر سنك ، وجلساؤك لا يعرفون حركك ولا
شرفك ، فلو أمرت أهلك أن يجعلوا لك شيئاً يلفونك إذا رجعت إليهم ، قال : ويحك والله ما
سبعت منذ إحدى عشرة سنة ولا ثنتي عشرة سنة ولا ثلث عشرة سنة ولا أربع عشرة سنة
ولا مرة واحدة فكيف لي ؟

وإنما بقي مني كظمئي الحمار .

10 - أخرج عمر بن شيبة عن أفلح مولى أبي أبي رضي الله عنه قال : كان عمر
رضي الله عنه يأمر بحل تتسج لأهل بدر يتتوقد فيها (أي يتتجود ويبالغ فيه) ، فبعث إلى
معاذ ابن عفرا حلة فقال لي معاذ :

يا أفلح : بع هذه الحلة بعثتها له بألف وخمس مائة درهم ثم قال : اذهب بابتع لي بها
رقاباً ، فاشترىت له خمس رقاب ، ثم قال والله إن امرءاً اختار قشرين يلبسهما على خمس
رقاب يعتقدا لغبين الرأي ، اذهبوا فأنتم أحرار " (حياة الصحابة) .

* * *

مما مرّ يتبيّن أن الجيل الذي راه محمد رسول الله ﷺ جيل أصبح همه الأعلى الآخرة
، ولم يعد له في غيرها همة : إلا إذا كان وسيلة إلى الآخرة تقربهم إلى الله ، وتفرّع عن هذا
الأصل سلوك لا مثيل له في أي جانب من جوانب الحياة ، والحياة والمال هما الميزان الذي
يمتحن به إيمان الإنسان بالمبدأ والعقيدة . فعلى قدر تضحيته يكون إيمانه ، والتضحيّة التي

نراها عند الصحابة - الجيل الذي رباه رسول الله - بالنفس والمال ابتغاء وجهه والله والدار الآخرة تضحية لا مثيل لها في تاريخ العالم أبداً ، مما يدل على مقدار إيمانهم باليوم الآخر ، حتى أصبح محور وجودهم . وهذه أمثلة على تضحيتهم بالمال والنفس تؤكد لك مقدار استقرار هذا المعنى في أنفسهم :

أ - تقول زوجة طلحة بن عبيد الله رضي الله عنها :

دخلت يوماً على طلحة فرأيت منه ثقلاً فقلت له : مالك ؟ لعله رابك منا شيء فنعتبك

؟

قال : لا ولنعم لحليلة المرأة المسلم أنت ! ولكن اجتمع عندي مال ولا أدرى كيف أصنع به . قلت :

وما يغمرك منه ! ادع قومك فاقسمه بينهم .

فقال : يا غلام علىّ بقومي .

فسألت الخازن : كم قسم ؟

قال : أربع مائة ألف .

" كذا في الترغيب ، ورجاله ثقات " .

ب - وأخرج أبو نعيم في الحلية عن سعيد بن العزيز قال :

" كان للزبير بن العوام ألف مملوك يؤدون إليه الخراج ، فكان يقسمه كل ليلة ثم يقوم إلى منزله وليس معه شيء " .

عن أنس بن مالك : سمعت السيدة عائشة رضي الله عنها يوماً رجأة في المدينة فقالت : ما هذا ؟ قالوا : قافلة لعبد الرحمن بن عوف قدمت من الشام تحمل من كل شيء ، وكانت سبعمائة بعير فقالت : يدخل عبد الرحمن الجنة حبواً (أي بسبب غناه) فلا بلغه ذلك قال :

إني لأرجو أن أدخلها قائماً ، فجعل القافلة كلها في سبيل الله ، الجمال وما عليها ، وزعها على الناس¹ .

ج - أخرج الطبراني في الكبير عن مالك الدار (هو مالك بن عياض مولى عمر ذكره الحافظ في الإصابة) .

أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أخذ أربعمائة دينار ، فجعلها في صرة فقال للغلام : اذهب بها إلى أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه ثم تله في البيت ساعة حتى تنظر ما يصنع ، فذهب الغلام إليه فقال :

يقول لك أمير المؤمنين : اجعل هذه في بعض حاجتك .

فقال : وصله الله ورحمه ثم قال :

تعالي يا جارية ! اذهبي بهذه السبعة إلى فلان ، وبهذه الخمسة إلى فلان ، وبهذه الخمسة إلى فلان ، حتى أنفذها ورجع الغلام إلى عمر فأخبره . فوجده قد أعد مثلها لمعاذ بن جبل رضي الله عنه فقال :

ذهب بهذا إلى معاذ بن جبل وته في البيت ساعة حتى تنظر ما يصنع ، فذهب بها إليه فقال :

يقول لك أمير المؤمنين : اجعل هذه في بعض حاجتك ، فقال : رحمه الله ووصله ، تعالي يا جارية ! اذهبي إلى بيت فلان بكتا . اذهبي إلى بيت فلان بكتا . فاطعلت امرأة معاذ وقالت :

¹ راجع أسد الغابة وأبا نعيم في الطيبة ومسند الإمام أحمد .

ونحن والله مساكين فأعطانا فلم يبق في الخرقة إلى ديناران فدحى بهما (أي رمى) إليها ، ورجع الغلام إلى عمر فأخبره فسر بذلك فقال : إنهم إخوة بعضهم من بعض .

د - أخرج ابن سعد عن أم درة قالت : أتنيت عائشة بمائة ألف فرقتها وهي يومئذ صائمة فقلت لها : أما استطعت فيما أنفقت أن تشتري بدرهم لحماً تفترى عليه ؟

قالت : لو كنت أذكرتني لفعلت .

ه - وكان عمرو بن الجموح أعرج شديد العرج ، وكان له أربعة بنين شباب يغزون مع رسول الله ﷺ إذا غزا . فلما توجه إلى أحد أراد أن يتوجه معه ، فقال له بنوه إن الله قد جعل لك رخصة ، فلو قعدت فتحن نكفيك وقد وضع الله عنك الجهاد ، فأتى عمرو بن الجموح رسول الله ﷺ فقال :

يا رسول الله إنبني هؤلاء يمنعوني أن أخرج معك ، والله إني أرجو أن أستشهد ، فأطأ بعرجي هذه في الجنة ، فقال له رسول الله ﷺ : أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد .

وقال لبنيه : وما عليكم أن تدعوه لعل الله عز وجل أن يرزقه الشهادة فخرج مع رسول الله ﷺ فقتل يوم أحد شهيداً¹ .

و - تقدم أنس بن النضر يوم أحد وانكشف المسلمون فاستقبله سعد بن معاذ قال :

يا سعد بن معاذ الجنة ورب الكعبة إني أجد ريحها من دون أحد قال أنس : فوجدنا به بضعاً وثمانين ضربة بسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم ، ووجدناه قد قتل ومثل به المشركون بما عرفه إلا أخته ببنانه² .

ز - وأخرج ابن سعد عن عباد بن عبد الله بن مسلم الهمداني رضي الله عنه قال :

¹ أخرجه ابن إسحاق .

² أخرجه الشیخان والترمذی .

لما كان يوم اليمامة كان أول الناس جرح أبو عقيل الأنفي رضي الله عنه رمي بسهم
فوقع بين منكبيه وفؤاده فشطب في غير مقتل فأخر السهم ووهن شقه الأيسر - لما كان فيه .
وهذا أول النهار وجر إلى الرحل ، فلما حمى القتال وانهزم المسلمون وجاؤزوا رحالهم وأبو
عقيل واهن من جرمه سمع معن بن عدي رضي الله عنه يصيح بالأنصار :

الله ! الله ! والكرة على عدوكم واعنق معن يقدم القوم وذلك حين صاحت الأنصار :

أخلصونا ! أخلصونا فأخلصوا رجلاً يميزون . قال عبد الله بن عمر رضي الله عنه فنهض أبو عقيل يريده قوله ، فقلت ما ترید يا أبي عقيل ! ما فيك قتال ؟

قال : قد نوه المنادي باسمي . قال ابن عمر فقلت إنما يقول بالأنصار لا يعني الجرحى :

قال أبو عقيل : أنا رجل من الأنصار وأنا أحببه ولو حبوا . قال ابن عمر فتحزم أبو عقيل وأخذ السيف بيده مجرداً ثم جعل ينادي بالأنصار كرة كيوم حنين . فاجتمعوا - رحمهم الله - جميعاً يقدمون المسلمين دربة (أي جرأة وشجاعة وففة) دون عدوهم حتى اقتحموا عدوهم الحديقة فاختلطوا واختلفت السيوف بينهم . قال ابن عمر : فنظرت إلى أبي عقيل وقد قطعت يده المروحة من المنكب فوقيعت على الأرض وبه من الجراح أربعة عشر جرحاً كلها قد خلصت إلى مقتل ، وقتل عدو الله مسيلمة ، قال ابن عمر :

فوقعت على أبي عقيل وهو صريح آخر رمق فقالت :

پا ابا عقیل :

قال : لبيك - بلسان ملئها - لمن الدبرة ؟ قال قلت : أبشر ، ورفعت صوتي قد قتل
عدو الله فرفع إصبعه إلى السماء يحمد الله ومات يرحمه الله . قال ابن عمر : فأخبرت عمر
رضي الله عنه أنه بعد أن قدمت خبره كله فقال : رحمة الله ما زال يسأل الشهادة ويطلبها ، وإن
كان ما علمت من خيار أصحاب نبينا ﷺ وقديم إسلام .

ح - وفي يوم اليرموك قال عكرمة بن أبي جهل :

" قاتلت رسول الله ﷺ في موطن ، وأفر منكم اليوم ثم نادى من يبایع على الموت ؟ "

فبایعه عمه الحارث بن هشام وضرار بن الأزور رضي الله عنهم في أربع مئة من وجوه المسلمين وفرسانهم فقاتلوا قدام فساطط خالد رضي الله عنه حتى أثبتوها جميعاً جراحًا وقتل منهم خلق . منهم ؛ صرار بن الأزور ، وأتى خالد رضي الله عنه بعدما أصبحوا بعكرمة جريحاً فوضع رأسه على فخذه ، وبعمرو بن عكرمة فوضع رأسه على ساقه وجعل يمسح عن وجوههما ويقطر في حلوقهما الماء ويقول : كملا زعم ابن الحنتمة أنا لا نستشهد " .

ط - وروى البخاري عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال : " إني لفي الصف الأول يوم بدر ، إذ التفت فإذا عن يمين ويساري فتيان حديث السن فكأنني لم آمن بمكانهما إذ قال لي أحدهما سراً من صاحبه : يا عم أرني جهل ، فقلت :

يا ابن أخي ما تصنع به ؟

قال : عاهدت الله إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه .

قال لي الآخر : سراً من صاحبه مثله .

قال : فما سرني أنني بين رجلين مكانهما فأشرت لهما إليه فشدَا عليه مثل الصقرين حتى ضرباه وهما ابنان عفراء " .

* * *

فهل وجد جيل في العالم مثل هذا الجيل ، بلغ في التضحية في سبيل الله وابتغاء رضوانه وطمعاً في جنته وخوفاً من ناره كما بلغ هذا الجيل العظيم الذي رباه رسول الله ﷺ .

ولعل في الأمثلة التالية من صبر الصحابة وتحملهم الأذى وثباتهم على دعوة الله حرصاً على السعادة الأبدية ، ما يجعلك على اليقين الذي ما بعده يقين ، إن تربية الرسول ﷺ كانت أعظم تربية ربانية في تاريخ الإنسان . هدفها رضوان الله دون مطمح آخر :

أ - أرى خباب بن الأرث عمر بن الخطاب ظهره وفيه آثار تعذيب المشركين له فقال عمر : ما رأيت كالليوم . قال خباب : أودعوا لي ناراً فما أطفأها إلا ودك ظهري " أي دنه¹ .

ب - وقال أبو ذر :

" قلت : يا رسول الله ، إني أريد أن أظهر ديني . فقال رسول الله : أخاف عليك أن تقتل ، قلت لا بد منه وإن قتلت .

قال : فسكت عنى فجئت وقرיש حلقاً يتحدثون في المسجد قلت :أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

فانتقضت الحلق فقاموا فضربني حتى تركوني كأنني نصب أحمر ، وكانوا يرون أنهم قد قتلوني ، فأفاقت فجئت إلى رسول الله ﷺ فرأى ما بي من الحال فقال لى : ألم أنهك ؟ ! قلت : يا رسول الله كانت حاجة في نفسي قضيتها² .

ج - عن أبي رافع قال :

" وجه عمر بن الخطاب رضي الله عنه جيشاً إلى الروم وفيهم رجل يقال له عبد الله بن حذافة من أصحاب النبي ﷺ فأسره الروم ، فذهبوا به إلى ملكهم فقالوا له : إن هذا من أصحاب محمد ﷺ فقال له الطاغية :

هل لك أن تنتصر وأشركك في ملكي وسلطاني ؟

¹ أخرجه أبو نعيم في الحلية .

² أخرجه أبو نعيم في الحلية والحاكم .

قال له عبد الله : لو أعطيتني ما تملك وجميع ما ملكته العرب على أن أرجع عن دين
محمد ۝ طرفة عين ما فعلت .

قال : إذاً أقتلك .

قال : أنت وذاك فأمر به فصلب .

وقال للرماة : ارموه قريباً من بيته قريباً من رجليه ، وهو يعرض عليه وهو يأبى ،
ثم أمر به فأنزل ، ثم دعا بقدر فصب فيها ماء حتى احترقت ، ثم دعا بأسيرين من المسلمين
أمر بأحدهما فألقى فيها وهو يعرض عليه النصرانية وهو يأبى ، ثم أمر به أن يلقي فيها فلما
ذهب به بكى فقيل له : إنه قد بكى فظن أنه جزع فقال :

ردوه ، فعرض عليه النصرانية فأبى .

قال : ما أبكاك إذن ؟

قال : أبكاني أني قلت في نفسي تلقى الساعة في هذا القدر فتدبر ، فكنتأشتهي أن
يكون بعد كل شعرة في جسدي نفس تلقى في الله .

قال الطاغية : هل لك أن تقبل رأسى وأخلي عنك ؟

قال له عبد الله : وعن جميع أسرى المسلمين ؟

قال : وعن جميع أسرى المسلمين .

قال عبد الله : فقلت في نفسي عدو من أعداء الله أقبل رأسه يخلي عنى وعن أسرى
المسلمين لا أبالي ، فدنا منه فقبل رأسه ، فدفع إليه الأسرى ، فقدم بهم على عمر رضي الله
عنه فأخر بخبره فقال عمر :

حق على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله بن حداقة ، وأننا أبدأ فقام عمر قبل رأسه¹

د - وعن عثمان رضي الله عنه قال :

بينما أنا أمشي مع رسول الله ﷺ بالبطحاء إذا بعمار وأبيه وأمه يعذبون في الشمس ليتردوا عن الإسلام فقال أبو عماد : يا رسول الله الدهر هكذا ؟ فقال : صبراً يا آل ياسر . اللهم اغفر لآل ياسر وقد فعلت ، وفي رواية : " صبراً يا آل ياسر صبراً فإن موعدكم الجنة ".²

هـ - وعن أبي الأسود قال :

... وكان عم الزبير يعلق الزبير في حصير ويدخن عليه بالنار وهو يقول ارجع إلى الكفر فيقول الزبير : لا أكفر أبداً³ .

ترى أيمكن أن يكون هذا التقافي في طلب رضوان الله إلا ثمرة من ثمار نبي ؟

أو يمكن أن يستطيع كذاب على الله أن يجعل أصحابه في هذه الدرجة من الرغبة في نيل رضوان الله ؟ إن من المعروف أن فاقد الشيء لا يعطيه ، إن الرجل الذي يكذب على الله لا يؤمن به ولا يؤمن باليوم الآخر الذي أعده ، فلا يستطيع أن ينفل الناس إلى هذه الحال من الإيمان ، لو لا أنه أعلى في هذا الموضوع منهم بكثير . فلقد نقل الرسول ﷺ الناس إلى حال الرهبة من الله بشكل لا نرى مثله إلا عند النبي .

فأعطاهم اليوم الآخر حساً رقيقاً مرهفاً . إذا وقع أحدهم في المعصية جاد بنفسه من أجل التخلص من آثارها ، وترفعوا عن الشهوات والدنيا واحتقروا مظاهر الحياة الفانيّة ، حتى إن أحدهم أصبح ولا تساوي الدنيا عنده شيئاً يذكر ، فأصبحت الفيلة لهم عادة ، والأمانة

¹ أخرجه البيهقي وابن عساكر أخرج لهذه القصة شاهداً من حديث ابن عباس موصولاً .

² أخرج الحاكم وابن عساكر والإمام أحمد .

³ أخرج أبو نعيم والحاكم والطبراني ورجاله ثقات .

عندهم محترمة ، وكلمتهم عهداً . وكل ذلك حرصاً على رضوان الله وطلبًا لجنته وخوفاً من ناره .

أ - روى الإمام مسلم :

"أن ماعز بن مالك الأسلمي أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إني ظلمت نفسي وزنيت وإنني أريد أن تطهري فرده . فلما كان من الغد أتاه فقال يا رسول الله : إني زنيت فرده الثانية . فأرسل رسول الله ﷺ إلى قومه فقال : أتعلمون بعقله بأساً تتذكرون منه شيئاً؟ قالوا : ما نعلمه إلا وفي العقل من صالحينا فيما نرى ، فأتاه الثالثة فأرسل إليهم أيضاً فسأله عنه فأخبروه أنه لا يأس به ولا بعقله فلما كانت الرابعة حفر له حفرة ثم أمر فرجم .

قال : فجاءت الغامدية فقالت :

يا رسول الله إني قد زنيت فطهري .

وإنه رد لها فلما كان الغد قالت : يا رسول الله لم تزدني ؟ لعلك أن تزدني كما ردت ماعزاً . فوالله إني لحبلى . قال :

أما لا فاذهبي حتى تلدي ، قال : فلما ولدته أنته بالصبي في خرقة قالت : هذا قد ولدته .

قال : فاذهبي فأرضعيه حتى تقطميه ، فلما فطمته أنته بالصبي في يده كسرة خبز قالت : هذا يا نبي الله قد فطمته وقد أكل الطعام ، فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين ثم أمر حفر لها إلى صدرها وأمر الناس فرجموها فاستقبلها خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فنضح الدم على وجه خالد فسبها فسمع النبي الله سبه إليها فقال :

مهلاً يا خالد فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكسٍ لغفر له .. ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت " .

ب - حدث الطبرى قال :

" لما هبط المسلمين المدائن وجمعوا الأقباض ، أقبل رجل بحق معه فدفعه إلى صاحب الأقباض فقال والذين معه : ما رأينا مثل هذا قط ما يعلمه ما عندنا ولا يقاربه فقالوا : هل أخذت منه شيئاً ؟ فقال : أما والله لو لا الله ما أتيتك به .

فعرفوا أن للرجل شأنًا فقالوا : من أنت فقال : لا والله لا أخبركم لتمدوني ولا غيركم ليقرظوني . ولكنني أحمد الله وأرضي بثوابه ، فأتبعوه رجالاً حتى انتهى إلى أصحابه فسألة عنه فإذا هو عامر بن عبد قيس " .

ج - أرسل سعد قبل القادسية ربعي بن عامر رسولاً إلى رستم قائد الجيوش الفارسية وأميرهم فدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالنمارق والزرابي الحرير وأظهر اليواقيت واللاليء الثمينة العظيمة ، وعليه تاج وغير ذلك من الأmundة الثمينة ، وقد جلس على سرير من ذهب .

ودخل ربعي بثياب صفيفة وترس وفرس قصيرة ، ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط ، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائل وأقبل عليه سلاحه ودرعه وبيضة على رأسه فقالوا له :

ضع سلاحك ،

قال : إنني لم آتكم ، وإنما جئتم حين دعوتموني ، فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت .

قال رستم : آذنوا له فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق ففرق عامتها .

قالوا : ما جاء بكم ؟

قال : الله ابتعتنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام¹ .

¹ أخرجه ابن كثير في البداية ج 7 ص 38 .

د - " هم فضالة بن عمير بن الملوح أَنْ يُقْتَلُ رَسُولُ اللَّهِ وَهُوَ يَطْوُفُ بِالْبَيْتِ فَلَمَّا دَنَا مِنْهُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : أَفْضَالَةٌ ؟ قَالَ : نَعَمْ فَضَالَةٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ : مَاذَا كُنْتَ تَحْدِثُ بِهِ نَفْسَكَ ؟

قَالَ : لَا شَيْءٌ . كُنْتَ أَذْكُرُ اللَّهَ .

فضحك النبي ﷺ ثم قال : استغفر الله ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه وكان فضاله يقول :

وَاللَّهِ مَا رَفَعَ يَدَهُ عَنْ صَدْرِي حَتَّىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْهُ .

قال فضالة : فرجعت إلى أهلي فمررت بأمرأة كنت أتحدث إليها فقالت هلم إلى الحديث قلت :

يَأَبِي اللَّهِ عَلَيْكَ وَالإِسْلَامُ^١ .

هـ - عن أبي موسى قال :

انتهينا إلى النجاشي وهو جالس في مجلسه وعمرو بن العاص عن يمينه وعمارة عن يساره والقسيسون جلوس سماطين وقد قال عمرو وعمارة : إنهم لا يسجدون لك ، فلما انتهينا بدرنا من عنده القسيسين والرهبان : اسجدوا للملك فقال جعفر : لا نسجد إلا لله .

* * *

إنه بمحمد رسول الله ﷺ أصبح الضمير يقتظاً على اليوم الآخر . لا يغفل عنه ، فاستقام بذلك عمود الحياة كلها . اليوم الآخر الذي دعا إليه كل المرسلين وغفل عنه كل الناس وهو أهم قضايا الإنسان لأنها قضية المصيره و يجعلها الإنسان أبسط قضاياه لغلبة الحس بالدنيا عليه حتى إذا مات الإنسان وانكشف له صدق الرسل فيما أخبروا عنه ندم ولات حين مناص .

¹ راجع الإصابة لأبن حجر والشفاء للقاضي .

وإحياء الإنسان بهذه الحقيقة وإحياء هذه الحقيقة في قلب الإنسان هي الثمرة الثانية من ثمرات رسول الله ﷺ وإنها لثمرة نبوة لا ثمرة كذابين مدعين ، ولا يستطيع العقل أن يتصور إلا هذا .

* * *

ثالثاً - إنسانية واحدة كريمة :

وجاء محمد رسول الله ﷺ ونظره الناس بعضهم إلى بعض ما يلي :

أ - في الهند :

لم يعرف في تاريخ أمة من الأمم نظام طبقي أشد قسوة ، وأعظم فصلاً بين طبقة وطبقة ، وأشد استهانة بشرف الإنسان من النظام الذي اعترفت به الهند دينياً ومدنياً وخضعت له آلافاً من السنين ولا تزال ، وقد بدت طلائع التفاوت الطبقي في آخر العهد الoidي ، بتأثير الحرف والصناعات وتوارثها ، أو بحكم المحافظة على خصائص السلالة الآرية المحتلة ونجلابتها . وقبل ميلاد المسيح بثلاثة قرون ازدهرت في الهند الحضارة البرهمية ، ووضع فيها مرسوم جديد للمجتمع الهندي . وألف فيه قانون مدنى وسياسي اتفق عليه في البلاد ، وأصبح قانوناً رسمياً ومرجعاً دينياً في حياة البلاد ومدنيتها وهو المعروف الآن بـ "منوشاستر" .

يقسم هذا القانون أهل البلاد إلى أربع طبقات متمايزة وهي :

1 - البراهمة طبقة الكهنة ورجال الدين .

2 - شترى : رجال الحرب .

3 - ويش : رجال الزراعة والتجارة .

4 - شودر : رجال الخدمة .

ويقول "منو" مؤلف هذا القانون :

"إن القادر المطلق قد خلق لمصلحة العالم البراهمة من فمه . وشترى من سواعده .
ووיש من أفخاذه . والشودر من أرجله ، وزع لهم فرائض وواجبات لصلاح العالم . فعلى
البراهمة تعليم ويد ، أو تقديم النذور للآلهة ، وتعاطي الصدقات . وعلى الشترى حراسة
الناس ، والتصدق وتقديم النذور دراسة ويد ، والعزوف عن الشهوات ، على ويش رعي
السائمة ، والقيام بخدمتها ، وتلاوة ويد التجارة والزراعة . وليس لشودر إلا خدمة هذه
الطبقات الثلاثة .

وقد منح هذا القانون طبقة البراهمة امتيازات وحقوقاً فقد قال : إن البراهمة هم صفوة
الله ، وهم ملوك الخلق ، وإن ما في العالم هو ملك لهم ، فإنهم أفضل الخائق ، وسادة
الأرض ، ولهم أن يأخذوا من مال عبيدهم شودر من غير جريرة ما شاؤوا ، لأن العبد لا
يملك شيئاً ، وكل ماله لسيده ، وإن البرهمي الذي يحفظ راك ويد " الكتاب المقدس " هو رجل
مفغور له ولو أباد العالم الثلاثة بذنبه وأعماله ، ولا يجوز للملك حتى في أشد ساعات
الاضطراب والفاقة أن يجبي من البراهمة جبایة ، أو يأخذ منهم إتاوة ، ولا يصح لبرهمي في
بلاده أن يموت جوعاً ، وإن استحق برهمي القتل لم يجز للحاكم إلا أن يحلق رأسه ، أما غيره
فيقتل .

أما الشترى فإنهم وإن كانوا فوق الطبقتين " ويش وشودر " ولكنهم دون البراهمة
بكثير . يقول "منو" : إن البرهمي الذي هو في العاشرة من عمره يفوق الشترى الذي ناهز
مائة كما يفوق الوالد ولده .

أما شودر " المنبوذون " فكانوا في المجتمع الهندي - بنص هذا القانون المدني الديني
- أحط من البهائم ، وأذل من الكلاب ، فيصرح القانون بأن من سعادة " شرودر " أن يقوموا
بخدمة البراهمة وليس لهم أجر وثواب بغير ذلك ، وليس لهم أن يقتروا مالاً ، أو يدخلوا كنزاً
، فإن ذلك يؤذى البراهمة ، وإذا مد أحد من المنبوذين إلى برهمي يداً أو عصاً ليبيطش به ،
فقطعت يده ، وإذا رفسه في غضب فدعت رجله ، وإذا هم أحد من المنبوذين أن يجالس
برهانياً فعلى الملك أن يكوي إسته وينفيه من البلاد ، وأما إذا مسه بيده أو سبه فيقطع لسانه ،

وإذا ادعى أن يعلمه سقي زيتاً فائراً ، وكفارة قتل الكلاب والقطط والضفدعه والوزغ والغراب والبومه ورجل من الطبقة المنبوذة سواء " .

2 - في فارس :

وكانت الأكاسرة ملوك فارس يدعون أنه يجري في عروقهم دم إلهي ، وكان الفرس ينظرون إليهم كآلهة ، ويعتقدون أن في طبيعتهم شيئاً علواً مقدساً يدعون أنه يجري في عروقهم ، فكانوا يكفرون لهم وينشدون الأناشيد بألوهيتهم ، ويرونهم فوق القانون ، وفوق الانقاد ، وفوق البشر ولا يجري اسمهم على لسانهم ، ولا يجلس أحد في مجلسهم ، ويعتقدون أن لهم حقاً على كل إنسان ، وليس لإنسان حق عليهم ، وأن ما يرضخون لأحد من فضول أموالهم وفتات نعيمهم إنما هو صدقة وتكرم من غير استحقاق .

كما يعتقدون أن طبقة البيوتات الروحية والأشراف فوق العامة في طينتهم ، وفوق مستوى الناس في عقولهم ونفوسهم ، ويعطونهم سلطة لا حد لها ، ويختضعون له خضوعاً كاملاً يقول " آرتهرسين " :

" كان المجتمع الإيراني مؤسساً على اعتبار الحرف والنسب ، وكان بين طبقات المجتمع هوة واسعة لا يقوم عليها جسر ولا تصل بينها صلة ، وكانت الحكومة تحظر على العامة أن يشتري أحد منهم عقاراً لأمير أو كبير ، وكان من قواعد السياسة السياسية ، أن يقنع كل واحد بمركزه الذي منحه نسبة ، ولا يستشرف لما فوقه . ولم يكن لأحد أن يتخذ حرفة غير الحرفة التي خلقه الله لها ، وكان ملوك إيران لا يملكون وظيفة من وظائفهم ، وكان العامة كذلك طبقات متميزة بعضها عن بعض تميزاً واضحاً ، وكان لكل واحد مركز محدد في المجتمع .

وكان في هذا التفاوت بين طبقات الأمة امتحان للإنسانية . يظهر لك جلياً في مجالس الأمراء والأشراف ، حيث يقوم الناس على رؤوس الأمراء كأنهم جماد لا حراك بهم ، ويجلسون مجر الكلب .

ثم يبالغون في تمجيد القومية الفارسية ، ويرون أن لها فضلاً على سائر الأجناس والأمم ، وأن الله قد خصها بموهاب ومنح لم يشرك فيها أحداً ، وكانوا ينظرون إلى الأمم حولهم نظرة ازدراء وامتنان ، ويلقبونها بألقاب فيها الاحتقار والسخرية¹ .

3 - هذان مثلان يبينان لنا حال العالم في قضية الإنسان حين البعثة وليس هما كل شيء ، فاليونان والرومان كل واحدة منهما كانت ترى غيرها برابرة ، وهي وحدها نموذج الإنسان العالي ، وكنت ترى هذا الشعور بالأفضلية حتى على مستوى القبيلة ، حتى على مستوى الأسرة ، ولم يكن يخطر ببال قضية الإنسانية الواحدة ..

4 - وما لنا نذهب بعيداً حتى الآن نرى :

أن هتلر يعتبر الشعب الألماني أعظم شعوب الدنيا ، وله حق سيادة العالم .

والشعب الأمريكي لا يزال في الغالب يعامل السود معاملة احتقار وازدراء وامتنان ، ولا يعترف لأسود بحق لدرجة أن سينما البيض لا يدخلها سود . ومطعم البيض لا يدخله سود ، ومدرسة البيض لا يدخلها سود .

وفي جنوب إفريقيا الأسود أ贱ر عند البيض من الكلب .

بل أكثر من هذا بقيت الكنيسة النصرانية فترة طويلة في إفريقيا لا ترى أن الرجل الأسود أهل لأن يكون قسيساً ، وعند الشيوعيين تظهر الطبقية بشكل آخر : رأسمالية - بورجوازية - بروليتاريا .

* * *

هذا بشكل عام ، فإذا ما نظرنا إلى المسألة من زاوية أخرى ، زاوية أن الإنسانية رجل وامرأة ، وكل منهما إنسان ، فإنك تجد ولا تزال مثل هذه الصور :

¹ راجع مَاذا خسر العالم بانحطاط المسلمين .

في القرن السادس الميلادي كانت بعض المجامع الكنسية تبحث : هل المرأة إنسان أو حيوان ؟

وكان العرب يدون بناتهم حتى قال صعصعة بن ناجية :

جاء الإسلام وقد فديت ثلاثة مائة موعدة .

وكان الهنود إذا مات الرجل حرموا على زوجته أن تتزوج وأهانوها ، حتى أصبحت عادة عندهم أن تحرق المرأة نفسها إذا مات زوجها لتتخلص مما يصيبها بعد موته ، وقد يحدث عندهم أن يخسر الرجل زوجته في القمار ، وفي كل مكان ليس للمرأة شخصيتها الحقوقية المستقلة .

وحتى الآن تجد أن القانون الفرنسي لا يسمح للمرأة أن تتصرف بأموالها إلا بإذن زوجها ، والقانون الإنجليزي لا يسمح لها بتغيير اسمها إلا بإذن زوجها ، أما هو فحر ..

وإذا نظرنا إلى الإنسانية من وجه آخر . وجه الأحرار والعبيد . فإننا نجد صوراً من البشاعة في معاملة الرقيق لا تتصور ، الرقيق ليس له حق حياة ولا كرامة ولا يوجد أصلاً بـإنسانية .

* * *

هذا كله كان وبعض منه كما رأينا لا يزال :

فماذا فعل محمد رسول الله ﷺ بأمر من الله ووحى ؟ :

لقد أعلن محمد رسول الله ﷺ وحقق عملياً إنسانية الإنسان ، ووحدة الإنسانية ، وكرامة الإنسان ، الرجل إنسان ، والمرأة إنسان ، والعبد إنسان ، والناس كلهم سواء في هذه الإنسانية ، فلا شعب أعلى من شعب ، ولا جنس أعظم من جنس .

وفي ذلك يقول صاحب كتاب " هذا الدين " فيه :

" من العصبية القبلية بل عصبية العشيرة بل عصبية البيت ، التي كانت تسود الجزيرة ، ومن عصبية البلد ، عصبية الوطن ، وعصبية اللون ، وعصبية الجنس ، التي كانت تسود وجه الأرض كله ...

ومن هذه العصبيات الصغيرة التي لم تكن البشرية تتصور غيرها في ذلك الزمان ، جاء الإسلام ليقول للناس :

إن هناك إنسانية واحدة ، ترجع إلى أصل واحد ، وتنتجه إلى إله واحد . وأن اختلاف الأجناس والألوان ، واختلاف الرقعة والمكان ، واختلاف العشائر والآباء .. كل أولئك لم يكن ليتفرق الناس ويختصموا ، ويتحوصلوا وينعزلوا ، ولكن ليتعرفوا ويتآلفوا ، ومتوزع بينهم وظائف الخلافة في الأرض ، ويرجعوا بعد ذلك إلى الله الذي ذرأهم في الأرض واستخلفهم فيها .

وقال لهم الله سبحانه في القرآن :

{يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعْارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عَنِّي
اللَّهُ أَكْرَمُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَيْرٌ} الحجرات : 13 .

{يَأَيُّهَا النَّاسُ أَنْقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّنْ نُفُسٍّ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا
رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَأَنْقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} النساء : 1 .

ولم تكن هذه مبادئ نظرية ولكنها كانت أوضاعاً عملية .

لقد انساح الإسلام في رقعة من الأرض فسيحة ، تكاد تضم جميع الأجناس وجميع الألوان .. وذابت كلها في النظام الإسلامي . ولم تقف وراثة لون ، ولا وراثة جنس ، ولا وراثة طبقة ، ولا وراثة بيت ، دون أن يعيش الجميع إخواناً ، دون أن يبلغ كل فرد منهم ما تؤهل له استعداداته الشخصية ، وما تكفله له صفة الإنسان .

واستقر هذا الخط العريض في الأرض ، بعد أن كان غريباً فيها أشد الغرابة ، ومستكراً فيها كل الاستكثار - وحتى بعد انحسار المد الإسلامي - لم تستطع البشرية أن تتذكر له كل التكير ، ولم تعد تستغربه كل الاستغراب .

حقيقة : إنها لم تستطع أن تتمثله كما تتمثله الجماعة المسلمة ، ولم يستقر فيها استقراره في المجتمع الإسلامي .

وحقيقة : إن عصبيات شتى صغيرة ما تزال تعيش ، عصبيات الأرض والوطن وعصبيات الجنس والقوم وعصبيات اللون واللسان .

وحقيقة : إن الملوك في أمريكا وجنوب إفريقيا يؤلفون مشكلة حادة بارزة ، كما يؤلفون مشكلة ناعمة مستترة في أوروبا كلها .

ولكن فكرة الإنسانية الواحدة ما تزال خطأً عريضاً في هنافات البشرية اليوم ، وما يزال هذا الخط الذي خطه الإسلام هو أصل التفكير البشري - من الناحية النظرية - وما تزال تلك العصبيات الصغيرة تزغ وتختفي ، لأنها ليست أصلية ولا قوية .

وجاء الإسلام والكرامة الإنسانية وقف على طبقات معينة ، وعلى بيوت خاصة ، وعلى مقامات معروفة . أما العثاء - غثاء الجماهير - فهو غثاء لا وزن له ولا كرامة !
غثاء !!!

وقال الإسلام كلمته المدوية : إن كرامة الإنسان مستمدة من إنسانيته ذاتها ، لا من أي عرض آخر كالجنس ، أو اللون ، أو الطبقة أو الثروة أو المنصب إلى آخر هذه الأعراض العارضة الزائلة ... والحقوق الأصلية للإنسان ، مستمدة إذن من تلك الإنسانية التي ترجع إلى أصل واحد كما أسلفنا .

وقال لهم الله في القرآن الكريم :

{وَلَقَدْ كَرِمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا} الإسراء : 70 .

{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً} البقرة : 30 .

{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ أَسْجُدُوا لَادَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَأَسْتَكَبَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ} البقرة : 34 .

{وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ} الجاثية : 13 .

وعلم الناس منذئذ :

أن الإنسان - بنوعه ، كريم على الله . وأن كرامته ذاتية أصلية . لا تتبع جنسه ، ولا لونه ، ولا بلده ، ولا قومه ولا عشيرته ، ولا بيته . ولا عرضاً من هذه الأعراض الزائلة الرخيصة .

إنما تتبع كونه إنساناً من هذا النوع الذي أفضى عليه ربه الكريم . ولم تكن هذه المبادئ نظرية ، إنما كانت واقعاً عملياً ، تمثل في حياة الجماعة المسلمة ، وانساحت به في أرجاء الأرض ، فعلمته للناس ، وأقرته في أوضاع حياتهم كذلك ، وعلمت جمهور الناس ... ذلك الغثاء .. أنه كريم ، وأن له حقوقاً ، هي حقوق الإنسان ، وأن له أن يحاسب حكامه وأمراءه ، وأن عليه ألا يقبل الذل والضيم والمهانة . وعلمت الحكام والأمراء ألا تكون لهم حقوق زائدة على حقوق الجماهير من الناس - وأنه ليس لهم أن يهينوا كرامة أحد من ليس بحاكم أو أمير .

وكان هذا ميلاداً جديداً "للإنسان" ميلاداً أعظم من الميلاد الحسي ..

فأي إنسانية لإنسان إذا لم تكن له حقوق الإنسان ، وكرامة الإنسان ، وإذا لم تكن تلك الحقوق متعلقة بوجوده ذاته ، وبحقيقة التي لا تختلف عنه في حال من الأحوال ؟

بدأ أبو بكر رضي الله عنه عهده بقوله :

"لقد وُلِيتَ عَلَيْكُمْ وَلَسْتَ بِخَيْرٍ لَّكُمْ: إِنَّمَا أَحْسَنْتُ فَأُعِينُونِي . وَإِنْ أَسَأْتُ فَقَوْمِي .
أَطِيعُونِي مَا أَطْعَتَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ . فَإِنْ عَصَيْتَهُ فَلَا طَاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ " .

وخطب عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال يعلم الناس حقوقهم تجاه الأمراء :

"يَا أَيُّهَا النَّاسُ . إِنِّي وَاللَّهِ مَا أَرْسَلْتُ إِلَيْكُمْ عَمَالًا لِيُضَرِّبُوكُمْ أَبْشَارَكُمْ ، وَلَا لِيُأْخُذُوكُمْ مِنْ أَمْوَالِكُمْ . وَلَكُنِي أَرْسَلْتُهُمْ إِلَيْكُمْ لِيُعْلَمُوكُمْ دِينَكُمْ وَسُنْنَتُكُمْ . فَمَنْ فَعَلَ بِهِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فَلَيُرْفَعَ إِلَيَّ . فَوَالَّذِي نَفْسُكُمْ بِيَدِهِ ، لَا قُصْنَهُ مِنْهُ .. فَوَثِبْ عَمَرُ بْنُ الْعَاصِ فَقَالَ :

"يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَرَأَيْتَكَ إِنْ كَانَ رَجُلٌ مِنْ أَمْرَاءِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى رَعِيَّتِهِ فَأَدْبَبَ بَعْضَ رَعِيَّتِهِ . إِنَّكَ لَتَقْتَصُ مِنْهُ ؟ " .

قال عمر : "أَيُّ وَالَّذِي نَفْسُكُمْ بِيَدِهِ لَا قُصْنَهُ مِنْهُ . وَكَيْفَ لَا أَقْصُ مِنْهُ وَقَدْ رَأَيْتَ رَسُولَ اللَّهِ يَقْصُ مِنْ نَفْسِهِ . أَلَا لَا تَنْضَرُوكُمْ فَتَذَلُّوكُمْ وَلَا تَجْمِرُوكُمْ فَتَقْتَلُوكُمْ ، وَلَا تَمْنَعُوكُمْ حُقُوقَهُمْ فَتَكْفُرُوكُمْ " .

وكتب عثمان رضي الله عنه كتاباً إلى جميع الأنصار قال فيه :

"إِنِّي آخَذُ عَمَالِي بِمَوْافَاتِي كُلَّ مُوْسَمٍ قَدْ سَلَطْتُ الْأُمَّةَ عَلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ؛ وَالنَّهِيِّ عَنِ الْمُنْكَرِ ، فَلَا يَرْفَعُ عَلَيْكُمْ شَيْءٌ وَلَا عَلَى أَحَدٍ مِنْ عَمَالِي إِلَّا أَعْطَيْتُهُ . وَلَيْسَ لِي وَلَا لِعَمَالِي حَقٌّ قَبْلَ الرُّعْيَةِ إِلَّا مَتَرَوْكٌ لَّهُمْ . وَقَدْ رَفَعَ إِلَيَّ أَهْلُ الْمَدِينَةِ أَنَّ أَقْوَامًا يَشْتَمُونَ وَيَضْرِبُونَ . فَمَنْ أَدْعَى شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَلَيُوَافِيَ الْمُوْسَمَ ، يَأْخُذُ حَقَّهُ حِيثُ كَانَ مَنِي أَوْ مِنْ عَمَالِي ، أَوْ تَصَدَّقُوا ، إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ " .

والمهم - كما أسلفنا - أن هذه لم تكن مجرد مبادئ نظرية أو مجرد كلمات تقال .

فقد طبقت تطبيقاً واقعياً ، وسرت في أوساط الشعوب حتى اتخذت قاعدة للأوضاع العملية .

" وحادثة ابن القبطي الذي سا逼 ابن عمرو بن العاص ، فاتح مصر وواليها ، فسبقه فضربه ابن عمرو ، فشكأ أبوه إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأقصه منه في موسم الحج وعلى ملأ من الناس ... حادثة معروفة .

وقد اعتاد الكتاب أن يقفوا فيها عند عدل عمر .. ولكن الحادثة أوسع دلاله على ذلك التيار التحرري الذي أطلقه الإسلام في ضمائر الناس وفي حياتهم .

فمصر إذ ذاك بلد مفتوح ، وحديث عهد بالفتح الإسلامي . وهذا القبطي لم يزل على دينه فرداً من جماهير البلد المفتوحة . وعمرو بن العاص هو فاتح هذا الإقليم ، وأول أمير عليه من قبل الإسلام .. وحكم هذا الإقليم قيل الفتح الإسلامي هم الرومان :

أصحاب السياط التي تجلد ظهور شعوب المستعمرات ، ولعل ذلك القبطي كان ما يزال ظهره يحمل آثار سياط الرومان .

ولكن المد التحرري الذي أطلقه الإسلام في أنحاء الأرض ، أنسى ذلك القبطي سياط الرومان وذلها ، وأطلقه إنساناً حراً كريماً ، يغضب لأن يضرب ابن الأمير ابنه بعد اشتراكهما في سباق . وهذه أخرى ، ثم تحمله هذه الغضبة لكرامة ابنه الجريحة على أن يركب من مصر إلى المدينة لا طيارة ولا سيارة ولا باخرة ولا قطاراً ، ولكن جملًا ، يخب به ويضع الأشهر الطوال كل ذلك ليشكوا لل الخليفة .

الخليفة الذي حرره يوم الفتح تحت راية الإسلام ، والذي علمه الكرامة بعد أن نسيها تحت وقع سياط الرومان .

وهكذا ينبغي أن نفهم ، وأن ندرك عمق المد الإسلامي التحرري . فليست المسألة فقط أن عمر عادل ، وأن عدله لا تتطاول إليه الأعناق في جميع الأزمان .

ولكن المسألة بعد ذلك أن عدل عمر المستمد من الإسلام ، ومنهجه ونظامه ، انطلق في الأرض تياراً جارفاً ومحراً مكرماً للإنسان ... بصفته " الإنسان " .

هذا المستوى الرفيع ، لم ترتفع إليه الإنسانية قط ... هذا صحيح ولكن هذا الخط العريض الذي خطه الإسلام ، في كرامة الإنسان وحرি�ته وحقوقه تجاه حكامه وأمرائه ، قد ترك في حياة البشر آثاراً لا شك فيها . وبعض هذه الآثار هو الذي يدفع بالبشريةاليوم إلى إعلان " حقوق الإنسان " .

وحقيقة إن هذا الإعلان لم يأخذ طريقه الواقعي في حياة البشرية .

وحقيقة إن " الإنسان " ما يزال يلقى المهانة والإذلال والتعذيب والحرمان في شتى أنحاء الأرض .

وحقيقة إن بعض المذاهب تجعل مقام الإنسان دون مقام الآلة ، وتقتل حرية الإنسان وكرامته وخصائصه العليا في سبيل الإنتاج ومضاudفة الدخل ، والتلتفون في الأسواق .

كل هذا صحيح .

ولكن هذا الخط ما يزال قائماً في مدارك البشرية وتصوراتها ولم يعد غريباً عليها كما كان يوم جاءها الإسلام " .

* * *

وهذه نماذج من توجيهات السيد الرسول ﷺ في هذا الباب نذكرها كأمثلة على هديه في بناء جوانب إنسانية الإنسان .

أ - عن حذيفة : " كلهم بني آدم وآدم خلق من تراب لينتهيin قوم يفتخرون بآبائهم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان " ¹ .

ب - وعن عائشة رضي الله عنها " أَن فتاة قالت - يعني للنبي ﷺ - إِن أَبِي زوجني من ابن أخيه ليرفع بي خسيسته وأنا كارهة ، فأرسل النبي ﷺ إلى أبيها فجعل الأمر إليها فقالت

¹ أخرجه البزار وحسنه السيوطي .

يا رسول الله إن أجزت ما صنع أبي ولكن أردت أن أعلم النساء أن ليس للآباء من الأمر شيء^١.

ج - عن معاوية بن سعيد بن مقرن قال :

لطم مولى لنا فهربت ثم جئت قبيل الظهر فصليت خلف أبي فدعاه ودعاني ثم قال للخادم : امثال منه فعفا ثم قال : كنا بني مقرن على عهد رسول الله p ليس لنا خادم إلا واحدة فطلمها أحدها فبلغ ذلك رسول الله p فقال : "اعتقواها فقيل له ليس لهم خادم غيرها فقال فليستخدموها فإذا استغنو عنها فليخلوا سبيلها"^٢.

د - وعن المعرور بن سعيد قال :

رأيت أبا ذر وعليه حلة وعلى غلامه مثلها فسألته عن ذلك فقال : سمعت رسول الله p يقول : "هم إخوانكم وخولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكفوهم من العمل ما يغلبهم فإن كفتوهم فأعينوهم عليه"^٣.

ه - وكان عمر رضي الله عنه يقول : "أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا يعني بلا بلا"^٤.

وسنرى إن شاء الله في الرسالة الثالثة "الإسلام" هذه المعانى بالتفصيل .

* * *

هذه ثمرة من ثمرات محمد رسول الله p وهي ثمرة ما كانت لتكون لو لا أنه رسول الله .

¹ أخرجه أحمد .

² أخرجه مسلم .

³ أخرجه البخاري ومسلم .

⁴ أخرجه البخاري .

إن بيئة الجزيرة العربية ما كانت تتبع منها فكرة وحدة الإنسانية وكرامتها ، بل ما كانت لتخرج إنساناً له رسالة للبشرية عامة . فكل المقدمات ما كانت لتؤدي بنتيجة من هذا النوع .

يقول العقاد :

ثم يستمع الناس إلى دعوة من أعماق جزيرة العرب تنادي بني الإنسان جميعاً إلى دين واحد وإله واحد وحق واحد :

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَّأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَّفَبَانِ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عَنْدَ اللَّهِ أَنْفَاكُمْ} الحجرات : 13 .

{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَةً لِلنَّاسِ} سباء : 28 .

{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} الأنبياء : 107 .

ويحصل رسول الدعوة آيات الكتاب الذي أنزل إليه فيقول في تفسير هذه الآيات :

" لا فضل لعربي على أجمي ولا لقرشي على حبشي إلا بالتفوى " ولو لم يكن من سعة المسافات بين المقدمات ، وهذه النتيجة غير هذا الذي أجملناه لكن فيه الكفاية . لكن العجب منه يتضاعف ويتعااظم حين تأتي النتيجة من أعماق الجزيرة العربية حيث مشتجر الأنساب والأعراق على نحو لم يعرف له مثيل بين الأمم والعصبيات ، وبقية تبقى بعد ذلك لعجب فوق ذلك العجب المتضاعف المتعاظم فإن الرسول ﷺ الذي نادى بهذه المساواة بين الأصول والأمم ، لم يكن دون أحد من أبناء الجزيرة كلها حسباً ونسبة من أبيوه الشريفين . بل كان من شرف الأبوة في الذؤابة التي يعترف بها الكافرون ، وهذا الرسول هو الذي يتعلم منه الناس أنهم إذا صلحوا واستقاموا {فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْأَلُونَ} (مطلع النور) .

* * *

رابعاً - المسؤولية الفردية :

" ذهبت طالبة شابة من جامعة فرانكفورت تقول لمدير الجامعة مستجدة : إن والديها يهددانها بالطرد ، ولما سألتها عن السبب أجبت : لأنها ستبخ مولوداً وقالت : إنها لا تعلم اسم أو شخصية والده ، لأنه كان يرتدي قناعاً حيث إنها ارتكبت الفاحشة في أيام الكرنفال أو الناشنج ، وهذه الحادثة ليست إلا قصة صغيرة نقع أمثالها عشارات الآلاف كل سنة في بلاد الإباحية التي أحبت تقاليد الدعارة الجماعية تحت ستار التطور والتحرر . فكانت أعياد الكرنفال أو الناشنج التي تستمر ثلاثة أيام وفيها تباح كل الأعراض والحرمات ، بل إنه من المخالف للأدب التقاليد أن تسير فتاة مع صديقها هذه الليلة أو تسهر زوجة بجانب زوجها . وأيام الإباحة الثلاثة تبدأ رسمياً في الدقيقة 11 من الساعة 11 من اليوم 11 من الشهر 11 من كل سنة مع تفاؤت بسيط في مواعيدها بين مدينة وأخرى ، وفي أثناء هذه المهرجانات بهذه المناسبة تتعرى النساء من كل شيء تقريباً وهن يختلطن بالرجال حيث تجري الدعارة الجماعية وبدون أن يعرف كل رجل ما اسم هذه التي يرافقها ، وبدون أن تعرفه هي أيضاً ، لأن الجميع يحرصون على ارتداء الأقنعة ، وفلسفة الألمان في هذه الأعياد هي أن من حق البشر أن يخطئوا ، لأنهم إذا لم يخطئوا فسيتقعون إلى مستوى الآلهة ، وهذا غير معقول وأن خطاياهم ستغفر لهم حتماً لأن المسيح قد دفع الثمن وصلب من أجلهم ، وهم يرددون هذه الفلسفة في صحفهم ومجالسهم وفي كل مكان " ¹ .

هذه ثمرة من ثمرات الفكرة النصرانية التي تقول : إن الإنسان خاطئ منذ ولادته ، لأن آباء آدم قد ارتكب الخطيئة ، وأن المسيح عليه السلام - صلب - حسب زعمهم حتى يكفر عن البشر خطاياهم فهو قد تحمل خطايا البشر .

وهذه الفكرة معناها أن الإنسان مسؤول عن أعمال غيره ، وغيره مسؤول عن أعماله ، وبين هذا وهذا تضييع المسؤولية الفردية التي يحس بها الإنسان أنه مسؤول عن أعماله فقط . صغيرها وكبيرها ، وليس مسؤولاً عن عمل غيره بتاتاً .

ويترتب على الفكرة الأولى ناحيتان خطيرتان :

¹ مجلة حضارة الإسلام .

الأولى : أن الإنسان غير طاهر القلب والنفس منذ نشأته بسبب وراثته الخطيئة وهذا يؤثر تأثيراً سيئاً في نظرته لنفسه من حيث إنه كما ورث الخطية ولم يخطئ ، فسيعتمد على غيره في حمل خططياته عنه .

الثانية : أنه ما دام غيره مسؤولاً عن ذنبه ، فإنه لن يبالي بهذه الذنوب وعندئذ تملأ الخطية الأرض ، وادرس ما يحدث في كنائس أمريكا وبريطانيا وغيرها مما بالذات تجد مقدار اللامبالاة في الخطية .

وهذا أكثر الأديان اتباعاً الآن في العالم .

* * *

وتوجد عند البراهمة والبوديبيين والجنيبيين - وهي ديانات لها أتباعها الكثير في العالم - عقيدة شبيهة من حيث سلب مسؤولية الإنسان الفردية بالديانة النصرانية .

هذه العقيدة هي عقيدة تناصح الأرواح ، وخلاصة هذه العقيدة أن الروح بعدما تفارق جسداً في هذه الدنيا تنتقل إلى جسد آخر في هذه الدنيا نفسها ، ولا يكون هذا الجسد الثاني أو القالب الثاني بكلمة أصح إلا متفقاً مع الحياة التي قد أعدها الإنسان لنفسه بأعماله وأفكاره وميوله وعواطفه في حياته الأولى .

فإن كانت أعماله وأفكاره وميوله وعواطفه سيئة ولتأثيرها قد حدثت فيه مؤهلات واستعدادات سيئة ، فإن روحه ستنتقل إلى طبقة مبنية من طبقات الحيوانات أو النباتات ، وأما إن كانت أعماله وأفكاره وميوله وعواطفه صالحة ولتأثيرها قد حدثت فيه مؤهلات واستعدادات صالحة ، فإن روحه ستترتقي إلى طبقة من الطبقات العليا " .

هذه العقيدة مقضها أنني أنا الإنسان الحالي . إنسان بهذا الوضع نتيجة لسلوك غيري ، وحصلية لسلسلة طويلة من أعمال المخلوقات قبلي ، وهذه المخلوقات السابقة علي ، هي أنا وأنا بأعمالي الحاضرة سأكون وبالتالي نباتاً أو حيواناً أو إنساناً .

فماذا ينتج عن هذه العقيدة ؟

1 - "سينتج عن هذه العقيدة شعور لدى الإنسان بأن الحيوان والنبات والإنسان سواء في ميزان الوجود ، إذ الحيوان كان إنساناً والنبات كان حيواناً . ويترتب على هذا ألا يجوز إلزاء النبات والحيوان والإنسان ، حتى ولو آذاني الإنسان ، وعندئذ فإن أمة مثل هذه العقيدة ليست صالحة ولذلك فإن أهلها يعيشون مشتتين بين واقعهم الذي يعملون ، وعقيدتهم التي يعتقدون .

2 - كما ينتج عن هذه العقيدة رهابانية مميتة عملياً ، إذ إن أهل هذه العقيدة يعتقدون أن الشهوة هي أصل كل فساد في الأرض وهي التي تلوث الروح بالذنوب والآثام ، ولأجلها تنتقل الروح من قالب إلى قالب وتذوق وبال أعمالها مرة بعد مرة ، فالإنسان إذا أودى بها ، وقضى عليها ، ولم يشغل نفسه بمشاكل الدنيا وشواغبها ، فلروحه أن تناول الخلاص من دورة التناصح ويقولون :

ليست هناك سبل أخرى للخلاص من دورة التناصح غير هذه ، لأنه من المحال إذا انشغل الإنسان بمشاكل الدنيا وشواغبها وشؤونها الخلابة أن يأمن على نفسه الافتتان بالدنيا والاسترسال وراء شهواتها وملاهيها . والنتيجة الازمة لذلك - يقولون - إن من أراد لنفسه الخلاص من دورة التناصح فعليه أن ينعزل عن الدنيا ، ولا يسكن إلا في الغابات ، ورؤوس الجبال وكهوفها ، وإن لم يفعل ذلك فعليه أن ييأس من الخلاص من دورة التناصح ، ويستعد للانضمام إلى طبقات الحيوانات والنباتات .

3 - ولما كانت الفكرة الأولى والثانية غير عمليتين ؟

فالناس نتيجة لذلك إما أن يسلكوا الطريق المرسوم للخلاص من دورة التناصح بزعمهم فتقن البشرية كلها لو سلكت هذا الطريق .

وإما إنسان لن يمشي في هذا الطريق وهو وبالتالي لا يبالي لأنه ليس مسؤولاً عن حاضره ولا يهمه مستقبله¹ .

* * *

¹ الحضارة الإسلامية : أساسها ومبادئها للمودودي .

ويظهر انعدام المسؤولية الفردية عند البشرية بصورة أخرى ؛ كلها غير معقول :

تظهر بصورة أخذ الثأر من أي قريب للفائل ، وتطهر بصورة الإيمان بأن الإنسان غير مسؤول أمام أحد عند الملحدين الفوضويين ، وتطهر بصورة أن الإنسان مسؤول أمام القانون فقط فإذا استطاع أن يهرب من عين القانون فعل ما شاء .

* * *

وهناك صورة أخرى تتعذر فيها المسؤولية موجودة عند اليهود .

فاليهود يعتقدون أنهم شعب الله المختار ، الذي غفر له كل شيء ، فمهما فعلوه من جرائم أو مآس ، أو مفاسد ، أو مظالم ، فإن خصوصيتهم هذه تجعلهم بمنجاة من عذاب الله إلا بشكل بسيط جداً جداً .

هذه صور من فرار الإنسان من المسؤولية كانت يوم بعث محمد رسول الله ﷺ ولا زالت وهي كلها صور غير معقولة ، وأثارها خطيرة على الإنسان ، والحياة الإنسانية كلها ، من حيث انعدام مسؤولية الإنسان أو قصورها ، مما يؤدي إلى انحراف فظيع في السلوك .

فماذا فعل محمد ﷺ بأمر الله ووحيه ؟ :

لقد كان الإعلان الذي أعلنه الإسلام هو أن الإنسان لا يتحمل إلا مسؤولية أعماله وحده ، فلا يتحمل مسؤولية ذنب جد ولا مسؤولية ذنب أخ وعم ، إلا إذا كان له علاقة في الموضوع ، وأن الجيل اللاحق لا يتحمل أوزار الجيل السابق ، وإنما الإنسان مسؤول عن أعماله وحده صغيرها وكبیرها أمام الله في الآخرة . وأما شريعة الله في الدنيا فقال القرآن .
{وَلَا تَنْزِرُ وَازِرَةً وزْرَ أَخْرَى} .

وقال الرسول ﷺ : " كلکم راع وكلکم مسؤول عن رعيته " .

وخاطب القرآن الناس

{لَيْسَ بِأَمَانِكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلُ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلُ سُوءًا يُجْزَى بِهِ} النساء : 123 .

فأصبح المسلم يحاسب نفسه على الصغيرة والكبيرة . حتى قال قائل المسلمين : " كنا ندع تسعة أعشار الحال مخافة الوقوع في الحرام " وأصبح الذي يقدم الإنسان أو يؤخره هو عمل الإنسان حتى قال رسول الله p : " يا معشر قريش اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا بنى عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً ، ويا صفية عمّة رسول الله p لا أغني عنك من الله شيئاً ويا فاطمة بنت محمد p سلبني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئاً " رواه البخاري ومسلم .

وبذلك استقام سلوك الإنسان ، وتحرر ضمير الإنسان من التواكل على الآخرين ، وبذلك لم يعد الإنسان غير مبال في أمر الخطيئة ، وبذلك استقلت شخصية الإنسان استقلالاً تاماً ، وبذلك أصبح الخير مرجواً من الإنسان ، وبذلك قضي على الخرافية ، وقامت الحقيقة محلها .

هذه الثمرة العظيمة من ثمار دعوة محمد p تدل على أن محمداً رسول الله ، لأنها ثمرة ما كانت لتكون لو لا الوحي ، وقد صاغ العقاد هذا الموضوع صياغة عالية نأخذ من فقراتها ما يلي :

" وللديانة الإنسانية مناط واحد ، هو ضمير كل فرد من أفرادها . فما لم يكن لهذا الضمير حساب ، وعليه تبعة ، فلا ديانة لإنسان ، ولا لجملة الناس وفكرة التبعية الفردية والمسؤولية الفردية بسيطة ، سهلة الفهم ، تتجدد الحاجة إلى تطبيقها كل يوم ، في كل بيئة اجتماعية ، فلو كانت الفكرة تروج بمقدار بساطتها ، وسهولة فهمها ، وتتجدد الحاجة إلى تطبيقها ، لما خلا المجتمع الإنساني قط من مبدأ المسؤولية الفردية منذ أوائل عهد الإنسان بالمجتمع .

لكن الواقع أن هذه الفكرة البسيطة قد أهملت ، وظللت مهملة من عهد البداوة إلى عهود الحضارة الأولى ، لأن محاسبة الفرد لم يكن لها مرجع إلى سلطان واحد ، إذ كان الفرد من القبيلة يعتدي على فرد من قبيلة أخرى ويندر أن ترضى قبيلة المعتمدي أن تسلمه إلى قبيلة المعتمدى عليه . فإن لم تسلمه تضامنت في الدفاع عنه ، ووقعت الحرب بين القبيلتين ، أو

تعرض كل فرد من أفراد قبيلة المعتمدي لأخذ الثأر منه ، وقد يتوارثون الثأر إلى الأبناء والأعقارب .

فمضى نظام القبيلة على مسؤولية القبيلة كلها عن جميع أفرادها ، ثم تطورت القبيلة وتتألف الشعب من جملة قبائل مترابطة على نظمها القديم فثبتت على عاداتها لصعوبة التغيير في الجماعات التي تقوم على المحافظة ، وعلى رعاية المؤثرات السلفية ، وبلغ من ثبات هذه العادات أن رومة التي كانت تسمى أم الشرائع . جعلت الأب مسؤولاً عن الأسرة ، وأباح له التصرف في أرواحها وأموالها ، وقد نظرتها في الشرق شريعة حمورابي فجعلت من حق الرجل الذي تقتل بنته أن يتسلم بنت القاتل ليقتلها كأنها لا تحسب عندهم إنساناً مستقلاً بحياته .

وكانت في الهند حضارات تأخذ بمبدأ المسؤولية الفردية ، ولكنها ترجع إلى حياة سابقة متسللة من حياة سابقة على مدى الأزمنة التي لا تعرف لها بداية منذ أزل الآزال ، فهو مولود بجرائم وأئمه ، وكفاره تلك الجرائم والآثام إلى الأجل المقدر ، وليس تبعاته مرهونة بما يفعله بعد ميلاده . بل هي سابقة للميلاد لاحقة به آماداً بعد آماد .

(كان القول الشائع أن عصيان آدم جريرة لا يسأل عنها وحده بل يسأل عنها كل ولد من ذريته) .

أما الدعوة الإسلامية فالمسؤولية الفردية فيها شيء جديد كل الجدة لم يتتطور مما تقدمه ولم يكن نتيجة قط لإحدى هذه المقدمات .

ومعجزة المعجزات فيها أنها قامت بالمسؤولية الفردية حيث يصدحها كل عرف قائم ، ويعوقها كل نظام مصطلح عليه في المعاملات والعقوبات .

قامت بها في أعماق الجزيرة العربية ، ولا قانون فيها غير قانون الثأر ، ولا شريعة لها غير شريعة القبيلة ، وتعلم الناس {وَأَن لَّيْسَ لِلنَّاسَ إِلَّا مَا سَعَى} النجم : 39 أن جيلاً لا يؤخذ بجريمة أسلافه ، ولا يؤخذ خلفاؤه بجريرته .

{تَلَكَ أُمَّةٌ فَذُخْلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} البقرة : 141 و {كُلُّ أُمْرَىءٍ بِمَا كَسَبَ رَهَيْن} الطور : 21

" فمرحلة شاسعة لم يعمل فيها تاريخ البشرية كله ما عمله الإسلام وحده ، مبتدئاً بغير سابقة ، بل مبتدئاً على الرغم من العوائق والموانع والمناقصات . ولم تكن هذه المرحلة الشاسعة نافلة من نوافل الرأي على حواشي العقيدة ، ولكنها هي الفتح الأكبر من فتوح الصميم في جميع مراحل التاريخ . إذ لا قوام للخلق ولا للدين بغير التبعة ، ولا معنى بغير التبعة لتکليف ولا حساب " .

خامساً - العدل :

ثمرة خامسة من ثمار محمد رسول الله صلی الله عليه وآلہ وسلم تشهد أنه رسول الله ، ولو لا ذلك ما كانت ، هي العدل الذي ما عرف تاريخ العالم له مثيلاً . وسنختار حوادث من حياة رسول الله p والصحابة الذين رباهم . نرى فيها كيف ارتفعت النفس البشرية بمحمد وبهديه إلى آفاق هي أعلى ما يطمح إليه الطامحون على مدى الأزمان والأجيال . ونرى بذلك كيف أن القرآن كان واقعاً حياً متمثلاً بهذا الجيل الفريد ، وكيف أن القرآن يرفع الإنسان إلى أعلى آفاق الإنسانية وما خالفة يدنيه نحو حضيض الحيوانية .

* * *

{يَا أَيُّهَا الْذِينَ آمَنُوا كُوئُوا فَوَّامِينَ بِالْقُسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوْ أَلْوَالِهِنَّ وَالْأَقْرَبَيْنَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَإِنَّ اللَّهَ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَبَعُوا الْهَوَى إِنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلُوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا} النساء : 135 .

{يَا أَيُّهَا الْذِينَ آمَنُوا كُوئُوا فَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقُسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلنَّفْوِ وَأَنْفُوا الَّلَّهُ إِنَّ الَّلَّهَ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} المائدة : 8 .

{وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ} النساء : 58 .

* * *

1 - أخرج انب ماجه عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : جاء أعرابي إلى النبي p يتقدماه ديناً كان عليه فاشتد عليه حتى قال : أخرج عليك إلا قضيتني فانتهره أصحابه فقالوا

ويحك تدري من تكلم ؟ قال : إن أطلب حقي . فقال النبي ﷺ : هلا مع صاحب الحق كنتم ؟ ثم أرسل إلى خولة بنت قيس فقال لها : إن كان عندك تمر فاقرضينا حتى يأتينا تمر فنقة ضيائك فقالت : نعم بأبي أنت وأمي يا رسول الله فاقترضه فقضى الأعرابي وأطعمه فقال : أوفيت أوفي الله لك فقال :

" أولئك خيار الناس إنه لا قدست أمة لا يأخذ الضعيف فيها حقه غير متعن ".

أي من غير أن يصيبه أذى يلقاه ويزعجه . والحديث رواه البزار عن عائشة مختصرًا والطبراني من حديث ابن مسعود رضي الله عنه بإسناد جيد .

2 - وأخرج البخاري عن عروة أن امرأة سرقت في عهد رسول الله ﷺ في غزوة الفتح ففزع قومها إلى أسامة بن زيد رضي الله عنه يستشفعونه . قال عروة : فلما كلمه أسامة فيها تلون وجه رسول الله ﷺ وقال :

أتكلمني في حد من حدود الله؟

قال أسماء : استغفر لي يا رسول الله .

فَلَمَّا كَانَ الْعَشِي قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَطِيبًا فَأَتَشَى عَلَى اللَّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ثُمَّ قَالَ :

"أما بعد فإنما أهلك الناس أنهم كانوا إذا سرق فيه الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها

ثم أمر رسول الله ﷺ بتلك المرأة فقطعت يدها فحسنت توبتها بعد ذلك وتزوجت .
قالت عائشة رضي الله عنها : كانت تأتي بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ .

3 - أخرج البيهقي عن عبد الله بن عمرو بن العاص "أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قام يوم الجمعة فقال :

إذا كان بالغدة فأحضروا صدقات الإبل نقسم ولا يدخل علينا أحد إلا بإذن فقالت امرأة لزوجها :

خذ هذا الخطام لعل الله يرزقنا جمالاً ، فأتى الرجل فوجد أبو بكر وعمر قد دخلا إلى الإبل فدخل معهما فالتفت أبو بكر فقال :

ما أدخلك علينا ؟

ثم أخذ منه الخطام فضربه ، فلما فرغ أبو بكر من قسم الإبل دعا الرجل فأعطاه الخطام وقال : استقد (أي اقتض مني كما ضربتك فاضربني) فقال له عمر : والله لا يستقيد لا تجعلها سنة قال أبو بكر فمن لي من الله يوم القيمة فقال عمر : أرضه . فأمر أبو بكر غلامه أن يأتيه براحلة ورحلها وقطيفة (أي كساء له حمل) وخمسة دنانير فأرضاه بها .

4 - كان الرسول ﷺ قد وكل بتقدير حصة المسلمين في خير عبد الله بن رواحة وكان أهلها يهوداً وفي ذلك يروي البيهقي عن ابن عمر رضي الله عنه حديثاً منه :

كان عبد الله بن رواحة رضي الله عنه يأتيهم كل عام فيخرصها (أن يخمنها) عليهم ثم يضمنهم الشطر فشكوا إلى رسول الله ﷺ شدة خرصه وأرادوا أن يرشوه فقال :

يا أعداء الله تعطموني السحت (أي الحرام) والله لقد جئتم من عند أحب الناس إلي ولأنتم أغضن إلي من عدتكم من القردة والخنازير ولا يحملني بغضي إياكم وحبي إياه على أن لا أعدل عليكم قالوا : بهذا قامت السموات والأرض .

5 - أخرج ابن عساكر وسعيد بن منصور والبيهقي عن الشعبي قال : " كان بين عمرين وبين أبي كعب - رضي الله عنهمَا - شيء فقال عمر :

اجعل بيدي وبينك رجالاً فجعل بينهما زيد بن ثابت رضي الله عنه فأتياه فقال عمر :

أتيناك لتحكم بيننا وفي بيته يؤتى الحكم . فلما دخلا عليه وسع له زيد عن صدر فراشه فقال لها هنا يا أمير المؤمنين ، فقال له عمر : هذا أول جور جرت في حملك ولكن

اجلس مع خصمي فجلسا بني يديه فادعى أبي وأنكر عمر فقال زيد لأبي : اعف أمير المؤمنين من اليمين وما كنت لأسألكم لأحد غيره فخلف عمر ثم أقسم لا يدرك زيد القضاء حتى يكون عمر ورجل من عرض المسلمين عنده سواء .

6 - وأخرج ابن سعد وابن راهويه عن عطاء قال : كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يأمر عماله أن يوافوه بالمواسم فإذا اجتمعوا قال : " يا أيها الناس إني لم أبعث عمالا عليكم ليصيّبوا من أبشركم ولا من أموالكم إنما بعثتهم ليجزوا بينكم وليرسموا فيكم بينكم فمن فعل به غير ذلك فليقم " مما قام أحد إلا رجل قام فقال :

يا أمير المؤمنين إن عمالك فلاناً ضربني مائة سوط قال : فيم ضربته ؟ قم فاقتص منه فقام عمرو بن العاص رضي الله عنه فقال : يا أمير المؤمنين إنك إن فعلت هذا يكثر عليك وتكون سنة يأخذ بها من بعدك . فقال : أنا لا أقيد ؟ وقد رأيت رسول الله يقيد من نفسه قال : فدعنا لنرضيه .

قال : دونكم فأرضسوه فافتدى منه بمائتي دينار كل سوط بدينارين .

7 - وأخرج ابن عساكر قال :

كتب عمر بن الخطاب إلى فيروز الديلمي رضي الله عنهما :

" أما بعد فقد بلغني أنه قد شغلك أكل اللباب بالعسل فإذا أتاك كتابي هذا فاقدم على بركة الله فاغز في سبيل الله " فقدم فيروز فاستأذن على عمر رضي الله عنهما فأذن به فراحمه فتى من قريش فرفع فيروز يده فلطم أنف القرشي فدخل القرشي على عمر مستدمسى فقال له عمر من فعل بك ؟

قال : فيروز وهو على الباب .

فأذن لفيروز بالدخول فدخل فقال :

ما هذا يا فيروز ؟

قال : يا أمير المؤمنين إنا كنا حديثي عهد بملك ، إنك كتبت إلي ولم تكتب إليه ، وأنذت لي بالدخول ولم تأذن إليه فأراد أن يدخل في إدني قبلي فكان من ما قد أخبرك .

قال عمر : القصاص .

قال فiroز : لا بد ؟

قال : لا بد .

فجئ فiroز على ركبتيه وقام الفتى ليقتص منه فقال له عمر رضي الله عنه : على رسلك أيها الفتى حتى أخبرك بشيء سمعته من رسول الله ﷺ : سمعت رسول الله ﷺ ذات غداة وهو يقول : قتل الليلة الأسود العنسى الكذاب قتلها العبد الصالح فiroz الديلمي ، أفتراك مقتضاً منه بعد أن سمعت هذا من رسول الله ﷺ قال الفتى : قد عفت عنه بعد أن أخبرتني عن رسول الله ﷺ بهذا فقال فiroz لعمر : أفترى هذا مخرجى مما صنعت إقرارى له وعفوه غير مستكره ؟ قال : نعم قال فiroz : فأشهدك أن سيفي وفرسي وثلاثين ألفاً من ملي هبة له .

8 - وأخرج الطبرى عن إپاس بن سلمة عن أبيه قال : مر عمر بن الخطاب فى السوق ومعه الدرة فخفقني بها خفقة فأصاب طرف ثوبى فقال : أمط عن الطريق لما كان فى العام المقبل لقيني فأخذ بيدي فانطلق بي إلى منزله فأعطاني ست مائة درهم وقال : استعن بها على حج واعلم أنها بالخفة التي خفقتك قلت يا أمير المؤمنين : ما ذكرتها .

قال : ما نسيتها .

9 - أخرج المحب الطبرى في مناقب العشرة قال :

كان لعثمان بعد فقال له : إني كنت عركت أذنك فاقتصر مني فأخذ بأذنه ثم قال عثمان : أشدد يا حبذا قصاص في الدنيا لا قصاص في الآخرة .

10 - وأخرج ابن عساكر عن علي بن ربيعة قال : " جاء جعده بن هبيرة إلى علي رضي الله عنه فقال : يا أمير المؤمنين يأتيك الرجال أنت أحب إلى أحدهما من نفسه أو قال :

من أهله وماله والآخر لو يستطيع أن يذبحك فتقضي لهذا على هذا قال : فلهذه علي رضي الله عنه وقال : إن هذا لشيء لو كان لي فعلت ولكن إنما ذا شيء الله " .

11 - وأخرج الترمذى والحاكم عن الشعبي قال : خرج علي بن أبي طالب إلى السوق فإذا هو بنصرانى يبيع أدرعاً فعرف علي رضي الله عنه الدرع فقال : هذه درعي بيني وبينك قاضى المسلمين ، وكان قاضى المسلمين شريحاً ، كان علي استقضاه ، فلما رأى شريح أمير المؤمنين قام من مجلس قضائه وأجلس علياً في مجلسه وجلس شريح قدامه إلى جنب النصرانى فقال علي :

اقض بيني وبينه يا شريح فقل شريح :

ما تقول يا أمير المؤمنين ؟ فقال علي : هذه درعي وقعت مني منذ زمان فقال شريح : ما تقول يا نصرانى ؟

فقال النصرانى : ما أكذب أمير المؤمنين الدرع درعي .

فقال شريح : ما أرى أن تخرج من يده فهل من بينة ؟

فقال علي : صدق شريح .

فقال النصرانى : أما أنا فأشهد أن هذه أحكام الأنبياء . أمير المؤمنين يجيء إلى قاضيه وقاضيه يقضيه علىّ ، هي والله يا أمير المؤمنين درعك ، اتبعتك وقد زالت عن جملك الأورق فأخذتها فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

فقال علي :

أَمَا إِذَا أَسْلَمْتَ فَهِيَ لَكَ وَحْمَلَهُ عَلَى فَرْسٍ .

12 - وأخرج أبو نعيم في الحلية عن الحارث بن سويد قال : كان المقداد بن الأسود رضي الله عنه في سرية فحصروا فعزם الأمير أن لا يجسر أحد دابته (أي لا يخرجها للمراعي) فجسر رجل دابته لم تبلغه العزيمة فضربه فرجع الرجل يقول : ما رأيت كما لقيت اليوم قط فمر المقداد فقال : ما شأنك . فذكر له قصده فقدله السيف وانطلق معه حتى انتهى إلى الأمير فقال : أقد من نفسك فأقاده فعفا الرجل فرجع المقداد وهو يقول : (لأموتون والإسلام عزيز) .

* * *

إن هذا العدل الذي رأينا بعض نماذجه فيما مضى ، إنما كان وليد دعوة السيد الرسول ﷺ وإن العرب قبل كان شعارهم " انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً " وإن الإنسان ليعجب كيف تمثل أصحاب رسول الله ﷺ هذا العدل بهذه السرعة ، وبهذا العمق ، بحيث أنهم غلبوا أمماً ، وسيطروا عليها . فسسواها سياسة عادلة لا مثيل لها ، مما أدى بهذه الشعوب أن تدخل في الإسلام أفواجاً بمجرد أن رأوا معاملة هؤلاء الفاتحين الذين لا يغلبون . العادلين الذين لا يجرون :

وعلى الرغم من تضاؤل جيل الصحابة بالنسبة لرقة الأرض المفتوحة ، فإن قوة الحياة التي صبّتها تربية الرسول ﷺ في قلوب الأصحاب ، كانت كافية لأن تجعل الأمور تمشي في طريقها المستقيم .

وحتى بعد ذلك ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فإن قضاة الإسلام المتحققين بالإسلام علماء وعملاء . هم الذين يضربون أبداً المثل الأعلى في العدل الرباني العظيم ، الذي يتضاعل بجانبه كل قضاء .

وأنقل هنا مثيلين لقاض من قضاة الدولة العباسية . وهو شريك بن عبد الله قاضي الكوفة في زمن الخليفة المهدى . لترى فيها نزاهة القضاء الإسلامي وعدله :

1 - "قال عمر بن الهياج : كنت من صحابة شريك ، فأتيته يوماً وهو في منزله باكراً فخرج إلى بفرو ليس تحته قميص عليه كساء ، فقلت له : ألا تقوم إلى مجلس الحكم ؟

قال : غسلت ثيابي أمس فلم تجف فأنا أنتظر جفوفها اجلس . فجلست فجعلنا نتذاكر
باب (العبد يتزوج بغير إذن مواليه) فقال : ما تحفظ فيه ؟ ما تقول فيه ؟

وكانت الخيرزان قد وجهت رجلاً في الطراز إلى الكوفة وجاء الوالي عيسى بن
موسى الأمر بآلا يتعرض له ، فكان هذا الرجل حر التصرف لا يعصى له أمر ، ولا سلطان
لالأمير عليه .

فخرج علينا ذلك اليوم من زقاق يفضي إلى النخع ، ومعه جماعة من أصحابه . عليه
جبة خز وطيلسان على برذون فاره ، وإذا رجل بين يديه مكتوف فلما مر بيبيت القاضي صاح
الرجل :

واغوثاه أنا بالله ثم بالقاضي ، ففتح شريك الباب وخرج ، فدعا به فإذا ظهره مكشوف
وآثار الضرب فيه . فأقعده إلى جنبه وقال له : ما شأنك ؟ قال : أنا رجل أطرز وأعمل
الوشي ، هذه صناعتي ، وقراء مثلي مئة في الشهر . وأخذني هذا منذ أربعة أشهر قسراً ،
وحبسني وألزمني بالعمل بالقوة ، ولا يعطيني أجراً ولني عيال قد ضاعوا ، فهربت منه
فلحقني فضربني وكتقني . فقال شريك للوكيل : قم فاجلس مع خصمك .

قال : أصلحاك الله يا عبد الله هذا من خدم السيدة ، وهذا أمرها فاحبسه حتى يشتغل لها
قال : ويلك قم فاجلس معه كما يقال لك ، فقام فجلس معه . قال :

ما هذه الآثار التي تظهر بظهر هذا الرجل ؟ من أثراها به ؟ قال : أصلح الله القاضي
إنما ضربته أسواطاً بيدي وهو يستحق أكثر من هذا لأنه لم يشتغل للسيدة . احبسه حتى يشتغل
، هذا أمر السيدة .

فألقى شريك رداءه وقام فدخل داره ، وأخرج سوطاً وضرب بيده إلى مجامع ثوب
الوكيل وقال للرجل :

ادهـب إـلـى أـهـلـك وـجـعـلـ يـضـرـبـ الـوـكـيلـ . فـهـمـ أـعـوـانـيـ أـنـ يـخـلـصـوـهـ فـقـالـ :ـ مـنـ هـاـ هـنـاـ
مـنـ شـبـابـ الـحـيـ ؟ـ فـجـاءـهـ جـمـاعـةـ فـقـالـ :

من وقف من هؤلاء فاذهبوا به إلى الحبس . فهربوا جميعاً وتركوه ، وما زال يضربه حتى رأى أن ذلك يكفيه . فتركه فانصرف وهو يهدد بانتقام السيدة . فألفى السوط من يده . وعاد إلى ما كنا فيه من المذاكرة كأنه لم يصنع شيئاً وقال لي :

يا أبا حفص ما تقول في العبد يتزوج بغير إذن مواليه ؟

وأراد الوكيل أن يركب برذونه فاستعصى عليه . ولم يكن معه من يمسك له الركاب فجعل يضرب البرذون فصاح به شريك :

ارفق به ويلك ، فإنه أطول الله منك ، فمضى ماشياً . فقال لي شريك : خذ فيما كنت فيه قلت : مالنا ولهذا الآن ؟ قد فعلت والله فعلة ستكون لها عاقبة مکروهة : من ضرب وكيل الخيرزان فكانه ضربها . ومن ضربها فكانما ضرب الخليفة . قال : أعز أمر الله يعزك . خذ فيما كنا عليه . فعدنا نتذكر في مسألة العبد يتزوج بغير إذن مواليه . وذهب الوكيل إلى موسى بن عيسى أمير الكوفة فدخل عليه شاكياً باكيًا . وكشف عن ظهره فارتاع الولي وغضب وقال :

من فعل بك ذلك ؟

قال : شريك .

قال : لا والله ما أتعرض لشريك ، قال : سأشكوك إلى السيدة .

قال : لا أتعرض لشريك .

فمضى الوكيل ولم يعد " .

2 - كان موسى أمير الكوفة من كبار أمراء البيت العباسى . وكان له سلطان الإمارة وسلطان النسب . وكان مع ذلك كله يتتجنب أن يكون بينه وبين القاضي خلاف . ويبعد عن طريقه ولا يعارضه في شيء . ولم ينج مع هذا كله من الخلاف . ولم يختلفا لأن الأمير

عرض له في قضائه بين الناس . ولا لأنه دخل مؤيداً لدعى أو مدعى عليه ، بل اختلفا من أجل دعوى أقيمت على الأمير نفسه ، وسبب الدعوى " أن الأمير أراد أن يوسع داره . وكان إلى جنبها بستان نخل لأخوة ورثوه من أبيهم . وكانوا خمسة إخوة وأختاً واحدة . فاشترى منهم جميعاً إلا الأخت . فإنها أبنت أن تبيع فزادها في الثمن وضاعفه لها أضعافاً . وهي تصر على الإباء . فغاظه أن يفسد عليه أمره حمق هذه المرأة . وأراد أن يضطرها إلى البيع وكان بينها وبين حصص إخواتها التي باعوها سياج . فبعث غلمانه ليلاً فأزالوه .

وأصبحت المرأة فرأت نخلها قد اخالط بنخل إخواتها ولم تعد تعرف أرضها من الأرض التي باعوها للأمير . فأقبلت تبكي وتلتزم . ولا تدري ماذا تفعل . وذهبت تكلم الأمير فلم يسمع منها وقال لها :

خذني ثمن الأرض أضعافاً .

قال : لا أبيعها وانطلقت تتوسل إليه بوجوه البلد ، فما وجدت منهم مسعاً ولا معيناً
قال لها واحد من جيرانها :

أنا أدلك على من يخلاص لك حقك . فاستبشرت وابتهجت وقالت : من هو ؟ قال :
القاضي . اذهب بي إليك فنادي أنا بالله ثم بالقاضي ، وقصي عليه قصتك .

فذهبت تسأل الناس : أين قصر القاضي فيضحكون منها ويقولون لها : ومتى كان للقاضي قصر ؟ اطلبيه في المسجد أو في داره . ودلولاً على داره فرأت داراً صغيرة من اللبن والطين . ما على بابها حرس ، وليس حولها جند . فقالت في نفسها أين هذا من قصر الأمير وهمت بالرجوع ، ثم أحببت أن تجرب فقرعت الباب تسأله عنه ، فقالت له امرأته هو في مجلس الحكم في المسجد . فدخلت إلى المسجد تسأل عنه فدلوها عليه . فصاحت أنا بالله ثم بالقاضي . قال : من ظلمك ؟

قالت : الأمير موسى بن عيسى .

قال : فيم وما دعوك ؟ فحكت له قصتها ، فأعطها ورقة بعد أن ختمها وقال لها :
امض بها إلى بابه حتى يحضر معك .

فَلَمَّا أَرَادَتِ الدُّخُولَ عَلَى الْأَمِيرِ صَاحَ بِهَا الْحَاجِبُ : مَكَانِكِ يَا امْرَأَةَ مَاذَا تَرِيدِينَ ؟

قَالَتْ : الْأَمِيرُ .

فَأَرَادَ إِرْجَاعَهَا فَقَالَتْ :

إِنْ مَعِي هَذِهِ ، قَالَ : وَمَا هَذِهِ يَا امْرَأَةَ ، قَالَتْ : بَطَاقَةُ الْقَاضِي لِلْأَمِيرِ فَوْثَبٌ وَقَالَ :
تَقُولِينِ إِنَّهَا بَطَاقَةُ الْقَاضِي هَاتِيَاهَا لِأَرَاهَا ، فَلَمَّا رَأَاهَا قَالَ وَيْحَكَ وَلَمْ لَمْ تَقُولِي مِنْ أَوْلَى الْأَمْرِ إِنْ
مَعَكَ بَطَاقَةُ الْقَاضِي ؟ ادْخُلِي . فَلَمَّا قَرَأَهَا الْأَمِيرُ أَمْرَ بِدُعْوَةِ صَاحِبِ الْشَّرْطَةِ فَلَمَّا جَاءَهُ قَالَ :

امض إلى شريك فقل له يا سبحان الله ما رأيت أعجب من أمرك . امرأة ادعت
دعوى لم تصح أعديتها علي ، فحاول صاحب الشرطة أن يعتذر عن هذه المهمة ، فأصر
الأمير فأرسل صاحب الشرطة من يأخذ له أغراضه إلى السجن ولما أوصل الرسالة أمر به
شريك إلى السجن لأنه يتدخل في شأن القضاء ، فأرسل الأمير الحاجب فسجنه شريك أيضاً ،
فأرسل إليه الأمير وجوه الكوفة للوساطة فسجنهم جميعاً . فجاء الأمير ليلاً ففتح باب السجن
وأخرجهم جميعاً ، ولما بلغ من الغد الأمر إلى شريك قال لغلامه :

الحقني بـتقطي إلى بغداد ، والله ما طلبنا هذا منهم ، ولكن أكر هونا عليه وقد ضمنوا لنا
الإعزاز فيه إذا تقدناه لهم ، وركب دابته ومضى نحو قنطرة الكوفة في طريقه إلى بغداد ،
وأخبر الناس الأمير فلتحقه وجعل يمشي معه ويقول له :

يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ تَبَثِّتْ أَنْظَرْ ، دَعْ أَعْوَانِي ، أَفْتَحْبِسْ إِخْوَانَكْ ؟ إِخْوَانَكْ تَحْبِسْهُمْ ؟ قَالَ :
نَعَمْ ، لَأَنَّهُمْ مَشَوَّلَكْ فِي أَمْرٍ لَمْ يَجِزْ لَهُمُ الْمَشِي فِيهِ ، وَلَسْتَ بِرَاجِعٍ حَتَّى يَرْدُوا جَمِيعًا إِلَى
الْحَبْسِ ، وَإِلَّا مَضَيْتَ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَاسْتَعْفِفْتَهُ مَا قَلَدْنِي ، فَأَمْرَ مُوسَى بِرَدْهُمْ جَمِيعًا إِلَى
الْحَبْسِ وَهُوَ وَاقِفٌ مَكَانَهُ ، حَتَّى جَاءَهُ السَّجَانُ فَقَالَ : قَدْ رَجَعُوا إِلَى الْحَبْسِ . فَقَالَ الْقَاضِي
لَغَلَامَهُ : خَذْ بِلَجَامَهُ فَقَدِهِ إِلَى مَجْلِسِ الْحُكْمِ ، وَنُودِي عَلَى الْمَرْأَةِ فَجَاءَتْ فَأَجْلَسَهَا مَعَهُ ، فَقَالَ
الْأَمِيرُ : أَنَا قَدْ حَضَرْتُ أَفْلَا تَطْلُقُ مِنْ حِسْتَهُمْ ، قَالَ : أَمَا الْآنَ فَنَعَمْ ، وَأَمْرَ بِإِخْرَاجِهِمْ مِنْ
الْسَّجَنِ وَقَالَ لِلْأَمِيرِ :

ما تقول يا رجل فيما تدعى هذه المرأة ؟

قال : صدقت .

قال : أتعيد سياجها وترد ما أخذته منها ؟

قال : نعم .

قال للمرأة : بقي لك شيء تدعينه ؟

قالت : نعم . بيت حارس البستان ومتاعه .

قال : ما تقول ؟

قال : أرد ذلك كله .

قال : بقي لك شيء .

قالت : لا وجزاك الله خيراً .

قال : قومي . ووتب فأخذ بيده موسى وأجلسه في مجلسه وقال له : السلام أيها الأمير
أتأمر بشيء ؟ فضحك وقال : بأي شيء أمر ، قال : ذاك حق الشرع وهذا حق الأدب ¹ .

* * *

عدل لا مثيل له ، ذلك ثمرة من ثمار محمد ﷺ تدل على أنها ثمرةنبي ، إذ ليس لها مصدر سواه تنسب إليه في أمة لم تهذبها ثقافة سابقة ، ولا تجربة قضائية مستمرة ، ولا رقابة اجتماعية معترف عليها .

¹ من رسالة عن القاضي شريك لعلي الطنطاوي .

* * *

سادساً – الطاعة المبصرة :

وثرمة سادسة من ثمار سيدنا محمد رسول الله ﷺ تشهد أنها ثمرة نبى ونبوة ، هي الطاعة لمبصرة ، وذلك أن العرب شعب لم يترب على طاعة أحد ، ولم يترب على نظام ولا انضباط ، وليس لديه مفهوم عن الولاء لحكومة ما ، أو الخضوع لها ، وأما غير العرب فالأمر عندهم مختلف ، طاعة عمياً لملوكهم ومرؤوسיהם في كل شيء . إذا أمروا بالشيء كان خيراً ، وإذا نهوا عنه نفسه كان شراً ، لا يقال لهم لا ، ولا يحاسبون ولا يرافقون .

وحدث ذلك الحدث الضخم ، أن الأمة التي لا تعرف النظام أصبحت منظمة ، والتي لا تعرف الطاعة أصبحت مطيعة ، ولكنها طاعة من نوع جديد فريد ، طاعة بالحق لا بالباطل ، بالعدل لا بالظلم ، لمن يستحقها ، فكان ذلك فتحاً جديداً في تاريخ الوعي عند الشعوب ، لدرجة أن العربي الذي كان يتعصب لقريبه وينصره وإن كان على الباطل ولا يطيع فيه أحداً أبداً ، صار على ابن عمه إذا كان على الباطل ، ويطيع فيه أبعد الناس نسباً عنه في الحق . والذي كان أبعد الناس عن الانضباط ، صار أكثر الناس انضباطاً ، ومن قرأ تاريخ العرب في الجاهلية ، عرف الفارق الكبير بين ذلك الواقع وواقعهم بعد . وهذه أمثلة من واقعهم بعد تربية الرسول ﷺ إياهم .

أ – روى ابن حجرير بسنده عن ابن زيد قال : دعا رسول الله ﷺ عبد الله بن عبد الله ابن أبي أبي قال : ألا ترى ما يقول أبوك ؟ قال : ما يقول بأبي أنت وأمي ؟ يقول : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنا الأعز منها الأذل . فقال : فقد صدق والله يا رسول الله أنت والله الأعز وهو الأذل . أما والله لقد قدمت المدينة يا رسول الله وإن أهل يثرب ليعلمون ما بها أحد أبْر مني ، ولئن كان يرضي الله ورسوله أن آتيهما برأسه لأتّيَهما به . فقال رسول الله ﷺ : لا ، فلما قدموا المدينة قام عبد الله بن عبد الله بن أبي على بابها بالسيف لأبيه ثم قال : أنت القائل لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنا الأعز منها الأذل ، أما والله لتعرفن العزة لك أو لرسول الله ﷺ والله لا يؤريك ظله ولا تأويه أبداً إلا بإذن من الله ورسوله فقال : ياللخزرج ، ابني يمنعني بيتي ! فقال : والله لا يأويه أبداً إلا بإذن منه . فاجتمع إليه رجال فكلمه فقال : والله لا

يدخله إلا بإذن من الله ورسوله ، فأتوا النبي ﷺ فأخبروه فقال : اذهبوا إليه فقولوا له : خلّه وسكنه ، فأتوه فقال : أما إذا جاء أمر النبي ﷺ فنعم .

ب - ومن كلام لسعد بن معاذ يوم بدر يخاطب به رسول الله ﷺ :

" إني أقول عن الأنصار وأجيب عنهم فأظعن حيث شئت ، وصل حبل من شئت ، واقطع حبل من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، وأعطيك ما شئت ، وما أخذت منا كان أحب إليّنا مما تركت ، وما أمرت فيه من أمر فأمرنا تبع لأمرك ، فوالله فئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرن معك ، والله لئن استعرضت بنا هذا البحر خضناه معك " ¹ .

ج - ويروي كعب بن مالك قصته مع الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك فيقول فيها :

" ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه قال : فاجتنبنا الناس أو قال : تغيرة لنا حتى تكررت لي نفس الأرض فما هي الأرض التي أعرف إلى أن قال : حتى إذا طال علي من جفوة المسلمين ، مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة ، وهو ابن عمي وأحب الناس إلى ، فسلمت عليه فوالله ما رد على السلام قلت له : يا أبا قتادة أشدك بالله هل تعلموني أحب الله ورسوله ؟ فسكت فعدت فناشده فسكت ، فعدت فناشده فقال : الله ورسوله أعلم ، ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار " .

ويقول : " بينما أنا أمشي في سوق المدينة إذا نبطي من نبط أهل الشام ممن قدم بالطعام بيبيعه بالمدينة يقول : " ما يدلي على كعب بن مالك ؟ فطفق الناس يشيرون له حتى جاءني ، فدفع إلي كتاباً من ملك غسان ، وكنت كاتباً فقرأته فإذا فيه : أما بعد فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جافاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فالحق بنا نواسك . فقلت حين قرأتها : وهذه أيضاً من البلاء فتيممت بها التدور فسجرتها " ² . حتى نزلت توبته وكان ما كان .

¹ سيرة ابن هشام .

² أخرجه البخاري .

د - وللعرب ولع بالخمر تتحدث عن معاقرتها والاجتماع على شربها الشعرا ، وشغلت جانبأً كبيراً من شعرهم وتاريخهم وأدبهم ، وكثرت أسماؤها وصفاتها في لغتهم ، وكثير فيها التدقيق والتفصيل كثرة تدعو إلى العجب ، وكانت حوانين الخماريين مفتوحة دائماً يرفف عليها علم يسمى غاية . وشاعت تجارتها عندهم حتى أصبحت كلمة التجارة مرادفة لكلمة بيع الخمر ، ومع هذا كله فما يكاد تحريم الخمر ينزل حتى انتهت أمر الخمر من أرض العرب . روى أبو بريدة عن أبيه قال :

ببينما نحن قعود على شراب لنا ونحن نشرب الخمر حلة ، إذ قمت حتى آتي رسول الله فأسلم عليه وقد نزل تحريم الخمر {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَرْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ} .. إلى قوله : {فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ} فجئت إلى أصحابي فقرأتها عليهم إلى قوله : {فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ} .. قال : وبعض القوم شربته في يده شرب بعضاً وبقي بعض في الإناء فقال بالإناء تحت شفته العليا كما يفعل الحجام ثم صبوا في باطنتهم فقالوا : انتهينا ربنا انتهينا .

ه - ولقد تأصل فقه الطاعة في المعروف عند العرب وغيرهم من المسلمين حتى وصل إلى عجائز الناس .

" أخرج مالك عن ابن أبي مليكة قال : إن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - مر بأمرأة مجنونة وهي تطوف بالبيت فقال لها : يا أمة الله لا تؤذني الناس لو جلست في بيتك . فجلست . فمر بها رجل بعد ذلك فقال : إن الذي كان نهاك قد مات فارجعي . قالت : ما كنت لأطيعه حياً وأعصيه ميتاً ."

و - وتأصل فقه الطاعة بالمعروف في أنفسهم ظاهراً وباطناً في الغيبة والحضور في المنشط والمكره :

لما عزل عمر بن الخطاب خالد بن الوليد غضب ناس . ومن غضب علقة بن علاته وهو من أمراء العرب فانظر ماذا كان جوابه في هذه الحادثة اللطيفة :

" لقي عمر - رضي الله عنه - علقة بن علاته جوف الليلة وكان عمر يشبه بخالد بن الوليد - رضي الله عنه - . فقال علقة : يا خالد عزلك هذا الرجل ، لقد أبى إلا شحّا ،

لقد جئت إلينه وابن عم لي نسأله شيئاً ، فاما إذا فعل فلن أسأله شيئاً . فقال له عمر : هيه فما عندك ! فقال : هم قوم لهم حق فنؤدي لهم حقهم وأجرنا على الله . فلما أصبحوا قال عمر لخالد : ماذا قال لك علامة منذ الليلة ؟ قال : والله ما قال لي شيئاً قال : وتحلف أيضاً فعل علامة يقول لخالد : مه يا خالد فقال عمر كلاهما قد صدق وأجاز علامة وقضى له حاجته ¹ .

ز - ولكن طاعتهم طاعة ضمن حدود المعروف أما أن تكون على غير ذلك فلا :

أخرج الشیخان عن علی بن أبي طالب - رضی الله عنه - قال : استعمل النبی ﷺ رجالاً من الأنصار على سرية بعثهم وأمرهم أن يسمعوا له ويطیعوا قال : فأغضبوه في شيء فقال : اجمعوا لي حطباً فجمعوا فقال : أوقدوا ناراً فأوقدوا ثم قال : ألم يأمركم رسول الله ﷺ أن تسمعوا لي وتطیعوا ؟ قالوا : بل قال : فادخلوها . قال فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا : إنما فررنا إلى رسول الله ﷺ من النار . قال : فسكن غضبه وطفئت النار فلما قدموا على النبی ﷺ ذكروا ذلك له فقال : لو دخلوها ما خرجوا منها إنما الطاعة في المعروف " .

وكان الصحابة يتذاكرون هذا الأصل ويتواصون به حتى لا ينحرفوا بانحراف سلطان أو حكم :

لما ولی زیاد الحكم بن عمر الغفاری خر اسان أرسی عمران بن الحصین رضی الله عنهما یطلبہ حتی إذا لقیه قال : أسمعت رسول الله ﷺ يقول : لا طاعة لأحد في معصیة الله تبارک وتعالی ؟ قال : نعم . فقال عمران : الحمد لله أو الله أكبر .

ج - وأخرج ابن جریر وابن عساکر عن ابن عباس - رضی الله عنہما - قال : بعث رسول الله ﷺ خالد بن الولید على سرية و معه في السرية عمار بن یاسر - رضی الله عنہما - قال : فخرجوa حتی آتوا قریباً من القوم الذين یریدون أن یصبحوھم نزلوا في بعض اللیل قال :

¹ أخرج یعقوب بن سفیان بایسناد صحیح إلى الحسن .

وجاء القوم النذير فهربوا حيث بلغوا ، فأقام رجل كان قد أسلم هو وأهل بيته فأمر أهله فتحملوا وقال : قدوا حتى آتكم ، ثم جاء حتى دخل على عمار - رضي الله عنه - قال :

يا أبا اليقطان إني قد أسلمت وأهل بيتي فهل ذلك نافعي إن أنا أقسمت . فإن قومي قد هربوا حيث سمعوا بكم ، قال فقال له عمار : فأقم فأنت آمن .

فانصرف الرجل هو وأهله ، قال : فصبح خالد القوم فوجدهم قد ذهبوا فأخذ الرجل وأهله فقال له عمار : إنه لا سبيل لك على الرجل قد أسلم .

قال : ما أنت وذاك ؟ أتجير عليّ وأنا الأمير ؟ ؟

قال : نعم أجير عليك وأنت الأمير . إن الرجل قد آمن ولو شاء لذهب كما ذهب أصحابه ، فأمرته بالمقام لإسلامه . فتنازعا في ذلك حتى تشاشما فلما قدموا المدينة اجتمعوا عند رسول الله ﷺ فذكر عمار الرجل وما صنع فأجاز رسول الله ﷺ أمان عمار ونهى يومئذ أن يجير أحد على الأمير فتشاشما عند رسول الله ﷺ فقال خالد :

يا رسول الله ! أيشتمني هذا العبد عندك أما والله لو لاك ما شتمني فقال النبي الله ﷺ :

كف يا خالد عن عمار فإنه من يبغض عمارًا يبغضه الله عز وجل من يلعن عمارًا يلعنه الله عز وجل . ثم قام عمار واتبعه خالد بن الوليد حتى أخذ بثوبه فلم يزل يتراصاه حتى رضي عنه ونزلت هذه الآية :

{أطِيعُوا اللَّهَ وَأطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَئِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ} أمراء السرايا - {إِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ} . فيكون الله ورسوله هو الذي يحكم فيه .

{ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} (النساء : 59) . أي (خير عاقبة) .

* * *

والمسألة في هذا الموضوع كما يلي :

إن رسول الله ﷺ علم الإنسان أن الله وحده هو الذي يستحق الطاعة و حتى الرسول م إنما يطاع الله وغير رسول الله إنما يطاع بطاعة الله {مَنْ يُطِعْ أَرْسَلْنَا فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ} . {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَرْسَلْنَا وَأُولَئِكَ الْأَمْرُ مِنْكُمْ} أي من المسلمين ، أما غير المسلم فلا طاعة له ، والمسلم طاعته في حدود كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لذلك ختمت الآية : {فَإِن تَنَزَّلْتَ عَلَيْهِمْ فِي شَيْءٍ قَرُدُوهُ إِلَى اللَّهِ وَأَرْسَلْنَا إِن كُلُّمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَآتَيْوْمَا الْآخِرِ} وعلى هذا فمن أمر بمعصية الله فلا طاعة له ، وبهذا تمسكت شخصية الإنسان تمسكاً لا مثيل له ، فصار المسلم يقول لا ، إذا كان ينبغي أن تقال مهما كان وراءها ، لا يبالي إن كان الناس كلهم عليه في الباطل ، لا يساير الناس ولا يداريهم على حساب الحق . أما في الحق فهو أكثر الناس طاعة وانضباطاً إذ في هذه الحالة جعل رسول الله ﷺ بأمر الله طاعة الأمير الحق فرضاً ، وفي الباطل معصيته فريضة . قال أبو جعفر المنصور الخليفة لطاوس : ناولني الدواة . فرفض . قال : أخشى أن تكتب فيها معصية فأكون شريك فيها . مما أبلغ هذا في ثمار النبوة وما أدلها عليها .

* * *

سابعاً : أجيال خيرة جريئة بالحق :

وثمرة أخرى من ثمار محمد ﷺ تشهد أنه رسول الله :

ما هو الخير وما هو الشر ؟ وما هو المعروف وما هو المنكر ؟ وإذا عرفنا الخير والشر والمعروف والمنكر ، فما هي أجزاء هذا وهذا وأفراد هذا وهذا ؟ وإذا عرفنا الجميع فكيف نقطع جذور الشر ونقضي عليه ، ونتمكن للخير وندعمه ؟ وكيف نوجد بشراً ليس للشر في قلوبهم نصيب ، وقد نذروا للخير أنفسهم ، همهم الأعلى إقامة بنائه وإرساء حفائه ؟ هذه قضايا يعجز عن كل واحد منها الكثير ، ولكنَّ محمداً رسول الله ﷺ عرَّفَ الإنسان بالخير كلَّه والشر كلَّه وربِّي جيلاً يعيش الخير ، ويبغض الشر ويتقانى من أجل أن تقوم الحياة البشرية على الخير المشرق المنير . فخرجت نماذج ما عرف العالم بعد الرسل عليهم الصلاة والسلام أقوى منها ، ولا أصلب في هذا الأمر .

* * *

اقرأ سيرة الرسول ﷺ واقرأ القرآن والسنّة فإنك لا تجد خيراً إلا ذكر ، ولا شرًا إلا ذكر ، ولا تجد شيئاً قال عنه رسول الله ﷺ إنه خير تستطيع أن تحكم عليه غير ذلك إلا إذا جانب العقل ولم تخضع لحجّة ، ولا تجد شيئاً قال عنه رسول الله ﷺ إنه شر تستطيع أن تحكم عليه غير ذلك ، إلا إذا كنت متبعاً للشهوات ميالاً مع الهوى {وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ} ومهما حاولت أن تجد شيئاً من الشر لم ينفعك عنده رسول الله ﷺ فإنك لا تجد ، ومهما حاولت أن تجد شيئاً من الخير لم يأمر به فإنك لا تجد ، والشيء المهم بعد ذلك أن هذا الخير تمثل في مجتمع بشري لم يبق فيه للشر ظهور ، وكل ذلك ببركات رسول الله ﷺ وتربيته وسنن ضرب هنا أمثلة من حياة المسلمين يتبعين فيها حربهم العنيفة للمنكر وحرصهم على المعروف وأمرهم به .

أ - أخرج الطبراني وأبو يعلى عن أبي فنيل عن معاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنهما - أنه صعد المنبر يوم الغمامـة فقال عند خطبته :

إنما المال مالنا والفيء فيئنا فمن شئنا أعطيناه ومن شئنا منعنه ، فلم يجبه أحد ، فلما كان في الجمعة الثانية قال مثل ذلك فلم يجبه أحد ، فلما كان في الجمعة الثالثة قال مثل مقالته فقام إليه رجل من حضر المسجد فقال :

كلا .. إنما المال مالنا والفيء فيئنا فمن حال بيننا وبينه حاكمناه إلى الله بأسيافنا .

نزل معاوية - رضي الله عنه - فأرسل إلى الرجل فأدخله فقال القوم : هلك الرجل ثم دخل الناس فوجدوا الرجل معه على السرير فقال معاوية للناس : إن هذا الرجل أحياناً أحياء الله ، سمعت رسول الله ﷺ يقول :

" سيكون بعدي أمراء يقولون ولا يرد عليهم ، يتقاتلون في النار كما تتقاهم القردة "

وإني تكلمت أول جمعة فلم يرد علي أحد فخشت أن أكون منهم ، ثم تكلمت في الجمعة الثانية فلم يرد أحد علي قلت في نفسي إني من القوم ، ثم تكلمت في الجمعة الثالثة فقام هذا الرجل فرد علي فأحياناً أحياء الله .

(قال الهيثمي : رواه الطبراني في الكبير والأوسط وأبو يعلى ورجاله ثقات) .

ب - أخرج مسلم عن الحسن البصري أن عائذ بن عمرو - رضي الله عنه - دخل على عبيد الله بن زياد فقال : أيبني .. إني سمعت رسول الله ﷺ يقول :

" إن شر الرعاء الحطمة " فإذاك أن تكون منهم ، قال له : اجلس فإنما أنت من نخالة أصحاب محمد ﷺ قال : وهل كانت لهم نخالة ؟ إنما كانت النخالة بعدهم وفي غيرهم .

ج - روى الخمسة إلا البخاري عن طارق بن شهاب " أن أول من بدأ بخطبة العيد قبل الصلاة مروان فقام إليه رجل فقال : الصلاة قبل الخطبة " وفي رواية الترمذى " يا مروان خالفة السنة " زاد أبو داود " أخرجت المنبر في يوم عيد ولم يكن يخرج فيه وبذات بالخطبة قبل الصلاة " قال : قد ترك ما هنالك . قال أبو سعيد الخدري - رضي الله عنه - : أما هذا فقد قضى ما عليه ، سمعت رسول الله ﷺ يقول :

" من رأى منكم منكراً فليغیره بيده فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان " وليس عند النسائي إلا الأخير أي المسند .

د - وفي الإحياء عن الشافعي قال : حدثي محمد بن علي قال : إني لحاضر مجلس أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور وفيه ابن أبي ذؤيب وكان والي المدينة الحسن بن زيد قال : أتى الغفاريون فشكوا إلى أبي جعفر شيئاً من أمر الحسن بن زيد قال الحسن : يا أمير المؤمنين سل عنه ابن أبي ذؤيب . قال : فسألته فقال : ما تقول فيهم يا ابن أبي ذؤيب ؟ قال : أشهد أنهم أهل تحطم في أعراض الناس كثيراً الأذى لهم . قال أبو جعفر : قد سمعتم . فقال الغفاريون : يا أمير المؤمنين سله عن الحسن بن زيد فاستشهاده ، قال : أشهد عليه أنه يحكم بغير الحق ، ويتبع هواء ، فقالوا : قد سمعت ما قال فيه ابن أبي ذؤيب وهو الشيخ الصالح ظ قال : يا أمير المؤمنين اسئله عن نفسك فقال : ما تقول في ؟ فاستغفاه قال : أسائلك بالله إلا أخبرتني قال : تسألني بالله كأنك لا تعرف نفسك ؟ قال : والله لتخبرني . قال : أشهد أنك أخذت هذا المال من غير حقه فجعلته في غير أهله ، وأشهد أن الظلم ببابك فاش .

قال : فجاء أبو جعفر من موضعه حتى وضع يده في قفا ابن أبي ذؤيب فقبض عليه ثم قال له : أما والله لو لا أني جلس هنا لأخذت فارس والروم والديلم والترك بهذا المكان

منك ، قال : فقال ابن أبي ذؤيب : يا أمير المؤمنين قد ولني أبو بكر وعمر فأخذوا الحق وقسموا بالسوية ، وأخذوا بأفقاء فارس والروم وأصغروا آنفهم ، قال : فخلى أبو جعفر قفاه وخلى سبيله وقال : والله لو لا أنك صادق لفتناك . فقال ابن أبي ذؤيب : والله يا أمير المؤمنين إني لأنصر لك من ابنك المهدي .

هـ - وصاح الشيخ عز الدين بن عبد السلام بالملك أئوب : يا أئوب ما حجتك عند الله إن قال لك : ألم أبوئ لك ملك مصر ثم تبيح الخمور . قال : وهل جرى ذلك ؟ قال : نعم الحانة الفلانية يباع فيها الخمور وأنت تتقلب في نعمة هذه المملكة ، قال : هذا أنا ما عملته ، هذا من زمان أبي . قال : أنت من يقولون : {إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهَتَّدُونَ} فأمر الملك برفعها .

وسائل الشيخ تلميذه الباقي قال : يا سيدى أما خفته ؟ قال الشيخ : يا بني استحضرت هيبة الله فصار قدامي مثل القط .

وـ - وللنwoي موافق في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ننقل بعضها :

لما ورد دمشق من مصر السلطان المجاهد العظيم الملك الظاهر بيبرس بعد قتال التتار وإجلائهم عن البلاد زعم له وكيل بيت المال أن كثيراً من بساتين الشام من أملاك الدولة فأمر الملك بالحوطة عليها أي بحجزها وتكتيف واضعي اليد على شيء منها إثبات ملكيته وإبراز وثائقه فلجأوا إلى الشيخ النwoي في دار الحديث فكتب إلى الملك هذا الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم :

الحمد لله رب العالمين .. قال الله تعالى : {وَدَكَرْ فَإِنَّ الدُّكْرَى تَنَقُّلُ الْمُؤْمِنِينَ} وقال تعالى : {وَإِذَا خَدَ اللَّهُ مِيقَاتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ وَلَا تَكُلُّمُوهُ} وقال تعالى : {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالْتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدُوانِ} المائدة : 2 .

وقد أوجب الله على المكلفين نصيحة السلطان أعز الله أنصاره ، ونصيحة عامة المسلمين ، وفي الحديث الصحيح عن رسول الله ص أنه قال : " الدين النصيحة لله ، وكتابه ، وأئممة المسلمين وعامتهم " .

ومن نصيحة السلطان - وفقه الله لطاعته وأولاه بكرامته - أن تنهى إليه الأحكام إذا جرت على خلاف قواعد الإسلام . فقد أوجب الله تعالى الشفقة على الرعية ، والاهتمام بالضعفة وإزالة الضرر عنهم .

قال تعالى : {وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ} (الحجر : 88) .

وفي الحديث الصحيح قال رسول الله ﷺ : " إنما تتصرون وترزقون بضعفائكم " .

قال ﷺ : " من كشف عن مسلم كربة من كرب الدنيا كشف الله عنه كربة من كرب يوم القيمة . والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه " .

وقال ﷺ : " اللهم من ولني من أمر أمتى شيئاً فرق بهم فارفق به ، ومن شق عليهم فاشقق عليه " .

وقال ﷺ : " كلكم راع ، وكلكم مسؤول عن رعيته " .

وقال ﷺ : " إن المقطفين على منابر من نور عن يمين الرحمن الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا " .

وقد أنعم الله علينا وعلى سائر المسلمين بالسلطان ، أعز الله أنصاره ، فقد أقامه لنصرة الدين ، والذب عن المسلمين ، وأذل به الأعداء من جميع الطوائف ، وفتح عليه الفتوحات المشهورة ، في المدة اليسيرة ، وأوقع الرعب منه في قلوب أعداء الدين وسائر الماردin . ومهد له البلاد والعباد ، وقمع بسيبه أهل الزيف والفساد ، وأمدده بالإعانة واللطاف والسعادة ، فله الحمد على هذه النعم الظاهرة ، والخيرات المتکاثرة ، ونسأل الله الكريم دوامها له وللمسلمين ، وزيارتها في خير وعافية آمين .

وقد أوجب الله شكر نعمه ووعد الزيادة للشاكرين ، فقال تعالى : {لَئِن شَكَرْتُمْ لِأَزِيدَنَّكُمْ} (إبراهيم : 7) .

وقد لحق المسلمين بسبب هذه الحوطه على أملاكهم ، أنواع من الضرر ، ولا يمكن التعبير عنها ، وطلب منهم إثبات ما لا يلزمهم ، فهذه الحوطه لا تحل عند أحد من علماء المسلمين . بل من في يده شيء فهو ملكه ، لا يحل الاعتراض عليه ، ولا يكفي ببيانه . وقد اشتهر من سيرة السلطان أنه يحب العمل بالشرع ويوصي نوابه به ، فهو أولى من عمل به .

والمسؤول إطلاق الناس من هذه الحوطه ، والإفراج عن جميعهم ، فأطلق أطلقك الله من كل مكروه ، فهم ضعفة ، ومنهم الأيتام والأرامل والمساكين والضعف ، والصالحون وبهم تتصر وتعان وتترزق ، وهم سكان الشام المبارك ، جيران الأنبياء صلاة الله وسلامه عليهم ، وسكان ديارهم ، فلهم حرمات من جهات ، ولو رأى السلطان ما يلحق الناس من شدائد لاشتد حزنه عليهم ، وأطلقهم في الحال ، ولم يؤخرهم ، ولكن لا تنتهي إليه الأمور على وجهه ، فالله أغاث المسلمين يغاث الله ، وارفق بهم يرفق الله بك ، وجعل لهم الإفراج قبل وقوع الأمطار ، وتلف غلاتهم فإن أكثرهم ورثوا هذه الأماكن من أسلافهم ، ولا يمكنهم تحصيل كتب شراء (أي أسناد تملك) وقد نهيت كتبهم ، وإذا رفق السلطان بهم حصل له دعاء رسول الله ﷺ لمن رفق بأمته ، ويظهره على أعدائه . فقد قال الله تعالى : {إِن تَنْصُرُوا أَللّٰهَ يَنْصُرُكُمْ...} . وتتوفر له من رعيته الدعوات ، وتظهر في مملكته البركات ، ويبارك له في جميع ما يقصده من الخيرات . وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : " مَنْ سَنَّ سَنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرٌ هَا وَأَجْرٌ مَنْ عَمِلَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ سَنَّ سَنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وَزْرُهَا وَوَزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ " .

فنسأل الله الكريم أن يوفق السلطان للسنن الحسنة التي يذكر بها إلى يوم القيمة ، ويحميه من السنن السيئة ، وهذه نصيحتنا الواجبة علينا للسلطان ، ونرجو من فضل الله تعالى أن يلهمه الله فيها القبول والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . والحمد لله رب العالمين وصلواته وسلامه على سيدنا محمد وآلها وصحبه .

بغضب السلطان من هذه الجرأة عليه وخشي إذ لان له أن يعيد معه في الشام سيرة العز بن عبد السلام في مصر ، فأجابه بالرد الشديد ، وأراد أن يعدل عليه بالعقوبة ، فأمر بقطع رواتبه وعزله من مناصبه .

فقالوا له : إنه ليس للشيخ راتب ، وليس له منصب .

ولما رأى الشيخ أن الكتاب لم يفده ، وأن هذا اللين منه لم يأت بنفع ، ذهب إليه بنفسه ، وقابلته وكلمه كلاماً غليظاً . وأراد السلطان البطش به ، فصرف الله قلبه عن ذلك وحمى الشيخ منه ، وأبطل الأمر بـ (الحوطة) وخلص الناس من شرها .

ثم جاءت قضية أخرى :

" أراد السلطان أن يجهز جيشاً ، ففرض على الناس ضريبة جديدة ، فعادوا منه بالشيخ واجتمع إليه علماء دمشق ووكلوه أن يكتب ما يريد وهم يمضون معه الكتاب ، وكانت الوحشة لا تزال قائمة بينه وبين الملك ، لما كان منه في (قضية الحوطة) . فلم يكتب إليه رأساً بل كتب إلى الأمير بدر الدين الخازن ليوصل كتابه إليه وكان بدر الدين نائب الملك وأتابك الجيوش (أي القائد العام) وكان موصوفاً بكثرة المودة ومحبة العلماء والصلحاء وحسن السيرة .

قال تلميذه السخاوي : فلما كتبه وأرسل به ورقة إلى القاهرة تتضمن وجوب العدل في الرعية . وإزالة المكوس عنهم ، ووضع العلماء والشيوخ خطوطهم معه .

فقرأ الأمير الكتاب ورفع الورقة إلى السلطان ، فاشتد غضبه ، واحتج بأنه يريد هذا المال للجهاد وهم يعارضونه وكان عليهم أن يؤيدوه وأنهم ينكرون عليه ، ولم يكونوا ينكرون على الكفار لما كانوا يحكمون البلاد ، قبل أن يخرجهم منها بجهاده الطويل ، ومثابرته عليه . وتوعد العلماء ، فتقاعسوا ، ولكن النووي لم يبال ، وكتب إليه في الجواب هذا الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، من عبد الله يحيى النووي ينهي : إن خدام الشرع ، كانوا كتبوا ما بلغ السلطان أعز الله أنصاره فجاء الجواب بالإنكار والتوبیخ والتهذید ، وفهمنا من أن jihad ذكر في الجواب على خلاف حكم الشرع ، وقد أوجب الله بإضاح الأحكام عند الحاجة إليها ، فقال تعالى :

{وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِئَاقَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ وَلَا تَكُنُوا نَّمُونَهُ} .

{لَيْسَ عَلَى الْضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَيِّلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} (التوبه : 91) .

ونذكر في الجواب أنَّ الجهاد ليس مختصاً بالأجناد ، وهذا أمر لم ندعه ولكنَّ الجهاد فرض كفاية ، فإذا قررَ السلطان له أجناداً مخصوصين ، ولهم أخبار معلومة من بيت المال كما هو الواقع ، تفرغ باقي الرعية لمصالحهم ومصالح السلطان والأجناد وغيرهم ، من الزراعة والصنائع وغيرها مما يحتاج الناس كلهم إليه ، فجهاد الأجناد مقابل بالأخبار المقررة لهم ، ولا يحل أن يؤخذ من الرعية شيء ما دام في بيت المال شيء ، من نقد أو متاع أو أرض أو ضياع تباع أو غير ذلك .

وهو لاء علماء المسلمين في بلاد السلطان أعز الله أنصاره متذمرون على هذا وبيت المال بحمد الله معمور ، زاده الله عمارة وسعة وخيراً وبركة ، في حياة السلطان المقرونة بكمال السعادة له والتوفيق والتسديد والظهور على أعداء الدين {وَمَا الْتَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ} ^١ وإنما يستعن في الجهاد وغيره بالافتقار إلى الله تعالى ، واتباع آثار النبي ﷺ وملازمة أحكام الشرع وجميع ماكتبناه ، أو لاً وثانياً ، هو النصيحة التي نعتقدها وندين الله بها ، ونسأله الدوام عليها حتى نفاه ، والسلطان يعلم أنها نصيحة له وللرعية ، وليس فيها ما يلام عليه ، ولم نكتب هذا للسلطان إلا لعلمنا أنه يحب الشرع ومتابعة أخلاق رسول الله ﷺ في الرفق بالرعاية ، والشفقة عليهم وإكرامه لآثار النبي ﷺ . وكل ناصح للسلطان موافق على هذا الذي كتبناه ، وأما ما ذكر في الجواب من كوننا لم ننكر على الكفار حين كانوا في البلاد ، فكيف تقاس ملوك الإسلام وأهل الإيمان والقرآن ، بطغاة الكفار ، وبأي شيء كنا نذكر طغاة الكفار وهم لا يعتقدون شيئاً من ديننا ؟ وأما تهديد الرعية بسبب نصيحتنا ، وتهديد طائفة العلماء ، فليس هو المرجو من عدل السلطان وحلمه ، وأي حيلة لضعفاء المسلمين الناصحين نصيحة للسلطان ولهم ، ولا علم لهم به ، وكيف يؤخذون به لو كان فيه ما يلام ؟ وأما أنا في نفسي فلا يضرني التهديد ، ولا أكثر منه ، ولا يمنعني ذلك من نصيحة السلطان ، فإنني أعتقد أنَّ هذا واجب علي وعلى غيري ، وما ترتب على الواجب فهو خير وزيادة عند الله {إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ} ^٢ {وَأَفْوَضُ أُمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} ^٣ وقد أمرنا رسول الله ﷺ أن نقول الحق حيثما كنا ، وأن لا نخاف في الله لومة لائم ، نحن نحب للسلطان معالي الأمور وأكمل الأحوال وما ينفعه في آخرته ودنياه ويكون سبباً في دوام الخيرات له ويبقى ذكره له على مر الأ أيام يخلد في سنته الحسنة ويجد نفعه {بِيَوْمٍ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ

^١ غافر : 39 .

^٢ غافر : 39 .

^٣ غافر : 44 .

مَا عَمِلْتُ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا} وَأَمَا مَا ذُكِرَ فِي تَمْهِيدِ سُلْطَانِ الْبَلَادِ وَإِدَامَتِهِ الْجَهَادِ وَفَتْحِ الْحُصُونَ وَقَهْرِ الْأَعْدَاءِ ، فَهُوَ بِحَمْدِ اللَّهِ مِنَ الْأَمْرُ الشَّائِعَةِ الَّتِي اشْتَرَكَ فِي الْعِلْمِ بِهَا الْخَاصَّةُ وَالْعَامَّةُ ، وَسَارَتِ فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ وَلِهِ الْحَمْدُ . وَثَوَابُ ذَلِكَ مَدْخَرُ السُّلْطَانِ إِلَى يَوْمِ تَجَدُّ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا ، وَلَا حَجَةٌ لَنَا عِنْدَ اللَّهِ إِذَا تَرَكَنَا النَّصِيحةَ الْوَاجِبَةَ عَلَيْنَا .

وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .

وَبَعْدَ إِذَا لَمْ يَكُنْ تَمْيِيزُ الْخَيْرِ مِنَ الْشَّرِّ وَالْمَعْرُوفِ مِنَ الْمَنْكَرِ وَتَبْيَانُ كُلِّهِ ، وَتَرْبِيَةِ النَّاسِ عَلَى مَحْبَةِ الْخَيْرِ وَالْمَعْرُوفِ ، وَبَغْضِ الشَّرِّ وَالْمَنْكَرِ ، إِذَا لَمْ يَكُنْ هَذَا مِنْ ثَمَارِ النَّبُوَّةِ فَمَا هِيَ ثَمَارُ النَّبُوَّةِ؟ .

لَقَدْ بَيْنَ مُحَمَّدٍ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لِلنَّاسِ الْخَيْرَ وَالْشَّرِّ ، وَدَلِيلُ النَّاسِ عَلَى أَنْ يَفْعُلُوا الْخَيْرَ وَحْدَهُ ، وَعَلَى أَنْ يَحْارِبُوا الشَّرَّ أَنِّي كَانَ . فَكَانُوا مَثُلاً عَلَيَا لَا مِثْلَ لَهَا فِي ذَلِكَ ، اسْتَحْقَوْا مَعْهَا أَنْ يَكُونُوا خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرَجَتْ لِلنَّاسِ {كُلُّكُمْ خَيْرٌ أُمَّةٌ أُخْرَجَتْ لِلنَّاسِ ثُمُّرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} ¹ .

نَعَمْ إِنَّهَا ثَمَارُ النَّبُوَّةِ ، وَلَا يَمْكُنُ أَنْ يَكُونَ غَيْرُ ذَلِكَ ، فَلَمْ تَكُنِ الْجَزِيرَةُ الْعَرَبِيَّةُ مَرْشِحَةً لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا وَلَا غَيْرُهَا لَوْلَا وَحْيُ اللَّهِ .

* * *

ثَامِنًا : دُولَةُ هَدَايَةٍ لَا جَبَايَةٍ :

وَثَمَرَةُ ثَامِنَةٍ :

أَخْرَجَ ابْنُ سَعْدٍ عَنْ سَفِيَانَ بْنَ أَبِي الْعَوْجَاءِ قَالَ : قَالَ عُمَرُ بْنُ الخطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - اللَّهُ مَا أَدْرِي خَلِيفَةً أَنَا أَمْ مَلِكٌ؟ فَإِنْ كُنْتَ مَلِكًا فَهَذَا أَمْرٌ عَظِيمٌ . قَالَ قَائِلٌ : يَا أَمِيرَ

¹ آل عمران : 110 .

المؤمنين إن بينهما فرقاً ؛ فإن الخليفة لا يأخذ إلا حقاً ولا يضعه إلا في حق ، وأنت بحمد الله كذلك ، والملك يعسف الناس فيأخذ من هذا ويعطي هذا فسكت عمر .

وقال عمر لسلمان : أملك أنا أم خليفة ؟ فقال له سلمان : إن أنت جبىت من أرض المسلمين (أي أرض الدولة الإسلامية وإن كانت لذمة غير مسلم) درهماً أو أقل أو أكثر ثم وضعته في غير حق ، فأنت ملك غير خليفة .

هذه هي الثمرة المقصودة ، أن رسول الله p قد شرع بأمر من الله للناس في شأن المال شريعة لا يمكن أن يوجد أعدل منها ، فلا يؤخذ من أحد مال إلا بعدل ، ولا يتملك إنسان ملكاً إلا بحق وعدل ، وقبل ذلك لم تكن في الأرض نظرية للملك صالحة ولا عادلة ، ولا نظرية للجباية صالحة أو عادلة ، وكان شعار الحكومات قبل الإسلام : الجباية ، فأصبح شعار حكومة الإسلام : الهدایة .

يقول الدكتور الفرد ج . ميكير عن الحكم الروماني في مصر :

" إن حكومة مصر (الرومية) لم يكن لها إلا غرض واحد وهو أن تبتز الأموال من الرعية لتكون غنيمة للحاكمين ، ولم يساورها أن تجعل قصد الحكم توفير الرفاهية للرعية أو ترقية حال الناس والعلو بهم في الحياة ، أو تهذب نفوسهم ، أو إصلاح أمور أرزاقهم فكان الحكم على ذلك حكم الغباء لا يعتمد إلا على القوة ولا يحس بشيء من العواطف على الشعب المحكوم ."

ويقول مؤلف إيران في عهد الساسانيين عن الوضع في إيران :

" كان الجباة لا يترحرون من الخيانة ، واغتصاب الأموال في تقدير الضرائب وجباية الأموال ."

إن ما قام به كسرى أنو شروان من إصلاح النظام المالي كان في مصلحة مالية المملكة أكثر منه في مصلحة الرعية . فلم تزل العامة يعيشون في الجهل والضنك كما كانوا في السابق .

كان الفلاحون في شقاء وبؤس عظيم ، وكانوا مرتبطين بأراضيهم ، وكانوا يستخدمون مجاناً ، ويكلفون كل عمل . يقول المؤرخ : أميان مارسيلينوس : إن هؤلاء الفلاحين البؤساء كانوا يسيرون خلف الجيوش مشاة كأنه قد كتب عليهم الرق الدائم ، ولم يكونوا ينالون إعانة أو تشجيعاً من راتب أو أجرة وكانت علاقة الفلاحين بالملك أصحاب الأرضي كعلاقة العبيد بالسادة ¹ .

* * *

أين هذا مما حدث ببركات رسول الله ﷺ مما نرى نماذجه هنا :

أ - أوصى عمر بن الخطاب وصية لمن يلي أمر المسلمين بعده منها :

" وأوصيه بأهل الأمصار خيراً فإنها رداء الإسلام ، وجباة الأموال ، وغيظ العدو ، وأن لا يؤخذ منهم إلا فضلهم عن رضاهم " . " وأوصيه بذمة الله وبذمة رسوله ، أن يوفي لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفهم إلا طاقتهم " .

ب - وأخرج ابن زنجويه عن رجل من تقيف قال : استعملني علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - على عكبرا فقال لي وأهل الأرض عندي : " إن أهل السواد قوم خد ع فلا يخدعنك فاستوف ما عليهم " ثم قال لي : رح إلي فلما رجعت إليه قال لي : إنما قلت لك الذي قلت لأسمعهم ، لا تضربن رجالاً منهم بسوط في طلب درهم ، ولا تقمه قائماً ، ولا تأخذن منهم شاة ، ولا بقرة إنما أمرنا أن نأخذ منهم العفو أتدرى ما العفو ؟ الطاقة .

وفي رواية البيهقي " ولا تبيعن لهم رزقاً ولاكسوة شتاءً ولا صيفاً ولا دابة يعتملون عليها ولا تقم رجالاً قائماً في طلب درهم قال :

قلت : يا أمير المؤمنين إذاً أرجع إليك كما ذهبت من عندك .

قال : وإن رجعت كما ذهبت وبحكم إنما أمرنا أن نأخذ منهم العفو يعني الفضل .

¹ مازا خسر العالم .

ج - وأخرج أبو عبيد عن يزيد بن أبي مالك قال : كان المسلمين بالجابية وفيهم عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فأتاه رجل من أهل الذمة يخبره أن الناس قد أسرعوا في عنبه فخرج عمر - رضي الله عنه - حتى لقي رجلاً من أصحابه يحمل ترساً عليه عنب قال عمر : وأنت أيضاً ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ! أصابتنا مجاعة فانصرف عمر - رضي الله عنه - وأمر لصاحب الكرم بقيمة عنبه .

د - وأخرج الحاكم عن إبراهيم بنعطا عن أبيه أن زياداً أون ابن زياد بعث عمران بن حصين - رضي الله عنه - ساعياً فجاء ولم يرجع معه درهم فقال له : أين المال ؟ قال : وللملأ أرسلتني ؟ أخذناها كما كنا نأخذها على عهد رسول الله ﷺ ووضعناها في الموضع الذي كنا نضعها على عهد رسول الله ﷺ .

ه - وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عروة بن محمد :

" أما بعد فإنك كتبت إلي تذكر أنك قدمت اليمن فوجدت على أهلها ضريبة من الخراج مضروبة ثابتة في أعناقهم كالجزية يؤدونها على كل حال إن أخصبوا أو أجذبوا ، أو حيواً أو ماتوا ، فسبحان الله رب العالمين ، ثم سبحان الله رب العالمين ، ثم سبحان الله رب العالمين إذا أتاك كتابي هذا فدع ما تكره من الباطل إلى ما تعرفه من الحق ثم ائتف (أي خذ) الحق فاعمل به ، بالغاً بي وبك ما بلغ وإن أحاط بمهج أفسنا ، وإن لم ترفع إلي من جميع اليمن إلا حفنة من كتم فقد علم الله أني بها مسror ، إذا كانت موافقة للحق والسلام " .

و - وأخرج ابن عساكر والواقدي عن عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي : - رضي الله عنهما - قال : لما قدمنا مع عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - الجابية إذا هو بشيخ من أهل الذمة يستطيع ، فسأل عنه فقال : هذا رجل من أهل الذمة كبر وضع عنه عمر - رضي الله عنه - الجزية التي في رقبته وقال : كلفتكم الجزية حتى إذا ضعف تركتموه يستطيع ؟ فأجرى عليه من بيت المال عشرة دراهم وكان له عيال " .

وفي رواية أبي عبيد وابن زنجويه والعقيلي عن عمر - رضي الله عنه - أنه مر بشيخ من أهل الذمة يسأل على أبواب المساجد فقال : ما أنصفناك كنا أخذنا منك الجزية في شبيتك ثم ضيعناك في كبرك ثم أجرى عليه من بيت المال ما يصلحه .

ز - " وأخرج عبد الرزاق عن سعيد بن المسيب قال : أراد عمر - رضي الله عنه - أن يأخذ دار العباس بن عبد المطلب - رضي الله عنه - فيزيدها في المسجد فأبى العباس أن يعطيها إياه فقال عمر : لاخذنها قال : فاجعل بيني وبينك أبي بن كعب - رضي الله عنه - قال : نعم . فأتيا أبي ذكرى له فقال أبي : أوحى الله إلى سليمان بن داود - عليهما الصلاة والسلام - أن يبني بيت المقدس وكانت أرضاً لرجل فاشترى منه الأرض فلما أعطاه الثمن قال : الذي أعطيتني خير أم الذي أخذت مني ؟ قال : بل الذي أخذت منك قال : فإنني لا أجيز ثم اشتراها منه بشيء أكثر من ذلك فصنع الرجل مثل ذلك مرتين أو ثلاثةً فاشترط عليه سليمان - عليه الصلاة والسلام - أنني أبتاعها منك على حكمك فلا تسألني أيهما خير ؟ قال فاشتراها منه بحكمه فاحتكم اثنى عشر ألف قنطرة ذهبًا فتعاظم ذلك سليمان أن يعطيه فأوحى الله إليه : إن كنت تعطيه من شيء هو لك فأنت أعلم وإن كنت تعطيه من رزقنا فأعطه حتى يرضي فعل . قال : وأنا أرى أن عباساً أحق بداره حتى يرضي قال العباس : فإذا قضيت لي فإني أجعلها صدقة للمسلمين .

وفي رواية : فقال أبي لعمر : ما أرى أن تخرجه من داره حتى ترضيه . فقال له عمر :رأيت قضاءك هذا في كتاب الله وجدته أم سنة من رسول الله ﷺ ؟ فقال أبي : بل سنة من رسول الله ﷺ فقال عمر : وما ذاك ؟ فقال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن سليمان بن داود ﷺ لما بني بيت المقدس جعل كلما بنى حائطاً أصبح منهما فأوحى الله إليه أن لا تبني في حق رجل حتى ترضيه فتركه عمر فوسعها العباس رضي الله عنهما - بعد ذلك في المسجد .

وأخرج ابن جرير الطبرى عن زياد بن جزء الزبيدي فقال : افتحنا الإسكندرية في خلافة عمر - رضي الله عنه - فذكر الحديث وفيه : ثم وقفنا ببلهيب وأقمنا ننظر كتاب عمر حتى جاءنا فقرأ علينا عمرو - رضي الله عنه - وفيه :

" أما بعد فإنه جاءنى كتابك تذكر أن صاحب الإسكندرية عرض أن يعطيك الجزية على أن ترد عليه ما أصيб من سباباً أرضه ولعمري لجزية قائمة تكون لنا ولمن بعدها من المسلمين أحب إلى من فيه يقسم ثم كأن لم يكن فاعرض على صاحب الإسكندرية أن يعطيك الجزية على أن تخروا من في أيديكم من سببهم بين الإسلام وبين دين قومهم ، فمن اختار منهم الإسلام فهو من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم ، ومن اختار دين قومه وضع عليه

من الجزية ما يوضع على أهل دينه ، فلما من تفرق من سبيلهم بأرض العرب فبلغ مكة والمدينة واليمن فإننا لا نقدر على ردهم ، ولا نحب أن نصالحه على أمر لا نفي له به .

قال : فبعث عمرو إلى صاحب الإسكندرية يعلمه الذي كتب به أمير المؤمنين قال :
قال : قد فعلت . قال : فجمعنا ما في أيدينا من السبايا واجتمعت النصارى فجعلنا نأتي بالرجل من في أيدينا ثم نخرب بين الإسلام والنصرانية ، فإذا اختار الإسلام كبرنا تكبيرة هي أشد من تكبيرة حین نفتح القرية قال : ثم نحوزه إلينا وإذا اختار النصرانية نخرط النصارى ثم حازوه إليهم ووضعنا عليهم الجزية وجزعنا من ذلك جزاً شديداً ، حتى كأنه رجل خرج منا إليهم قال : فكان ذلك الدأب حتى فرغنا منهم وقد أتى فيمن أتينا به بأبي مريم عبد الله بن عبد الرحمن قال القاسم : وقد أدركته وهو عريفبني زبيد قال : فوقفاه فعرضنا عليه الإسلام والنصرانية وأبوه وأمه وإخوته في النصارى فاختار الإسلام فحزنناه إلينا ووثب عليه أبوه وأمه يجاذبونا حتى شققا عليه ثيابه ثم هو اليوم عريضاً كما ترى فذكر الحديث .

* * *

إن نقل الدولة من دولة جباية ظالمة ، إلى دولة هداية كاملة ، مع مبادئ في التملك والحقوق في الملك لا مثيل لها في تاريخ العالم ، ثمرة من ثمار محمد رسول الله ﷺ فرسم طريق التملك العادل الذي ليس فيه ظلم ولا حيف ولا حرام ، والحقوق في هذا الملك للفقراء والمساكين والغارمين ... بحيث تقوم قضايا المال على العدل الذي لا باطل معه . ثمرة من ثمار النبوة ؟ إن محمداً رسول الله لا شك في ذلك ولا ريب .

* * *

تاسعاً وعاشرأً : جهاد وحرية :

وقال تعالى : {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ} البقرة : 256 .

إذن هي الحرية الدينية لغير المسلمين في ظل دولة الإسلام .

فقد أعطى الإسلام الحرية للناس في عقائدهم إذا خضعوا لحكم الإسلام ما لم يكن وثيأً من جزيرة العرب ، فهذا لا حرية له ، وما عدا هذا فما عرف الناس مكاناً يؤمنون فيه على دينهم غير أرض الإسلام . والدليل على ذلك واضح ، هو أنه حيث فتح المسلمين أرضاً فيها دين وجدت بقايا أهل هذا الدين موجودين ، ولو أن المسلمين كانوا يكرهون رعاياهم على اعتناق دينهم كما فعل غيرهم لما وجدت هذه الظاهرة . إنك لا تجد مثلاً مسلماً واحداً في إسبانيا مع أن المسلمين فيها كانوا ثلاثة مليوناً ، بينما تجد نصارى في بلاد الشام حتى الآن من بقايا النصارى الأولين ، وتجد يهوداً ، ولا يزال غير المسلمين هم الأكثريّة في الهند مع أن المسلمين حكموها ثمان مائة سنة ، وهكذا تتكرر الظاهرة في كل مكان .

لقد حاول مرة السلطان سليم الأول أن يأخذ أولاد النصارى ويربيهم على الإسلام ، فوقف أمامه علماء المسلمين معارضين ، وأعلنوا أن هذا لا يجوز فعله عن فكرته .

ومن قرأ معااهدات المسلمين مع غيرهم من أبناء الأرض المفتوحة ، وجد سعد صدر المسلمين وتسامحهم ، وعلم أن دعوة الإسلام لم تسلك طريقها في القلوب إلا عن طريق الإقناع والمعاملة الحسنة ، والإيمان بالقيم العظيمة الموجودة في هذا الدين ، واقرأ نص المعاهدة التي كتبت بين نصارى الشام وبين عمر تجد هذا المعنى واضحاً وهذا نص المعاهدة :

"بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياه من الأمان أماناً لأنفسهم وكنائسهم وصلبانهم ، وسقيمها وبرها ، وسائل ملتها أنها لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينقض منها ولا من صلبانهم ولا شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن إيلياه أحد من اليهود . وعلى أهل إيلياه أن يعطوا أهل المدائن ، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص فمن خرج منهم فهو آمن على نفسه وماليه حتى يبلغوا مأمنهم ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على إيلياه من الجزية ، ومن أحب إيلياه من الجزية ، ومن أحب من إيلياه أن يسير بنفسه وماليه مع الروم ويخلّي بيته وصلبيهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيتهم وعلى صلبيهم حتى يبلغوا مأمونهم ، ومن كان فيها من أهل الأرض فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياه من الجزية ، ومن شاء رجع إلى أرضه ، وأنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله ونسمته ونسمة رسوله ﷺ ونسمة الخلفاء ونسمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية ، شهد على ذلك من الصحابة - رضي الله عنهم - خالد بن الوليد - رضي الله عنه -

و عمرو بن العاص - رضي الله عنه - و عبد الرحمن بن عوف - رضي الله عنه - ومعاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنه - . ومن قرأ شهادة السكان غير المسلمين رأى مصدق ذلك .

يقول البطريرك (عيسى ياه) عام 656 هجرية :

" إن العرب الذين مكنه الزمن من السيطرة على العالم يعاملوننا بعذالة كما تعرفون " .

ويقول مكاريوس بطريرك إيطاكية : " أدام الله بناء دولة الترك خالدة إلى الأبد . فهم يأخذون ما فرضوه من جزية ولا شأن لهم بالأديان سواء أكان رعاياهم مسيحيين ، أم ناصريين يهوداً أو سامرة " .

ويقول أرنولد : حتى إيطاليا كان فيها قوم يتطلعون بشوق عظيم إلى التركي لعلهم يحظون كما حظي رعاياهم من قبل بالحرية والتسامح اللذين يئسوا من التمتع بها في ظل أي حكومة مسيحية .

ويقول : وحدث أن هرب اليهود الأسبانييوا المضطهدون في جموع هائلة فلم يلجأوا إلا إلى تركيا في نهاية القرن الخامس عشر .

ويقول ريتشارد سبير من أبناء القرن السادس عشر : وعلى الرغم من أن الأتراك بوجه عام شعب من أشرس الشعوب ... سمحوا للمسيحيين جميعاً للإغريق منهم واللاتين أن يعيشوا محافظين على دينهم ، وأن يصرفوا ضمائراً لهم كيف شاؤوا بأن منحهم كنائسهم لأداء شعائرهم المقدسة في القدسية وفي أماكن أخرى كثيرة جداً ، على حين أستطيع أن أؤكد بحق بدليل اثنين عشرة عاماً قضيتها في إسبانيا أننا لا نرغم على مشاهدة حفلاتهم البابوية فحسب بل إننا في خطر على حياتنا وسلفنا ¹ .

* * *

¹ الدعوة إلى الإسلام لأرنولد .

وحتى الجزية التي هي من جانب رمز للخضوع لسلطان الإسلام ، هي من جانب آخر رمز على الحرية الدينية ، فالجزية من هذا الجانب تفرض على رعايا الدولة الإسلامية من غير المسلمين ، في مقابل حمايتهم وعدم مشاركتهم في الحروب ، وفي ذلك منتهى العدل إذ القتال في الإسلام قتال عقدي فالمسلم الذي يقاتل إنما يقاتل بوجي من إسلامه وعقيدته ، وفي سبيل ربه ودينه . فلو أننا طالبنا رعايانا من غير المسلمين أن يقاتلوا معنا فكأننا في هذه الحالة نجبرهم على القتال من أجل عقيدة لا يؤمنون بها ، وذلك منتهى الظلم ، وخاصة إذا كان القتال ضد أبناء دينهم أنفسهم . فالجزية إذن من هذا الجانب لصالح هؤلاء الرعايا ، وجاء متعمد لحربيتهم ، بدليل أنه حدث في التاريخ الإسلامي أن ناساً من غير المسلمين شاركوا في جيوش المسلمين فأسقط عنهم المسلمين الجزية .

* * *

وحتى العقوبة الصارمة التي فرضها الإسلام على المرتدين عن الإسلام وهي القتل ، هذه العقوبة لصالح الأقليات غير الإسلامية في الأرض الإسلامية من جانب . إذ غير المسلم عندما يعلم أن الدخول في الإسلام باختياره ، ولكنه وإذا دخل وخرج فجزاؤه القتل ، وذلك يجعله يفكر كثيراً قبل اعتقاده الإسلام فيقدم عليه بعد دراسة طويلة واقتراح كامل .

* * *

قارن هذه الحرية المعطاه لغير المسلمين في الأرض الإسلامية ، في عقائدهم ودياناتهم ، بما يفعل الآخرون حديثاً وقدি�ماً من إجبار الإنسان على تغيير عقيدته ، أو قتله أو سجنه ، أو تعذيبه أو اضطهاده ، أو فرض فكر معين عليه يعتقده ويتبناه ، أو عدم السماح له بدراسة دينه وعقيدته ، أو يحال بينه وبين من يمك أن يلقنه دينه ، وتجد في ذلك مأساة وحوادث تتثير شجن الإنسان . لكن لو درست التاريخ الإسلامي . فإنك لا تجد حادثة واحدة شبيهة بهذا وهذه أمثلة على أعمال غير المسلمين :

يذكر صاحب كتاب كشف الآثار في قصص أنبياء بنى إسرائيل وهو كتاب مؤلفه نصراني :

1 - أمر قسطنطين الأعظم بقطع آذان اليهود وإجلائهم إلى أقاليم مختلفة ، ثم أمر إمبراطور الروم في القرن الخامس أن يخرج اليهود من الإسكندرية التي كانت مأمونهم .. وأمر بهدم كنائسهم . ومنع عبادتهم وعدم قبول شهادتهم ، وعدم نفاذ الوصية إن أوصى أحد منهم لأحد في ماله ، ولما احتجوا على ذلك نهب جميع أموالهم وقتل كثيراً (صفة 27) .

2 - إن يهود بلدة أنطاكوحا لما أسروا بعدها صاروا مغلوبين ، قطعأعضاء البعض وقتل البعض ، وأجلى الباقين كلهم ، وظلم الإمبراطور الروماني اليهود الموجودين في المملكة كلها ، وأجلاتهم وهيج الدول الأخرى على هذه المعاملة فتحملوا بذلك الظلم من آسيا إلى أقصى حد في أوروبا . ثم بعد مدة كلفوا في إسبانيا أن يقبلوا شرطاً من شروط ثلاثة . أن يقبلوا المسيحية ، فإن أبووا عن قبولها يكونون محبوسين ، وإن أبووا عن كليهما يجلون من أوطانهم ومثل ذلك حصل في فرنسا (ص 29) .

3 - ومن القوانين التي أصدرها الكاثوليكيون . ولا يجوز الأكل مع اليهودي ويجب نزع أولادهم منهم لتربيتهم تربية مسيحية (ص 29) .

4 - وقد ثبت تاريخياً أن اليهود أجلو من فرنسا سبع مرات (ص 30 - 31) .

5 - وحدث لهم في النمسا وأسبانيا وبريطانيا من القتل والطر والإكراه الكثير ، وقد أجلى إدوارد الأول ملك بريطانيا أكثر من خمسة عشر ألفاً من اليهود بعد أن نهب أموالهم (ص 32) .

* * *

ويذكر توماس نيوتن في كتابه عن نبوءات الكتب المقدسة أن النصارى عندما فتحوا بيت المقدس في الحروب الصليبية قتلوا أكثر من سبعين ألفاً من المسلمين .

ونقول : إن المسلمين عندما استردوا المدينة بعد زمن طويل لم يقتلوا إنساناً واحداً بعد الفتح .

* * *

وأصدر الملك لويس الحادي عشر سنة 1724 قانوناً يقول فيه : إن الكاثوليكية وحدها مأذون بها وأما أصحاب الديانات الأخرى فجزاؤهم الأشغال المؤبدة ، وكل واعظ يدعو إلى ملة غير الكاثوليكية جزاؤه الموت .

وقتل في فرنسا في مذبحة واحدة وهي الشهيرة بمذبحة بروتولماوس واحد وثلاثون ألفاً من البروتستانت .

وقتلت محاكم التفتيش حرقاً بالنار حوالي مائتين وثلاثين ألفاً ، والذين قتلوا بالسيف وبآلات التعذيب خلق كثير هذا من غير المسلمين ، أما المسلمين فقد ذكرنا أنه لم يبق في إسبانيا من الثلاثين مليوناً من المسلمين مسلم واحد ، كلهم غدر بهم فمن قتيل أو طريد أو مكروه على تغيير دينه .

إن إعطاء الإنسان الحرية الكاملة في أمر اختياره عقيدته وعدم إجباره على تغيير دينه بأي واسطة من وسائل الإكراه ، ثمرة من ثمار محمد رسول الله ﷺ . ما كانت لتكون لولا الوحي . إن العرب هذا الشعب القاسي ، كان يمكن أن يمثل في حال النصر الدور الذي مثله التتار من بعد . قتل جماعي ، ومحو للحضارة ، ولكن العرب على العكس من ذلك . مثلوا على مسرح التاريخ أروع أمثلة الرحمة والتسامح مع الشعوب المغلوبة ، وهذا ليس من أخلاقهم في الأصل لولا دعوة الله ودینه و محمد رسول الله ﷺ .

* * *

بل إن عملية الجهاد المستمر ، والتضحيات الكثيرة التي بذلت فيه من أجل إخضاع العالم لسلطان الله ، مع إعطاء الفرد الحرية في البقاء على دينه أو الانتحال منه إلى الإسلام دين الله الحق بالاقتتال الكامل دليلاً على أن محمداً ﷺ رسول الله .

فالذين يتصورون أن مقام النبوة يتناهى مع الحرب العادلة ، تصوراتهم معكوسة تماماً . إن حرب الأنبياء وحدها هي المعقولة في العالم ، إذ إن الحياة البشرية لا تستقيم إلا على قانون الله وشرعيته . فما لم يكن العالم خاضعاً لسلطان الله ، فإن العالم تمزقه بمن فيه وفتاك أهواء البشر ، أما إذا خضع لسلطان الله المتمثل في عباده المستقيمين الصالحين ، وشريعة الله

، فإن في ذلك صلاحه وكما قدمنا فلا يعني إخضاع البشر لسلطان الله إجبارهم على الدخول في دين الله .

والذين ينكرون على رسول الله الجهاد في سبيل الله إما ملحدون : وهؤلاء أصغر من أن يرد عليهم لأن القتل والخراب الذي يحدث على أيديهم بغير حق يندى له جبين الوحش . فقد قتلت روسيا من رعاياها من أجل إقامة الحكم الشيوعي تسعة عشر مليوناً . وإما أهل دين كاليهود والنصارى وهؤلاء ينافقون أنفسهم فإن في التوراة التي يؤمن بها جميعهم نصوصاً كثيرة تدل على أن الأنبياء جاهدوا في سبيل الله ، وفي الإنجيل وكتب العهد الجديد ما يدل على أن الأنبياء يحاربون وهذه شواهد .

1 - مذكور في كتاب المشاهدات الباب (19) والرسالة الثانية الباب الثاني لأهل سالونيق وهما كتابان نصرييان . أن عيسى عليه السلام سيقتل الدجال وعسكره بعد نزوله . أي قرب قيام الساعة وهذه عقيدة المسلمين أيضاً .

2 - وفي سفر التثنية (10) وإذا دنوت من قرية لقاتلهم ادعهم أو لا إلى الصلح فإن قبلت وفتحت لك الأبواب فكل الشعب الذي بها يخلص ويكونون لك عبيداً يعطونك الجزية ، وإن لم ترد تعلم معك عهداً وبدأت بالقتال معك فقاتلها أنت ، وإذا سلمها رب إلهك بيده اقتل جميع من بها من جنس الذكر بحد السيف دون النساء والأطفال والدواب وما كان في القرية غيرهم واقسم للمعسكر الغنية بأسرها . وكل من سلب أعدائك الذي يعطيك رب إلهك . وهكذا فافعل بكل القرى البعيدة منك جداً . فأما القرى التي تعطى أنت إليها فلا تستحي منها نفساً البتة ولكن أهلكم هلاكاً كلهم بحد السيف . الحيثي والأمورى والكنعاني والفرزى والحوابي والبابوسي كما أوصاك رب إلهك .

3 - وفي الباب الثاني عشر من سفر صموئيل الثاني هكذا (29) فجمع داود الشعب وسار إلى راية فحارب أهله وفتحها وأخذ تاج ملكهم على رأسه .

والنصوص عندهم في هذا كثيرة تجدها في سفر الخروج الباب الثالث الفقرة (43) وفي الباب الرابع والثلاثين منه (10) وفي سفر العدد الباب الثالث والثلاثين وفي سفر صموئيل الأول الباب السابع والعشرون (8) وفي سفر الملوك الباب الثامن (20) وغيرها وغيرها كثير يقول بولس المقدس عند النصارى في الرسالة العبرانية الباب الحادي عشر فقرة

(32) : وماذا أقول أيضاً لأنه يعوزني الوقت أن أحذث عن جدعون وباراق وشمدون ويفتاح وداود وصموئيل والأنبياء الذين بالإيمان قهروا ممالك صنعوا برأ نالوا مواعيد سدوا أفواه أسود أطغفوا النار ، نجو من حد السيف تقووا من ضعف صاروا أشداء في الحرب هزموا جيوش غرباء .

* * *

وأخيراً الجهاد في سبيل الله ثمرة من ثمار النبوة ، وعدم إكراه الناس على الدخول في الإسلام ثمرة أخرى ، وكلتا هما تشهد أن محمداً رسول الله ﷺ .

وهذه الثمار كلها غيض من فيض وإلا فإن ثمار النبوة كثيرة تعجز الإنسان عن الإحصاء . وحيثما نظرت في الإسلام ذلك الإسلام على أنه دين الله رب العالمين ، وأن محمداً رسول هذا الإله العظيم وأنه المبلغ عنه .

وإلى الباب الخامس لنرى حجة أخرى على رسالة رسولنا عليه الصلاة والسلام .

* * *

الباب الخامس

البشارات

البشارات

- 1 -

إن القرآن ذكر بوضوح وفي أكثر من سورة أن الكتب السماوية قد بشرت بمحمد ﷺ
[وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَائِيلَ إِلَيْ رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التُّورَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي أَسْمُهُ أَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ] (الصف . 6 :)

{ وَرَحْمَتِي وَسَعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْثِبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقَوْنَ وَيُؤْمِنُونَ الْزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ أَرْرَسُولَ النَّبِيِّ الْأَمِيِّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التُّورَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَحِلُّ لَهُمُ الْطَّيِّبَاتِ وَيَحْرِمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَابَاتَ وَيَضْعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَأَتَبَعُوا النُّورَ الَّذِي أَنْزَلَ مَعَهُ أُولُوكُ الْكَوْنِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } (الأعراف : 157) .

{وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلٍ يَسْقِطُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ} (البقرة : 89) .

إن ظاهرة دينية عامة كنبوة سيدنا محمد ﷺ للعالمين جميعاً ، يترتب عليها معاني كثيرة من وحدة الإنسانية وتوحيد دينها . تحتاج إلى مقدمات ومبشرات توجد استعداداً عاماً عند الناس لها .

- 2 -

والدارس للنصوص التاريخية التي تتحدث عن فترة ما قبلبعثة وأثناءها يلاحظ ملاحظة هامة . هي أن الناس الذين كانت لهم صلة بكتاب سماوي كان واضحاً في أذهانهم أنه سيبعث نبي ، وكانوا يرتفبون ظهوره وإن بعضاً من علمائهم قد أعلن إسلامه بمجرد اجتماعه بهذا النبي .

فمن ذلك قصة سلمان الفارسي كما تذكرها روايات كثيرة ، وتنقله من عالم إلى عالم في النصرانية ، حتى دلّه آخرهم أن يترقب نبياً كاد أن يبعث من أرض العرب ، وذلك سبب مجيئه إلى أرض العرب وسكناه فيها .

ومن ذلك القصة التي يرويها البخاري عن أبي سفيان عندما استدعاه هرقل في بلاد الشام إذ يقول في آخرها هرقل : " وقد كنت أعلم أنه خارجنبي ولم أكن أظن أنه منكم " .

ومن ذلك ما ذكرته صفية بنت حبي أم المؤمنين عن أبيها وعمها اليهوديين قالت :

لما قدم رسول الله ﷺ المدينة ونزل قباء ، غدا عليه أبي حبي بن أخطب وعمي أبو ياسر مغلسين ، فلم يرجعا حتى كان غروب الشمس ، فأتيا كاللين ساقطين يمشيان الهويينا ، فهششت إليهما فما التفت إلي أحد منها مع ما بهما من الهم . فسمعت عمي أبي ياسر يقول لأبي : أهو هو ؟ أي المبشر به في التوراة ، قال : نعم والله ، قال : أثبتته وتعرفه ؟ قال : نعم . قال : فما في نفسك منه ؟ قال : عداوته والله ما بقيت أبداً¹

ومن ذلك قصة إسلام عبد الله بن سلام :

قال ابن هشام في سيرته قال ابن إسحاق وكان من حديثه كما حدثي بعض أهله عنه وعن إسلامه حين أسلم وكان حبراً عالماً قال : لما سمعت برسول الله ﷺ عرفت صيته واسميه وزمانه الذي كنا نتوكل له فكنت مسراً لذلك صامتاً عليه حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة فلما نزل بقباء فيبني عمرو بن عوف أقبل رجل حتى أخبر بقدومه وأبا في رأس نخلة لي أعمل فيها ، وعمتي خالدة ابنة الحارث تحتي جالسة ، فلما سمعت الخبر بقدوم رسول الله ﷺ كبرت ، فقالت لي عمتي حين سمعت تكبري : خليك الله والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قداماً ما زدت . قال فقلت لها : أي عممة هو والله أخوه موسى بن عمران وعلى دينه بعث بما بعث به ، قال فقلت : فذاك إذن قال : ثم خرجت إلى رسول الله ﷺ فأسلمت ثم رجعت إلى أهل بيتي فأمرتهم فأسلموا ...

¹ أخرجه ابن إسحاق في السيرة .

ومن ذلك قصة النجاشي و موقفه من أصحاب السيد الرسول ﷺ في هجرتهم إليه و قولهم بعد نقاش و عرض عندما أوفدت قريش عمرو بن العاص و عمارة بن الوليد لإخراجهم :

.. أشهد أنَّه رسول الله وأنَّه المبشر به عيسى في الإنجيل¹.

وقد اشتهر حديث اليهود للأوس والخرج عن خروجنبي وكان ذلك من جملة العوامل التي جعلت هذا الاستعداد الكبير عند الأوس والخرج للإيمان :

فمن ذلك ما جاء عن سلمة بن سلامة - رضي الله عنه - ، وكان من أصحاب بدر قال : كان لنا جار من يهودبني عبد الأشهل ، فذكر القيامة والبعث والحساب والميزان والجنة والنار ، فقالوا له : ويحك يا فلان أو ترى هذا كائناً ؟ أن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها نار وجنة يجزون فيها بأعمالهم ، قال : نعم والذي يخلف به ، ولبيود أي شخص أن له بحظه من تلك النار أعظم تدور يحمونه ثم يدخلونه إياها فيطبقونه عليه بأن ينجو من تلك النار غداً . فقالوا له : ويحك وما آية ذلك ؟ قال :نبي يبعث من نحو هذه البلاد ، وأشار بيده إلى مكة واليمين ، قالوا : ومن يراه ؟ فنظر إلى وأنا أحدهم سناً فقال : إن يستند أي يستكمل هذا الغلام عمره يدركه ، قال سلمة : والله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله محمد ﷺ وهو أي ذلك اليهودي بين أظهرنا فاما به وكفر بغياً وحسداً ، فقلنا له : ويحك يا فلان ألسن الذي قال لنا فيه ما قلت ؟ قال : بل ولكن ليس به².

- 3 -

وعلى كل حال فإن وجود الكتب الدينية العالمية الآن أصبح كثيراً ، وانتشارها واسعاً ، ولعل دراسة منصفة تستخرج الكثير مما لها علاقة بهذه الحقيقة . هذا مع الاعتقاد بأن هذه الكتب قد حررت وبدل ، يشهد على ذلك كل دراسة جيدة لنصوص هذه الكتب ولو اقعها بالتاريخي ، ويكتفي كبرهان عملي على تحريف أحداثها وأقربها إلينا (الإنجيل) إن الإنجيل

¹ البداية والنهاية .

² أخرجه أحمد .

الواحد أصبح أربعة بينها تعارض أحياناً وبعضها يزيد على بعض أو ينقص وفي سندها التاريخي اقطاع .

وقد قام بهذه الدراسة المنصفة الواسعة الوعية علماء كبار ، جمعوا بين معرفة اللغات ، ومعرفة الديانات ، فخرج معهم الشيء العجيب الذي لا يدع مجالاً لإنسان يحترم عقله أن يشك في أن هناك بشارات بمحمد النبي العربي قبل ميلاده بمئات السنين ، ونحن هنا ننقل نماذج من هذه الدراسات ، وسيري أي منصف أن هؤلاء العلماء ما ظلموا وما حرفوا وما اعتسفوا في فهم النصوص ولا حملوها فوق ما تحتمل . بل فهم هذه النصوص على غير ما ذكروه ، هو الاعتراف والتحريف ، وتحميل النصوص ما لا تحتمل ، وكتمان الشهادة ونأي عن الحق :

{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرُفُونَهُ كَمَا يَعْرُفُونَ أَبْنَاءَهُمْ} (الأنعام : ٢) .

- 4 -

يقول العقاد :

" من هذه الدراسات كتاب باللغة الإنجليزية ألفه " مولانا عبد الحق فدياري " وسماه : " محمد في الأسفار الدينية العالمية " واستفاد في مقارنته ومناقضاته بمعرفته للفارسية والهندية والعبرية والערבية وبعض اللغات الأوروبية ولم يقنع فيه بكتب التوراة والإنجيل بل عمّ البحث في كتب فارس والهند وبابل القديمة ، وكانت له في بعض أقواله توفيقات تضارع أقوى ما ورد من نظائرها في شواهد الم الدينين كافة ، ولا نذكر أننا اطلعنا على شواهد أقوى منها في روایات الأقدمين أو المحدثين من أتباع الديانات الأولى أو الديانات الكتابية .

يقول الأستاذ عبد الحق : إن اسم الرسول العربي " أحمد " مكتوب بلفظه العربي في السامايفيدا من كتب البراهمة وقد ورد في الفقرة السادسة والفقرة الثامنة من الجزء الثاني ، ونصها أن أحمد تلقى الشريعة من ربها وهي مملوءة بالحكمة وقد قبست منه النور كما يقبس من الشمس . ولا يخفى المؤرخ وجوه الاعتراض التي قد تأتي من جانب المفسرين البرهمين بل ينقل عن أحدهم " سينا أشاريا " أنه وقف عند كلمة أحمد فالتمس لها معنى هندياً وركب منها ثلاثة مقاطع وهي " أهم " و " آت " و " هي " وحاول أن يجعلها تقييد " إبني وحدي تلقيت

الحكمة من أبي " قال الأستاذ عبد الحق ما فحواه : إن العبارة منسوبة إلى البرهمي " فاترakanfa " من أسرة كانفا ولا يصدق عليه القول بأنه وحده تلقى الحكمة من أبيه .

وفي مواضع كثيرة يرى المؤلف أن النبي محمد مذكور بوصفه الذي يعني الحمد الكثير والسمعة البعيدة ومن أسمائه الوصفية اسم سشرافا الذي ورد في كتاب الآثار فافيدا .

وكذلك صنع بكتب زرادشت التي اشتهرت باسم الكتب المجوسي فاستخرج من كتاب زنداقنا نبوءة عن رسول يوصف بأنه رحمة للعالمين " سوشيانت " ويتصدى له عدو يسمى بالفارسية القديمة " أبا لهب " ويدعو إلى إله واحد لم يكن له كفواً أحد وليس له أول ولا آخر ولا ضريح ولا قرير ولا صاحب ولا أب ولا أم ولا صاحبة ولا ولد ولا ابن ولا مسكن ولا جسد ولا شكل ولا لون ولا رائحة .

وهذه هي جملة الصفات التي يوصف بها الله سبحانه في الإسلام : أحد صمد ، ليس كمثله شيء ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، ولم يتخذ صاحبة ولا ولداً .

ويشفع ذلك بمقتبسات كثيرة من كتب الزرادشتية ، تتبئ عن دعوة الحق التي يجيء بها النبي الموعود ، وفيها إشارة إلى الbadia العربية ، ويتترجم نبذة منها إلى اللغة الإنجليزية معناها بغير تصرف " إن أمة زرادشت حين يبندون دينهم يتضعضعون ، وينهض رجل في بلاد العرب يهزم أتباعه فارساً ، ويختضع الفرس المتكبرين ، وبعد عبادة النار في هياكلهم ، يولون وجوههم نحو كعبة إبراهيم التي تطهرت من الأصنام ويومئذ يصبحون وهم أتباع للنبي رحمة للعالمين وسادة لفارس ومدين وطوس وبخ وهي الأماكن المقدسة للزرادشتين ومن جاورهم ، وإن نبيهم ليكون فصيحاً يتحدث بالمعجزات " .

وقد أشار المؤلف بعد الديانات الآسيوية الكبرى إلى فقرات من كتب العهد القديم ، والعهد الجديد ، فقال : إن النبي عليه السلام هو المقصود بما جاء في الإصلاح الثالث والثلاثين من سفر التثنية " جاء الرَّبُّ مِنْ سِينَاءٍ وَأَشْرَقَ لَهُمْ مِنْ سَعِيرٍ وَتَلَأَّ مِنْ جَبَلِ فَارَانِ وَأَتَى مِنْ رَبُوتِ الْقَدْسِ وَمِنْ يَمِينِهِ نَارًا شَرِيعَةً لَهُمْ " .

وجاء بالنص العربي كما يلي : " ويومر يهووه مسيناتي به وزارح مسuir لامو هو فيع مهرباران ببوت قودش حيميفو أيش داف لامو " .

فترجمه هكذا " إن الرب جاء من سيناء ونهض من سعير لهم وسطع من جبل فاران وجاء مع عشرة آلاف قديس وخرج من يمينه نار شريعة لهم " .

وقال : إن الشواهد القديمة جميعاً تتبئ عن وجود فاران في مكة وقد قال المؤرخ جيروم واللاهوتي يوسيبيوس : إن فاران بلد عند بلاد العرب على مسيرة ثلاثة أيام إلى الشرق من أيلة .

ونقل عن ترجمة التوراة السامرية التي صدرت في سنة 1851 (أن إسماعيل سكن برية فاران بالحجاز وأخذت له أمه امرأة من أرض مصر) ثم قال إن سفر العدد من العهد القديم يفرق بين سيناء وفاران إذ جاء فيه (أن بنى إسرائيل ارتحلوا من برية سيناء ، فحلت السحابة في برية فاران) ولم يسكن أبناء إسماعيل قط في غرب سيناء فيقال إن جبل فاران واقع إلى غربها . ولم يحدث قط أن نبياً سار بقيادته عشرة آلا قديس غير النبي محمد عليه السلام ، وقد يشترط بقديس في رأي المؤلف الذي يناقش ترجمتها بالملائكة في الترجمات الأخيرة .

كذلك لم يحدث قط أن نبياً غيره جاء بشريعة بعد موسى الكليم فقول موسى الكليم : إن مثلي سيقيم لكم الرب إلهكم من إخوتكم أبناء إبراهيم يصدق على النبي العربي صاحب الشريعة ولا يصدق على النبي من أبناء إبراهيم تقدمه في الزمن . اهـ (نقل هذا المقطع من كتاب العقاد : مطلع النور - باختصار بعض جمله) .

- 5 -

ومن هذه الكتب التي قام أصحابها بدراسة النصوص الحالية للكتب الدينية اليهودية والنصرانية : كتاب اسمه " إظهار الحق " لـ " رحمة الله بن خليل الهندي " ولعل هذا الكتاب أعظم دراسة نقدية لنصوص الديانتين اليهودية والنصرانية وأدق نقد لاعتراضات أتباع هاتين الديانتين على الديانة الإسلامية ، بحيث يرى أي دارس منصف لكتاب أن يهود اليوم ونصارى اليوم والسابقين لهم إلى فترات طويلة من الزمان ، ليسوا على شيء ، وأن الإسلام وحده هو الذي يصح أن يسمى ديناً ، فهو وحده دين الله الحق في هذا الزمان ومنذ بعث محمد عليه الصلاة والسلام .

ولأهمية الكتاب نعرض صورة مختصرة له هنا ، ثم نأخذ منه ما له علاقة ببحثنا من نصوص لا زالت موجودة رغم التحريف والتبدل تبشر بنبوة محمد ﷺ .

وقارئ الكتاب يحس إحساساً يقيناً أن المؤلف متمكن من كتب العهدين القديم والجديد تكناً تماماً ، فكأنه قرأهما عشرات المرات واطلع على كل ما كتبه أهلهما من تفاسير أو شروح أو تعليقات عليهما . وكتب كتابه بعد ذلك ، وسبب تأليف الكتاب أن المبشرين النصارى أخذوا يهاجمون الإسلام مهاجمات عنيفة في الهند أثناء الاحتلال البريطاني ، وركزوا هجومهم حول خمس نقاط فتصدى لهم كثير من علماء المسلمين ، وكان من آثار هذا التصدي أن عقدت مناظرة بين أكثر المبشرين سلطة لسان وبين مؤلف الكتاب حضرها أكبر رجالات الهند . كان من نتائجها أن انسحب القس المبشر بعد أن قامت عليه الحجة ولما يتم النقاش في المسائل المقرر نقاشها .

والكتاب يناقش المسائل الخمس التي أثارها المبشرون النصارى وهاجموا فيها الإسلام وهي :

1 - إن دعوى القرآن بأن في التوراة والإنجيل تحريفاً وأن اليهود والنصارى حرفوا الكلم عن مواضعه دعوى باطلة .

2 - إن بعض آيات القرآن منسوبة وأن النسخ دليل على أن القرآن ليس من عند الله لأن أحكامه بهذا قابلة للتبديل والتعديل .

3 - إن الله ثلاثة الألّ وابن وروح القدس والإسلام يدين بوحدانية الله ومحاولتهم البرهنة على عقيدة التثليث ومن ثم التهجم على عقيدة التوحيد .

4 - إن القرآن كلام محمد ﷺ وليس كلام الله المنزل وتشكيكه في طريقة جمعه وتواته .

5 - إنكارهم نبوة محمد ﷺ وأنه خاتم الأنبياء .

والكتاب ناقش هذه المسائل مناقشة دقيقة مستفيضة كل مسألة في باب ، وزاد باباً سادساً تناول فيه العهدين القديم والجديد ، ومع هذه الأبواب الستة فقد كتب للكتاب مقدمة جامعة ، فتألف الكتاب من مقدمة وستة أبواب بحث في كل منها ما يلي :

أ - المقدمة : وتشمل ثمانى ملاحظات عامة بين يدي الكتاب ، يذكر في بعضها مراجع الكتاب وطبعات المراجع وسنة طبعها وأين طبعت ، ويذكر بعض عادات المبشرين في بعضها ويعذر في بعضها عن بعض ألفاظ يستعملها ويبين أنهم يستعملون أشد منها ...

ب - الباب الأول : تناول فيه الكلام على العهدين العتيق والجديد كل باب من أبوابهما ، واستشهد من كلام مؤرخيهم وعلمائهم على تبيان المطعون فيه من الأبواب والآيات ، وبين بالحجج الدامغة أنه لا يوجد لدى علمائهم في كلتا الديانتين سند متصل لأي كتاب من كتب العهدين ثم تناول بعد ذلك ما في كتب العهدين من الاختلاف والأغلاظ ، وبين أن ادعاءهم بأن هذه الكتب الموجودة بين أيديهم إلهامية ، ادعاء باطل ، وساق برهاناً على هذا البطلان سبعة عشر وجهاً لكثرة ما بها من أغلاط وتحريف واختلافات عجز مفسروهم عن التوفيق بينها ، ثم إن الكاثوليكي البروتستانت يختلفون في الاعتراف ببعض هذه الكتب ، مما يترافق به الكاثوليكي ينكره البروتستانت والعكس بالعكس .

ج - الباب الثاني : أثبت فيه وجود التحريف في كتب العهدين القديم والجديد مصداقاً لقوله تعالى {يُحَرِّقُونَ الْكِلَمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ} ^١ وأثبت أن بعض هذا التحريف كان عن عدم ، وكان يأتي هذا التحريف أحياناً بالزيادة وأحياناً بالنقصان ، وأحياناً بالتبديل اللغطي ، وساق على التحريف بالزيادة خمسة وأربعين شاهداً ، كما ساق على التبديل اللغطي خمسة وثلاثين شاهداً ، كما أورد عدة مغالطات للمبشرين النصارى فندها بيراهين ساطعة ، ثم نقل على سبيل الاستدلال أقوال النصارى الثقات عندهم من المفسرين والمؤرخين ليزيد حجمه نصاعته وقوته ، وبلغت هذه الاستدلالات من أقوالهم الثلاثين قولهً مما يدل على سعة اطلاع وتتبع حريص لإقامة الحجة عليهم من كتبهم وبسان علمائهم ، وفي ختام هذا الباب أورد أموراً يزول بها استبعاد وقوع التحريف في كتبهم بل ثبت وقوع التحريف .

د - الباب الثالث : أثبت فيه بالأدلة القاطعة نسخ بعض الأحكام في الشريعتين الموسوية وال المسيحية بعد أن بين ماهية النسخ ، ثم برهن على أن الأحكام العملية للتوراة نسختها شريعة عيسى ، وأن لفظ النسخ موجود في كلام قدسيهم ، إلى غير ذلك من الأمور الهامة ، مبيناً أكاذيبهم في اختصاص الشريعة الإسلامية بالنسخ ، مبرهناً على أن النسخ في اصطلاح الشريعة موجود مثله عند اليهود والنصارى .

ه - الباب الرابع : في إبطال التثليث . وهذا الباب ينقسم إلى مقدمة وثلاثة فصول :

1 - المقدمة وهي كمدخل إلى الفصول الثلاثة يذكر فيها اثنى عشرة قضية ، ككون التوراة مصراحاً فيها بتحريم عبادة غير الله وكتصرير العهد الجديد والقديم بأن الله ليس كمثله شيء ، وأن النصوص المتشابهة محمولة على هذا التزيء ..

2 - الفصل الأول في إبطال التثليث بالبراهين العقلية ، ويأتي على ذلك بسبعة براهين كلها دامغة في استحالة التثليث من الناحية العقلية .

3 - الفصل الثاني في إبطال التثليث بأقوال المسيح ، ويأتي فيه باثنى عشر قولًا عن السيد المسيح من الإنجيل الحالي ، كلها تثبت أن المسيح دعا إلى التوحيد الخالص وأنه رسول فقط وكمثال :

أ - من إنجيل يوحنا إصلاح سادع جملة (3) وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته .

ب - في الباب التاسع عشر من إنجيل متى هكذا .. (16) وإذا واحد تقدم ، وقال له : أيها المعلم الصالح أي صلاح أعمل لتكون لي الحياة الأبدية ؟ (17) فقال له : لماذا تدعوني صالحاً ؟ ليس أحد صالحاً إلا واحد وهو الله .

4 - الفصل الثالث في مناقشة النصوص الإنجيلية التي يتمسك بها المثلثون ، وإثبات أن فهمهم لها خاطئ هذا على فرض ثبوتها ، ومن المؤكد تاريخياً بطلان بعضها .

فمثلاً يعتمدون على إطلاق كلمة ابن الله في الإنجيل على مرادهم مع الإنجيل نفسه يطلقها على كل صالح "طوبى لصانعي السلام لأنهم أبناء الله يدعون" إنجيل متى باب خامس (44) "وصلوا لأجل الذين يسبونكم لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السماوات" (45) نفس المصدر "لو كان الله أباكم لكتم تحبونني" يوحنا باب 8-42.

وهكذا يثبت أن كل نص حملوه على التثبت قد استعمله المسيح على غير ما فهموه في خطاب الناس حتى لا يبقى مجال لمتشكك .

و - الباب الخامس : أثبت فيه أن القرآن من عند الله باثنى عشر وجهاً ، وكل وجهه كاف لإقامة الحجة ، وناقش الشبهات التي يذكرها بعض المبشرين ، وتحدث بعد ذلك عن السنة وثبوتها ، وبرهن على وجود الروايات اللسانية عند اليهود والنصارى التي سجلت متأخرة مع ملاحظة جواز الكذب عليهم لأنهم يرون الكذب جائزًا في موضوع النقل إذا كان لصالح الشريعة . أما المسلمون فعلى عكس هذا تماماً ، والدارس لموضوع السنة يرى أن أدق نقد في العالم أو سيعرف هو نقد علماء السنة للوصول إلى الحديث الصحيح .

ز - الباب السادس : أثبت فيه نبوة سيدنا محمد ﷺ ودفع فيه كل مطعن توهمه هؤلاء القسّس الذين هاجموا الإسلام وقسم الباب إلى فصلين :

الفصل الأول : في إثبات النبوة وسلك فيه ستة سبل ، كل سبيل يؤدي إلى إقامة الحجة بأنَّ محمداً ﷺ رسول الله .

1 - معجزاته .

2 - أخلاقه .

3 - كمال شريعته .

4 - انتصاره .

5 - حاجة الناس إليه وإلى شريعته .

6 - تبشير الأنبياء السابقين عليه عن نبوته عليه الصلاة والسلام .

الفصل الثاني : في دفع المطاعن التي يتوهمها المبشرون منافية لدعوى النبوة وهم يفعلون هذا مدعين أنهم مؤمنون بنصوص العهد القديم والجديد وأنبياء العهدين ، ولما كانوا مؤمنين بنصوص العهدين القديم والجديد فإنه يذكر المطاعن التي وجهوها إلى السيد الرسول p . ويثبت أن رسل العهدين قد فعلوا مثلها أو أشد منها ؛ ويثبت أن بيته كله من زجاج ، وأن ما يذكرونه في العهدين في حق الرسل لا يليق بالمؤمنين العاديين فضلاً عن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم المبرئين عندنا من كل مذمة .

ويبدأ الفصل في ذكر تصوراتهم الفاسدة في نصوصهم المحرفة عن الرسل ، وما يتكلمون في حقهم من الكلام القبيح . كنسبة الزنا إليهم والمعاصي ، ويأتي هنا بما لا يستطيع أحد أن يهضمها مما يجعل مقام الرسل وحاشاهم عرضة لسخرية الساخرين ؛ فإذا كان هذا مفهومهم الفاسد عن الرسل فبأي شيء يعترضون على محمد p ولم يقع في : أدنى ما ذكروه عن رسالتهم كذباً .

ثم يذكر المطاعن ويرد عليها واحداً واحداً :

المطعن الأول : في عملية الجهاد الإسلامي وكيف أنهم يرون أن ذلك متنافٍ مع مقام الرسالة ، ويدرك للرد على هذا الطعن خمسة أمور .

1 - حول استحقاق الكافرين العقاب من الله لهم في الدنيا والآخرة ، ويدرك ذلك عن كتابهم .

2 - إن الأنبياء السابقين الذين ورد ذكرهم في العهد القديم قاتلوا الكفار وسبوا نساءهم وذرارיהם ، ويأتي كدليل على ذلك عشرات الشواهد من العهد القديم المعترف به عندهم .

3 - إن الجهاد في الإسلام أرحم بما لا يقاس بما يذكرونه في كتابهم عن عمليات القتال السابقة .

4 - إن عملية الجهاد عندنا لا تعني الإكراه على الدخول في الإسلام ولكن تاريخهم هم وخاصة النصارى مليء بجرائم الإغارة على عقائد البشر وإكراهم ، ويدرك من ذلك أمثلة تشعر منها جلود الإنسان . محاكم التفتيش ، مذابحهم الفظيعة ؛ طريقتهم القدرة في الحرب ، وطريقتنا الرحيمة . إن التاريخ كله ضدهم وكله معنا .

5 - يتحدث عن الجهاد في الشريعة الإسلامية .

المطعن الثاني : إن محمداً لم تظهر على يده معجزة فلذلك هو ليسنبياً ، ويرد على هذا ، أولاً : يثبت من كتبهم أنه ليس مشروطاً عندهم وجود المعجزة للنبي حتى على صحة دعواهم فليس هذا مطعناً بالنسبة لعقيدتهم ، ولكن الحقيقة غير ذلك فإن معجزات محمد μ أكثر من معجزات أي رسول ويثبت هذا .

المطعن الثالث : موضوع زواجه μ بكثيرات وخاصة بزينب وحرير زوجاته بعد وفاته ويرد على هذا الكلام بثمانية مقاطع :

1 - إن الأنبياء الذين يعترفون على نبوتهم في الكتب المعتبرة عندهم تزوجوا أكثر من عدد زوجات الرسول μ بكثير مما أحله الله لرسوله حلال وما حرم حرام .

2 - إن قصة زواجه بزينب كما يوردونها باطلة لا أساس لها ، وقد ذكرت في القرآن ، والسنة الصحيحة على خلاف ما أوردوه ونقوله .

3 - إن التحريم والتحليل بيد الله ، ولذلك نجد شيئاً نقصه كتب العهدين فعله أنبياء سابقون وحرمه أنبياء لاحقون ، وإذ ثبت أن القرآن وحي من الله فما أحله حلال وما حرمه حرام ، ورسول الله لم يفعل ما حرمه الله .

4 - إن هؤلاء يطعنون بمحمد μ وما خالف الله أمراً مما ذكر في القرآن وينسون أن كتبهم تذكر عن رسلهم كذباً أنهم خالفوا الوحي الذي نزل عليهم .

5 - يذكر في هذا المقطع أموراً فظيعة مذكورة في كتبهم تجرح مقام عيسى وحواريه وحاشاهم من كلام هؤلاء الأتباع المارقين ، وكذلك مما حدث في تاريخ كنائسهم من

الإثم والزنى والفحور مما لا يطيق أحد أن يسمعه أفيطعنون بعد ذلك علينا وبماذا؟ ونحن أظهر أهل أرض ذيلاً .

6 - خطؤهم في فهم بعض الآيات القرآنية .

7 - إذا صدر للنبي أمر ولم يفعله يكون عاصياً ، أما إذا فعل شيئاً مباحاً له في الأصل فلا حرج فإذا ما أطاع الرسول الله فلا مأخذ عليه .

8 - يذكرون في كتبهم أن هو شع النبى أمره الله أن يتزوج زانية وأن يتعدى بامرأة فاسقة محبوبة لزوجها (وحاشاه) وأمثال هذا كثير في كتبهم ويذكر بعضاً منه فكيف يذكرون على محمد م زواجه بزينب بعد طلاقها من زوجها وانتهاء عدتها بأمر الله ؛ ويذكر في ذلك أن كتبهم تذكر أن الله خص بعض أنبيائه بأمور خصوا بها عن غيرهم ، تجوز لهم ولا تجوز لغيرهم ، ومحمد رسول الله ، فإذا خص بحكم فأي وجه المطعن عليه مع ملاحظة تفرده بكل كمال مما لا تتطاول إليه أعناق الرجال .

المطعن الرابع : يدعون فيه أن محمداً أذنب والمذنب لا يكون رسولاً ، ويرد على كلامهم بخمسة مقاطع يثبت فيها عصمة الرسول م عن الذنب وأنه لم يرتكب ذنباً قط .

وبذلك ينتهي الكتاب . والكتاب في الحقيقة نفس كتاب - في علمنا - ناقش الديانتين النصرانية واليهودية نقاشاً دقيقاً في النصوص والمضمون معتمداً على كلام علمائهم نفسه ؛ وفي تصورنا أن أي منصف من أتباع الديانتين يطلع على الكتاب كله مضطر لنبذ دينه والدخول في الإسلام .

نبدأ بنقل الجزء المتعلق بالبشارات من الفصل الأول من الباب السادس لأنه هو المقصود هنا ، مع ملاحظة أننا حذفنا بعض مقاطع من فقراته لم نجد ضرورة لنقلها والمكان الذي تم فيه حذف نشير إليه بثلاث نقاط وكل ما ذكره هنا هو كلامه بنصه :

قال في المثلث السادس من مسائله لإثبات نبوة محمد عليه الصلاة والسلام تحت عنوان : إخبار الأنبياء المتقدمين عليه عن نبوته عليه الصلاة والسلام ما يلي :

ولما كان القسيسون يغّلّظون العوام في هذا الباب تغليظاً عظيماً استحسنت أن أقدم على نقل تلك الأخبار أموراً ثمانية تفيد للناظر بصيرة .

الأمر الأول : إن الأنبياء الإسرائيليين مثل أشعيا وأرميا ودانيال وحزقيال وعيسى عليه السلام ، أخبروا عن الحوادث الآتية كحادثة بختنصر وقورش وإسكندر وخلفائه ، وحوادث أرض آدوم ومصر ونيرو وبايل ، ويبعد كل البعد أن لا يخبر أحد منهم عن خروج محمد الذي كان وقت ظهوره ، كأصغر البقول ، ثم صار شجرة عظيمة تتآوى طيور السماء في أغصانها ، فكسر الجباره والأكاسرة ، وبلغ دينه شرقاً وغرباً ، وغلب الأديان وامتد دهراً بحيث مضى على ظهوره مدة ألف ومائتين وثمانين إلى هذا الحين ، ويمتد إن شاء الله إلى آخر بقاء الدنيا ، وظهر في أمته ألف ألف من العلماء الربانيين ، والحكماء المتقين ، والأولياء ذوي الكرامات والمجاهدات والسلطان العظام ، وهذه الحادثة كانت أعظم الحوادث ، وما كانت أقل من حادثة أرض آدوم ونيرو وغيرهما فكيف يجوز العقل السليم أنهم أخبروا عن الحوادث الضعيفة وتركوا الأخبار عن الحادثة العظيمة .

الأمر الثاني : أن النبي المقدم إذا أخبر عن النبي المتأخر لا يشترط في إخباره أن يخبر بالتفصيل التام بأنه يخرج من القبيلة الفلانية في السنة الفلانية في البلد الفلاني ، وتكون صفتة كيت وكيت ، بل يكون هذا الأخبار في غالب الأوقات مجملة عند العوام ، وأما عند الخواص فقد يصير جلياً بواسطة القرآن ، وقد يبقى خفياً عليهم أيضاً لا يعرفون مصداقه إلا بعد ادعاء النبي اللاحق أن النبي المتقدم أخبر عني ، وظهور صدق ادعائه بالمعجزات وعلامات النبوة ، وبعد الادعاء وظهور صدقه يصير جلياً عندهم بلا ريب ، ولذلك يعتibون ، كما عاتب المسيح عليه السلام علماء اليهود بقوله (ويل لكم أيها الناموسيون ؛ لأنكم أخذتم مفتاح المعرفة ، ما دخلتم أنتم والداخلون منعتموه) كما هو مصريح به في الباب الحادي عشر من إنجيل لوقا .

الأمر الثالث : ادعاء أن أهل الكتاب ما كانوا ينتظروننبياً آخر غير المسيح وإيليا ادعاء باطل لا أصل له ، بل كانوا منتظرين لغيرهما أيضاً لما علمت في الأمر الثاني أن علماء اليهود المعاصرين لعيسى عليه السلام سألاه يحيى - عليه السلام - أولاً : أنت المسيح ؟ ولما أنكر سأله : أنت إيليا : ولما أنكر سأله : أنت النبي ؟ أين النبي المعهود الذي خبر به موسى ، فعلم أن هذا النبي كان منتظراً مثل المسيح وإيليا وكان مشهوراً بحيث ما كان محتاجاً إلى ذكر الاسم ، بل الإشارة إليه كانت كافية . وفي الباب السابع من إنجيل يوحنا بعد

نقل قول عيسى عليه السلام هكذا 40 : فكثرون من الجمع لما سمعوا هذا الكلام قالوا : هذا بالحقيقة هو النبي 41 (وآخرون قالوا : هذا هو المسيح) وظهر من هذا الكلام أيضاً أن النبي المعهود عندهم غير المسيح ولذلك قابلوه بال المسيح .

الأمر الرابع : ادعاء أن المسيح خاتم الأنبياء ولانبي بعده باطل لما عرفت في الأمر الثالث أنهم كانوا منتظرين للنبي المعهود الآخر الذي يكون غير المسيح وإلياء عليهما السلام ولما لم يثبت بالبرهان مجئه قبل المسيح فهو بعده وقد يتمسكون لإثبات هذا الادعاء بقول المسيح المنقول في الآية الخامسة عشر من الباب السابع من إنجيل متى هكذا (احتزروا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بثواب الحملان ولكنهم من داخل ذئب خاطفة) والتمسك به عجيب لأن المسيح عليه السلام أمر بالاحتراز من الأنبياء الكذبة لا الأنبياء الصدقة أيضاً ولذلك قيد بالكذبة . نعم لو قال احتزروا من كلنبي يجيء بعدي لكان بحسب الظاهر وجه للتمسك .. فمقصود المسيح عليه السلام التحذير من هؤلاء الأنبياء الكذبة والمسحاء الكذبة لا من الأنبياء الصادقين أيضاً ولذلك قال بعد القول المذكور في الباب السابع (من ثمارهم تعرفونهم هل يجتنون من الشوك عنباً أو من الحسак تيناً) ومحمد م من الأنبياء الصادقين كما تدل عليه ثماره على ما عرفت في المسالك المتقدمة .

الأمر الخامس : الإخبارات التي نقلها المسيحيون في حق عيسى عليه السلام لا تصدق عليه على تقاسير اليهود وتأويلاً لهم ، ولذلك هم ينكرون أنه أشد الإنكار ، وعلماء المسيحية لا يلتفتون في هذا الباب إلى تقاسيرهم وتأويلاً لهم ويفسرونها ويؤولونها بحيث تصدق في زعمهم على عيسى عليه السلام . قال صاحب ميزان الحق في الفصل الثالث من الباب الأول في الصفحة 46 من النسخة الفارسية المطبوعة سنة 1849 (المعلمون القدماء من الملة المسيحية ادعوا أن هذه الدعوى الصحيحة فقط : إن اليهود أولوا الآيات التي كانت إشارة إلى يسوع المسيح بتأويلات غير صحيحة وغير لائقة وبينوها خلاف الواقع) انتهى . وقوله ادعوا هذه الدعوة الصحيحة فقط غلط يقيناً ، لأن المعلمون القدماء كما ادعوا هذه الدعوى ادعوا أن اليهود حرفوا الكتب تحريفاً لفظياً كما عرفت في الباب الثاني . لكنني أقطع النظر عن هذا وأقول : كما أن تأويلات اليهود في الآيات المذكورة مردودة غير صحيحة وغير لائقة عند المسيحيين ، كذلك تأويلات المسيحيين في الإخبارات التي هي في حق محمد م مردودة غير مقبولة عندنا . وسترى أن الإخبارات التي نقلها في حق محمد م أظهر صدقها من الإخبارات التي نقلها الإنجيليون في حق عيسى عليه السلام . فلا بأس علينا إن لم نلتفت إلى تأويلاتهم الفاسدة . وكما أن اليهود ادعوا في حق بعض الاختبارات التي هي في حق

عيسى عليه السلام على زعم المسيحيين أنها في حق مسيحهم المنتظر أو في حق غيره أو ليست في حق أحد ، وال المسيحيون يدعون أنها في حق عيسى عليه السلام ولا يبالون بمخالفتهم . فهكذا نحن لا نبالي بمخالفة المسيحيين في حق بعض الإخبارات التي هي في حق محمد ﷺ ولو قالوا إنها في حق عيسى عليه السلام . فادعاؤنا أحق من ادعائهم ...

الأمر السادس : أن أهل الكتاب سلفاً وخلفاً عادتهم جارية بأنهم يترجمون غالباً الأسماء في ترجمتهم ويوردون بدلها معانيها ، وهذا خطط عظيم ومنشأ للفساد وأنهم يزيدون تارة شيئاً بطرق التفسير في الكلام الذي هو كلام الله في زعمهم ، ولا يشيرون إلى الامتياز ، وهذا الأمان بمنزلة الأمور العادية عندهم ومن تأمل في ترجمتهم المتداولة بالسنة مختلفة وجد شواهد تلك الأمور الكثيرة .

وإذا عرفت هذه الأمور الستة أقول : إن الإخبارات الواقعة في حق محمد ﷺ توجد كثيرة إلى الآن أيضاً ، مع وقوع التحريرات في هذه الكتب ومن عرف أولًا طريق إخبار النبي المتقدم عن النبي المتأخر على ما عرف في الأمر الثاني جزم بأن الإخبارات المحمدية في غاية القوة . وأنقل في هذا المسلك عن الكتب المعتبرة عند علماء بروتستنت ثماني عشرة بشاره¹ .

البشارة الأولى : (في الباب الثامن عشر من سفر الاستثناء هكذا : 17 فقال رب لي نعم جميع ما قالوا 18 . وسوف أقيم لهم نبياً مثالك من بين إخوتهم وأجعل كلامي في فمه ويكلمهم بكل شيء أمره به 19 - ومن لم يطع كلامه الذي يتكلم به باسمي فأنا أكون المنتقم من ذلك 20 - فاما النبي الذي يجترئ بالکبریاء ويتكلم في اسمي ما لم أمره به أن يقوله ألم باسم آلهة غيري فليقتل 21 - فإن أحبت وقلت في قلبك كيف أستطيع أن أميز الكلام الذي لم يتكلم به الرب فهذه تكون لك آية : إن ما قاله ذلك النبي في اسم الرب ولم يحدث فالرب ما تكلم به بل ذلك النبي صورة في تعظيم نفسه ولذلك لا تخشاه) . وهذه البشارة ليست ببشره يوشع عليه السلام كما يزعم الآن أحبار اليهود ولا ببشره عيسى عليه السلام كما زعم علماء بروتستنت بل هي ببشره محمد ﷺ لعشرة أوجه .

¹ بعض البشارات آثرنا عدم نقلاً لصعوبة إدراك مضمونها إلا بتأمل طويل .

الوجه الأول : قد عرفت في الأمر الثالث أن اليهود المعاصرین لعیسیٰ عليه السلام كانوا ينتظرون نبیاً آخر مبشرًا به في هذا الباب ، وكان هذا المبشر به عندهم غير المسيح ، فلا يكون هذا المبشر به يوشع ولا عیسیٰ عليهم السلام .

الوجه الثاني : أنه وقع في هذه البشارة لفظ مثلك ، ويوشع وعیسیٰ عليهم السلام لا يصح أن يكونا مثل موسى أما أولاً فلأنهما من بنی إسرائیل ولا يجوز أن يقوم أحد من بنی إسرائیل مثل موسى كما تدل عليه الآية العاشرة من الباب الرابع والثلاثين من سفر الاستثناء وهي هكذا : (ولم يقم بعد ذلك في بنی إسرائیل مثل موسى يوشه الرب وجهاً لوجه) فإن قام أحد مثل موسى بعده من بنی إسرائیل يلزم تکذیب هذا القول ..

الوجه الثالث : أنه وقع في هذه البشارة لفظ من بين إخوتهم ولا شك أن الأسباط الاتي عشر كانوا موجودين في ذلك الوقت مع موسى عليه السلام حاضرين عنده ، فلو كان المقصود كون النبي المبشر به منهم قال منهم لا من بين إخوتهم ، لأن الاستعمال الحقيقي لهذا اللفظ أن لا يكون المبشر به له علاقة الصلبية والبطنية ببني إسرائیل ؛ كما جاء لفظ الإخوة بهذا الاستعمال الحقيقي في وعد الله هاجر في حق إسماعيل عليه السلام في الآية الثانية عشر من الباب السادس عشر من سفر التكوین وعباراتها في الترجمة العربية المطبوعة سنة 1844 هكذا (وقبالة جميع إخوته ينصب المضارب) وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة 1811 هكذا (بحضره جميع إخوته يسكن) وجاء بهذا الاستعمال أيضاً في الآية الثامنة عشر من الباب الخامس والعشرين من سفر التكوین في حق إسماعيل في الترجمة العربية المطبوع سنة 1844 هكذا (منتهى إخوته جميعهم سكن) وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة 1811 هكذا (أقام بحضره جميع إخوته) والمراد بالأخوة هنا بنو عیسیٰ وإسحاق وغيرهم من أبناء إبراهیم عليه السلام . وفي الباب الثاني من سفر الاستثناء هكذا . (وقال لي الرب 4 ثم أوص الشعب أنكم ستتجوزون في تخوم إخوتكم بنی عیسیٰ والذین في ساعیر وسيخشنکم فلما جزنا إخوتنا بنی عیسیٰ الذین یسكنون ساعیر الخ) والمراد بإخوة بنی إسرائیل بنو عیسیٰ ولا شك أن استعمال لفظ إخوة بنی إسرائیل في بعض منهم كما جاء في بعض المواضع من التوراة استعمال مجازي ولا تترك الحقيقة ولا يصار إلى المجاز ما لم یمنع عن الحمل على المعنى الحقيقي مانع قوي . ويوشع وعیسیٰ عليهم السلام كانوا من بنی إسرائیل فلا تصدق هذه البشارة عليهم .

الوجه الرابع : أنه وقع في هذه البشارة لفظ " سوف أقيم " ويوضع عليه السلام كان حاضراً عند موسى داخلاً فيبني إسرائيل نبياً في هذا الوقت فكيف يصدق عليه هذا اللفظ .

الوجه الخامس : أنه وقع في هذه البشارة لفظ (أجعل كلامي في فمه) وهو إشارة إلى أن ذلك النبي ينزل عليه الكتاب ، وإلى أنه يكون أمياً حافظاً للكلام ، وهذا لا يصدق على يوضع عليه السلام لانتقاء كلا الأمرتين فيه .

الوجه السادس : أنه وقع في هذه البشارة (ومن لم يطع كلامه الذي يتكلم به فأنا أكون المنقم من ذلك) فهذا الأمر لما ذكر لتعظيم هذا النبي المبشر به فلا بد أن يتماز ذلك المبشر بهذا الأمر عن غيره من الأنبياء فلا يجوز أن يراد بالانتقام من المنكر العذاب الأخرى الكائن في جهنم أو المحن والعقوبات الدنيوية التي تلحق المنكريين من الغيب ، لأن هذا الانتقام لا يختص بإنكار النبي دون النبي بل يعم الجميع فحينئذ يراد بالانتقام الانتقام التشريعي ، فظهر منه أن هذا النبي يكون مأموراً من جانب الله بالانتقام من منكره ولا يصدق على عيسى عليه السلام لأن شريعته خالية من أحكام الحدود والقصاص والتعزير والجهاد .

الوجه السابع : في الباب الثالث من كتاب الأعمال في الترجمة العربية المطبوعة سنة 1844 هـ : (19 - فتوبوا وارجعوا كي تمحي خطاياكم 30 - حتى إذا تأتي أزمنة الراحة من قدام وجه رب ويرسل المنادي به لكم وهو يسوع المسيح 21 - الذي إياه ينبغي للسماء أن تقبله إلى الزمان الذي يسترد فيه كل شيء تكلم به الله على أفواه أنبيائه القديسين منذ الدهر 22 - أن موسى قال إن رب إلهكم يقيم لكم نبياً من إخوانكم مثلي له تسمعون في كل ما يكلمكم به 23 - ويكون كل نفس لا تسمع ذلك النبي تهلك من الشعب) . وهذه العبارة سيماء بحسب الترجم الفارسية تدل على صراحة أن هذا النبي غير المسيح عليه السلام وأن المسيح لا بد أن تقبله السماء إلى زمان ظهور هذا النبي ومن ترك التعصب الباطل من المسيحيين وتأمل في عبارة بطرس ظهر له أن هذا القول من بطرس يكفي لإبطال ادعاء علماء بروتستانت . إن هذه البشارة في حق عيسى عليه السلام وهذه الوجه السبعة التي ذكرتها تصدق في حق محمد ﷺ على أكمل وجه لأنه غير المسيح عليه السلام ويماثل موسى عليه السلام في أمور كثيرة 1 - كونه عبد الله ورسوله 2 - كونه ذا الوالدين 3 - كونه ذا نكاح وأولاد 4 - كون شريعته مشتملة على السياسات المدنية 5 - كونه مأموراً بالجهاد 6 - اشتراط الطهارة وقت العبادة في شريعته 7 - وجوب الغسل للجنب والحائض والنساء في شريعته 8 - اشتراط طهارة الثوب من البول والبراز 9 - حرمة غير المذبح وقربان الأوثان

10 - كون شريعته مشتملة على العبادات البدنية والرياضات الجسمانية 11 - أمره بحد الزنا
12 - تعين الحدود والتعزيرات والقصاص 13 - كونه قادرًا على إجرائها 14 - تحريم
الربا 15 - أمره بإنكار من يدعوا إلى غير الله 16 - أمره بالتوحيد الخالص 17 - أمره الأمة
بأن يقولوا له عبد الله ورسوله لا ابن الله أو الله والعياذ بالله 18 - موته على الفراش 19 -
كونه مدفوناً كموسى 20 - وعدم كونه ملعوناً لأجل أمته . وهكذا أمور أخر تظهر إذا تؤمل
في شريعتهما ولذلك قال الله تعالى في كلامه المجيد : {إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا
أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا} (المزمول : 15) وكان من إخوةبني إسرائيل لأنه منبني
إسماعيل وأنزل عليه الكتاب وكن أمياً جعل كلام الله في فمه وكان ينطق بالوحى كما قال الله
تعالى : {وَمَا يَنْطَقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ} (النجم 3 ، 4) وكان مأموراً
بالجهاد وقد انقم الله لأجله من صناديد قريش والأكسرة والقياصرة وغيرهم وهو قبل نزول
ال المسيح ...

الوجه الثامن : أنه صرخ في هذه البشارة بأن النبي الذي ينسب إلى الله ما لم يأمره
يقتل ، فلو لم يكن محمد μ نبياً حقاً لكان يقتل ، وقد قال الله في القرآن المجيد أيضاً {وَلَوْ تَقُولَ
عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقْوَىٰ * لَأَخْذَنَا مِنْهُ بِالْأَيْمَنِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتَيْنِ} (الحقة 44 - 46) . وما
قتل بل قال الله في حقه {وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ} (المائدة : 67) .

الوجه التاسع : أن الله بين عالمة النبي الكاذب أن إخباره عن الغيب المستقبل لا
يخرج صادقاً . ومحمد μ أخبر عن الأمور الكثيرة المستقبلية كما علمت .. وظهر صدقه فيها
، فيكوننبياً صادقاً لا كاذباً .

الوجه العاشر : أن علماء اليهود سلموا كونه مبشرأ به في التوراة ولكن بعضهم أسلم
وبعضهم بقي في الكفر ...

البشارة الثانية : الآية الحادية والعشرون من الباب الثاني والثلاثين من سفر الاستثناء
هكذا : (هم أغاروني بغير إله وأغضبني بمعبوداتهم الباطل وأنا أيضاً غيرهم بغير شعب ؛
وبشعب جاهل أغضبهم) . والمراد بشعب جاهل العرب ، لأنهم كانوا في غاية الجهل
والضلال وما كان عندهم علم لا من العلوم الشرعية ، ولا من العلوم العقلية ، وما كانوا
يعرفون سوى عبادة الأواثن والأصنام ، كانوا محقرين عند اليهود لكونهم من أولاد هاجر
الجارية ، فقصود الآية أن بنى إسرائيل أغاروني بعبادة المعبدات الباطلة ، فأغrierهم

باصطفاء الذين هم عندهم محققون وجاهلون فأوفى بما وعده ، فبعث من العرب النبي ﷺ فهداهم إلى الصراط المستقيم كما قال الله تعالى في سورة الجمعة : {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأَمَمِينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتَلَوُ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيَعْلَمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} (الجمعة : 2) وليس المراد بالشعب الجاهل اليونانيين كما يفهم من ظاهر كلام مقدسهم بولس في الباب العاشر من الرسالة الرومية لأن اليونانيين قبل ظهور عيسى عليه السلام بأزيد من ثلاثة عشر سنة كانوا فائقين على أهل العالم كلهم في العلوم والفنون ، وكان جميع الحكماء المشهورين مثل سقراط وبقراط وفيشاغورث وأفلاطون وأرسطاطاليس وأرشميديس وبليناس وإقليدس وجاليوس وغيرهم الذين كانوا أئمة الرياضيات والطبيعتيات وفروعها قبل عيسى عليه السلام ، وكان اليونانيون في عهده على غاية درجة الكمال في فنونهم وكانا واقفين على أحكام التوراة وقصصها وسائر كتب العهد العتيق أيضاً بواسطة ترجمة سبتوجنت التي ظهرت باللغة اليونانية قبل المسيح بمقدار مائتين وستة وثمانين سنة ، لكنهم ما كانوا معتقدين للملة الموسوية وكانوا متخصصين عن الأشياء الحكيمية الجديدة ..

البشرة الثالثة : في الباب الثالث والثلاثين من سفر الاستثناء في الترجمة العربية المطبوعة سنة 1844 هـ (وقال جاء الرب من سيناء وأشرق لنا من ساعير واستعلن من جبل فاران ومعه ألف الأطهار في يمينه سنة من نار) فمجيئه من سيناء إعطاؤه التوراة لموسى عليه السلام ، وإشرافه من ساعير إعطاؤه الإنجيل لعيسى عليه السلام ، واستعلائه من جبل فاران إنزاله القرآن لأن فاران جبل من جبال مكة ، في الباب الحادي والعشرين من سفر التكوين في حال إسماعيل عليه السلام هـ 20 - (وكان الله معه ونما وسكن في البرية وصار شاباً يرمي بالسهام 21 - وسكن بريه فاران) ولا شك أن إسماعيل عليه السلام كان سكونته بمكة ولا يصح أن يراد أن النار لما ظهرت من طور سيناء ظهرت من ساعير ومن فاران أيضاً فانتشرت في هذه المواقع لأن الله لو خلق ناراً في موضع لا يقال جاء الله من ذلك الموضع إلا إذا اتبع تلك الواقعة وهي نزل في ذلك الموضع أو عقوبة أو ما أشبهه ذلك وقد اعترفوا أن الوحي اتبع تلك في طور سيناء فكذا لا بد أن يكون في ساعير وفاران .

البشرة الرابعة : في الآية العشرين من الباب السابع عشر من سفر التكوين وعد الله في حق إسماعيل عليه السلام لإبراهيم عليه السلام في الترجمة المطبوعة سنة 1844 هـ (وعلى إسماعيل استجيب لك هوذا أباركه وأكبره وأكثره جداً فسيلد اثني عشر رئيساً وأجعله لشعب كبير) . قوله أجعله لشعب كبير يشير إلى محمد ﷺ لأنه لم يكن في ولد إسماعيل من كان لشعب كبير غيره ؛ وقد قال الله تعالى ناقلاً دعاء إبراهيم وإسماعيل في حقه - عليهم

السلام - في كلامه المجيد أيضاً : {رَبَّنَا وَأَبْعَثْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَنْذِلُونَا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَيَعْلَمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُرَكِّبُهُمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} البقرة : 129 .

البشارة الخامسة : الآية العاشرة من الباب التاسع والأربعين من سفر التكوين هكذا كما في الترجمة العربية سنة 1722 وسنة 1831 وسنة 1844 .

(فلا يزول القضيب من يهودا والمدبر من تحت فخذه حتى يجيء الذي هو له وإليه تجتمع الشعوب) .

" يذكر المؤلف هنا كلاماً طويلاً محتواه أن القضيب هنا لا يفسر إلا بالنبوة وي Ferdinand كل تفسير آخر مستشهاداً بالتاريخ والواقع المذكورة في كتب اليهود والنصارى أنفسهم ومقتضى كلامه أن الذي له الكل وإياه تتضرر الأمة لا بد أن يكون محمد عليه الصلاة والسلام ولا يصح أن يفسر به غيره لأنه لو فسرنا أن المقصود بذلك المسيح لكان فهمنا متناقضاً مع النص إذ المسيح من آل إسرائيل ومن ذريته والكلام هنا عن نبوة تخرج عن ذرية إسرائيل تجتمع إليه الشعوب من غيرهم وليس ذلك لغير محمد عليه الصلاة والسلام " .

البشارة السادسة : في الزبور الخامس والأربعين هكذا :

(فاض قلبي كلمة صالحة أنا أقول أعمالي للملك (1) لسانني قلم كاتب سريع الكتابة (2) بهي في الحسن أفضل من بنى البشر (3) انسكبت النعمة على شفتيك لذلك باركك الله إلى الدهر (4) تقد سيفك على فخذك أيها القوي بحسنك وجمالك (5) إستله وانجح واملك من أجل الحق والدعة والصدق وتهديك بالعجب يمينك (6) نبك مسنونة أيها القوي في قلب أعداء الملك الشعوب تحنك يسقطون (7) كرسيك يا الله إلى دهر الراهنين عصا الاستقامة عصا ملك (8) أحببت البر وأبغضت الإثم لذلك مسحك الله إلهك بدهن الفرح أفضل من أصحابك (9) المر والميوعة والسليخة من ثيابك من منازلك الشريفة العاج التي أبهجتك (10) بنات الملوك في كرامتك قامت الملكة من عن يمينك مشتملة بثوب ذهب موشى (11) اسمعي يا ننت وانظري وأنصتي بأذنيك شعبك وبنت أبيك (12) فيشتئي الملك حسنك لأنه هو الرب إلهك وله تسجدين (13) بنات صور يأتينك بالهدايا لوجهك يصلى كل أغنياء البشر (14) كل مجد ابنة الملك من داخل مشتملة بلباس الذهب الموشى (15) يبلغن إلى الملك عذاري في أثرها قريباتها إليك يقدمون (16) يبلغن بفرح وابتهاج يدخلن إلى هيكل الملك (17) ويكون بنوكم عوضاً من آباءك وتقيمهم رؤساء على سائر الأرض (18) سأذكر اسمك في كل جيل وجيل

من أجل ذلك تعرف لك الشعوب إلى الدهر وإلى الدهر الادهرين) أهـ . وهذا الأمر مسلم عند أهل الكتاب أن داود عليه السلام يبشر في هذا الزبور بنبي يكون ظهوره بعد زمانه ولم يظهر إلى هذا الحين عند اليهود النبي يكون موصوفاً بالصفات المذكورة في هذا الزبور ويدعى علماء بروتستنت أن هذا النبي عيسى عليه السلام ويدعى أهل الإسلام سلفاً وخلفاً أن هذا النبي محمد فاؤقول إنه ذكر في هذا الزبور من صفات النبي المبشر به هذه الصفات 1 - كونه حسناً 2 - كونه أفضل البشر 3 - كون النعمة منسوبة على شفتيه 4 - كونه مباركاً إلى الدهر 5 - كونه متقدلاً بالسيف 6 - كونه قوياً 7 - كونه ذا حق ودعة وصدق 8 - كونه هداية يمينه بالعجب 9 - كون نبله مسنونة 10 - سقوط الشعب تحته 11 - كونه محباً للبر ومحبضاً للإثم 12 - خدمة بنات الملوك إياه 13 - إتيان الهدايا إليه 14 - انقياد كل أغنياء الشعب له 15 - كون أبنائه رؤساء الأرض بدل آبائهم 16 - كون اسمه مذكوراً جيلاً بعد جيل 17 - مدح الشعوب إياه إلى دهر الادهرين . وهذه الأوصاف كلها توجد في محمد ﷺ على أكمل وجه . أما الأول فلأن أبا هريرة رضي الله عنه قال : (ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله ﷺ كان الشمس تجري في وجهه) . وعن أم معد رضي الله عنها قالت في بعض ما وصفته به : (أجمل الناس من بعيد وأحلاهم وأحسنهم من قريب) وأما الثاني فلأن الله تعالى قال في كلامه المحكم {تَلَّكَ الرَّسُولُ فَضَلَّنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ} البقرة : 253 . وقال أهل التفسير أراد بقوله {وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ} محمداً ﷺ أي رفعه على سائر الأنبياء من وجوه متعددة وقد أشبع الكلام في تفسير هذه الآية الإمام الهمام الفخر الرازي في تفسيره الكبير . وقال ﷺ : " أنا سيد ولد آدم يوم القيمة ولا فخر " أي لا أقول ذلك فخراً لنفسي بل تحثنا بنعمة ربنا . وأما الثالث فغير محتاج إلى البيان ، حتى أقر بفضحاته المواقف والمخالف ، وقال الرواة في وصف كلامه إنه كان أصدق الناس لهجة فكان من الفصاحة بال محل الأفضل والموضع الأكمل . وأما الرابع فلأن الله تعالى قال {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصْلِّونَ عَلَى الْأَئْبَى} وألوف ألف من الناس يصلون عليه في الصلوات الخمس . وأما الخامس ظاهر وقد قال هو بنفسه أنا رسول الله بالسيف . وأما السادس فكانت قوته الجسمانية على الكمال . وأما شجاعته فقد قال ابن عمر رضي الله عنهم (ما رأيت أشجع ولا أجد ولا أجود من رسول الله ﷺ) وقال علي كرم الله وجهه (وإننا كنا إذا حمي البأس واحمرت الحق اقينا برسول الله ﷺ فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه ولقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ وهو أقربنا إلى العدو وكان من أشد الناس يومئذ بأساً) . وأما السابع فلأن الأمانة والصدق من الصفات الجليلة له ﷺ كما قال النضر بن الحارث لقريش : (قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً أرضاكم فيكم وأصدقكم حدثاً وأعظمكم أمانة حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم فلتم إنه ساحر لا والله ما هو بساحر) وسأل هرقل عن حال النبي ﷺ أبا سفيان فقال : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن

يقول ما قال ، قال : لا . وأما الثامن فلأنه رمى يوم بدر وكذا يوم حنين وجوه الكفار بقبضة فلم يبق مشرك إلا شغل بعينيه فانهزموا وتمكن المسلمون منهم قتلاً وأسراً فأمثال هذه من عجيب هداية يمينه . وأما التاسع فلأن كون أولاد إسماعيل أصحاب النبل في سالف الزمان غير محتاج إلى البيان وكان هذا الأمر مرغوباً له وكان يقول : " ستفتح عليكم الروم ويكفيكم الله فلا يعجز حكم أن يلهم بأسمهمه " ويقول : " ارموابني إسماعيل فإن أباكم كان راماً " ويقول عليه الصلاة والسلام : " من تعلم الرمي ثم تركه فليس منا " . وأما العاشر فلأن الناس دخلوا أفواجاً أفواجاً في دين الله في مدة حياته . وأما الحادي عشر فمشهور يعترف به المعاندون أيضاً كما عرفت في المسلك الثاني . وأما الثاني عشر فقد صارت بنات الملوك والأمراء خادمة لل المسلمين في الطبقة الأولى ومنها شهريانو بنت يزدجر كسرى فارس كانت تحت الإمام الهمام الحسين رضي الله عنه . وأما الثالث عشر والرابع عشر فلأن النجاشي ملك الحبشة ومنذر بن ساوي ملك البحرين وملك عمان انقادوا وأسلموا ؛ وهرقلقيصر الروم أرسل إليه بهدية والمقووس ملك القبط أرسل إليه ثلاثة جواري وغلاماً أسوداً وبغلة شهباء وحماراً أشهب وفرساً وثياباً وغيرها . وأما الخامس عشر فقد وصل من أبناء الإمام الحسن رضي الله عنه إلى الخلافة في أقاليم مختلفة من الحجاز واليمن ومصر والمغرب والشام وفارس والهند وغيرها ...

أما السادس عشر والسابع عشر فلأنه ينادي ألف ، جيلاً بعد جيل في الأوقات الخمسة بصوت رفيع في أقاليم مختلفة " أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله " ويصلي عليه في الأوقات المذكورة غير المحصورة من المصلين القراء يحفظون منشوره والمفسرون يفسرون معاني فرقانه ، والوعاظ يبلغون وعظه . والعلماء والسلطانين يصلون إلى خدمته ويسلمون عليه من وراء الباب (أي باب قبره عليه الصلاة والسلام) .

البشرة السابعة : وهي موجودة في الزبور المائة والتاسع والأربعين " لأن الرب يسر بشعبه ويشرف المتواضعين بالخلاص ، تفتخر الأبرار بالمجد وبيتهن على مضاجعهم ترفع الله في حلوقهم وسيوف ذات فمین في أياديهم ، ليصنعوا انتقاماً في الأمم ، وتوبيخات في الشعوب ، ليقيدوا ملوكهم بالقيود ، وأشرافهم بأغلال من حديد ، ليضعوا بها حكماً محکتماً هذا المجد يكون لجميع الأبرار " ... (لم تتحقق هذه البشرة إلا بال المسلمين الذين فعلوا هذا باسم الله والله) وهذه هي :

البشرة الثامنة : في الباب الثاني والأربعين من كتاب أشعيا هكذا :

- 9 (التي كانت أولاً ها قد أتت و أنا مخبراً أيضاً بأحداث قبل أن تحدث وأسمعتم إياها) .
- 10 (سبوا للرب تسبيحة جديدة حمده من أقصى الأرض راكبين في البحر وملؤه الجزائر وسكانهن) .
- 11 (يرتفع البرية ومدتها في البيوت نحل قيدار سبوا يا سكان الكهف من رؤوس الجبال يصيرون) .
- 12 (يجعلون للرب كرامة ، وحمده يخبرون به في الجزائر) .
- 13 (الرب كجبار يخرج مثل رجل مقاتل يهوش الغيرة ويصوت ويصبح على أعدائه يقتوى) .
- 14 (سكت دائماً صمت صبرت صبراً فأتكلم مثل الطائفة ما بدد وابتلع معاً) .
- 15 (أخرب الجبال والآكام وكل نباتهن أجف وأجعل الأنهار جزائر والبحيرات أجفهن) .
- 16 (وأقید العمی في طریق لم یعرفوها والسبل لم یعلموا أسریهم فیها أصیر أمامهم الظلمة نوراً و العقب سهلاً هذا الكلام صنعته لهم ولا أخذلهم) .
- 17 (اندبوا إلى ورائهم والمتكلمون على المنحوتة القائلون للمسبوكة إنكم آلهتكم ليخرون خزيًّا) وظهر من الآية التاسعة أن أشعيا عليه السلام أخبر أولاً عن بعض الأشياء ثم يخبر عن الأخبار الجديدة الآتية في المستقبل فالحال الذي يخبر عنه من هذه الآية إلى آخر الباب غير الحال الذي أخبر عنه قبلها ولذلك قال في الآية الثالثة والعشرين هكذا (من هو بينكم إن يسمع هذا يصغي ويسمع الآية) والتسبيحة الجديدة عبارة عن العبادة على النهج الجديد التي هي في الشريعة المحمدية وتعتمد عليها سكان أقصى الأرض وأهل الجزائر وأهل المدن والبراري ، إشارة إلى عموم نبوته ولفظ قيدار أقوى إشارة إليه لأن محمدًا

في أولاد قيدار بن إسماعيل . قوله من رؤوس الجبال يصيرون إشارة إلى العبادة المخصوصة التي تؤدي في أيام الحج يصبح ألف ألف من الناس لبيك اللهم لبيك . قوله حمده - يخبرون به في الجزائر إشارة إلى الأذان يخبر به ألف ألف في أقطار العالم في الأوقات الخمسة بالجهر . قوله (الرب كبار يخرج مثل رجل مقاتل يهوش الغيرة) يشير إلى مضمون الجهاد إشارة حسنة بأن جهاده وجهاده تابعيه يكون الله وبأمره خالياً عن حظوظ الهوى النسانية ولذلك عبر الله عن خروج هذا النبي وخروج تابعيه بخروجه وبين في الآية الرابعة عشر سبب مشروعية الجهاد وأشار في الآية السادسة عشر إلى حال العرب لأنهم كانوا غير واقفين على أحكام الله وكانوا يعبدون الأصنام ، وكانوا مبتلين بأنواع الرسوم القبيحة الجاهلية كما قال الله تعالى في حقهم {وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} قوله (لا أخذ لهم) إشارة إلى كون أمته مرحومة {عَيْنَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الْضَّالُّلُ} وإلى تأييد شريعته . قوله (والمتوكلون على المنحوتة القائلون للمسيبة إنكم آهتنا ليخزون خزياً) وعد بأن عبادي الأصنام والأوثان كمشركي العرب وعابدي الصليب وصور القديسين يحصل لهم الخزي والهزيمة التامة ، ووفى بما وعد فإن مشركي العرب وهرقل عظيم الروم وكسرى فارس ما قصرّوا في إطفاء النور الأحمدي لكنهم ما حصل لهم سوى الخزي التام وعاقبة الأمر لم يبق أثر الشرك في إقليم العرب وزالت دولة كسرى مطلاً وزالت حكومة أهل الصليب من الشام مطلاً ، وأما في الأقاليم الأخرى فمن بعضها انمحى أثره مطلاً كخارى وكابل وغيرهما ومن بعضها قل كالهند والسند وغيرهما وانتشر التوحيد شرقاً وغرباً .

البشارة التاسعة : في الباب الرابع والخمسين من كتاب أشعيا هكذا : 1 (سبحي أيتها العاقر التي لست تلدين ، أنشدي بالحمد ، وهللي التي لم تلدي من أجل أن الكثرين منبني الوحشة أفضل من بني ذات رجل يقول رب) ، 2 (أوسعي موضع خيمتك وسرادق مضاربك ابسطي شقق مساكنك طولي حباك ثبتي أوتادك) 3 (لأنك تتفيدzin يمنة ويسرة زرعك يرث الأمم ويعمر المدن الخربة) 4 (لا تخافي لأنك لا تخزين ولا تخجلين فإنك لا تستحين من أجل أنك خزي صبائك تتسين وعار ترملك لا تذكرين أيضاً) 5 (فإنه يتولى عليك الذي صنعتك رب الجنود اسمه وفاديك قدوس إسرائيل إله جميع الأرض يدعى) 6 (إنما الرب دعاك مثل الامرأة المطلقة والحزينة الروح وزوجة منذ الصبا مرذولة قال إلهك) 7 (لساعة في قليل تركتك وبرحمة عظيمة أجمعك) 8 (في ساعة الغضب أخفيت قليلاً وجهي عنك وبالرحمة الأبدية رحمتك قال فاديك الرب) 9 (متلما في أيام نوح لي هذا الذي حلفت له أن لا أصب مياه نوح على الأرض هكذا حلفت أن لا أغضب عليك وأن لا أوبخك) 10 (فإن الجبال ترتجف والتلال تزلزل ورحمتي لا تزول عنك وعهد سلامي لا يتحرك قال

رحيمك الرب) 11 (فقيرة مستأصلة بعاصفة بلا تعزية ها أنذا أبلط بالرتبة حجارتك وأونسك بالسفير .

12 (وأجعل شُرَفَكَ ياقوتاً ، وأبوابك حارة منقوشة وجميع حدود الأحجار مشتهية)

13 (جميع بنيك متعلمين من الرب وكثرة السلام لبنيك) 14 (وبالبر تؤسسين فابتعدي من الظلم لأنك لا تخافين ومن الهيبة لأنها لا تقرب منك) 15 (ها يأتي الجار الذي لم يكن معني والذي قد كان قريباً يقترب منك) 16 (ها أنا ذا خلقت صائغاً الذي ينفح في النار جمراً ويخرج إماء لعمله وأنا خلقت قتولاً للإهلاك) 17 (كل إماء مجبول ضدك لا ينجح وكل لسان يخالفك في القضاء تحكمين عليه هذا هو ميراث عبيد الرب وعد لهم عندي يقول الرب) اهـ : فأقول : أن المراد بالعاقر في الآية الأولى مكة المعظمة لأنها لم يظهر منهانبي بعد إسماعيل ولم ينزل فيها وحي ، وهي بخلاف أورشليم لأنه ظهر فيها الأنبياء الكثيرون ، وكثير فيها نزول الوحي ، وبنو الوحشة عبارة عن أولاد هاجر لأنها كانت بمنزلة المطلقة المخرجة عن البيت ساكنة في البر ولذلك وقع في حق إسماعيل في وعد الله هاجر (هذا سيكون إنساناً وحشياً) كما هو مصريح به في الباب السادس عشر من سفر التكوين ، وبنو ذات رجل عبارة عن أولاد سارة فخاطب مكة الله آمراً لها بالتسبيح والتهليل وإنشاد الشكر لأجل أن كثريين من أولاد هاجر صاروا أفضل من أولاد سارة فحصلت الفضيلة لها بسبب حصول الفضيلة لأهلها ، ووفى بما وعد بأن بعث محمداً رسولًا أفضل البشر خاتم النبيين من أهلها في أولاد هاجر . وهو المراد بالصائع الذي ينفح في النار جمراً ، وهو القتول الذي خلق لإهلاك المشركين ، وحصل لها السعة بواسطة هذا النبي ، وما حصل لغيرها من المعابد في الدنيا إذ لا يوجد في الدنيا معبد مثل الكعبة من ظهور محمد إلى هذا الحين ، والتعظيم الذي يحصل لها من القرابين فيك كل سنة من مدة ألف ومائتين وثمانين لم يحصل لبيت المقدس إلا مرتين في عهد سليمان عليه السلام لما فرغ من بنائه ومرة في السنة الثامنة عشر من سلطنة يوشيا ، ويبقى هذا التعظيم لمكة إلى آخر الدهر إن شاء الله كما وعد الله بقوله ، لا تخافي لأنك لا تخزين ولا تخجين لأنك لا تستحيين ، وبقوله : برحمات عظيمة أجمعك وبالرحمة الأبدية رحمتك ، وبقوله حلفت أن لا أغضب عليك وأن لا أوبخك ، وبقوله رحمتي لا تزول عنك وعهد سلامي لا يتحرك ، وملك زرعها شرقاً وغرباً ، وورثوا الأمم وعبروا المدن في مدة قليلة لا تتجاوز اثنين وعشرين سنة من الهجرة ، ومثل هذه الغلبة في مثل هذه المدة القليلة لم يسمع من عهد آدم عليه السلام إلى زمان محمد عليه الصلاة والسلام لمن يدعى الدين الجديد ، وهذا مفاد قول الله : وزر عك يرث الأمم ، ويعمر المدن الخربة . سلاطين الإسلام سلفاً وخلفاً اجتهدوا اجتهاداً تماماً في بناء الكعبة والمسجد الحرام وتزيينهما وحفر الآبار والبراك والعيون في مكة

ونواحيها والغرباء يحبون مجاورتها من ظهور الإسلام إلى هذا الحين سيما في هذا الزمان ، وألوف من الناس يصلون إليها في كل سنة من أقاليم مختلفة ، وديار بعيدة ووفى بما وعد بقوله : " كل إباء مجبول بضدك لا ينجح " لأن كل شخص من المخالف قام بضدها أذله الله كما وقع بأصحاب الفيل ...

البشرة العاشرة : في الباب الخامس والستين من كتاب أشعيا هكذا : 1 (طلبني الذين لم يسألوني قبل ووجدني الذين لم يطلبوني قلت هاؤنذا إلى الأمة الذين لم يدعوا باسمي) 2 (بسطت يدي طول النهار إلى شعب غير مؤمن الذي يسلك بطريق غير صالح وراء أفكارهم) 3 (الشعب الذي يغضبني أمم وجهي دائمًا) . (الذين يذبحون في البساتين ويدبحون على اللبن) 4 (الذين يسكنون في القبور في مساجد الأوثان يرقدون الذين يأكلون لحم الخنزير والمرق المنجس في آنيتهم) 5 (الذين يقولون بعد عني لا تقرب مني لأنك نجس هولاء يكونون دخاناً في رجزي ناراً متقدة طوال النهار) 6 (ما مكتوب قدامي لا أسكب بل أرد وأكافي جزاء في حضهم) فالمRAD بالذين لم يسألوني والذين لم يطلبوني العرب لأنهم كانوا غير واقفين على ذات الله وصفاته وشرائعه فما كانوا سائرين عن الله وطالبين له كما قال الله تعالى في سورة آل عمران {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَنْهَا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيَعْلَمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} آل عمران : 164 . ولا يجوز أن يراد بهم اليونانيون كما عرفت في البشرة الثانية والوصف المذكور في الآية الرابعة أصدق بحال النصارى ، كما أن الوصف المذكور في الخامسة أصدق بحال اليهود ، فردهم الباري واختار الأمة المحمدية .

البشرة الحادية عشرة : في الباب الثاني من كتاب دانيال في حال الرؤيا التي رأها بختنصر ملك بابل ونسيء ثم بين دانيال عليه السلام بحسب الوحي تلك الرؤيا وتفسيرها 31 (فكنت أنت الملك ترى وإذ تمثال واحد جسيم وكان التمثال عظيماً ورفع القامة واقتراها ومنظره مخوفاً) 32 (رأس هذا التمثال هو من ذهب إبريز والصدر والذراعان من فضة والبطن والفخذان من نحاس) 33 (والساقان من حديد والقدمان قسم منها من حديد وقسم منها من خزف) 34 (فكنت ترى هكذا حتى انقطع حجر من الجبل لا يبدين وضرب التمثال في قدميه من حديد ومن خزف فسحقهما) 35 (فانسحق حينئذ مع الحديد والخزف والنحاس والفضة والذهب وصارت كغبار البيدر في الصيف فترتها الرياح ولم يوجد لها مكان والحجر الذي قد ضرب التمثال صار جيلاً عظيماً وملاً الأرض بأسرها) 36 (فهذا هو الحلم

وتنبئ أيضاً قدامك يا أيها الملك بتفسيره) 37 (أنت هو ملك الملوك وإله السماء أعطاك الملك والقوة والسلطان والمجد) 38 (وجميع ما يسكن فيه بنو الناس ووحوش الحقل وأعطي بيده طير السماء أيضاً وجعل جميع الأشياء تحت سلطانك فأنت هو الرأس من الذهب) 39 (وبعدك تقوم مملكة أخرى أصغر منك من فضة ومملكة ثالثة أخرى من نحاس وتتسلط على جميع الأرض) 40 (والمملكة الرابعة تكون مثل الحديد كما أن الحديد يسحق ويغلب الجميع هكذا هي تسحق وتكسر جميع هذه) 41 (أما فيما رأيت قسم القدمين وأصابعهما من الخزف الفاخوري وقساً من حديد تكون المملكة مفترقة وإن كان يخرج من نصبة الحديد حسبما رأيت الحديد مختلطًا بالخزف من طين) 42 (وأصابع القدمين قسم من حديد وقسم من خزف فتكون المملكة بقسم صلبة وبقسم مسحوقه) 43 (فيما رأيت الحديد مختلطًا بالخزف من طين إنهم يختلطون بزرع بشري بل لا يتلاصقون مثل ما ليس يمكن أن يتمترج الحديد بالخزف) 44 (فأما في أيام تلك الممالك يبعث إله السماء مملكة وهي لن تنتهي فقط ملوكها لا يعطى لشعب آخر وهي تسحق وتنهي جميع هذه الممالك أجمعين وهي تثبت إلى الأبد) 45 (وكما رأيت أن من جبل انقطع حجر لا يبدين وسحق الخزف والحديد والنحاس والفضة والذهب فالمراد بالمملكة الأولى سلطنة بختنصر والمملكة الثانية سلطنة الماديين الذين سلطوا بعد قتل بشادر بن بختنصر كما هو مصرح به في الباب الخامس من الكتاب المذكور وسلطنتهم كانت ضعيفة بالنسبة إلى سلطنة الكلانبيين والمراد بالمملكة الثالثة سلطنة الكيانيين لأن قورش ملك إيران الذي هو بزعم القسيسين كيخسر وسلط على بابل قبل ميلاد المسيح بخمسة وست وثلاثين سنة ولما كان الكيانيون على السلطة القاهرة فكانوا متسلطين على جميع الأرض ، والمراد بالمملكة الرابعة سلطنة اسكندر بن فيلفوس الرومي الذي تسلط على ديار فارس قبل ميلاد المسيح بثلاثمائة وثلاثين سنة ، فهذا السلطان كان في القوة بمنزلة الحديد ثم جعل هذا السلطان سلطنة فارس منقسمة على طائف الملك فبقيت هذه السلطنة ضعيفة إلى ظهور الساسانيين ثم صارت قوية بعد ظهورهم فكانت ضعيفة تارة وقوية تارة وتولد في عهد أنوشيروان (محمد بن عبد الله) ٥ وأعطاه الله السطنة الظاهرية والباطنية وقد تسلط متبوعه في مدة قليلة شرقاً وغرباً وعلى جميع ديار فارس التي كانت هذه الرؤيا وتفسيرها متعلقين بها ، فهذه هي سلطنة الأبدية التي لا تنتهي وملوكها لا يعطى لشعب آخر ...

فهذا الحجر الذي انقطع لا يبدين من جبل وسحق الخزف والحديد والنحاس والفضة والذهب وصار جيلاً عظيماً وملأ الأرض بأسرها هو محمد ٥ .

البشاره الثانية عشرة : نقل يهوذا الحواري في رسالته الخبر الذي تكلم به أخنوح الرسول .. وأنا أنقل عبارته من الترجمة العربية المطبوعة سنة 1844 :

(الرب قد جاء في ربواته المقدسة ليدائن الجميع وبيكت جميع المنافقين على كل أعمال نفاقهم التي نافقوا فيها وعلى كل الكلام الصعب الذي تكلم به ضد الله الخطة المنافقون ...)

فجاء محمد في ربواته المقدسة فدان الكفار وبكت المنافقين والخطاة على أعمال النفاق وعلى أقوالهم القبيحة في الله ورسله فبكت المشركين لعدم تسلیم توحید الله ورسالة رسله مطلقاً وعبادتهم الأصنام والأوثان ، وبكت اليهود على تفريطهم في حق عيسى ومريم عليهما السلام ، وبعض عقائدهم الواهية ، وبكت أهل التثلیث مطلقاً على تفريطهم في توحید الله وإفراطهم في حق عيسى عليه السلام ، وبكت أكثرهم على عبادة الصليب والتماشی وبعض عقائدهم الواهية .

البشارات : الثالثة عشرة والرابعة عشرة والخامسة عشرة :

(ملاحظة : لقد تصرفنا هنا في كلامه فدمجنا البشارات الثلاث وصغناها صياغة مختصرة مع أنه ذكر كلا على انفراد وشرح كلا ولكن رأينا أن الموضوع واحد فدمجنا رغبة في الاختصار) .

في الباب الثالث عشر من إنجيل متى هكذا :

31 (قدم لهم مثلاً آخر قائلاً : يشبه ملکوت السماوات حبة خردل أخذها إنسان وزرعها في حقله) 32 (وهي أصغر جميع البذور ولكن متى نمت فهي أكبر البقول وتصير شجرة حتى أن طيور السماء تأتي وتتأوي في أغصانها) ۱ هـ . وفي الباب العشرين من إنجيل متى هكذا .

1 (فإن ملکوت السماوات يشبه رجلاً رب بيت خرج من الصبح ليستأجر فعلة لركمه فاتفق في العملة على دينار في اليوم وأرسلهم إلى كرمه ثم خرج نحو الساعة الثالثة ورأى آخرين قياماً في السوق بطالين فقال لهم : اذهبوا أنتم أيضاً إلى الكرم فأعطيكم ما يحق لكم

فمضوا وخرج أيضاً نحو الساعة السادسة والتاسعة وفعل كذلك ثم نحو الساعة الحادية عشرة خرج ووجد آخرين قياماً بطالين فقال لهم : لماذا وقفتم هنا كل النهار بطالين قالوا له : لأنه لم يستأجرنا أحد قال لهم : اذهبوا أنتم أيضاً إلى الكرم فتأخذوا ما يحق لكم فلما كان المساء قال صاحب الكرم لوكيله : ادع الفعلة وأعطهم الأجرة مبتدئاً من الآخرين إلى الأولين فجاء أصحاب الساعة الحادية عشر وأخذوا ديناراً فلما جاء الأولون ظنوا أنهم يأخذون أكثر فأخذوا هم أيضاً ديناراً ديناراً وفيما هم يأخذون تذمروا على رب البيت قائلين هؤلاء الآخرون عملوا ساعة واحدة وقد ساويتهم بنا ؛ نحن الذين احتملنا تقل النهار والحر فأجاب وقال لواحد منهم : يا صاحب ما ظلمتك أما اتفقت معى على دينار فخذ ذلك وادهب ، فإني أريد أن أعطي هذا الأخير مثلك ، أو ما يحلُّ لي أن أفعل ما أريد بمالي أم عينك شريرة لأنني أنا صالح ، هكذا يكون الآخرون أولين والأولون آخرين لأن كثريين يدعون وقليلين ينتخبون) .

(وفي الباب الثالث من إنجيل متى :

(يشبه ملکوت السماوات إنساناً زرع زرعاً جيداً في حقله) .

(يشبه ملکوت السماوات حبة خردل أخذها إنسان وزرعها في حقله) .

(يشبه ملکوت السماوات خميرة أخذتها امرأة وخبأتها في ثلاثة أكيال دقيق حتى اختمر الجميع) .

وفي الباب الحادي والعشرين من إنجيل متى هكذا :

(لذلك أقول لكم إن ملکوت الله ينزع منكم ويعطي لأمة تعمل ثماره) .

وفي الباب الثالث من إنجيل متى هكذا :

11 (وفي تلك الأيام جاء يوحنا المعمدان يكرز في برية اليهودية قائلاً توبوا لأنه قد اقترب ملکوت السماوات) .

وفي الباب الرابع من إنجيل متى هكذا :

12 (ولما سمع يسوع أن يوحنا أسلم انصرف إلى الجليل من ذلك الزمان ابتدأ يسوع يكرّز ويقول : (توبوا لأنه قد اقترب ملکوت السماوات) .

هذه النصوص كلها تشير إلى نبوة محمد عليه الصلاة والسلام .

فالملة البطلة التي هي الأخيرة والأولى هي أمته .

والأمة التي ورثت ملکوت الله وعملت أثماره هي أمته .

وحبة الخردل التي هي أصغر البذور ثم أصبحت أكبر الشجر هي أمته وهكذا لا يمكن أن تفهم هذه النصوص فهماً مستقيماً إلا إذا طبقناها على محمد رسول الله وأمته .

البشارة السادسة عشرة : في الباب الحادي والعشرين من إنجيل متى هكذا :

33 (اسمعوا مثلاً آخر : كان إنسان رب بيت غرس كرماً وأحاطه بسياج وحفر فيه معصرة وبني برجاً وسلمه إلى كرامين وسافر ولما قرب وقت الإثمار أرسل عبيده إلى الكرامين وسافر ليأخذ أثماره فأخذ الكرامون عبيده وجذواه بعضاً وقتلوا بعضاً ورجموا بعضاً ثم أرسل أيضاً عبيداً آخرين أكثر من الأولين ففعلوا بهم كذلك ، فأخيراً أرسل إليهم ابنه قائلاً يهابون ابني ، وأما الكرامون فلما رأوا الآباء قالوا فيما بينهم هذا هو الوارث هلموا نقتله وأنأخذ ميراثه) ...

40 (فمتى جاء صاحب الكرم ماذا يفعل بأولئك الكرامين) 41 (قالوا له أولئك الأردياء يهلكهم هلاكاً ردياً ويسلم الكرم إلى كرامين آخرين يعطونه الأثمار في أوقاتها) 42 (قال لهم يسوع أما قرأتم فقط في الكتب الحجر الذي رفضه البناءون هو قد صار رأس الزاوية من قبل الرب كان هذا وهو عجيب في أعيننا) 43 (لذلك أقول لكم إن ملکوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره) 44 (ومن سقط على هذا الحجر يتراضض ومن سقط هو عليه) 45 (ولما سمع رؤساء الكهنة والفريسيون أمثاله عرفوا أنه تكلم عليهم) اهـ . أقول إن رب البيت كنایة عن الله والكرم كنایة عن الشريعة وإحاطته بسياج وحفر المعصرة فيه وبناء البرج كنایات عن بيان المحرمات والمباحات والأوامر والنواهي وإن

الكرامين الطاغين كنایة عن اليهود ، وكما فهم رؤساء الكهنة والفرسانيون أنه تكلم عليهم والعبيد المرسلين كنایة عن الأنبياء عليهم السلام ، والابن كنایة عن عيسى عليه السلام ، وقد قتله اليهود أيضاً في زعمهم ، والحجر الذي رفضه البناءون كنایة عن محمد ...

وهذا هو الحجر الذي كل من سقط عليه تررض و كل من سقط هو عليه سحنه ، وأما ادعاء علماء المسيحية بزعمهم أن هذا الحجر عبارة عن عيسى عليه السلام فغير صحيح لوجوه :

(الأول) : أن داود عليه السلام قال في الزبور المائة والثامن عشر هكذا .

22 (الحجر الذي رذله البناءون هو صار رأساً للزاوية) 23 (من قبل الرب كانت هذه وهي عجيبة في أعيننا) فلو كان هذا الحجر عبارة عن عيسى عليه السلام وهو من اليهود من آل يهودا من آل داود عليه السلام فأي عجب في أعين اليهود عموماً لكون عيسى رأس الزاوية سيما في عين داود عليه السلام خصوصاً لأن مزعوم المسيحيين أن داود عليه السلام يعظم عيسى عليه السلام في مزاميره تعظيمًا بليغاً ويعتقد الألوهية في حقه ، بخلاف آل إسماعيل لأن اليهود كانوا يحرقون أولاد إسماعيل غاية التحقيق ، وكان كون أحد منهم رأساً للزاوية عجيبة في أعينهم .

(الثاني) : أنه وقع في وسط هذا الحجر كل من سقط على هذا الحجر تررضيض وكل من سقط هو عليه سحنه ولا يصدق هذا الوصف على عيسى عليه السلام لأنه قال : (وإن سمع أحد كلامي ولم يؤمن فأنا لا أدينه لأنني لم آت لأدين العالم بل لأخلص العالم) كما هو في الباب الثاني عشر من إنجيل يوحنا ؛ وصدقه على محمد غير محتاج إلى البيان لأنه كان مأموراً بتتبئه الفجار الأشرار فإن سقطوا عليه تررضوا وإن سقط هو عليهم سحنه .

(الثالث) : قال النبي ﷺ : " مثلي ومثل الأنبياء كمثل قصر أحسن بنيانه وترك منه موضع لبنة فطاف به الناظر يتعجبون من حسن بنيانه إلا موضع تلك اللبنة ختم بي البناء وختم بي الرسل " ولما ثبتت نبوته بالأدلة الأخرى كما ذكرت نُبذَّ منها في المسالك السابقة فلا يأس بأن أستدل في هذه البشارة بقوله أيضاً .

(الرابع) : أن المتبار من كلام المسيح أن هذا الحجر غير الابن .

البشاره السابعة عشره : في الباب الثاني من المشاهدات هكذا :

26 (ومن يغلب ويحفظ أعمالي إلى النهاية فسأعطيه سلطاناً على الأمم فيرعاهم بقضيب من حديد ، كما تكسر آنية من خزف ، كما أخذت أيضاً من عند أبي وأعطيه كوكب الصبح من له أذنان فليس مع ما يقول الروح بالكنائس) .

(ونصوغ بعض تحليله لهذه البشاره باختصار) .

" إن صاحب قضيب الحديد الذي يرعى به الأمم رسول الله ﷺ إذ اجتمع له سلطان الدين والدنيا ولخلفائه الراشدين ودول المسلمين " .

" والكنيسة المذكورة بأنها ستعطى له اسمها الأصلي (ثياثرا) كما قال القسيسان ويتوليم اللذان ناظرا صاحب صولة الضيغم وهذه الكنيسة قريبة من القسطنطينية التي حكمها المسلمون من مئات السنين " .

البشاره الثامنة عشره : وهذه البشاره واقعة في آخر أبواب إنجيل يوحنا وأنا أنقل عن الترجم العربيه المطبوعة سنة 1821 وسنة 1831 وسنة 1844 في بلدة لندن فأقول في الباب الرابع عشرة من إنجيل يوحنا هكذا :

15 (إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصايائي وأنا أطلب من الأب فيعطيكم فارقليط آخر ليثبت معكم إلى الأبد روح الحق الذي لن يطيق العالم أن يقبله لأنه ليس يراه ولا يعرفه وأنتم تعرفونه لأنه مقيم عندكم وهو ثابت فيكم) 26 (والفارقليط روح القدس الذي يرسله الأب باسمي وهو يعلمكم كل شيء وهو يذكركم كل ما قلته لكم) 30 (والآن قد قلت لكم قبل أن يكون حتى إذا كان تؤمنون) ...

وفي الباب السادس عشر من إنجيل يوحنا هكذا : 7 (لكني أقول لكم الحق أنه خير لكم أن أنطلق لأنني إن لم أنطلق لم يأتكم الفارقليط فاما إن انطلقت أرسلته إليكم) 8 (فإذا جاء ذلك فهو يوبخ العالم على خطية وعلى البر وعلى حكم) 9 (أما على الخطية فلأنهم لم يؤمنوا بي) 10 (وأما على البر فلأنني منطلق إلى الأب ولستم ترونني بعد) 11 (وأما على الحكم

فإن أركون هذا العالم قد دين) 12 (وأن لي كلاماً كثيراً أقوله لكم ولكنكم لستم تطيقون حمله الآن) 13 (وإذا جاء روح الحق ذلك فهو يعلمكم جميع الحق لأنه ليس ينطق من عنده بل يتكلم بكل ما يسمع ويخبركم بما سيأتي) 14 (وهو يمجدني لأنه يأخذ مما هو لي ويخبركم)

..

وأنا أقدم قبل بيان وجه الاستدلال بهذه العبارات أمرین :

الأمر الأول : أنك قد عرفت في الأمر السابع أن أهل الكتاب سلفاً وخلفاً عاداتهم أن يترجموا غالباً الأسماء وأن عيسى عليه السلام كان يتكلم باللسان العبراني لا باليوناني ، فإذا لا يبقى شك في أن الإنجيل الرابع ترجم اسم المبشر به باليوناني بحسب عادتهم ، ثم مترجموا العربية عربوا اللفظ اليوناني بفارقليط وقد وصلت إلى رسالة صغيرة في لسان أردو من رسائل القسيسين في سنة ألف ومائتين وثمان وستين من الهجرة وكانت هذه الرسالة طبعت في كلكته وكانت في تحقيق لفظ فارقليط وادعى مؤلفها أن مقصوده أن يتبه المسلمين على سبب وقوعهم في الغلط من لفظ فارقليط وكان ملخص كلامه : إن هذا اللفظ معرب من اللفظ اليوناني فإن قلنا (إن هذا اللفظ يوناني الأصل باراكلي طوس فيكون بمعنى المعزي والمعين والوكيل ، وإن قلنا إن اللفظ الأصل بيركلوطوس يكون قريباً من معنى محمد وأحمد ، فمن استدل من علماء الإسلام بهذه البشارة فهم أن اللفظ الأصل بيركلوطوس ومعناه قريب من معنى محمد وأحمد فادعى أن عيسى عليه السلام أخبر بمحمد أو أحمد لكن الصحيح أنه باراكلي طوس ، انتهى ملخصاً من كلامه فأقول : إن التفاوت بين اللفظين يسير جداً وإن الحروف اليونانية كانت متشابهة فتبديل بيركلوطوس بـ باركلي طوس في بعض النسخ من الكاتب قريب القياس ثم رجع أهل التثليث المنكرين هذه النسخة على النسخ الآخر ومن تأمل في الباب الثاني من هذا الكتاب والأمر السابع من هذا المسلك السادس بنظر الإنصاف ، اعتقاد يقيناً بأن مثل هذا الأمر من أهل الديانة من أهل التثليث ليس ببعيد بل لا يبعد أن يكون من المستحسنات والأمر الثاني أن البعض ادعوا قبل ظهور محمد م أنهم مصاديق لفظ فارقليط مثلاً منتسب المسيحي الذي كان في القرن الثاني من الميلاد ، وكان مرتاباً شديداً واتقى عهده ، ادعى في قرب سنة 177 من الميلاد في آسيا الصغرى الرسالة وقال إن هو الفارقليط الموعود به الذي وعد بمحبيه عيسى عليه السلام وتبعه أناس كثيرون ، ذلك كما هو مذكور في بعض التواريخ ، وذكر وليم ميور حالة حال متبعيه في القسم الثاني من الباب الثالث من تاريخه بلسان أردو المطبوع سنة 1848 من الميلاد هكذا :

(أَنَّ الْبَعْضَ قَالُوا إِنَّهُ ادْعَى أَنِّي فَارِقُلِيتٍ يَعْنِي الْمَعْزِي رُوحُ الْقَدْسِ وَهُوَ كَانَ أَتَقَى وَمُرْتَاضًا شَدِيدًا وَلِأَجْلِ ذَلِكَ قَبْلَهُ النَّاسُ قَبُولًا زَائِدًا) . انتهى كلامه .. فعلم أن انتظار فارقليط كان في القرون الأولى المسيحية أيضاً ، ولذلك كان الناس يدعون أنهم مصايفه وكان المسيحيون يقبلون دعاويمهم وقال صاحب لب التواريخ : " إن اليهود والمسيحيين من معاصري محمد ﷺ كانوا منتظرين لنبي فحصل لمحمد من هذا الأمر نفع عظيم لأنه ادعى أنني هو ذاك المنتظر . انتهى ملخص كلامه " .

فيعلم من كلامه أيضاً أن أهل الكتاب كانوا منتظرين لخروج النبي في زمان النبي ﷺ وهو الحق لأن النجاشي ملك الحبشة لما وصل إليه كتاب محمد ﷺ (فقال أشهد بالله أنه للنبي الذي ينتظره أهل الكتاب) وكتب في الجواب (أشهد أنك رسول الله صادقاً ومصدقاً وقد بايعتك وبأيوب بن عمك ، (أي جعفر بن أبي طالب) وأسلمت على يديه الله رب العالمين) .

وهذا النجاشي قبل الإسلام كان نصراانياً ، وكتب المقوقس ملك القبط في جواب كتاب النبي ﷺ هكذا : (لَمْ يَحْمِدْ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ مِنْ الْمَقْوَسِ عَظِيمَ الْقَبْطِ سَلَامٌ عَلَيْكَ .

أما بعد ..

" فَقَدْ قَرَأْتَ كِتَابَكَ وَفَهَمْتَ مَا ذَكَرْتَ فِيهِ وَمَا تَدْعُوا إِلَيْهِ وَقَدْ عَلِمْتَ نَبِيًّا قَدْ بَقِيَ وَقَدْ كَتَأْنَ أَنَّهُ يَخْرُجُ بِالشَّامِ وَقَدْ أَكْرَمَتْ رَسُولَكَ .

والمقوقس هذا وإن لم يسلم لكنه أقر في كتابه أنني قد علمت أن نبياً قد بقي وكان نصراانياً . فهذا المكان ما كانا يخافان في ذلك الوقت من محمد ﷺ لأجل شوكته الدنيوية ؛ وجاء الجارود بن العلاء في قومه إلى رسول الله ﷺ فقال : " وَاللَّهِ لَقَدْ جَئْتَ بِالْحَقِّ وَنَطَقْتَ بِالصَّدْقِ وَالَّذِي بَعَثْتَ بِالْحَقِّ نَبِيًّا لَقَدْ وَجَدْتَ وَصْفَكَ فِي الإِنْجِيلِ وَبَشَّرْتَ بِكَ ابْنَ الْبَتُولِ فَطَوَّلَتِ التَّحْمِيَّةُ لَكَ وَالشَّكْرُ لَمَنْ أَكْرَمْتَكَ لَا أَثْرَ بَعْدَ عَيْنٍ وَلَا شَكَ بَعْدَ يَقِينٍ ، مَدْ يَدَكَ فَأَنَا أَشْهُدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّكَ مُحَمَّدَ رَسُولُ اللَّهِ ثُمَّ آمَنَ قَوْمُهُ " .

وهذا الجارود كان من علماء النصارى وقد أقر بأنه قد بشّر بك ابن البتول أي عيسى عليه السلام فظهر أن المسيحيين أيضاً كانوا منتظرين لخروج النبي بشّر به عيسى عليه السلام .

فإذا علمت ذلك فأقول إن اللفظ العبراني الذي قاله عيسى عليه السلام مفقود واللفظ اليوناني الموجود ترجمة لكنني أترك البحث عن الأصل ، وأتكلم عن هذا اللفظ اليوناني وأقول : إن كان اللفظ اليوناني الأصل بيركلوطوس فالأمر ظاهر وتكون بشارة المسيح في حق محمد μ بلفظ قريب من محمد وأحمد وهذا وإن كان قريب القياس بلحاظ عاداتهم لكنني أترك هذا الاحتمال لأنه لا يتم عليهم إلزاماً ، وأقول إن كان اللفظ اليوناني الأصل باراكلي طوس كما يدعون فهذا لا ينافي الاستدلال أيضاً لأن معناه المعزي والمعين والوكيل على ما بين صاحب الرسالة أو الشافع كما يوجد في الترجمة العربية المطبوعة سنة 1816 وهذه المعانى كلها تصدق على محمد μ وأنا أبين الآن أولاً أن المراد بفارقليط النبي المبشر به أعني محمد μ لا الروح النازل على تلاميذ عيسى عليه السلام يوم الدار الذي جاء ذكره في الباب الثاني من كتاب الأعمال وأذكر ثانياً شبكات العلماء المسيحية وأجيب عنها فأقول : أما الأول فيدل عليه أمور :

(1) أن عيسى عليه السلام قال : " أولاً إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياتي " ، ثم أخبر عن فارقليط ، فمقصوده عليه السلام أن يعتقد السامعون بأن ما يلقى عليهم بعد ضروري واجب الرعاية ، فلو كان فارقليط عبارة عن الروح النازل يوم الدار لما كانت الحاجة إلى هذه الفقرة لأنه ما كان مظنوناً أن يستبعد الحواريون نزول الروح عليهم مرة أخرى لأنهم كانوا مستقيضين به من قبل أيضاً ، بل لا مجال للاستبعاد أيضاً لأنه إذا نزل على قلب أحد وحل فيه يظهر أثره لا محالة ظهوراً بيّناً ، فلا يتصور إنكار المتأثر منه وليس ظهوره عندهم في صورة يكون فيه مظنة يكون الاستبعاد فهو عبارة عن النبي المبشر به . فحقيقة الأمر أن المسيح عليه السلام لما علم بالتجربة وبنور النبوة أن الكثريين من أمته ينكرون النبي المبشر به عند ظهوره فأكده أولاً بهذه الفقرة ثم أخبر عن مجئه .

(2) أن هذا الروح على زعمهم متحد بالآب مطلقاً وبالابن نظراً إلى لاهوته اتحاداً حقيقةً فلا يصدق في حقه (فارقليط آخر) بخلاف النبي المبشر به فإنه يصدق هذا القول في حقه بلا تكلف .

(3) أن الوكالة والشفاعة من خواص النبوة لا من خواص هذا الروح المتحد بالآب (على زعمهم) فلا يصدقان على الورح ويصدقان على النبي المبشر به بلا تكافل .

(4) أن عيسى عليه السلام قال : " هو يذكركم كل ما قلته لكم " ولم يثبت من رسالة من رسائل العهد الجديد أن الحواريين كانوا قد نسوا ما قاله عيسى عليه السلام وهذا الروح النازل يوم الدار ذكرهم إياه .

(5) أن عيسى عليه السلام قال : " والآن قد قلت لكم قبل أن يكون حتى إذا كان تؤمنون " . وهذا يدل على أن المراد به ليس الروح لأنك قد عرفت في الأمر الأول أنه ما كان عدم الإيمان مظنوناً بهم وقت نزوله بل لا مجال للاستبعاد أيضاً فلا حاجة إلى هذا القول ، فلو أردنا به النبي المبشر به يكون هذا الكلام في محله وفي غاية الاستحسان لأجل التأكيد مرة ثانية .

(6) أن عيسى عليه السلام قال : " هو يشهد لأجلي " وهذا الروح ما شهد لأجله بين يدي أحد لأن تلاميذه الذين نزل عليهم ما كانوا محتاجين إلى الشهادة لأنهم كانوا يعرفون المسيح حق المعرفة قبل نزوله أيضاً فلا فائدة للشهادة بين أيديهم والمنكرون الذين كانوا محتاجين للشهادة فهذا الروح ما شهد بين أيديهم ، بخلاف محمد p فإنه شهد لأجل المسيح عليه السلام وصدقه وبرأه عن ادعاء الألوهية الذي هو أشد أنواع الكفر والضلال وبراً أمه عن تهمة الزنا وجاء ذكر براعتهم في القرآن في مواضع متعددة وفي الأحاديث في مواضع غير محصورة .

(7) أن عيسى عليه السلام قال : " وأنتم تشهدون لأنكم معي من الابتداء وهذه الآية في الترجمة العربية المطبوعة سنة 1816 هكذا (وتشهدون أنتم أيضاً لأنكم كنتم معي من الابتداء) وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة 1860 هكذا : (وتشهدون أنتم أيضاً لأنكم معي من الابتداء) . فيوجد في هذه الترافق لفظ أيضاً وكذا يوجد في الترافق الفارسية المطبوعة سنة 1816 وسنة 1828 وسنة 1841 وفي ترجمة أردو المطبوعة سنة 1814 ترجمة لفظ أيضاً فلفظ أيضاً سقط من الترافق التي نقلت عنها عبارة يوحنا سهواً وقصد ، فهذا القول يدل دلالة ظاهرة على أن شهادة الحواريين غير شهادة فارقليط ، فلو كان المراد به الروح النازل يوم الدار فلا توجد مغایرة الشهادتين لأن الروح المذكور لم يشهد شهادة مستقلة غير شهادة الحواريين بل شهادة الحواريين هي شهادته بعينها . فلا يصح هذا القول بخلاف ما إذا كان المراد به النبي المبشر به فإن شهادته غير شهادة الحواريين .

(8) أن عيسى عليه السلام قال : (إن لم انطلق لم يأتكم الفارقليط فأما إن انطلقت أرسلته إليكم) .

فعلم مجئه بذهابه وهذا الروح عندهم نزل على الحواريين في حضوره لما أرسلاهم إلى البلاد الإسرائيلية فنزلوه ليس بمشروعه بذهابه فلا يكون مراداً بفارقليط ، بل المراد به شخص لم يستفحل منه أحد من الحواريين قبل زمان صعوده وكان مجئه موقوفاً على ذهاب عيسى عليه السلام ، ومحمد p كان كذلك لأنه جاء بعد ذهاب عيسى عليه السلام وكان مجئه موقوفاً على ذهاب عيسى عليه السلام لأن وجود رسولين ذوي شريعتين مستقلتين في زمان واحد غير جائز بخلاف ما إذا كان الآخر متبعاً لشريعة الأول أو يكون كل من الرسل متبعاً لشريعة واحدة لأنه يجوز في هذه الصورة وجود اثنين أو أكثر في زمان واحد ومكان واحد كما ثبت وجودهم ما بين زمان موسى عليه السلام وعيسى عليه السلام .

(9) أن عيسى عليه السلام قال : " يوبخ العالم " فهذا القول بمنزلة النص الجلي لمحمد p لأنه وبخ العالم سينا اليهود على عدم إيمانهم بعيسى عليه السلام توبيخاً لا يشك فيه إلا معاند بحت ، وبخلاف الروح النازل يوم الدار فإن توبيخه لا يصح على أصول أحد ، وما كان التوبيخ منصب الحواريين بعد نزوله أيضاً لأنهم كانوا يدعون إلى الملة بالترغيب والوعظ وما قال رانكين في كتابه المسمى بداعي البهتان الذي هو بلسان أردو في رده على خلاصة صولة الضيغف " إن لفظ التوبيخ لا يوجد في الإنجيل ولا في ترجمة من تراجم الإنجيل ، وهذا المستدل أورد هذا اللفظ ليصدق على محمد صدقأً بينما لأجل أن محمداً p وبخ وهدد كثيراً إلا أن مثل هذا التغليط ليس من شأن المؤمنين والخائفين من الله " . انته كلامه فمردود .

وهذا القسيس إما جاهل غالط أو مغلط ليس له إيمان ولا خوف من الله لأن هذا اللفظ يوجد في التراجم العربية المذكورة التي نقلت عنها عبارة يوحنا ومن الترجمة العربية المطبوعة سنة 1860 هكذا : " ومتى جاء ذاك يبيكت العالم على خطية إلخ " وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة 1816 وسنة 1825 وفي التراجم الفارسية المطبوعة سنة 1816 وسنة 1828 و 1841 يوجد لفظ الإلزام ولفظ التبيكت والإلزام أيضاً قريباً من التوبيخ لكن لا شك فيه منه لأن مثل هذا الأمر من عادات علماء بروتستانت ولذلك ترى أن مترجمي الفارسية وأردو تركوا لفظ فارقليط لشهرته عند المسلمين في حق محمد p ومترجم ترجمة أردو

المطبوعة سنة 1839 فإن هؤلاء أسلفه أيضاً حيث أرجع إلى الورح ضمائر المؤنث ليحصل الاشتباه للعوام أن مصداق هذا للفظ مؤنث وليس بمذكر .

(10) قال عيسى عليه السلام : " أما على الخطية فلأنهم لم يؤمنوا بي " وهذا يدل على أن فارقليط يكون ظاهراً على منكري عيسى عليه السلام موبخاً لهم على عدم الإيمان به ، والروح النازلة يوم الدار ما كان ظاهراً على الناس موبخاً لهم .

(11) قال عيسى عليه السلام : " إن لي كلاماً كثيراً أقوله لكم ولكنكم لستم تطبقون حمله الآن " وهذا ينافي إرادة الروح النازل يوم الدار لأنه ما زاد حكماً على أحكام عيسى عليه السلام لأنه على زعم أهل التثليث كان أمر الحواريين بعقيدة التثليث وبدعوة أهل العالم كله فأي أمر حصل لهم أزيد من أقواله التي قال لهم زمان صعوده ، نعم بعد نزول هذا الروح أسقطوا جميع أحكام التوراة التي هي ما عدا بعض الأحكام العشرة المذكورة في الباب العشرين من سفر الخروج وحلوا جميع المحرمات وهذا الأمر لا يجوز في حقه أن يقال إنهم ما كانوا يستطيعون حمله لأنهم استطاعوا حمل سقوط حكم تعظيم السبت الذي هو أعظم أحكام التوراة الذي كان اليهود ينكرون كون عيسى عليه السلام مسيحاً موعداً به لأجل عدم مراعاته هذا الحكم فقبول سقوط جميع الأحكام كان أهون عندهم ، نعم قبول زيادة الأحكام لأجل ضعف الإيمان وضعف القوة إلى زمان صعوده كما يعترض به علماء البروتستانت كان خارجاً عن استطاعتهم فظهر أن المراد بفارقليطنبي تزاد في شريعته أحكام بالنسبة إلى الشريعة العيساوية ويتحقق حملها على المكلفين الضعفاء وهو محمد ﷺ .

(12) أن عيسى عليه السلام قال : " ليس ينطق من عنده بل يتكلم بكل ما يسمع " وهذا يدل على أن فارقليط يكون بحيث يكتبه بنو إسرائيل فاحتاج عيسى عليه السلام أن يقرر حال صدقه فقال هذا القول ولا مجال لمظنة التكذيب في حق هذا الروح النازل يوم الدار على أن هذا الروح عندهم عين الله فلا معنى لقوله بل يتكلم بما يسمع فمصادقه محمد ﷺ فإنه كان في حقه مظنة التكذيب ، وليس هو عين الله وكان يتكلم بما يوحى إليه كما قال الله تعالى : {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى} * {إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى} النجم 3 ، 4 . وقال {إِنَّ أَتَبْعَ إِلَّا مَا يُوحَى} الأحقاف : 9 .

(13) أن عيسى عليه السلام قال : إنه يأخذ مما هو لي وهذا لا يصدق على الروح لأنه عند أهل التثليث قديم وغير مخلوق وقدر مطلق ليس له كمال منتصر بل كل كمال من

كمالاته حاصل له بالفعل ، فلا بد أن يكون الموعود به من الجنس الذي يكون له كمال منظر ، ولما كان هذا الكلام موهماً أن يكون هذا النبي متبعاً لشريعته دفعه بقوله فيما بعد " جميع ما للأب فهو لي فلأجل هذا قلت مما هو لي يأخذ " يعني أن كل شيء يحصل لفارقليط من الله فكأنه يحصل مني كما اشتهر من كان الله له ، فلأجل هذا قلت إن مما هو لي يأخذ .

(ثم ذكر الشيخ شبهات النصارى وما يمكن أن يقولوه وردّ عليها وختم بذلك البشارات)

- 6 -

وهناك كتاب ظهر في أوروبا وأحدث ضجة وأخذَ ورداً ثم كانت النتيجة أن رفضه العالم النصراني بلا مبرر . هذا الكتاب يسمى " إنجيل برنابا " والكتاب أعطى قولاً فصلاً في المسائل الثلاث الأساسية وهي رسالة عيسى ورسالة محمد وعدم صلب المسيح .

فهل هناك مبرر لرفض هذا الكتاب :

1 - يذكر التاريخ أن الباب جيلاسيوس الأول الذي جلس على الأريكة البابوية سنة 492 ميلادية أي قبل ميلاد الرسول ﷺ بحوالي قرن أصدر أمراً ينهى فيه عن مطالعة كتب معينة من جملتها كتاب اسمه إنجيل برنابا . إذن من المعروف تاريخياً أن هناك كتاباً اسمه إنجيل برنابا موجود قبل الإسلام .

2 - وقد عثر لهذا الإنجيل على نسختين : إيطالية وإسبانية أما الإسبانية فقد أقرضها الدكتور (هلم) من هدلي بلدة من أعمال همبشير المستشرق سايل ثم تناولها بعد سايل الدكتور منكهوس أحد أعضاء الكلية الملكية في أكسفورد فنقلها إلى الإنكليزية ثم دفع الترجمة مع الأصل سنة 1784 إلى الدكتور هوبيت أحد مشاهير الأساتذة ثم بعد ذلك طمس خبرها وأمحى أثرها .

وأما النسخة الإيطالية موجودة في مكتبة بلاط فيينا وأول من عثر عليها كريمر أحد مستشاري ملك بروسيا وكان مقيناً وقتئذ في أمستردام فأخذها سنة 1709 من مكتبة أحد مشاهير وجاهء المدينة المذكورة فأقرضها كريمر طولند ثم أهداها بعد ذلك بأربع سنين إلى

البرنس أيوجين سافوي ثم انتقلت النسخة المذكورة سنة 1738 مع سائر مكتبة البرنس إلى مكتبة البلاط الملكي في فيينا حيث لا تزال هنالك . وإن هذا الكتاب في ورده وصدره أوروبي .

3 - إنه لم يعرف بتاتاً عند المسلمين أن هناك كتاباً اسمه إنجيل برنابا قبل ظهوره في أوروبا ولو أن للمسلمين يداً في صنع هذا الإنجيل لذكره وحاولوا نشره وكان مشهوراً .

4 - يذكر سايل أنه مذكور في النسخة الإسبانية المفقودة أنها مترجمة عن النسخة الإيطالية ، وفيها مقدمة عن الراهب الذي اكتشف النسخة الإيطالية والقصة هي ما يلي : أن الراهب اللاتيني فرامرينيو عثر على رسائل لـ أريينيروس وفي عددها رسالة يندر فيها بالقديس بولص الرسول وأن أريينيروس أسد تنديده هذا إلى إنجيل القديس برنابا فأصبح من ذلك الحين الراهب فرامرينيو المشار إليه شديد الشغف بالعثور على الإنجيل واتفق أنه أصبح حيناً من الدهر مقترياً من البابا سكتس الخامس فحدث يوماً أنهما دخلا معاً مكتبة البابا فأخذت البابا سنة من النوم فأحب فرامرينيو أن يقتل الوقت في المطالعة إلى أن يفيق البابا فكان الكتاب الأول الذي وضع يده عليه هو هذا الإنجيل نفسه فكاد أن يطير فرحاً من هذا الاكتشاف فخباً هذه الذخيرة الثمينة في أحد ودنيه ولبث إلى أن استفاق البابا فاستأذنه بالانصراف حاملاً ذلك الكنز معه فلما خلا بنفسه طالعه بشوق عظيم فاعتنق على أثر ذلك الدين الإسلامي .

5 - إن الكتاب متماسك يشكل وحدة متكاملة ويدل على علم لا مثيل له في كتب العهد القديم وفيه من براعة الحجة ووضوح المسلك ودقة الخطاب وتوضيح خفايا في حياة المسيح عليه السلام وتشابه كثير بين بعض مقاطعه والأناجيل الأخرى كل ذلك يجعل احتمال نسبة إلى برنابا أكبر من أي احتمال آخر .

6 - إن الكتاب لا يوجد فيه ما يشير إلى تأثره بالمفاهيم الإسلامية بتاتاً ولا يوجد فيه ما يشم منه أن صاحبه قد قرأ القرآن أو عرف دين النبي محمد ﷺ مما يؤكّد أن الكتاب لم يؤلفه مسلم وأنه كتب قبل الإسلام .

7 - والدارس للكتاب يرى أن له صولة في تهذيب النفس وترقيتها ويحس صدق العبارة وحرارة الإخلاص فيفتح له الكتاب آفاقاً روحية لا يستطيع الإنسان أن يتصور بعدها أن رجلاً اختلف هذا الكتاب كذباً وزوراً . وبعد هذه المقدمات ننقل فقرات من هذا الكتاب مما

له علاقة ببحثنا عن البشارات الصادرة على لسان المسيح في رسالة رسولنا محمد عليه الصلاة والسلام .

1 - في الفصل السابع عشر يقول : " ولكن سيأتي بعدي بهاء وكل الأنبياء الأطهار فيشرق نوراً على ظلمات سائر ما قال الأنبياء لأنه رسول الله " أي يبين غامض أقوالهم .

2 - في الفصل الثالث والأربعين يقول : " الحق أقول لكم إن كلنبي متى جاء فإنه إنما يحمل لأمة واحدة فقط عالمة رحمة الله ولذلك لم يتتجاوز كلامهم الشعب الذي أرسلوا إليه ولكن رسول الله متى جاء يعطيه الله ما هو بمثابة خاتم يده فيحمل خلاصاً ورحمة لأمم الأرض الذين يقبلون تعليمه وسيأتي بقوة على الظالمين ويبيد عبادة الأصنام بحيث يخزي الشيطان لأنه هكذا وعد الله إبراهيم قائلاً انظر فإني بنسلك أبارك كل قبائل الأرض ، وكما حطمت يا إبراهيم الأصنام تحطيناً ، هكذا سيفعل نسلك أجاب يعقوب : يا معلم قل لنا بمن صنع هذا العهد فإن اليهود يقولون بإسحاق والإسماعيليون يقولون بإسماعيل ، أجاب يسوع ابن من كان داود ومن أي ذرية؟ أجاب يعقوب : من إسحاق لأن إسحاق كان أباً يعقوب ويعقوب كان أباً يهوداً الذي من ذريته داود . فحينئذ قال يسوع : لا تغشو أنفسكم لن داود يدعوه في الروح ربًا قائلاً هكذا قال الله لربى : اجلس عن يميني حتى أجعل أعدائك موطنًا لقدميك يرسل رب قضيبك الذي سيكون ذا سلطان في وسط أعدائك فإذا كان رسول الله الذي تسمونه ميساً ابن داود فكيف يسميه داو ربًا صدقوني لأنني أقول لكم الحق إن العهد صنع بإسماعيل لا بإسحاق .. "

3 - وفي الفصل الرابع والأربعين يقول : " لذلك أقول لكم إن رسول الله بهاء يسر كل ما صنع الله تقريباً لأنه مزدان بروح الفهم والمشورة ، روح الحكمة والقوه ، روح الخوف والمحبة ، روح التبصر والاعتدال ، مزдан بروح المحبة والرحمة ، روح العل والتقوى ، روح اللطف والصبر التي أخذ منها من الله ثلاثة أضعاف ما أعطى لسائر خلقه ، ما أسعد الزمن الذي سيأتي فيه إلى العالم صدقوني أني رأيته وقدمت له الاحترام كما رأه كلنبي لأن الله يعطيهم روحه نبوة ولما رأيته امتلأت عزاء قائلاً يا محمد ليكن الله معك ول يجعلني أهلاً أن أحل سير حذائك لأنني إذا نلت هذا صرتنبياً عظيماً وقدوس الله ... " .

4 - وفي الفصل الرابع والخمسين يقول : " فمتنى مرت هذه العلامات تغشى العالم ظلمة أربعين سنة ليس فيها من حي إلا الله وحده الذي له الإكرام والمجد إلى الأبد ومتى مرت الأربعون سنة يحيي الله رسوله الذي سيطلع أيضاً كالشمس بيد أنه متألق كألف شمس فيجلس ولا يتكلم ... وسيقيم الله أيضاً الملائكة الأربعة المقربين الذين ينشدون رسول الله فمتنى وجده قاماً على الجوانب الأربع لل محل حراساً له ثم يحيي الله بعد ذلك سائر الملائكة الذين يأتون كالنحل ويحيطون برسول الله ثم يحيي الله بعد ذلك سائر أنبيائه الذين سيأتون جميعهم تابعين لآدم فيقبلون يد رسول الله واضعين أنفسهم في كف حمايته ثم يحيي الله بعد ذلك سائر الأسفار الذين يصرخون اذكروا يا محمد فتحرك الرحمة في رسول الله لصراخهم ... ثم قال يسوع أرجو الله ألا أرى هذه الهولة في ذلك اليوم إن رسول الله وحده لا يتهدب هذه المناظر لأنه لا يخاف إلا الله وحده ... عند ذلك يخاف رسول الله لأنه يدرك أن لا أحد أحب الله كما يجب ... لكن إذا خاف رسول الله فماذا يفعل الفجار المملؤون شرًا ... " .

5 - في الفصل الثاني والثمانين يقول : ولكن صدقيني أنه يأتي وقت يعطي الله فيه رحمته في مدينة أخرى ويمكن السجود له في كل مكان بالحق ويقبل الله الصلاة الحقيقة في كل مكان برحمته أجابت المرأة إننا ننتظر مسيًا فمتنى جاء يعلمنا يسوع أتعلمين أيتها المرأة أن مسيًا لا بد أن يأتي أجابت : نعم يا سيد حينئذ تهال يسوع وقال : ويلوح لي أيتها المرأة إنك مؤمنة فاعلمي أنه بالإيمان بمسينا سيخلص كل مختار الله إذن وجب أن تعرفي مجيء مسيًا قالت المرأة : لعك أن مسيًا أيها السيد . أجاب يسوع : إنني حقاً أرسلت إلى بيت إسرائيلنبي خلاص ولكن سيأتي بعدي مسيًا المرسل من الله لكل العالم الذي لأجله خلق الله العالم . وحينئذ يسجد الله في كل العالم وتتال الرحمة حتى أن سنة اليوبييل التي تجيء الآن كل مئة سنة س يجعلها مسيًا كل سنة في كل مكان " .

6 - وفي الفصل الثالث والثمانين (وبعد صلاة نصف الليل اقترب التلاميذ من يسوع فقال لهم ستكون هذه الليلة في زمن مسيًا رسول الله اليوبييل السنوي الذي يجيء الآن كل مئة سنة لذلك لا أريد أن ننام بل أن نصلي) ... ولعله أراد بهذه الليلة ليلة القدر أو ليلة براءة أي ليلة النصف من شعبان وعلى هذا نفهم أن تجلياتها كانت مرة كل مائة سنة من قبل وعلى هذا نفهم الكلمة " إن سنة اليوبييل التي تجيء الآن كل مئة سنة في الفقرة السابقة " .

7 - في الفصل السادس والستين أجاب يسوع : " لعمر الله الذي تقف بحضرته نفس أني لست مسيًا الذي تنتظره كل قبائل الأرض كما وعد الله أباانا إبراهيم قائلاً بنسلك أبارك كل

قبائل الأرض ، ولكن عندما يأخذني الله من العالم سيشير الشيطان مرة أخرى هذه الفتنة الملعونة بأن يحمل عادم التقوى على الاعتقاد بأنى الله وابن الله فينجس بسبب هذا كلامي وتعليمي حتى لا يكاد يبقى ثلاثة مؤمناً حينئذ يرحم الله العالم ويرسل رسوله الذي خلق كل الأشياء لأجله الذي سيأتي من الجنوب بقوة وسيبيد الأصنام وعبدة الأصنام وسينزع الشيطان سلطته على البشر وسيأتي برحمة الله لخلاص الذين يؤمنون به وسيكون من يؤمن بكلامه مباركاً .

8 - في الفصل السابع والتسعين " قال حينئذ الكاهن : ماذا يسمى وما هي العلامة التي تعلن مجئه ؟ أجاب يسوع : إن اسم مسيّاً عجيب لأن الله نفه سماه لما خلق نفسه ووضعها في بهاء سماوي قال الله : اصبر يا محمد لأنك أريد أن أخلق الجنّة والعالم وجأً غيراً من الخائق التي أهبها لك حتى أن من يباركك يكون مباركاً ومن يعلّنك يكون ملعوناً ومتي أرسلتك إلى العالم أجعلك رسولي للخلاص وتكون كلماتك صادقة حتى إن السماء الأرض تهنان ولكن إيمانك لا يهمن إن اسمه المبارك محمد .

هذه شذرات مما ورد في هذا الكتاب وإذا ثبت أن الكتاب كان موجوداً قبل الإسلام فقد ثبت عندئذ أن ذلك مما بقي صحيحاً من آثار عيسى والله أعلم .

- 7 -

ونختم البحث بنصين كل منها يدل بما لا يقبل الشك أن النصارى أثاء بعثة محمد رسول الله ﷺ كانوا ينتظرون رسولاً أوصافه هي نفس أوصاف السيد الرسول :

1 - قصة سلمان الفارسي الذي هرب من الأرض الفارسية باحثاً عن الدين الحق : يقول سلمان لما قدمت الشام قلت : من أفضل أهل هذا الدين ؟ قالوا : الأسقف في الكنيسة قال فجئته فقلت : إني قد رغبت في هذا الدين وأحببت أن أكون معك أخدمك في كنيستك وأتعلم منك وأصلي معك قال فادخل فدخلت معه ، قال فكان رجل سوء يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها فإذا جمعوا له أشياء اكتنزها لنفسه ولم يعط المساكين حتى جمع سبع قلال من ذهب وورق قال : وأبغضته بغضناً شديداً لما رأيته يصنع ثم مات فاجتمعوا إليه النصارى ليدفنوه فقلت لهم : إن هذا كان رجل سوء يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها فإذا جئتموه بها اكتنزها لنفسه ولم يعط المساكين منها شيئاً قالوا : وما علمك بذلك ! قال : قلت أنا أدلّكم على كنزه

فدلنا عليه قال : فأريتهم موضعه قال فاستخرجوه منه سبع قلال مملوءة ذهباً وورقاً قال فلما رأوها قالوا : والله لا ندفنه أبداً فصلبوه ثم رجموه بالحجار ثم جاؤا برج آخر فجعلوه مكانه قال : يقول سلمان : فما رأيت رجلاً لا يصلي الخمس أرى أنه أفضل منه وأزهد في الدنيا ولا أرغب في الآخرة ولا أدب ليلاً ونهاراً منه قال : فأحببته حباً لم أحبه من قبل وأقمت معه زماناً ثم حضرته الوفاة فقلت له : يا فلان إني كنت معك وأحببتك حباً لم أحبه من قبلك وقد حضرك ما ترى من أمر الله فإلى من توصي بي وما تأمرني : فقال يابني والله ما أعلم أحداً اليوم على ما كنت عليه فقد هلك الناس وبدلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه إلا رجل بالموصل وهو فلان فهو على ما كنت عليه فالحق به . قال فلما مات وغيب لحقت بصاحب الموصل فقلت : يا فلان إن فلاناً أوصاني عند موته أن الحق بك وأخبرني أنك على أمره قال فقل لي : أقم عندي فأقمت فوجنته خير رجل على أمر صاحبه فلم يلبث أن مات فلما حضرته الوفاة قلت له : يا فلان إن فلاناً أوصاني عند موته أن الحق بك وأخبرني أنك على أمره قال فقل لي : أقم عندي فأقمت عنده فوجنته خير رجل على أمر صاحبه فلم يلبث أن مات فلما حضرته الوفاة قلت له : يا فلان إن فلاناً أوصى بي إليك باللحوق بك وقد حضرك من الله عز وجل ما ترى فإلى من توصي بي وما تأمرني : قال يابني والله ما أعلم رجلاً على مثل ما كنا عليه إلا رجل بنصيبين وهو فلان فالحق به فلما مات وغيب لحقت بصاحب نصيبين فجئته فأخبرته بخبري وما أمرني به صاحبي ، قال أقم عندي فأقمت عنده فوجنته على أمر صاحبيه فأقمت مع خير رجل فوالله ما لبث أن نزل به الموت فلما حضر قلت له : يا فلان إن فلاناً كان أوصى بي إلى فلان ثم أوصى بي فلان إليك فإلى من توصي بي وما تأمرني : قال : أيبني والله ما نعلم أحداً بقي على أمرنا آمرك أن تأتيه إلا رجلاً بعمورية فإنه بمثل ما نحن عليه فإن أحببت فأته قال : فإنه على أمرنا . قال فلما مات وغيب لحقت بصاحب عمورية وأخبرته بخبري فقال أقم عندي فأقمت مع رجل على هدي أصحابه وأمرهم ، قال : واكتسبت حتى كان لي بقرات وغنية قال : ثم نزل به أمر الله فلما حضر قلت له يا فلان إني كنت مع فلان فأوصى بي فلان إلى فلان وأوصى بي فلان إلى فلان ثم أوصى بي فلان إليك فإلى من توصي بي وما تأمرني ؟ قال : أيبني والله ما أعلم ، أصبح على ما كنا عليه أحد من الناس آمرك أن تأتيه ؟ ولكنه قد أظل لك زمان نبي هو مبعوث بين إبراهيم يخرج بأرض العرب مهاجراً إلى أرض بين حرتين بينهما نخل به علامات لا تخفي يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة بين كتفيه خاتم النبوة فإن استطعت أن تلحق بناك البلاد فافعل ¹ والرواية متصلة السند رواتها عدول .

¹ أخرجه أحمد والحاكم .

2 - وروى البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : حدثي أبو سفيان بن حرب قال : انطلقت في المدة التي كانت بيبي وبين رسول الله ﷺ إلى الشام فبینا أنا بها إذ جيء بكتاب من النبي ﷺ إلى هرقل جاء به دحية الكلبي فدفعه إلى عظيم بصري فدفعه إلى عظيم الروم هرقل فقال : هل هنا أحد من قوم هذا الرجل الذي يزعم أنهنبي قالوا : نعم . فدعيني في نفر من قريش فدخلنا عليه فأجلسنا بين يديه فقال : أياكم أقرب نسباً منه فقلت أنا فأجلسني بين يديه وأصحابي خلفي ثم دعا بترجمانه فقال : قل لهؤلاء إني سائل هذا عن هذا الرجل الذي يزعم أنهنبي فإن كذبني فكذبوه . قال أبو سفيان وابن الله لولا أن يؤثر على الكذب لكذبته ثم قال لترجمانه سله كيف نسبه فيكم . قلت هو فينا ذو نسب ، قال فهل كان من آبائه من ملك ؟ قلت : لا . قال فهل كنتم تتهمنوه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت : لا . قال فهل يتبعه أشراف الناس أم ضعاؤهم ؟ قال : بل ضعاؤهم . قال : أيزيدون أو ينقصون ؟ قلت لا . بل يزيدون قال : هل يرتد أحد عن دينه بعد أن يدخل فيه سخطة له قلت : لا . قال : فهل قاتلتموه قلت نعم قال : كيف قاتلتم إياه ؟ قلت : تكون الحرب بيننا وبينه سجالاً يصيبانا ونصيب منه . قال : فهل يغدر قلت : لا . ونحن منه في هذه المدة ما ندرى ما هو صانع قال أبو سفيان : فوالله ما أمكنني من كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه قال فهل قالت هذا القول أحد قبله قلت : لا . فقال لترجمانه : قل له إني سألك عن نسبه فيكم فزعمت أنه فيكم ذو نسب وكذلك الرسل تبعث في أنساب قومها . وسألتك هل كان في آبائه ملك فزعمت أن لا فقلت لو كان في آبائه ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه وسألتك عن أتباعه أضعاؤهم أم أشرافه فقلت بل أضعاؤهم وهم أتباع الرسل وسألتك هل كنتم تتهمنوه بالكذب قبل أن يقول ما قال فزعمت أن لا فعرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ويذبح على الله تعالى . وسألتك هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه سخطة له فزعمت أن لا وكذلك الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب وسألتك هل يزيدون أم ينقصون فزعمت أنهم يزيدون وكذلك أمر الإيمان حتى يتم . وسألتك هل قاتلتموه فزعمت أنكم قاتلتموه فتكون الحرب بينكم سجالاً ينال منكم وتتالون منه وكذلك الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة . وسألتك هل يغدر فزعمت أنه لا يغدر وكذلك الرسل لا تغدر ، وسألتك هل قال هذا القول أحد قبله فزعمت أن لا ، فقلت لو قال هذا القول أحد قبله قلت رجل أئتم يقول بقول قيل قبله ، ثم قال بم يأمركم قلنا بالصلوة والزكاة والصلة والعفاف فقال إن يك ما تقول حقاً فإنهنبي وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظنه منكم . ولو أعلم أنني أخلص إليه لأحببت لقاءه ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه ولبيلعن ملكه ما تحت قدمي ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ فقرأه فإذا فيه ... فلما فرغ من قراءة الكتاب ارتفعت

الأصوات عنده وكثير اللغط فأمر بنا فلخرجا فقلت لأصحابي لقد أمر أمراً ابن أبي كبشة إنه ليخافه ملك بنى الأصفر .

- 8 -

وأخيراً سأله الشيخ عبد الوهاب النجار مؤلف كتاب قصص الأنبياء الدكتور (كارلو نلينو) المستشرق الإيطالي عن كلمة (بير كليتوس) الواردة في الأنجليل : فأجابه بقوله : إن القسس يقولون إن هذه الكلمة معناها (المعزي) فقال له إني أسأل الدكتور كارلو نلينو الحاصل على الدكتوراه في الآداب اليونانية القديمة ولست أسأل قسيساً فقال : إن معناها الذي له حمد كثير فسأله أيضاً : هل ذلك يوافق أفعال التفضيل من حمد فقال : نعم وهذا ما جاء في القرآن على لسان المسيح :

{ومبئراً برَسُولٍ يأتِي من بَعْدِي أَسْمُهُ أَحْمَدُ} الصف 6 (قصص الأنبياء للنجار) .

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من قال رضيت بالله تعالى رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولًا وجبت له الجنة) أخرجه أبو داود .

وإذا مر معك في المبحث الأول عن الله ما أثلج ضميرك يقيننا نهيب بك أن ترضى بالله رباً .

وإذا مر معك في المبحث الثاني عن الرسول ما أثلج صدرك يقيننا نهيب بك أن ترضى به رسولاً .

وها نحن سنبدأ بعرض الإسلام دين الله الذي بلغه لنا رسول الله ﷺ في المبحث الثالث ونهيب بك أن ترضاه ديناً .

لتكون بعد هذا كله أهلاً لنيل رضوان الله وحياته ولتجو بهذا من سخط الله وعقوبته والله ولـي أمرنا وأمرك .

* * *

كتاب " الله"

سعید حوى

مقدمة

سلسلة الأصول الثلاثة هذه السلسلة سلسلة الأصول الثلاثة أردت فيها بيان الأصول الثلاثة التي لا يكون المسلم مسلماً إلا بمعرفتها والإيمان بها وكنت فيها جاماً منسقاً أكثر مني منشئاً، فقد لاحظت أنه قد كتب الكثير في كل أصل من هذه الأصول الثلاثة بل كتب الكثير في كل جانب من أصل دون أن يكون هناك بحث جامع لهذه الأصول فأردت أن أسد هذه الثغرة بكل ما أوتيت من طاقة وكنت إذا ما وصلت إلى بحث كتب فيه غيري كتابة جيدة لا أرى مانعاً أن أنقل ما كتب أو جزءاً منه فلا يستغربن القارئ إذا رأى في الكتاب كثرة النقول فإن حرصي على إبراز الفكرة كان أكبر من حرصي على أن يمدح مادح أو من خوفي أن يقترح قادح يقول عليه السلام: من قال: "رضيت بالله ربنا وبالإسلام ديننا ومحمد صلى الله عليه وسلم نبياً وجبت له الجنة" رواه أبو داود

وقال: "ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربنا وبالإسلام ديننا ومحمد صلى الله عليه وسلم نبياً"

رواہ مسلم

و هذه الأصول الثلاثة تحدثت عن الذات الإلهية حديثاً يمحو كل شك بإذن الله ويزيل كل شبهة ويدحض كل إفك ويصل بالإنسان إلى الرضا بالله ربنا. و تحدث السلسلة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً تتكشف به لكل إنسان جوانب في شخصية هذا الرسول العظيم مصحوباً بذلك بالإقناع والبرهان اللذين يجعلان الإنسان على مثل الشمس وضوحاً بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو أعظم مظهر للإنسان في كل جانب كما جلا أدلة رسالته بالشكل الذي لا يسع العقل إلا أن يؤمن. و تحدثت السلسلة بعد ذلك عن الإسلام عقائد وعبادات ومناهج حياة ومؤيدات مبينة كلياته مظهرة بعض جزئياته موضحة أصوله وفروعه مقيمة الحجة على الناس فيه بحيث لا يسع الإنسان أن يتركه إلى غيره. "وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيَنًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ" آل عمران : 85 ولن ينتهي الإنسان من الدراسة إلا وقد ارتاح قلبه واطمأن ببرد اليقين إذا رغب في الحق وشاء الله له الهدایة وإلا فكم عقل زاغ عن الحق وهو يراه.

إن هذه السلسلة نقطة البداية لميلاد جديد لإنسان يريد الخروج من ظلمة الشك والحيرة والضياع والتشتت والتمزق والفوضى ويلاحظ قارئ هذه السلسلة مناقشاً ومعلاً ومبرهناً ومقنعاً معتمداً خطاب العقل بآناة وصبر وملحقاً لكل جوانب الشك وبينما كنت في الأصل الثالث الإسلام

عارضنا أكثر مني مناقشاً والسبب في ذلك يعود إلى أن الإنسان بعد أن يقتصر بوجود الله وان محمداً رسوله لم يبقَ أمامه إلا التسليم لدینه وشرعيته فالمسألة هنا مسألة تعريف ومنطق.

العقل يقول: إن الإنسان ليس أمامه إلا التسليم لله في شريعته فإنه الرب وخلقه عبيد والأعلم الذي علم الإنسان ما لم يعلم.

وبسبب آخر جعلنا نقف هذه المواقف الطويلة أثناء الكلام عن الله عز وجل والرسول صلى الله عليه وسلم هو أن المادية الملحدة تحاول بكل إمكانياتها أن تنتهي الإنسان الله وان تصغر في قلبه وذاته عظمة رسول الله يساعدها على ذلك خطط أهل الأديان الباطلة في تشويه الصورة الصحيحة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فكان لا بد من إعطاء هذه الدراسة حقها إذ أن هذه الحملات تزداد يوماً بعد يوم وتزداد انعكاساتها على النفس البشرية لحظة بعد لحظة حتى إن المسلمين وهم وحدهم أهل الحق في هذا العالم أصحابهم من هذا وهذا الكثير الفظيع حتى أصبحوا الآن في أتون ردة خطيرة هائلة وأصبحوا بحاجة إلى جلاء هذين الأصلين مع الأصل الثالث كغيرهم تقريباً إلا من عصى الله ورحمه.

وقد أردت بهذه السلسلة شيئاً آخر سوى ما مر: إن الذي يقومون بشأن التربية الإسلامية أغفلوا أهم جانب فيها على الإطلاق، هذا الجانب هو الذي أشار إليه ابن عمر في هذا النص يقول ابن عمر: "لقد عشت برها من دهرٍ وإن أحدها يؤتى بالإيمان قبل القرآن وتتنزل السورة على محمد صلى الله عليه وسلم فيتعلم حلالها وحرامها وما ينبغي أن يقف عنده منها كما تعلمون انتم القرآن ثم لقد رأيت رجالاً يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمه ما يدرى ما أمره ولا زاجره وما ينبغي أن يقف عنده منه وينثره نثر الدقل" (الدقق رديء التمر ويابسه).

إن مأساة المسلمين تكمن في أنهم أهملوا علم الإيمان وطريقه وهو المقدمة الفطرية لكتاب الله "قُلْ هُوَ لِلّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمَّا فَصَلَتْ" 44 فكانت هذه السلسلة مع بعض كتبنا الأخرى محاولة لإرجاع الأمر إلى نصابه في هذا الموضوع ولعل هذه السلسلة بعد ذلك تعطي المسلم من قوة الحجة ما يستطيع به أن يدعو كل شارد عن باب الله وأن يقيم الحجة على كل عدول له ممن يجدون بآيات الله وإن استيقنوا

أنفسهم ظلماً وعلوا ولا يفوتي أخيراً أن أتبه إلى قضية هي: أنني نقلت من كتب كافرين ونقلت من كتب منحرفين لأن الحكمة ضالة المؤمن وليس كل كاتب نقلت عنه أشير به وليس كل كتاب نقلت عنه يستحق أن يقرأ ولكنني لم أنقل شيئاً لا أوفق عليه إلا بيته والله من وراء القصد وهو حسيبي ولنبي في الدنيا والآخرة ونعم الوكيل.

ملاحظة: إذا قرأت هذا البحث فسترى أن أعظم حقيقة يثبتها العلم والعقل بما لا يقبل الجدل هي وجود الله عز وجل وأنه لا أحد في هذا الكون يعرف الله حق المعرفة غير المسلمين

المقدمة

في السوق كتب كثيرة تدلى على وجود الله عز وجل ولكن الكثيرين من الذين يكتبون في هذا الموضوع لا يبنون البناء الصحيح على ما يقتضيه الإيمان بالله من إيمان برسله صلوات الله عليهم وإيمان بوحيه ودينه وشريعته ومن ثم كان هذا الكتاب سداً لهذه الثغرة إذ كان فيه تدليل ووضع لمحل الإيمان بالله في محله الصحيح في الحياة البشرية. وكثيرون من الذين كتبوا في موضوع الألوهية إما أنهم اقتصرت على التدليل على الوجود ولم يصلوا إلى التعريف على الصفات والأسماء، وإما أنهم تكلموا عن الصفات والأسماء ولم يدلوا على الوجود، فكان في كل من العملين ثغرة حاول هذا الكتاب أن يسدتها، وكثيرون من الذين تكلموا في الدليل إما أنهم فاتتهم الاستفادة من معطيات عصرنا أو أنهم تكلموا ضمن معطيات علوم عصرنا دون أن يربطوا ذلك بمعطيات العصور، وكانت تلك ثغرة كذلك حاول هذا الكتاب أن يسدتها.

وكثيرون من الذين تكلموا في هذه الشؤون فاتتهم الدقة العلمية أو الدقة في التعبير فشطح بهم القلم نحو كلمة لا تليق أو كلمة ليست صحيحة أو كلمة فيها كفر أو إثم وذلك تناقض مع المضمون فيما يقرأ الإنسان لتحقيق الإيمان إذا به يقع في الكفر وكان هذا الكتاب بريئاً من ذلك بفضل الله تعالى ومن ثم فان هذا الكتاب وان كان جديده قليلاً فان ميزاته هذه ذات وزن كبير عند أهل الإنفاق. وندر من عرض لموضوع الإيمان العقلي بالله من بدايته إلى نهايته بدايته التي تحدد الطريق للمعرفة العقلية ثم تبني هذه المعرفة من خلال الدليل ثم تصل إلى ما يوصل إليه العقل من تعرف على صفات الله وأسمائه ثم تبرهن على أن ما يصل إليه العقل من تعرف على صفات الله وأسمائه ثم تبرهن على أن ما يصل إليه العقل هو نفسه الذي يوصل إليه الوحي الصحيح ثم تبين الأخطاء التي وقع فيها البشر في هذا الشأن.

إن كتاباً فعل هذا كله ربما يكون نادراً وتلك ميزة أخرى لهذا الكتاب ثم إن هذا الكتاب عرض من وجهة نظر إسلامية محضة لهذه القضية وبقلم إسلامي كذلك فرفع بذلك وصاية الأقلام الخاطئة أو المنحرفة أو الكافرة عن المسلم المتفق الذي يرحب في أن يقرأ في هذا الموضوع وكانت تلك ميزة أخرى من ميزات هذا الكتاب لقد هدف كثير من المؤلفين إلى قضية جزئية في مؤلفاتهم لها صلة بهذا الموضوع وأردنا في هذا الكتاب أن نحقق مجموعة ما قصد إليه المؤلفون وكان ذلك ميزة لهذا الكتاب المختصر.

ولقد حاولنا أن نقرأ كل ما استطعنا الوصول إليه من كتب تحدثت عن أي جانب من جوانب هذا الموضوع واستقمنا من الكثير منها، استقمنا من كتاب قصة الإيمان لنديم الجسر، ومن كتاب الله للعقاد، ومن كتاب العلم يدعو للإيمان لكريسي موريسون، ومن كتاب الله يتجلى في عصر العلم لمجموعة من العلماء، ومن كتاب الله والعلم الحديث لعبد الرزاق نوفل، ومن كتاب مصير البشرية ليكونت دي نوي، ومن كتاب مع الله في السماء لأحمد زكي، ومن كتاب العقائد للأستاذ البنا، ومن كتاب الوجود الحق للدكتور حسن الهويدى، ومن رسائل كثيرة أخرى وكتب كثيرة أخرى منها القديم ومنها الحديث ولقد سرت في هذا الكتاب مقرراً عقيدة الحق التي يجتمع عليها المسلمين تاركاً البحوث التي حدث فيها خلاف بين الفرق الإسلامية لأن تلك البحوث والتقرير في شأن ما اختلف فيه منها محلاً آخرًا فمن طبيعة هذه السلسلة كلها أنها لا تحتمل مثل هذه البحوث إلا أن لنا كلاماً في هذه الأمور في سلسلة أخرى إن شاء الله تعالى.

سرنا في البحث بأن حددنا الطريق إلى معرفة الذات الإلهية وهي آثار الله التي تدل عليه وبيننا أن هذه الآثار التي تدل عليه: الكون، القرآن، والمعجزات، والكرامات. وبيننا أننا في هذا البحث نريد أن نعرض الظواهر الكونية فقط وكيف أنها تدلنا على الله عز وجل وفي البحث الثاني عن الرسول صلى الله عليه وسلم سنتعرض للقرآن وللمعجزات وبذلك يكتمل الكلام عن الظواهر التي تدل على الله. وإنما اقتصرنا في هذا البحث على ذكر الأدلة الكونية فقط كي لا نضطر لأن نعيد كلاماً مرتين لأن الإعجاز القرآني كما يدل على الله يدل على أن محمداً رسول الله وإن المعجزات والكرامات كما تدل على الله فإنها تدل على أن محمد رسول الله.

وفي هذا البحث سنرى أن الظواهر الكونية وحدها كافية للدلالة على الله فكيف إذا اجتمع معها غيرها ومن خلال هذه القضية ندرك أن المسلم وحده هو الذي يمتلك التعليل الشامل والحق لكل شيء على خلاف الآخرين الذين يستطيعون التعليل لبعض الأشياء ويقفون عاجزين أمام غيرها ومع ذلك يملؤهم الغرور بسبب أنهم عرروا بعض قوانين هذا الكون.

ثم أنه بعد المقدمة التي حدثنا فيها الطريق إلى معرفة الله وذكرنا فيها التصورات الخاطئة والمعاني التي تحول دون الإيمان عرضنا تسع ظواهر كونية كنماذج على الظواهر الكونية الكثيرة التي تدلنا على الله بما لا يقبل جدلا عند المنصف ثم بينما أن الظواهر الكونية تدلنا على أسماء الله وأن أسماءه تدلنا على ذاته فعرفنا بذلك الله عز وجل من خلال النظر في هذا الكون ثم برهنا بعد ذلك على أن ما أوصلنا إليه النظر العقلي في الكون من صفات الله وأسمائه هو الذي قرره القرآن وهو يعرفنا على أسماء الله عز وجل وصفاته فكان ذلك وحده آية على أن هذا الإسلام هو دين الله عز وجل.

وعندما وصلنا إلى هذا أحبتنا أن نقدم مقارنة بين العقيدة الإسلامية في موضوع الألوهية وبين غيرها مما يتبيّن منه سموها بما لا يقاس معها أو عليها غيرها من عقائد موجودة أو موروثة أو معروفة إن في عالم الأديان كما نقلت إلينا أو في اتجاهات الفلسفة.

وقد رأينا أن ننقل هذه المقارنة من كلام العقاد كشهادة من إنسان مستوعب لثقافة الحاضر والماضي وإنسان له شهرة في عالم الفكر والفلسفة والأدب وذلك لشعورنا أن ذلك أقوى في مخاطبة المثقف المعاصر في الأوضاع والظروف التي صدر فيها الكتاب فإن المؤلف لم يكن معروفا وبالتالي فإن كلام العقاد في قضية فيها طابع المقارنة الشاملة سيكون أقوى في تحقيق غرض المؤلف وهو الإقناع في الدعوة إلى الإيمان وهذا وحده كاف لأن يجعلنا نتجاوز بعض الأمور فنقلنا كلام العقاد في كتابه حقائق الإسلام وأباطيل خصومه في مقارنة للعقيدة الإسلامية في باب الألوهية مع غيرها مما يظهر أنها هي وحدها الحق وغيرها باطل وبذلك تم الكتاب ما بين مقدمة وعرض ظواهر وذكر دلالات الظواهر ومقارنات بعد ذلك فاستكمل الكتاب من المعاني ما تفرق في غيره وإذا كان قانون السببية هو أهم مبادئ العقل وإذا كان هذا المبدأ هو

الأساس الذي يقوم عليه الإيمان العقلي والمعرفة العقلية لله فقد أعلنا له فصلاً خاصاً جعلناه بين الظواهر ودللات الظواهر.

وإذا كان التوحيد هو أهم ما خرقته أهواء البشر في باب معرفة الله فقد خصصناه كذلك بفصل جعلناه تالياً لظاهرة الوحدة. وإذا كان وهم الطبيعة قد سيطر على كثير من العقول القاصرة فقد خصصناها بكلام في نفس المكان من هذا الكتاب ومن ثم فقد قلنا في هذا المكان فيما بين الظواهر ودلائلها كلاماً للدكتور حسن هويدى وللشيخ سعيد النورسي نقطع فيه دابر الخرق السفيف لمبدأ السببية العقلي ودابر الخرق لقضية التوحيد وننهى فيه حجاب الوهم حول قضية الطبيعة لقد كان كلامهما رائعاً في هذه الأمور فنقلناه انتلاقاً من قاعدتنا أنه حيثما وجدنا إحساناً عند أحد يخدم تسلسل أبحاث هذه السلسلة أو يخدم مواضيعها فإننا ننطلق مستعينين بذلك أن نكتب نحن فيه.

نقول: إن هذا البحث كاف في تحقيق غرضه في موضوع التعريف على الله عز وجل وبناء الإيمان العقلي ولكن موضوع الألوهية يحتاج إلى كثير من البحوث والكتابة فيه من خلال عقلية إيجابية تقبّل في التاريخ طولاً وعرضًا دراسة كل ما أخرجه الحفريات زماناً ومكاناً لتبرهن على أن التوحيد هو الأصل وإنما طرأ عليه ما طرأ بسبب من الأهواء والتحريف، كما أثنا بحاجة إلى أن نضع كل نقطة فوق حرفها في عملية إقامة الحجة على كل فكر كافر في هذا العالم وفي كل جانب منه من خلال حوار شامل، قالوا ونقول نذكر هذا وذلك كنموذجين على بعض احتياجاتنا في هذا الموضوع. وللتدليل على أن هذا الكتاب يأخذ محله ولكن لا يغني عن غيره مما نحتاجه في عصرنا وفي حوارنا الشامل مع غيرنا.

وأخيراً أقول: لقد كان هذا الكتاب والكتابان اللذان جاءاً بعده في هذه السلسلة أثراً عن الشعور باحتياجات المسلمين وهذا الذي جعلنا نحرص على الإنجاز السريع مستفيدين مما كتبه غيرنا مفضلين ذلك على أن نعيش في أحلام الكتابة دون أن نقدم للمسلمين زاداً يحتاجونه سريعاً ولقد كررنا العذر مرة بعد مرة حول قضية كثرة النقول في هذه السلسلة لأننا نعلم أن كلاماً ما يقال أو سيقال في هذا الشأن فأحببنا أن يعرف الناس عذرنا فإما كريم يعرف فيقصر وإما ناقد منصف يتكلم فيذكر نقهء مع العذر ولندخل في البحث.

مدخل إلى معرفة الذات الإلهية

معرفة الله هي المركز الذي يرتكز عليه الإسلام كله وبدون هذه المعرفة يكون كل عمل في الإسلام أو للإسلام غير ذي قيمة حقيقة إذ أنه في هذه الحالة يكون فاقداً روحه وما قيمة عمل لا روح فيه ولكن كيف نعرف الله وما هو الطريق إلى هذه المعرفة إن الجواب على هذا شيء لا بد منه حيث أثنا إذا لم نعرف الطريق لن نصل إلى الغالية التي نطلبها

1- تصور الكافرين للطريق:

أن ناساً في القديم وفي الحديث أنكروا وجود الله لأنهم لم يدركوه بحواسهم متصورين أن هذا هو الطريق إليه ورموا المؤمنين به بأنهم: واهمون وضالون وخرافيون ومشوشون وغير علميين إلى آخر السلسلة الطويلة من السب والهزة والسخرية والازدراء التي يوجهها الكافرون بالله إلى المؤمنين لأنهم آمنوا بالله عن غير طريق الحواس.

إن أمثال هؤلاء الذين يقولون: انهم لا يؤمنون إلا بما أدركته حواسهم يكذبهم واقعهم المادي الذي يعيشونه فهم مثلاً يؤمنون بالجاذبية وقوانينها ولم يشاهدوها بل رأوا آثارها ويعؤمنون بالعقل ولم يروه بل رأوا آثاره ويعؤمنون بالمعنى المادي وقد شاهدوا فقط انجذاب الحديد إلى الحديد دون رؤية الجاذب ويعؤمنون بوجود الإلكترون والنيترون ولم يشاهدوا إلكتروناً أو نيتروناً فواقع أمرهم يدل على انهم آمنوا بأشياء لم تدركها حواسهم ولكن آثارها هي التي دلت عليهم عليها وهم فيها على يقين لا يخالطه شك وهذا يعني بوضوح أن كثيراً من حقائق الوجود يؤمن بها هؤلاء لاحساسهم بآثارها دون إحساسهم بها ذاتها والعقل وليس الحواس هو الذي عرفهم عليها وإن كانت الحواس هي الآلة التي أعطت العقل أدوات الحكم حتى اصدر حكمه لكنه لو لا العقل ما صدر حكم ولما كانت معرفة بل الحقيقة أن الحواس تعطينا أحياناً صوراً كثيرة وهمية ولكننا نعرف الحقيقة بواسطة العقل وحده فالعصا المغمورة بالماء تبدو مكسورة والخطوط المتوازية على المدى البعيد تبدو غير متوازية والأرقام البيضاء تبدو أكثر من الأرقام السوداء وشعورنا دائماً أننا نسير ورؤوسنا إلى أعلى سواء كنا في القطب الشمالي أو الجنوبي أو على خط الاستواء فمثل هذه الصور تبين لنا بوضوح أن الحواس لو لا العقل لأعطتنا أخطاء بدلاً من حقائق ولو لا العقل لم تكن لنا أي معرفة فهل كان هؤلاء على صواب عندما حصرموا المعرفة

كلها بالحواس؟ وهل كانوا منطقين مع أنفسهم عندما رفضوا الإيمان بالله لأنه لم تدركه حواسهم مع انهم بالآثار وحدها آمنوا بكل الحقائق التي لم يشاهدوها والتي تشكل أكبر الحقائق التي عرفها الإنسان قبل اختراع الجهاز الذي يكتشف الحقيقة؟ هل كانت الحقيقة غير موجودة وبالتالي فهل كان إنكاركم لها قبل اكتشاف الجهاز علمياً؟ ثم هل كل حقيقة علمية تكشفها الحواس أو الجهاز؟ أليست الحقائق الرياضية وكثير من الحقائق الكونية لا طريق إليها إلا العقل والتأمل وربط النتائج بالمقدمات. ثم أليست كل قضية تحتاج إلى جهاز خاص يناسبها.

أو لا يكفيكم جهاز العقل للوصول إلى الله ولو أنه كانت لكم قلوب لحدثاكم عن القلب ذاك وكيف أن أهل القلوب عندهم الجهاز الذي يعرف الله حق المعرفة معرفة نووية لا تعدلها أي معرفة أخرى ولكن قلوبكم هذه ميتة ولذلك فإننا لا نطمع في أن تفهموا كلامنا في شأنها ولا نقصد بالقلوب هنا القلوب التي تعرفونها بل هي قلوب أخرى مركزها القلب الصنوبر ولكنها غيره. إن هذا التصور الخطأ لطريق معرفة الله قدימה وحديثاً من أكبر العوامل التي أبعدت كثيراً من الناس عن طريق الإيمان الصحيح بالله مع أن مثل هذا التصور خطأ بالداهة لأن العقل ببداهته يحكم أن الله خالق المادة ليس بمادة لأن المادة لا تخلق مادة وإذا كان منتهى إدراك الحواس في عالمنا هذا المادة المحسوسة فقط فلن يكون الله محل إدراكها والذي يبدو أنه ما من أمة من الأمم أو كافر من الكافرين إلا وعندهم هذه الشبهة حول التصور الحسي للطريق إلى معرفة الذات الإلهية، فقد سمعنا في عصرنا هذه أفراداً يجعلون عدم الرؤية سبباً للإلحاد، وسمعنا كذلك دوناً تصرح بهذا كما صرحت بذلك إذاعة الاتحاد السوفيياتي عقب إطلاق قمرها الصناعي الأول إلى الفضاء.

ومن طرائف أوجبة الفطرة على مثل هذا الاتجاه نكتة يقال أنها وقعت في مدرسة ابتدائية حيث وقف معلم ابتدائي يقول لطلاب السنة الابتدائية السادسة أترونني قالوا نعم قال: فإنني أنا موجود أترون اللوح قالوا: نعم قال: فاللوح موجود أترون الطاولة قالوا: نعم قال: فالطاولة إذن موجودة قال: أترون الله قالوا: لا قال: فالله غير موجود فوق أحد الطلاب الأذكياء وقال: وترون عقل الأستاذ فقالوا: لا قال: فعقل الأستاذ غير موجود وهذا الوهم الذي يتمسّك به كثير من الكافرين قديم قدم الكفر كما انه أثراً عن أمراض في النفس والقلب وليس أثراً عن فكر سوي أو عقل مستقيم أو إنصاف في تحقيق فقد حدثنا القرآن الكريم أن الكافرين في كل عصر كانوا

يشترطون للإيمان أن يحسوا عن طريق السمع أو الرؤية وقد ذكر القرآن علل هذا الاشتراط وهي ذاتها الأمراض التي ينتج عنها هذا التصور الفاسد والكلام الخاطئ ويحدد القرآن أسباب هذا الطلب بأنها الجهل وال الكبر والانحراف والظلم

1- الجهل:

قال تعالى: "وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِنَا آيَةً كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مُّتَّلِّقُو لِهِمْ تَشَابَهَتْ قُوْبِيْمْ قَدْ بَيَّنَاهُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقَنُونَ" البقرة : 118 يلاحظ في الآية أنها أشارت إلى أن هذا القول ليس كلام عالمين بل كلام جهال وإن هذا الكلام ليس جديدا بل هو منطق الكافرين قد يلهمه وحيانا وذلك اثر عن تشابه القلوب وأخيراً فإنها تقرر أن الطريق إلى الله آياته أي آثاره التي تدل عليه.

2- الكبر:

قال تعالى: "وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكَبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوْنَا كَبِيرًا * يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا يُشْرِكُونَ يَوْمَئِذٍ لِلْمُحْرِمِينَ" الفرقان : 21-22 وكما رأيناهم في الآية الأولى يريدون أن يسمعوا نراهم هنا يريدون أن يروا ولكن من هم الذين يريدون أن يروا إنهم الذين يتصورون أن الحياة الدنيا هي كل شيء وليس وراءها إلا العدم وكما ردت الآية الأولى عليهم بطريق غير مباشر كذلك بينت هذه الآية أن عالماً غير هذا العالم وفي قوانين غير هذه القوانين يرى الكافرون الملائكة أما قوانين هذا العالم العادلة فليس فيها للحواس من عالم الغيب نصيب وإذا كان الملائكة في قوانين هذا العالم العادلة لا ترى فأولى إذن أن تكون الذات الإلهية كذلك كما بينت الآية أيضاً أن الكبر وحده هو الذي دفعهم إلى مثل هذا المنطق وليس الوضع السوي للإنسان الذي يرغب بالحق ويسلك طريقه الصحيح.

3- الانحراف:

وآية أخرى تحدثنا عن أحد فراعنة مصر إذ يقول: "وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلَّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطْلِعَ إِلَيْهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظْنُهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدُّ عَنِ السَّبِيلِ" غافر : 36-37

والأية كما ترى تضمنت الرد في قولها وصد عن السبيل فليس ما تصوره فرعون طريقاً يعرف به الله هو الطريق الصحيح بل هو طريق خاطئ.

4- الظلم:

وآية أخرى تحدثنا أن اليهود طلبوا هذا الطلب ظلماً: "وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرًا فَأَخَذْتُمُ الصَّاعِقَةَ وَأَنْتُمْ تَتَظَرَّفُونَ" البقرة : 55 وفي موضع آخر: "فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرًا فَأَخَذْتُهُمُ الصَّاعِقَةَ بِظُلْمِهِمْ" النساء : 153

وكما رددت الآية الأولى على أمثل هؤلاء بشكل صمني فذلك هنا أشعرتنا بالرد بكلمة بظلمهم وليس العدل هو الذي دفعهم إلى أن يطلبوا مثل هذا الطلب بل الظلم؛ ظلم النفوس للحق إذ تعرفه وتتذكر له وكما طابق قول الكافرين اليوم قولهم قدימה في هذا الموضوع كذلك يطابق تهمتهم في الماضي تهمتهم اليوم ففي الماضي يقص علينا القرآن قصة تهمتهم فيقول : "قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ" الأنبياء : 4-5 فقد اتهموا المؤمنين بالله بأنهم: متوهون وكاذبون وعاطفيون وأصحابهم يتهمون المؤمنين بأنهم: غير علميين وغير صادقين ومشوشون ومخدوعون ولئن سار على هذه الطرق كثير من الناس فليس للمسلم صاحب القلب الكبير أن يقتفي أثر الصالحين فيقع فيما حذر منه الله "أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلِ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفُرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ" البقرة : 108

2- الطريق إلى الله: آياته:

وإذن فمثل ذلك الطريق لن يصل بنا إلى غاية في موضوع التعرف على الذات الإلهية فتحديد الطريق ومعرفته أساس لكي نصل إلى الهدف. إن الطريق إلى الله هي آثاره التي تدل عليه وهي طريق وحيد والعقل والفكر والعلم شروط أساسية لسلوك هذا الطريق إذ بدون عقل لن نعرف الآية وبدون فكر لن يعرف أصحابها وبدون علم لن تكون معرفة لآية أو ل أصحابها ولعل هذا الكلام مستغرب عند الملحدين إذ انهم يعطون لأنفسهم دائمًا ألقاب: العلمانيين والعقلانيين والأحرار والمفكرين ولكن الدعوى بدون دليل ليس لها أي قيمة علمية وسيكون في كل ما نكتبه في هذا البحث دليل إن شاء الله تعالى على صحة ما قلناه وهدم ما ادعوه: "وَالَّذِينَ يُحَاجُونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجْبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاهِيَّةً" الشورى : 16

" وسيأتيك بيان ذلك أما الآن فنقول: المتأمل أدنى تأمل للقرآن يرى أن القرآن يلفت النظر بشكل واضح وواسع العقل والفكر والعلم والآثار وهي الشروط الأساسية لمعرفة الله "قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونَا مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شَرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ إِنَّتُوْنِي بِكِتَابٍ مِّنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةً مِّنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" الأحقاف : 46 أي هل هناك ذرة من علم تشهد أن غير الله هو الخالق فإذا ما أنكر الناس ربهم فليس ذلك دليلا على العلم بل هو دليل هو الجهل "وَمَنِ النَّاسُ مِنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ" الحج : 8 / لقمان : 20 ولكنه ليس الجهل المطلق المجرد عن آية معرفة بل هو جهل خاص ذكره الله تعالى بقوله: "يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ" الروم : 7 وقوله تعالى: "فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّ عَنِ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا" ذلك مبلغهم مِنَ الْعِلْمِ النجم : 30-29

إن الإكثار من ذكر العلم والفكر والعلم في القرآن ظاهرة تلفت النظر لقوله تعالى: "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لَّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ" الرعد : 4 وقوله تعالى: "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لَّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ" الرعد : 3 وقوله تعالى: "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ" الروم : 22 وقوله تعالى: "قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ" يونس : 101

ومن ثم فإن المتأمل للقرآن يدرك أن الإسلام يفرض على المسلم أن يفك ويفرض عليه أن يتعلم وأن العلم والفكر جزء من شخصية المسلم في الوقت اللذان هما عند غير المسلم شهوة يتسلى بها أو بباب معاش يرتق منه أو هوالية عند بعض الأفراد. وإذا يفرض الإسلام العلم فلأنه بالعلم يعرف الإسلام حقاً قال تعالى: "وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ" سباء : 6

وسندرس في الصفحات القادمة إن شاء الله تعالى آيات الله لنتبين الحقيقة السافرة تلك التي تقول إن الكافرين بالله أضلوا قلوبهم إذ لم يهتدوا إليه وإن المؤمنين هدوا قلوبهم إذا اهتدوا إليه "وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ" التغابن : 11 وأن مثل الكافر الذي لم يشاهد الله بعقله بعد رؤيته آياته كمثل حامل أسفار لا يعرف قيمتها ولا مؤلفها فينسبها إلى المجهول المعذوم وسنرى كذلك إن شاء الله انه ليست قلة الآيات ولا غموضها هي التي أدىت بالكثير إلى الكفر بل الآيات من الكثرة بحيث لا تعد ومن الوضوح بحيث لا تخفي ولكن السر في الإنسان ذاته السر في إعراضه هو عن

الآية في كبره عن الاعتراف بالحق في عدم تعرفه على الحقيقة في انحرافه عن فطرة الإنسان وأخلاق الإنسان في انغلاق قلبه وعماه حتى لو حركته القدرة الإلهية بشكل معجز لبقي مصرأ على الإنكار ويحدثنا القرآن عن أمثال هؤلاء فيقول تعالى: "وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ" الحجر : 14-15 وقال تعالى: "وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُونَ وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌ" القمر : 2 وقال تعالى: "وَكَأَيْنَ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمْرُونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ" يوسف : 105 وفي هذا المقام نحب أن نسأل: ترى هل الله هو الذي يحتاج إلينا كي نؤمن به أم نحن الذين نحتاج أن نؤمن من أجل أنفسنا؟ والجواب: "فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ" آل عمران : 97 وإن فلنحرر أنفسنا من أجل أن نكون أهلاً لرؤيه آيات الله:

1- من الكبر: لأن الله لا يري قلباً متكبراً آياته قال تعالى: "سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيْرِ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ"

الأعراف : 146

2- ولنحرر أنفسنا من الظلم والكذب "وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ" آل عمران : 86 قال تعالى: "إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ" الزمر : 3

3- ولنحرر أنفسنا من الإفساد في الأرض ونقض العهد وتقطيع أو اصر ما ينبغي أن يصل قال تعالى: "وَمَا يُصِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ * الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمْرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوْصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ" البقرة : 26-27

4- ولنحرر أنفسنا من الغفلة: إن أردنا أن تتكشف آيات الله كلها لنا فإن بعضاً من آيات الله يتكتشف للإنسان بمجرد الفكر إن لم تكن هناك موانع أخرى بمجرد العقل: ومثال ذلك وهذه كل آية في القرآن قد قال تعالى عنها: "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَكَبَّرُونَ" الرعد : 3 وقال تعالى: "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ" الرعد : 4 ولكن آيات الله كلها لا تتكتشف لقلب إلا

إذا اجتمع لصاحب فكر مع ذكر "إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَا يَرَى إِلَّا مَا يَذَكُرُونَ اللَّهُ قَيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ" آل عمران : 190-191

وما أعرض معرض عن الله إلا لغفلة ولا غفلة إلا وراءها لعب ولهم والحياة الدنيا كلها لعب ولهم قال تعالى: "أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ" الحديد : 20

قال تعالى: "اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفَلَةٍ مَعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُهْدِثٍ إِلَّا اسْتَمْعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لَاهِيَةٌ قُلُوبُهُمْ" الأنبياء : 1-3

5- ولنحر أنفسنا من الإجرام قال تعالى: "كَلَّا بَلْ رَأَنَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ" المطففين : 14 وكذلك قال تعالى: "كَذَلِكَ نَسْكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ" الحجر : 12-13

6- ولنحر أنفسنا من التردد في قبول الحق إذا رأينا صريحاً ونقلب أفتئتهم وأيصالهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذر لهم في طغيانهم يعمرون الأنعام : 110 وساعتها فإن آيات الله من الإشراق بحيث تغمر كل جانب قلبك بعد إذ أعدته لتلقى النور ولكن هيئات والقلب قلب شيطان أن يكون أهلاً لهداية الرحمن ذلك أن الضباب الكثيف يمنع أشعة الشمس والعطب في العين يمنع الرؤية والمرض في الأذن يمنع السمع وليس الذنب ذنب الماء الفرات إذا وجده المريض مراً قال تعالى: "يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْرُنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمَنْ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنَّ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتُوهُ فَاحذَرُوهُ وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَةً فَلَنْ تَمَلِّكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُظْهِرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا حِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ" المائدة : 41

فالسر دائمًا في الإنسان نفسه قال تعالى: "فَلَمَّا زَاغُوا أَرَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ" الصاف : 5 وأما آيات الله فواضحة بينة وكذلك نفصل الآيات ولتسهيل سبيل المجرمين الأنعام : 6 وآيات الله نراها في ثلاثة:

الكون والقرآن والمعجزات والكرامات وقد عبر القرآن عن كل من هذه الثلاثة بأنه آية تدل عليه.

الكون:

قال تعالى: "وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقَنِينَ * وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ" الذاريات : 20-21
وقال تعالى: "وَكَأَيْنَ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمْرُونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ" يوسف : 105

وقال تعالى: "وَآيَةٌ لَّهُمُ الَّلَّا يُنَسِّخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ * وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقْرٍ لَّهَا ذَلِكَ نَقْدِيرُ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ * وَالْقَمَرُ قَدَرَنَا هُوَ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونَ الْقَدِيمَ" يس : 37-39
وقال تعالى: "وَمَنْ آيَاتِهِ خَلَقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَاحْتَلَافُ السِّنَنِكُمْ وَالْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ * وَمَنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاوُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ" الروم : 22-23

القرآن:

"وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَوْلَمْ يَكُفُّهُمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتَلَّى عَلَيْهِمْ" العنكبوت : 50-51
وقال تعالى: "بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ" العنكبوت : 49
وقال تعالى: "وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ" آل عمران : 101

المعجزات:

"وَفِيكُمْ رَسُولُهُ" آل عمران : 101 "اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَ الْقَمَرُ * وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌ" القمر : 1-2 "وَيَا قَوْمَ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً" هود : 64 "وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةً مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهِيَةً الطَّيْرِ فَأَنْفُخْ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَبْرِئُهُ الْأَكْمَهُ وَالْأَبْرَصَ وَأَحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَبْيَكُمْ بِمَا تَكْلُونَ وَمَا تَدَخَّرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَا يَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ" آل عمران : 49 ونصوص القرآن تشير إلى أن في الكون آيات كثيرة وليس هو آية واحدة. وفي القرآن آيات وليس فيه آية واحدة فحسب والمعجزات آيات.

إن عشرات الظواهر في الكون كل واحدة منها تدل على الله وعشرات الظواهر في القرآن كل ظاهرة منها كافية للدلالة على الله والمعجزات ظواهر تاريخية كل ظاهرة منها كافية للدلالة على الله وفي كل ظاهرة آلاف الإشارات كل واحدة منها تدل على الله فالمقام الحجة على الناس قياماً كاملاً قال تعالى: "رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لَئِلَّا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرَّسُولِ" النساء : 165

وقال تعالى: "قَالُوا أَوْلَمْ تَأْتِيَكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوهَا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ" غافر : 50

في هذا الكتاب سنعرض آيات الله في الكون مقيمين الحجة على كل كافر ومعاند أن الله موجود وأن له صفات الكمال والجلال والجمال كلها وفي الكتاب الثاني الذي عنوانه الرسول سنرى بعض آيات الله في القرآن وبعض آياته في معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم فكما أن القرآن آية تدل على الله وكما أن في المعجزة بشكل مطلق آية تدل على الله فإن في القرآن في الوقت نفسه شهادة على أن محمداً صلى الله عليه وسلم رسول الله وكذلك في معجزاته ولذلك فقد أخرنا هذين الموضوعين إلى الرسالة الثانية حيث إقامة الدليل على صحة نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم إن شاء الله تعالى ولا زالت الكرامات في هذه الأمة تتواتر وكل كرامة في هذه الأمة إنما هي معجزة لرسولها عليه الصلاة والسلام ومن ثم فكل كرامة هي في حد ذاتها دليل على صحة رسالة رسولنا ودليل على أن الله موجود إذ الكرامة كالمعجزة في كونها خرقاً لعالم الأسباب ومن تأمل ما سندكره في هذه السلسلة من هذه الظواهر وهي غيض من فيض فإنه لا يسعه إلا أن يكون مسلماً مسلماً الله ورسوله وبعد إذ تبيّنت لنا ماهية الطريق الموصولة إلى معرفة الله والإيمان به وبعد أن تبيّن لنا خطأ التصورات المنحرفة عن الطريق وبعد أن عرفنا كيفية انتظام الأدلة في هذه السلسلة ونوع الأدلة التي سيعرضها هذا البحث فلنبدأ عرض ماله صلة ببحثنا هذا بأن نستعرض ظواهر الكون التي تدلنا على الخالق العظيم.

الظاهرة الأولى

ظاهرة حدوث الكون

ظاهرة حدوث الكون: أي وجوده بعد إذ لم يكن.

أول ظاهرة تدلنا على الله هي حدوث هذا الكون الذي يدلنا على أن له محدثا وكلما تقدم العلم أعطانا الدليل بشكل أدق وأعمق وأكثر إقناعا على هذه الظاهرة بل ما قدمه العلم من أدلة عليها جعلها في حكم البديهة إذ وضوح الأدلة وتعارضها لم يبق مجالا للشك فيها فقوانين الحرارة وقوانين الإلكترون والطاقة الشمسية قد قدم كل منها دليلاً واضحاً عليها وبتضافر هذه الأدلة يظهر الأمر ظهورا لا يبقى معه مجال للشك هذا عدا عن الأدلة الفطرية والعقلية والقطعية التي ذكرها الربانيون في كل عصر وسنحاول أن نستعرض هذه الجوانب واحدا تلو الآخر لنرى كيف يقدم كل منها الدليل على كون هذا الكون مخلوقاً لخالق.

1- قوانين الحرارة:

يقول ليكونت دي نوي رئيس قسم الفيزياء في معهد باستور ورئيس قسم الفلسفة في جامعة السوربون في كتابه مصير البشرية: إن أحد وجوه النجاح العظيمة التي حققها العلم الحديث ربط قانون كارنوت كلوزيوس بدعى أيضا "بالقانون الثاني في الترموديناميكي" الذي يعتبر مفتاح فهمنا للمادة غير الحية بحساب الاحتمالات وقد ثبتت الفيزيائي الكبير بولتزمان أن التطور غير الحي وغير القابل للانعكاس الذي يفرضه هذا القانون يوافق تطوراً نحو حالات أكثر وأكثر احتمالاً تتصف بازدياد التناقض وتوازن القدرة وهكذا فإن الكون يميل نحو التوازن حيث تزول جميع عدم التناقضات الموجودة في الوقت الحاضر وتقف جميع الحركات ويسود الظلام التام وقد عبر إدوار لوزكيل عن هذا القانون وكيف أنه يثبت به أن لهذا الكون بداية بما يلي:

وقد يعتقد بعضهم أن هذا الكون هو خالق نفسه وعلى حين يرى البعض الآخر أن الاعتقاد بأزلية هذا الكون ليس أصعب من الاعتقاد بوجود إله أزلي ولكن القانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية يثبت خطأ هذا الرأي أي أزلية الكون فالعلوم تثبت بكل وضوح أن هذا الكون لا يمكن أن يكون أزلياً فهناك انتقال حراري مستمر من الأجسام الحارة إلى الأجسام الباردة ولا يمكن أن يحدث العكس بقوة ذاتية ومعنى ذلك أن الكون يتوجه إلى درجة تتساوى فيها

حرارة جميع الأجسام وينصب منها معين الطاقة ويومئذ لن تكون هناك عمليات كيماوية أو طبيعية ولن يكون هنالك أثر للحياة نفسها في هذا الكون لذلك فإننا نستنتج أن هذا الكون لا يمكن أن يكون أزلياً وإلا لاستهلكت طاقته منذ زمن بعيد وتوقف كل نشاط في الوجود وهذا توصلت العلوم دون قصد إلى أن لهذا الكون بداية وهي بذلك تثبت وجود الله وما كان له بداية لا يمكن أن يكون قد بدأ بنفسه ولا بد له من مبديء أو من محرك أول أو من خالق هو الإله واستدل فرانك الان عالم الطبيعة البيولوجية على عدم أزلية الكون كذلك بنفس القانون يقول: كثيراً ما يقال إن هذا الكون المادي لا يحتاج إلى خالق ولكننا إذا سلمنا بأن هذا الكون موجود فكيف وجوده ونشأته؟ هنالك أربعة احتمالات للإجابة على هذا السؤال:

فإما أن يكون هذا الكون مجرد وهم وخيال وهو ما يتعارض مع القضية التي سلمنا بها حول وجوده.

وإما أن يكون هذا الكون قد نشأ من تلقاء نفسه من العدم.

وإما أن يكون أبداً ليس لنشأته بداية.

وإما أن يكون له خالق.

أما الاحتمال الأول فلا يقيم أمامنا مشكلة الإحساس والشعور فهو يعني أن إحساسنا بهذا الكون وإدراكتنا لما يحدث فيه لا يعدو أن يكون وهم من الأوهام ليس له ظل من الحقيقة فالرأي الذي يدعى أن هذا الكون ليس له وجود فعلي وأنه مجرد صورة في أذهاننا وأننا نعيش في عالم من الأوهام لا يحتاج إلى مناقشة أو جدال.

أما الرأي الثاني القائل بأن هذا العالم بما فيه من مادة وطاقة قد نشأ هكذا وحده من العدم فهو لا يقل عن سابقه سخفاً وحمقاً ولا يستحق هو أيضاً أن يكون موضعًا للنظر أو المناقشة. والرأي

الثالث الذي يذهب إلى أن هذا الكون أزلي ليس لنشأته بداية إنما يشتراك مع الرأي الذي ينادي بوجود خالق لهذا الكون وذلك في عنصر واحد هو الأزلية وإذا فنحن إنما ننسب صفة الأزلية إلى عالم ميت وإنما أن ننسبها إلى الله هي يخلق وليس هناك صعوبة فكرية في الأخذ بأحد الاحتمالين أكثر مما في الآخر ولكن قوانين الدينамиكا الحرارية تدل على أن مكونات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجاً وأنها سائرة حتماً إلى يوم تصير فيه الأجسام تحت درجة من الحرارة

باللغة الانخفاض هي الصفر المطلق ويومئذ تتعدم الطاقة وتستحيل الحياة ولا مناص عند حدوث هذه الحالة من انعدام الطاقة عندما تصل درجة حرارة الأجسام إلى الصفر المطلق بمضي الوقت أما الشمس المستمرة والنجوم المتوجهة والأرض الغنية بأنواع الحياة فكلها دليل واضح على أن أصل الكون أو أساسه يرتبط بزمان بدأ من لحظة معينة فهو إذن حدث من الأحداث ومعنى ذلك أنه لا بد لأصل الكون من خالق أزلية ليس له بداية علیم محيط بكل شيء قوي ليس لقدرته حدود ولا بد أن يكون هذا الكون من صنع يديه فالقانون إذن يثبت أن الكون ما دام فيه حرارة فلا يمكن أن يكون أزليا لأن الحرارة لا يمكن أن تتبع تلقائيا في الكون بعد برونته ولو كان أزليا لكان باردا.

2- قوانين الحركة الإلكترونية:

والشهادة الأخرى التي تدل على حدوث الكون نجدها في كل ذرة من ذرات الوجود على الإطلاق وذلك أن ذرات الكون كلها مؤلفة من جزيئات كهربائية سالبة وموسمة. الموجة يطلق عليها اسم البروتون والسلبية يطلق عليها اسم الإلكترون. وأنوية الذرات إلا ذرة الهيدروجين فيها زيادة على ذلك شحنة معتدلة تسمى نيترون والبروتون والنويترون يشكلان نواة الذرة بينما الإلكترونات تشكل الكواكب السيارة لهذه النواة وهي تدور حولها بسرعة هائلة بحركة دائيرية إهليجية وبسبب هذه السرعة الهائلة في حركة الإلكترون يبقى الإلكترون متحركا هذه الحركة إذ لو لا هذا الدوران لجذب كتلة النواة كتلة الإلكترون وعندئذ يكون العجب، إذ في هذه الحالة يصبح جرم كالكرة الأرضية حجم بيضة الدجاجة فالفراغ كبير جدا في عالم الذرة فكتل الجزيئات لا تأخذ إلا حيزاً صغيراً جداً من فراغ الذرة الواسع وذلك أن البعد بين النواة والإلكترونات الدائرة حولها كالبعد بين الشمس وكواكبها السيارة نسبياً. من هذه الدراسة الموجزة للذرة نصل إلى الحقائق التالية:

- 1- أن الإلكترونات في أكثر ذرات الوجود إن لم يكن في كلها في حركة دائمة دائيرية.
- 2- وأنه ليس هناك أي دليل في الوجود يدل على أنه يمكن أن يكون هناك وضع آخر للإلكترون كان عليه أولا ثم انتقل إلى هذه الحالة إن لم نحكم باستحالة تصور آخر أقدم من

هذا الوضع إذ لو كان لاحتمنا إلى مؤثر جعل الإلكترونات الوجود تتحرك بعد خمود فتوسعة
الذرة بعد ضيق

3- أن في هذا الكون كله مؤلف من نفس الذرات التي عرفنا خصائصها هنا بل من نفس العناصر وهذه الحركة التي نجدها في الإلكترون نجدها في كل جرم في الفضاء وبعد هذه الحقائق نقول: إن الشيء الدائري لا بد أن تكون له نقطة بداية زمانية ومكانية بدأ منها دورته. ولما كانت الإلكترونات والأجرام كلها في حركة دائيرية ولما كانت هذه الحركة غير مستأنفة كما يبدو فإذا لا بد أن تكون هناك بداية زمانية ومكانية لحركة الإلكترون وهذه البداية في الحقيقة هي بداية وجود الذرات نفسها وبهذا تكون قد وصلنا إلى أن لهذا الكون بداية ونشأة وخلالها من العدم إذ العدم لا ينتج عنه وجود.

4- الطاقة الشمسية: نحب أولاً أن نذكر كلمة توضح معنى الأزلية إنه لو وضعنا الرقم 1 وأمامه أصفار ممتدة منه إلى محيط الكرة الأرضية فإن هذا الرقم الكبير من السنين إنما يمثل جزءاً كالصفر تقريباً بالنسبة إلى اللانهاية أو اللابداية ونفس الشيء لو كان الرقم 1 أمامه أصفار من أول الكون إلى نهايته فإن هذا الرقم لا يمثل إلا جزءاً من اللانهاية يشبه الصفر وكذلك هو بالنسبة للأزل فالذين يقولون بقدم المادة إنما يعطونها هذا المعنى وهذا الذي تثبت الظواهر كلها استحالاته حول خلافه والظاهرة هذه كالتى سنتكلم عنها تمثل إحدى هذه الظواهر: من أين تأتي الشمس بطاقتها؟ وكيف تحافظ على حرارتها؟

وعندما نقول: الشمس وإنما نعني كل نجوم هذا الكون فنجوم هذا الكون كلها شموس صغيرة وبعدها عنا وشمسنا هذه نموذج عنها والسؤالان اللذان ذكرناهما مهمان جداً لأن كل الشموس في حالة عطاء دائم فهي تعطي دائماً إشعاعاً حرارياً يشكل طاقة لقد أضيء معرض شيكاغو الذي أقيم عام 1933 بكماله بواسطة مفتاح ضخم يدار بواسطة شعاع ضئيل كان قد انبث من نجم السمك الرامح منذ أربعين عاماً مما سبب هذه الطاقة في الشموس؟ أجب على هذا السؤال أكثر من جواب ولكنها لم تكن مقنعة حتى كان الجواب الأخير وهو إن ذرات هذه الشموس تتحطم في قلبها المرتفع الحرارة جداً وبواسطة هذا التحطّم الهائل الواسع المستمر تتولد هذه الطاقة

الحرارية التي لا مثيل لها وكما هو معلوم فإن الذرة عندما تتحطم تفقد جزءاً من كتلتها حيث يتحول هذا الجزء إلى طاقة وإن كل يوم يمر على أي شمس معناه فقدان ولو جزء بسيط من كتلتها.

إن الشمس مثلاً تفقد كل يوم كذا كيلو غرام ومتلها بقية النجوم فلو كانت هذه الشموس قديمة أزلية فهل يمكن أن تكون في وضعها الحالي أو أنها تكون قد استفدت وانتهت أمرها والأزل كمارأينا هو الأزل ونحن لم ننس أن قسماً من هذه الطاقة التي تصرفها الشموس يتحول إلى مادة ولكن نسبة التحول إلى غير التحول تبقى ضئيلة كنسبة النجوم إلى الفضاء وكلامنا ليس في جزء من الكون يفقد ويغوص فقد يوجد مثل هذا التوازن أحياناً ولكن كلامنا في الكون كله إذ ما دام الفضاء عظيماً فحتى سيعطي قسم كبير من هذه الطاقة ولا يتحول: إلى مادة وما دام هناك شعاع واحد يمكن أن نتصوره لا يصطدم بمادة حتى يعيد تشكله المادي بشكل ما من جديد فإن تصور أزلية الكون القحالي مستحيلة إذ شعاع واحد على مدى الأزل كاف لاستفاد طاقة الوجود كله أما الكلام بأن الكون كله كان في الأصل طاقة فتحولت إلى مادة وهو الآن مادة يتحول إلى طاقة ومن ثم سيكون مادة وهكذا فالمحالات فيه واضحة ذلك أن الطاقة كطاقة إنما تظهر إذا وجدت مادة ما تقوم بها فالطاقة تحتاج إلى ذات وبدون ذات تكون أشبه بمعدوم أو بتعبير العلماء القدامى: الطاقة عرض تحتاج إلى جوهر لظهور فيه إشعاع الشمس عندما يصادف الأرض مثلاً تأخذ ذرات الأرض حرارته وبهذا تصبح ذرات الأرض مشحونة بالطاقة الحرارية ولكن إذا لم يصادف هذا الشعاع مادة فهل سيتحول نفسه إلى ذرة مادية على الأقل لم يقل بهذا أحد حتى الآن وبهذا يتضح بما لا شك فيه أن هذا الكون ليس قديماً وأن له بداية وأنه لا يتصور وجوده لو لا أن له خالقاً هذا الخالق هو ابتدأ خلقه ووجوده بعد إذ لم يكن.

وقد عبر علماء التوحيد القدامى عن قضية حدوث الكون وابتدائه من العدم بقدرة الله على الشكل التالي: نظروا إلى الكون فوجدوا ما فيه على نوعين: نوع يقوم بذاته ونوع لا يقوم بلا ذات فمثلاً الجسم يقوم بذاته لكن المرض لا يكون بلا جسم والذرة تقوم بذاتها ولكن الحرارة لا تكون بلا ذات وسموا ما يقوم بذاته الجوهر وما لا يقوم إلا بالجوهر عرض فالذرة جوهر وحرارتها عرض والجسم جوهر والصحة عرض وقلوا: إن الجوهر لا ينفك عن الأعراض فما رأينا جوهراً إلا ويلازمه عرض ما وكل عرض حادث فالظلماد حادث فمنذ فترة كان قبله نهار

والنهار حادث فمنذ فترة كان قبله ليل وحرارة الذرات مهما كانت فإن لها بداية وإذا كان لا جوهر إلا بعرض فلا جوهر إلا وله بداية فالكون جواهره وأعراضه كلها حادث وليس أزليا

مناقشة سؤال: ويثير الناس عند الوصول إلى هذه الحقيقة السؤال التقليدي: من خلق الله الذي خلق الخلق وفي مضمون السؤال الجواب عليه فالله حق وكونه خالقا يجعلنا لا نتصور أنه مخلوق إذ لو كان مخلوقا لما استطاع أن يخلق إلا ترى أن الإنسان مثلا مع كل ما أوتي من إمكانيات لم يستطع أن يخلق شيئاً من عدم فكيف نتصور خالق هذا الكون مخلوقا.

يقول الأستاذ البنا رحمه الله مجيبا هؤلاء الذين يسألون هذا السؤال: إذا وضع كتابا على مكتبك ثم خرجت من الحجرة وعدت إليها بعد قليل فرأيت الكتاب الذي تركته على المكتب موضوعا في الدرج فإنك تعتقد تماما أن أحدا لا بد أن يكون قد وضعه في الدرج لأنك تعلم من صفات هذا الكتاب أنه لا ينتقل بنفسه احفظ هذه النقطة وانتقل معه إلى نقطة أخرى لو كان معك في حجرة مكتبك شخص جالس على الكرسي ثم خرجت وعدت إلى الحجرة فرأيته جالسا على البساط مثلا : فإنك لا تسأل عن سبب انتقاله ولا تعتقد أن أحدا نقله من موضعه لأنك تعلم من صفات هذا الشخص أنه ينتقل بنفسه ولا يحتاج إلى من ينقله احفظ هذه النقطة الثانية ثم

اسمع ما أقول لك: لما كانت هذه المخلوقات محدثة ونحن نعلم من طبائعها وصفاتها أنها لا توجد بذاتها بل لا بد لها من موجد. عرفنا أن موجدها هو الله تبارك وتعالى ولما كان كمال الألوهية يقتضي عدم احتياج الإله إلى غيره بل إن من صفاته قيامه بنفسه عرفنا أن الله تبارك وتعالى موجود بذاته وغير محتاج إلى من يوجده وإذا وضع النقطتين السابقتين إلى جانب هذا الكلام اتضحت هذه المقام والعقل البشري أقصر من أن يتورط في ذلك وقد كان علماء التوحيد يرون أن مثل هذا السؤال لا معنى له. فيقولون: إذا سرنا مع السائرين شوطا عندما سألو: من خلق الله فقلنا لهم: غيره ومن خلق غيره غيره ومن خلق الثالث آخر وماذا بعد ذلك فإنه وبالتالي لا بد أن نصل في النهاية إلى ذات لا بداية لها ولا خالق هذه الذات التي لا بداية لها ولا خالق هي الذات الإلهية وكل جواب في الوسط لا معنى له في النهاية.

فهناك خالق ومخلوق ولا يمكن أن يكون للخالق خالق والحقيقة أن يسأل مثل هذا السؤال إما هازل والجواب عليه إعراض عنه أو متوهם والجواب عليه إزالة سبب التوهם وسبب توهمه أنه رأى كل شيء موجود محتاجاً إلى خالق فتصور أن هذا القانون يسري على الخالق نفسه وهذا خطأ فليس شرطاً حتمياً أن تتطبق على الصانع نفس القوانين التي يخضع لها المصنوع إذ المصنوع والقوانين التي يخضع لها من صنع الصانع وفي حدود العالم نفسه نجد أن ما صنعه الإنسان لا تسرى عليه حالات الإنسان فالإنسان يمشي تلقائياً ويريد ويعلم ويدرك ويفكر ويأكل ويشرب ويمس ويشتهي فهو شيء وما يصنعه شيء آخر وكل خصائصه وهذا الكون شيء وخلقه شيء آخر وللكون خصائصه وللذات الإلهية صفاتها وفي غالب الأحيان يكون صاحب السؤال من الذين لا يؤمنون بالله

والجواب على مثل هذا أن نقول له: إننا جميعاً متلقون على أن هناك شيئاً قدِّينا لا بداية له ولا خالق أنت تقول: إن هذا الشيء القديم هو المادة ونحن نقول هذا الشيء القديم هو الله وقد أثبتت العلوم كلها أن المادة غير قديمة فلم يبق إلا أن يكون الله هو القديم وقد ذكرنا في الصفحات السابقة بعضاً مما قالته العلوم وننقل الآن أقوالاً أخرى لبعض علماء الطبيعة في نفس الموضوع مختتمين بها الحديث عن هذه الظاهرة يقول جون كوشران: تدلنا الكيمياء على أن بعض المواد في سبيل الزوال أو الفناء ولكن بعضها يسير نحو الفناء بسرعة كبيرة والآخر بسرعة ضئيلة وعلى ذلك فإن المادة ليست أبداً ومعنى ذلك أيضاً أنها ليست أزلية إذ أن لها بداية وتدل الشواهد من الكيمياء وغيرها من العلوم على أن بداية المادة لم تكن بطبيئة أو تدريجية بل وجدت بصورة فجائية و تستطيع العلوم أن تحدد لنا الوقت الذي نشأت فيه هذه المواد ويقول ايرفنج ولIAM: فعلم الفلك مثلاً يشير إلى أن هذا الكون بداية قديمة وأن الكون يسير إلى نهاية محتملة وليس مما يتفق مع العلم أن نعتقد بأن هذا الكون أزلٍ ليس له بداية أو أبداً ليس له نهاية فهو قائم على أساس التغيير هذا كلام هؤلاء على كفرهم إذ الإيمان بالله له مستلزمات لم يقم بها هؤلاء إلا أن علمهم بقوانين الكون أو صلتهم إلى هذه الحقيقة الخالدة والقائمة في كل فطرة والبداهة عند كل عقل مستقيم والله عز وجل يقول: "أَمْ خَلُقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ" الطور : 35 . "أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ" الطور : 36

الظاهره الثانيه

ظاهره الإرادة

إن هناك فرضيات ثلاثة يمكن أن تذكر أثناء الحديث عن الكون وما فيه؛ كتعليق لوجوده على ما هو عليه :

1- أن يكون من صنع الله

2- أن يكون من صنع ذرات المادة وأجزائها وعناصرها عن قصد وإرادة وعنایة منها أي أن عناصر المادة الأصلية فكرة دبرت واتفقت على صنع تتواعات هذا العالم بهذه الأشكال والصور التي نراها

3- أن يكون الكون بما فيه قد يكون بطريق المصادفة أي أن الجزيئات الكهربية التي منها تتتألف ذرات هذا الكون وجدت مصادفة وكان بعضها سالباً والآخر موجباً والأخير معتملاً مصادفة وكل جزء سالب التقى بجزيء موجب مصادفة ومجموعة متدرجة من الواحد إلى 238 من الجزيئات الموجبة شكلت مع بعضها نوى مصادفة والجزئيات السالبة أخذت تدور حول هذه النوى مصادفة وكان بين النواة والكهارب فراغات لولاهما لكان جرم الأرض بحجم البيضة مصادفة وجود المدارات الثابتة لكل ثمانية كهارب كان مصادفة وجود إمكانيات التحاد بين العناصر لتشكل مركبات جديدة بسبب نقص الالكترونات عن الثمانية في غلافات بعض الذرات كان مصادفة واتحاد العناصر واجتماعها لتكون هذه الأجرام الهائلة من الشموس كان مصادفة والحرارة الموجودة في الشموس والإشعاع والترتيب كان مصادفة ثم الأرض بوضعها الحالي الصالح للحياة: قشرتها هواها مأواها جبالها حجمها وجدت مصادفة ثم الحياة بتتواعها وتركيبها وأجهزتها المعقدة وجدت مصادفة ثم الإنسان: بعقله وفكه وتركيبيه وروحه وأخلاقه واستعداداته الخيالية والتصويرية والعلمية وإمكاناته للتسلية كل هذا وجد مصادفة هذه افتراضات ثلاثة لا يمكن أن يفترض غيرها لتعليق وجود هذا الكون على ما هو عليه.

أما الفرض الأول: فيقول به المؤمنون وأما الفرض الثاني فلا يقول به أحد وأما الفرض الثالث فيقول به الماديون وإن فنحن أمام فرضين فقط إما أن يكون هذا الكون بتواعاته من صنع صانع له إرادة طبقاً لمبدأ السببية وإما أن يكون نتيجة المصادفة ومهمتنا أن نرى أيّاً من الفرضين يقوم عليه البرهان وأيّاً منها لا دليل عليه ولا برهان؛ إذ أن المصادفة في حد ذاتها

لا ريب أنه يميل إلى تصديق الخبر الأول ولكنه أمام صدق المخبرين يرى أن المصادفة ممكنة فلا يجزم بترجح أحد الخبرين على الآخر ولكن إذا رأى هذا الرجل إبرة ثالثة مغروزة في شق الثانية أيضاً فهل يبقى عدم الترجح على حاله؟ الحقيقة أنه يتقوى ترجح القصد على المصادفة ولكن لا يزال للمصادفة محل ولو كان ضعيفاً فإذا ما رأى الرجل أن هناك عشر إبر كل واحدة منها مغروزة في ثقب الأخرى التي تليها فهل يبقى ترجح فكرة القصد على وضعه السابق الحقيقة أن ترجح فكرة القصد يتقوى لدرجة تقاد تتلاشى فيها فكرة المصادفة وكلما ازداد تعقيد المسألة أكثر دنت فكرة المصادفة من الاستحاللة.

فمثلاً لو قلنا: إن الإبر العشر مرقمة بخطوط لكل واحدة منها رقم من الواحد إلى العشرة وقيل لنا في الخبر: إن الصبي الأعمى أعطي كيساً فيه هذه الإبر العشر مخلوطة مشوشة وإنه كان يضع يده في الكيس ويستخرج الإبر تبعاً على ترتيب أرقامها بطريق المصادفة ويلقيها اعتباطاً فتقع الأولى في شق المغروزة في اللوح وتقع الثانية في الأولى والثالثة في الثانية والرابعة في الثالثة وهكذا حتى أتم إدخال الإبر العشر بعضها في بعض على ترتيب أرقامها بطريق المصادفة ثم إذا تعقدت المسألة أكثر بحيث جعلنا بدل الصبي الهواء أو الماء أو العدم فماذا يكون موقف الإنسان في هذه الحالة هل يصدق خبر من يقول بالمصادفة أو خبر من يقول أن هناك ذاتاً ذات إرادة وبصر هي التي فعلت هذا؟ لا شك أن الإنسان العاقل يرجح ترجيحاً مطلقاً بالبداية أن الثاني هو الصادق وسبب هذا الترجيح يعود إلى أن للمصادفة قانوناً رياضياً عacula لا يمكن الخروج عنه وهو: أن حظ المصادفة من الاعتبار يزداد وينقص بنسبة معكوسية مع عدد الإمكانيات المتكافئة المتراحمة فكلما قل عدد الأشياء المتراحمة ازداد حظ المصادفة من النجاح وكلما كثر عددها قل حظ المصادفة فإذا كان التراحم بين شيئين متكافئين يكون حظ

المصادفة بنسبة واحد ضد اثنين وإذا كان التزاحم بين عشرة يكون حظ المصادفة بنسبة واحد ضد عشرة وذلك لأن كل واحد له فرصة للنجاح مماثلة لفرصة الآخر بدون أقل تفاضل طبعاً وإلى هنا يكون الحظ في النجاح قريباً من المتزاحمين حتى لو كانوا مائة أو ألفاً ولكن متى تضخمت النسبة العددية تضخماً هائلاً يصبح حظ المصادفة في حكم العدم بل المستحيل ولإدراك المسألة بشكلها الواسع الواضح فلنقرأ هذا المثال:

افرض أنك تملك مطبعة فيها نصف مليون حرف مفرقة في صناديقها فجاءت هزة أرضية قلت صناديق الحروف وبعثرتها وخلطتها ثم جاءك منضد الحروف يخبرك بأنه قد تألف من اختلاط الحروف بالمصادفة عشر كلمات متفرقة غير مترابطة المعاني فالقضية تكون في هذه الحالة قابلة للتصديق جداً ولو قال لك: إن الكلمات العشر ألقت جملة مفيدة كاملة تستبعد ذلك ولكن لا تراه مستحيلاً ولكن لو أخبرك أن حروف المطبعة بكمالها تشكلت وكانت عند اختلاطها بالمصادفة كتاباً كاملاً من 500 صحيفة يتضمن قصيدة واحدة تؤلف بمجموعها وحدة كاملة مترابطة منسجمة بألفاظها وأوزانها لا شك أنك في هذه الحالة ترى الاستحاللة بدھیة وواضحة والسبب في رؤية الاستحاللة يعود إلى قانون الصدفة نفسه فإذا علمنا أن نسبة خروج الأرقام العشرة متسلسلة في مسألة الإبر هو 1 إلى العشرة مليارات ولو كانت الإبر 12 لكان احتمال خروجها متتابعة واحد إلى ألف مليار ولو كانت 21 لأصبح حظ المصادفة بنسبة واحد ضد ألف مليار فكيف بالتزاحم الذي يجري بين 500 ألف حرف لتكون 125 ألف كلمة تقريباً بأشكال وترتيبات لا تعد ولا تحصى أبداً إن النتيجة هائلة لدرجة أن نسبة الاحتمالات في حدوث ذلك لا تحيط بها أرقام اللغة ولكي نعرف معنى كلمة 500 ألف وحرف 125 ألف كلمة و 28 حرفاً هجائي لندرس هذا النقل العلمي.

إن البروتينات من المركبات الأساسية في جميع الخلايا الحية وهي تتكون من خمسة عناصر هي: الكربون والهيدروجين والنيتروجين والأوكسجين والكبريت ويبلغ عدد الذرات في الجزيء البروتيني الواحد 40000 ذرة ولما كان عدد العناصر الكيماوية في الطبيعة 92 عنصراً موزعة كلها توزيعاً عشوائياً فإن احتمال اجتماع هذه العناصر الخمسة لكي تكون جزئياً من جزيئات البروتين يمكن حسابه بمعرفة كمية المادة التي ينبغي أن تخلط خطاً مستمراً لكي تؤلف هذا الجزيء ثم لمعرفة طول الفترة الزمنية اللازمة لكي يحدث هذا الاجتماع بين ذرات

الجزيء الواحد وقد قام العالم الرياضي السويسري تشارلز يوجين جاي بحساب هذه العوامل جميعاً فوجد أن الفرصة لا تتهيأ عن طريق المصادفة لتكوين جزيء بروتيني واحد إلا بنسبة 1 إلى 10 أي بنسبة واحد إلى الرقم 10 مضروباً في نفسه 160 مرة وهو رقم لا يمكن النطق به أو التعبير عنه بكلمات وينبغي أن تكون كمية المادة التي تلزم لحدوث هذا التفاعل بالمصادفة بحيث ينتج جزيء واحد أكبر مما يتسع له كل هذا الكون بملايين المرات.

يقول ليكونت دي نوي: يجب أن تتصور حجماً أكبر من الكون الأنشتايني بسكسنيليون سكسنيليون مرة ويطلب تكوين هذا الجزيء على سطح الأرض وحدها عن طريق المصادفة بلايين لا تحصى من السنوات قدرها العالم السويسري بأنها عشرة مضروبة في نفسها 243 مرة من السنيين 10 أس 243 إن البروتينات تتكون من سلاسل طويلة من الأحماض الأمينية فكيف تتألف ذرات هذه الجزيئات إنها إذا تألف بطريقة أخرى غير التي تكون غير صالحة للحياة بل تصير في بعض الأحيان سومما وقد حسب العالم الإنكليزي ج . ب ليتر الطرق التي يمكن أن تتألف بها الذرات في أحد الجزيئات البسيطة من البروتينات فوجد أن عددها يبلغ الملايين 10 أس 48 وعلى ذلك فإنه من المحال عقلاً أن تتألف كل هذه المصادفات لكي تبني جزيئاً بروتيناً واحداً. ولقد ذكرنا هذا النص لنرد مباشرةً على من يقول إن مالاً يحدث في هزة واحدة يمكن أن يحدث في غيرها إلى ملايين الهرات لنبين الزمن الهائل الذي يحتاجه لتكوين جزيء واحد فيه خمسة عناصر مع ملاحظة أن أقصى تقدير لعمر الكون خمسة بلايين سنة خمسة عناصر في جزيء واحد يمكن أن يكون تشكيلاتها 10 أس 48 نوع فكيف بـ 28 حرفاً هجائياً تريد أن تشكل قصيدة مؤلفة من 125 ألف كلمة مجموع حروفها 500 ألف حرفاً بتسلاسل معين بفكر معين بنظم معين وعلى ضوء هذا الذي ذكرناه نذكر كلمات علماء التوحيد المسلمين في هذا الموضوع فإن لها علاقة وثيقة بنظرية الاحتمالات للوصول بالنتهاية إلى المراد. يتحدث علماء التوحيد عن الكون كحدثهم عن كل الممكنات التي يمكن أن تكون ويعددون هذه المungkinات فيقولون:

الم_____ كـ ات المتقابلات
أزمـة أمـة جـهـات
وـجـودـنـا وـالـعـدـمـ الصـفـات
كـذـاـ المـقـادـيرـ روـيـ الثـقـات

إذا كان هذا الكون من الممكنات فكل ممكناً يمكن أن يكون موجوداً ويمكن أن يكون معدوماً ويمكن أن يكون على صفة ويمكن أن يكون على صفات كثيرة لا تعد ويمكن أن يكون في زمان ويمكن أن يكون في أزمنة أخرى ويمكن أن يكون في مكان ويمكن أن يكون في أمكنة أخرى ويمكن أن يكون بمقدار ويمكن أن يكون بمقادير أخرى وبالتالي فكل جزء من أجزاء هذا الكون تطبق عليه هذه المعاني فإذا كان من بين هذه الممكنات كلها يختار دائماً واحد هو الأحكم والأحسن والأكثر نظاماً ولو كان غيره لكان الخلل والفوضى فلا بد إذن من وجود إرادة علياً رجحت أحد وجوه الاحتمال والمكان وبعد هذا كله وقبل أن نصوغ مسألتنا في صياغتها الأخيرة نقول: إن المسألة في موضوع الكون أعتقد بكثير من المثالين اللذين ضربناهم ففي مثل الطفل والإبر أو مثل المطبعة والحرروف. الإبر موجودة بثقوبها بإمكانية الغرز فيها ذراتها متألفة مع بعضها على ترتيب معين من معدن معين. والطفل موجود وعنه إمكانية الرمي وله إرادة تتوجه حتى يرمي وإن كان أعمى. وحرروف المطبعة موجودة وهذا حرف كذا وذلك حرف معين وذراتها مجتمعة حتى تكون هذا الحرف موجودة بجانب بعضها ومصفوفة في صناديقها وهناك شيء اسمه هزة أرضية لها قوانين. أما في موضوع الكون فإن القضية من التعقيد لدرجة لا تستطيع أن تحبط بها عقول البشر كافة مما يجعل الصدفة مستحيلة التصور في حد ذاتها بل الواقع.

ونبدأ الآن في صياغة المسألة: هذا الكون مؤلف من عناصر واحدة: بنجمته وشمسه و مجراته وأرضه يبلغ عدد هذه العناصر أكثر من مئة وهذه العناصر نفسها عبارة عن شحنات كهربائية بعضها موجب والآخر سالب وبعضها معتدل ويسمى الموجب البروتون والسلب إلكترون والمعتدل نيوترون وعدد الإلكترونات في مدار الذرة الخارجي يكون مطابقاً لعدد البروتونات التي في نواتها فإذا كان في نواتها بروتون واحد كان في المدار إلكترون واحد كما في الهيدروجين وإذا كان في النواة بروتونان كان في المدار إلكترونان وهكذا يتدرج العدد واحد من أخف العناصر وزنا ذرياً إلى أثقلها وهو الأورانيوم وبهذا التعادل العجيب بين الإلكترونات السالبة والبروتونات الموجبة تتعادل كهربائية الذرة أما النيوترونات المحايدة فإن عددها في نواة الذرة قل أو كثر لا يتعادل مع عدد الإلكترونات واختلاف العناصر أثر عن اختلاف عدد البروتونات والإلكترونات في ذرة كل منها فالفارق بين الهيدروجين والأورانيوم؛ أن الأول فيه بروتون واحد وإلكترون واحد بينما الأورانيوم فيه 238 بروتون و238 إلكترون والعناصر هذه

التي يتشكل منها الكون كله وهي نفسها موجودة تقريبا في كل جرم فنفس العناصر الموجودة في الأرض موجودة في الشمس وكذلك في كل نجم موجود في هذا الفضاء وإن فكل هذه المجموعة من العناصر تجتمع مع بعضها بكتل عظيمة لتشكل جرما وكل جرم له نفس القوانين التي للأجرام الأخرى وهذه الأجرام كلها لها مداراتها المنظمة لكل مداره الذي لا يصطدم فيه مع أي جرم آخر رغم السرعات الهائلة التي يسير فيها حتى إن احتمال اصطدام نجم مع آخر كاحتمال اصطدام سفينتين في المحيط الهندي والأخرى في المحيط الأطلسي وشمسنا نحن واحدة من هذه الأجرام التي لها نفس خصائصها وقوانينها ويتبع شمسنا كواكب سيارة إحداها الأرض التي نعيش عليها والتي ظهرت فيها الحياة ثم:

1- لو كانت قشرة الأرض أسمك مما هي عليه بمقدار بضع أقدام لامتص ثاني أكسيد الكربون والأكسجين ولما أمكن وجود الحياة.

2- ولو كان الهواء أقل ارتفاعا مما هو عليه فإن بعض الشهب التي تحرق بالملايين كل يوم في الهواء الخارجي كانت تضرب في جميع أجزاء الكرة الأرضية وكان في إمكانها أن تشعل كل شيء قابل للاحتراق.

3- ولو أن شمسنا أعطت نصف إشعاعها الحالي لكنها تجمدنا ولو أنها زادت بمقدار النصف لكنها ربما منذ زمن بعيد.

4- ولو كان قمرنا يبعد عنا 20000 ميلا بدلا من بعده الحالي ولم لا وقمر المريخ يبعد عنه 60000 ميل لكان المد يبلغ من القوة بحيث أن جميع الأرضي تغمر مرتين في اليوم بما متذوق يزيح الجبال نفسها.

5- ولو كان ليانا أطول مما هو عليه الآن عشر مرات لأحرقت شمس الصيف الحارة نباتاتنا في كل نهار وفي الليل يتجمد كل ما نبت على الأرض.

6- ولو كان الأوكسجين بنسبة 50 بالمئة أو أكثر من الهواء بدلًا من 21 بالمئة فإن جميع المواد القابلة للاحتراق في العالم تصبح عرضة للاشتعال لدرجة أن أول شرارة في البرق تصيب شجرة لا بد أن تلتهب الغابة كلها ولو كانت نسبة الأوكسجين 10 بالمئة لتعذر أن يكون التمدن الإنساني على ما هو عليه اليوم.

7- ولو لا المطر لكان الأرض صحراء لا تقوم حياة عليها فولا الرياح والبحار والمحيطات لما كانت حياة ولو لا أن الماء يتبخّر بشكل يخالف تبخّر الملح لما كانت حياة ولو لا أن البخار أخف من الهواء لما كانت الحياة.

8- ولو كانت مياه المحيطات حلوة لتعفنت وتتعذر بعد ذلك الحياة على الأرض حيث إن الملح هو الذي يمنع حصول التعفن والفساد ولو لا أن الكلور يتحد مع الصوديوم لما كان ملح وبالتالي ما كانت حياة.

9- ولو كانت الأرض كعطارد لا يدور إلا وجها واحدا منه نحو الشمس ولا يدور حول محوره إلا مرة واحدة في خلال الدورة الكاملة للشمس أو بتعبير آخر لو كان قسم من الأرض ليلا دائمًا والآخر نهارا دائمًا لما عاش أحد حيث الليل قائم أو النهار دائم ولا كانت حياة.

10- ولو لم تكن قوانين الجاذبية موجودة فمن أين تلتقي الذرات وجزيئات الذرات ومن أين تكون الشمس شمسا والأرض أرضا ولو كانت فمن أين تبقى في مكانها الحالي ولو بقيت فكيف تكون الحياة وكيف يسير الإنسان.

11- وبوجود قانون الجاذبية لو كانت الأرض صغيرة كالقمر أو حتى لو كان قطرها ربع قطرها الحالي لعجزت عن احتفاظها بالغلافين الجوي والمائي اللذين يحيطان بها ولصارت الحرارة بالغاً حد الموت.

12- ولو كانت الإلكترونات ملتصقة بالبروتونات داخل الذرة والذرات ملتصقة ببعضها بحيث تتعدم الفراغات لكان الكره الأرضية بحجم البيضة فأين يمكن أن يكون الإنسان وغيره وعندما تكون المسألة كذلك يتغير كل ما نشاهده الآن على فرض وجود جرم بحجم الأرض بدون فراغات بين جزيئات ذراته.

13- ولو كانت العناصر لا تتحد مع بعضها لما أمكن وجود تراب ولا ماء ولا شجر ولا حيوان ولا نبات إن موافق الإلكترونات في غلاف الذرة أي في المدار الخارجي تتنظم في ترتيب معين فهي لا تزيد عن ثمانية إلكترونات إلا في المدار الأول فإنه لا يتسع لأكثر من إلكترونين فإذا بلغ عدد الإلكترونات في المدار الأخير الثمانية يفتح مدار آخر فمثلاً إذا كان للعنصر أحد عشر إلكتروناً اتخذ اثنان المدار الأول والمدار الثاني يتسع لثمانية فقط فيتخذ الإلكترون المتبقى مداراً ثالثاً وهكذا بحيث لا تزيد إلكترونات المدار الخارجي عن ثمانية علماً بأن بعض المدارات الداخلية تتسع لأكثر من ثمانية إلكترونات واتحاد العناصر بعضها يتماشى على أساس هذا الترتيب ذلك أن اتحاد العناصر يتم بواسطة الاتحاد بين إلكتروناتها فإذا كان عدد الإلكترونات المدار الخارجي للعنصر أقل من ثمانية فإنه يستطيع أن يتحد مع عنصر آخر فالذي في مداره الخارجي سبعة يتحد مع الخارجي إلكترونات أما الذي في مداره الخارجي ثمانية فهو خامل ولا يستقبل إلكتروناً واحداً.

14- ولو لا قوانين الحرارة لما بردت الأرض ولما كانت صالحة للحياة.

15- ولو لا الجبال لتتأثرت الأرض ولما كان لها مثل هذه القشرة الصالحة للحياة.

16- ولو لا أن في الأرض أرزاقها لما استمرت الحياة.

هذه كلها مقدمات للحياة إنها مقدمات أوصلت إلى نتيجة وكل مقدمة من هذه المقدمات لا يمكن أن تكون مصادفة في حساب الاحتمالات إلا بنسبة 1 إلى أرقام خيالية جداً وإننا نرى أن كل مقدمة من مقدمات الحياة في هذا الكون يمكن أن تكون على شكل ملابس الأشكال الأخرى ولكن

واحداً فقط من هذه الممكّنات هو الذي اختبر والمقدمة الثانية يمكن أن تكون على ملابس الاحتمالات. وبتضارف هذه المختارات من بين هذه الممكّنات كلها وجد الجو المناسب للحياة ثم كانت حياة بأنواعها وأجناسها وتعقيداتها فهل يمكن تعليل هذا كله بغير الإرادة التي ترجح وجود ممكّن على ممكّن آخر. إنها الإرادة فقط.

ولنعد مرة أخرى إلى ما قاله علماً علينا من قديم: إن كل شيء في هذا الوجود يمكن أن يكون على صفة ويمكن أن يكون في جهة وأن يكون في جهة أخرى ويمكن أن يكون في مقدار ويمكن أن يكون في مقدار آخر وإرادة الله وحدها هي التي يعلل بها ترجيح أحد وجوه الاحتمال حتى كان هذا الكون على أتم نظام وأكمله وكل شيء فيه على أجمل ترتيب وأروعه

وأخيراً:

إن الذين يقولون بأن حوادث هذا الكون كلها وليدة الصدفة إنما يعطون لهذه المصادفة علماً محيطاً وإرادة كاملة وقدرة مطلقة تعلم وترى وتقدر وهي في كل ذلك تعمل بحكمة أكثر مما لو اجتمعت عقول البشر جميعاً بنسبة ذكاء لا متناهية وإن بداهة العقل تحكم أنه حيث وجدت الإحكام كان العلم والإرادة والقدرة والحياة حيث وجدت هذه الصفات كانت الذات التي تقوم بها هذه الصفات إن القلم الذي تكتب به والذي تشعر أنه أعد خصيصاً لكي تكتب به يد الإنسان ومخزن الحبر الذي أعد فيه لغاية والغطاء والتقب الموجود فيه اللذان أعداً لحكمة والنحافة التي تعلقه بها في جيب سترتك وتجويف إبرة الكتابة وهذا العظم الذي فيها بخطوطه ذات الفائدة هذا القلم الذي فيه هذه الأشياء مجتمعة لو حاول إنسان أن يقنعك بأنه وليد مصادفة وليس وليد علم الإنسان وإرادة الإنسان وقدرة الإنسان وحياة الإنسان وذات الإنسان فإنك لا شك تتحمّله أو تجهله فكيف يخطر ببال أن الإنسان هذه الآلة الضخمة والمعلم العظيم صاحب جهاز الهضم وجهاز الدوران وهذه الشجرة ذات الجذور والأوراق والساقي بنسغها الصاعد والهابط وما يكون فيها من تنفس وتفاعلات وتشكلات وإنتاج زهر وثمر معمل أدق تركيباً من كل ما صنعه عقل الإنسان وعالم الذرة بما فيه من طاقات وتحركات وتركيبيات وما ينتج عنه من تفاعلات وآلاف الأمثلة من أمثال هذا وملابساته كل هذا وليد مصادفات وهل يكون العقل الذي يقول بهذا علماً اتجاه وهو يتحدى كل قواعد العلم

قال تعالى : " قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ " عبس : 17 " أَوْلَمْ يَرَ إِنْسَانٌ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ " يس : 77

الظاهره الثالثة

ظاهره الحياة

إن القصد من دراسة هذه الظواهر هو الإيمان بالله والوصول إلى العلم به بتحكيم قواعد العقل وعندما ندرس ظاهرة ما فإننا نريد دراسة أمهاط القضايا التي تشير إلى الله لأن في كل ظاهرة جوانب لا تعد ولا تحصى تدل على الله إننا نقول هذا لأن بعض الناس يتورّدون لأن التفكير في الكون ودراسة ظواهره بعمق وترتيب المقدمات على النتائج والوصول إلى الحقائق ونبذ الأوهام والقضاء على الخرافات والتمسك بالقانون الذي أوصلت إليه التجربة كل هذه المعاني مما لا يتفق مع الفكر الديني ولئن وجد هذا عند ديانات خاطئة ومذاهب باطلة فلا يصح هذا في الدين الحق ولن يوجد أبداً لأن الحق لا يتعارض مع الحق فإذا كان الدين حقاً فلابد أن يكون كل أصل فيه وكل فرع من فروعه منسجماً تماماً مع الحقيقة التي قام عليها البرهان؛ وإنما نصا واحداً من نصوص الدين يثبت تناقضه مع الحقيقة القاطعة كاف لأن يزعزع الثقة في الدين كله ولما كانت ظاهرة الحياة من الظواهر التي كثُرَ الأخذ والرد حول بعض جوانبها كان لا بد من أن نذكر بعض قواعد التي تتحدث عن بعض حقائق الإسلام حتى لا نقع في التباس مع ملاحظة أن هذه الجوانب ليس لها علاقة مباشرة في موضوع دلالة ظاهرة الحياة على الله فنقول:

1- إن الإسلام فرض على الناس الفكر والبحث وآيات القرآن في هذا المعنى كثيرة: "أَوْلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ" الأعراف : 185 "قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ" يونس : 101 "أَوْلَمْ يَتَقَرَّبُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجْلٌ مُسَمٌّ" الروم : 8

2- إن الإسلام فرض على الناس العلم، والآثار الواردة في الحديث على العلم كثيرة وكذلك الآيات التي تبين أن العالمين بالكون أعرف بالله: "وَمَنْ آتَاهُ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافُ الْسِنَّتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ" الروم : 22 "إِلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا الْوَانُهَا وَمَنْ جَدَّ بِيَضْ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ الْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابُ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفُ الْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ" فاطر : 27-28

3- ومن البديهي بعد هذا أن يقال إن ما وصل إليه الفكر والعلم من حق يفترض على المسلم أن يقول به ولا يقول بخلافه وقد يحدث أن يوجد بعض المسلمين الجاهلين وحتى من ينتسبون إلى العلم يعارضون بعض الحقائق العلمية ولكن في هذه الحالة يبقى رأيهم شخصياً وهم فيه خاطئون ويؤاخذهم على ذلك عامة المسلمين وعلماؤهم ولقد قال الإمام الغزالى في كتابه تهافت الفلاسفة حاملاً على علماء الدين المنكرين للحقائق العلمية كمعرفة وقت الكسوف والخسوف وغيرها: ومن ظن أن المناظرة في إبطال هذا من الدين فقد جنى على الدين وضعف أمره فإن هذه الأمور تقوم عليها براهين هندسية وحسابية لا تبقى معها ريبة فمن يطلع عليها ويتحقق من أدلالها ثم يقال له إن هذا على خلاف الشريعة لم يسترب فيه وإنما يسترب في الشرع. وضرر الشرع من لا ينصره بطريقة أكثر من ضرره من يطعن فيه وهو كما قيل: عدو عاقل خير من صديق جاهل

إنه لمن الوهم أن يظن ظان أن يأمرنا الله عز وجل بالبحث والعلم والنظر والمعرفة ثم يحرم علينا أن نأخذ بنتائج هذا العلم والمعرفة بل العكس هو الصحيح فالأمر بالفكر أمر بالأخذ بنتائج الفكر بالضرورة.

4- ولكن إذا كان المسلم علمي التفكير والاتجاه وهدفه أن يصل إلى الحقيقة العلمية فليس معنى هذا أن يقبل الظن أو الفرضية أو النظرية على أنها حقيقة علمية إن المسلم ينبغي أن يقف أبداً على أرض من صخر في عالم الفكر فالله الذي حرّم علينا أن لا نذعن إلا للحقيقة لم يرض لنا أن نقبل شيئاً دون برهان أو نعتبر الفرضية والنظرية حقيقة فنأخذ بها على أنها مسلمة "ولَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا" الإسراء : 36 "إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَى الظَّنِّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا" النجم : 28 "قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" البقرة : 111

"أَتَوْنِي بِكِتابٍ مِّنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" الأحقاف : 4 "إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَى الظَّنِّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءُهُمْ مِّنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى" النجم : 23

وهذا هو الفارق الكبير بين العقلية الإسلامية والعقلية الأخرى العقلية الإسلامية عقلية مثبتة تماماً لا تقبل شيئاً دون برهان ولا تضع في صف الحقائق إلا ما قام عليه الدليل القاطع وذلك

على عكس العقلية الأخرى التي تشنط أحياناً فتصف ما ليس علمياً بأنه علمي وتؤمن به وكأنه قطعي رغم ضعف البرهان أو إمكانية انها ياره إن العقل المسلم كما يرفض ألا يكون علمياً كذلك يرفض أن يكون: حسرياً أو ظنياً أو متواهماً ومنذ قيام الإسلام كدين تفتح العقل المسلم على الحياة والعلم والتجربة وبدأ في حل الغاز الكون بعقلية ترید أن تعرف كل شيء وتخضع الكون كله للتجربة وتستخرج قوانينه المودعة فيه فقامت الحضارة الإسلامية أزهى ما تكون الحضارة متدرجة نحو علم أكثر وكشوف أكثر.

ومما لا شك فيه تاريخياً أن لصاح الفكر الإسلامي التجريبي هو الذي ولد العقل الغربي التجريبي الذي قام كثمرة من ثماره الحضارة العلمية والصناعة الغربية وإذا حدث في العالم الغربي أن اصطدمت الحقائق التي محسنتها التجربة بالدين الذي كان سائداً هناك فالذنب ذنب الدين المحرف المبدل الذي لا يصمد أمام الحقيقة ولكن هذا الشيء الذي حدث هناك لم يحدث عندنا قديماً أو حديثاً ولا يمكن أن يحدث لأن الحقيقة لا تصادم الحقيقة بل تدعمها والدين الحق دين الله والكون خلق الله ولا يمكن أن يتعارض ما خلق الله مع ما أخبر الله عنه ولذلك كانت ظاهرة من أغرب ما عرف العالم وهي أن النص القرآني وسع في حال تعرضه لقضية كل حقيقة كشف العلم عنها في هذه القضية وسيسع كل حقيقة يمكن كشفها فيها وسنرى في بحث الإعجاز القرآني كثيراً من الآيات التي تدل على هذا المعنى بشكل واضح وصريح مثبتين أن الحق لا يعارض حقاً ولكن هذا لا يعني أبداً أنه كلما قام إنسان فقال قوله أن نحمل القرآن هذا القول أو نتأول القرآن لصالح هذا القول إن القرآن أمنع من أن يكون تابعاً فقد أنزله الله ليتبع لا ليتبع إن القرآن والحقيقة العلمية لا يتناقضان ولذلك فإذا ما ثبتت الحقيقة العلمية ثبتوها كاملاً فهم النص القرآني الذي له علاقة بهذه الحقيقة على مقتضاهما بل في هذه الحالة يكون النص القرآني أسبق لتقريرها وإن غفل عن معناه الحقيقي الناس فروننا نتيجة لقلة معرفتهم في الكون وقد ذكرنا هذه المقدمات لأن دارس ظاهرة الحياة لا بد أن يطالبنا بتوضيح الرأي الصحيح في نظرية التطور كنظريّة تعلل تنوّعات الأحياء وظهور الإنسان وإليك ما نقوله في هذا الموضوع:

1- إن القول بأن إنساننا الحالي الذي أتى من أب واحد وأم واحدة كان متقدراً من قرد خطأ لا شك فيه ولا ريب نقول هذا بلغة العلم ولغة القرآن ولا يتناقضان أما بلغة القرآن فلان الله يقول: "إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمِثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ" آل عمران : 59 "وبدأ

خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ طِينٍ السجدة : 7 ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ قَبْضَتِهِ مِنْ جُمِيعِ الْأَرْضِ فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الْأَرْضِ فَجَاءَ مِنْهُمْ الْأَحْمَرُ وَالْأَبْيَضُ وَالْأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ وَالسَّهْلُ وَالْحَزْنُ وَالْخَبِيثُ وَالْطَّيْبُ ". رواه الترمذى (2955) وأبو داود (4693).

وقال عليه الصلاة والسلام: "لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ ، وَنَفَخَ فِيهِ الرُّوحُ عَطْسًا ، قَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ . فَحَمَدَ اللَّهُ بِإِذْنِهِ ، قَالَ لِهِ رَبِّهِ : يَرْحَمُكَ اللَّهُ يَا آدَمَ ! اذْهَبْ إِلَى أُولَئِكَ الْمَلَائِكَةِ – إِلَى مَلَأْ مِنْهُمْ جَلْوَسًا – فَقُلْ : السَّلَامُ عَلَيْكُمْ . قَالُوا : وَعَلَيْكُمُ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ . ثُمَّ رَجَعَ إِلَى رَبِّهِ . قَالَ : إِنَّ هَذِهِ تَحْيَيْنِكَ وَتَحْيِيْنِكَ بْنَيْكَ بَيْنَهُمْ " [الترمذى (3368)]

وَأَمَّا بِلْغَةِ الْعِلْمِ:

1- إن التاريخ كله كل سفر فيه وكل أثر من آثاره وكل رواية يتناقلها الأبناء عن الآباء تذكر أن أبا البشر آدم

2- الفوارق الكبيرة بين الإنسان والقرد أو أي حيوان آخر تثبت أنه لا صلة تواليدية بين الإنسان الحالي وأي حيوان هذه الفوارق التي تبدأ من الناحية الجسمية وتنتهي عند (الأخلاق) وبين ذلك الفكر والعلم والإرادة ... إلخ.

وهذه القضية هي التي جعلت حتى بعض أنصار داروين كوالدنس يقول إن الارتفاع بالانتخاب الطبيعي لا يصدق على الإنسان ولا بد من القول بخلقه رأسا وقال فرخو: إنه يتبيّن لنا من الواقع أن بين الإنسان والقرد فرقاً بعيداً فلا يمكننا أن نحكم بأن الإنسان من سلالة قرد أو غيره من البهائم ولا يحسن أن تتقوه بذلك

3- إن اكتشاف الكروموسومات الصبغيات وهي العامل في انتقال الصفات الوراثية جعلت العلماء يترضون بادعاء أن الإنسان منحدر من قرد إذ الكروموسومات في الشمبانزي 48 وفي الإنسان 46 وذلك أن هذه العرى الملونة لها عدد ثابت في كل نوع من إنسان أو حيوان حيث بها يختلف النوع ويتميز الجنس وإذا كان العلم والقرآن يقولان بما أسلفنا فلا كلام لغيرهما بل ولو شاك العلم وقال القرآن لما كان عاقل إلا مع القرآن وذلك لأن الله الذي خلق الإنسان

أعلم به كيف خلق قال تعالى: "مَا أَشْهَدُتُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ" الكهف :

51

أما فيما يتعلق بأنواع الحياة الأخرى فالذي يبدو أن العلماء الذين أيدوا داروين ليسوا أكثر من العلماء الذين عارضوه وب مجرد أن تكون القضية فيها أخذ ورد بين العلماء تبقى في حدود النظريات ولا ترقى إلى المستوى العلمي المتين وإليك بعض أقوال العلماء الاختصاصيين في هذا الموضوع والذي قبله يقول ولتر أدوار لامبرتس أخصائي علم الوراثة وقد اتضح لي كثير من الحقائق فعلم الوراثة مثلا لم يقدم لنا دليلا على صحة الفرضيات الأساسية اللذين أقام عليهما تشارلز داروين نظريته في نشأة الأنواع وهما:

1- أن العضويات الصغيرة في كل جيل من الأجيال تتزعز دائمًا إلى أن تختلف اختلافات

طفيفة عن آبائها في جميع الاتجاهات الممكنة

2- أن التغيرات المفيدة تورث في الأجيال الأخرى وتتراكم نتائجها حتى ينتج عنها تغيرات جسمية و الواقع أن أقصى ما يمكن أن يتم من التغيرات في النباتات والحيوانات يمكن أن يتحقق سريعا عن طريق الانتقاء والتربية ويؤدي التلقيح الذاتي في النباتات أو زواج الأقارب في الحيوانات إلى إنتاج أفراد ضعيفة إلى حد كبير ولا تغير في جميع الاتجاهات كما ذكر داروين إلا عندما تصيبها بعض الطفرات وهي قليلة الحدوث.

وتعتبر هذه الطفرات على قلتها الأساس المادي الذي يبني عليه علماء التطور تفسيرهم لظاهرة التطور ولكن هل يمكن أن تكون الطفرات حقيقة وسيلة التطور إن الدراسة الطويلة المتصلة بهذه الطفرات في كثير من الكائنات ؟ وبخاصة في ذباب الفاكهة المسماة دروسو فيلاميلانوجستر تدل على أن الغالبية العظمى من الطفرات تكون من النوع المميت أما الأنواع غير المميتة منها فإن التغيرات المصاحبة لها تكون من النوع الذي يؤدي إلى التشوه أو على الأقل من النوع المتعادل الذي يحدث تأثيرات فسيولوجية تضعف من قوة الفرد فمن الصعب إذن أن يؤدي تجمع هذه الطفرات الوراثية إلى التغيرات اللازمة لنشأة أنواع جديدة تعتبر أكثر تقدما ورقيا من أسلافها وقد تؤدي الطفرة في بعض الحالات النادرة إلى تحسين صفة من الصفات كما يحدث في جناح الدروسوفيلا ولكن اجتماع هذه الصفة مع بعض الصفات الأخرى

التي تطأ على الجناح يؤدي إلى تكون حشرات أقصر عمرًا وأقل قدرة على الحياة ولنسلم جدلاً بحدوث طفرات نادرة تصبّها تحسينات تبلغ 1 بالمائة فكم تحتاج مثل هذه الطفرات من الأجيال لكي تترافق ويفتهر أثرها وينتج عنها نوع جديد. لقد وضح باتو في كتابه التحاليل الرياضي لنظرية التطور أن تعميم صفة من الصفات عن طريق الطفرة في سلالة من السلالات لا يمكن أن يستغرق أقل من مليون جيل من الأجيال المتتابعة وحتى لو سلمنا بقدم الأحقاب الجيولوجية كما يقدرها الجيولوجيون فمن الصعب أن نتصور كيف أن حيواناً حديثاً نسبياً مثل الحصان قد نشأ من سلفه الذي كان عدد الأصابع في قدمه خمساً في الفترة من العصر الحجري حتى الآن ويقول ليكونت دي نوي: إن الكلمة حلقة الكلمة ذات أهمية كبيرة في تاريخ الكائنات الحية إذ لا يمكن إثبات أن شكل ما من الكائنات يشكل حلقة حقيقة وقد يكون ذلك ممكناً في بعض الحالات ولكنه ليس مؤكداً

وعلى أي حال يمكننا أن نقول: إنه ليس هناك شكل يعيش حالياً وهو سلف مباشر لشكل آخر فالإنسان لم ينحدر عن القرد أما بين المستحاثات فإن كثيراً من الأشكال التي تدعى أشكالاً وسطية ليست سوى محاولات غير ناجحة للتكييف وقد تكون معاصرة أو سابقة أو تالية للأشكال الانتقالية الحقيقة (١ . ٥)

3- وإن الحلقة التي يقدمها بعضهم كأهم حلقة متكاملة من حلقات التطور هي حلقة روابط التسلسل عند الحصان إذ قدموا ستة أشكال وسطية تبتدئ من الهيرا كوثيريوم والايوهيبوس من العصر الإيوسيني منذ حوالي 50 مليون سنة وتنتهي بالحصان الحالي ولكن هذه الأشكال الوسطية تبدو وكأنها ظهرت فجأة وحتى الآن لم يتمكن من معرفة الجسر الذي يربط بين هذه الأشكال الوسطية بسبب نقص المستحاثات ولكن حتى في حالة ثبوت هذا؛ فليس في ذلك دليل على ما ذهب إليه دوارين إذ أن الحصان بقي حساناً والمراد أن يؤتى بالدليل على أن الحصان أصبح جمالاً

ويقول ليكونت دي نوي كذلك: منذ البداية تلاحظ وجود روابط وفروق أساسية بين الحيوان والنبات فالسائل المغذي في الحيوانات هو الدم ودم الحيوانات العالية يحتوي على مادة أساسية هي عبارة عن صباغ أحمر يدعى بالهيموغلوبين كبيرة جداً ومعقدة للغاية ويختلف تركيبها بين

حيوان وآخر والوزن الذري الأدنى 69000 يقارب الهيموغلوبين في تركيبه الكيميائي ذلك الصباغ الموجود في النباتات والأشبنات والذي يدعى باليخضور يحتوي على جوهر من المغنزيوم ومما يزيد في تعقيد المسألة أن الدم في بعض مفصليات الأرجل والركوبات والحيوانات الدنيا يحتوي على صباغ مختلف وزنه الذري تبعاً لأنواع بين 400000 ، 6700000 ويحتوي على جوهر من النحاس بدلاً من الحديد والمغنزيوم بعض أنواع الحلزون مثلاً فكيف تم الانتقال الكيميائي من صباغ لآخر يجب أن نعترف بصرامة أنه من المستحيل بيان ذلك إن بعض الأشبنات الزرقاء تحتوي على العنكوسbanin بينما الأشبنات الخضراء تحتوي على الكلورو فيل ولا أحد يستطيع أن يثبت أن الأشبنات الخضراء اشتقت من الأشبنات الزرقاء لأن الفرق بين الاثنين كبير جداً وليس هناك شيء يستطيع أن يعلل هذا الانتقال لأن البيئة التي يوجد فيها النوعان مشتركة فلا يعلل الانتقال بتغير بيئه لندع جانباً إغراء القول: بأن أشياء كثيرة قد تحدث خلال 100 مليون سنة فإذا لم يحدث شيء في سنة واحدة فليس هناك ما يدعو بضرب ما يحصل بمليون أو 100 مليون مرة لأن نقول بأن شيئاً سيحدث في نهاية الزمن فيجب أن تتوفر دائماً نقطة أو عدة نقاط بداء منها كانت صغيرة لتصبح المسألة ممكناً. لقد نقلنا هذه الأقوال ؟ لنبرهن على أن نظرية التطور ليست إلا من قبل الفرضيات التي لم يقم عليها برهان ولو لا أن الصهيونية العالمية والشيوعية العالمية كل واحدة منها تتبايناً لهوى في النفس كاملاً ؛ لنُقْضَّـ من زمان نتيجة للحملات العلمية المركزية التي قام بها آلاف من العلماء عليها.

إن بروتوكولات حكماء صهيون تذكر أنها هي التي مهدت لنجاح داروين وقصدها من ذلك تحطيم الأديان في نفوس البشر غير اليهود والشيوعية تتمسك بها كتمسك لا بد منه ولو باطلاً لإثبات المادية الجدلية أما موقفنا نحن المسلمين من هذه القضية فهو الذي ذكرنا سابقاً كموقفنا تماماً من كل شيء ما قام عليه البرهان قبلناه وإنما توافقنا فيه إذا كان النص القرآني محتملاً أما إذا جزم النص القرآني وشك العلم فنحن مع النص جزماً لقد أمرنا الله أن نبحث عن نشأة الحياة:

"**قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ**" العنكبوت : 20 وقال تعالى : "أَوْلَمْ يَرَوْا كَيْفَ بُيْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُه" العنكبوت : 19 ولقد أمرنا أن ننظر كيف وجدت الأحياء: "أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْبَلِيلِ كَيْفَ خُلِقَتْ" الغاشية : 17 والله وحده له العلم الشامل للمحيط قال أي

فرعون: "فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى" طه : 51 قال: أي موسى: "عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ
رَبِّي وَلَا يَنْسَى" طه : 52

فما أخبرنا عنه منه ذلك لا يكون غيره حقا ولا يكشف العلم عن سواه وقد ذكرنا ما قال في هذه القضية والآن نبدأ في دراسة ظاهرة الحياة لرؤيه قدرة الله فيها وهو المقوود من هذه الدراسة فنقول: إن ظاهرة الحياة تدل على الله من أربعة جوانب رئيسية:

- 1 نشأتها
- 2 تنويعها
- 3 الإنسان
- 4 الأخلاق

كل جانب من جوانب هذه المعاني يدل على الله دلالة كاملة ورغم كل المحاولات التي بذلت لإثبات أن هذه المعاني يمكن أن تكون دون أن يكون الله خالقها فإن الحقيقة بقيت سافرة دائماً أن الله هو الخالق.

نشأة الحياة وتتنوعها

إن الملحدين يقولون: إن الحياة بدأت خلية بسيطة أو مجموعة خلايا ثم بدأ التكاثر يعمل عمله والتطور يعمل عمله حتى وصلت الحياة إلى ما وصلت إليه الآن ولكن هل لهم على هذا من برهان إن أكبر برهان لو كان هو أن يصنعوا الحياة خاصة والعناصر التي تتركب منها الأحياء معروفة ونسبها معروفة وأجهزتها معروفة وكل شيء فيها معروف وكل شرط تحتاجه الحياة يمكن أن يتتوفر في المصنع فمهما كانت الظروف الأولى التي ولدت فيها الحياة فبالإمكان أن نقدرها ونوجد ظروفًا مثلها ولكن حتى لو حصل هذا أقول الذي صنعها: إنها وجدت من غير شيء أم يقول: إنها وجدت بعلم الإنسان وإرادة الإنسان وقدرة الإنسان؟

إن الله عز وجل يتحدى الذين يؤمنون بغيره إليها مهما كان نوع هذا الإله: طبيعة كان أو إنساناً أو صنماً أن يخلق هذا الإله المزعوم ذبابة قال تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلِبُوهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَقْذِرُهُ مِنْهُ ضَعْفُ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبُ" الحج : 73 "مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ" الحج : 74 وقد سار

الإنسان في الطريق ليجرب حظه في هذا التحدي لا ليصنع ذبابا بل ليصنع ما هو أقل من الذباب فماذا كانت النتيجة لقد كانت كما يلي:

حاولت روسيا أن تبرهن على إمكانية نشأة الحياة كيماويا وذلك في زعمها كدليل ثبت به مذهبها الإلحادي وكان أن كلفت بهذا الموضوع أوبارين رئيس المعهد الكيميائي في الاتحاد السوفيتي وطلبت منه أن يتفرغ للبحث في أمر واحد وهو مدى إمكانية إيجاد الحياة عن طريق التفاعل الكيميائي وبعد عمل متواصل قارب عشرين عاما أعلن حوالي سنة 1959 عن انتهائه من دراسة هذا البحث وأعلن عن النتيجة التي توصل إليها في تقرير رسمي أذاعته جميع وكالات الأنباء في العالم إذ ذاك وهي أن العلم الكيميائي عاجز عن إيجاد الحياة في المختبر والعلم لا شأن له إلا بالمادة المحسوسة وبدلا من أن يعترف أن الله هو خالق هذا الكون أجاب على سؤال كانت صيغته: هل التفاعل الكيميائي في المادة قادر على بث الحياة كما انبثت الحياة الأولى منذ ملايين السنين وعلى الصورة التي ادعاهما أرنست هيكل إن هذا ممكن ولكن في كواكب أخرى غير كوكبنا هذا وهذا تهرب واضح من السؤال حتى لا يخرج وإن لم نستطع صناعة الحياة وكل شيء متوفرا

والواقع أن عامة الذين لا يؤمنون بالله يتهربون من هذا الموضوع بمثل هذه الادعاءات إن الحياة قد جاءت من بعض الكواكب في شكل جرثومة اسللت دون أن يصيبيها تلف وبعد أن بقيت زمانا غير محدود في الفضاء استقرت على الأرض ومن ثم تسللت الحياة عن تلك الجرثومة أو يقولون: إنها وصلتنا عن طريق نيزك أصاب أرضنا مثل هذا الكلام عدا عن كونه لا يفسر لنا علميا تبعا لقوانين الوراثة ما نجده من أحياط فهو غير معقول كذلك إذ كيف استطاعت هذه الجرثومة أن تبقى حية في درجة الصفر المطلق في الفضاء وإذا استطاعت هذه الجرثومة البقاء رغم ذلك فكيف نجت من الإشعاع الكثيف ذي الموجة القصيرة الذي يقتل أمثالها وإذا بقيت حية رغم ذلك فكيف وجدت لنفسها المكان الملائم وكيف وجد هذا الاتفاق المدهش في الظروف حتى توالت فبدأت الحياة وكم من السنين استغرقت هذه الرحلة حتى وصلت وفي الحالة الثانية حالة النيزك كيف سلمت رغم الاشتغال الذي يحدث عندما يصطدم نيزك في جو الهواء وإذا سلمنا بإمكان هذا كله يبقى سؤالنا دون جواب كيف بدأت الحياة على ذلك الكوكب الأول

إن الخلية الواحدة على بساطتها ينبغي أن تقوم بجميع وظائف الحياة من تغذية وتنفس وطرح حرارة معينة ونمو وتكاثر وانقسام وحركة وتأثير وإفراز وتلاؤم مع البيئة ولذلك فإن الخلية من التعقيد بحيث لا تقل أبداً عن أي كائن حي آخر ومن نوادر الاعترافات العلمية قول بخنز الذي يعتبر من أشد المؤيدين لمذهب الشوء ومن أكثر الماديين غلواً ومن الذي اتهموا داروين بأنه كان مصانعاً لرجال الدين:

إن البت في أمر التولد الذاتي للكرينة الأولى التي نشأ عنها الأصل الأول غير متيسر لأن الأحوال المناسبة لتولد الكريات الأولى تولدا ذاتيا غير معروفة والكرينة ذاتها على بساطتها ذات بناء وتركيب يمتنع معه صدورها من الجمامد مباشرة بل إن ظهورها من الجمامد في نظر العلم معجزة ليست أقل بعدها عن العقل من ظهور الأحياء العليا من الجمامد رأساً بيلوح أحيانا للعلماء بصيص من أمل، فيجتمع بالكثير منهم الخيال، هانحن قد كدنا نصنع الحياة؛ ثم لا يجدون إلا السراب، ومن آخر ما سمعناه في ذلك قولهم يوم اكتشفوا حمض الــDi إن إيه: إن سر الحياة أصبح بأيدينا. ولكن بعد الضجة الكبيرة، كان الجواب القاطع أن الحياة من صنع الله وإليك القصة كاملة:

إن بعض أمراض التبغ تتولد من حمات مركبة من هيلولينات نووية. تقاوم مبيدات الجراثيم وتنصف بخواص تمكناها من التكاثر والتمثيل، وقد تأكّدت في السنوات الأخيرة حقيقة جديدة، لأنّ وهي أن هذه الحمات ليست إلا حموضاً نووية خالصة تحيط بها مادة هيلوليونية وأنّ الحمض النووي المكون لها هو أحد نوعين إما دى أن إي أو آر إن إي وقد أمكن الآن معرفة بنية كل من هذين الحمضين معرفة تامة، رغم تركيبها المعقد جداً وذلك بفضل استخدام الأشعة فوق البنفسجية والمجهر الإلكتروني ووسائل كيماوية كثيرة أخرى وتبين أن هذا الحمض يتّألف من ثلاثة عناصر رئيسية تؤلّف وحدة صغيرة تسلسل وتتكرّر بشكل شريط أو سلسلة طويلة، وتقابـل تلك السلسلة سلسلة أخرى مثـلها، تصطـف أمامها وتلتـف إـداحـما حول الأخرى بـشكل حلـزـوني ، ويرـبط بين السـلسـلينـ بمـسـافـاتـ مـتسـاوـيـةـ الأـبعـادـ، رـوابـطـ هيـدـروـجيـنـيـةـ تـجـعـلـ شـكـلـهاـ النـهـائـيـ كـشـكـلـ سـلـمـ لـوـلـبـيـ أوـ درـجـ مـئـذـنةـ. وأـوـضـحـ العـالـمـانـ وـاطـسـونـ وـكـريـكـ أـنـ عـدـ دـورـاتـ الشـرـيـطـيـنـ سـلـمـ لـوـلـبـيـ أوـ درـجـ مـئـذـنةـ. وأـوـضـحـ العـالـمـانـ وـاطـسـونـ وـكـريـكـ أـنـ عـدـ دـورـاتـ الشـرـيـطـيـنـ الـحلـزوـنـيـنـ فـيـ الـحـمـضـ يـزـيدـ عـنـ أـلـفـ دـورـةـ ، وـأـنـ طـولـ الشـرـيـطـيـنـ أـوـ طـولـ الـحـمـضـ لـاـ يـتـجاـوزـ

30 انغستروا. ولقد قدر أحد العلماء أننا لو بسطنا الشريطين الحزونين ووصلنا نهاية أحدهما بنهاية الآخر ، لكان طولهما خارج النواة مترا ونصف المتر ولكي ندرك تعقيد هذا الحمض نذكر الوزن الذري لأحد نوعيه أرن إي وهو 1 فاصلة 5 ضرب 10 أس 6 ومع ذلك اكتشف الحمض واستطاع العالم اوشوا من اصطناعه وأخذ على ذلك جائزة نوبل لقد صيغ هذا الحمض وببلور فكان من ذلك حمض لا قدرة له على التكاثر هو مثل الحمض دي إن إي الذي وجد التبغ والحمات، كانت صيغة الحمضين واحدة ولكن الفرق بينهما عظيم جدا وهو الفرق بين الحياة والموت هو الفرق بين الصنم العديم الروح والجسد الحي الآهل بالروح وبعد هذه هي النتيجة: إن المادة لا تعقل حتى القوانين التي تطبق عليها فالذرات إنما تطيع قواعد الألفة الكيماوية وقانون الجاذبية وتأثير درجة الحرارة أما الحياة فهي ذلك السر العجيب الذي لا ندري من كنهه شيئاً سوى آثاره قال تعالى: "ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيت من العلم إلا قليلا".

يقول ليتز: (إن كل خلية من البروتين تتتألف من سلسلة فيها بعض مئات من الحلقات وإن كل حلقة فيها هي تركيبة من ذرات قوامها حمض من الأحماض النشادية وهي أحماض يبلغ المعروف منها نحو العشرين ويجوز أن يقع كل منها موقعه على اختلاف في النسبة والترتيب، ولكننا لا نراها في بعض الأنسجة إلا على ترتيب واحد ونسبة واحدة بغير شذوذ ولا اختلاف فهل نستطيع أن نتخيل مبلغ الدقة في هذه الإصابة بين احتمالات الخطأ التي لا تحصيها أرقامنا المألفة يكفي لتقريب هذه الدقة من الخيال أن نذكر أن الحروف الأبجدية في لغات البشر كافة لا تتجاوز الثلاثين ويتألف من تركيبتها المتغيرة كل ما تلفظ به الأمم من الكلمات والعبارات فإذا كانت خلية البروتين في حجمها الخفي قابلة لأضعاف هذا التكرار ثم لا تشاهد فيها إلا كلمة واحدة في ترتيب واحد لا يتغير فقد عرفنا على التقرير معنى تلك الإصابة في التوفيق والتركيب.

لتقرير هذا الخيال نقول: إن الضوء يصل من طرف المجرة إلى الطرف الآخر في ثلاثة ألف سنة؛ فإذا أردنا أن نشبه إصابة الخلية في تركيبها بمثل مفهوم، فهذه الإصابة تضارع إصابة الرصاصة التي تنطلق من الأرض فتصيب هدفا في نهر المجرة بحجم عين الثور ولا تخطئه مرة من المرات، وهذا على فرض أن حلقات الخلية خمسون فقط وليس بضع مئات

ولكن البروتين ليس هو كل شيء، بل هو جزء من خلية والخلية جزء من عضو والعضو جزء من جهاز، والجهاز جزء من جسد والجسد كله من بروتيناته إلى خلاياه إلى أعضائه، إلى أجهزته، متداخل تدخلاً هائلاً، ومنسجم انسجاماً تاماً ومتفاعل مع بعضه تفاعلاً تاماً.

والجسم الحي الذي تتكرر فيه هذه المعجزات كل لحظة من لحظاته، لا تزال فيه بقية العجب لعلها أعجب من كل ما تخيلناه، وهي أن هذه الذرات الخفية تجتمع وتتفرق وتلتئم وتتفصل على نحو يضمن لها التجدد، أو يضمن الدوام للحياة. فيتتألف كل حي من جنسين، وترجع من كل منها خلية واحدة يتكون منها حي جديد وتنقسم هاتان الخليتان تارة أزواجاً وتارة أخرى فرادى، على الوضع المطلوب في المرحلة المطلوبة، ويتفرق عددها في كل نوع من الأنواع الحية بغير زيادة ولا نقصان، وينطبع كل حي على عادات وغرائز تسوقه إلى التناслед في موعد المقدر، فيبني العش قبل أن ينسل إن كان من الطيور. ويفارق الماء الملح إلى مداخل الأنهر أو الخلجان قبل أن ينسل إن كان من سمك البحر. ويمتلئ إلى شريكه في التوليد قبل موعد التوليد على اختلاف الأنواع والأجناس)

إن التعقيد الهائل في ظاهرة الحياة، والانسجام الهائل فيها، ووضع كل شيء في محله إنما يدل دلالة واضحة على علم وإرادة وقدرة وراءها؛ بشكل غريب عند الأمي، وعلمي مقنع عند العليم.

أن تنشئ المادة لنفسها أسماعاً وأبصاراً وأفئدة. إن هذا ليس من حالات المادة التي يقبلها العقل بغير تفسير، وكل ما قيل في نفي العجب من تركيب الجسم الحي – لأننا نرى الآلات المادية تعمل بنظام، وتوزع العمل فيها لمقصد معلوم، وهدف معلوم – هو العجب . فالعجب في هذا التشابه بين الآلات والأجسام الحية ، لأن الآلات لا تنشأ بغير صانع، ولا يغنينا تعليل أعمالها بقوانين الحرارة والحركة عن تجاوز القوانين إلى إرادة المهندس المسخر لهذه القوانين وقد كان الناس ينظرون بالعين المجردة إلى أعضاء الجسم الحي ؛ فيعجبون وسعهم العجب لدقتها، وتساند أجزائها، وتعاون وظائفها ، وسريان عوامل النمو فيها بمقاديره الضرورية، على حسب السن والنوع والفصيلة. سواء في جسم الإنسان أو جسم الحيوان، أو جسم الحشرة، أو جسم النبات؛ فأحرى بهم أن يعجبوا أضعاف ذلك العجب بعد أن عرفوا بالمجاهر والتحليلات مما تتتألف تلك الأعضاء، وعلى أي نحو تساند تلك الوظائف، وتبيّن لهم أن هذه الأعضاء البارزة للعيان مجموعة من ذرات لا ترى الألوف منها بالعين المجردة وأن كل ذرة منها تقع في

موقعها من الجسم وتعاون بقية الذرات فيه، كأنها على علم بها وبما تطلبه، ولا تضل واحدة منها عن طريقها لمرض أو عجز طرأ عليها، إلا تكفل سائرها بإصلاح خطئها وتقويم ضلالها. وفي الأرض بلايين البلايين من الأحياء؛ وفي كل واحد منها من العجب مالا ينفسي و هناك مثلاً يبين لك كثرتها، يقول لسترون زمرمان إخصائي التربة: (أما التربة المنتجة الخصبية فهي تربة حية، يعيش بها عدد لا يحصى من الكائنات الدقيقة، من حيوان ونبات، وقد تصل نسبة الكائنات الحية التي تعيش بهذه التربة الخصبية إلى ما يقرب من 20 بالمائة من المادة العضوية التي بها، وقد يصل عدد هذه الكائنات الحية إلى بضعة بلايين في الجرام الواحد من التربة)

هذه البلايين الهائلة من الأحياء تنقسم إلى آلاف من الأجناس والأنواع، كل جنس وكل نوع له خصائصه، ومزاياه، وشكله، وصورته، وطرق تغذيته، وطرق حياته، وكل فرد من أفراد كل جنس فيه خصائص الجنس وكل تعقيدات الحياة قال تعالى: "وَمَا مِنْ دَبَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَّمٌ أَمْتَلُكُمْ" الأنعام : 38

ولكل رزقه، وغذاؤه ، وغريزته التي يبحث فيها عن الرزق، وأجهزته التي يهضم بها رزقه قال تعالى: "وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَبَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ" النور : 45 "وَبَثَ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَبَّةٍ" لقمان : 10

إن المنطق الواحد المعقول، أن الله الحي هو وحده خالق الحياة قال تعالى: "وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ" أمواات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون النحل : 21-20 ولا يستويان في منطق العقل قال تعالى: "أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ" النحل : 17 ولا يستويان كذلك عقليا: إنسان نسب الحياة إلى المصادفة ، وآخر ينسبها إلى الله قال تعالى: "وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسَانَ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبَصِّرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بِل் هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ" الأعراف : 179

وتأمل بعد هذا في هذه القصة، قصة أصغر مخلوق وأبسط مخلوق؛ لترى أن وراء سر الحياة الله، ابتداء وانتهاء، نشأة وأنواعا. هذا المخلوق هو الأمبيا: (عندما نذهب إلى المعمل، ونفحص

قطرة من ماء المستقوع تحت المجهر لكي نشاهد سكانها، فإننا نرى إحدى عجائب هذا الكون: فتل� الأمبيا تتحرك في بطء وتتجه نحو كائن صغير فتحوطه بجسمها، فإذا به دخلها، وإذا به يتم هضمها وتمثيله داخل جسمها الرقيق. بل إننا نستطيع أن نرى فضلاته تخرج من جسم الأمبيا قبل أن نرفع أعيننا عن المجهر.

فإذا ما لاحظنا هذا الحيوان فترة أطول، فإننا نشاهد كيف ينشطر جسمه شطرين، ثم ينمو كل من هذين الشطرين ليكون حيواناً جديداً كاملاً. (وقالوا: إن انقسام الخلية لا يتم إلا إذا لامستها خلية أخرى؛ إذن هنا عملية زواج بين ذكر وأنثى) تلك خلية واحدة تقوم بجميع وظائف الحياة التي تحتاج الكائنات الكبيرة الأخرى في أدائها إلىآلاف الخلايا أو ملايينها. ولا شك أن صناعة هذا الحيوان العجيب الذي بلغ من الصغر حد النهاية تحتاج إلى أكثر من المصادفة، مع ملاحظة أنه موجود في كل مكان في العالم، وهو الآن على ما كان عليه من أول ما وجد وإذا دققت في هذا الحيوان البسيط، تجد داخله الجبلة البروتوبلازم ذات التركيب المائي، والحيوية الفياضة، مركز الحركة والحياة في جميع الكائنات الحية، يتحرك حركة عجيبة.

فالأمبيا لا تسبح في الماء ولا تطفو على سطح قطرة الماء أو تتدفع في جوفها ولكنها تتحرك كما لو كانت تتسلك أو تسهل. أما جسم الأمبيا فهو كتلة عارية من البروتوبلازم، وهو يختلف عن الخلية النباتية، في أنه لا يحيط به من الخارج جدار صلب، بل مجرد غشاء رقيق يحدد جسمه، وكلما تحركت الجبلة البروتوبلازم في اتجاه من الاتجاهات، أطاعه ذلك الغشاء، وتحرك معه في نفس الاتجاه وبذلك يتغير شكل الحيوان ، وت تكون له زوائد لا تثبت أن يتغير شكلها بعد قليل وبهذه الطريقة يتحرك الحيوان، مستعيناً بهذه الزوائد التي تشبه الأقدام، والتي تسمى بسبب ذلك الأقدام الكاذبة؛ ومن الممكن استخدام القوة المكرونة العظمى في المجهر لمشاهدة الحشوة السيتوبلازم عند اندفاعه في الأقدام الكاذبة، ولكي تشاهد أن جسم الحيوان يتكون من طبقتين من الجبلة البروتوبلازم تختلفان في كثافتيهما، أما إحداهما فهي كتلة شفافة مائية دائمة الحركة، وأما الأخرى فهي كتلة هلامية نصف صلبة تحيط بالطبقة السابقة إحاطة تامة.

كيف تتحرك الأمبيا؟ ماهي الأسباب التي تقوم بعمليات التغذية؟ أجوبة كثيرة تبقى غير كافية، مؤثرات كثيرة تؤثر على حركة الجبلة داخل الخلايا، ولكنها مجرد مؤثرات سطحية بسيطة، لا تستطيع أن تبين لنا لماذا تبقى حركة الجبلة دائمة لا تقطع، حتى عندما يزول أثر هذه

المؤثرات. ومعنى ذلك أن جانباً على الأقل من أسباب هذه الظاهرة يرجع إلى الجبلة ذاته. فمن الحال إذن أن نفس ظواهر الحياة على أنها مجرد استجابات لبعض المؤثرات الخارجية وبهذه المناسبة نحن نعلم أنه عندما تتشطر خلية حية إلى نصفين، بطريقة الترشيح الدقيق، بحيث تكون النواة في أحد القسمين دون الآخر، فإن القسم الحالي من النواة يموت بعد قليل.

وقد أخفقت جميع الجهود التي بذلت للاحتفاظ به حياً، وعلى ذلك فإن النواة هي التي تنظم العمليات الحيوية في الخلية وتسيطر عليها، فإذا زال هذا الإشراف توقفت الحياة وهكذا في الخلية التي تشكل أبسط حيوان، ترى قدرة الله كما نراها في أعقد الأحياء قال تعالى: "أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلِقُونَ" الأعراف : 191 إن الكون مخلوق لا خالق ، ومن أعطى الكون أو الطبيعة صفة الخلق، فقد أشرك بالله جهلاً وسفاهة فنشأة الحياة لا تعلل إلا بالله، ووجود الأنواع والأجناس لا يعلل إلا بالله. وما في الأحياء من عجب لا يعلل إلا بالله، وكل جزئية من هذا كله آية على الله.

الإنسان والأخلاق

الإنسان أكمل ما خلق الله، لذلك كان من أبدع ما يعرف الله به ولذلك فيقدر ما يعرف الإنسان نفسه يعرف ربه، وبقدر ما يجهل نفسه يجهل ربه، لذلك كانت الحكمة التي تقول: (من عرف نفسه عرف ربه) من أصدق الكلم التي صاغها عقل الإنسان وأهم شيء في الإنسان، صفاته الأساسية التي لا يمكن تعليلها إلا بأنها قبس من أمر الله ثم أخلاق الإنسان، والصفات الأساسية للإنسان: العلم، والإرادة، والقدرة.

إن المادة لا تعرف نفسها ولا تعقل قوانينها، والمادة لا يمكن أن يكون لها خيار وقدرتها قدرة محدودة بإطار، أما الإنسان فيعلم ويريد تبعاً لهذا العلم، وقدرته تتغذى على ضوء هذه الإرادة. إن استعداد الإنسان للعلم ظاهرة من أعظم ظواهر الوجود، إذ الإنسان وحده من هذه المخلوقات التي نراها، عنده استعداد ليعرف كل شيء، ويحلل ويركب ويقيس ويعمل، ويقبل ويرفض، ويتصور، ويستطيع أن يفكر حتى يعرف مجهولاً على ضوء معلوم ويرسم للحياة طريقاً أو طرقاً، ويبني حضارة أو يهدمها ويتبع ظاهرة العلم، ظاهرة التعبير حين يعبر الإنسان عن كل هذا: تارة أدباً، وأحياناً كلمة، وأخرى فلسفة، وطوراً منطقاً، وبهدوء أو بشدة، وبعاطفة أو بعقل.

إن علم الإنسان وبيانه يدلان مباشرة على الله: "الرَّحْمَنُ" * عَلَمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَمَ الْبَيَانَ" الرحمن : 1-4 "اَفَرَا وَرَبُّكَ الْاَكْرَمُ" * الَّذِي عَلَمَ بِالْقَلْمَنِ" * عَلَمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ" العلق : 3-5 والمادة لا تري، بل تخضع لإرادة وهذه الإرادة لا تتغير ولا تتبدل سنتها والحيوان إن كانت له إرادة غريزة ضمن أطر معينة. إطار الحياة والموت ، إطار الرزق و الفساد، أما ما عدا هذا فهو في بهيمة غامضة، لا يعرف معنى الإرادة حتى يريد ولكن الإنسان عنده طاقة إرادة، يرجح بها بين المتقابلين، ويختار من بين الصدرين كلامه بإرادة، وحركته بإرادة، إن الإنسان وحده يملك حرية الاختيار بشكل لا مثيل له بين أجزاء العالم المحسوس. يختار الكذب فيكذب، ويختار الصدق فيصدق، ويختار الخراب فيخرب، والإعمار فيعمـر؛ طاقة هائلة من الإرادة، يرافـقها طاقة هائلة من القدرة.

إنه بقدر ما أعطـي الإنسان من طاقة إرادة، أعـطي قدرة عظـيمة، ومظـهر هذه القدرة؛ إمكانـية التـسخـير والاستـفادـة من كل شيءـ. إنه يـسـتطـيع أن يـسـتـبـتـ الأرضـ إذا لم تـتـبـتـ وأن يـحـصـدـ إذا زـرـعـ، وأن يـرـكـبـ مـتنـ الـرـيـحـ وـالـمـاءـ، وأن يـأـكـلـ لـحـمـ الطـيـرـ وـالـسـمـكـ وأن يـسـتـخـرـجـ من كل شيءـ ما يـنـفـعـهـ، وأن يـتـرـكـ من كل شيءـ ما يـضـرـهـ إن علمـ الإـنـسـانـ. وـإـرـادـةـ الإـنـسـانـ، تـدـلـ بشـكـلـ وـاـضـحـ عـلـىـ تمـيـزـ الإـنـسـانـ عـلـىـ الـمـادـةـ. وـأـنـ الـمـادـةـ لـاـ يـمـكـنـ أـنـ تعـطـيهـ عـلـماـ وـلـاـ إـدـراـكاـ وـلـاـ قـدـرـةـ وـلـاـ إـرـادـةـ، بل اللهـ وـحـدـهـ هوـ الـذـيـ يـمـلـكـ أـنـ يـعـطـيـ الإـنـسـانـ هـذـاـ قـالـ تـعـالـىـ: "وَعَلَمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا" البقرة : 31 "هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فـي الـأـرـضـ جـمـيـعاـ" البقرة : 29 "هُوَ انْشَأَكُمْ مـنـ الـأـرـضـ وـاسـتـعـمـرـكُمـ فـيـهـاـ" هـودـ : 61 "وـجـعـلـ لـكـمـ السـمـعـ وـالـأـبـصـارـ وـالـأـفـقـةـ لـعـكـمـ تـشـكـرـونـ" النـحلـ : 78 "أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ" وـلـسـانـاـ وـشـفـتـيـنـ * وـهـدـيـنـاـ وـنـجـدـيـنـ" الـبـلـدـ : 10-8

وـأـمـاـ الـأـخـلـاقـ؛ـ فإـنـهاـ تـلـكـ المشـاعـرـ التـيـ تـنـتـجـ سـلوـكـاـ،ـ ومـحـلـ هـذـهـ المشـاعـرـ عـالـمـ النـفـسـ عـنـ الإـنـسـانـ،ـ إـنـهـ عـالـمـ كـامـلـ لـاـ نـعـرـفـ عـنـهـ إـلاـ آـثـارـهـ التـيـ نـحـسـهـاـ فـيـ أـعـماـقـنـاـ،ـ وـتـظـهـرـ تـارـةـ عـلـىـ صـفـحـاتـ وـجـوهـنـاـ.ـ أـوـ عـلـىـ أـلـسـنـتـاـ أـوـ أـيـدـيـنـاـ مشـاعـرـ الرـحـمـةـ وـالـقـسـوةـ،ـ الـعـفـوـ وـالـإـنـتـقـامـ الـذـلـةـ وـالـعـزـةـ الـعـدـلـ وـالـظـلـمـ الـأـمـنـ وـالـخـوـفـ،ـ وـالـحـرـبـ وـالـسـلـمـ،ـ وـالـغـضـبـ وـالـحـلـمـ،ـ وـالـجـبـنـ وـالـشـجـاعـةـ،ـ الـكـبـرـ وـالـتـواـضـعـ،ـ وـالـجـبـروـتـ وـالـلـيـنـ،ـ وـالـهـدـاـيـةـ وـالـضـلـالـ،ـ الـقـبـضـ وـالـبـسـطـ.ـ الـانـخـافـضـ وـالـاـرـتـقـاعـ.ـ التـجـمـعـ وـالـتـفـرـقـةـ،ـ الـحـبـ وـالـبـغـضـ،ـ الـحـقـ وـالـغـلـ وـالـكـراـهـيـةـ وـالـحـسـدـ،ـ الـإـحـسـاسـ بـالـجـمـالـ وـالـإـخـلـاصـ لـلـمـثـلـ

ومشاعر أخرى تفيض بها النفس وكأنها أمواج بحر كبير نساء فنباكي، نسر فنضحك، ونشق ونبغض من عشقناه ونرجو ونؤيأس إنها النفس أغمض ما في الإنسان إن تجمع بروتونات أو إلكترونات لا يكون احساسات أخلاقية قال تعالى: "وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِّ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي" الإسراء : 85 "وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا" الشمس : 7 "وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبَصِّرُونَ" الذاريات :

21

ففي النفس آيات كثيرة كلها تشير إلى أن الله هو الذي خلق وجود النفس آية ، وكل صفة من صفاتها الخيرة أو الشريرة آية. وعدا هذا؛ ففي النفس آيات أخرى تدل على أن في هذا الكون عجائب غير مادية، تجعل الإنسان قريبا جدا مما وراء المادة فالتنويم المغناطيسي والطرح الروحي (والتبائي)، وحوادث الرياضة الروحية التي يبصر أصحابها بلا إيهام هذه المعاني كلها تدل على أن هناك شيئاً غير المادة في هذا الوجود، وحوادث قراءة الأفكار وما يحيط بها؛ كلها تشير بعمق إلى أن الإنسان ليس مادة فقط وأنه عندما يموت الإنسان لا يكون قد تعطل جزء من جهازه المادي فقط، بل مع هذا يكون الإنسان قد فقد شيئاً آخرأً هذا الشيء المفقود هو الإنسان نفسه، وعاد التراب إلى التراب.

وأخيراً، إن نشأة الحياة دليل على الله، وتعقيدات الحياة دليل على الله، وتتنوع الأحياء دليل على الله، ومركز الإنسان في هذا الكون بصفاته العليا دليل على الله، وفي النفس البشرية – أخلاقها وعجائبها – دليل على الله، وهذا وحده كاف لتعرف به الله. فكيف إذا اجتمع معه ما ذكرنا سابقاً وما سنذكر لاحقاً؟ وكيف إذا اجتمع مع هذا وهي يتزل ومعجزات تتحدى؟ وكيف إذا اجتمع مع هذا رسل صادقون صالحون أنقياء أذكياء وبررة فهل يبقى بعد كل ذلك لكافر من حجة ولا سبيل؟ إلا حجة الجهل وسبيل الهوى المؤدي إلى البوار ثم إلى النار؛ ألا لعنة الله على الكافرين.

الظاهره الرابعة

ظاهرة الإجابة

هذه الظاهرة لكل واحد منا تجربته الخاصة فيها، فما من واحد منا نحن البشر سواء في ذلك المؤمنون منا وغير المؤمنون، إلا مرت عليه فترة فيها شدة وفيها اضطراب وفيها قلق توجه فيها إلى الله بقلب كله انكسار ورجاء وأمل، وإذا بالكرب يزول، الشدة تنتهي ويجعل الله من بعد عسر يسرا، ويعود الرخاء بعد الضراء. ولكنك تجد قلوبنا بقيت شاكرة متذكرة زاد إيمانها، وأخرى عادت إلى غفلتها متناسية ما ذكرته ساعة المحن.

إن الأمر المسلم به، أنه ما من نفس إلا وتتجأ إلى الله ساعة الخطر وقد كرر القرآن هذا المعنى كثيرا فقال: "قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمُ السَّاعَةُ أَغْيَرُ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" بل إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَسْوُنَ مَا تُشْرِكُونَ" الأنعام : 40-41
وإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الْضُّرُّ دَعَانَا لِجَنَبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرُّهُ مَرَّ كَأْنَ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَهُ كَذَلِكَ زُرِّيْنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ" يونس : 12
وإِذَا مَسَكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كُفُورًا" الإسراء : 67

"هُوَ الَّذِي يُسِيرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلُكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرَحُوا بِهَا جَاءُتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَطَنُوا أَنَّهُمْ أُحْيَطُ بِهِمْ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ" فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ" يونس : 22-23

"قُلْ مَنْ يُنْجِيْكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ" قُلِ اللَّهُ يُنْجِيْكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ" الأنعام : 63-64
وقد جرت سنة الله أن يجيب المضطر إذا شاء ، كائنا من كان حتى ولو كان كافرا بالمعنى الاصطلاحي ما دام قد توجه إليه قال تعالى: "أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ" النمل : 62

والحوادث التي أخبر أصحابها بما جرى لهم فيها مما له علاقة بهذه الظاهرة كثيرة لا تعد فما من إنسان إلا وله قصة أو قصص، أنا وأنت وهو. وإليك أمثلة نختارها من بين آلاف أمثالها مما يجري كل يوم، تدل على أن الإنسان ليس وحده، فالله يرعاه إن كان أهلا للرعاية، أو يستجيب له إن دعاه بقلب مضطرب، أو يكله إلى نفسه، وما أكثر خسارة من وكله الله إلى نفسه؟ وفي كل حالة نجد رعاية غير متوقعة أو استجابة غير عادية فإن الإنسان يلمح آثار قدرة الله واستجابته وفي كل حادثة من هذا النوع يقع دليل على وجود الله عز وجل وهذه نقول لها علاقة بهذا المعنى:

1- نشرت مجلة المختار ريدر دايجرست في عدد أكتوبر 1944 تحت عنوان ألا تؤمن بالصلوة والدعاء هذه الحادثة التي صاغتها كما يلي:

واللهم تتدفق الأدلة التي لا تنقض من كل ناحية، على فضل الدعاء وقوته وليس مما يدهش أن يتوجه الناس في ساعة الشدة وال الحاجة إلى القوة الخارجية، وإنما الشيء الوحيد المدهش في هذا هو أن نراه مدهشا وما يصنع هؤلاء المصلون الداعون من الجنود والبحارة والطيارين؛ إلا كما صنع لنكولن الذي قال في أحلك أيام الحرب الأهلية: بغير معونة من الله الذي هو معي لا أستطيع أن أنجح وبهذه المعونة لا يمكن أن أخفق ولا يكاد يوجد فوق الأرض مخلوق لا ينطوي على الشوق الروحاني أو على شعور باطن بهم، بأن هناك قوة يتوجه إليها بفطرته. حدث لما اضطر الماجور لأن لندرج من وستيفيلد بولاية نيوجيرسي وهو يقود إحدى القلاع الطائرة للنزول في البحر في طريقه إلى أستراليا أن ساد الاعتقاد بأنه هو والتسعه الذين معه قد فقدوا،

وفي هذا يقول الماجور: تمكنا من الخروج على طوفين من المطاط وكذنا لا نفعل، ولم تكن معنا كسرة من خبز أو قطرة من ماء، وكان رجال الطائرة كلهم قلقين إلا الشاويش البرت هرناندز المدفعي الخلفي وقد عكف من فوره على الدعاء والابتهاج وسرعان ما رأينا بقوله: إنه يعرف أن الله قد استمع إليه وأنه سيساعدنا، وظلوا يهيمون تحت شمس محرقة وقد تشقت شفاههم وورمت السنتم فعجزوا عن مجاراة هرناندز في التهليل والتسبيح ولكنهم كانوا يدعون مع ذلك وبعد ثلاثة أيام وقبل دخول الليل لمحوا معلم جزيرة صغيرة، وما لبثوا أن شاهدوا ما لم يكن يجري لهم في خال فرأبقيت عليهم ثلاثة زوارق فيها رجال عراة الأجساد واتضح أن منقذיהם من أهل أستراليا الأصليين وهم صيادون سود الأ أجسام منفوشو الرؤوس وقد جاءوا من

داخل البلاد على مسافات مئات الأميال، وقالوا إنهم دفعوا بداعف غريب إلى تغيير اتجاههم فجاءوا إلى هذا الشاطئ المرجاني الذي لا سكان فيه وهناك لمحوا لندرة وزملاعه.

2- أذاع راديو دمشق في 10 / 1 / 1965 الساعة الثالثة إلا ربعا بعد الظهر ن克拉 عن مجلة الأبحاث الطبية الصادرة في إنكلترا حادثة نشرتها المجلة المذكورة بتوفيق الطبيب الذي جرت معه الحادثة والقصة أن شابا بقي مريضا بمرض مزمن مدة ثلاثة عشر عاما وأعيا الأطباء دون أن يصل إلى نتيجة وقد دخل عليه آخر كطبيب الطبيب الذي يروي القصة، وبعد أن أتم فحصه رأى أنه لا أمل له، وهناك سأله المريض بلهجة يائسة: لا أمل يا دكتور؟ فقال الدكتور: هناك أمل واحد في السماء فجرب أن تدعوا، ألا تعرف أن تصلي؟ ولأول مرة يدعو الشاب الذي دام مرضه ثلاثة عشر عاما، وعندما زاره الطبيب بعد أسبوع وجد المريض معافي، وقد شفي من مرضه الذي لم يستطع الأطباء أن يعالجوه منه.

3- وحدثنا شاب مصري ممن شاركوا في المقاومة السرية التي جرت في مصر في قناة السويس 1951 _ 1954 عن ثلاثة من المقاومين خرجوا لينسقوا سكة حيد في منطقة مكشوفة ... وكانت الليلة مقمرة والسماء صافية، والأرض صحراوية ترى حركات من فيها عن بعد، فيعرضهم ذلك لنيران العدو ومطاردته فقال أحدهم الثلاثة وهم ماضون: يا رب ولا غيمة، فلم يلبثوا أن شاهدوا سحابة تجلل وجه القمر فانتشر الظلام مما ساعدهم على القيام بمهمتهم ورجعوا وكلنا سمع ما حدث يوم الهجوم على مصر أثناء العدوان الثلاثي، إذ اشتعلت النيران في مدينة بور سعيد، وضاق الأمر بالناس ودعوا ربهم مخلصين، فكان المطر الذي أطفأ الحرائق يومذاك

4- والناس في كل مكان يتحدثون، فما من مسلم إلا وله تجربة خاصة في هذا الأمر تضيق به السبل، فيلجأ إلى اللجوء إلى الله لجوء المضطر ف تكون الاستجابة وتحصل الفرج. ومن أبرز مظاهر هذا المعنى قصص الاستسقاء حيث يلجأ المسلمون إلى الله في حالة القحط ولهم في ذلك آداب منها: التوبة، ومنها الصلاة والدعاء. ومنذ زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم، يتحدث المسلمون عن عجائب حصلت، وعن أناس مجابي الدعوة استجيب لهم، ومن تتبع حوادث ذلك وجدتها صحيحة أدق مقاييس النقد التاريخي إن ظاهرة الاستجابة ظاهرة تتجدد دائما كلما

توفرت شروطها، وهي تدل بشكل قطعي على وجود ذات عليا، تسمع نداء المنادين وتوصيات المتواصلين، وإذا شاءت تجيب المضطر أنى كان وكيف كان، مسلما كان أو كافرا. وتجيب المسلمين في كل الأحوال إذا كان متمتعا بشروط الاستجابة وكان في الاستجابة خير له، ولم يكن غيرها أحسن إليه منها: قال تعالى: "وَإِذَا سَأَلَكَ عَبْدٌ يَعْنَى فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلَيْسَ تَجِيئُوا لِي وَلَيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْسُدُونَ" البقرة : 186
"وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ" غافر : 60

استجب لله يستجب الله لك ونihil من شاء التوسع في هذا الموضوع إلى كتاب الفرج بعد الشدة للقاضي التتوخي. ففيه ما يكفي. وإنما اختصرنا في هذه الظاهرة لكثره الحوادث فيها وظهورها والآن في البحث الثاني عن الرسول صلى الله عليه وسلم نماذج عنها.

الظاهرة الخامسة

ظاهرة الهدایة

إننا عندما ندرس الكون نرى فيه هداية كاملة، من أصغر ذراته إلى أكبر أجرامه، ومن أبسط أشكاله إلى أعقد مظاهره، فكيف نعمل هذه الهدایة؟ كيف وجدت؟ كيف استمرت؟ كيف ثبتت؟ إن هناك جواباً واحداً يقدمه العقل على ذلك، هو وجود ذات هداية.

1- ثعبان الماء متى اكتمل نموه هاجر من مختلف البرك والأنهار، قاطعاً آلاف الأميال في المحيط، قاصداً الأعماق السحرية جنوب برمودا حيث يلتقي ثعابين الماء من كل أنحاء العالم، وهناك تبيض وتموت، أما صغارها تلك التي لا تملك وسيلة تتعرف بها على أي شيء، سوى أنها في مياه قفرة فإنها تعود أدراجها، وتتجه طريقها إلى الشاطئ الذي جاءت منه أمها. ومن ثم إلى كل نهر أو بركة صغيرة، ولذا يظل كل جسم من الماء آهلاً بثعابين الماء، ولم يحدث قط أن صيد ثعبان ماء أمريكي في المياه الأوروبية أو العكس.

2- الزنبور يصيد الجندب النطاط، وينخره بإبرته في مكان مناسب بحيث يفقده وعيه مع بقائه حياً كنوع من اللحم المحفوظ، فلا يكثر السم فيه بحيث تميته، أو يسمم لحم الأولاد إذا أكلوا منه، ولا يقلله بحيث يبقى محتفظاً بوعيه فيفرب، وبعد ذلك يحفر له حفرة في الأرض، ثم تأتي أنثى الزنبور وتضع بيضاً في المكان المناسب بالضبط، ثم تغطي هذه الحفرة وترحل فرحة، ثم تموت بعد أن أمنت وسيلة الحياة لأولادها. وهم صغار لا يستطيعون الحركة، ولا بد أن الزنبور قد فعل ذلك من البداية من يوم وجوده أول مرة وكروه دائماً، وإنما بقيت زنابير على وجه الأرض.

3- الجراد البالغ من العمر سبعة عشر عاماً في ولاية نيوزيلاند. يغادر شقوقه تحت الأرض حيث عاش في ظلام مع تغير طفيف في درجة الحرارة، ويظهر بالملايين في 24 مايو من السنة السابعة عشرة تماماً. بحيث يضبط مواعيده للظهور في اليوم تقريباً بهداية يعجز عنها الإنسان لو لا أنه يستعمل التقويم.

4- خطر لعالم أمريكي أن يستفرخ البيض دون حضانة الدجاج، بأن يضع البيض في نفس الحرارة التي نالها البيض من الدجاجة الحاضنة له، فلما جمع البيض ووضعه في جهاز للتبريد، نصحه فلاح أن يقلب البيض إذ إنه رأى الدجاجة تفعل ذلك فسخر منه العالم، وأفهمه أن الدجاجة إنما تقلب البيض لتعطي الجزء الأسفل منه حرارة جسمها الذي حرمه، أما هو فقد أحاط البيض بجهاز يشع حرارة ثابتة لكل أجزاء البيضة.

واستمر العالم في عمله حتى جاء دور الفقس وفات ميعاده ولم تتفق البيضة، وأعاد التجربة وقد استمع إلى نصيحة الفلاح أو بالأحرى إلى تقليد الدجاجة، فصار يقلب البيض حتى إذا واتى ميعاد الفقس خرجت الفرايريج. وأآخر تعليل علمي لتفليب البيضة أن الفرخ حينما يخلق في البيضة ترسب المواد الغذائية في الجزء الأسفل من جسمه إذا بقي دون تحريك أو عيته. ولذلك فإن الدجاجة لا تقلب البيض في اليوم الأول والأخير بهذه الهدایة الكاملة في عملية البقاء الجنس، يبقى الدجاج في العالم، لأنه يعلم تماماً ما ينبغي أن يفعله، ولا بد أن ذلك فعلته الدجاجة الأولى حتى استمر جنس الدجاج.

5- حيوان الإكسيلوكوب ، يعيش منفرداً في فصل الربيع ، ومتى باض مات ؛ فالأنهات لا ترى صغارها ولا تعيش لتساعدها في غذائها ودافعها عن نفسها، وهي لا تستطيع الحصول على غذائهما مدة سنة كاملة، لذلك ترى الأم تعمد إلى قطعة خشب، فتحفر فيها حفرة مستطيلة، ثم تجلب طلع الأزهار وبعض الأوراق السكرية، وتحشوا بها ذلك السرداد وتصنع بعد ذلك سرداباً آخرًا، فإذا فقت البيضة وخرجت الدودة كفاحاً الطعام المدخر لسنة.

6- يمتص جذر النخلة العناصر الغذائية في التربة بالشعيرات الجذرية وتتصعد العصارة بالضغط الاسموزي إلى الأعلى، ويتجذب جذع النخلة بما غلظ من هذه العصارة، أما الخلاصة فتصعد إلى حيث تغذي الأجزاء العلوية، وترتفع العصارة الدقيقة لتكون الثمرة وقمع البلاحة هو مصفاتها التي تسمح بمرور المواد الغذائية تماماً إلى الداخل تماماً وهي التي تكون الحلو من البلاحة وغير الحلو من النواة والتي منها ينشأ جسم البلاحة الطري وهيك النواة الصلب، وبين الحلو والمر والصلب والطري غلاف شفاف لا يكاد يرى، ولم يحدث إطلاقاً أن أخطأت نخلة فكونت نواة البلاحة في الخارج والبلاحة من الداخل، أو كونت البلاحة صلبة والنواة طرية

7- الحيوان المنوي يشبه العلق في حركته، له رأس مفلطح وعنق قصير، وذيل طويل، ويتحرك ب Lolli بذيله، وقد أمد بقوه مقاومة، إذ أنه في الأجواء غير الملائمة تستكن الحياة فيه وي فقد مظاهر نشاطه، فإذا ما وجد الوسط المناسب عادت له حيويته ونشاطه، ويستمر في الحياة عدة أيام متواتلة في انتظار البويضة التي يدفع بها مبيض الأنثى - وهو جهاز التناول عندها - ليقوم بإخصابها، ويتم كل ذلك بهدایة منقطة النظير إذ لا دخل له بأی قوہ _ كائنة ما كانت كيماوية أو حيوية أو عقلية أو ادراكية في توجيه الحيوان المنوي إلى بویضة الأنثى

-7 في عملية الرضاع كل شيء يتم بهدایة . تنمو الغدد التي تصنع اللبن أثناء الحمل، يدفعها إلى هذا النمو مواد يفرزها المبيضان، وفي نهاية الحمل وبدء الوضع ، تتلقى هذه الغدد النخامية الموجودة في قاعدة الجمجمة أمراً بالبدء في صنع اللبن، وما يكاد الطفل يولد حتى يبحث عن ثدي أمه بهدایة لا حد لها، وعملية الرضاعة عملية شاقة، إذ أنها تقتضي انقباضات متواتلة في عضلات وجه الرضيع ولسانه وعنقه، وحركات متواصلة في فكه الأسفل، وتتنفس من أنفه ويقوم الطفل بهذا كله بهدایة تامة من أول رضعة لساعة فطامه.

وقالوا: إن الرجل نفسه لا يستطيع أن يقوم بعملية الرضاع كما يقوم بها الطفل الذي لا يتجاوز عمره ساعات هذه أمثلة قصدنا بها لفت النظر إلى ظاهرة الهدایة ، فإذا ما التفت العقل ودرس الوجود كله بعمق ، يرى هذه الظاهرة في كل شيء، فهي ظاهرة تتنظم شؤون الكون كله من الإلكترونات في الذرة ، إلى الذرة، إلى العناصر، إلى الأرض، إلى الشموس، إلى المجرات بكل حوالتها إلى كل خلية من خلايا الحيوان، إلى كل جهاز من أجهزته، إلى كل حيوان من وحيد الخلية ، إلى النحلة، إلى الإنسان قال تعالى: "قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى" طه : 50 تلك الكلمة القرآن وهي كذلك كلمة العقل، وهي كذلك كلمة العلم، إن هدایة بلا هاد غير مقبولة لا عقلا ولا علمًا إن الله ظهر باسمه الهدایي في كل شيء، ومع ذلك ضل الكافرون عن الله، وأضلوا قلوبهم، وهم في ضلالهم مهتدون إلى طرق الظلال والزيغ، إذ أن الإنسان بما أوتي من إرادة و اختيار، وبما امتحن به في هذه الحياة أكثر ناتج عن هذه الإرادة، قد ركب تركيبا ظهر فيه اسم الله الهدایي بما يتافق مع هذه الحرية في الإرادة ومع هذا الامتحان: "وَنَفْسٌ وَمَا سَوَّا هَا * فَلَهُمَا فُجُورٌ هَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا" الشمس : 7-10 "وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى" النازعات : 40-41

إن الكافرين قدّيما كانوا يعتبرون الدعوة إلى الله وتعليل كل شيء به نوعاً من الافتراء والكذب والأسطورة قال تعالى: "قَالَ رَبِّيْ يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَااءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ" * بَلْ قَالُوا أَضْغَاثٌ أَحْلَامٌ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ" الأنبياء : 4-5

والكافرون اليوم: يعتبرون كل كلام غير كلامهم ، لا يقوم على علم، بل تظهر منه رائحة الخرافة، أو فيه معنى الأسطورة. إن التشابه الكامل بين الموقفين في القديم والحديث دليل على وحدة النفس البشرية، وإن كان المحدثون أكثر فلسفة وأزهى زخرفا، كما أن فيه دليل على نوع من الهدایة إلى الضلال، كھدایة المھتدین إلى الھدی ، (ونذل) ظھور اسم الله الھادی في عالم الإنسان قال تعالى: "وَهَدَنَا إِلَيْنَا النَّجْدَيْنِ" البلد : 10 "إِنَّا هَدَيْنَاكُمْ سَبِيلًا إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا" الإنسان : 3

إن الكافر يرى أن بإمكانه أن يعلل كل ظاهرة من ظواهر هذا الكون بدون الله والذي لا يستطيع أن يعلله الآن يتصور أن باستطاعته أن يعلله في المستقبل، وصرف النظر عن كون هذه التعليقات علمية عقلانية أو ظنية حدسية، فإنه مقتضى بها ولا يقبل أي تفسير آخر ولو كان علمياً وعقلياً، لأن كثرة الاحتمالات عنده لا تبطل ظهور الممكن الواحد، وتعدد مظاهر الوجود يقنعه بأي تفسير يتوهمه كأثر عن استشعاره لذاته المتصف بالعلم والقدرة والإرادة والحياة، فهو يخلع بهذه المعاني على الكون متناسياً أن الطبيعة بمجموعها ليس لها علم ولا إرادة وقدرة وحياة . إنه يقول عن كل شيء يراه: إنه ممكن ونحن إن لم نقل بإمكانه نكفر (نخرج عن الإسلام) ولكن نقول بذلك: إذا وجد علم الله وإرادته وقدرته. أما بغير علم ولا إرادة فلا إن الله ظهر كثيراً وبطنه كثيراً، ظهوره الكبير جعل المؤمنين به كأنهم يعاينون كشف الحجاب ما ازدلت يقيناً وبطونه الكبير جعل الكافرين على مثل اليقين بأن الأولين واهمون، ولا يمكن في حكم العقل إلا أن يكون الله ظاهراً وباطناً واحداً: ظاهراً للجنان، وخفياً عن العيان؛ يظهر للعيان خلقه ، وخلقه يدل الجنان عليه لذلك قال الله تعالى: "وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ فَلَبَّهُ" التغابن : 11 ليس في خفاء الله حجة لكافر على كفر ، وقد رأينا هذا في مقدمة أبحاثنا، وفي ظهوره الحجة الكاملة على الإيمان، وإذا كان في ضلال الصالين نوع هداية إلى الضلال، إذا حرموا أنفسهم الرؤية الصافية فشاهدو الأمور معكوسة، فان في هداية المهدتين المظاهر الكامل للهداية التامة.

ولكن كما أن في هداية المهدتدين دليلا على ظاهرة الهدایة، فإن في هداية الضالين إلى طرق الضلال دليلا عليها كما سنتى بعد، والكل يدل على أن هنالك ذاتا هادیة. إن آيات الله التي تدل عليه واضحة جدا في كل شيء، ولكن الاهتداء إليها يحتاج إلى إنسانية أكثر، وإلى أخلاقية رفيعة قال تعالى: "سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَخَذُونَهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَخَذُونَهُ سَبِيلًا بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ" الأعراف : 146

إنها الحقيقة التي لا ترد: الكبير والغفلة عن آيات الله هما طريق الكفر، والخضوع للحق وقبوله واليقظة على آيات الله هي طريق الإيمان. فبمزيد من أخلاق الإنسان، وبمزيد من التأمل، وبمزيد من طلب الحق، يصل الإنسان إلى الله. فإذا قيل: إن المرجع في الهدایة إرادة الله.. قال تعالى: "وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًاهَا" السجدة : 13 يقول: إن المرجع في كل شيء إرادة الله ، وليس في ذلك عذر لمعترض أو متهرب أو متحلل من المسؤولية لقد قال الله: "إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرُ لِلْعَالَمِينَ" لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ التكوير : 27-28 فقال أبو جهل: ذلك إلينا إن شئت . فأنزل الله تتمة: "وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ" التكوير : 29 وهذا يعني أن مشيئة الله محيطة بكل شيء ، ولكن لا يعني هذا إلغاء اختيار الإنسان ومشيئته.

قال تعالى: "يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبْلَ السَّلَامِ" المائدة : 16
"ضَلَّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضْلِلُ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ" البقرة : 26

إن الله إذا أراد أن يضل إنسانا ظهر له في الوجود كله باسم المضل، حتى لم ير في آيات الله في كل خلقه ما يدل عليه: وكذلك في آياته في القرآن حتى لا يرى فيها آية تدل عليه، وليس في ذلك إجبار من الله له؛ بل ذلك لأن الإنسان ذاته اختار الطريق الآخر كبرا وظلمما، فصار يرى الآيات معكوسة، مما فيه حجة على الإيمان صار يعتبره حجة له على الكفر، وذلك كأكثر من إحاطة هداية الله في الطريقين، والذي يتحمل المسؤولية هو الإنسان ذاته.

تعالى الله أن يسأل تغيير ما سن من سنته، وعلى الإنسان أن يحقق ما طلب منه ضمن هذه السنن ويقول الكافرون: إن الله قادر على أن يهدي الناس كلهم إلى ما يحب؛ فلم لم يهديهم؟ وإن الله قادر على أن يجعل العالم خاليا من كل شر؛ فلم لم يفعل، يقولون هذا حتى يقولوا أخيراً:

كون العالم فيه ضلال وكونه فيه شر ، فذلك دليلان على أن هذا العالم ليس من صنع الله ويقولون للمؤمنين: ما دمتم تؤمنون بالقضاء والقدر ، فما نحن فيه من انحراف قدره الله علينا ولا مخرج لنا من قدره، فهو المسؤول إذن ولسنا المسؤولين فلا تلومونا ألم يقل: "يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء". ونقول: كلمتهم هذه قالها الكافرون من قبل، ورد عليهم القرآن أي رد: "وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدَنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آباؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَبِبُوا الطَّاغُوتَ فَمَنْ هُدَى اللَّهُ وَمَنْ هُمْ مِنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ " النحل : 35-36

نفس اللغة القديمة للكافرين استعملها كفار عهد الدعوة الأول، واستعملها كفار عصرنا الحاضر: "سيقولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكَنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بِأَسْنَانَ قُلْ هَلْ عِنْدُكُمْ مَنْ عِلْمٌ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ" الأنعام : 148 ترى ما قيمة حجة المكذبين؟ يلاحظ في الرد القرآني أنه رماهم بالتكذيب لرسل الله صلوات الله عليهم، وأنه بلاغ الرسل - صلوات الله عليهم - فيه الحجة عليهم.

إنهم نظروا إلى عموم مشيئة الله ولم ينظروا إلى مشيئتهم، فأرادوا أن يقيموا الحجة على الله بكماله، فأقام الله عليهم الحجة بمشيئتهم التي استعملوها في غير طريقها الصحيح. إن ما كتب الله، وما علم الله، وما أراد الله، لا يسلب الإنسان اختياره، كلاما خطأ عظيم: أن نظن أن الله لا يعلم ما سيحدث، أو نظن بأن علمه بما سيحدث يسلبنا اختيارنا. فالعلم كاشف لا مجر، وإذا كان علمه تعالى لا يسلبنا اختيارنا. فكذلك إرادته وكذلك قدرته، فالقدرة تبرز ما خصصته الإرادة والإرادة تخصص ما سبق به العلم إنه من الخطأ أن نفهم قوله تعالى: "يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ" فاطر : 8 بأنه يجبر على الهدایة ويجبر على الضلال بل: "فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ" الصف : 5

"قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا" وقد خابَ مَنْ دَسَاهَا" الشمس : 9-10 "إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ" لمن شاء مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ" التكوير : 27-29

إن إرادة الإنسان موجودة؛ ولا يعني هذا أن هناك شيئاً يكون خارجاً عن إرادة الله، وعموم الإرادة الإلهية حق؛ ولا يعني هذا سلب الإنسان حريته واختياره.

وأخيراً: لقد خلق الله كل شيء، حسياً كان أو معنوياً، ومن الأخلاق الفاسدة إلى الأخلاق الحسنة، إلى الإنسان، إلى الوجود كله، وأعطى كل شيء هدایته، فالكبير مهتدٌ إلى طريقه، وكذلك الحسد، وكذلك الضلال، وكذلك كل نوع من أنواع الضلال، الشمس، وكذلك القمر. وبالنسبة للإنسان خاصة: ذاته، ونفسه، وجسمه، وكل شيء فيه مهتدٌ إلى طريقه إذا ترك على سجيته، ولكن هذا الإنسان بما أوتي من ملائكة أهلته للتکلیف، جعل الخير والشر له فتنة قال تعالى: "وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً" الأنبياء : 35 ونتيجة لهذا فرض عليه أن يحاول التغلب على كثير من ميوله ورغباته وأهوائه وشهواته، وأن يكيف ذاته حسب هدى معين، حدده له الوحي الإلهي، ليقوم بدوره على هذه الأرض ضمن طريق مخصوص. وعلى هذا فانحراف الإنسان عن هذا الطريق ضلال، وإن كانت فروع هذا الضلال من الهدایة التي أعطيت لكل شيء في موضوعه قال تعالى: "وَهَدَيْنَا النَّجْدَيْنِ" البلد : 10 ولكن كون الإنسان يستطيع أن يتخلّى عن هذا الضلال - ولو على حساب متعته - فإنه مفروض عليه أن يعمل كي يحقق معنى الابتلاء، ولذلك كان: "حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات" رواه مسلم.

وفي الظاهره السابعة زيادة بيان إن شاء الله - وإنما قصدنا في هذه أن نشير إلى الهدایة الكاملة لكل شيء - مخلوق حسي أو معنوي - تشير إلى ذات هادیة: "أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى" طه : 50. مما من شيء إلا وعنه نوع هداية عامة. حتى الأشياء المعنوية خيراً كانت أو شراً، ولكن الإنسان كلف بنوع خاص من الهدایة، وعليه أن يسعى لتحقيقه. والأهم بعد: أن يكون واضح لدينا الهدایة في كل شيء لا يمكن أن تكون إلا بالله الهادي.

الظاهرة السادسة

ظاهرة الإبداع

أرأيت لوحة رسام قال الناس عنها: إنها أثر عظيم؟ قل لي: لماذا حكم الناس عليها هذا الحكم؟ سنقول لما فيها من إبداع في التصوير والتعبير والجو والظل والتناسق والتفاعل والمعرفة، بما يثير الإعجاب في نفس المشاهد، إنك تقول بدهشة أو بإعجاب: لقد أبدع هذا الأثر فلان، ترى ألم يخطر ببالك وأنت أمام مشهد إبداعي عظيم من هذا الكون، أن تفكر في المبدع الأعظم الذي أبدع هذا الكون، أو أن الألفة أعمت البصر عن الرؤية؟ إنك لو تأملت لوجدت: أن الجمال والإبداع يبدوان ملازمين لكل شيء في الكون: السحب، قوس قزح، السماء الزرقاء، النجوم ذات الألوان وانتشارها وانتظامها وحركاتها وهندستها، القمر ساعة طلوعه عندما يكون بدرًا أو هلالًا أو ساعة توسطه قبة الفلك، الشمس في غروبها وشروقها، الفجر والأصليل، روعة الظهر، كل ذلك آثار إبداع عظيم. إن أعظم فنان هو الذي يستطيع أن يرسم جزءاً مما في الكون للحظة من لحظاته بأمانة، أما الكون فكل مظاهره التي تتكرر أو تتتعاقب أو تتغير صور من الجمال تشير في النفس كل أن مباحث من الروائع. كل ورقة من أوراق الشجر منظمة أبدع نظام، مخططة أجمل تخطيط، تخطيط وإبداع يقلد ولا يصنع، تجده على أروع ما يكون في الأزهار، برشاقتها الفاتنة وتصميماتها الرائعة وألوانها الموزعة، بشكل يحافظ كل زهر معه على سمات جماله وتناسق ألوانه، وإنك لتجد في كل زهرة إحساساً جيداً، وهي بديعة عندما تجتمع جنساً واحداً، ورائعة عندما تكون أجناساً، فالورق والزهر والساق والغصون والفروع والثمار، كلها إبداع عجيب، منفردة كانت أو مجتمعة موصولة أو مقطوعة.

والوادي الأخضر والنهر والأشجار الباسقة، والصخور والجبال يجلل قممها الثلج، أو التي تسبغ عليها السماء زرقتها من بعيد، وكثبان الرمال الفسيحة الممتدة في الصحراء، والتتابع المنسق الفاخر لأمواج المحيط وتلاطمها على أرض الشاطئ، والهدير والخرير والصفير والرفيف والحفيف، وصوت الرعد، ولمعان البرق: أليس ذلك كله جميلاً وبديعاً ومبهجاً حتى عندما يخيف؟ والطيور فوق البحر أو فوق الغابة أو على الأرض هاربة منك أو مذلة بين يديك، ألوانها المتناسقة، أشكالها الزاهية، نقشاتها الفاتنة، تصميمها الجميل، أصواتها العذبة، حركاتها

الفاتنة، في كل ريشة منها جمال، وفي كل شعرة فيها رونق، وفيها جناحها ساعة يمتد وساعة ينقبض يرتفع أو ينخفض؛ ما يجعل القلب يمور شعورا حيا واغتيابا.

قطع الثلج ذات الأشكال الهندسية المختلفة، والخطوط البلورية للعناصر والمركبات والألوان العناصر منفردة أو مركبة، وتركيباتها أجزاء وكتلا، كروية الأرض، وسحب المريخ، ووجه القمر، وكلف هذا الوجه، كل ذلك جميل لدرجة مدهشة تحت المجهر أو بالعين المجردة. وفي الجمال جمال، وفي الغنم جمال، وفي البقر جمال، وفي الماعز جمال وفي الكلب جمال، وفي الهرة جمال، وفي كل خلق الله الجمال، في مراحه ومغاداه، في سكونه وممشاه. في حركات السمك وتموجات حشائش البحر في الأعماق، أو تموجات حشائش البر إذا مر النسيم، في العظام المكسورة التي تشفى، في الجرح الذي يلتئم بعد إذ تمزق لحمه، في دورة الدم، في القلب الذي يتحطّم، ثم ينجرّ بعد كسر، في حبوب اللقاح، في النحل تنتصس رحيق الزهر، في تقبيل الفراشة ميسماً الزهرة، في انتقالها إلى ميسماً آخر، في نقلها حب اللقاح على زهرة أخرى، في التلقيح، في التزاوج، في انجذاب القرین إلى قرينه، في كل شيء إبداع.

إن التناسق الذي نراه في كل مخلوق، انسجام الأعضاء بعضها مع بعض، انسجام اللون مع الأعضاء جعل كل شيء في محله، كل ذلك إبداع يشير إلى مبدع.

قال تعالى: "الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ" السجدة : 7

"بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ" الأنعام : 101

"ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ" الزمر : 7

إن هذا الإبداع من أ杰لّك أيها الإنسان قال تعالى: "إِنَّمَا تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَةً ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً" لقمان : 20
"وَإِن تَعُدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُو هَا" النحل : 18.

إنه من أ杰لّك حتى تعرف ربك بأسمائه كلها وتشكره جل جلاله وتعبده بحب وعشق، ولذلك جعل فيك الإحساس بالإبداع، وحب الجمال، فكان ذلك من أروع الإبداع لو عقل الإنسان. لقد أعطى الإنسان الفكر والتصور والشعور، فصار يتذوق الجمال، ويُسرّح بخياله من البداية إلى النهاية، ويذكر بسرعة البرق آلاًفا من لوحات الوجود، ويخترق بخياله حجب السماوات

والأرض، مع الإدراك الذي يجعله يتفاعل مع كل شيء، فيهوى ويحب، يمل ويبغض، ويصم تارة للبناء وتارة للهدم، فيجعل الحياة فناً والمعنى جهازاً. إن في ذلك كله إبداعاً سواء في ذلك باطن الإنسان أو ظاهره، أو ما يحيط به، وقد يرسم الرسام صورة الجميل فيبدع، وصورة القبيح فيبدع، وفي كلتا الحالتين يبقى الإبداع إبداعاً وفي كليهما يكون محسناً، وفي الكون جميل وأجمل، وقبيح وأقبح، ولكن وفي ذلك كله يظهر الإبداع في ذلك أكثر، فلن يعرف الجميل إلا بالقبيح ولا الأجمل إلا بالجميل، وتعدد الصور أكثر إيماء، وأبقى تجديداً، وأدل في القدرة على الإبداع.

فلا يفوتك يا صاح أن ترى الإبداع ولا تعرف المبدع، أو تلمس الإحسان وتتسى المحسن، أو تعشق الجمال ولا يمتلك قلبك بحب خالق الجمال، بل ترنم مع الحداة:

عذابه فيك عذب
وأنت عندي كروحي
حسبى من الحب أنى
لما تحب أحب
بل أنت منها أحب
وبعده فيك قرب

الظاهرة السابعة

ظاهرة الحكمة

قال تعالى: " قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ " يونس : 101

"أَوْلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلْكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدْ أَقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ " الأعراف : 185

"وَكَائِنٌ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمْرُونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ " يوسف : 105
"وَلَقَدْ ذَرَانَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبَصِّرُونَ بِهَا
وَلَهُمْ أَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ " الأعراف : 179
إن الله لا يقبل من المسلم إلا أن يرى في كل شيء آية تدل عليه اعتقادا، وتدلنا إلى ذلك استشعارا، وإن لم يصل المسلم إلى هذا المستوى الرفيع، فإنه بحاجة إلى يقظة أكثر وإلى فكر أكثر، وإلى ذكر إن يد الله التي خلقت أرت نفسها في خلقها، وإرادة الله التي خصت أرت نفسها في مبدعاتها، وحكمة الله ظهرت فلم تخفي.

وإن قلبا لم ير آثار الله في كل شيء أصبح قلبا أعمى قال تعالى: "فَإِنَّهَا لَا تَعْمَلُ الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَلُ الْقُلُوبُ التَّيْ فِي الصُّدُورِ" الحج : 46 ولعله محل للشقة: "فَلَعَلَّكَ بَاخْعُ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسْفًا" الكهف : 6

لقد أمرنا الله أن ندرس آياته في هذا الكون، والكون ذاته يستلفت النظر، ولقد درسه الكافرون والمؤمنون على السواء، وليس هناك من فارق بين الطرفين في العلم بهذا كثرة أو قلة، ولكن الفارق إنما هو في استعمال العقل وقوانيقه للوصول إلى ما وراء الكون، أو بالجمود على رؤية الحس وعدم استعمال العقل والرکون إلى التراب.

ولئن أكثر القرآن من ذكر: إن في الكون آيات لقوم يعلمون، أو يتذكرون فقد أكثر كذلك من ذكر: "إِنَّ فِي ذَلِكَ لِلَّآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ" النحل : 12 مما يدل على أن تحكيم قوانين العقل شرط لمعرفة آيات الله وعلى هذا فكل ظاهرة من الظواهر التي ذكرها في هذا الكون، لا ندعى أننا وحدنا نعرفها، فنحن والكافرون مشتركون في هذه المعرفة، ولكن الفارق أننا نعمل وجود هذه

الظاهره يلزمه العقل الذي لا بد منه، وهم يرفضون هذا التعلييل دون دليل؛ كمهندسين وفناً أمام بناء جميل، فكلاهما يستوي في كون يعرف كل ما في البناء من أجزاء، من معرفته بكيفية الترتيب، إلى معرفته بكيفية التركيب، إلا أن أحدهما جزم أن هذا البناء قد كان دون أن توجد خبرة وعلم وإرادة وقدرة وإبداع وحكمة وذوات تقوم بها هذه الأشياء، والآخر حكم على البداهة بأن مهندسا عالما حكيمًا. قد أظهر هذا البناء. إن المسألة بكل بساطة في هذه، وعندما ينافش الأول عقليا في الحكم الذي أصدره يقول: إنني فيما يستقبل من الأيام سأكشف كيف قام هذا البناء بنفسه، مع أن العقل ببداهته يحكم أن زمانا أكثر سيعطينا تفصيلات أكثر في أمر البناء، تدلنا على صاحبه بشكل أوسع وأدق وأين يلغى الحكم البداهة أبدا.

والكون كلما تكشف أكثر دل على الله أكثر، وهذه الظاهرة التي ندرسها الآن (ظاهره الحكمة) خير شاهد على ما قلناه، فالإنسان العادي يرى أن في الكون حكمة فيتعرف بها على الله الحكيم، وكلما ازداد علمًا زادت معرفته بهذه الحكمة؛ فما رأينا العلم إلا كاشفاً للحكمة.

وإن أكبر مصيبة ابتنى بها المؤمنون في هذا الزمان، هي دعوى الكافرين العلم حين يكفرون وأن المؤمنين لا يعلمون، وساعدهم على الظهور بهذه الدعوى أن أكثرية المؤمنين في زماننا أقل علما بظواهر الحياة الدنيا من الآخرين، ولكنه بدأ العصر الذي يصبح فيه المؤمنون أكثر علما بظواهر الحياة الدنيا، وبدأوا يثبتون أن مزيدا من العلم يعطي مزيدا من الإيمان.

اللوا عن الحكمة: إنها وضع الشيء في محله، وبالنسبة للكون بـإطلاق: ألا يكون شيء منه يمكن أن يكون أحسن في غير المكان الموجود فيه؟ وهذا واقع الكون، فكل ما فيه على غاية الحكمة، فليس بإمكان العقل أن يتصوره حكم مما هو فيه. وادرس كل شيء فيه، أجزاء وكتلاً، تجد الحقيقة ناصعة تقول لك على لسان حالها: ما أنا عليه من عين الحكمة وهذه أمثلة:

1- لو لا الموت ماذا يحدث؟ قالوا: لو أن ذبابتين توالتا هما وأولادهما دون موت فإنه بعد خمس سنوات تتشكل طبقة من الذباب حول الكرة الأرضية ارتفاعها 5 سم، وهذا جنس واحد من المخلوقات، فكيف إذا كانت المخلوقات كلها تتواجد ولا تموت، ومن هذا نفهم حكمه المرض، وحكمة وجود مسببات الأمراض من جراثيم ونحوها، ويقول قائل: ترى لو كان الإنسان يموت بلا مرض أليس أحسن؟ أو لو كان يموت بمرض واحد فمتى أصيب بمرض كانت نهايته فيه؟

وقد غاب هؤلاء حكمة وجود الأمل، وحكمة الإنذار وحكمة البصر، وحكمة الاعتبار بهذا الواقع.

2- ما يخرج من الإنسان وحده، كان يمكن أن يملأ الدنيا، لو لا وجود أنواع البكتيريا والعوامل الكثيرة التي تؤثر في تحويل وإبادة هذا الخارج، ومن هنا نفهم حكمة وجود كثير من الموجودات التي يتصور الإنسان مبدئياً أنه لا ضرورة لها، وبالتالي يتوهم أنها موجودة لغير ما حكمة، إنه لو لم يكن في بعض المخلوقات إلا جمالها لكتى الجمال ولو لم يكن في بعض المخلوقات إلا أنها تخيف لكتى حكمة، إن وجود الخوف من أكبر الحكم، إذ يعلم الإنسان الحذر، وبالتالي ينمي قدراته، ولو لم يكن في بعض المخلوقات إلا أنها ترتكب محلها مع ما قبلها وما بعدها لتدرك على التناقض، لكن ذلك وحده حكمة، ولو لم يكن في بعض المخلوقات إلا أنك ترى فيها عجائب خلق الله وقدرته لكتى حكمة.

3- ويقول بعض الناس: وحتى الشر فيه حكمة؟ وكذلك الألم؟ أليس العدل خيراً من الظلم، والرحمة خيراً من القسوة؟ والرعاية خيراً للتيتيم؟ والإيمان خيراً من الكفر؟ والقيام بالواجب خيراً من إهماله؟ وبالتالي فما الحكمة في وجود هذه النقائص وغيرها خير منها؟
ويصل الأمر ببعضهم إلى أن يسألوا لم خلق الله الشر؟ وإلى أن يقولوا: إن وجود الشر دليل على لا إله لأن الإله ينبغي أن يكون خيراً، ولا يصدر عنه إلا كل خير ونقول: أن نحب معرفة الحكمة في كل شيء، أو نسأل حتى نعرف أو أن نحاول المعرفة، فهذا شيء لا غبار عليه مع ملاحظة أن القصور في معرفة الحكمة لا يعني عدم وجودها. وأما أن نسأل الله لم فعلت؟ فهذا لا، ولا يسأل هذا السؤال إلا الجاهل بجلال الله وإحاطة علمه ومتناهى محدودية الإنسان بالنسبة لعدم تناهي كمالات الله، والعالم إذا فعل عن علم لا يسأله الجاهل لم فعلت؟ وكما قال الله عن الإنسان: "وَمَا أُوتِيْتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا" الإسراء : 85 وإن: "لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعُلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ"
الأنبياء : 23

وأما أن نقول: إن وجود الشر دليل على أن لا إله فإن هذا محض الجهل، ومحض الضلال، ومحض عدم المعرفة بقوانين الكون، فإن وجود الله قائم عليه من البراهين؛ بحيث يأخذ حكم البداهة عند كل إنسان لم تتعطل ملకاته. وإن ففي دائرة التعرف على الحكمة نجيب على

التساؤلات الآتية: الزنى شر، فهل خلق آلاته شر؟ لقد خلق الله للرجل أعضاء تناسلية وكذلك لأنثى، وخلق عند الرجل شهوة وكذلك عند المرأة شهوة، والحكمة واضحة، فيما خلق الله، ولكن الإنسان هو الذي نقل استعمال هذه الآلات من الوضع الحكيم الذي خلقت له من أجل بقاء الجنس، على حالة الفوضى الجنسية، فليس الشر إذن من خلق هذه الأعضاء، وإنما الشر فيما فعله الإنسان متجاوزاً الحدود التي خلقت الأشياء من أجلها.

وشرب الخمر شر؛ فهل خلق العنب شر؟ إن العنب في حد ذاته شيء طيب جميل والحكمة في خلقه واضحة، والإنسان هو الذي نقل العنب من وضعه الصالح الطيب إلى الوضع الخبيث الفاسد، واستعمال الحديد في القتل غير المشروع شر، فهل خلق الحديد شر؟ عن وجود الحديد فيه من الحكم مالا يعد ولا يحصى، وإنما كان استعمال الإنسان له استعمالاً خاطئاً هو الشر. والحسد في حد ذاته الذي هو تمني زوال النعمة عن المحسود شر؛ فهل خلق ملكة التنافس عند البشر شر؟ إن ملكة التنافس عند الإنسان من أكبر العوامل التي تؤدي إلى ازدهار العمران وصلاح الإنسان، ولكن الإنسان هو الذي حرف هذه الملكة فيه فكان الشر. فالشر من صنع الإنسان وليس في وجود الملكة، وال الكبر الذي هو غمط الناس وبطر الحق شر، فهل خلق طلب الكمال والعلو المشروع شر؟ لقد خلق الله عند الإنسان استعداداً كي يطلب الكمال ويطلب العلو في الكمال؛ ولكن الإنسان هو الذي حرف هذا الاستعداد فجعله كبراً، فكان شراً. فالإنسان إذن هو الذي بتتباه عن تحقيق الحكمة بما خلق الله، يحيي الخير إلى شر والصلاح إلى فساد .

والسؤال الآن: ما الحكمة في جعل هذا الاستعداد الهائل عند الإنسان للخير والشر والجواب على ذلك:

1- كي يستعمل الإنسان طاقاته كلها فلا تعطل طاقة، طاقة العقل، وطاقة الإرادة وطاقة الروح، وطاقة الفكر وطاقة الجسد فتظهر بذلك كمالات الإنسان في حالة استعمال كل طاقة في طريقها الصحيح، وفي إيجاد التوازن بين هذه الطاقات، وبالتالي يعرف فضل الله على الإنسان. أو في حالة تعطيل بعض الطاقات وإطلاق بعضها الآخر على غير طريق الحكمة يظهر قبح الانحراف عن سنن الله، وأثاره السيئة فيرجع الإنسان إلى الطريق الصحيح.

2- وبهذا يعرف الإنسان الله حق المعرفة: إذ لا يعرف أن الله غفور إلا أن أخطأ الإنسان واستغفر، ولا يعرف أن الله تواب إلا إذا تاب الإنسان بعد الذنب وأيقن أن الله يتوب عليه، ولا تعرف قدرته المطلاقة على خلق كل شيء من خير وشر وهدى وضلال، إلا إذا كان هدى وضلال وخير وشر، وبالتالي لا يعرف الله حق المعرفة إلا إذا كان الإنسان على ما هو عليه، ولذلك كانت حكمة الله في خلق الإنس والجن هي معرفته: "وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ" الذاريات : 56

إن الإنسان لا يعرف أن الله مجيب إلا إذا اضطر فدعاه واستجاب، ولا يعرف أن الله رزاق إلا إذا شاهد وصول الأرزاق إلى كل مخلوق. ومن هنا ندرك أسرار كثير من الآثار الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

3- والذين يطلبون أن يكون عالمنا هذا خيرا محضا يخطئون، إذ أن الحكمة من وجود هذا الكون والإنسان وحياته الأولى فيه هي الابتلاء، ولا ابتلاء إلا بوجود خير وشر، وإنما ينجح الإنسان في الامتحان إذا بذل جهدا إراديا للخلاص من الشر والإقبال على الخير: "وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ" الأنبياء : 35 "الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً" الملك : 2 "وَنَفْسٌ وَمَا سَوَّاهَا" فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا* قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا* وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا" الشمس : 7-10 "وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى* فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمُلْوَى" النازعات : 40-41 فإذا ما نجح الإنسان في امتحان الحياة الدنيا؛ كان مرشحا للحياة في عالم الخير المطلق في الآخرة "لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ" الأنعام : 127 ومن سقط كان أهلاً لدخول دار الجزاء على الشر "جَهَنَّمَ يَصْلُوْنَهَا وَبِئْسَ الْقُرْارُ" إبراهيم : 29 "جَزَاءٍ وِفَاقًا" النبأ : 26

4- وإن الإنسان إذا استعمل عقله بعلم، سيجد أنه من أصغر ذرات هذا الوجود، إلى كل جزء من أجزاءه، إليه جميـعا، مليـء بالحكم، ولن يجد الإنسان شيئا فيه قد خلا من أجمل الحكم والأمثلة التي ضربناها في ظاهرة الهدـية أو الإـرادة أو الإـبداع ، كلها تصلـح أمثلة على الحـكـمة المـبـثـوـثـة في كل خـلـقـ الله: "الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ" السـجـدة : 7 . "صَنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ" النـمـل : 88 وهذه أمثلـة أخرى جـزـئـية تصلـح شـاهـدة على ظـاهـرةـ الحـكـمةـ فيـ إطارـهاـ الكبيرـ :

1- ترى لو كانت عيناً الإنسان في أعلى رأسه أو في أسفل ذقنه أو في مؤخرته أو ... ؟ أكان ذلك حكم؟ أم كونهما في مكаниهما الحاليين؟ ترى هل هناك جزء من الإنسان كان خليقاً أن يكون حكم في غير محله؟ إن إنسان يحترم عقله لا يمكن أن يقول: نعم. (وكأبسط مثال يضرب في تبيان مواطن الحكمة في أجزاء الإنسان يد الإنسان، إنه من الصعب جداً، إن لم يكن من المستحيل، أن تبتكر آلة تضارع اليد البشرية من حيث البساطة والقدرة وسرعة التكيف، فحينما تزيد قراءة كتاب تتناوله بيده، ثم تثبته في الوضع الملائم للقراءة، وهذه اليد هي التي تصحح وضعه تلقائياً، وحينما تقلب صفحاته تضع أصابع يده تحت الورقة وتضغط عليها بالدرجة التي نقلبها بها، ثم يزول الضغط بقلب الورقة، واليد تمسك القلم وتكتب به، وتنستعمل الآلة، ويأكل بها الإنسان، ويفتح بها النافذة، ويحمل بها ما يريد، ويلمس بها، وقد يستعملها في تحسس الجمال لنقل إحساساته إلى قلبه، حتى الأظافر فيها؛ تحمي الأطراف لأنها أكثر تعرضاً للإصابة، وبدون الأظافر لا تستطيع أن تحك جلده أو تلقط الأشياء الدقيقة، وأخيراً فإن الأظافر هي الميزان الصحي للإنسان، إن كل ما فعله الإنسان ساعدت فيه إلى أكبر حد حركة إيهام يده، ولو كانت غير متحركة كإيهام القرد مثلاً؛ فإنه لا يستطيع أن يفعل الكثير مما يفعله الآن)

2- شفة الجمل العيا مشقوقة كي تساعده على أكل نباتات الصحراء الشوكية، وخفافه تناسب الرمل فلا تغوص فيه؛ بخلاف ما لو كان له ظلف أو حافر، وأهدابه الطويلة كالشبكة تحمي عينيه من ذرات الرمل، وسنامه يكنز غذاءه فيه لأمد طويل في غيبة الطعام.

3- النتح في النبات عبارة عن تبخّر الماء من النبات عن طريق الأوراق، الأمر الذي يساعد على صعود العصارات من الأرض خلال الجذور، وتنتمي عملية النتح بواسطة ثغور موجودة على الورقة، وهذه الثغور تختلف من نبات إلى نبات بحسب بيئته. لذلك يقل عدد ثغور النباتات الصحراوية عن عدد الثغور في نباتات الحقل، مما يقلل النتح في الأولى عن الثانية.

4- إن الطير أخف من أي حيوان في حجمه، وقد اتضح نتيجة تشريحه أن عظام الطير رقيقة مجوفة؛ لتعمل على خفة جسمه وتجعله بذلك قادراً على الطيران.

5- في القارة الجنوبية المتجمدة نوع من الطيور يسمى البانجو تضع الأنثى بيضها في أشهر الشتاء المظلمة - حيث تتبدل التلوّج في الأرض والسماء - في جيب جلدي في الطرف الأعلى من رجليها، ويبقى الصغار في ذلك الجيب إلى أن يقووا ويشتّد مراسهم.

6- إن للسمك خطأ طوليا على كل جانب من جانبيه، وبفحص هذه الخطوط بالمجهر، وجدت أنها أعضاء دقيقة حساسة إلى درجة كبيرة، فإذا اقتربت السمكة من حاجز أو صخرة تحس هذه الأعضاء باختلاف ضغط الماء نتيجة اصطدامه بالحاجز مهما كان تماوج الماء قليلا، فتنفادي بذلك الاصطدام وتغير طريقها.

7- يطير الخفافيش في الليل حيث لا ضوء على ضعف بصره، ولا يصطدم الخفافيش بالحواجز مهما كثرت، وقد تبين أن الخفافيش يرسل اهتزازات ترجع إليه بالتصادم مع أي جسم يقابلها، فيحس به دون أن يراه، إنه في هذا شبيه بالرادرار.

هذه أمثلة تعطينا صورة مبسطة عن الحكمة المبثوثة في كل شيء، وأن الإنسان كلما ازداد علما ازداد إدراكا لظاهرة الحكمة كما قلنا من قبل، ولكن القلوب العمى، والأذان الصم، والعقول المعطلة، تبقى عاجزة فلا تعي عن الله آية: "وَكَائِنٌ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمْرُونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ" يوسف : 105 "وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْنَابِ السَّعِيرِ"

الملك : 10

ترى لو نسب إنسان إلى مجنون، أصم، أعمى، أخرس، صناعة الرادار إلا يشك في عقله؟ بل يجزم بجنونه، أو ليس ينسب اهتزازات الخفافيش إلى المادة الصماء، العميماء البكماء، الميتة، أكثر جنونا. "إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شَيْئُتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ" فصلت : 40

إن في هذا الكون مليارات من شواهد الحكمة في الذرة والخلية، وفي اجتماع الذرات والخلايا، وفي كل نوع من أنواع الخلق وفي كل جزء منه، وفي اجتماع هذا كله، وكل شاهد من هذه المليارات لو نسبه إنسان إلى العدم لكان مجنونا، فكم هؤلاء مجانين أولئك الذين لا يؤمنون بالله الحكيم وكم هم سفهاء إذ يتهمون المؤمنين بخالق الحكمة أنهم مجانين؟ قال تعالى: "وَالْقَلْمَ وَمَا

يَسْطُرُونَ * مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ *
فَسَتَبْصِرُ وَيَبْصِرُونَ * بِأَيْمَكُ الْمَفْتُونُ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ
بِالْمُهْتَدِينَ * فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ" القام : 8-1

الظاهر الثامنة

ظاهرة العناية

1- كل نعمة وراءها منعم، وصف دواء لمريض نعمة وراءها طبيب، تأمين طعام لجائع نعمة وراءها مطعم، رعاية الطفل حتى يكبر ويستغني نعمة وراءها أب وأم، وجود بيت فيه كل وسائل الراحة نعمة وراءها ناس عملوا، وهكذا نجد أن المعطيات المصطنعة للإنسان كلها وراءها مباشرة من أعطى واعتنى. أترى هذه المعطيات الكثيرة التي ليست من صنع الإنسان للإنسان، أليس وراءها يد؟ إن مثل الكلام تعطيل للعقل أي تعطيل. ولما كانت هذه الظاهرة ظاهرة العناية والنعمه على الإنسان، من أكثر الظواهر تفصيلا في القرآن لما يترب عليها من إظهار فضل الله وكرمه ورحمته وعطائه، وبالتالي يستخرج بها شكر العاقل لله العظيم، أو إقامة الحجة على الإنسان وكفره وظلمه وجحوده، وبالتالي استحقاقه كل عقاب؛ فذلك نبقي في جو شرح القرآن لظاهرة النعمة على الإنسان، والعناية به وكون ذلك دليلا على الله.

2- يقول الله تعالى: "وَإِن تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوْهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ" النحل : 18 "وَإِن تَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوْهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ" إبراهيم : 34 والملاحظ أن آية من الآيتين ختمت بأن الله لغفور رحيم بينما الأخرى ختمت بوصف الإنسان إن الإنسان لظلمات جهول فوضي من سياق الآيتين وختامهما معا:

1- إن هذه النعم التي لا تعد ليست مصادفة بل هي من خلق الله، وعفو الله ورحمته هما اللذان يسعان الإنسان المؤمن، إذا لم يقم الله بحق المعرفة أو بواجب الشكر قياما كاملا.

2- إن جهل الإنسان الذي ينتج عنه الكفر، وكبره الذي ينتج عنه الظلم، هو الذي يجعل الإنسان لا يرى بداعه نعم الله، ويجعله لا ينسبها إلى الله بإخلاص وتجرد، بل ينسبها إلى أي شيء، مهما كان تافها وباطلا: "وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَرَتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبِّهُونَ" الزمر : 45

3- وقد أجمل الله ماهية عنايته بالإنسان ونعمه عليه في آيات منها: "هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميماً". **"لَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَةً ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً"** لقمان : 20 **"وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ"** الجاثية: 13 وفي هذا الإجمال السريع يتبيّن:

1- أول مظاهر من مظاهر نعمة الله على الإنسان، خلقته على ما هو عليه من معان ظاهرة وباطنة.

2- ثاني هذه المظاهر أن الأرض بما فيها والسماء بما فيها مسخرة للإنسان.

3- إن هذا الإنعام كله بجزئيه على الإنسان من الله عز وجل قال تعالى **"وَأَسْبَغَ"** وقال: "جَمِيعًا مِنْهُ" ولا يمكن أن يكون إلا ذاك؛ لأن مناسبة الكون للإنسان وإمكانه تسخيره، لا يمكن أن يكون إلا بمسخر.

4- وبعد هذا الإجمال، نذكر بعض تفاصيل هذين المظهرين من مظاهر نعمة الله على الإنسان في القرآن:

1- **"وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا"** الإسراء : 70 **"الرَّحْمَنُ"** عَلَمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَمَهُ الْبَيَانَ الرحمن :

1-4 **"لَقَدْ خَلَقْنَا إِنْسَانًا فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ"** التين : 7 ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم **"فَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ"** رواه البخاري (6227) ومسلم (2841)

أي على صفاته على رأي بعضهم، فالله له إرادة وللإنسان إرادة، والله له علم وللإنسان صفة علم، والله هي وللإنسان صفة حياة، والله سميح وللإنسان صفة سمع، والله بصير وللإنسان صفة بصر، والله متكلم وللإنسان صفة كلام، والله حليم وللإنسان صفة حلم، والله رحيم للإنسان صفة رحمة و مع ملاحظة أن الله ليس كمثله شيء؛ وجوداً وصفات وأسماء وأفعالاً. فلم ينعد على مخلوق من المخلوقات كما أنعم على الإنسان من حيث ما أعطى من معطيات خلقية ظاهرة وباطنة: **"وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَةً ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً"** لقمان : 20 وكفى بالعقل للإنسان نعمة، وبسبب ما أعطى استطاع أن يسخر هذا الكون بما فيه.

2- ويعدد الله عز وجل نعمه الكونية على الإنسان، وما أكثر الآيات في ذلك ويكفي أن نعرف أن سورة طويلة هي سورة الأنعام كلها تقريباً تتحدث عن هذا الموضوع، وكذلك سورة النحل، ولنذكر نماذج مختارة من القرآن الكريم: "هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّنِينَ وَالْحِسَابَ" يومنا : 5

"وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ" الأنعام : 97 إن الطريق الوحيد للإنسان كي يتعرف على الطريق الصحيح في ظلمات البر والبحر هو النجم، وقد كانت المسألة قد فيما أوضح منها الآن لكثرة ما كان يستفيد الإنسان من الاهتداء بالنجم، ولكن في الحاضر وإلى الأبد سيجيء الاهتداء بالنجوم شيئاً أساسياً. يهتمي بها قاطع الصحرا في سيره، والجندي في معركته هجوماً أو انسحاكاً والإنسان حيث كان، إن السفينة في البحر إذ تسلك طريقها معتمدة على البوصلة وعلى خطوط الطول والعرض هي - حتى في هذه - معتمدة على النجم؛ إذ لو لا نجم القطب ما عرف طولاً ولا عرضاً، ولو لا النجوم الأخرى ما عرف نجم القطب. وبدون نجوم كم يتعدى الإنسان وكم يضل، وكم تشن حركته، وكم تتقلص دائرة عمله!!

"وَالْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيٌّ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُّلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ" * وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ" النحل : 15-16

"اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآتَكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ" إبراهيم : 32-34

"أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقَاهُمَا وَجَعَلَنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٌّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ * وَجَعَلَنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيٌّ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلَنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُّلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ *

وَجَعَلَنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ * وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلُّ فِي فَلَكٍ يَسْبِحُونَ" الأنبياء : 30-33

"خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ * وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيَحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِالْغَيِّ إِلَّا بِشَقٍّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ *

وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكُبُوهَا وَرَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَا كُمْ أَجْمَعِينَ * هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسَيِّمُونَ * يُبَيِّنُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ النَّثَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَسَخَرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمَا نَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَفِي الْوَانِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَكَّرُونَ * وَهُوَ الَّذِي سَخَرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلُكَ مَوَاحِرَ فِيهِ وَلَنَتَبَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشَكُّرُونَ * وَالْأَقْيَ في الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهَذُونَ * وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهَذُونَ * أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوْهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ" النحل : 18-3

"أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَقَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ"

النحل : 48

"وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيْكُمْ مَمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لِبَنًا خَالِصًا سَائِعًا لِلشَّارِبِينَ * وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَخَذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرَزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَيْكُمْ أَنِ اتَّخِذُوا مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِّي مِنْ كُلِّ النَّثَرَاتِ فَاسْكُنُكُمْ سُبُلَ رَبِّكُمْ ذُلْلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ الْوَانِهِ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ" النحل : 65-69

"وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَرْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ" النحل : 72

"وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئَدَةَ لِعَلْكُمْ تَشَكُّرُونَ * أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوَ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخْفُونَهَا يَوْمَ طَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ

مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيمُ بِأَسْكُمْ كَذَلِكَ يُتْمِنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ * فَإِنْ تَوَلُوا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ * يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنَكِّرُونَهَا وَأَكْثُرُهُمُ الْكَافِرُونَ" النحل : 78-83

"الَّمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا * وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا * وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا * وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا * وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا * وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا * وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِيرَاتِ مَاءً ثَجَاجًا * لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا * وَجَنَّاتٍ أَفَافًا" النبا : 6-16

"فَلَيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًا * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًًا وَعِنْبًا وَقَضْبًا * وَزَيَّتُونًا وَنَخْلًا * وَهَادِئَةً وَأَبَا * مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ" عبس : 24-

32

"يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هُلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَإِنَّمَا تُؤْفَكُونَ" فاطر : 3

"وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتَشِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلْدٍ مَيْتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ" فاطر : 9

"الَّمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا الْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدُدٌ بِيَضْنٍ وَحُمُرٌ مُخْتَلِفُ الْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفُ الْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ" فاطر : 27-28

"وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيَّتُونَ وَالرُّمَّانَ مُنْشَابِهَا وَغَيْرَ مُنْشَابِهِ كُلُّوَا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَنْتَرَهُ وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً كُلُّوَا مِمَّا رَزَقْنَاكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَبَعُوا أَخْطُواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّانِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ الْذَّكَرَيْنِ حَرَمٌ أَمِ الْأُنْثَيْنِ

أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأَنْثَيْنِ نَبَوْنِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَمِنَ الْإِبْلِ اثْتَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْتَيْنِ "الأنعام : 141-144

"إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبَّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّ تُؤْفَكُونَ * فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَعْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ" الأنعام : 95-96.

"وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقِرٌ وَمُسْتَوْدِعٌ قَدْ فَصَّلَنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ" الأنعام : 98
ونختم هذه الآيات بما ختمت به سورة الأنعام: "وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَافَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيُبَلُوْكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ" الأنعام : 165

وفي هذه الآية ترى إجمالاً لنعم الله كلها:

1- كون الإنسان خليفة على هذه الأرض، وفي هذه إشارة لنوعية النعم: نعمة الله على الإنسان في إعطائه الخصائص الظاهرة والباطنة التي استأهل بها تسخير الوجود، ونعمة الله على الإنسان إذ جعل الأرض بما فيها له.

2-كون الناس ليسوا سواسة؛ بل رفع بعضهم فوق بعض درجات من أكبر النعم. وقد يشكل على بعض الناس كيف يكون جعل الناس بعضهم فوق بعض نعمة، وهذا من قصور الفهم؛ وذلك لأن الحياة الدنيا لا تقوم إلا على هذا، فلو كان الناس كلهم متساوين جمالاً وذكاء وقوه وعقلاً وعلماً وإمكانات، وكانوا كلهم في الدرجة العليا من ذلك فإن وقتذاك لا يوجد كناس ينظر أرضاً، ولا عامل يقيم عملاً، لكن وجودهم متفاوتين جعل كلاً مسخراً في حدود طاقاته، إلى جزء من العمل الذي تقوم به الحياة الدنيا ومصالح الخلق وبهذا التفاوت صلاح ناس للإمرة وناس للشورى وناس للجيش، وهكذا.

ثم بينت الآية الحكمة في وجود هذا التفاوت بين المستخلفين؛ وهو الابتلاء فيما أوتي كل إنسان من مقام وموهاب وإمكانات، فمن استعمل هذه في طريقها الصحيح نجح وإن فقد سقط، وقد يسقط إنسان أوتي من المكانة أعلىها، وينجح إنسان أوتي المكانة أدنائها، ومن هنا ندرك أن أكبر

نعمة أنعمها الله على الإنسان إرسال الرسل: "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ" الأنبياء : 107
اللَّهُمَّ مَنْ أَنْتَ بِهِ أَعْلَمُ فَإِذَا أَنْتَ بِهِ أَعْلَمُ
اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتَّلَوُ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ" آل عمران : 164

إن الرسل عليهم الصلاة والسلام هم الذين يدلون كل إنسان على الطريق الصحيح الذي ينبغي أن يستعمل فيه ملائكته كلها، بحيث لا يغفل شيئاً منها، وب بحيث لا يصطدم مع الآخرين الذين يحسنون استعمال الملائكة، وبالتالي تتم نعمة الله على الإنسان بالاستفادة من كل ما سخر له، ولو لا هذا لتضاربت محاولات الناس الاستفادة مما سخر الله لهم واصطدموا، وأصبح هذا الفضل على الإنسان بتسخير كل شيء له سبباً في شقاء الإنسان كما هو واقع الآن.

من كل ما تقدم نخرج بما يلي:

هذا الإنسان هو أكمل مخلوقات هذا الكون، ودراسة كاملة لهذا الكون، تدلنا على أنه سماواته، وأرضه، وحيواناته، ونباتاته، كله مسخر للإنسان لا يشذ عن كل هذا ذرة من ذراته: فالنباتات قديمها وحديثها يستفيد منها الإنسان مباشرة أو بطريق غير مباشر ثمرة لغذائه، وساقها لسياراته وشقته وناره، وزهرها للنحل الذي يأكل منه الإنسان العسل وقد تكون غذاء للشاة التي يأكل لحمها، ويشرب لبنها ويستعمل صوفها لثيابه، ويستخرج منها الدواء ويصنع منها الأدوات، ولا ننسى أن البترول كان من الأشجار على رأي بعضهم.

وهذه الأحياء ما علمنا منها وما لم نعلم؛ أليست كلها للإنسان يستفيد منها بطريق مباشر وغير مباشر: درا وطعاماً، ومتعة ونظراً وقد نرى أصنافاً من الأحياء لا نعرف الآن ماذا يستفيد منها الإنسان وكيف يستفيد وقد يعرف في المستقبل، ولعل في هذه القصة عبرة: (هناك نوع من الصبار يستعمل كسياج للمزارع، نقل إلى أستراليا ووزع هناك وكانت فاجعة إذ امتد بشكل هائل لدرجة أنه كاد يغطي كثيراً من الأراضي الصالحة للزراعة وحار العلماء في هذا الأمر، ثم عثروا على نوع من الجراثيم المرضية لا تعيش إلا على هذا النوع من النبات، فنقلوا هذه الجراثيم بواسطة النبات نفسه، وبدأت الجراثيم تعمل عملها حتى تقلص النبات إلى الوضع المناسب، والملاحظ أن الجرثوم لم يقض على النبات بل بقي النبات ولكن بالقدر الذي ينفع ولا يضر) ولعل في قصة اكتشاف البنسلين وفي وجوده عبرة أخرى ، على أن كل شيء في هذا الكون يستفيد الإنسان منه بشكل أو باخر الآن أو غداً، وعلى كل فإن الإنسان كما يتمتع

باللّقمة التي يأكلها والثوب الذي يلبسه يتمتع بالمنظر الجميل، وكما يتمتع بالمنظر الجميل، يتمتع بلذة المعرفة، ولئن لم يكن في بعض المخلوقات إلا أنها تدل على حكمة الله ورحمته وسعة عنايته بمخلوقاته، إيجاداً وإمداداً، إحياء وإماتة ورزقاً لكفى.

ثم أليست عناصر هذا الكون: حديده ونحاسه، وأوكسجينه، وأزوتـه، وهيدروجينـه، وذهبـه، كلـها مسخـرة للإنسـان؟! ثم الأرض بساطـه ومائـاه ومحلـ معاشه وقرارـه؟! وفي القـمر للإنسـان جـذـبه ونورـه وجـمالـه ومعرفـتنا الـوقـتـ بـهـ؟! وفي الشـمـس للإنسـان جـذـبـها وحرـارتـها ونورـها وطـاقـتها التي نـبـتهاـ؟! وفي النـجـوم الـهـادـيـةـ الجـمـيلـةـ؟! والمـيـاه دـورـتهاـ؟! ثم كـونـ هذاـ الإـنـسـانـ عـلـىـ ماـ هوـ عـلـيـهـ منـ عـلـمـ وإـرـادـةـ وـقـدـرـةـ وـحـكـمـةـ وـعـقـلـ بـحـيـثـ عـرـفـ الـكـثـيرـ منـ الـأـشـيـاءـ، وـكـيفـ يـسـقـيـدـ مـنـهـاـ، أـلـيـسـ فـيـ هـذـاـ دـلـيـلـ كـامـلـ عـلـىـ أـنـ هـذـاـ كـوـنـ خـلـقـ مـسـخـراـ لـلـإـنـسـانـ، وـأـنـ الـإـنـسـانـ خـلـقـ مـسـخـراـ لـهـذـاـ كـوـنـ؟! أـوـ لـيـسـ فـيـ هـذـاـ دـلـيـلـ الـكـامـلـ عـلـىـ أـنـ هـذـاـ ذـاتـاـ رـتـبـتـ هـذـاـ لـلـإـنـسـانـ وـأـوجـدـتـ الـإـنـسـانـ لـهـ؟! ذـلـكـ اللهـ ربـ الـعـالـمـينـ.

قال تعالى: "وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لِأَرِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ" * وقال موسى إن تكـفـرـوـ أـنـتـمـ وـمـنـ فـيـ الـأـرـضـ جـمـيعـاـ فـإـنـ اللـهـ لـغـنـيـ حـمـيدـ" إـبرـاهـيمـ : 7-8
"وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ" سـبـأـ : 13

الظاهرة التاسعة

ظاهرة الوحدة

إن الدارس لهذا الكون ، يرى أن فيه وحدة، تدل دلالة كاملة على أن ذاتاً واحدة بعلم واحد وإرادة واحدة وقدرة واحدة قد أوجده، ومظاهر هذه الوحدة كثيرة منها:

1- التكامل في أجزاء هذا الوجود الذي يدلنا بدقة على أن خالقاً واحداً قد رتب أجزاءه هذا الترتيب الدقيق المتكامل، يقول الأستاذ البنا رحمة الله:

الملاحظة الأولى: هذا الهواء الذي نستنشقه مركب من عدة عناصر منها جزءان هامان: جزء صالح لتنفس الإنسان ويسمى باصطلاح الكيميائيين الأوكسجين وجاء ضار به ويسمى الكربون، فمن دقائق الارتباط بين وحدات هذا الوجود المعجز أن هذا الجزء الضار بالإنسان يتنفسه النبات وهو نافع له، وفي الوقت الذي يكون الإنسان فيه يستنشق الأوكسجين ويطرد الكربون، يكون النبات يعمل عكس هذه العملية فيستنشق الكربون ويطرد الأوكسجين.

وتحت عملية إيجاد التوازن بين الصادر والوارد من غاز الفحم (البحر) ، فإنه يمتص كل زيادة موجودة في الجو إذا بلغت هذه الزيادة فوق الحد المناسب.

فانظر إلى الرابطة التعاونية التكاملية بين الإنسان والنبات والبحر في شيء هو أهم عناصر الحياة وهو التنفس.

الملاحظة الثانية: أنت تأكل الطعام وهو يتربّك من عدة عناصر نباتية أو حيوانية، يقسمها العلماء إلى مواد زلالية ونشوية ودهنية مثلاً، فترى أن الرريق يهضم بعض المواد النشوية ويذيب المواد السكرية ونحوها مما يقبل الذوبان، والمعدة يهضم عصيرها المواد الزلالية كاللحم وغيره، والصفراء المفرزة من الكبد تهضم الدهنيات وتجزئها إلى أجزاء دقيقة يمكن امتصاصها، ثم يأتي البنكرياس بعد ذلك، فيفرز أربع عصارات تتولى كل واحدة منها تتميم الهضم في عنصر من العناصر الثلاثة النشوية أو الزلالية أو الدهنية، والرابعة تحول اللبن إلى جبن، فتأمل هذا الارتباط العجيب بين عناصر الجسم البشري وعناصر النبات والحيوان والأغذية التي يتغذى بها الإنسان.

الملاحظة الثالثة: ترى الزهرة في النبات، فترى لها أوراقاً جميلة جذابة، ملونة بألوان مبهجة فإذا سألت علماء النبات عن الحكمة في ذلك أجابوك بأن هذا إغواء للنحل وأشباهه من المخلوقات التي تمتص رحيق الأزهار، لتسقط على الزهرة حتى إذا وقفت على عيدها عاقت حبوب اللقاح بأرجلها، وانتقلت بذلك من الزهرة الذكر إلى الزهرة الأنثى فيتلقيح، فانظر كيف جعلت هذه الأوراق الجميلة في الزهرة حلقة اتصال بين النبات والحيوان؛ حتى يستخدم النبات الحيوان في عملية التلقيح الضرورية للإثمار والإنتاج.

هذا التكامل تجده في كل شيء بين الليل والنهار، السماء والأرض، الشمس والقمر، الأعضاء المذكورة والأعضاء المؤمنة والإنسان والحيوان والنبات.

إن في هذا الكون وحدة مظاهرها تكامل أجزائه تدل على أن لها خالقاً وأنه واحد. أما لم دلنا هذا على الوحدانية؟ يجيب على هذا الأستاذ البناء فيقول: (إن التعدد مدعاة الفساد والخلاف والعلو ولا سيما شأن الألوهية الكبرياء والعظمة، وأيضاً فلو استقل أحد المتعددين بالتصريف تعطلت صفات الآخرين، ولو اشتركوا تعطلت بعض صفات كل منهم، وتعطيل صفات الألوهية يتناقض مع جلالها وعظمتها فلا بد أن يكون الإله واحداً لا رب غيره) وقد ذكر القرآن دليلاً على التكامل ودلالة على الخالق ووحدانيته في أكثر من سورة:

قال تعالى: **”قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْنَطَفَى اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتَنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا إِلَّهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ * أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خَلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا إِلَّهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُفَاءَ الْأَرْضِ إِلَّهٌ مَعَ اللَّهِ فَلَيْلًا مَا تَذَكَّرُونَ * أَمَّنْ يَهْدِي كُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيِ رَحْمَتِهِ إِلَّهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّنْ يَبْدِأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ“ النمل : 59-64.**

”أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنَشِّرُونَ * لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسَبَّحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ * لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعُلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ * أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مَّا مَعِيَ وَذِكْرٌ مَّا قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ

وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَآئِلَّةٌ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونَ" الأنبياء : 21-25.

"قُلْ لَمَّا فِي الْأَرْضِ وَمَن فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبَعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَقَوَّنَ * قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَكْوَتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَإِنِّي تُسْحَرُونَ * بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ" المؤمنون : 84-92.

"قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ إِلَهٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَا يَتَغَوَّلُونَ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا * سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا" الإسراء : 42-43.

2- ومن مظاهر هذه الوحدة في الكون، ذلك التناقض والترتيب الذي ذكره الله في القرآن بقوله تعالى: "مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَابِ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِيًّا وَهُوَ حَسِيرٌ" الملك : 3-4

وَهَذِهِ أَمْثَالٌ مِّنْ هَذَا الْكَوْنِ تَدْلِيكُ عَلَى هَذِهِ الْوَحْدَةِ الشَّامِلَةِ الْمُتَنَاسِقةِ فِيهِ:

1- إن الإلكترون يدور على عقارب الساعة، والأرض تدول على عقارب الساعة، والشمس تدور على عقارب الساعة، والقمر وكل الأقمار تدور على عقارب الساعة، والنجوم كلها تدور على عقارب الساعة، و مجرتنا التي تضم بين أجزائها مجموعتنا الشمسية تدور على عقارب الساعة، والإلكترون يدور على مدار بيضاوي إهليجي والأرض تدور حول الشمس على مدار بيضاوي إهليجي، وكذلك الزهرة ونبتون والمشتري والكواكب السيارة، ومحور الأرض مائل. ومحور القمر مائل، ومحور المريخ مائل. ومحور الشمس مائل. والعجيب أن النسبة بين النوات والإلكتروناتها كالنسبة بين الشمس وكواكبها السيارة.

2- إن ذرات الوجود كلها تقوم على الزوجية، كهرباء سالبة وكهرباء موجبة، فإذا ارتفينا إلى النبات وجدنا عنصر الزوجية، فإلى الحيوان كذلك، فإلى الإنسان كذلك وحتى في الأحياء المخنثة توجد أعضاء ذكورية وأخرى أنثوية قال تعالى: "سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُبْتَطِّلُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ" يس : 36 وفي الأرض نفس العناصر التي تؤلف الشمس، ونفس العناصر التي تؤلف كل الكواكب، والكون بكل عناصره مؤلف من بروتونات وإلكترونات كعناصر أساسية، وهناك نيترونات كشحنة كهربائية معتدلة تكون في نواة معظم العناصر.

3- في هذا الكون قوة ومنابع قدرة، وتحكمه قوانين، وإنك لتجد أدق معاني التناسق والوحدة بين هذه القوى والقوانين، كمثال: من منابع القوة والقدرة في هذا الكون: الضوء والحرارة والأشعة السينية، والأشعة اللاسلكية، والأشعة البنفسجية، تحت الحمراء، هذه القوى كلها ترجع إلى شيء واحد هو تلك القوة الكهربائية المغناطيسية ولها جميعاً سرعة واحدة وإنما اختلافها اختلاف موجة. ومن قوانين هذا الكون، قانون الجاذبية الذي يحكم الوجود كله من أصغر ذراته إلى أكبر أجرامه، والذي نصه: كل شيء له كتلة يجذب كل شيء آخر له كتلة، وقوة التجاذب التي بينهما تزداد ازدياداً طردياً بزيادة أي الكتلتين، فالقوة تتناسب تتناسب عكسياً مع مربع البعد بينهما. والآن عرفنا أن هناك قوتين أو نوعين من القوى؛ القوة المغناطيسية الكهربائية وقوى الجاذبية وكلها ترجع إلى أصل واحد.

يقول أينشتاين: (إن روح العالم النظري لا تحتمل أن يكون في الوجود شكلان لقوى لا يلتقيان شكل للجاذبية القياسية، وشكل للمغناطيسية الكهربائية)

4- وهاتان قستان تدلان على التنساق أولاً، وفي التشابه بينهما دليل على الوحدة الكونية:
الأولى: إن لاختلاف العناصر الأصلية في هذا الكون، أثر عند اختلاف عدد الإلكتروناتها وبروتوناتها ، والوزن الذري أثر من آثار هذا العدد ، وخصوص كل عنصر أثر من آثار هذا العدد، وقد استطاع العالم الروسي مندليف أن يصنف العناصر بحسب وزنها الذري ووضع لها جدولًا على هذا الأساس وكان ترتيب العناصر متدرجًا صاعداً، ولكن مندليف فوجئ بفراغ كالفراغ الذي سُنكره بين المريخ والمشتري.

إذ أنه وجد أن درجات السلم الدوري للعناصر تطرد بتتابع لا فراغ فيه، إلا في ثلاثة عناصر، فإما أن يكون هذا القانون الدوري غير مطرد وغير صحيح، وإما أن يكون صحيحاً ومطرداً، فلا بد حينئذ من وجود هذه العناصر المفقودة في نفس تلك الدرجات الفارغة، وكان مندليف واثقاً من صحة قانونه الدوري، فأخذ يؤكد أن هذه العناصر الثلاثة المفقودة لا بد من وجودها على الأرض، بل إنه استطاع على أساس وزنها الذي يأتي في الدرجات الفارغة أن يحدد كل الخواص الكيميائية التي لها كأنه يراها، وقد رأى مندليف قبل موته صحة نظريته العلمية، واكتشف العلماء العناصر المفقودة بكل خصائصها كما حددها مندليف.

الثانية: أقرب الكواكب إلى الشمس عطارد وبعد 36 مليون ميل، فالزهرة ومتوسط بعدها 67 مليوناً، فالأرض 93 مليوناً، فالمريخ 142، فالمشتري 484 مليوناً فزحل 887 مليوناً فأورانوس 1782 مليوناً، فنبتون 2792 مليوناً من الأميال، وبهمنا أن نعرف النسبة في هذه الأعداد. إن أبعاد هذه السيارات عن الشمس جارية على نسب مقدرة ومطردة تسير وفق 9 منازل: أولها الصفر، ثم تليه ثمانية أعداد تبدأ بالعدد 3، ثم تتدرج متضاعفة هكذا 2-6-12-24-48-96-192-384 فإذا أضيف إلى كل واحد منها العدد 4 ثم ضرب حاصل الجمع بتسعة ملايين ميل، ظهر مقدار بعد السيارة التي في منزلة العدد عن الشمس؛ أي أنه بالإضافة 4 إلى كل منزلة تصبح المنازل التسع هكذا: 4-7-10-16-28-52-100-196-388 فإذا أخذنا أعداد المنازل هذه، وضربنا كل عدد منه بتسعة ملايين، يظهر لنا بعد السيارة التي هي في منزلة ذلك البعد عن الشمس؛ فعطارد مثلاً يبلغ متوسط بعده عن الشمس 36 مليون ميل، وبما أن منزلته في البعد هي الأولى فيكون رقمه 4، فإذا ضربنا 9×4 يكون حاصل الضرب 36 مليون ميل، وهكذا تسير النسبة في بعد كل سيار عن الشمس مع فروق مخالفة قليلة.

ولكنهم وجدوا أن منزلة العدد (28) ليس فيها كوكب، بل تأتي بعد العدد 16 الذي صاحبه المريخ، العدد 52 الذي صاحبه المشتري، مما هو السر في هذا الفراغ؟ إما أن تكون النسبة التي اكتشفوها غير مطردة، وإما أن يكون هناك كوكب غير منظور في مرتبة العدد 28 على بعد 252 مليون ميل عن الشمس، أي بين المريخ والمشتري وأخيراً وجدوا هذا الشيء الذي لا بد من وجوده، ولكنهم لم يجدوه كوكباً كبيراً؛ بل وجدوا كويكبات صغيرة كثيرة تدور كلها في

الفراغ المذكور الذي بين المريخ والمشتري، أي في نفس المنزلة التي حسيوها من قبل فارغة، فكأنه كوكب تحطم.

هاتان قستان متشابهتان في قضيتين مختلفتين، كل واحدة منها تتم الأخرى لتكملًا عندي الشعور؛ لأن يدا واحدة قد خلقت قوانين هذا الوجود وعناصر وجزئياته وكلياته.

للنجوم قصة:

(فقد عرف الإنسان شيئاً من موقع النجوم، وعرف أن لها أقداراً ثابتة بحسب نورها وعددتها. عدوا منها في الماضي البعيد ستة أقدار ووقفوا، ثم ما زالوا يكتشفون الجديد حتى وصلوا إلى القدر العشرين، ثم إلى القدر الحادي والعشرين، والعجيب في هذه الأقدار أنها تسير متزقية أو متذبذبة - بحسب عدد النجوم تارة، وبحسب قوة نورها أخرى - في نسب مدهشة تطرد في عدد النجوم، فتزداد تباعاً من قدر إلى قدر، فيكون عدد نجوم القدر الأول 14 نجماً، ثم لا يزال يزداد حتى يبلغ في القدر العشرين 76 مليون نجم، ويبلغ في القدر الحادي والعشرين ملياري نجم، أما في قوة النور فقد شوهد أن تلك الأقدار تزداد باطراد من القدر الأول إلى القدر العاشر، فكلما زاد عدد النجوم في القدر زادت قوة النور، وأما بعد العاشر فتتعكس الآية وتأخذ قوة النور في التضاؤل).

ومن مظاهر هذه الوحدة في هذا الكون اتصال أفق النبات بأفق الحيوان، واتصال أفق الحيوان بأفق الإنسان، فترى في عالم النبات تدرجًا من أدنى إلى أعلى مع التشابه، وتتجدد أعلى آفاق النبات متصلة بأدنى آفاق الحيوان، وأعلى آفاق الحيوان متصلة _ نوع اتصال _ بأفق الإنسان، حتى حسب الحاسوب أن هناك بذرة أولى كان منها تطور وارتقاء حتى أصبحت الأحياء على ما هي عليه. وقد نقاشنا هذه النظرية وبيننا بطلانها في ظاهرة الحياة، ولكن القول بها دليل على ما بيناه من أن في أحياء هذا الكون وترقياتها وحدة تدل على وحدة الصانع الذي خلقها أجنساً وأنواعاً، وجعل بعضها أرقى من بعض: *وَمَا مِنْ دَآبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحِيهِ إِلَّا هُمْ أَمْثَالُكُمْ*" الأنعام : 38

ومن مظاهر الوحدة في هذا الكون أن المادة كلها من نور، إذ أن عناصر المادة كلها تؤول إلى ذرات وكهارب، وأن هذه الذرات والكهارب تتشق فتؤول إلى شعاع.

ومن مظاهر الوحدة أنك تجد أن أجنة الحيوان والإنسان في الشهور الأولى من الحمل متشابهة تشابها تماما، فإذا بهذا التشابه يخرج منه ذلك الخلق مختلف.

وهذه المظاهر كلها تدل على التنسيق والترتيب، فإذا أضفنا إليها ظاهرة التكامل، عرفنا جزماً أن ذاتاً واحدة، بعلم واحد، بإرادة واحدة، بقدرة واحدة، هي صانعة هذا كله.

أما لم نسبنا هذا الوجود والوحدة فيه إلى خالق؟ ولم حكمنا أن هذا الخالق واحد؟ وما الرد على عباد الطبيعة؟ فهذا ما سيأتيك الجواب عنه في الفصول الثلاثة التالية بالتفصيل:

- 1- السببية
- 2- الطبيعة
- 3- التوحيد

وهذه الفصول الثلاثة منقولة من كتاب الوجود الحق للدكتور حسن هويدى.

وإنما وقنا عند هذه الموضوعات الثلاثة هذه الوقفة، لأن أعظم صراعات الإسلام المعاصرة، صراعه مع الماديين الذين ينكرون قانون السببية في حق الكون، ويعملون لحوادث الكون بأنها فعل الطبيعة، والصراع الضخم الآخر صراع الإسلام مع القائلين بالتعدد كالنصارى القائلين بالثلثية والمجوس القائلين بالشتوية والمشركين عموما، وللتأكيد على السببية وعلى دحض فكرة الطبيعة وعلى تعميق التوحيد نذكر فصلا رابعا نجعله تحت عنوان عود على بدء للشيخ سعيد النورسي.

1- السببية

منذ امتياز هذا الإنسان بالإدراك وإشراق أشعة عقله على الوجود، تسأله ولا يزال عن مبدئه ومنتهاه، فهو يتتسأله من أين أتى وإلى أين يصير؟ وهو إذ ينصرف فكره إلى أن وروده المباشر إلى هذا العالم؛ إنما كان من رحم أمه، أو من نطفة أبيه، لا يقتصر بهذه النظرة السطحية القريبة، دون النظر إلى المبدأ الأول، والبحث عن السبب الأساسي الذي ترجع إليه جميع الأسباب.

ولهذا الدافع العميق الممترض بالنفس البشرية، والذي ولد معها، وما زال يلازمها، كان الجواب على هذا السؤال شغل المحققين الشاغل؛ فنشأت أحكام مختلفة، ونظريات متباعدة وكان منهم مخطئ ومصيّب. غير أننا إذا نظرنا إلى ما بين أيدينا من السماء والأرض؛ نرى أن المطر ينهر من سحاب، وأن الثمر يحصل من شجر، وأن الشجر ينبع من الماء والتراب، وأن الماء ينشأ من عنصر الأوكسجين والهيدروجين ولم يشاهد الإنسان منذ فتح عينيه على الوجود أن حدثاً حدث من غير سبب، أو أن شيئاً وجد من غير موجود، حتى أضحى هذا المعنى بحكم الواقع القاهر لا يتصور العقل خلافه ولا يطمئن إلى غيره، ولا يأبه الإقرار به إلا عقل مريض شأن المعتوهين، أو عقل قاصر شأن الطفل الذي يكسر الإناء ثم يقول: إنه انكسر بنفسه؛ ولذلك وجدنا ذلك العربي قد أدرك هذه السببية بفطرته النقية فنادي نداء المشهور: البعثة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، ليل داج، ونهار ساج، وسماء ذات أبراج، أفلا تدل على الصانع الخبير.

لهذا الواقع الصريح ، والإدراك القاهر ، وجريان الحوادث أبداً على هذا القانون أضحى هذا المبدأ مسلماً به في كتب الفلسفة، وسمي بمبدأ السببية وهو أول مبادئ العقل المديرة للمعرفة، لأنه أساس الأحكام العقلية والمحاكمات المنطقية، ولو التفت إلى كلماتك التي تخاطب بها الناس صباح مساء، والأحكام التي تنظم بها شؤون حياتك، لوجتها لا تخلو في أي مرحلة من المراحل من الاستناد إلى مبدأ السببية.

إذا، فقولنا: لا بد لكل حادث من محدث أمر يقيني مسلم به ولا يقبل العقل غيره، وبالتالي محال على حادث أن يحدث بذاته، وعلى شيء أن يوجد بغير موجود، وإليه الإشارة في القرآن الكريم "أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ" الطور : 35

نقول بناء على هذه القاعدة: إن عالمنا هذا من أرض وجبار، وشجر ودواء وكواكب وشموس، لا بد له من محدث، وإن هذه الحوادث الفرعية الكثيرة، مندفعة عن أسباب، وهذه الأسباب مندفعة عنه أسباب أخرى أقل من الأولى، ولا بد أن نصل بالنتيجة إلى سبب لجميع هذه المسببات، ومحدث لجميع هذه الحادثات، لأننا كلما رجعنا إلى الأصل الذي اندفعت عنه المسببات، قلت العوامل الدافعة، حتى نصل أخيراً إلى مسبب واحد. كنظرك إلى أغصان

الشجرة المتعددة المتشابكة، فكلما ذهبت تبحث عن أسبابها، ذهبت إلى قليل من كثير، حتى تنتهي إلى ساق واحدة، وإنك تجد لهذه أمثلة كثيرة، هي من الظهور بمكان لا تحتاج معه إلى الوقوف الطويل وضرب الأمثال.

إذا، فإنكار محدث للحوادث، وموجد للوجود، تناقض مع العقل، وإقامة على الخطأ، ولعله لهذا الإلزام المنطقي الذي لا مناص منه، سماه ابن سينا بالواجب الوجود، حفاظا على حرمة العقل من أن يوصم بالتخليط والتناقض، أو البلاهة والتبلد إذ يستحيل أن ينبعق الوجود من العدم. هذا وإن قدم المبدأ، أو قول كثيرين به، أو ظهوره بمظاهر البديهية لا يقضي عليه ولا يخرجه من الحق إلى الباطل، ما دام العقل يميليه، والواقع يؤيده، إلا إذا كان الداعي إلى الإنكار، استكبارا على كل قديم، أو عقوقا للمنطق السليم، أو جريأا مع كل هوى سقيم، شأن الحمقى والمرضى والمغرورين.

وقد يقول قائل: إن هذا المحدث لجميع الحوادث هو الطبيعة، وسيأتي الكلام على الطبيعة، أو يقول: إذا أقررنا بوجود الخالق، فمن الذي أوجد الخالق؟ وسيأتي تفصيل ذلك. والذي نريد أن نخلص إليه الآن واضحا مجزوما به: لا بد لكل حادث من محدث، إذن فلا بد لهذا العالم من خالق.

هنا قد يثير بعض النقاد قضية قدم العالم وحدوثه، فيقول: إن هذه القاعدة تستقيم إذا سلمنا بحدوث العالم ولم نقل بقدمه.

ونقول: إن البرهان ملزم بالقول بحدوث العالم ونفي قدمه، فقد قال الإمام الغزالى بناء على ملاحظة الحركة والسكون: إن دورة من الفلك: إما أن تكون شفعا أو وترًا فإن كانت شفعا فقد أتمت عددا فرديا، وإن كانت وترًا فقد أتمت عددا زوجيا، إذن فالعدد السابق على كلا الحالين محدود، ولما كان محدودا فهو حادث قطعا ولو استمر الناقد فقال: إن أصل العالم (هيولاه) قديم، والحركة طارئة، قلنا له: من أين طرأت الحركة به، فهو إذن إقرار منه صريح بوجود مرجع آخر أثر على العالم بإيجاد الحركة، بل هو استعجال فاصل للإقرار بوجود خالق للعالم، فالناقد بين أمرتين: إما أن يرجع إلى قولنا بحدوث فيعترض بالخلاف، أو أن يقر بوجود المرجع وهو اعتراف بالخالق، إذن، فقد الناقد واه لم يصل إلى القرارة ولم يثبت للنقد، والقول بقدم العالم

باطل لا يسنه برهان، وهكذا تنهار المادية الجدلية التي تقول بقدم العالم، هربا من الإقرار بوجود خالق للعالم، وتفلت من البرهان الملزم، والدليل القطعي.

وقد تستغرب قولي بانهيارها بهذه السرعة، ولكنني أقول: إن عقدا من النظام لو بلغ ألف حبة، لانفطر كله بحل العقدة الأولى. وإن لم ترد ذلك، فاحذف من المادية الجدلية كل ما بني على أساس قدم العالم من الأحكام، فأول حكم تهدمه من أحكامها الأساسية إلحادها في الخالق، وعند القول بخالق الوجود؛ تتلاشى أحكام أخرى تهم حكم الفرعية كما سترى، دون أن يكون البحث موجها إلى الفروع خاصة، ولكن بروز الحقيقة في الأصل يهدم بصورة عفوية كل باطل فرعى.

2- الطبيعة

بعد ما تبين لك، بما لا يقبل الشك، وجود الخالق الأول، وأنه الكامل المطلق، وأن السؤال عن خالق الكمال المطلق لا يصح، وتبددت أمامك تلك الشبهات، بقيت شبهة من شبهات العصر، وضلال آخرى من ضلالاته، وهي كما سيظهر لك مصطنعة كما تصطنع الأصنام، مخيمة على الأحلام كما تخيم الأوهام، ولكنها بكل أسف، مع اصطناعها هذا وعدم استنادها إلى أساس، نجدها مسيطرة على عقول كثير من يدعون الثقافة والمعرفة، وقد انطلت عليهم دون أن يكلفو أنفسهم عناء البحث والتمحيص. تلك الشبهة هي الطبيعة، إله العصر المزعوم.

حينما تبادر أحد الطبيعين بالقول:

من خلق السموات والأرض؟ يقول لك: الطبيعة

من خلق النبات والحيوان؟ يقول لك: الطبيعة

من خلق الإنسان؟ يقول لك: الطبيعة

من يدبر جميع هذه الأمور الفلكية، والحيوية والغرizية، وكل بحساب دقيق ونظام لا يحيد، فسيقول لك: الطبيعة.

وهو يتذرع لك بهذا السبب لأنه لا يستطيع أن يقول لك: إنها تحدث بذاتها، أو من تقاء نفسها، وينكر قانون السبيبية، فهو أصاب حين أقر بالسببية، وأخطأ حين جهل السبب، وليس شأننا حين البحث في هذا الأمر أن نكتفي بالتسفيه والتشنيع، ولكننا نناقش الأمر من جميع الوجوه، فما كان

من حق أقررناه، وما كان من باطل فندناه، والعاقل الذي يصيخ إلى المنطق، والجاهل الذي يتبع هواه، ويقيم على الباطل ولو تبين له الحق.
فما هي الطبيعة؟ وما هي مفاهيمها؟ وما هي حقيقة تأثيرها؟

الطبيعة في اللغة: السجية والخلق. غير أن للطبيعة اليوم في عقول الناس حسب تفاوتهم مفهومين:

المفهوم الأول: إنها عبارة عن الأشياء ذاتها فالجماد والنبات والحيوان، كل هذه الكائنات هي الطبيعة، وهو مفهوم غير دقيق، وحكم غير سديد كما سيتبين لك.

المفهوم الثاني: إنها عبارة عن صفات الأشياء وخصائصها؛ فهذه الصفات: من حرارة وبرودة، ورطوبة وبيوسة، وملاسة وخشونة، وهذه القابليات: من حركة وسكون، ونمو واغتناء، وتزاوج وتوالد، كل هذه الصفات وقابليات هي الطبيعة.
وسواء أكان القول الأول أو القول الثاني هو المعبر عن الطبيعة بحق، مما نصيّب هذا القول من الحق؟

أما القول الحق: فلا يخرج بالطبيعة بالنسبة لخلق الوجود عن تفسير الماء بالماء، فالأرض خلقت الأرض، والسماء خلقت السماء، والأصناف صنفت نفسها، والأشياء أوجدت ذاتها، فهي الحادث والمحدث، وهي المخلوق والخالق في الوقت ذاته، وبطلان هذا القول بين، فهو إما إدعاء بأن الشيء وجد ذاته عن غير سبب وقد تبين لك فساده بقانون السببية وإما إدماج الخالق والمخلوق في كائن واحد، فالسبب عين المسبب وهو مستحيل؛ بل هو من التهافت والتناقض بحيث لا يحتاج إلى الوقوف والشرح.

وأما القول الثاني: وهو الاعتماد على قابليات الأشياء وخصائصها في التكوين، فنقول فيه: الحقيقة إن الذي يعزون الخلق إلى تلك القابليات والخصائص، لا يعدون عن كونهم وصفين لتلك الظواهر، لا يعرفون كنهها، ولم يكفووا أنفسهم عناء البحث عن حقيقتها، ولو فعلوا ذلك

لوجدوا أن القابلية التي اعتمدوا عليها في خلق الشيء سراب خادع يحسبه الظمان ماء، حتى إذا جاء إليه لم يجده شيئاً، ولإيضاح ذلك بالطريق العلمي نضرب المثال التالي: نضع حبة في التراب، ونسقيها بالماء فتنتفخ، وتتفاقق، فيظهر منها الرشيم، ويندفع منه الجذر إلى الأسفل، والساقي إلى الأعلى، وتنشأ الأوراق فالأزهار فالثمار، وتكون الحبة قد أنتجت تفاحة مثلاً.

فالقابلية التي كانت في الحبة هي الانتفاخ ثم الانفلاق ثم ظهر الرشيم. ولو لا هذه القابليات المتواتلة لما اطردت تلك الظواهر الحيوية، ولما نشأت عنها الثمرة. فلنأت إلى هذه القابلية بالذات نبحث عن حقيقتها: لو لم تتنفس الحبة وتتفاقق لما نشأ شيء. فمن الذي نفخها وفرقها؟ لو كان للحبة عقل وتدبير لقنا: إن عقلها هو الذي هيا لها ذلك، ولو أن الماء هو الذي نفخها وفرقها، لأمكن للماء أن ينفع في الحديد ويفرقه، إذن فلا بد من مؤثر وقبول لتأثير ذلك المؤثر، وإذا كانت الحبة بذاتها جدلاً انتفخت وانفاقت، فلماذا لم تجمد وتضمر بدلاً من أن تتنفس وتتمو؟ ولكي يحصل التكاثر والبقاء، يحتاج الأمر إلى عقل وإدراك، ومنهاج مرسوم من قبل تلك البذرة، والبذرة لا تملك شيئاً من ذلك! فكيف حصلت إذن ثمرة بعينها، بل كيف حصلت ثمار كثيرة متنوعة، وكيف كمنت الغاية المعينة والصفات المقصودة في صميم كل بذرة منها؟ والحقيقة أن من أعم النظر في تعبير الطبيعين المستدين إلى القابلية: طبع النبات على ذلك، انتفخت الحبة، وانفاقت، وتوالدت الخلايا، تمثل الخلية الحية إلى الانقسام؛ يجد أنها جميعها أفعال مبنية للمجهول لجهل الفاعل الحقيقي، فكان الطبيعي أغمض العين عن السبب الحقيقي، وبني الفعل للمجهول تخلصاً. فمن الذي نفخ الحبة؟ ومن الذي فرقها؟ ومن الذي أدى إلى التوالد؟ ومن الذي جبل الخلية على الانقسام؟ كل هذا التحقيق لا تصل إليه نظرة الطبيعين القصيرة بل المقتصرة على وصف الظواهر، دون الذهاب إلى أسبابها، بل المخطئة في جعل الصفة المنفعلة سبباً فاعلاً، والقابلية مؤثراً، والظاهرة المجهولة عاماً مكوناً، فالانتفاخ صفة، نشأت عن المؤثر الخارج عن الشيء، وعن قبول أثره في ذلك الشيء. والانفلاق صفة، والامتداد صفة.

وما زاد الطبيعي على أن جعل من مجموع هذه الصفات مفهوماً مركباً، سماه قابلية التوالد والنمو. فجعل من القابلية التي هي عرض من أعراض الشيء سبباً في الخلق، ومن الصفة الانفعالية التي لا تعي ولا تدرك، سبباً فاعلاً واعياً في تكوين الأشياء! إذن فمن الذي ركز

الطبيعة في العناصر؟ ومن الذي نوع تلك الطبائع؟ إن بذرة الأجاجص، وبذرة المشمش، حين توضعان في التراب تنتج كل واحدة منها ثمراً يختلف عن الآخر، بلونه وطعمه، ورائحته، مع أنه يسقى بماء واحد، ومع اتفاقنا على أنه ليس للبذرة عقل، ولا لجذر الشجرة إدراك، فكيف كان الجذر يمتص الماء، ويصطفي ذرات بعينها، وينضج النسغ ويسوقه إلى الثمر، ويكون العصارة، وينشئ الحلاوة؟! كل ذلك يجعلنا نسأل عن السبب، ولا نقف عند المجهول، ولا نكتفي بوصف الظواهر، بل لا نصف هذه الظواهر خطأً بأنها أسباب الخلق الحقيقة، ونحن نعلم أن القابلية ليست إلا صفة من صفات الشيء فكيف تختلف؟ وأن الحبة بالنسبة للنبات جماد لا يعقل؛ فكيف تتنوعه؟ وإذا لاحظت أننا مجبرون بحكم هذه النظرة إلى طبائع الأشياء، أن نسأل عن حقيقة تلك الطبيعة، وعمن طبع الأشياء عليها، وكيف تؤثر؟ وهل تبدع أم تصنف وتركب، وهل هي فاعلة بذاتها، أم منفعة لغيرها؟ أدركت أن الطبيعين قد نقلونا من مجهول واحد إلى مجاهيل كثيرة، ومن الأصل الحاسم إلى الفروع التي لا تحسم الأمر، فبينما كنا نسأل عن خالق الحبة وفالق النواة، انتقلنا بتلك النظرة القصيرة المتجاهلة إلى صفات انفعالية ليس لها من القدرة على الخلق نصيب، ولو لا قصر النظر عند الطبيعين على هذه الأسباب الغريبة المحيرة دون مبرر؛ لوجدنا الجواب شافياً منطقياً منسجماً مع ما تقدم من التحقيق العلمي في الآية الكريمة التالية:

إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبَّ وَالنَّوْءَ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ

الأنعام : 95 وبذلك ترجع الأسباب كلها إلى الخالق الأول وتعرف المجاهيل، ويحسم الأمر.

ولكي نزيد الأمر وضوحاً ، نضرب لذلك مثلاً. محرك السيارة، فإن تحرك أجزاء المحرك، واحتراق البنزين، والقوة الدافعة في محصول الانفجار، كل تلك الخصائص قابليات وطبائع، فهل تجد أن القابلية غير ذات الشيء، وأنها إن كانت سبباً في اندفاع الظواهر، وبروز المظاهر، فهو في حدود التركيب والتصنيف، لا في حدود الخلق والإبداع، وهي في المراحل الأخيرة، لا في المرحلة الأولى من خلق الوجود، ولذلك إذا أراد الطبيعي الخروج من هذا المأزق، وأقر معنا من أن هذه الطبائع أسباب فرعية في مجال التكاثر والتتويع، ولا تعدو في حقيقتها نوعية تساند الأسباب التي تكلمنا عنها في مبدأ السبيبية. فلنا له: رجعت إذن إلى الأصل الذي بحثنا عنه من قبل وأثبتناه، ولم تستطع أن تجد ضمن الكائنات من طبائعها ما يصح أن يكون سبباً لإخراج

الوجود من العدم. وإذا أردت أن تعرف العلة النفسية في تكوين هذا الإله الزائف الطبيعية لدى بعض الناس، وجدتها في السلسلة التالية.

عain الإنسان صفة الشيء، فأضاف الصفات بعضها إلى بعض، وكون من مجموع الصفات مفهوماً، وسمى المفهوم قابلية أو طبيعة، ومالت النفس إلى الراحة والاختصار فجعلت من تلك الطبيعة في خيالها ذاتا مستقلة فعالة، وأسلم لها خاضعاً، من بعد أن صنعه بيده كما يفعل عابد الوثن، يصنعها ثم يتخيّل أن له النفع والضر، ثم يعبدـه.

وما أشد التشابه بين من كان يعبد الأصنام من قبل ويجادل عنها، ومن يعبد الطبيعة اليوم ويجادل عنها، فالعلة النفسية واحدة، ونوعية الخطأ واحدة، ألا وهي الاصطناع في أول الأمر، وتوهم الاستقلال والتأثير في آخره، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الخدعة في آيات كريمة منها:

"مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُوْنِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمْرٌ إِلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيمَانُهُ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيْمُ وَلَكُنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ" يوسف : 40
قالُوا أَجِئْنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتَنَا بِمَا تَعْدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قالَ فَدُّ وَقَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعْكُمْ مِنَ الْمُنْتَظَرِينَ" الأعراف : 70-71

فانظر من أي ناحية ضل البشر من قبل، ومن أي ناحية يضلون اليوم، والقضية ليست إلا أسماء يسمونها في البداية، ثم يجادلون كحقيقة واقعة في النهاية.

وخلصة القول في الطبيعة: أنها إما قول بأن الأشياء حدثت بذاتها؛ وهو قول ساقط من كل اعتبار.

وإما قول بأن الصفات تختلف الذات، وهو أشد تداعياً وسقوطاً من القول الأول؛ لأنه إذا عجزت ذات الشيء عن خلقه، فكيف تستطيعه الصفات؟ وإما اعتبار للقابلية على أنها سبب متاخر كبقية الأسباب، ففتقر إلى السبب الأول وهو الذي نقول به.

إذن في الأحوال الثلاثة لا بد من الرجوع إلى الخالق الأول، وتأتي الطبيعة متاخرة من فعلة له مفترقة إليه.

وهكذا تجد أن الطبيعة - إله العصر المزعوم - لم تثبت أمام النقد المنطقي والشرح العلمي، ولن يست بالنسبة للموجودات سوى صفاتها وقابليتها وقوانينها التي تجري عليها، وأن طبائع الأشياء لا تختلف عنها.

3 – التوحيد

إذا كان سراب الطبيعة قد تبدد أمام ناظريك، وأصبح أفق معرفة الخالق الأول واضحاً لديك، يمكنك أن تستكمل معرفتك هذه بالتعرف إلى صفاته عز وجل، التي يلزمك بها البحث، مستنداً إلى الحقائق المتقدمة، وصفاته التي تستنتج من ذلك فنقول:

هو الأول: ليس قبله شيء، لأن القول بشيء قبله يجعل له حدوداً، والحدود من صفات الحوادث، وقد فدنا ذلك من قبل.

وهو الآخر: وليس بعده شيء للمحذور نفسه، فهو إذن الأزلية الأبدية.

وهو الحي: الحياة المطلقة، لأن الواهب الحياة للأحياء، ولا يصح إلا أن تكون مطلقة، لأن النسبة من صفات الحوادث.

وهو السميع العليم البصير القدير: لأن هذه الصفات لوازم صفة الحياة، ولما كان الإطلاق صفة لحياته، كان الإطلاق ملزماً لجميع الصفات الأخرى، بحيث لا يعجز السمع أو البصر أو العلم أو القدرة معجز.

وهو الواحد : الذي لا شريك له في الملك، ولما لهذه الصفة من أهمية عظيمة، وخطورة بالغة، نخصها بالتفصيل التالي:

لعلك أدركت من تسلسل البحث، ومن ذكر الصفات المتقدمة، ومن الجزم بكمال الله المطلق، أن التوحيد حاصل ولا يحتاج إلى برهان، بل إن التعدد هو الذي يفتقر إلى الدليل، ولكننا على الرغم من ذلك، نعرض بالتنمية، فإن ثبتت التنمية، صح التعدد من غير حصر، وإن بطلت بطل التعدد أصلاً، ولزم التوحيد.

فالقول بالتشتية يلزم بوجود صفة مميزة بين الاثنين؛ لأن التساوي التام من جميع الوجوه باطل، ولا يصح بالتصور إلا إذا انطبق الأول على الثاني تمام الانطباق، فيبقى في النتيجة كائن واحد، ولما انعدمت الصفة المميزة انعدم التمييز، فإن قال مكابر: بإمكان التمييز بين اثنين حال التساوي التام، قلنا له: أقمت الحجة على نفسك حينما ميزت، وما ميزت إلا بإدراك صفة مميزة، وجود صفة مميزة يبطل التساوي التام، إذا بطل التساوي التام، حصل التفاضل بين الاثنين فسقط المفضول وبقي واحد.

والقول بالتشتية، من الوجهة الرياضية يفيد وجود إطلاقين، وذلك محال، لأن وجود أحدهما ينافي إطلاق الآخر، فهو إما أن يدخل في إطلاق الأول، فلا يبقى إلا الأول، وإما أن يخرج عن نطاق الأول، فيسقط إطلاق الأول المفترض، ويبقى الثاني، أي أن الإطلاق محيط، ولا يحاط به، والنتيجة، أنه لم يبق إلا إطلاق واحد.

وهذا كما أنه دليل على التوحيد، فهو دليل على حدوث العالم ونفي قدمه، لأن القول بقدمه يفيد وجود إطلاقين، وذلك محال كما رأيت، ومن هنا نفهم المعنى العميق للآلية الكريمة: "الله الخلق والأمر". أي أنه ليس تصريف الكون وحده حادثاً فحسب، بل الكون كله: خلقاً، وتصريفاً مقهوراً للخلق، فهو حادث بمادته ومعناه.

وإذا أردنا أن نجلب معنى هذا البرهان بالنسبة للتوكيد والتعدد، قلنا: حين وجود اثنين يتترتب على أحدهما أن يحيط بالثاني قدرة وعلماً؛ فإن عجز عن ذلك، فهو ليس بـإله، وبقي واحد، وإن قدر على ذلك، سقطت الــلوهية الثانية وبقي واحد وبعض الفلاسفة يسمى هذا بــبرهان التمانع، فيقولون: لو كان هناك إلهان، يريد أحدهما قيام زيد في آن، ويريد الآخر قعوده في ذلك الآن، فمحال نفوذ الإرادتين، لاستحالة المراد، وجمع الأضداد، فإن غلت إرادة أحدهما على الآخر، وهذا الآخر عاجز مقهور، فهو ليس بـإله، وبقي واحد.

وقد أورد عن ذلك ابن جرير الطبرى، قال: لم يخل كل واحد من الاثنين من أن يكونا: قويبين، أو عاجزين. فإن كانوا عاجزين فالعجز مقهور، وغير كائن لها، وإن كانوا قويبين، فإن كل واحد منهمما يعجزه عن صاحبه عاجز، والعاجز لا يكون لها. فإن كان كل واحد منها قوياً على صاحبه، فهو بــقوه صاحبه عليه عاجز.

إذن لم يبق إلا الواحد المطلق الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وما قال ومن قال بالتعدد إلا عن عقلية ابتدائية، وفكرة وثنية، وتصور خيالي مصطنع، بعيد عن التحقيق، مصادم للعقل.

ولم يبق في الدنيا من يلتزم العقل والمنطق يقول بالتعدد. بل إن التحقيق لا يرشد إلا إلى التوحيد، بريئاً من صفات الحوادث، كالإلصاق والتفریع والولادة، فكما أن التعدد باطل، فطرقه من بعد أشد بطلاناً وأقبح، وهكذا ينهار التعدد بجميع صوره كالوثنية والتثلث وغيرهما، على الرغم من إقامة كثير من البشر اليوم على هذه العقيدة الفاسدة بكل أسف، ولو رجعوا قليلاً إلى العقل والمنطق لانهدمت أمامهم هياكل الوثنية وأساطير التعدد لقوة البرهان، وصرامة الحجة، وثورة العقل على هذا التناقض المشين، فليت شعري، متى يثور مفكرو العالم الأحرار وعقلاؤه المتجردون على هذه الوثنية النكراء، فيمزقوها غشاء العنكبوت، ويقودوا العالم إلى التوحيد؟!

والقرآن الكريم هو الذي حمل لواء التوحيد للناس، ونص على ما تقدم من تفنيد التعدد وبطلانه، وتأكيد التوحيد وثبوته، في آيات كثيرة حملت أنصع بيان وأقوى برهان، منها:

"لَوْ كَانَ فِيهِمَا إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسْبُحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ" الأنبياء : 22
"مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ" المؤمنون : 91.

"هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ" الحديد : 3

"إِلَّا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ إِلَّا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ" فصلت : 54

"قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُوْلَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ" الإخلاص : 1-4

وهكذا تثبت حقيقة التوحيد للخلق القديم بما لا يدع مجالاً للريب والتردد. والأحرى بالعالم المحقق، أن يدعوا الناس إلى ذلك، ويفند لديهم نحلة التعدد، ويفضح زيفها وبطلانها، لكي يخرجوا من الظلمات إلى النور، ومن التناقض المشين إلى الانسجام المنطقي المبين، وبذلك تخرج النفس البشرية مما تعانيه من الحيرة والتردد، والكبت والقلق، والجنوح بالنتيجة إلى السبل الشاذة، والمناهج السخيفة، المضحكة المبكية، والتي يثبت التحليل النفسي أنها ليست إلا صورة حسية تعبّر عن إفلات البشر في التماس طريق الحق.

4- عود على بدء

واستكمالاً لكل جوانب الإقناع في هذه المسألة مسألة الطبيعة، والسببية، والتوكيد ننقل هذه الرسالة الجيدة لمديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله، قال: "قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌ فَاطرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ" إبراهيم : 10. تأمل في هذه الآية وما فيها من الاستفهام الإنكارى، إنها تدل على أن الحكم بوجود الله ووحدانيته، من أوضح البداية لكل من أبصر بعينه مرة هذه السماوات والأرض، غير أنه بالرغم من ذلك، فإن فيما يلفظ به بعض المسلمين اليوم كلمات، أقل ما فيها أنها تؤمئ إلى الكفر بهذه الحقيقة الكبرى.

وسأتناول منها بالبحث ثلات كلمات لا يردها في الغالب إلا أحمق ذاهم عن حقائق الأمور، ولحد جعل من برذعة إلحاده حلة يفاخر بها ويتباهى بها: إحداها أوجنته الأسباب والثانية تشكل بنفسه، والثالثة اقتضته الطبيعة.

إن حالات كثيرة تتبع من الأخذ بمبدأ هذه الكلمات الثلاثة القذرة، ولو ذهبت أعدها بتفصيل علي موسوع؛ لتجاوزت تسعين محala من الحالات التي لا يشك فيها علم عالم ولا عقل عاقل، ولكي سأكتفي من بيان ذلك كله بالعشر فقط ذكره في عبارات موجزة سريعة.
أما الكلمة الأولى أوجنته الأسباب: فهناك بعض حالاتها:

المحال الأول: الناتج عن كلمة أوجنته الأسباب يظهر جلياً في هذا المثال وقع احتياج إلى معجون مستحضر من بضعة عقاقير وحشائش مختلفة الأنواع والمقادير، وقام الصيدلي بتحضير هذا المعجون طبق موازين دقيقة، بحيث لو أن بعض الأجزاء طغى على الحد المطلوب أو قل عنه، لأدى ذلك إلى عكس الفائدة المرجوة منه.

فلو أن زلزاً مثلاً وقع بين تلك القوارير التي استحضر منها الدواء، فتكسرت وسال ما فيها، وجرى بعضه إلى بعض، فاختلطت الأجزاء المتعددة، وتلاقت إلى بعضها، فهل يمكن أن يكون المحسول المركب من ذلك الخليط مساوياً لذلك الخليط الذي استحضره الصيدلي بميزانه الدقيق وخبرته العلمية وحسابه المنظم؟ وهل يقبل مثل هذه الدعوى سوى من فاتته نعمة التفكير والعقل؟!

إن كل ذي حياة على هذه الأرض ما هو إلا معجون رائع، ركب من ملايين الأجزاء العجيبة المختلفة، أخذت بمقدار وضمت إلى بعضها بحكمة ونظام. فلا ريب أن إسناد هذا الشكل إلى عمل الأسباب المادية الجامدة والعناصر الميتة الصامتة، أشنع وأقبح من الإسناد في ذلك المعجون الذي حصل من تصدام القوارير وسيلان ما فيها.

الحال الثاني: إن إسناد خلق الأشياء إلى أسبابها المادية، يستلزم أن يكون للكثير من العناصر والأسباب الدقيقة المتقاضة تأثير مباشر في وجود الأشياء. والحال أن تلقي الأسباب المختلفة المتباعدة على بعضها باتفاق من جهة، ودقة موزونة من جهة أخرى. في خلق البعض مثلاً إن لم يكن من أجل الحالات، فهو من أشد الممتعات؛ لأن جسم ذلك البعض مع صغره ذو علاقة بأكثر العناصر والأسباب المادية المثبتة في الكون، بل إنه بحق خلاصة وزبدة لها، فلو سلمنا ادعاء استناد هذا الموجود الصغير إلى تلك الأسباب؛ للزم أن تحتشد جميع العناصر والأسباب كلها بالذات عند إيجادها، بل يجب توافرها كاملة في جسمها، بل في حبيرة من حجيرات جسمها ولأن السبب المادي ينبغي أن يكون موجوداً مع المسبب داخلاً فيه، أي فينبغي أن تكون هذه العناصر المادية المتقاضة كلها مجتمعة على الدوام، تعمل عملها في كل حبيرة من حجيرات جسم البعض، دون من يدفعها إلى هذا التلقي والتفاعل.

وهل هذا إلا وهم يستحي بلهاء السفطائيين من الهذيان به.

الحال الثالث: إن القاعدة البديهية تقول: إن الواحد لا يصدر إلا عن الواحد، أي كل ما يتصرف بوحدة النظام والتسيق والانسجام في مظهره وشكله، فلا بد أن يكون المؤثر فيه واحداً، ضرورة أن التأليف بين المتباارات، والجمع بين المختلفات في وحدة نوعية أو جنسية، لا يمكن أن يتم إذا ما اجتمعت عليه أكثر من إرادة ويد واحدة، ولا ريب أن هذا العالم العظيم تجمعته كله وحدة الانسجام والتنظيم، فإسناد وجوده بعد ذلك إلى الأسباب الجامدة المختلطة، التي لا شعور لها ولا عقل، من أعظم الخرافات المضحكة. هذا إلى أن الأسباب المادية لا يمكن تأثيرها إلا بواسطة التماس وال المباشرة، وغير خاف أن تجانسها إنما يكون بسطح الموجودات وظاهرها، مع أن في بواطنها ووراء حدود المحس منها من الانتظام والغرابة والانسجام ما ليس في ظواهرها، فأين أسبابها المادية الموجدة لها؟ بل أين من يستطيع أن يفرق في غوص ذلك

الباطن، بين السبب المؤثر والسبب المتأثر، يفصلهما، ويفرق بينهما في الزمن والجوهر
والحدود؟

أما الكلمة الثانية تشكل بنفسه: فهي أيضاً تتضمن على محالات لا تعمى عنها الأ بصار. غير أن الفكر المعاند من شأنه أن يبلغ به الكبر مبلغاً يلبسه برذعة الحمق. إن الإنسان العادي من شأنه أن لا يخضع لمحال واحد يتراهى لعقله، ولكن مثل هؤلاء المعاندين لا يبالى أن يدافع عن حشد من المحالات، النابعة عن الباطل الذي أقسم أن لا يتخلى عنه. إنك أيها الإنسان لست مادة بسيطة جامدة ملقاة على سطح هذا الوجود، إنما أنت جهاز معمل دقيق كبير. بلغ في دقته غاية الروعة والانسجام. إن في جسمك ذرات عاملة ساعية على الدوام. إن لجسمك تفاعلاً في غاية الانظام مع سائر مظاهر الوجود من حولك، إنها أشبه ما يكون بتفاعل على البيع والشراء والأخذ والعطاء. إن ملابس الذرات العاملة في جسدك تظل ساهرة على حفظ سير هذا التفاعل ودقة انتظامه، وهكذا نعلم أن الانسجام ليس بين ذرات جسمك وحده، بل بين مجموع هذه الذرات والوجود الخارجي من حولها، إن هذا يعني أن ثمة وحدة انتظام سارية بأتم دقة بين وجودك العضوي ووجود سائر الكائنات من حولك!

إذا رفضت أن توقن بأن الذرات الساعية في جسدك، إنما تتحرك فيه طبق قانون الخالق الأزلية العظيم، لزمك أن تقول إن للذرات التي تتفاعل في حجيرة واحدة من حجيرات عينك مثلاً عقلاً متفلساً هائلاً، وضع به قانون الانسجام والتطابق بين كل ذرة من جسدك من جهة، وذرة من ذرات الوجود من جهة أخرى، سواء كان ذلك الوجود هواء أو ضياء أو طعاماً أو شراباً أو أي شيء آخر، كما ينبغي أن يكون لكل ذرة من هذه الذرات فكر، يدرك منابر دهرك، وعناصر آبائك وأجدادك، ويتصور ماضيك ومستقبلك. يا لخرافة العnad المتكبر !!

أما إذا كان جوابك عن عالم الذرة ونظامها نفس جوابك عن عالمك الحسي هذا. أي أن له أيضاً أسبابه المادية وتتفاعل الذاتي، فإن السؤال سيلاحقك عن العالم الثالث الذي من ورائهم، والذي هو أدق من كليهما، وهكذا تتسلسل العوامل والأسباب إلى غير نهاية وتمتد إلى حيث يضل وراءها عناid المعاندين وجحود المتكبرين.

أما الكلمة الثالثة اقتضته الطبيعة: فيتفرع عنها سلسلة من مظاهر التفاوت المضحك، نجمل بعضها فيما يلي:

1- إن صاحب هذا القول ينبغي أن يلتزم أن كل ذرة من ذرات الوجود تتضمن على مجموعة العوامل والمؤثرات التي أبدعت هذه المجموعة الكونية، وأنها تشتمل على القدرة والطاقة الكافية لإبداع عالم كامل كالذى نراه من حولنا، وما على هذه القدرة إلا أن تنفذ ذلك وتعمل عملها.

2- إذ ما دام في كل ذرة من ذرات هذا الوجود طبيعتها الخلاقة، المدبرة الحكيمه، منفصلة عن غيرها، غير مرتبطة بقيادة عامة لها ولأمثالها، فلا مناص من التزام هذه النظرية. تماماً كالذى يرى شعاع الشمس يسطع من قطرات المياه، وقطع الزجاج والأجرام الشفافة، ويأبى إلا أن يزعم أن في كل جرم من هذه الأجرام طبيعته الشعاعية المستقلة بذاتها، فلا ريب أنه ينبغي أن يلتزم ويعترف بوجود شمس حقيقة مستقلة ضمن كل جرم من هذه الأجرام المضيئة كل على حدة.

ومن أراد أن يضحك من خرافه هذه النتيجة؛ فليضحك قبل ذلك من خرافة المقدمة التي راح يزعمها ويتبنها.

3- إن على صاحب هذا القول أن يلتزم بأن شبراً واحداً من أي أرض معينة، تتضمن على ما لا تتضمن عليه دول العالم كله من المصانع والمطابع والمواد الأولية المختلفة؛ ذلك أن قدحاً واحداً من التراب الذي لا تزيد مساحته على شبر، يمكن أن تستثبت فيه معظم أنواع النباتات وأزهار العالم، على سبيل التناوب. فلو لم تكن قدرة الخالق العظيم هي التي تقذف في تلك الأرض قدرة التفاعل، مع ما تستقبله من مختلف النباتات والبذور، لتعطي كلاً منها ذاته وشكله وخصائصه، إذا لكان لا بد أن توجد في تلك التربة عناصر وقابليات متناقضة، بل ينبغي كما قلت أن تكون طاقة الصناعات الأوروبية كلها محشورة في ذلك الشبر من الأرض، إذ من المعلوم أن مواد النطف والبذور واحدة لا تختلف، وهي عبارة عن مزيج: مولد الماء، ومولد الحموضة، والكريbones، والآزوت، ومواد الماء، والهواء والحرارة والضياء، هي الأخرى بسيطة لا تختلف في جريانها حول نبت وآخر.

ومع ذلك؛ فإن هذه النباتات تتربع فوق ذلك الشبر من الأرض، كل واحد يحمل صفاتها وخصائصها ولونها ورائحتها، فلا بد أن يوجد في ذلك التراب شيء آخر غير المواد المعروفة للتراب والبذر والهواء، يمد هذه البذور بخصائص التشكيل والتميز. فانظر وتأمل في مدى بعد هذا الكلام من الفكر والعقل!!

4- أذكر هنا مثلاً كنت كتبته في بعض الرسائل الأخرى، يوضح حالة المنتسبين إلى الطبيعة.
لنفرض أن في قلب بعض الصحاري بناء رائعاً، مشيداً على أحسن طراز وأدق هندسة.
وصادف أن دخل هذا الصرح بدوياً متواحش، لم يسبق أن رأى في حياته غير صروح الخيام،
فتأمل في براعته ونقوشه ومظاهر إتقانه، ثم حدث نفسه أن ليس في هذه الصحراء كلها من
يقدر أن يبدع مثل هذا الإبداع، فلا بد أن الباني يجثم في جوف البناء نفسه. ثم راح ينظر
ويغتسل عنه في الغرف من حوله، فلم ير أحداً، ولكنه عثر على أوراق فيها: خارطة البناء،
ومواده، وتفاصيل هندسته، ففكر قليلاً أن هذه الأوراق لا بد لها ولا بصر، فليس من شأنها أن
تشيد بناء. ولكنه ما لبث أن عاد فتعلق بها قائلاً: ولكن هاهي ذي تبحث عن قوانين تشيد به
وكيفية تأليفه، إذا فليس ثمة غيرها المشيد والباني. فكذلك يدخل بدوياً متواحش لم يهضم عقله
إلا اسم الطبيعة إلى صرح هذا الكون العظيم، فيدهشه أنه يرى إبداعاً لا يجد من حوله بسبب
عقله القاصر من أبدعه، ويتأمل في شياهه وأطراوه، فيعثر على اللوح الذي سجلت فيه قوانين
الفطرة الإلهية وقواعد صنعته الإبداعية المسمة خطأ بالطبيعة فينبهر لها، ويحدث نفسه وهو في
غيبوبة عقلية تامة أن لا بد أن هذا اللوح بقوانينه هو الذي أبدع هذا الإبداع، وصنع هذا الصنع.
ونحن نقول: أيها السكران الأحمق، ارفع رأسك عن بئر الطبيعة، وانظر وراءك إلى صانع
الكون. إن ذلك الذي بنى هذا الصرح، ووضع أمام عينيك في جنباته، قانون تشيد به، ودستور
إيجاده، إنما هو الخالق الأزلية إله العالمين جل جلاله، لا الطبيعة التي أنت أجد منهما وأجهل.
إن الطبيعة صنعة لا صانع، نقش لا ناقش، حكم لا حاكم، شريعة لا شارع، مخلوق لا خالق،
منفعل لا فاعل، مصدرة لا مصدر. انتهى كلام الشيخ سعيد النورسي رحمه الله تعالى.

دلالات الظواهر الكونية على أسماء الله وصفاته

كل ظاهرة من الظواهر الكونية تدل على اسم الله عز وجل، وهذه الأسماء التي تدل عليها الظواهر توصلنا إلى صفات الله عز وجل، وصفات الله عز وجل كثيرة منها ما تدلنا عليه النصوص وحدها وهي الصفات السمعية، ومنها ما تدلنا عليه الظواهر الكونية والنصوص وهي صفات الفعل، وصفات الفعل توصلنا إلى ثلات عشرة صفة: واحدة منها يسميها العلماء نفسية وهي الوجود، وخمس منها يسميها العلمية سلبية وهي القدم والبقاء والوحدانية والقيام بالنفس والمخالفة للحوادث، وسبع منها يسميها العلماء صفات معاني أو صفات وجودية وهي العلم والإرادة والقدرة والحياة والسمع والبصر والكلام.

والله عز وجل متصف بصفات الكمال والجلال والجمال ولا يسمى إلا باسم سمي به نفسه ومن هذا كله نصل إلى أسماء الله الحسنى التي بعضها صفة فعل، والتي بعضها صفة معنى، والتي بعضها صفة سلبية والتي بعضها صفة جلال أو كمال أو جلال، وكل ذلك تدل عليه الظواهر بشكل مباشر أو بشكل ضمني، وهذا البحث يسير بك في هذا كله مع استطرادات يقتضيها المقام فلنبدأ عرض المسألة من بدايتها:

هناك قاعدة تقول: إن الآثار تدل على الأسماء، والأسماء تدل على الصفات، والصفات تدل على الذات، ولنضرب على هذه القاعدة مثلاً يوضحها: لو أخذنا كتاباً ودرسناه، فإننا بواسطة دراستنا للكتاب، نستطيع أن نتعرف على كثير من صفات صاحبه، وبالتالي نتعرف عليه تعرفاً ما، فإذا كان في الكتاب أدب، حكمنا على صاحبه أنه أديب، وإذا كان مبتراً، حكمنا أن صاحبه مبدع، وإذا كان لا يخرج على قواعد النحو حكمنا بأنه نحوبي، وإذا كان بلغياً، حكمنا على صاحبه بأن بلغ وإذا كان فيه إحاطة في موضوعه، فلنا عن صاحبه بأنه محيط، وإذا كان فيه دقة في العرض وجمال، حكمنا على صاحبه بأنه ذو افة ودقيق، وإذا كان الكتاب مرتبًا منسجماً متسللاً للأفكار، حكمنا على صاحبه بأنه ناضج، وإذا كان في الكتاب علم كثير، حكمنا على صاحبه بأنه عليم، وهكذا، فكل ظاهرة في الكتاب، تدلنا على صفة من صفات صاحبه، نسمي صاحبها بسببها أسماء مشتقة منها، له علاقة بها، وبالتالي نكون قد عرفنا صاحب الكتاب نوع معرفة.

ولنطبق القاعدة الآنفة الذكر على بحثنا.

فقد استعرضنا في الصفحات الماضية تسع ظواهر كونية، كل ظاهرة من هذه الظواهر تدل على اسم من أسماء الله أو أكثر، فالكون من آثار الله وحوادثه من آثار الله كذلك، قال تعالى: "فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ" الروم : 50. وآثار الله تدل على أسمائه وأسماؤه تدلنا على صفاتيه، وصفاته تدلنا على ذاته.

فظاهرة القدم وحدوث العالم، تدل على اسم الله الأول والخالق، وظاهرة الحياة تدل على اسم الله المحيي والبارئ والمميت، وظاهرة الهدایة، تدل على اسمي الله الهادی والمضل وظاهرة الإبداع، تدل على اسم الله البديع، وظاهرة الإجابة، تدل على اسم الله المجيب، وظاهرة النعمة، تدل على اسم الله المنعم المعطى وظاهرة الوحدة، تدل على اسم الله الواحد، وظاهرة الحکمة، تدل على اسم الله الحکيم.

وعلى هذا؛ فكل ظاهرة في الكون ذكرناها أو لم نذكرها، تدل على اسم من أسماء الله تعالى فظاهرة رزق كل مخلوق، تدل على اسم الله الرزاق، وظاهرة الإعزاز والإذلال، تدل على اسمي الله المعز والمذل، وظاهرة ثبات القوانين في الكون، تدل على اسمي الله المهيمن، وظاهرة وجود المخلوقات، تدل على اسمي الله القادر والمقدتر، وظاهرة ترتيب الأشياء بعضها وراء بعض، تدل على اسمي الله المقدم والمؤخر، وظاهرة الندم، تدل على أسماء الله التواب والغفار والعفو، وظاهرة الانتقام، تدل على اسم الله المنتقم، وظاهرة النفع والضر، تدل على اسمي الله النافع والضر، وظاهرة إمهال المخالفين عن أمر الله تدل على اسم الله الصبور، وهكذا فما من ظاهرة إلا وتدل على صفة الله باسم.

غير أن دلالة الظواهر على الأسماء والصفات، تختلف باختلاف المتعلق، واختلاف الارتباط: فمنها ما يدل على صفات الفعل.
ومنها ما يدل على صفات الذات الوجودية.
ومنها ما يدل على صفات الذات السلبية، وكلها تدل على موجود.

والتوضيح الفروق بين هذه الصفات، نقول: لو قلنا: عن إنسان بأنه قاتل، فتلك صفة فعل من أفعاله، ولو قلنا: إنه سميع، فتلك صفة وجودية له، ولو قلنا: إنه لا يشرب الخمر، فتلك صفة سلبية له، ولكن الأنواع الثلاثة من الصفات، تدل على وجود إنساني معين.

والحقيقة أننا نعرف الصفات الوجودية بصفات الفعل، والصفات السلبية بصفات الفعل ونعرف الذات بكل الصفات.

و قبل أن نطبق ما قلناه على قضية التعرف على الله، نحب أن نذكر ماذا نعني بكلامنا: صفات وجودية، أو صفات فعلية، أو صفات سلبية.

المراد بالصفة السلبية بالنسبة للذات الإلهية: الصفات التي تدل على سلب ما لا يليق به سبحانه وتعالى، كالوحدةانية فإنها تنافي التعدد فتسلب عن الله ما ينافي الوحدانية.

والمراد بالصفات الوجودية بالنسبة للذات الإلهية: الصفات التي تدل على معنى زائد على الذات، كالعلم والسمع.

والمراد بصفات الفعل: تعلقات القدرة بالممكنات، فكل تعلق لقدرة الذات الإلهية بممكن، يدل على اسم وصفة وفعل.

فكل الظواهر التي نراها في هذا الكون، تدل على أربع صفات وجودية: العلم والإرادة والقدرة والحياة ، فلو لا القدرة ما كان هذا الكون، ولو لا تخصيص الإرادة الأشياء على ما هي عليه ما كان هذا الكون، ولو لا العلم ما كان شيء ، فأي جزء من أجزاء العالم يدل على علم سبق، وإرادة خصصت، وقدرة أبرزت، ومن لوازم اتصف ذات بالعلم والإرادة والقدرة أن يكون لها حياة.

والظواهر كلها تشير، إلى أن هذه الذات المتصفه بالعلم والإرادة والقدرة والحياة، والتي خلقت هذا الكون، متصفه كذلك بالقدم فلا أول لها، والبقاء فلا نهاية لها، والوحدةانية فلا ند لها، ومخالفتها لمخلوقاتها، فلا يشبهها شيء من خلقها، وقيامها بنفسها، فلا تحتاج إلى موجد أو مخصص.

والظواهر كلها تشير، إلى أن هذه الذات، كاملة منزهة عن كل نقص، ومن النقص العمى، فهي بصيرة، ومن النقص الصمم، فهي سمعية، ومن النقص البكم، فهي متكلمة. والظواهر كلها تشير إلى موجود متصف بهذه الصفات.

موجود لا بداية له فهو الأول، ولا نهاية له فهو الآخر، ولا ند له فهو واحد، ولا مشابه فهو قدوس، ولا حاجة به لأحد فهو القيوم.

موجود متصف بالقدرة فهو قادر، وبالحياة فهو حي، وبالسمع فهو سميع، وبالبصر فهو بصير، وبالكلام فهو متكلم، وبالعلم فهو عليم، وبالإرادة فهو مرید.

ومقتضى كثرة أفعال الله التي هي أثر عن العلم والإرادة والقدرة، أن يكون الله أسماء كثيرة، ولكن الأدب مع الله ألا نسمي الله إلا بما سمي به نفسه، بالوحي الثابت؛ لأنه لا يعرف جلاله إلا هو، ولكي لا ننسب إلى الله إلا ما يليق بذاته، الخير كله بيديك والشر ليس إليك، فلا نسميه إلا بما سمي به ذاته، ومجموع ما سمي به ذاته، يطلق عليه اسم: الأسماء الحسنى قال تعالى: "اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى" طه : 8. "قُلِ ادْعُوْا اللَّهَ أَوْ ادْعُوْا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى" الإسراء : 110. "وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوْهُ بِهَا وَذَرُوْا الَّذِينَ يُلْحِدُوْنَ فِي أَسْمَائِهِ" الأعراف : 180. وما من اسم من هذه الأسماء الحسنى الواردة في الكتاب والسنة، إلا وفي الكون ظاهرة تدل عليه، أو يصل العقل إليه.

وهذه الأسماء كما وردت في الكتاب والسنة تعبّر عن صفات سلبية أحياناً، وعن صفات وجودية أحياناً، وعن صفات كمال أحياناً، وعن صفات فعل أحياناً، فهي قد جمعت أمهات هذه الصفات كلها.

والأسماء الحسنى الله الواردة في الكتاب والسنة كثيرة، ومع هذا فهي ليست كل أسماء الله. فقد ورد في الحديث: "اللهم إني عبدك وابن عبدك ... أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك".

ومن هنا نعلم أن ما ذكر ليس هو كل الأسماء الحسنى، فإن جلال الله لا يتناهى، ولكن ما ذكر، تدلنا عليه ظواهر الكون بشكل صريح أو ضمني، فإذا اجتمعت دلالة العقل مع دلالة النص واتفقا، فذلك برهان سلامة العقل وحقيقة النص، على أنه في معرض الحديث عن الأسماء والصفات، ينبغي أن نلاحظ هاتين النقطتين اللتين أشار إليهما الأستاذ البنا رحمه الله يقول الأستاذ البنا تحت عنوان بين صفات الله وصفات الخلق:

والذي يجب أن يتقطن له المؤمن، أن المعنى الذي يقصد باللفظ في صفات الله تبارك وتعالى، يختلف اختلافا كليا عن المعنى الذي يقصد بهذا اللفظ عينه في صفات المخلوقين فأنت تقول: الله عالم والعلم صفة لله تعالى، وتقول: فلان عالم والعلم صفة لفلان من الناس، فهل ما يقصد بلفظة العلم في التركيبين واحد؟ حاشا أن يكون كذلك؛ وإنما علم الله تبارك وتعالى علم لا يتناهى كماله، ولا يعد علم المخلوقين شيئا إلى جانبه. وكذلك الحياة، وكذلك السمع، وكذلك البصر، وكذلك الكلام، وكذلك القدرة والإرادة، وهذه كلها مدلولات الألفاظ فيها تختلف عن مدلولاتها في حق الخالق، من حيث الكمال والكيفية اختلافا كليا، لأنه تبارك وتعالى لا يشبه أحدا من خلقه فتقطن لهذا المعنى فإنه دقيق، ولست مطالبا بمعرفة كنها؛ وإنما حسبي أن تعلم آثارها في الكون، ولو ازماها في حقله، والله نسأل العصمة من الزلل وحسن التوفيق. وكذلك يقول الأستاذ تحت عنوان التفكير في ذات الله:

عن ابن عباس رضي الله عنهما، "أن قوما تفكروا في الله عز وجل، فقال النبي صلى الله عليه وسلم تفكروا في خلق الله، ولا تتفكروا في الله، فإنكم لن تقدروا قدره، قال العراقي: رواه أبو نعيم في الحلية بإسناد ضعيف، ورواه الأصحابي في الترغيب والترهيب بإسناد أصح منه ورواه أبو الشيخ كذلك، وهو على كل حال صحيح المعنى.

وليس ذلك حبرا على حرية الفكر، ولا جمودا في البحث ولا تضييقا على العقل ولكنه عصمة له من التردي في مهاوي الضلال، وإبعاد له عن معالجة أبحاث لم تتوفر له وسائل بحثها، ولا تحتمل قوته مهما عظمت علاجها، وهذه هي طريقة الصالحين من عباد الله العارفين بعظمة ذاته وجلال قدره.

فاحصر همتك في إدراك عظمة ربك، بالتفكير في مخلوقاته، والتمسك بلوازم صفاته.

ونحب أن نذكر في هذه الفقرة عن القرآن والسنة، على اعتبار أنها المصدراً الوحيدين للمعرفة عن طريق الوحي الصادق الذي يقوم عليه الدليل الكامل، كما سنرى في كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم مجمل صفات الله كما وردت في القرآن، وبعضاً من أسمائه الحسنة كما وردت في الكتاب والسنة، لنرى أن ما دلتنا عليه الظواهر بالعقل، دلنا عليه الكتاب والسنة بالوحي عن طريق النقل.

يقول الأستاذ البنا تحت فصل مجمل صفات الله في القرآن:

أشارت آيات القرآن الكريم إلى بعض الصفات الواجبة لله تعالى، والتي يقتضيها كمال الألوهية، وإليك بعض هذه الآيات الكريمة:

1- وجود الله تعالى: قال الله تعالى: "اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلُّ يَجْرِي لِأَجْلٍ مُسَمًّى يُدِيرُ الْأَمْرَ يُفْصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءَ رَبِّكُمْ تُوقَنُونَ * وَهُوَ الَّذِي مَدَ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمَنْ كُلُّ الْثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْتَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَكَبَّرُونَ * وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٍ وَنَخِيلٌ صَنْوَانٌ وَغَيْرُ صَنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنَفْضَلٌ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقُلُونَ" الرعد : 4-2 .

"وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئَدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ * وَهُوَ الَّذِي ذَرَ أَكْمُ في الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقُلُونَ" المؤمنون : 78-80. وكل هذه الآيات تنبئك بوجود الله تبارك وتعالى، وتستدل عليه بما ترى من تصرفاته في شؤون هذا الكون العجيب.

3-2 - قدم الله تعالى وبقاءه: قال الله تعالى: "هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ" الحديد : 3. "وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهُهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ" القصص : 88.

"كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانِ" * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ" الرحمن : 26-27. وفي هذه الآيات الكريمة إشارة إلى صفاتي القدم والبقاء لله تبارك وتعالى.

4- مخالفة الله للحوادث: قال الله تعالى: "قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُوْلَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ" الإخلاص : 4-1.

"فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمَنِ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرُؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ" الشورى : 11.

وفي ذلك إشارة إلى مخالفته تبارك وتعالى للحوادث من خلقه وتتره عن الولد والوالد والشبيه والنظير.

5- قيام الله تعالى بنفسه: قال الله تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَتَنْتُمُ الْفُقَرَاءَ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ" فاطر : 15.

"مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَخَذِّلَ الْمُضْلِلِينَ عَضْدًا" الكهف : 50.

ونصيف قال تعالى "إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا" فاطر : 40.
"اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ" آل عمران : 2.

وفي ذلك إشارة إلى قيامه تعالى بنفسه واستغنائه عن خلقه، مع حاجتهم إليه.

6- وحدانية الله تعالى: قال الله تعالى: "وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّاهِي فَارْهَبُونَ * وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصْبِرَا أَفْعِلْرَ اللَّهُ تَنَقُّونَ * وَمَا بِكُمْ مِنْ نُعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ" النحل : 51-53.

وقال الله تعالى: "لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثٌ ثَلَاثَةٌ وَمَا مِنْ إِلَهٌ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمْسَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابُ الْيَمِّ * أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ" المائدة : 73-74.

"أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنَشِّرُونَ * لَوْ كَانَ فِيهِمَا إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ * لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعُلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ * أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ * وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ" الأنبياء : 22-25.

وقال تعالى: "قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَقَوَّنَ * قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَإِنَّى تُسْحَرُونَ * بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَادِيُونَ * مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةُ فَتَعَالَى عَمَّا يُشَرِّكُونَ" المؤمنون : 84-92.

وقال تعالى: "قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى اللَّهُ خَيْرًا أَمَّا يُشَرِّكُونَ * أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتَنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا إِلَلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ * أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خَلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا إِلَلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خَلَاءَ الْأَرْضِ إِلَلَهٌ مَعَ اللَّهِ فَلَيْلًا مَا تَذَكَّرُونَ * أَمَّنْ يَهْدِيْكُمْ فِي ظُلُّمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ إِلَلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشَرِّكُونَ * أَمَّنْ يَبْدِأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" النمل : 59-64.

إلى غير ذلك من الآيات التي تثبت أنه تعالى واحد في ذاته، واحد في صفاته واحد، في أفعاله وتصرفاته لا رب غيره ولا إله سواه.

7- قدرة الله تعالى: قال الله تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَبِّ مِنْ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْنَغَةٍ مُخْفَقَةٍ وَغَيْرِ مُخْلَقَةٍ لِنَبِيِّنَ لَكُمْ وَنَقْرُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءَ إِلَى أَجْلٍ مُسَمَّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لَتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمَنِكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لَكِيَّا يَعْلَمُ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَرَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَّةٌ لَا رَيْبٌ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ" الحج : 5-7.

"مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضْلِلِينَ عَضْدًا" الكهف :

.50

"وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ" ق : 38
"وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مَلْحٌ أَجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا
مَحْجُورًا" وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصَهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا" الفرقان : 53

54

"إِنَّ اللَّهَ يُزِّجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خَلَالِهِ وَيَنْزَلُ
مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصَبِّبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرُفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ
يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ * يُقْلِبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعْبَرَةً لَّوْلَيِ الْأَبْصَارِ * وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ
مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعِ
يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" النور : 43-45.

إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى عَظِيمِ قَدْرِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَبَاهِرٌ عَظَمَتِهِ.

8- إِرَادَةُ اللَّهِ تَعَالَى: قال الله تعالى: "إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ" يس : 82.
"وَإِذَا أَرَدَنَا أَنْ نُهَلِّكَ قَرِيْةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَسَقُوا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا" الإسراء
16 :

وَقَالَ تَعَالَى حَكَايَةً عَنِ الْخَضْرِ فِي قَصْتِهِ مَعَ مُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: "فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغاَ أَشْدَهُمَا
وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلٌ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا"
الكهف : 82.

"يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيْكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَنْتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ
يَنْتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَبَعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا * يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخْفِيْ عَنْكُمْ
وَخُلُقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا" النساء : 26-28 .

إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةِ الَّتِي تَشِيرُ إِلَى إِثْبَاتِ إِرَادَةِ اللهِ تَعَالَى، وَأَنَّهَا فَوْقَ كُلِّ إِرَادَةٍ
وَمُشَيْئَةٍ: "وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ" التَّكْوِيرُ : 29.

9- علم الله تعالى: قال الله تعالى: "الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ" * يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ" سبأ : 1-2 .
 "يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلَمُونَ وَاللَّهُ عَلَيْمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ" التغابن
 .4 :

وقال تعالى حكاية عن لقمان في وصيته لابنه: "يَا بُنْيَإِنَّهَا إِنَّكُمْ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ" لقمان : 16 .
 وقال تعالى في حكاية ما وقع بين شعيب وقومه: "قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكُمْ يَا شَعِيبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرِيبَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوْلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ" قد افترىنا على الله كذبنا إن عذنا في مللككم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا واسع ربنا كل شيء علما على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين" الأعراف : 88-89.

"أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةِ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةِ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلَيْمٌ" المجادلة : 7 .

"وَمَا تَكُونُ فِي شَاءٍ وَمَا تَتَنَلُّ مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُقْيِضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْرُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مُتَّقَالٍ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ" يومن : 61 .
 إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الدالة على سعة علمه تبارك وتعالى، وإحاطته بكل شيء، قل أو كثر، دق أو عظم.

10 - حياة الله تعالى: قال الله تعالى: "اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُ الْقَيُومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نُوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ" البقرة : 255 .

"الْمُ * الَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُ الْقَيُومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدِيهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ * مِنْ قَبْلٍ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ" آل عمران : 4-1 .

"اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بَنَاءً وَصَوَرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيَّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ * هُوَ الْحَيُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ" غافر : 64-65 . إلى غير ذلك من آيات كثيرة ، تدل على أن الله تبارك وتعالى ، متصف بالحياة الكاملة ، التي ليس ثم أكمل منها .

12-11 سمع الله تعالى وبصره: قال الله تعالى: "قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ" المجادلة : 1 . "أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَىِ" أَوْ أَمْرَ بِالْتَّقْوَىِ * أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلََّ * أَلْمَ يَعْلَمُ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى" العلق : 11-14 .

وقال تعالى لموسى وهارون عليهم السلام حين أرسلهما إلى فرعون: "إذْهَا إِلَى فرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيَّنًا لَعَلَهُ يَتَكَرَّأُ أَوْ يَخْشَى * قَالَا رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى * قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى" طه : 43-46 .

"يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ * وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ" غافر : 19-20 . إلى غير ذلك من الآيات التي تدل على اتصافه تبارك وتعالى بصفة الكلام .

وقد سمي الله عز وجل ذاته في القرآن بأسماء كثيرة غير التي ذكرناها. فمن الآيات التي ذكرت أسماء الله في قوله تعالى: "هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَمِّنُ الْعَزِيزُ الْجَبارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" الحشر : 22-24 . "سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى" الأعلى : 1 .

والآيات في هذا الباب كثيرة كما ورد على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم أسماء كثيرة. في أحاديث صحيحة - وهو أعرف الناس بذات الله عز وجل - منها "الله تسعه وتسعون اسماء، مائة إلا واحدا، لا يحفظها أحد إلا دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر" وفي رواية أخرى "من أحصاها"، ورواه الترمذى وزاد "هو الله الذى لا إله إلا هو، الرحمن، الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصور، الغفار، القهار، الوهاب، الرزاق، الفتاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعز، المذل، السميع، البصير، الحكم، العدل، اللطيف، الخبر، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلي، الكبير، الحفيظ، المقيد، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباущ، الشهيد، الحق، الوكيل، القوى، المتنين، الولي، الحميد، المحصي، المبدئ، المعید، المحىي، المميت، الحي، القيوم، الواجد، الماجد، الواحد، الصمد، القادر، المقتدر، المقدم، المؤخر، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الوالى، المتعال، البر التواب، المنتقم، العفو، الرؤوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، المقطسط، الجامع، الغنى، المغني، المانع، الضار، النافع، النور، الهدى، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصبور"

وهذه الصفات التسعة والتسعون، ليست كل ما ورد في أسماء الله تبارك وتعالى، بل نجد الأحاديث التي تزيد على هذه الصفات. في رواية أخرى للحديث السابق: "الحنان، المنان، البديع"، وورد من كذلك من أسمائه تعالى: "المغيث، الكفيل، ذو الطول، ذو المعارج، ذو الفضل، الخلاق"

قال أبو بكر بن العربي في شرح الترمذى، حاكيا عن بعض أهل العلم: إنه جمع من الكتاب والسنة من أسمائه تعالى ألف اسم، وفي كلام صاحب القصد مجرد ما يفيد ذلك، وأشار الشوكاني إلى ذلك تحفة الذاكرين، ثم قال: وأنهض ما ورد في إحصائها الحديث المذكور، وفيه الكفاية، وعلى اعتبار أن كل اسم من أسماء ذاته القدسية، إنما يدل على صفة من صفاته تعالى ويعبر عنها، فإن كل اسم من هذه الأسماء: إما أن يدل على صفة كمال، أو على صفة وجود، أو على صفة سلب، أو على صفة فعل، ومرجع هذه الصفات كلها وهذه الأسماء إلى الثلاث عشرة

صفة، المذكورة في الفقرة السابقة، فإليها ترجع صفات الفعل، والسلب، والكمال، والوجود، والمعاني.

ومرة ثانية نحب أن نؤكّد، أنَّ الْخَالِقَ غَيْرَ الْمُخْلُوقِ، وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُشَبِّهُ خَلْقَهُ فِي شَيْءٍ: "لَيْسَ كَمُثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ". وَأَنَّ مَنْ أَسَسَ ضَلَالَ الْبَشَرِ فِي بَابِ الاعْتِقَادِ، اعْتِقَادَ مُشَابَّهَةِ اللَّهِ لَخَلْقِهِ، وَقَدْ رَدَ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ عَلَى أَيِّ تَصْوِيرٍ مِّنْ هَذِهِ التَّصْوِيرَاتِ؛ فَمَثَلًا زَعْمُ الْيَهُودِ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ، وَاسْتَرَاحَ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ بَعْدَ سَتَةِ أَيَّامٍ خَلَقَ – وَهَذَا نَوْعٌ تَشْبِيهٌ – فَرَدَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: "وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِنَّةٍ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ" ق : 38. أَيْ تَعْبُرُ، وَرَدَ عَلَى النَّصَارَى اعْتِبَارِهِمْ أَنَّ اللَّهَ مُؤْلِفُ مِنْ أَجْزَاءِهِ، وَأَنَّ مَنْ عَبَادَهُ مِنْهُ هُوَ جَزءٌ مِّنْهُ، فَقَالُوا: "وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ" الزَّخْرَفُ : 15. فَالْمُسْلِمُ يَثْبِتُ اللَّهَ مَا أَثْبَتَهُ لِذَاتِهِ مِنْ صَفَاتٍ وَأَسْمَاءٍ، وَيَنْزِهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِمَا نَزَهَ بِهِ نَفْسَهُ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ" الْمُؤْمِنُونَ : 91. "سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ" * إِلَّا عِبَادُ اللَّهِ الْمُخَلَّصُونَ الصَّافَاتُ : 159-160. فَاللَّهُ تَعَالَى مُوجُودٌ وَجُودُهُ لَيْسَ كَمُثْلِهِ شَيْءٌ، وَبَصِيرٌ وَبَصَرُهُ لَيْسَ كَمُثْلِهِ شَيْءٌ، وَسَمِيعٌ وَسَمْعُهُ لَيْسَ كَمُثْلِهِ شَيْءٌ، وَهَذَا فِي كُلِّ صَفَةٍ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَإِنَّمَا نَعْرِفُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بِالْعُقْلِ وَبِمَا عَرَفَنَا هُوَ جَلَ جَلَلَهُ عَلَى ذَاتِهِ وَصَفَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ بِكِتَابِهِ وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكِتَابِ اللَّهِ لَا يَنَاقِضُ بَعْضَهُ، وَسَنَةُ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا تَنَاقِضُ الْكِتَابَ، بَلْ كُلُّهُمَا يَفْسِرُ الْآخَرَ، وَكُلُّ مِنْهُمَا يَفْسِرُ بَعْضَهُ، وَإِنَّمَا نَعْرِفُ اللَّهَ بِمَجْمُوعِ مَا وَرَدَ فِيهِمَا، دُونَ أَنْ نَفْهَمَ فَهَمَا نَجَعَ كِتَابُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَنَاقِضُانِ بَعْضَهُمَا بَعْضًا.

وَلَا نَحْبُ التَّكْلِفَ فِي فَهْمِ النَّصُوصِ وَلَا التَّعْسُفَ، وَلَا نَحْبُ الْخَوْضَ أَصْلًا فِي قَضِيَّةِ لَهَا عَالَةٌ بِالْذَّاتِ الْإِلَهِيَّةِ، إِلَّا بِمَا يَفِيدُ الْإِيمَانَ وَالْتَّسْلِيمَ وَالتَّنْزِيهَ، وَعَقِيدَتِنَا لِذَلِكَ سَهْلَةً بِسِيَطَةٍ مُجَمِّعَةٍ عَلَيْهَا، لَا يُنَكِّرُهَا عَلَيْنَا أَحَدٌ. فَاللَّهُ مُوجُودٌ وَجُودُهُ لَيْسَ كَمُثْلِهِ شَيْءٌ، وَسَمِيعٌ وَسَمْعُهُ لَيْسَ كَمُثْلِهِ شَيْءٌ، وَبَصِيرٌ وَبَصَرُهُ لَيْسَ كَمُثْلِهِ شَيْءٌ، وَمَسْتَوٌ عَلَى الْمَعْنَى الَّذِي أَرَادَهُ بِالْاِسْتِوَاءِ؛ وَاسْتِوَاءُهُ لَيْسَ كَمُثْلِهِ شَيْءٌ، وَهَذَا فِي كُلِّ كَمُثْلِهِ شَيْءٌ، وَيَجِيءُ وَمَجِيءُهُ لَيْسَ كَمُثْلِهِ شَيْءٌ، وَقَرِيبٌ وَقَرْبُهُ لَيْسَ كَمُثْلِهِ شَيْءٌ، وَهَذَا فِي كُلِّ اسْمٍ أَوْ صَفَةٍ وَصَفَةٍ لِلَّهِ بِهَا ذَاتَهُ: "وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا" طَهُ : 110 .

هكذا كان أدب الصحابة في هذا الشأن، فلا نتجاوزه إلى غيره.

عن سليمان بن يسار أن رجلا منبني تميم، يقال له صبيغ بن عسل قدم المدينة، وكان عنده كتب، فجعل يسأل عن متشابه القرآن، فبلغ ذلك عمر، فبعث إليه، وقد أعد له عراحين النخل فلما دخل عليه قال: من أنت؟ قال: أنا عبد الله صبيغ، قال عمر وأنا عبد الله عمر وأوّل ما إلىه، فجعل يضربه بتلك العراحين، فما زال يضربه حتى شجه وجعل الدم يسيل على وجهه، فقال: حسبي يا أمير المؤمنين فقد والله ذهب الذي أجد في رأسي. الدارمي ونصر والأصبهاني معا في الحجة وابن الأنباري والللاكتائي.

لقد أدرك عمر ما يترتب على سؤال هذا الرجل من أمور، وهذا واقعنا شاهد على أن الأمة، منذ بحثت هذه الأمور، اختصمت وتفرقت؛ لذلك قال مالك للسائل عن الاستواء: والسؤال عنه بدعة نسأل الله أن يطهر قلوبنا من البدع.

ونحب أن نختم هذا البحث بذكر ملاحظتين: إدحاماً حول ما يذكره بعض الناس عن خواص أسماء الله، الثانية حول اسم الله الأعظم.

1- قضية خواص أسماء الله الحسنى:

يقول الأستاذ البنا: "يذكر البعض أن لكل اسم من أسماء الله تعالى خواصا وأسرارا، تتعلق به على إفاضة فيها أو إيجازا، وقد يغالى البعض فيتجاوز هذا القدر، إلى زعم أن لكم اسم خادما روحانيا، يخدم من يواكب على الذكر به، وهكذا، والذي أعلمك في هذا _ وفوق كل ذي علم عليم _ أن أسماء الله تعالى ألفاظ مشرفة، لها فضل على سائر الكلام، وفيها بركة وفي ذكرها ثواب عظيم، وأن الإنسان إذا واطب على ذكر الله تعالى، طهرت نفسه وصفت روحه، ولا سيما إذا كان ذكره بحضور قلب وفهم المعنى، أما ما زاد على ذلك فلم يرد في كتاب ولا سنة. وقد نهينا عن الغلو في الدين، والزيادة فيه، وحسبنا الاقتصار على ما ورد"

2- قضية اسم الله الأعظم:

يقول الأستاذ البنا: "ورد ذكر اسم الله الأعظم في أحاديث كثيرة منها:

1- عن بريدة رضي الله عنه، قال: سمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً يدعو وهو يقول "اللهم إني أسألك؛ بأنني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد. قال: والذي نفسي بيده لقد سأله باسمه الأعظم، الذي إذا دعى به

أجاب، وإذا سئل به أعطى" رواه أبو داود والترمذى والنمسائى وابن ماجه وقال المنذري: قال شيخنا أبو الحسن المقدسى: هو إسناد لا مطعن فيه ولا أعلم أنه روى في هذا الباب حديث أجدو إسنادا منه، وقال الحافظ ابن حجر: هذا الحديث أرجح ما ورد في هذا الباب من حيث السند.

2- عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: دخل النبي صلى الله عليه وسلم المسجد ورجل قد صلى وهو يدعوه ويقول في دعائه: لا إله إلا أنت، المنان، بديع السماوات والأرض، ذا الجلال والإكرام، فقال النبي صلى الله عليه وسلم "أندرون بم دعا الله؟ دعا الله باسمه الأعظم، الذي إذا دعى به أجاب، وإذا سئل به أعطى" رواه أبو داود والترمذى والنمسائى وابن ماجه.

3- عن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: "وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهٌ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ" البقرة : 163 . "الْمُ * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُ الْقَيُومُ" آل عمران : 1-2. رواه أحمد وأبو داود والترمذى وابن ماجه. وقال الترمذى: حديث حسن صحيح.

4- عن سعد بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: "هل أدلكم على اسم الله الأعظم، الذي إذا دعى به أجاب، وإذا سئل به أعطى؟ الدعوة التي بها يonus، حيث نادى في الظلمات الثلاث: لا إله إلا أنت، سبحانك، إني كنت من الظالمين" فقال رسول الله هل كانت ليonus خاصة، أم للمؤمنين عامة؟ فقال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا تسمع قول الله عز وجل: فنجناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين. فأنت ترى من هذه الأحاديث ومن غيرها، أنها لم تعين الاسم الأعظم بالذات، وأن العلماء مختلفون في تعينه، لاختلافهم في ترجيح الأحاديث الشريفة، ومن أقوال الثقات من رجال الملة، أن الاسم الأعظم دعاء نأخذه من هذه الأحاديث الشريفة، إذا دعا به الإنسان، مع توفر شروط الدعاء المطلوبة مركب من عدة أسماء من أسمائه تعالى، إذا دعا به الإنسان، مع توفر شروط الدعاء المطلوبة شرعا، استجاب الله له، وقد صرحت به الأحاديث الشريفة في عدة مواضع. وإذا تقرر هذا، فما يدعيه بعض الناس من أنه سر من الأسرار، يمنح لبعض الأفراد فيفتحون به المغلقات، ويخرقون به العادات، ويكون لهم به من الخواص ما ليس لغيرهم من الناس، أمر زائد على ما ورد عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم. وإذا احتاج هؤلاء البعض بالأية الكريمة وهي قول

الله تعالى: "قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا أَتَيْكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَ إِلَيْكَ طَرْفَكَ" النمل : 40. على القول بأن معنى: عنده علم من الكتاب أنه اسم الله الأعظم، تقول لهم: قد صرخ المفسرون بأن ذلك المدعو به كان يا حي يا قيوم. أو الله لا إله إلا هو الحي القيوم. وادعى بعضهم: أنه سرياني، لفظه آهيا شراهيا. وهي دعوى بغير دليل، فلم يخرج الأمر بما ورد في الأحاديث الصحيحة.

وخلصة البحث: إن بعض الناس ولعوا بالمعميات، وادعاء الخصوصيات، والزيادة في المؤثرات، فقالوا ما لم يرد في كتاب ولا سنة، وقد نهينا عن ذلك نهيا شديدا، فلنقف مع المؤثر.

والآن وقد استعرضنا تسع ظواهر كونية، كل ظاهرة تدلنا على الله من وجه، واستعرضنا دلالات الظواهر، وأن كل ظاهرة ذكرناها أم لم نذكرها، تدل على اسم من أسماء الله، وذكرنا لك بعضا مما له علاقة بالأسماء والصفات والذات الإلهية كما وردت في الكتاب والسنة، يبقى أن نقارن بين هذا المفهوم الصحيح عند المسلمين عن الذات الإلهية، والمفاهيم الأخرى الخاطئة عند غيرهم؛ ليتبين أن المسلمين وحدهم عرفوا الله حق المعرفة، معرفة قائمة على العلم والعقل والبديهة، لا تجد جانبا من جوانبها فيه مغمس، وذلك آية على أن هذا الإسلام دين الله، وعلى أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم، أرسله الله ليرد الناس عن الباطل في كل شيء إلى الحق في كل شيء.

و قبل أن نبدأ المقارنة نحب أن نلخص بعض ما مر معنا في هذه الفقرة:

1- إن ظواهر هذا الكون، تدل على أسماء الله الحسنى، وأسماؤه تدل على صفاته وصفاته تدلنا على ذاته.

2- مما تدلنا عليه ظواهر الكون، أن الله عز وجل متصف: بالعلم، والإرادة، والقدرة، والحياة، والسمع، والبصر، والكلام، والوحدةانية، والبقاء، والأولية، القيومية، والمخالفة للحوادث وأن من أسمائه: المذل والمعز والرزاق والمعطى والمنعم...

3- ونظرة إلى ما وصف الله عز وجل به ذاته، أو سماه به رسوله صلى الله عليه وسلم، ترينا انطباقي ما دلتنا عليه الظواهر بدلالة العقل، على ما دلنا عليه النص مع زيادة في النص ترقي بعقولنا إلى منتهى الكمال والأدب، ودين يأخذ بيد العقل في هذا الموضوع إلى مثل هذه الذروة، لا يبقى عند الإنسان شكاً بأنه وحي.

4- وفي كل ما مر، آية على أن المسلم في هذا الموضوع وغيره قد اجتمع له صواب العقل، وصفاء الفهم، وهداية الوحي الذي يأخذ بيد العقل والفهم إلى الطريق السوي.

مقارنات

تحت عنوان العقيدة الإلهية كتب عباس محمود العقاد في كتابه حقائق الإسلام وأباطيل خصومه بحثا، قارن فيه العقيدة الإسلامية في الله جل جلاله بعقيدة غير المسلمين في باب الألوهية، والملحوظ أن المقارنة منصبة على بعض عقائد الفلسفه، وعلى العقائد الدينية في وضعها الذي صارت إليه كما يفهمه أهلها زمن الرسالة الإسلامية، لا كما هي في أصولها عند الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أصحاب هذه الرسالات – إن كانت في الأصل عن رسل – إذ إننا نعتقد أن موسى وعيسى عليهما السلام وكل رسول الله عقيدتهم في الذات الإلهية هي نفسها عقيدة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إذ كلهم رسول لرب واحد، ولكن هذه العقيدة حرفت وبدلت بعده، كما حرف وبدل غيرها، فأصبحت تحتاج إلى تصحیح، فكانت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم هي هذا التصحیح الكامل، فالانحراف الكامل في تصور الذات الإلهية في العالم كله من ناحية، والتصحیح الكامل لهذا الانحراف من ناحية ثانية، دليل على أن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم من عند الله. ونحن هنا لن ننقل بحث العقاد كله، وإنما سنختار منه، مع ملاحظة أن ما نقله هو كلامه نفسه، وكل تعليق في أسفل الصحيفة من كلامنا، يقول العقاد:

العقيدة الإلهية

العقيدة في الإله رأس العقائد الدينية بجملتها وتفصيلها. من عرف عقيدة قوم في إلههم فقد عرف نصيب دينهم من رفعة الفهم والوجودان، ومن صحة المقاييس التي يقاس بها الخير والشر، وتقدر بها الحسنات والسيئات، فلا يهبط دين وعقيدته في الإله عالية، ولا يعلو دين وعقيدته في الإله هابطة، ليست مما يناسب صفات الموجود الأول الذي تتبعه جميع الموجودات.

ولقد كان النظر في صفات الله، مجال التناقض بين أكبر العقول من أصحاب الفلسفة الفكرية وأصحاب الحكمة الدينية، وقد كانت مهمة الفلسفة أيسر من مهمة حكماء الأديان، لأن الفيلسوف النظري ينطلق في تفكيره وتقديره غير مقيد بفرائض العبادة وحدود المعاملات التي يتقيد بها الحكيم الديني، ويتقيد بها من يؤمنون به من أتباعه في الحياة العامة والمعيشة الخاصة، فظهر بين الفلسفه النظريين من سما بالتنزيه الإلهي صعدا إلى أوج لا يلحق به الخيال، فضلا عن الفكر والإحساس.

و جاء الإسلام من جوف الصحراء العربية بأسمى عقيدة في الإله الواحد الأحد صحت فكرة الفلسفة النظرية كما صحت فكرة العقائد الدينية، فكان تصحيحة لكل من هاتين الفكريتين – في جانب النقص منها – أعظم المعجزات التي أثبتت له في حكم العقل المنصف والبديهة الصادقة أنه وحي من عند الله.

يقال على الإجماع: إن صفات الإله قد ارتفعت إلى ذروتها العليا من التزييه والتجريد في مذهب أرسطو الفيلسوف اليوناني الكبير.

والذين يرون هذا الرأي لا ينسون مذهب أفلاطين إمام الفلسفة الأفلاطونية الحديثة وشيخ الفلسفة الصوفية بين الغربيين إلى العصر الأخير. غير أنهم لا يذكرونها في معرض الكلام على التزييه في وصف الله؛ لأن مذهب أقرب إلى الغيوبية الصوفية منه إلى التفكير الجلي والمنطق المعقول، وطريقه في التزييه أن يمعن في الزيادة على كل صفة يوصف بها الله، فلا يزال يتخطاها ثم يتخطاها كلما استطاع الزيادة اللغوية، حتى تقطع الصلة بينها وبين جميع المدلولات المفهومة أو المظنونة، ويرجح الأثرون أن أفلاطين نفسه لم يكن يتصور ما يصوره من تلك الصفات، وإنما كانت غايتها القصوى أن يذهب بالتصور إلى منقطع العجز والإعباء.

فمن ذلك أنه ينكر صفة الوحدانية؛ ليقول بصفة الأحادية، ويقول: إن الواحد غير الأحد؛ لأن الواحد قد يدخل في عداد الاثنين والثلاثة والعشرة، ولا يكون الأحد إلا مفرداً بغير تكرار. ومن ذلك أنه ينكر صفة الوجود، ليقول: إن الله لا يوصف بأنه موجود، تزييها له عن الصفة التي يقابلها – العدم – وتشترك فيها الموجودات أو الموجدات.

لهذا يضربون المثل بأرسطو في تزييه الإله، ولا يضربون المثل بأفلاطين؛ لأن مذهبه ينقطع في صومعة من غيوبة الذهول، لا تمتزج بحياة فكرية ولا بحياة عملية.

ومذهب أرسطو في الإله أنه: كائن أزلبي، مطلق الكمال، لا أول له ولا آخر، ولا عمل له ولا عمل له ولا إرادة. منذ كان العمل طلباً لشيء، والله غني عن كل طلب، وقد كانت الإرادة اختياراً بين أمرين، والله قد اجتمع عنده الأصلح الأفضل من كل كمال، فلا حاجة به إلى الاختيار بين صالح وغير صالح، ولا بين فاضل ومفضول، وليس مما يناسب الإله في رأي أرسطو أن يبتدىء العمل في زمان؛ لأنه أبدى سرمدي لا يطرأ عليه طارئ يدعوه إلى العمل، ولا يستجد عليه من جديد في وجوده المطلق بلا أول ولا آخر، ولا جديد ولا قديم، وكل ما

يناسب كماله فهو السعادة بنعمة بقائه التي لا بغية وراءها ولا نعمة فوقها ولا دونها، ولا تخرج من نطاقها عنية.

فالإله الكامل المطلق الكمال: لا يعنيه أن يخلق العالم، أو يخلق مادته الأولى وهي الهيولي ولكن لهذه الهيولي قابلية للوجود، يخرجها من القوة إلى الفعل شوقياً إلى الوجود الذي يفيض عليها من قبل الإله، فيدفعها هذا الشوق إلى الوجود، ثم يدفعها من النقص إلى الكمال المستطاع في حدودها، فتتحرك وتعمل بما فيها من الشوق والقابلية ولا يقال عنها: إنها من خلقة الله إلا أن تكون الخلقة على هذا الاعتبار. كمال مطلق لا يعمل ولا يريد. أو كمال مطلق يوشك أن يكون هو وعدم المطلق على حد سواء..

ولنذكر أنه أرسطو صاحب هذا المذهب قبل كل شيء. ولنذكر أنه ذلك العقل الهائل الذي يهابه من يحس قدرته، فلا يتجرأ عليه بالنقد والتسيفه، قبل أن يفرغ جهده في التماس المعذرة له من جهل عصره وقصور الأفكار حوله، لا من جهله هو أو قصور تفكيره؛ فإنه لم يعودنا في تفكيره احتمالاً قط لا يقتصاه إلى (قصره) مداه، ولا يستوفي مقتضياته وموانعه جهد ما في الطاقة الإنسانية من استيفاء.

لنذكر أنه أرسطو؛ لكي نذكر أن هذا العقل النادر، لم يؤت من نقص في تصور الصفات العلوية؛ إلا أنه عاش في زمان، لم تتكشف فيه المعرفة عن خصائص هذه الكائنات الأرضية السفلية التي نحسها ونعيش بينها، ولو أنه عرف ما هو لاصق بها من خصائصها وأعراضها، كان له رأي في الكمال العلوي غير ذلك الرأي الذي ارتآه بمحض الظن والقياس على غير مقياس.

لقد كان يفهم من كمال الكائنات العلوية _ السماوية _ أنها خالدة باقية لا تفنى: لأنها من نور والنور بسيط لا يعرض له الفناء كما يعرض على التركيب.

ولو أن أرسطو عاش حتى علم أن المادة الأرضية _ السفلية _ كلها من نور، وأن عناصر المادة كلها تؤول إلى الذرات والكهارب، وأن هذه الذرات والkeharp تتشق، فتؤول إلى شعاع؛

لما ساقه الظن والقياس إلى ذلك الخطأ في التفرقة بين لوازم البقاء ولوازم الفناء أو بين خصائص البساطة وخصائص التركيب.

ولعل إدراكه لذلك الخطأ في فهم لوازم البساطة والكمال، ولوازم البقاء والفناء، كان خليقاً أن يهديه إلى فهم خطئه في تصور لوازم الكمال الإلهي، فلا يمتنع في عقله أن يجتمع الكمال الواحد من صفات عدة كالصفات الحسنى التي وصف بها الإله في الإسلام، ومنها الرحمة والكرم والقدرة والفعل والإرادة، ولا يمتنع في عقله أن يكون لهذه الصفات لوازماً لها ومقتضياتها، إذ لا تكون قدرة بغير مقدور عليه، ولا يكون كرم بغير إعطاء، ولا تكون مشيئة بغير اختيار بين أمرين، وإذا اختار الله أمراً فهو لا يختاره لذاته سبحانه وتعالى، بل يختاره لمخلوقاته التي تجوز عليها حالات شتى لا تجوز في حق الإله، وإذا خلق الله شيئاً في الزمان فلا نظر إلى الأبدية الإلهية بل ينبغي أن ننظر إلى الشيء الموجود المخلوق في زمانه، ثم لا مانع عقلاً من أن تتعلق به إرادة الله الأبدية على أن يكون حيث كان في زمن من الأزمان.

لقد كان مفهوم البساطة الأبدية الباقية عند أرسطو، غير مفهومها الذي لمسناه اليوم لمساً في هذه الكائنات الأرضية _ السفلية _ فلا جرم يكون مفهوم الكمال المطلق عندنا، غير مفهومه الذي جعله أرسطو أشبه شيء بالعدم المطلق وغير عامل ولا مرید ولا عالم بسوى النعمة والسعادة .. فانع بأنه منعم سعيد.

وعلى هذا يبقى لنا أن نسأل: هل استطاع أرسطو بتجريده الفلسفى أن يسمى بالكمال الأعلى فوق مرتبته التي يستنتم إليها المسلم من عقيدة دينه؟
تقول عن يقين: كلا؛ فإن الله في الإسلام إله صمد لا أول له ولا آخر، وله المثل الأعلى، فليس كمثله شيء، وهو محيط بكل شيء.

ثم يبقى بعد ذلك أن نسأل: هل تغض العقيدة الدينية من الفكرة الفلسفية في مذهب التزييه؟
والجواب: كلا، بل الدين هنا فلسفة أصلح من الفلسفة إذا قيست بالقياس الفلسفى الصحيح؛ لأن صفات الإله التي تعددت في عقيدة الإسلام لا تدعو نفياً للنفائض التي لا تجوز في حق الإله، وليس تعدد النفائض مما يقضى بتعدد الكمال المطلق الذي ينفرد ولا يتعدد. فإن الكمال المطلق واحد، والنفائض كثيرة ينفيها جميعاً ذلك الكمال الواحد وما يؤمن بـأن الله عظيم قادر فعال لما

يريد كريم رحيم، إلا إيماناً بأنه جل وعلا قد تترى عن نفائص الجهل والعجز والجحد والغشم، فهو كامل منزه عن جميع النفائص، ومقتضى قدرته أن يعلم ويخلق، ويريد لخلقه ما يشاء، ومقتضى عمله وخلقه أن يتترى عن تلك العزلة السعيدة التي توهمها أرسطو مخطئاً في التجريد والتزييه، فهو سعيد بنعمة كماله، سعيد بنعمة عطائه، كفايته لذاته العالية لا تأبه له أن يفيض على الخلق كفايتهم من الوجود في الزمان، أي من ذلك الوجود المحدود الذي لا يغض من وجود الله في الأبد بلا أول ولا آخر ولا شريك ولا مثيل.

ومن صفات الله في الإسلام، ما يعتبر ردًا على فكرة الله في الفلسفة الأرسطية، كما يعتبر ردًا على أصحاب التأويل في الأديان الكتابية وغير الكتابية.

فالله عند أرسطو يعقل ذاته ولا يعقل ما دونها، ويترى عن الإرادة لأن الإرادة طلب في رأيه، والله كمال لا يطلب شيئاً غير ذاته، ويجل عن علم الكليات والجزئيات، لأنه يحسبها من علم العقول البشرية، ولا يعني بالخلق رحمة ولا قسوة. لأن الخلق أخرى أن يطلب الكمال بالسعى إليه. ولكن الله في الإسلام عالم الغيب والشهادة.

قال تعالى: "وَمَا يَعْزِبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مُّتَّقَلٍ ذَرَّةٍ" يونس : 61.
"وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ" يس : 79.

"وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ" المؤمنون : 17.
"وَسَعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا" الأعراف : 89.
"إِلَّا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ" الأعراف : 54.

"عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ" الماك : 13.
وهو كذلك مريد وفعال لما يريد.

قال تعالى: "وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غَلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلَعُنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَاتٍ" المائدة : 63.

وفي هذه الآية رد على يهود العرب بمناسبة خاصة تتعلق بالزكاة والصدقات، كما جاء في أقوال بعض المفسرين، ولكنها ترد على كل من يغلون إرادة الله على وجه من الوجه، ولا يبعد أن يكون في يهود الجزيرة من يشير إلى روایات الفلسفة الأرسطية بذلك المقال.

وقد أشار القرآن الكريم إلى الخلاف بين الأديان المتعددة فجاء فيه من: "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ" الحج : 16.

وأشار إلى الدهر بين فجاء في سورة الأنعام: "وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاةُ الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ" الأنعام : 29.

وجاء في سورة الجاثية: "وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاةُ الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُونَ" الجاثية : 24.

فكانـت فـكرة الله في الإسلام، هي الفـكرة المـتمـمة لأـفـكار كـثـيرـة مـوزـعـة في هـذـه العـقـائـد الـديـنيـة وـفي المـذاـهـب الـفـلـسـفـيـة الـتـي تـدور عـلـيـها؛ وـلـهـذا بـلـغـت الـمـثـل الـأـعـلـى في صـفـات الـذـات الإـلهـيـة، وـتـضـمـنـت تصـحـيـحا للـضـمـائـر وـتـصـحـيـحا للـعـقـول في تـقـرـير ما يـنـبـغـي لـكـمال الله بـقـسـطـاس الإـيمـان وـقـسـطـاس النـظر وـالـقـيـاس.

ومن ثم كان فـكر الإنسان من وـسـائـل الـوصـول إـلـى مـعـرـفـة الله في الإسلام، وإن كانت الـهـدـاـيـة كـلـها من الله.

ومـجمـلـ ما يـقـالـ عنـ عـقـيـدة الـذـات الإـلهـيـة الـتـي جـاءـ بـهـاـ الإـسلامـ: أـنـ الـذـاتـ الإـلهـيـةـ غـاـيـةـ ما يـتـصـورـهـ الـعـقـلـ الـبـشـريـ منـ الـكـمالـ فـالـعـقـلـ لاـ يـتـصـورـ لـلـوـجـودـ الـدـائـمـ وـالـوـجـودـ الـفـانـيـ صـورـةـ أـقـرـبـ إـلـىـ الـفـهـمـ منـ مـسـأـلةـ الـبـقـاءـ وـالـفـنـاءـ. فـالـعـقـلـ لـاـ يـتـصـورـ لـلـوـجـودـ الـدـائـمـ وـالـوـجـودـ الـفـانـيـ صـورـةـ أـقـرـبـ إـلـىـ الـفـهـمـ منـ صـورـتـيهـماـ فـيـ الـعـقـيـدةـ الإـسـلامـيـةـ، لـأـنـ الـعـقـلـ لـاـ يـتـصـورـ وـجـودـينـ سـرـمـدـيـنـ، كـلـاهـماـ غـيـرـ مـخـلـوقـ،ـ أحـدـهـماـ مجـرـدـ وـالـآـخـرـ مـادـةـ، وـهـذـاـ وـذـاكـ لـيـسـ لـهـماـ اـبـتـدـاءـ وـلـيـسـ لـهـاـ اـنـتـهـاءـ.ـ وـلـكـنـهـ يـتـصـورـ وـجـودـاـ أـبـدـيـاـ يـخـلـقـ وـجـودـاـ زـمـانـيـاـ.ـ وـقـدـيـماـ قـالـ أـفـلاـطـونـ وـأـصـابـ فـيـماـ قـالـ: إـنـ الزـمـانـ لـيـسـ مـحـاكـاـةـ لـلـأـبـدـ.ـ لـأـنـهـ مـخـلـوقـ وـالـأـبـدـ غـيـرـ مـخـلـوقـ.

بقاء المخلوقات بقاء في الزمن، وبقاء الخالق بقاء أبيدي سرمدي لا يحده الماضي والحاضر والمستقبل، لأنها كلها من حدود الحركة والانتقال في تصور أبناء الفناء، ولا تجوز في حق الخالق السرمدي حركة ولا انتقال.

فallah هو : "الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ" الفرقان : 57.

"وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ" المؤمنون : 80.

و"كُلُّ شَيْءٍ هَالَّكُ إِلَّا وَجْهُهُ" القصص : 88.

وأيا كان المرتلى الذى ارتفع إليه تزييه الفكرة الإلهية فى مذهب أرسسطو كما شرحناه بعض الشرح، أو مذهب أستاذة أفلاطون كما أؤمنا إليه بعض الإيماء، فهذا التزييه الفلسفى كاد أن يكون خيالاً جامحاً بالنسبة إلى العقائد الإلهية التي كانت فاشية بين الكهان والمتعبدين من أبناء اليونان.

فلا شك أن صورة جوبىتر رب الأرباب عندهم، كانت أقرب إلى صورة الشيطان منها إلى صورة الأرباب المنزهين، ولو لم يبلغ وصف التزييه عندهم نصباً ملحوظاً من الكمال. كان جوبىتر حقوداً لدوا، مشغولاً بشهوات الطعام والغرام، لا يبالى من شؤون الأرباب والمخلوقات إلا ما يعنيه على حفظ سلطانه والتماذى في طغيانه، وكان يغضب على أسلوباته، لأنه يداوى المرضى فيحرمه جباهية الضربيه على أرواح الموتى الذين ينتقلون من ظهر الأرض إلى باطن الهاوية، وكان يغضب على بروميثيوس إله المعرفة والصناعة، لأنه يعلم الإنسان أن يستخدم النار في الصناعة، وأن يتخد من المعرفة قوة تضارع قوة الأرباب، وقد حكم عليه بالعقاب الدائم فلم يقنع بمorte ولا بإقصائه عن حظيرة الآلهة، بل تفنن في اختراع ألوان العذاب له، فقيده إلى جبل سحيق، وأرسل عليه جوارح الطير تنهش كبده طوال النهار، حتى إذا جن الليل عادت سليمة في بدنـه، لتعود الجوارح على نهشـها بعد مطلع الشمس ... ولا يزال هكذا دواـياـك في العذاب الدائم مردود الشفاعة مرفوضـ الدعـاء. ومما رواهـ الشاعـر الفيلسوف هزـيـود عن علة غضـبـ الإـلهـ علىـ بـرـومـثـيـوسـ أنهـ قـسـمـ لهـ نـصـيبـهـ منـ الطـعـامـ فيـ ولـيـمةـ الأـربـابـ، فـأـكـثـرـ فـيـهـ مـنـ العـظـامـ، وـأـقـلـ فـيـهـ مـنـ الـلـحـومـ الشـحـومـ، فـأـعـتـقـدـ جـوـبـىـترـ أنهـ يـتـعـالـمـ عـلـيـهـ بـعـرـفـتـهـ وـفـطـنـتـهـ، لأنـهـ اـشـتـهـرـ بـيـنـ الـآـلـهـ بـعـرـفـةـ وـافـرـةـ وـفـطـنـةـ نـافـذـةـ، لمـ يـشـتـهـرـ بـهـ إـلـهـ الـكـبـيرـ، ولاـ يـغـيـبـ عـنـاـ وـنـحـنـ نـرـوـيـ أـخـبـارـ إـلـهـ الـكـبـيرـ مـنـقـولـةـ عـنـ هـزـيـودـ أـنـ هـذـاـ الشـاعـرـ الفـيـلـسـوـفـ، قدـ

اجتهد قصارى اجتهاده في تزييه جوبيتز وتصويره للناس في صورة من القدسية والعظمة، تناسب صورة الإله المعبد بعد ارتقاء العبادة شيئاً ما في ديانة اليونان الأقدمين.

ومما رواه الرواة المختلفون عن جوبيتز أنه كان يخادع زوجته هيرة ويرسل إله الغمام لمداراة الشمس في مطلعها، حذرا من هبوب زوجته الغيرى عليه مع مطلع النهار، ومفاجأته بين عشيقاته على عرش الأولمب.. وحدث مرة أنها فاجأته وهو يقبل ساقيه جانمييد راعي الضأن الجميل الذي لمحه في الخلاء، فاختطفه وصعد به إلى السماء. فلم يتصل جوبيتز من تهمة الشغف بساقيه، ومضى يسونغ مسلكه لزوجته بما جعلته من لذة الجمع بين رحىق الكأس ورحيق الشفاه.

ومثل الأمم القديمة كمثل اليونان في بعد الفارق بين صورة الإله في حكمة الفلسفه، وبين صورته في شعائر الكهان والمتعبدين.

فالهند القديمة كانت تطوى هيأكلها ومعابدها على طوائف من الأرباب: منها ما يلحق بالحيوان وعناصر الطبيعة، ومنها ما يلحق بالأوثان والأنصاب، وكثير منها يتطلب من سدنته أن يتقربوا إليه بالبغاء المقدس وسفك الدماء.

وقد انتهت هذه الأرباب المتعددة إلى الثالوث الأبدى الذى اشتمل على ثلات من الصور الإلهية، هي الإله براهما في صورة الخالق، والإله فشنو في صورة الحافظ، والإله سيفا في صورة الهادم. فجعلوا الهم وفساد من عمل الإله الأعلى الذى يتولاه حين يتشكل لعباده من تلك الصورة. وزادوا على ذلك أنهم جعلوا لكل إله قرينا يسمونه الشاكتي أو الزوجة أو الصاحبة ينسبون إليها من الشرور ما ينزعون عنه قرينهما أو صاحبها.

فهذه الأرباب صور لا تبتعد المسافة بينها وبين صور الشياطين والعفاريت والأرواح الخبيثة المعهودة في أقدم الديانات، فإذا ارتفعنا في معارج التزييه والتجريد بلغنا منها ذروتها العليا في صورتين مختلفتين: إحداهما صورة الكارما والصورة الأخرى الترفانا وكلتاهم تحسب من قبيل المعاني الذهنية، وقل أن توصف بوصف الذات الإلهية. فالكارما هي القدر الغالب على جميع

الموجودات ومنها الآلهة وأفلاك السماء، وهذا القدر هو في الواقع حالة من الحالات العامة، يمكن أن نعبر عنها بأنها هي ما ينبغي أو هي الوضع الحاصل على النحو الأمثل، فليس القدر المسمى بالكارما عندهم ذاتاً إلهية معروفة الصفات، ولكنه مرادف لكلمة الإلتباس أو كلمة الواجب كما وجب في الحوادث وال الموجودات.

والنرفانا حالة عامة كحالة الكارما، إلا أنها إلى العدم أقرب منها إلى الوجود، لأنها الحالة التي تنتهي إليها جميع الأرواح حين تفرغ من عناء الوجود، وتتجدد من شواغل الأجساد وشواغل الأرواح على السواء، وتتساوى أرواح الآلة وأرواح البشر في حالة النرفانا هذه، كلما سعدت بنعمة الخلود غير محسوس ولا مشهود.

ولسنا نريد في هذه الصفحات القليلة، أن نتبع صورة الإلهية والربوبية كافة بين أمم الحضارات الأولى، وإنما نجترئ منها بالنماذج الدالة عليها فيما ارتفت إليه من التزيه، وفيما هبطت إليه من التجسيم أو التشبيه أو التشويه، ولهذا يغنينا عن الاسترسال في شرح عادات الأقدمين أن نضيف إلى ما تقدم مثلاً آخر يتمثلة اليونان والهند، وذلك هو مثل الديانة المصرية القديمة من أبعد عهود الفراعنة إلى عهد الديانات الكتابية، وهي أي الديانة المصرية القديمة أرفع الديانات فيما نعلم ترقياً إلى ذروة التوحيد والتزيه، وإن كانت في عبادتها الشائعة تهبط أحياناً إلى مهبط الديانات الغابرة من عبادة الطواطم والأنصاب، وعباده الأرواح الخبيثة والشياطين. بلغت ديانة مصر القديمة ذروتها العليا من التوحيد والتزيه في ديانة آتون التي بشر بها الفرعون المنسوب إليه إخناتون.

ويؤخذ من صلوات إخناتون المحفوظة بين أيدينا، أنه كان يصلى إلى خالق واحد، يكاد يقترب في صفاته من الإله الخالق الذي يلي له العارفون من أتباع الديانات الكتابية، لو لا شائبة من العبادة الوثنية علقت به من عبادة الشمس، فكانت هذه الشمس الدنيوية رمزاً ومرادفاً لاسمها في معظم الصلوات.

هذه الشواهد من التاريخ القديم، شواهد تمثيل لا شواهد حصر وتصصيل، وهي مغنية في الدلالة على المدى الذي وصل إليه تزييه الفكرة الإلهية في أمم التاريخ القديم جميعها، لأنها تدل على

ما وصلت إليه الفكرة الإلهية المنزهة في أرفع الحضارات الأولى، وهي الحضارة المصرية والحضارة الهندية والحضارة اليونانية.

وجملة الملاحظات على تنزيه الفكرة الإلهية عند الأقدمين، أنه كان تنزيها خاصا مقصورا على الفئة القليلة من المفكرين والمطلعين على صفوة الأسرار الدينية.

ثم يلاحظ عليه بعد ذلك؛ أنه تنزيه لم يسلم في كل آن من ضعف يعييه عقله، ويجعله غير صالح للأخذ به في ديانات الجماعة على الخصوص.

وفي الديانة المصرية، لم تسلم فكرة التوحيد من شائبة الوثنية، ولم تزل عبادة الشمس ظاهرة الأثر في عبادة آتون.

وديانة الهند لم تعلم الناس الإيمان بذات الإلهية معروفة الصفات، وليس في معبداتها أشرف من الكارما والنرفانا، وهو بالمعنى الذهني أشبه منها بالكائنات الحية، وإدحاما وهي النرفانا إلى الفناء أقرب منها إلى البقاء.

والتنزيه الفلسفى الذى ارتقت إليه حكمة اليونان في مذهب أرسطو، يكاد يلحق الكمال المطلق بالعدم المطلق، ويخرج لنا صورة للإله لا تصلح للإيمان بها ولا للاقتناع بها على هدى من الفهم الصحيح.

وكل أولئك لا يبلغ بالتنزيه الإلهي مبلغه الذي جاءت به الديانة الإسلامية، صالحا للإيمان به في العقيدة الدينية وصالحا للأخذ به في مذاهب التفكير.

والديانة الإسلامية كما هو معلوم ثالثة الديانات المشهورة باسم الديانات الكتابية مكانها في علم المقارنة بين الأديان مرتبطة بمكان الديانتين الآخريتين وهما الموسوية والمسيحية، وتجري المقارنة بين الإسلام وبينهما فعلا في كتابات الغربيين، فلا يتورع أكثرهم من حسبان الإسلام نسخة مشوهة أو محرفة من المسيحية أو الموسوية.

والمسألة بعد مسألة نصوص محفوظة وشعائر ملحوظة، لا تحتمل الجدل الطويل في ميزان النقد والمقارنة؛ وإن احتملته في مجال الدعوة والخصومة العصبية ، ولا حاجة في المقارنة بين هذه الديانات إلى أكثر من ذكر العقيدة الإلهية في كل منها المعلم الصحيح بمكانها من التزيء في حكم الدين وحكم المعرفة النظرية.

إن المراجع التي تلقينا منها عقائد العربين كما يدين بها أتباع الموسوية إلى يومنا هذا، مبوطة بين أيدي جميع القادرین على مطالعتها في لغاتها الأصلية أو لغاتها المترجمة، وأشهرها التوراة والتلمود. فصورة الإله في هذه المراجع من أوائلها إلى أواخرها هي صورة يهوا الله شعب إسرائيل.

وقد وصفوه في كتبهم المقدسة، قالوا عنه مرة: إنه يحب ريح الشواء، قالوا عنه مرة أخرى: إنه يتمشى في ظلال الحديقة ليتبرد بهوائها، قالوا عنه غير هذا وذاك. إنه يصارع عباده ويصارعونه، وإنه يخاف من مركبات الجبال كما يخافها جنوده، وغيروا رحرا من الدهر وهم يسونون بينه وبين عازيل شيطان البرية، فيتقربون إليه بذبيحة، ويتقربون إلى الشيطان بذبيحة مثلاً.

وحمد العربين على عقידتهم الإلهية، فظل يهوا الله عربياً، يستأثر به أبناء يعقوب ابن إسحاق، ولا يرجو الخلاص بمعونة منه إلا الذين يدينون بالولاء لعرش داود وذراته من بعده، فلم يتغير هذا الاعتقاد بين العربين قبل عصر الميلاد المسيحي، ولم يأت التغيير فيه من قبل أبناء إسرائيل المحافظين على عقידتهم الأولى؛ بل أتى هذا التغيير من قبل المصلحين المجددين في الدين اليهودي، وقام به من بينهم رسول مغضوب عليه في شرعاهم منهم بالمروق من زمرتهم، وهو عيسى بن مريم صلوات الله عليه وسلم.

وابتدأ عيسى بن مريم دعوته الأولى مختصاً بها بني إسرائيل دون سواهم من العالمين، وذكرت لنا الأنجليل تفصيل الحوار الذي دار بين المسيح وبين المرأة الكنعانية التي توسلت إليه أن يخرج الشيطان من ابنتها، فروى إنجيل مرقص في الإصلاح السابع:

(أن امرأة بابنتها روح نجس، سمعت به، فأتت وخرت عند قدميه، وكانت المرأة أممية أي من أبناء الأمم غير الإسرائيليّة وفي جنسها فينيقية سورية، فسألته أن يخرج الشيطان من ابنتها، وأما يسوع، فقال لها: دعي البنين أولاً يشبعون؛ لأنّه ليس حسناً أن يؤخذ خبز البنين ويطرح الكلاب، فأجابت وقالت له: نعم يا سيد، والكلاب أيضاً تحت المائدة تأكل من فتات البنين، فقال لها: لأجل هذه الكلمة، اذهبي قد خرج الشيطان من ابنتك)

ورواية متى لهذه القصة تشبه رواية مرقص حيث جاء في الإصحاح الخامس عشر من الإنجيل المنسوب إليه:

إن السيد المسيح (خرج من هناك وانصرف إلى نواحي صور وصيادة، وإذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت إليه قائلة: ارحمني يا ابن داود. ابنتي مجنونة جداً. فلم يجيبها بكلمة. فتقدم تلاميذ وطلبوه إليه قائلين: اصرفها لأنّها تصيح وراءنا، فأجاب وقال: لم أرسل إلى إلا خرافبني إسرائيل الضالة، فأتت وسجدت له قائلة: يا سيد أعني. فأجاب وقال: ليس حسن أن يؤخذ خبز البنين ويطرح الكلاب، فقالت: نعم يا سيد. والكلاب أيضاً تأكل من الفتات الذي يسقط من مائدة أربابها، حينئذ أجاب يسوع وقال لها: يا امرأة. عظيم إيمانك، لكن لك كما تريدين. فشفيت ابنتها من تلك الساعة)

ونحن نعلم من هذه القصة ومن جملة أخبار التلاميذ في الإنجيل، أن السيد المسيح قد ثابر على اختصاصبني إسرائيل بدعوته، ولم يتحول عنهم إلى غيرهم إلا بعد إصرارهم على رفضه ولجاجتهم في إنكار رسالته، فوجد بعد اليأس منهم أنه في حل من صرف الدعوة عنهم إلى الأمم المقيمة بينهم، وضرب المثل لذلك بصاحب الدار الذي أقام وليمة العرس في داره، وأرسل الدعوة إلى ذويه وجيرانه، فتعللو بالمعاذير والشواغل ولم يستجيبوا لدعوته، غير معرفة بهم ولا صلة بينه وبينهم، حتى امتلأت بهم الدار ولم يبق على الموائد مكان لمن اختصهم بالدعوة فأعرضوا عنها.

ويلاحظ في قصة المرأة الكنعانية أنها كانت تدعو المسيح بالسيد ابن داود، وأن عقيدة العبريين لم تزل آمالهم بالخلاص على يد رسول من ذرية داود ومن سلالة يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم.

ومضى عصر المسيح، وجاء بعده عصر بولس الرسول، وعقيدة الخلاص الموقوف على سلالة إبراهيم الخليل باقية مسلمة بين العربين الجامدين على تقاليدهم وبين المسيحيين المتحررين من تلك التقاليد، وإنما أضيف إليها تفسير جديد لهذه البنوة، وهو أنها بنوة روحية لا تتوقف على بنوة الجسد، ولا فارق فيها بين من يحيون سنة إبراهيم الخليل من العربين أو من الأميين الذين يسميهم العربين بالجوبيين. أي القوم الغرباء.

فالعقيدة الإلهية كما دان بها العربون وجدوا عليها إلى عصر الميلاد؛ إنما هي عقيدة شعب مختار بين الشعوب في إله مختار بين الآلهة، وليس في هذه العقيدة إيمان بالتوحيد، ولا هي مما يتسع لديانة إنسانية، أو مما يصح أن يحسبه الباحث المنصف مقدمة للإيمان بالإله الذي يدعوا إليه الإسلام.

ثم تطورت هذه العقيدة الإلهية بعد ظهور المسيحية، فانتقلت من الإيمان بالإله لأبناء إبراهيم في الجسد، إلى الإيمان بالإله لأبناء إبراهيم في الروح، وانقضى عصر السيد المسيح وعصر بولس الرسول، واتصلت المسيحية بالأمم الأجنبية وفي مقدمتها الأمة المصرية، فشاعت فيها على أثر ذلك عقيدة إلهية جديدة في مذهب العربين؛ وهي عقيدة الثالوث المجتمع من الأب والابن والروح القدس، وفحواها: أن المسيح المخلص هو ابن الله، وأن الله أرسله فداء لأبناء آدم وحواء، وكفاره عن الخطيئة التي وقعا فيها عندما أكلوا من شجرة المعرفة في الجنة بعد أن نهاهما عن الاقتراب منها.

وظهر الإسلام وفهوى العقيدة الإلهية كما تطورت بها الديانة المسيحية: أن الله الإله واحد من أقانيم ثلاثة هي: الأب والروح القدس والابن، وأن المسيح هو الابن من هذه الأقانيم، وهو ذو طبيعة إلهية واحدة في مذهب فريق من المسيحيين، وذو طبيعتين إلهية وإنسانية في مذهب فريق آخر.

ومن البديهي أن الباحث الذي يريد تطبيق علم المقارنة بين الأديان على المسيحية والإسلام، مطالب بالرجوع إلى حالة الديانة المسيحية حيث ظهرت دعوة الإسلام في الجزيرة العربية، فلا يجوز لأحد من هؤلاء الباحثين، أن يزعم أن الإسلام نسخة محرفة من المسيحية؛ إلا إذا اعتقد

أن نبي الإسلام قد أخذ من المسيحية كما عرفها في بيئته العربية، وفيما اتصل به من البيئات الأخرى حول جزيرة العرب. ومهما يكن من تطور العقائد المسيحية فيسائر البيئات ومختلف العصور، فالعقيدة المسيحية التي يجوز لصاحب المقارنة بين الأديان أن يجعلها قدوة للإسلام، إنما هي عقيدة المسيحيين في الجزيرة العربية وما حولها، وقد وصف جورج سيل مترجم القرآن إلى اللغة الإنجليزية حالة المسيحيين في الحجاز وفي سائر الأنحاء القريبة منه، فقال ما نقله من ترجمة مقدمته للقرآن:

(إنه من المحقق أن ما ألم بالكنيسة الشرقية من الاضطهاد واحتلال الأحوال في صدر المائة الثالثة للميلاد، قد اضطر كثيرين من أنصارها أن يلجأوا إلى بلاد العرب طلباً للحرية، وكان معظمهم يعاقبه، فلذا كان معظم نصارى العرب من هذه الفرقة. وأهم القبائل التي تتصرّت: حمير وغسان وربيعة وتغلب، وبهراء، وتتوخ، وبعض طيء، وقضاء، وأهل نجران، والحريرة.. ولما كانت النصرانية بهذه المثابة من الامتداد في بلاد العرب لزم عن ذلك ولا بد أنه كان للنصارى أساقفة في مواضع جمة، لتنظم بهم سياسة الكنائس، وقد تقدم ذكر أسقف ظفار، وقال بعضهم: كانت نجران مقام أسقف، وكان لليعاقبة أسقفاً؛ يدعى أحدهما: أسقف العرب بإطلاق اللفظ، وكان مقامه باكولة وهي الكوفة عند ابن العبري، أو بلدة أخرى بالقرب من بغداد عند أبي الفداء وثانيهما يدعى: أسقف العرب التغلبيين ومقامه بالحيرة. أما النساطرة فلم يكن لهم على هذين الكرسيين سوى أسقف واحد تحت رئاسة بطريركهم)

إلى أن يقول:

(أما الكنيسة الشرقية، فإنها أصبحت بعد انفصال المجمع النيقاوي مرتبكة بمناقشات لا تقاد تنقضي، وانتقض حلها بمحاكاة الأريوسيين والنساطرة واليعقوبية وغيرهم من أهل البدع. على أن الذي ثبت بعد البحث أن كلاماً من بدعتي النساطرة واليعقوبية، كانت بأن تدعى اختلافاً في التعبير عن المعتقد، أولى من أن تدعى اختلافاً في المعتقد نفسه، وبأن تدعى حجة يتغلب بها كل من المتظاهرين على الآخر، أولى من أن تدعى سبباً موجباً للنائم مجتمع عديدة، يتعدد إليها جماعة القساوسة والأساقفة، ويتماكلون، ليعلو كل واحد منهم كلمته، ويحلل القضايا إلى هواه. ثم إن نافذة الكلمة منهم وأصحاب المكانة في قصر الملك، كان كل واحد منهم يختص نفرًا من قواد الجيش. أو من أصحاب الخطب، يكون له عليهم الولاء ويتقوى بهم، وبذلك صارت المناصب تتالت بالرشى، و النصفة تتبع وتشترى جهاراً. أما الكنيسة الغربية فقد كان فيها من

تهالك دماسوس وأرسكينوس، في المشاجنة على منصة الأسقفية _ أي أسقفية روما _ ما أفضى إلى احتدام نار الفتنة، وسفاك الدماء بين حزبيهما. وكان أكثر ما تتشاء المناقشات من القياصرة أنفسهم، ولا سيما القيصر قسطنطينوس، فإنه إذ لم يقدر أن يميز بين صحيح الدين المسيحي وخرافات العجائز، رب الدين بكثير من المسائل الخلافية. هذا ما كان عليه حال النصرانية في غير بلاد العرب. أما في بلاد هذه الأمة التي هي موضوع بحثنا، فلم تكن خيراً من ذلك. فكان كفي نصارى العرب قوم يعتقدون أن النفس تموت مع الجسد وتنتشر معه في اليوم الآخر، وقيل إن أوربيجانوس هو الذي دس فيهم هذا المذهب، وكم وكم من بدعة انتشرت في جزيرة العرب حتى لا نقول نشأت فيها!! فمن ذلك بدعة كان أصحابها بألوهية العذراء مريم، ويعبدونها كأنما هي الله، ويقربون لها أقراصها مضفورة من الرقاق يقال لها: كليرس، وبها سمي أصحاب هذه البدع كليرين. وفضلاً عن ذلك، فقد اجتمع أيضاً في جزيرة العرب عدد وافر من الفرق المختلفة الأسماء، لجأوا إليها هرباً من اضطهاد القياصرة)

كانت عقائد الفرق المسيحية في جزيرة العرب، وفي العالم المترامي حول جزيرة العرب، على هذا النحو الذي وصفه رجل متغصب على الإسلام، لا يتهم بمحاباته، ولا يظن به أنه يتغافل على المسيحية وهو قادر على مداراتها، ومن الواضح البين أن عقائد الفرق المسيحية على ذلك النحو، لم تكن مما يغرى بالإعجاب، أو مما يدعو إلى الإقتداء. ومن الواضح البين أن موقف الإسلام، كان موقف المصحح المتمم، ولم يكن موقف الناقل المستعير بغير فهم ولا دراية. فقد جاء الإسلام بالدعوة إلى إله منزه عن لوثة الشرك، منزه عن جهالة العصبية وسلالة النسب، منزه عن التشبيه الذي تسرب من بقايا الوثنية إلى الأديان الكتابية.

"فَاللَّهُ الَّذِي يُؤْمِنُ بِالْمُسْلِمِينَ، إِلَهٌ وَاحِدٌ لَمْ يَكُنْ لَهُ شَرْكَاءُ، وَسَبَّحَنَهُ عَمَّا يَشْرَكُونَ" وما هو برب قبيلة ولا سلالة يؤثرها على سواها بغير مأثرة، ولكنه هو رب العالمين خلق الناس جميعاً ليتعارفوا ويتقاولوا بالتقوى، فلا فضل بينهم لعربي على أعجمي، ولا لقرشي على حبشي، إلا بالتقوى.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَّأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَّقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتَقَاءِكُمْ" الحجرات : 13

وهو واحد أحد: "لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ* وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ" الإخلاص : 3-4

لا يأخذ إنساناً بذنب إنسان، ولا يحاسب أمة خافت بجريرة أمة سافت، و لا يدين العالم كله بغير نذير.

"وَلَا تَزِرُّ وَازِرَةٌ وَزِرْ أَخْرَى" الزمر : 7

"إِنَّلِكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبَتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ" البقرة : 134

"وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا" الإسراء : 15

ودينه دين الرحمة والعدل، تفتتح كل سورة من كتابه باسم الله الرحمن الرحيم
"وَمَا رَبُّكَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ" فصلت : 46

"هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ" الحديد : 3

"وَسَعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا" الأنعام : 80

"وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ" يس : 79

وللباحث في مقارنات الأديان؛ أن يقول ما يشاء عن هذا الإله الواحد الأحد، رب العالمين، رب المشرقيين والمغاربيين، إلا أن يقول: إنه نسخ مستمد من عقائد عرب الجاهلية، أو عقائد الفرق الكتابية التي خالطة عقائد الجاهليين على النحو الذي وصفه جورج سيل في مقدمته لترجمة القرآن الكريم، فإن العقيدة الإلهية التي تستمد من تراث الجاهليين؛ لن تكون لها صبغة أغلب من صبغة العصبية، ولا مفخرة أظهر من مفاخر الأحساب، ولن تخلو من لوثة الشرك، ولا من عقابيل العبادات التي امتلأت بالخائث، وحلت فيها الرقى والتعاويذ محل الشعائر والصلوات.

ومعجزة المعجزات؛ أن الإسلام لم يكن كذلك، بل كان نقىض ذلك في صراحة حاسمة جازمة، لا تأذن بالهواة ولا بالمساومة، فما من خلة كانت أبغض إليه من خلة العصبية الجاهلية، والمفاحرة الجاهلية، والتحارج الجاهلي على فوارق الأنساب والأحزاب.

فمن صميم بلاد العصبية خرج الدين الذي ينكر العصبية.
ومن جوف بلاد القبائل والعشائر، خرج الدين الذي يدعوا إلى الله واحد رب العالمين. ورب المشرق والمغرب، ورب الأمم الإنسانية جماء، بغير فارق بينها؛ غير فارق الصلاح والإيمان.

على أن الباحثين الذين يصطنعون سمت العلم من علماء المقارنة بين الأديان في الغرب يطلقون نعوتهم على الإسلام سمعاً _ فيما يظهر _ من مقرراتهم أو من مكرراتهم التقليدية التي لا يبدو منها أنهم كلفوا عقولهم جداً وقحاً، أن نلم إلماً واحدة بهذا الدين في جملة أو تفصيل.

ففي كتاب من أحدث الكتب عن أديان بني الإنسان، ألفه أستاذ للفلسفة في جامعة كبيرة، يقول المؤلف المتخصص لهذه الدراسات _ بعد الإشارة إلى السيف والعنف والاقتباس من النصرانية والصائبية والمجوسية _ :
(إن محمداً أسبغ على الله _ ربه _ ثوباً من الخلق العربي، والشخصية العربية ...)

ويقول المؤلف:

(إن الحقيقة التي أقررها هنا، تتجلى للباحث كلما تقدم في دراسة هذا الدين العربي وهذه الشخصية الإلهية العربية)

بهذا النعت التقليدي ينعت المؤلف إله الإسلام، بعد أن تقدم في دراسته على حد قوله. فماذا كان عساه قائلاً لو أنه لم يسمع باسم الإسلام إلا على الإشاعة من بعيد؟!

لعله لم يكن بحاجة إلى التقدم وراء البسملة في سورة الفاتحة: ليعلم أن المسلم يدين برب العالمين، وأنه يصف ربه بالرحمة مرتين عند الابتداء بكل سورة من سور كتابه.

ولعله كان يحسن المقارنة جداً، وحقاً، لو أنه قنع بهذه الصفة من صفات إله الإسلام، وقارن بينهما وبين دين الصفات التي يختارها غير المسلمين، فلا يذكرون الله في مفتاح دعواتهم بغير صفة القوة والجبروت.

فإله رب العالمين، مالك يوم الدين، لم يكن نسخة محرفة من صورة الله في عقيدة من العقائد الكتابية _ كما زعموا _ بل كان هو الأصل الذي يثوب إليه من ينحرف عن العقيدة في الإله، كأكمل ما كانت عليه، وكأكمل ما ينبغي أن يكون.

ومن ثم كانت هذه العقيدة الإلهية في الإسلام، مصححة متممة لكل عقيدة سبقتها في مذاهب الديانات، أو مذاهب الفلسفة ومباحث الربوبية.

فهي عقيدة كاملة، صحت وتممت عقيدة الهند في الكارما والنرفانا؛ لأنها عقيدة في خواء، أو فناء مسلوب الذات لا تجاوب بينه وبين أبناء الحياة.

وهي عقيدة كاملة، صحت وتممت عقيدة المعلم الأول بين فلاسفة الغرب الأقدمين؛ لأنه كان على خطأ: في فهم التجريد والتنتزه، ساقه هذا الخطأ إلى القول بكمال مطلق كالعدم المطلق في التجرد من العمل، والتجرد من الإرادة.

ودين يصحح العقائد الإلهية، ويتممها فيما سبقه من ديانات الأمم وحضاراتها ومذاهب فلاسفتها؛ تراه من أين أتى، ومن أي رسول كان مبعثه ومداعاه؟
من صحراء العرب.

ومن الرسول الأمي بين الرسل المبعوثين بالكتب والعبادات.
إن لم يكن هذا وحيا من الله، فكيف يكون الوحي من الله؟!

ليكن كيف كان في أخلاق المؤمنين بالوحي الإلهي حيث كان، فما يهدى رجل أمي في أكنااف الصحراء إلى الإيمان بالله، أكمل من كل إيمان تقدم، إلا أن يكون ذلك وحيا من الله. وإنه لحجر

على البصائر والعقول، أن تذكر الوحي على هذه المعجزة العليا؛ لأنه لا يصدق عليها في صورة من صور الحدس أو الخيال. انتهى كلام العقاد.

وبعد: فمن العجيب الغريب المضحك المبكي، أن نضطر لمقارنة عقيدة الإسلام في باب الربوبية، مع سخافات البشر في هذا الباب!!

أليس عجيباً أن نقارن ديانة فيها مثل هذا النص:
قال تعالى: "وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَفْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمْدُدُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ" لقمان : 27

بداية تقول عن الله: بأنه يجامع، أو يصارع خلقه، ويقادون يغلبونه، أو أن له ولدا، أي وزوجة.
مثل هذا الكلام التافه يمكن أن يقارن به ذلك الكلام العظيم؟!

إن أي نص عن الذات الإلهية في القرآن تدرسه، بذلك على أن هذا النص لا يمكن أن يكون إلا من عند الله ذاته، كلاماً ووحياً.

ولكن ما العمل إذا ألف الناس العمى لدرجة أنهم لا يحبون معه الإبصار؟!
لقد درسنا ظواهر الكون، فدللتنا على صفات الله، فلما عدنا إلى كتاب الله ازداد الفهم عملاً، وأدركنا من أبعاد الموضوع أكثر، ولا شك أنه لو لا أننا مسلمون، قد استقرت في أذهاننا معرفة الله كأكثر عن الوحي، ما سرنا في هذا البحث على مثل هذا السير. فدين يأخذ بيد العقل على هدى العلم؛ ليديله على أن يربط الفروع بأصولها، ويرجع بالأصول إلى مصدرها حين لا يمكن أن يكون إلا حقاً.

إن هناك ناساً لا يسمعون ولا يعقلون ولا يفكرون، عقائدهم سخيفة، فإذا ما دعوا إلى مثل هذا الصفاء، وإلى مثل هذا المنطق الحكيم، رفضوه لأنهم درجوه على عقيدة خاطئة، وألقوها دون أن يكلفو أنفسهم عناء البحث، فهو لاء كما قال الله عنهم "إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ" الزخرف : 22. كل أصحاب عقيدة باطلة يقولون هذا: أما ينبغي لهؤلاء أن يعيدوا

النظر؟ فالقضية ليس قضية خيار؛ وإنما هي قضية مصير الإنسان: إما إلى جنة، أو إلى نار سحرهم أبداً، إن لم يهتدوا.

إن الوثنيين والمشبهين، والذين يعطون صفات الله لخلقه. إن الذين لم يعرفوا صفات الله العليا، وأسماءه الحسنى، ووجوده الكامل، وهيمنته الدائمة، وإمداده العظيم، وتدبیره لشؤون خلقه ابتداء وانتهاء. إن الذين لا يرون آيات الله في كل ما خلق. هؤلاء كلهم لا يعرفون الله. إننا نحن المسلمين فقط نعرف الله حق المعرفة، وننرّه حق التنزيل، ونعبد حق العبادة، ومن قرأ الكتابين اللاحقين من هذه السلسلة الرسول، الإسلام سيرى حقاً عجباً، لا يمكن أن يكون، لو لا أن الله عز وجل، هو الذي أوحى، ويسّر، وأراد ما أراد لهذا الرسول صلى الله عليه وسلم وبهذا الدين.

**وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهِ
تَمَّ جَمْدُ اللهِ**